﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾

تفسير

قَبَسٌ مِنَ القُرْآن

الجزء الثالث

من الآية ٥٠ من سورة يوسف إلى آخر سورة فاطر

تأليف

آية الله العظمى

سيد أبو الفضل بن الرضا البُرقَعِيّ القُمِّيّ

تعريب وحواشي

الدكتور سعد رستم

عنوان الكتاب بالفارسية

تفسير تابشى از قرآن

عنوان الكتاب باللغة العربية

تفسير قبس من القرآن

من الآية ٥٠ من سورة يوسف إلى آخر سورة فاطر

تأليف

آية الله العظمى العلامة

سيد أبو الفضل بن الرضا البُرقَعِيّ القُمِي

(١٣٣٠هـ-١٤١٤هـ.ق) الموافق (١٩٠٨-١٩٩٢ م)

www.borqei.com

ترجمة وتحقيق

د. سعد رستم

دار العقيدة

www.aqideh.com

الطبعة الأولى

١٤٣٨هـ/ ٢٠١٦م

الإشراف والإعداد

مجموعة الموحدين

www.mowahedin.com

contact@mowahedin.com

ح سيد أبو الفضل الرضا القمي، ١٤٣٨هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القمي، سيد أبوالفضل الرضا

تفسير قبس القرآن. / سيد أبوالفضل القمي؛ سعد رستم- الرياض، ١٤٣٨هـ

١٦,٥ × ٢٤سم

ردمك: ٣-٣٠٧٢-٠٢-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

٤-٣٠٧٥-٠٢-٦٠٣-٩٧٨ (ج٣)

١. القرآن - تفسير أ.رستم، سعد (محقق) ب.العنوان

ديوي: ٢٢٧ ١٤٣٨/١٥٨٤

جميع الحقوق الفكرية والطباعية محفوظة

جميع الحقوق محفوظة، ولا يسمح الإفادة من هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ (فوتوكوبي)، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من المؤلف.

توزيع شركة

مكتبة العبيكان

المملكة العربية السعودية - الرياض - المحمدية

طريق الأمير تركي بن عبدالعزيز الأول

هاتف: 4808654 - فاكس: 4889023

هاتف مجاني: 920020207

ص.ب: 62807 الرياض 11595

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس

الفهرس ١

تابع سورة يوسف ٥

اتّضاح الحقّ في الـمحكمة ٩

استخلاص القرآن الدروسَ وَالعِبَر ١٤

فائدة أخرى بيَّنها القرآن ١٥

ما لا يخلو ذِكره من أهمية ١٦

دين الحقّ يُوافق حياة الناس ١٧

مجيء إخوة يوسف لشراء الحبوب ١٩

تعرُّض إخوة يوسف للغربة ٣٢

التفتيش الـماهر كان من خطَّة يوسف ٣٤

شهامة يوسف ٣٥

عذر غير مقبول ٣٦

جواز الصدقة على أولاد الأَنْبياء ٤٥

انطلاق القافلة السعيدة نحو مصر ٥٨

سورة الرعد ٧٢

سورة إبراهيم ٩٦

سورة الحِجْر ١١٠

سورة النحل ١٢٤

سورة الإسراء ١٥٦

سورة الكهف ١٧٨

قصة أصحاب الكهف ١٨٢

بحث تحقيقي ١٨٨

سورة مريم ٢١٧

سورة طه ٢٣٣

قصة عجوز بني إسرائيل ٢٤٥

سورة الأنبياء ٢٥٦

سورة الحج ٢٧٤

سورة المؤمنون ٢٩٥

سورة النور ٣٠٩

سورة الفرقان ٣٣٧

سورة الشعراء ٣٥٨

مفاسد أشعار الشعراء ٣٧٧

سورة النمل ٣٨٥

سورة القصص ٤١٢

سورة العنكبوت ٤٣٣

سورة الروم ٤٤٧

سورة لقمان ٤٦١

سورة السجدة ٤٧١
سورة الأحزاب ٤٧٦
سورة سبأ ٥١٣
سورة فاطر ٥٢٦

تابع سورة يوسف

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ۝٥٠ قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٥١ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ۝٥٢ ۞وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥٣﴾ [يوسف: ٥٠-٥٣]

الفوائد: لما سمع الـملك تفسير يوسف ﷺ لرؤياه وبيانه لطريقة تجنُّب القحط والـمجاعة، أُصيب بالدهشة وأدرك عظمة يوسف من خلال حديثه القصير الذي أدلى به، واعتبر أن وجودَ يوسف ضروريٌّ لحفظ البلد، وأنه أكثر أهليّةً وجدارةً من الكهنة والسحرة، وأنه لا بدّ من الاستفادة من معلوماته. فأعطى أوامره على الفور أن يُحْضِروا هذا السجين إليه.

لم يكن فِرعون قادرًا على أن يصرف النظر عن لقاء يوسف بعد أن رأى أن هذا السجين الـمجهول الذي ليس من مرتزقة القصر، حلّ له مشكلةً هامّةً من مشاكل بلده دون أن ينتظر أيّ مكافأة من أحد. ولكن لم يكن من الـمناسب لمقام الـمُلك أن يذهب الـمَلِكُ بنفسه إلى زيارته في السجن. لذلك أرسل الـمَلِكُ إلى يوسف رسالةً كريمةً ووُدِّيَّةً بواسطة مُمثِّله الخاصّ ودعاه إلى الحضور للقصر للقاء الـمَلِكِ.

التقى مبعوث فِرعون بوجهٍ تعلوه أمارات السرور بيوسف وأعلن له شوق الـمَلِكِ إليه، وأن

الـمَلِكَ أمره أن يُبلِّغ محبَّته ليوسف وأن يصطحبه إليه.

إفصاحُ الـمَلِكِ عن محبَّته لشخص ما يؤدي، بالطبع، إلى سعادة هذا الشخص وسروره البالغ. يسعى الناس العاديون بشتَّى الطرق والوسائل إلى الاقتراب من أصحاب الـمقامات الرفيعة في الدولة، ويرون في مثل هذه الأمور افتخارًا كبيرًا، ويحرصون عليها كل الحرص.

لكنَّ يوسفَ عليه السلام ذا النفس الكبيرة والفِكر السامي، شكر - بنحوٍ عاديٍّ بعيدٍ عن الحماس- رسالةَ فِرعون ورغبته بلقائه، وامتنع عن الذهاب إليه. ومهما أصرَّ مبعوث الـمَلِكِ الخاص وسائر السجناء على يوسف أن يخرج ويذهب للقاء الـمَلِكِ لم يُجدِ ذلك معه نفعًا.

كان يوسف عليه السلام بعيدَ النظر سامي الفكر. وامتناعه عن لقاء الـمَلِكِ قبل أن تثبت براءته رَفَعَ مكانَتَهُ عاليًا بين السجناء، وتضاعف احترامهم له. صحيح أنه كان سجينًا بريئًا حُبس ظُلمًا وأنه يُحبُّ الخلاص من السجن لكنَّه كان أكثر حُبًّا لشرفه وكرامته وسمعته.

لقد بقي يوسف عليه السلام عدَّة سنوات في السجن وهو بريءٌ اعتُبِر شخصًا مُتَّهمًا، وهو الآن لا يُريد أن يخرج من السجن قبل أن يُرفع عنه ذلك الاتهام وتتضح عِفَّته وبراءته. إنه لا يُحبُّ أن يلتقي بالـملك وبعلماء البلاط بوجهِ الـمُتَّهَم، بل يُريد أن يُوضِّح للملك وأفراد الشعب ذوي الضمير الحيّ أنه دخل السجن بجُرم عِفَّته وطهارته، وأنه خرج منه بعد ثبوت براءته مرفوع الرأس وأكثر احترامًا من قبل، ليلتقي بالـملك بوجه البريء الطاهر.

علاوةً على ذلك أراد يوسف أن يُفهم فِرعون أن في بلده تُداس حقوق الأفراد وأن عُمَّال حكومته يُرسلون الناس إلى السجن حسب أهوائهم ورغباتهم لا بل حسب أهواء نسائهم فيقتلون العدالة ويستبيحون الظلم والجوْر بحقّ الناس. أراد أن يُفهمه أن الأبرياءَ يُسْجَنون في مملكته، والـمُجرمين يسرحون ويمرحون في القصور!.

لهذا السبب قال يوسف لمبعوث الـمَلِكِ: لن أخرج من السجن قبل أن تتضح حقيقة الأمر الذي لأجله سُجنت. إن كان فِرعون يُحبُّني ويُحبُّ لقائي فليبحث وليستجوب النِّسوة اللاتي قطَّعْنَ أيديَهنَّ في تلك الجلسة الصاخبة ليكتشف حقيقة الحادثة ويطلع على حقيقة ما فعلت:

﴿قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾.

لم يُذكر في القرآن أن يوسف أتى على زوجة العزيز بِذِكْرٍ أو شَكَاها، رُغم أنها كانت هي سبب الفتنة ومصدر الفساد وأصله. رُبَّما يكون يوسف عليه السلام قد عمل هنا أيضًا بشهامته ورجولته ولم يُرِدْ أن يكشف أيّ شيء يُسبِّب لسيِّده الفضيحة.

أدرك فِرعون أن سببَ سجن هذا العالِم قضيَّةٌ غراميَّةٌ. فبدأ بالتحقيق في القضيَّة وأمر بتشكيل محكمة، وأحضر النِّسوة المصريات، خاصَّةً تلكَ المرأةَ التي كانت السبب وراء كل تلك القضايا.

رأت زوجة العزيز أنها سجنت يوسف لإخماد الضجة التي أثيرت حولها وإنهاء القيل والقال، فإذا بالأمر يزداد سوءًا! حتى الملك اطلع على الأمر ووصلت قصتها إلى أعلى المسؤولين في البلد. انزعجت كثيرًا ولكن لم يكن أمامها أي مخرج. وها هي الآن قد أُحضرت إلى المحكمة للمحاكمة فتملَّكها الخوف؛ لأن أكبر مقام في البلد قد قرَّر كشف حقيقة القضية. تساءلت في نفسها: يا تُرى لو اكتشف فِرعون حقيقة الأمر أيُّ إجراء سيتخذه بحقِّها؟ وهل سيخسر زوجها منصبه ويسقط من العلياء إلى الحضيض؟

لا شك أن عزيز مصر كان منزعجًا طول ساعات المحاكمة، ولم يكن باستطاعته صرف الملك عن هذا الأمر.

ولا ندري هل حضر المَلِكُ نفسه جلسات المحاكمة أم أنه أوصى أعلى المسؤولين في بلده بإجرائها؟ يقصُّ القرآنُ علينا أنَّ المَلِكَ قال: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾؟. الأمر المؤكد أن يوسف عليه السلام كان غائبًا عن تلك الجلسات وأن تلك المحاكمة لو انتهت لصالحه فإن براءته وطهارته ستُصبح أمرًا مُسلَّمًا به.

تمَّ استجواب النِّسوة واحدةً واحدةً، أو بنحو جماعيّ، وأجاب النِّسوة جوابًا واحدًا مُتطابقًا -إما خوفًا من فِرعون أو خوفًا من ظهور شخص آخر يُبيّن حقيقة الأمر- فقلنَ: لم نجد في يوسف أيّ ذنب أو تقصير، بل كان مثالاً للتقوى والطهارة والعِفَّة، ونحن اللواتي شُغِفَتْ قلوبنا

به ورأيناه وكأنه مَلَكٌ من السماء. ولعلّ إقرارهنّ هذا كان سببه أنهنَّ لا زلنَ عاشقات له وغير راغبات بإيقاع أذى به. هنا اضطرَّت امرأةُ العزيز إلى الإقرار بذنبها وقالت: الذنبُ ذنبي ويوسف عليه السلام طاهرٌ وبريءٌ: ﴿أَنَاْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾. ربما كان مبعث هذا الإقرار حُبُّها ليوسف الذي لا يزال كامنًا في قلبها، لأن صورته الـملكوتية الجميلة لم تُمحَ من خاطرها، وذكرت لإقرارها بالحقّ سببين:

الأول: أن يعلم يوسف أنّي أُحبُّه وأنني لم أخنه بالغيب بل شهدتُ بطهارته وبراءته، وقالت: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ﴾. ولعلها أرادت إثارة عاطفة يوسف حتى لا يُطالب بِعِقَابها.

الثاني: أن الخائنين لا يَصِلُون إلى مُبتغاهم، فقد أردتُ أن أُغطِّي على جنايتي فسجنتُ يوسف. لكني أرى الآن أنني لم أستفد من خيانتي بل هذه الخيانة ذاتها سببت افتضاح أمري. وظهر على الـملأ ما كنت أُريد إخفاءَه، لذا أُقِرُّ بكل ذُلٍّ وانكسار: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾.

هنا قالت زليخا: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾، وهدفت من وراء هذا الإقرار إلى التعويض عن هزيمتها والتقليل من ضيق الـمَلِكِ والآخرين بها والتأثير على روح القاضي لعلّه ينصرف عن الأمر بمعاقبتها.

إذن يَتَبَيَّنُ مما ذكرناه أن جملة ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ﴾ حتى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ...﴾ هي كلام زليخا لا كلام يوسف، لأن هذا ما يُسْتَفَادُ مِنْ سياق الآية، لاسيما أن يوسف عليه السلام لم يكن حاضرًا في تلك الجلسة حتى يُصرِّح بمثل هذا التصريح. أضف إلى ذلك، ما الداعي أن يقول يوسف عليه السلام مثل هذه الكلمات؟ لماذا يقول: ﴿لَمۡ أَخُنۡهُ...﴾؟ إنه لم يكن بحاجة لمثل هذا الكلام لأن العزيز يعلم أن يوسف عليه السلام ليس بخائن. ولماذا يقول يوسف: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ فهو لم يخن أحدًا ولم يتَّهم أحدًا بالخيانة.

علاوةً على ذلك فقد جاءت تلك الجمل مباشرةً بعد إقرار السيدة قائلةً: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَاْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ...﴾ فبقيةُ الكلام كلامُها، ولا علاقة ليوسف عليه السلام به وليس من

كلامه. كما أن يوسف ﷺ لم يكن حاضرًا هناك حتى يقول مثل هذا الكلام.

ولذلك فإننا نعجب من المُفسِّرين الذين نسبوا تلك الجمل إلى يوسف، ولعلهم اعتمدوا على بعض الروايات، ونرى أن هذه الروايات تتعارض مع القرآن.

إضافةً إلى ذلك فإن يوسف ﷺ طلب تبرئة نفسه وهو في السجن، فلا يُمكن أن يأتي بعد ذلك ليُثبت على نفسه الذنب ويقول: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾!

اتّضاح الحقّ في المحكمة

ثبتت براءة يوسف وطهارته للجميع في جلسة المحكمة، وعلم الملك أيَّ إجرام يرتكبه ساكنو القصور في بلده؟ وأيَّ أطهار مظلومين يذهبون إلى السجن! فازدادت محبّة المَلِكِ ليوسف واشتاق أكثر للقائه. وأعطى أمرًا مؤكدًا للمجيء بيوسف للقائه. إضافةً إلى ذلك فقد انتبه يوسف ﷺ إلى أن شرط الدخول إلى المناصب والتصدّي لمهام الدولة العليا حُسن السوابق، وأنه لو كان مُتَّهمًا في أمانته ونزاهته لم يستطع أن يتصدى لإدارة أمور البلاد.

لما ثبتت براءة يوسف شُغف المَلِكُ بلقائه أكثر من ذي قبل وقال:

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [يوسف: ٥٤-٥٧]

الفوائد: بعد أن طلب المَلِكُ الإتيان بيوسف ﷺ للقائه وامتنع يوسف عن ذلك خلافًا لما يقوم به الناس العاديون عادةً الذين يفتخرون بلقاء المَلِكِ، أدرك الملك -بعد التحقيق التام في الموضوع- عدة أمور:

١- فهم أن يوسف ليس كباقي الناس العاديين الذين يعدُّون لقاءهم المَلِكَ فخرًا عظيمًا لهم، وليس كالآخرين الذين يحرصون على مثل هذا اللقاء أشدَّ الحرص، ويسارعون للخروج من السجن ليقدموا للملك المدائح والثناء والتملق. عرف المَلِكُ أن عالِمَ السجن

شخصٌ ذو نفس كبيرة وفِكر سام.

٢-أدرك الـمَلِكُ أن يوسف يهتم قبل أيّ شيء آخر بشرفه وسمعته واعتباره الاجتماعي إلى درجة أنه لم يكن مُستعدًا للخروج من السجن إلا بعد ثبوت براءته وطهارته.

٣-أدرك الـمَلِكُ رُشد يوسف العقليّ الذي يعرف كيف يغتنم الفُرص وينال أفضل نتيجة من محبة الـملك له.

٤-علم أن يوسف رجلٌ مجاهدٌ وخَيِّرٌ وصالحٌ، لأنه لم يمتنع أثناء فترة سجنه من نشر العلم والإرشاد والإجابة عن الـمسائل الـمعضلة، وأنه نال محبةً تامةً بين السجناء كما بيَّن له ذلك الساقي الذي سُجِنَ مع يوسف سابقًا.

٥-أدرك الـمَلِكُ أنه رُغم أن يوسف كان في عنفوان شبابه وأوج شهوته، ورغم جماله التام، لم يقع في أصعب الـمزلات حتى في خلوة قصر العزيز، وذلك بإرادته العقلية ومنطقه القوي اللذين أيأسا أصحاب الهوس الـمنغمسين في أهوائهم ورغباتهم.

تحقَّقت للمَلِكِ قوَّة إيمان يوسف وطهارته بملاحظة كلّ تلك النقاط. لذلك رُغم أن الـملوك عادةً لا يُحِبُّون أحدًا من قَلْبِهِم، أحبَّ الـمَلِكُ يوسفَ محبّةً شديدةً وقرَّر بعد لقائه به أن يجعله مستشاره الخاص وموضع أسراره وأن يستفيد من علمه وحكمته وفكره العالي في حلّ الـمسائل الـمعضلة في أوقات الأزمات، ولذلك أرسل ممثله الخاص للقاء يوسف عليه السلام ودعاه إليه. ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾.

جاء ممثِّلُ الـمَلِكِ الخاص إلى يوسف وقصّ عليه أمر الـمحاكمة وثبوت طهارته وشوق الـمَلِكِ إلى لقائه وقال: أُمِرْتُ أن أصطحبك إليه.

بعد أن شعر يوسف عليه السلام أنه قد وَجَدَ مقامًا خاصًا ومنزلةً لدى الـمَلِكِ ورجال بلاطه وعلماء تفسير الأحلام، رأى أن الـمصلحة تقتضي أن يخرج من السجن ويلتقي بالـمَلِكِ، لعله يستطيع أن يقوم بأعمال مهمة في خدمة الناس.

حزن السجناء عندما علموا بإطلاق سراح يوسف عليه السلام من السجن ومفارقته لهم واجتمعوا

حوله لحظة خروجه ليُوَدِّعوه. قام ابن يعقوب -كما كانت عادته- بطمأنتهم وتقوية معنوياتهم ووعد بمُساعدتهم على التحرُّر من السجن.

ذهب يوسف عليه السلام برفقة مبعوث الـمَلِكِ الخاصِّ واتجها إلى قصر الـمَلِكِ.

«خرج يوسف عليه السلام ودعا لأهل السجن بدعوةٍ تُعْرَفُ إلى اليوم وذلك أنّه قال: **اللهم اعطف عليهم قلوب الأخيار ولا تَغُمَّ عليهم الأخبار**، فهم أعلم الناس بالأخبار في كلّ بلدة، فلمّا خرج من السجن كتب على باب السجن: **هذا قبر الأحياء وبيت الأحزان وتجربة الأصدقاء وشماتة الأعداء**.

ثمّ اغتسل يوسف عليه السلام وتنظّف من قذر السجن، ولبس ثيابًا جددًا حسانًا، وقصدَ الـمَلِكَ»[1].

لما أرادوا تشييع يوسف نحو القصر أمر الـمَلِكُ بإضاءة الـمصابيح في الـمدينة وبمد البُسط في الطرق وبضرب الستائر على الجدران وأرسل الفتيات الحسناوات حاملات مُجمَّراتِ حرقِ أعوادِ البخورِ، وأمر أن يستقبله جميع جنود مصر، وأن تُخلع على قامته الجميلة الخِلعة الـملكية.

اغتسل يوسف عليه السلام واستبدل ألبسته ووقف عند باب السجن وقال: لن أخرج حتى يتم إطلاق سراح جميع الـمساجين، فأمر الـمَلِكُ بإطلاق سراحهم جميعًا.

كان الـمَلِكُ يعد الدقائق للقاء هذا القمر الكنعانيّ والعالـم الربانيّ كي يطَّلع أكثر على روحانيته ومعنوياته. وكان يوسف الحكيم يميل أيضًا للقاء الـملك.

تقرَّر إذن أن يلتقي شخصان عظيمان، إلا أن يوسف، بما أوتيه من نفسٍ كبيرةٍ وروحٍ عظيمة تُحلِّق في العلياء، لم يتبدل وضعه النفسي والروحي ولم يُقدم على التملُّق والتذلُّل للملك، كما يفعل سائر الناس عادةً.

١- استفاد الـمؤلف هذا العرض مما جاء في تفسير: **الكشف والبيان** في تفسير القرآن، للثعلبي النيسابوري (ت ٤٢٧هـ)، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م، [١٠ أجزاء]، ج ٥/ ص ٢٣٠.

لم يذكر القرآن أن يوسف عليه السلام أظهر رغبته وأمنيته بلقاء الـمَلِكِ، لكنه ذكر مرتين رغبة الـمَلِكِ بلقاء يوسف عليه السلام.

دخل يوسف عليه السلام القصر وعمره ثلاثون عامًا تقريبًا وكان شابًا يتمتَّع بالحُسن والـملاحة والعظمة. لما وصل إلى الـمَلِكِ تعانقا وأجلسه الـمَلِكُ على سريره.

من البديهي أن الـمَلِكَ هو الذي بدأ بسؤال يوسف عن قصته وما جرى عليه، فعرَّف يوسف بنفسه بكل وقار وببيان واضح بسيط وشرح للملك ما مرَّ عليه من عقبات منذ طفولته.

عندما سمع الـمَلِكُ قصته الـمُحيِّرة ورأى لهجته القاطعة وصدقه وصفاءه انجذب إليه انجذابًا تامًّا، وأدرك روحه الكبيرة، خاصةً عندما سمع حرصَه على الطهارة والشرف في جميع مراحل حياته، لذا قال له: لقد مضى عهد الـمصاعب ونحن نؤمن بك وسنُعطيك أيّ منصبٍ ترغب فيه، وسيكون في وجودك في الحكومة سعادةٌ كبيرةٌ لنا ولشعب مصر. وقال: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾. لقد عانى الـمَلِكُ من خيانة معظم عمال حكومته وأدرك قيمة وجود يوسف عليه السلام الآن وقدَّره.

علم الـمَلِكُ حقيقة أصحاب الـمناصب الحكومية العالية مثل العزيز، وأدرك أيَّ ثمن باهظ كلَّفته خيانتهم للبلاد. لقد أصبح عمال الدولة الذين ينبغي أن يكونوا خادمي الشعب خوَنَةً له، وأصبح الـملح الذي يُستخدم لمنع فساد الأطعمة فاسدًا ذاته.

تعجَّب الـمَلِكُ من حداثة سنِّ يوسف عليه السلام وسُمُوّ نفسه ورأى أنه حصل على جوهرة ثمينة. ولما بدأ يتكلم مع يوسف سُرَّ للغاية من بياناته الجميلة وكلامه الرائع الـمُحبَّب، «وقال: إني أحب أن أسمع رؤياي منك شفاهًا. فقال يوسف عليه السلام: نعم. أيها الـمَلِكُ! رأيتَ سبع بقرات سمان شُهْبٍ حِسَانٍ غيرِ عجاف كَشَفَ لك عنهن نهرُ النيل فطلعن عليك من شاطئه تشخَب أخلافهن لبنًا[1]، فبينما أنت كذلك تنظر إليهن وقد أعجبك حسنهن إذ نضب النيل فغار ماؤه وبدا يبسًا، فخرج من حمأته ووحله سبع بقرات عجاف شُعث غُبر مقلّصات البطون، ليس لهُنّ ضروعٌ ولا

١ - أي ينسكب اللبن من ضروعهن.

أخلاف، ولهنّ أنياب وأضراس وأكفّ كأكف الكلاب[١] وخراطيم كخراطيم السباع، فاختلطن بالسِّمان فافترسنهنّ افتراس السبع، فأكلن لحومهنّ ومزّقنَ جلودهنّ وحطّمن عظامهنّ.

فبينا أنت تنظر وتتعجّب وإذا بسبعِ سنابلَ خضرٍ وسبعٍ أُخَرَ سود في مَنْبَتٍ واحد عروقهنّ في الثَّرى والماء، فبينا أنتَ تقول في نفسك: أنّى هذا؟ هؤلاء خضر مثمرات وهؤلاء سودٌ يابساتٌ والمنبَت واحد، وأصولهنّ في الماء إذ هبّت ريح فذرّت الأوراق من اليابسات السود على الخضر المثمرات فاشتعلت فيهنّ النار فأحرقتهنّ وصرنَ سودًا متغيّرات. فهذا آخر ما رأيت من الدنيا ثمّ انتبهت من نومك مذعورًا.

فقال المَلِكُ: والله ما شأن هذه الرؤيا - وإن كانت عجبًا - بأعجب ممّا سمعته منك، فما ترى في رؤياي أيّها الصدّيق؟ فقال يوسف: أرى أن تجمع الطعام، وتزرع الزرع الكثير في هذه السنين المخصبة وتبني (الأهواء) والخزائن، فتجعل الطعام فيها بِقَصَبِهِ وسنبله ليكون أبقى له، وليكون قصبه وسنبله علفًا للدواب، وتأمر الناس فيرفعون من طعامهم الخُمس، فيكفيك من الطعام الذي جمعته لأهل مصر ومن حولها، وتأتيك الخلق من النواحي يمتارون منك، ويجتمع عندك من الكنوز ما لم يجتمع لأحد قبلك»[٢].

في الواقع اقترح يوسف عليه السلام على المِلك تجارةً عظيمةً لدولة مصر.

عَرَضَ المَلِكُ على يوسف عليه السلام أن يُسلِّمَهُ أيَّ منصبٍ يُريدُه وقال: إن بلاد مصر بحاجة لوجودك ولا يُمكنني أن أصرف النظر عن عملك معنا وعن الاستفادة من عقلك وتدبيرك.

لم يجد يوسف الحكيم عليه السلام سببًا يمنعه من قبول منصب حكوميّ لدى المَلِكِ. صحيح أنه لم يسعَ إلى هذا المنصب ولم يتشبَّثْ به، لكن مُجريات الحوادث هي التي ساقته إلى بلاط المَلِكِ وجعلته محبوبًا مِنْ قِبَله إلى هذا الحدّ. لذلك قَبِلَ باستلام منصب وزارة المالية أو منصب أمين

١- أي براثن كبراثن الكلاب.

٢- مستفاد من تفسير **الكشف والبيان** للثعلبي النيسابوري، ج ٥/ ص ٢٣١. وكتاب **قصص الأنبياء** وَيُعْرَفُ **بالعرائس** أو بعرائس المجالس في قصص الأنبياء للثعلبي النيسابوري أيضًا، ص ١٤٠ - ١٤١.

الخزينة العامة كي يُفيد الناس من علمه وحُسن تدبيره، أو يستطيع من خلال مقامه ومنصبه هذا أن ينشر التوحيد وعبادة الله وحده. وكان يعلم أن سنوات القحط السبع ستأتي وأنه لا بدّ للشعب من شخص يُحسن بحكمته تدبير الأمور ويُنقذ الشعب من المجاعة، وأنه بهذا المنصب يُمكنه أن يقطع أيدي المأمورين الخونة المرتشين وأن يُحافظ على الغلّات، ولذلك قال: ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ٥٥﴾.

ويظهر من جملة: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ أن مَلِكَ مصرَ منح يوسف عليه السلام لقب العزيز وعزل زوج زليخا من ذلك المقام. كما يتبيّن من جملة: ﴿إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾ وإطلاقها، أن المَلِكَ عهد إلى يوسف بمنصب رئاسة الوزراء والوزير المستشار أيضًا. وأن يوسف بقبوله لهذا المنصب أعاد إلى مصر مكانتها من جديد بعدما ذهب الآخرون بِهَا. ولم ترَ مصر حتى ذلك الوقت شخصيةً مثل شخصية يوسف.

وهكذا وبعد أن أمضى يوسف عليه السلام سنوات من الألم والعذاب والحوادث المرَّة وصل إلى أعلى المقامات الحساسة في حكم مصر. ومن البديهي أنه أصبح محبوبًا لدى جميع أركان الدولة والشعب بفضل صحة عمله وتدابيره المُفيدة للناس، وكلما مضت مدَّة على خدمته ازدادت شعبيته ومحبته في قلوب الناس بفضل أخلاقه الحسنة. وصدق قول الشاعر (بيت شعر بالفارسية):

الصبرُ والظَّفَرُ صديقان قديمان إذا جاء الصبر أتى على إِثْرِهِ دور الظفر

استخلاص القرآن الدروسَ وَالعِبَر

منهج القرآن أنه عندما يصل في القصة إلى موضع حساس يستخلص لنا منها الدروس والعِبر. ويكون هذا في المواضع التي فيها دروس تربوية، فيرشد القرآنُ فِكرَ القارئ والسامع ويلفت نظره إلى أمور وحقائق هامة:

هنا بعد أن ذكر القرآن قصَّة طفولة يوسف عليه السلام ورميه في البئر وسجنه ثم وصوله إلى هذا المقام الرفيع قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ﴾، يعني أنه لو

لم يُحسَد يوسف ﷺ ولم يصبر على بلاء الله في البئر والسجن ولم يُحافظ على عِفَّته ونزاهته ابتغاء وجه الله لما أوصلناه إلى مثل هذا المقام العالي، فلُطفنا كان مُحيطًا به دائمًا ومُرشدًا له في جميع مراحل حياته.

لقد سَعَتْ أيدٍ عديدة لإذلاله بما في ذلك أيدي إخوته. ووضعوا خُطَطًا لإهلاكه وإيقاعه بذُلّ العبوديّة، لكنَّ يد الله الخفية كانت تُحضِّر له العِزَّة والرِّفعة. لو لم يرموه في الجُبِّ لما وقع بيد القافلة. ولو لم يَبِعْهُ رجالُ القافلة عبدًا ذليلاً لما وقع بيد العزيز ولما ذهب إلى السجن. ولو لم يذهب إلى السجن ويلتقي هناك بمأموري المَلِكِ المسجونين معه لما عرَّفوا المَلِكَ عليه.

هذا نوع من الألطاف الإلهية في عالم الخليقة المُنظَّم ومصنع الطبيعة المُعقَّد ونوعٌ من التربية الإلهية التي تُحيِّر العقول، وهي أنه تعالى يُوصل من يشاء إلى رحمته [بطرق لا يتوقعها الإنسان]: إلا أن الأمر المؤثِّر هو أن الصلاح والاستقامة والطهارة عند الله وعند الخلق تجعل الإنسان عزيزًا، وأن ثمّة عهدًا إلهيًّا أنه لا يُضيع أجر المُحسنين، وأنه طبقًا لنظام العلّة والمعلول الإلهي الدقيق الذي لا يتخلّف فإنَّ كلَّ مجاهدةٍ وتقوى تُعطي أثرها لا محالة: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

إذن يتبيّن أنه -خلافًا لما يقوله الماديون- ثمّة يدٌ خفيةٌ وقدرةٌ غيبيةٌ تسود نظام عالم البشرية وتُراقبه بشكل كامل، وصدق الشاعر إذ قال (بيت شعر بالفارسية):

يذهب الله بالسفينة حيث يُريد ... ولو مزَّق ثيابَهُ الرُّبَّانُ العنيد!

إن الله تعالى يسوق الناس -سواءً باختيارهم أو دون اختيارهم- إلى حيث يُريد: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾.

فائدة أخرى بيّنها القرآن

جملة ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٥٧﴾: إن القدرة الأزلية التي وضعت عالم الخليقة طبق حسابات دقيقة على نحو لا تكون فيه ذرَّةُ عَمَلٍ من خيرٍ أو شَرٍّ دون نتيجة وأثر، هذه القدرة ذاتها تسوق قافلة الوجود نحو عالم آخر، عالمٍ خالدٍ وأبديٍّ، ولا ينبغي أن

تُقارن سعادة ذلك العالـم وما فيه من ثواب بمتاع هذه الدنيا الزائلة.

إن هذا العالـم الذي نعيش فيه سريع الزوال، ولذَّاته مشوبةٌ بالـمرارات وخيبة الأمل خلافًا للعالـم الآخر. لذَّاتُ هذا العالـم مؤقتة، ولذَّات ذلك العالـم دائمة لا تزول.

بعد أن استخلصَ القرآنُ لنا الدروس والعِبر اللازمة، شرع في ذِكر بقية قصة يوسف‏عليه السلام.

ما لا يخلو ذِكره من أهمية

اعلم أن ما يُستفاد من التاريخ هو أن حكومة مصر قبل يوسف‏عليه السلام كانت حكومة استبدادية ظالـمة لا تؤمن بأيّ حقّ للرعية، وتَحَمُّلُ مثل تلك الحكومة يتنافى تمامًا مع رسالة يوسف عليه السلام الإلهية الـمُبتنية على العدل والديمقراطية والـمساواة. إضافةً إلى ذلك فإن مصر كانت بلدًا وثنيًّا في تلك الفترة، وكان علماءُ الدين فيها مجموعةً من السحرة والكهنة ومُلفِّقي الخرافات. فإذا كان الأمر كذلك فكيف قبل يوسف عليه السلام رئاسة مثل ذلك البلد؟

ينبغي أن نقول في الإجابة: لقد كلَّف الله يوسف أن يتخذ خطوات تتعلق بموضوع الزراعة كي لا تُهلكَ الـمجاعةُ شعبَ مصر وما جاوره من شعوب لاسيما أسرة يعقوب. ويُمكن أن نعتبر تفسيرَ يوسف لِـحُلُم الـمَلِكِ ومعلوماتِهِ حول الأمور الزراعية من مُعجزاته‏عليه السلام.

لقد أحدث يوسف عليه السلام تشكيلات جديدة تُشبه تشكيلات وزارة الزراعة في بلد لم يكن فيه قانون ولا وزارات منظمة. وجعل التخصُّص الفني أساس وزارته وقال: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾. وتعهد بإنتاج الـمحاصيل وتجميعها وتقسيمها وشرائها وبيعها وتأمين أجور العاملين وعدالة التوزيع، بأن لا يسمح للأغنياء بأن يشتروا ما يزيد عن حاجتهم من القمح لتخزينه لديهم.

كان يوسف عليه السلام واضعَ أُسُسِ نظامٍ لا سابقةَ له، إذ أراد أن يمنع استبداد الحكم ومحسوبية حاشية الحاكم والـمدراء. وقد أخذ بالـمملكة شيئًا فشيئًا نحو الحرية وسيادة القانون. هذا العمل لم يكن عمل شخص عادي بل عمل نبيٍّ مقتدر. لذلك فقد أحدث يوسف عليه السلام إصلاحات في أمور إدارة مصر وفي أمور الزراعة بشكل خاص. وقسَّم أراضي مصر بين الفلاحين. واقترح طُروحات ناجعة وقوانين مُفيدة لهذه الأمور وصادق عليها وقام بعمليات ريّ والحصول على

الـمياه وحفر القنوات وتقسيم الـماء. وبنى مستودعات كثيرة وهيّأها لحفظ ذخيرة من الحبوب تكفي مصر لمدة سبع سنوات. لقد ارتفع يوسف عليه السلام بمستوى حياة الناس وارتقى بأخلاقهم وأثبت للدنيا أن عالـم الدِّينِ الصحيحَ يستطيعُ أن يُؤَمِّنَ أفضل حكومةٍ، وأن على الناس أن لا يقتدوا بعلماء الدين الـمُزَوِّرين الخرافيين وأن لا يجعلوهم قادتهم. يجب أن تزول مؤسسة علماء الدين الذين لا علم لهم بأحوال معيشة الناس والذين يشغلون الناس بالأوهام والخرافات.

تذكر التوراة أمورًا باطلةً أيضًا عن يوسف عليه السلام كقولها: إنه أخذ من الناس فضتهم ومواشيهم وأراضيهم لأجل فِرعون بل اشترى الناس أيضًا وجعلهم عبيدًا!

دين الحقّ يُوافق حياة الناس

إن قبول يوسف عليه السلام للرئاسة الدنيوية دليل على أن الدين الحقّ لا يتنافى مع الحياة. إن الدين الحقّ يُعدِّل الـمشاعر الإنسانية كي يهتدي البشر إلى الأخلاق الطاهرة والعقائد الصحيحة الـمُشرقة.

وعلى العكس من ذلك فإن الـمادِّيَّة تصبُّ أفكار الإنسان وأعمالَه في قالبٍ ضيِّقٍ من الآمال والأهداف الدنيوية الـمحضة، وتجعل حياته بلا مغزى، وتجعله فريسةً للتنازع والصراعات، كما أن علماء الدين الجافِّين[1] يُلقون بالبشر في الوادي الـمظلم للأوهام والخيالات والعواطف البشرية، ويُبعدون الفرد عن الـمجتمع، وذلك مثل علماء الدين الفلسفيين والصوفيين وكذلك علماء الدين الذين يتصنَّعون البكاء والعويل والتوسُّل بأشخاص مُتَخَيَّلِين. ومثل مؤسسة علماء الدين الجافة هذه، تُبقي الأفراد في البطالة ومشغولين بأعمال بِدعية لا فائدة منها، وتخدع جماعات من الناس بالـمكر والحيل وتشغلهم عن التفكير الصحيح وتُبعدهم عن طريق السعادة.

كان يوسف عليه السلام نبيًّا روحانيًّا دخل إلى مجلس الوزراء الحاكم في مصر وأدى خدمات جليلة في مجال الأمور الـمالية والزراعة وتنظيم أمور الرعية وبسط العدالة، وأعلن للدنيا أن مقام عالـم

١- يبدو أن الـمؤلف يقصد من «علماء الدين الجافِّين»: العلماء التقليديين الخرافيين غير الـمناضلين الذين لا يجاهدون لأجل العدالة الاجتماعية وتحقيق حقوق الناس.

الدين لا يتنافى مع السياسة وتدبير أمور البلاد، وهدى الناس إلى طريق الحياة المادية والمعنوية وأزاح عن كاهل الناس السحرة والكهنة وعلماء الدين الذين يصنعون الأصنام [بدلاً من محاربتها!].

رُوِيَ عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال: «فَأَقْبَلَ يُوسُفُ عَلَى جَمْعِ الطَّعَامِ فِي السِّنِينَ السَّبْعِ الْـخَصِيبَةِ يَكْبِسُهُ فِي الْـخَزَائِنِ فِي سُنْبُلِهِ، ثُمَّ أَقْبَلَتِ السِّنُونَ الْـجَدْبَةُ، أَقْبَلَ يُوسُفُ عليه السلام عَلَى بَيْعِ الطَّعَامِ: فَبَاعَهُمْ فِي السَّنَةِ الْأُولَى بِالدَّرَاهِمِ وَالدَّنَانِيرِ حَتَّى لَمْ يَبْقَ بِمِصْرَ وَمَا حَوْلَهَا دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ إِلَّا صَارَ فِي مَمْلَكَةِ يُوسُفَ عليه السلام. وَبَاعَهُمْ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ بِالْـحُلِيِّ وَالْـجَوَاهِرِ حَتَّى لَمْ يَبْقَ بِمِصْرَ وَمَا حَوْلَهَا حُلِيٌّ وَلَا جَوَاهِرُ إِلَّا صَارَ فِي مَمْلَكَتِهِ. وَبَاعَهُمْ فِي السَّنَةِ الثَّالِثَةِ بِالدَّوَابِّ وَالْـمَوَاشِي حَتَّى لَمْ يَبْقَ بِمِصْرَ وَمَا حَوْلَهَا دَابَّةٌ وَلَا مَاشِيَةٌ إِلَّا صَارَتْ فِي مَمْلَكَةِ يُوسُفَ. وَبَاعَهُمْ فِي السَّنَةِ الرَّابِعَةِ بِالْعَبِيدِ وَالْإِمَاءِ حَتَّى لَمْ يَبْقَ بِمِصْرَ وَمَا حَوْلَهَا عَبْدٌ وَلَا أَمَةٌ إِلَّا صَارَتْ فِي مَمْلَكَةِ يُوسُفَ. وَبَاعَهُمْ فِي السَّنَةِ الْـخَامِسَةِ بِالدُّورِ وَالْعَقَارِ حَتَّى لَمْ يَبْقَ بِمِصْرَ وَمَا حَوْلَهَا دَارٌ وَلَا عَقَارٌ إِلَّا صَارَ فِي مَمْلَكَةِ يُوسُفَ. وَبَاعَهُمْ فِي السَّنَةِ السَّادِسَةِ بِالْـمَزَارِعِ وَالْأَنْهَارِ حَتَّى لَمْ يَبْقَ بِمِصْرَ وَمَا حَوْلَهَا نَهَرٌ وَلَا مَزْرَعَةٌ إِلَّا صَارَ فِي مَمْلَكَةِ يُوسُفَ عليه السلام. وَبَاعَهُمْ فِي السَّنَةِ السَّابِعَةِ بِرِقَابِهِمْ حَتَّى لَمْ يَبْقَ بِمِصْرَ وَمَا حَوْلَهَا عَبْدٌ وَلَا حُرٌّ إِلَّا صَارَ فِي مَمْلَكَةِ يُوسُفَ وَصَارُوا عَبِيدًا لَهُ»[1].

بالطبع، قام يوسف بعد انتهاء سنوات القحط ومجيء السنوات العادية بإعتاق جميع الأرقاء، وردَّ على الناسِ أموالَـهُم وأملاكَهُم. فقال الناسُ: تاللهِ ما رأينا وما سمعنا كاليوم مَلِكًا أوتِيَ مثل هذا العلم والتدبير.

ضاعف يوسف عليه السلام من جهوده في سنوات القحط تلك التي وجد فيها قوة عظيمة واتخذ كل الاحتياطات اللازمة للحد من استهلاك الغلات وتوزيع الحصص على الناس بشكل عادل كي يُنقذ الشعب من خطر المجاعة والهلاك، وذلك لأن كثرة المحتاجين وازدياد طلب أرباب الحاجات ضاعف الضغط على عمل يوسف عليه السلام، الشفيق على الناس، ولعله لم يكن يشبع هو

١- المجلسي، **بحار الأنوار**، ج ١/ ص ٢٩٢. والثعلبي النيسابوري، **الكشف والبيان في تفسير القرآن**، ج ٥/ ص ٢٣٤.

ذاته من الطعام حتى لا ينسى الجوعى.

قال الشاعر (بيتين من الشعر بالفارسية):

لما أصبح يوسف الصديق ملك مصر شبع الجوعى على مائدته
قال لو أكلتُ وشبعتُ ونمتُ فكيف سأعلم بالجائع وحالته

في سنوات القحط هذه لم يكن أهالي مصر وحدهم الذين هُرعوا إلى حكومتها ليشتروا منها ما يلزمهم من الطعام بل أهالي البُلدان المجاورة فعلوا ذلك أيضًا، لاسيما الذين كان بينهم وبين مصر روابط اقتصادية، وكان يوسف يُحقِّق في كل من يأتي لطلب الحبوب. لا شك أنه كان من الضروري ضبط ومُراقبة الأشخاص الذين يُطالبون بالحبوب، وكان من الضروري أن تتم جميع المعاملات والصفقات تحت إشراف يوسف وأن يتم التعرف على الأشخاص المُطالبين بالحبوب كي لا يتمكن أحد من الغش والتزوير ولا يقوم التجار الطامعون بأخذ كميات زائدة من الحبوب تحت عناوين مختلفة وبالتحايل والرِّشوة. إذن كان لا بدّ من تسجيل مقدار الاستهلاك وعدد مرَّاته وأسماء الأشخاص بشكل دقيق. كان يوسف عليه السلام يُلاحظ بدقة من يأتي وكم يأخذ. في تلك الأيام كان أهالي كنعان وغيرها من الأماكن يأتون فوجًا فوجًا إلى مصر لشراء الحبوب.

مجيء إخوة يوسف لشراء الحبوب

في تلك السنوات أُصيبت أرض كنعان بالقحط والجدب، وضاق الأمر على أسرة يعقوب عليه السلام. جمع يعقوب أبناءَه وقال لهم: لا بدّ من الذهاب إلى مصر لشراء الطعام. حزم جميع أبنائه أمتعتهم للسفر باستثناء بنيامين الذي كان أبوه مستأنسًا به، وخصصه للقيام بأعمال المنزل الداخلية وإدارة أمور الأسرة.

دخلت قافلة فلسطين - بعد قطع مسافة طويلة - أرضَ مصر حاملةً مقدارًا من الدراهم (المسكوكات الفضية) أو الأحذية والجلود.

كان على أبناء يعقوب أن يُعرِّفوا أنْفُسَهُم للموظَّفين المسؤولين عن بيع الحبوب وكان على

أولئك الـموظَّفين أن يُقدِّموا تقريرًا بذلك إلى عزيز مصر.

وكان يوسف أيضًا ينتظر مجيئهم لأنه سمع أسماء إخوته من بين أسامي القادمين والطالبين لشراء الحبوب. لا شك أن وضعه النفسي قد تغير لكنه ضبط نفسه ولم يُظهر ذلك وأمر بإحضارهم إليه. لقد تجاوز عمر يوسف تسعة وثلاثين عامًا وقد توسَّد اليوم منصبًا ومقامًا رفيعًا وتبدلت هيئته الطفولية بفضل جوِّ مصر. عندما رماه إخوتُهُ في البئر كان عمره - على أحد الأقوال- تسع سنين، والآن أصبح رجلاً في الأربعين من عمره وتغيرت هيئته كثيرًا عما كانت عليه في ذلك السن. لم يتكلم يوسف معهم باللغة العِبرية -لغة أبويه- كي لا يتعرَّف عليه إخوته. فلم يعرفوه كما جاء في الآيات التالية:

﴿وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ٥٨ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ٥٩ فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ٦٠ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ٦١ وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ٦٢﴾ [يوسف: ٥٨-٦٢].

الفوائد: جلس يوسف على مسند العِزّ وتبدلت هيئته وملامحه عن هيئته عندما كان طفلاً يتعرّض لأشعة شمس الصحراء، وأصبح يوسف طليقًا في اللغة الـمصرية بل اتخذ مترجمًا كي يُكلّم إخوته. فَهِمَ يوسفُ ما يُريده إخوته وأن الزمان قد جار عليهم وأنهم جاؤوا لشراء الحبوب. أما هم فلم يحتملوا أن يكون عزيز مصر هو ذلك الطفل ذا السنوات التسع الذي فُقد قبل ثلاثين عامًا ولم يُعرف له أثر! ورُغم أن هيئاتهم ووجوههم قد تبدلت بعد ثلاثين عامًا، إلا أن يوسف ﵇ كان يستطيع أن يرى مشابهة ملامحهم الحالية لوجوههم وهيئتهم التي كانوا عليها قبل ثلاثين عامًا.

كان يوسف ﵇ مشتاقًا جدًا لسؤالهم عن أحوال أبويه وسائر أقربائه دون أن يفهم إخوته هويته. لذلك لم يُرد أن يبحث معهم هذا الـموضوع بشكل مباشر، بل طلب ممن يعملون تحت

يديه أن يسألوهم عن أحوالهم وأحوال أقربائهم.

ذكر فخر الدين الرازي هنا في بيان سبب طلب يوسف من إخوته أن يأتوا بأخيهم الصغير، بقوله: ﴿ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ﴾ عدة احتمالات فقال:

١- لـما كانت عادة يوسف عليه السلام مع كل الناس أن يعطيهم حِمْلَ بَعيرٍ لكل فرد أو ربِّ أسرة، لا أزيد من ذلك ولا أنقص، وكان إخوة يوسف الذين ذهبوا إليه عشرة أشخاص، أعطاهم يوسف عشرة أحمال، فقالوا: إن لنا أبًا شيخًا كبيرًا وأخًا آخر بقي معه فأعطنا حمل بعيرين آخرين، فأجابهم قائلاً: حسنًا، ائتوني بأخيكم الصغير حتى أعطيكم حِمْلَ بَعِيرٍ آخر حِنطةً.

٢- قال إخوة يوسف: إن لدينا أخًا أصغرَ منا يحبه أبونا ويأنس به، ولذلك لم نحضره معنا. فقال يوسف: إنَّ كلامكم لعجيب، فقد ذكرتم أن أباكم رجل عالـم حكيم بعيدٌ عن الـمجازفة، وذكرتم أنه خصَّ أخاكم بمزيد الـمحبة، مع أني أراكم فضلاء علماء حكماء، فلا بد أن يكون أخوكم زائدًا عليكم في الفضل، وصفات الكمال، فاشتاقت نفسي إلى رؤية ذلك الأخ فائتوني به.

٣- أنهم لما دخلوا عليه، عليه السلام، وأعطاهم الطعام، قال لهم: من أنتم؟ قالوا: نحن قومٌ رعاةٌ من أهل الشام أصابنا الجهد فجئنا نَمْتَارُ[1] حنطةً. فقال: لعلَّكم جئتم عيونًا؟[2] فقالوا: معاذ الله! نحن إخوةٌ بنو أبٍ واحدٍ شيخٍ صِدِّيقٍ نبيٍّ اسمه يعقوب. قال: كم أنتم؟ قالوا: كنا اثني عشر فهلك منَّا واحدٌ وبقي واحدٌ مع الأب يتسلَّى به عن ذلك الذي هلك، ونحن عشرة وقد جئناك. قال: فدعوا بعضكم عندي رهينةً وائتوني بأخ لكم من أبيكم ليبلّغ إليّ رسالة أبيكم. فعند هذا أقرعوا بينهم فأصابت القرعة «شمعون»، وكان أحسنهم رأيًا في يوسف فخلَّفُوه عنده.

١- نمتار : مِن امتار لأهله أو لنفسه: جَمَعَ «الـمِيْرَةَ»، و«الـمِيْرَةُ»: الطعامُ يُجْمَعُ للسفر ونحوه.

٢- عيونًا: أي جَوَاسِيس.

٤- لعلَّهم لَمَّا ذكروا أباهم قال يوسف: فَلِمَ تركتموه وحيدًا فريدًا؟ قالوا: ما تركناه وحيدًا، بل بقي عنده واحدٌ. فقال لهم: لِمَ استخلَصَهُ لنفسه، وَلِمَ خصَّهُ بهذا المعنى، لأجل نقص في جسده؟ فقالوا: لا، بل لأجل أنه يحبه أكثر من محبته لسائر الأولاد. فعند هذا قال يوسف: لما ذكرتم أن أباكم رجلٌ عالم حكيمٌ بعيدٌ عن المجازفة، ثم إنه خصَّه بمزيد المحبة، وجب أن يكون زائدًا عليكم في الفضل وصفات الكمال مع أني أراكم فضلاء علماء حكماء، فاشتاقت نفسي إلى رؤية ذلك الأخ فائتوني به.

رغم أن فيما ذكره الأخوة في ثنايا حديثهم بشأن أخيهم المفقود، الذي يستتبع بالضرورة تذكُّر جرمهم الشنيع وكيف لم يرحموا طفولة ذلك الولد، وَكَمْ حرقوا قلب أبيهم العجوز، وسبَّبُوا له الحزن والألم؛ رغم كل ذلك لم يجافِهِم يوسف ولا قام بأي عمل فيه إهانة لهم، بل تصرف معهم بكل احترام وبمحبة وحميمية وأمر باستقبالهم وإكرامهم وحسن ضيافتهم.

وهكذا، بدأ يوسف في أثناء ذلك بسؤالهم عن أمرهم وقال: أخبروني من أنتم؟ وإلى أي أسرة تنتمون؟ ولماذا أتيتم إلى مصر؟ لعلكم أتيتم لتتجسَّسوا؟

هنا قالوا له: والله ما نحن بجواسيس وإنّما نحن إخوةٌ بنو أب واحد وهو شيخ صدّيق يُقال له: يعقوب، نبيٌّ من أنبياء الله، ولنا أخٌ آخر بقي عند أبينا. ولو عرفتَ عظمةَ مقام أبينا لأجللته إجلالاً عظيمًا.

فقال لهم يوسف: فلماذا لم تأتوا بأخيكم الصغير؟

قالوا: إنا أباه لحزينٌ فهو يأنس به.

قال يوسف: ما الذي جعل أباكم حزينًا، لعل ذلك بسبب جهلكم وسفاهتكم؟

قالوا: كلا، إن سبب حزنه أنه كان له من أمِّ أخينا الصغير هذا ولدٌ ضاع منه وفُقِدَ ويُقال: إن الذئب أكله.

قال: فمن يعلم أنّ الذي تقولونه حقّ؟ هل لديكم دليلٌ أو شاهدٌ على صحَّة كلامكم؟

قالوا: أيّها المَلِكُ! إنّا غُرَبَاء في بلادٍ لا يعرفنا فيها أحد.

جاء في التوراة:

«٩ فَقَالَ يُوسُفُ لَهُمْ: «أَنْتُمْ جَوَاسِيسُ، وَقَدْ جِئْتُمْ لاكْتِشَافِ ثُغُورِنَا غَيْرِ الْـمَحْمِيَّةِ» ....
١٥وَحَيَاةِ فِرْعَوْنَ إِنَّكُمْ لَنْ تُغَادِرُوا هُنَا حَتَّى تَأْتُوا بِأَخِيكُمُ الأَصْغَرِ، وَبِذَلِكَ تُثْبِتُونَ صِدْقَكُمْ.
١٦أَوْفِدُوا وَاحِدًا مِنْكُمْ لِيَأْتِيَ بِأَخِيكُمْ، أَمَّا بَقِيَّتُكُمْ فَتَمْكُثُونَ فِي السِّجْنِ حَتَّى تَثْبُتَ صِحَّةُ كَلاَمِكُمْ
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. وَإِلاَّ فَوَحَيَاةِ فِرْعَوْنَ أَنْتُمْ لَسْتُمْ سِوَى جَوَاسِيسَ». ١٧وَطَرَحَهُمْ فِي السِّجْنِ مَعًا
ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ.

١٨وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ قَالَ لَهُمْ: «افْعَلُوا مَا أَطْلُبُهُ مِنْكُمْ فَتَحْيَوْا، فَأَنَا رَجُلٌ أَتَّقِي اللّٰهَ. ١٩إِنْ كُنْتُمْ
حَقًّا صَادِقِينَ فَلْيَبْقَ وَاحِدٌ مِنْكُمْ رَهِينَةً، بَيْنَمَا يَأْخُذُ بَقِيَّتُكُمُ الْقَمْحَ وَيَنْطَلِقُونَ إِلَى بُيُوتِكُمُ الْـجَائِعَةِ.
٢٠وَلَكِنْ إِيتُونِي بِأَخِيكُمُ الأَصْغَرِ فَأَتَحَقَّقَ بِذَلِكَ مِنْ صِدْقِكُمْ وَلاَ تَمُوتُوا». فَوَافَقُوا عَلَى ذَلِكَ.
٢١وَقَالُوا: «حَقًّا إِنَّنَا أَذْنَبْنَا فِي حَقِّ أَخِينَا. لَقَدْ رَأَيْنَا ضِيقَةَ نَفْسِهِ عِنْدَمَا اسْتَرْحَمَنَا فَلَمْ نَسْمَعْ لَهُ.
لِذَلِكَ أَصَابَتْنَا هَذِهِ الضِّيقَةُ» ٢٢فَقَالَ رَأُوبَيْنُ: «أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لاَ تَجْنُوا عَلَيْهِ فَلَمْ تَسْمَعُوا؟ وَالآنَ هَا
نَحْنُ مُطَالَبُونَ بِدَمِهِ». ٢٣وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ يُوسُفَ كَانَ فَاهِمًا حَدِيثَهُمْ، لأَنَّهُ كَانَ يُخَاطِبُهُمْ عَنْ طَرِيقِ
مُتَرْجِمٍ. ٢٤فَتَحَوَّلَ عَنْهُمْ وَبَكَى، ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهِمْ وَخَاطَبَهُمْ، وَأَخَذَ شِمْعُونَ وَقَيَّدَهُ أَمَامَ عُيُونِهِمْ.
٢٥ثُمَّ أَمَرَ يُوسُفُ مُوَظَّفِيهِ أَنْ يَمْلأُوا أَكْيَاسَهُمْ بِالْقَمْحِ، وَأَنْ يَرُدُّوا فِضَّةَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ إِلَى عِدْلِهِ،
وَأَنْ يُعْطُوهُمْ زَادًا لِلطَّرِيقِ. فَفَعَلُوا ذَلِكَ. ٢٦فَحَمَّلُوا حَمِيرَهُمُ الْقَمْحَ وَانْطَلَقُوا مِنْ هُنَاكَ»[١].

و الذي دعا يوسف إلى أمر عماله بوضع بضاعة إخوته [أي ما جاؤوا به ثمنًا للقمح] في رحالهم دون أن يشعروا، هو أن يحملهم على العودة إلى مصر ثانيةً، وذلك لما يلي:

أولاً: عَلِمَ أنهم متى شاهدوا بضاعتهم في رحالهم وقع في قلوبهم أنهم وضعوا تلك البضاعة في رحالهم على سبيل السهو - وهم أنبياء وأولاد الأنبياء - فرجعوا ليعرفوا السبب فيه، أو رجعوا ليردُّوا الـمالَ إلى مالِكِهِ.

ثانيًا: خاف أن لا يكون عندهم من الورق (الدراهم الفضية) ما يرجعون به مرة أخرى،

١- التوراة، **سفر التكوين**، الإصحاح ٤٢/ الفقرات ١ - ٢٦.

وأنهم قد يستحيون من العودة إليه دون مال، فأعاد إليهم نقودهم كي يؤمِّن لهم وسيلة العودة إليه.

ثالثًا: رأى أن من الواجب عليه التوسعة على أبيه لأن الزمان كان زمان القحط. ورأى أن أخذ ثمن الطعام من أبيه وإخوته مع شدة حاجتهم إلى الطعام لؤم وخِسَّة، فأراد أن يُحْسِنَ إليهم على وجه لا يلحقهم به عيب ولا منَّة.

رابعًا: أراد أن يقابل مبالغتهم في الإساءة بمبالغته في الإحسان إليهم[١].

ينبغي أن نعلم أن قصةَ أخذ شمعون رهينة، التي ذكرتها التوراة، مُخالفةٌ لظاهر آيات القرآن، لأن ما يُفهم من القرآن هو أن يوسف ﷺ عرف إخوته وتصرف معهم بكل رحمة ولطف وأعطاهم الحِنطة وطلب منهم أن يُحضروا معهم أخاهم الصغير في سفرهم القادم إلى مصر، وقام بحيلة ليضمن رجوعهم إلى مصر، وهي إعادة متاعهم إلى رحالهم دون أن يشعروا. وبالمناسبة ذُكرت في التوراة أيضًا قضية اتهامهم بالتجسس.

فإن قيل: لماذا لم يُسافر يوسف نفسه إلى أرض كنعان، أو لماذا لم يطلب إحضار أبيه إليه؟ فالجواب هو التالي:

أولاً: كانت مشاغله ومنصبه وأعماله كثيرةً إلى درجة تمنعه من السفر.

ثانيًا: كان أبوهُ رئيس عشيرة إبراهيم ﷺ، وكان سفر أبيه يوقعه في مشقة شديدة.

ثالثًا: كانت أعمال يوسف تستند إلى الوحي ورُبما لم يأذن الله له بهذا السفر.

أضف إلى ذلك أن يوسف ﷺ عندما كان مملوكًا أو كان في السجن لم يكن يستطيع السفر ولو سافر لرُبَّما تعرّض إلى مهاجمة إخوته له من جديد وقتلهم إياه. ورُبما أراد الله أن يُؤدِّب يعقوب ﷺ الذي تعلَّق كلَّ ذلك التعلُّق بمخلوق أي ابنه.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ

١- استفاد المؤلف هذه الوجوه من **التفسير الكبير** (أي مفاتيح الغيب) للفخر الرازي بتصرُّفٍ يسير.

حَافِظًاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٦٤ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ٦٥ قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ٦٦﴾ [يوسف: ٦٣-٦٦].

الفوائد: لماذا ذهب عشرةٌ من أبناء يعقوب لشراء الحبوب؟

الجواب: إن عزيز مصر لم يكن ليُعطي شخصًا واحدًا عشرة أحمال من الحِنطة بل كان -طبقًا لحساب دقيق- يُعطي كل رئيس أسرة حِمل بعير واحدٍ منها، لذلك لم يكن أمامهم خيار سوى أن يذهبوا جميعًا إلى مصر.

رُغم أن أبناء يعقوب سُرُّوا في سفرهم الأول من استقبال عزيز مصر الحسن لهم، لكنهم لما جاؤوا إلى مصر لأجل شراء الطعام لأسرهم فقط كان عليهم العودة إلى كنعان بسرعة.

كان نسوةُ يعقوب وأُسَر أبنائه ينتظرون جميعًا عودة أصحاب بيوتهم الذين يسعون في رزقهم، ويعدُّون الدقائق لعودتهم إذ إن الجدب وضيق اليد قد ضغطا عليهم كثيرًا ولم يعد لديهم ما يكفي من الطعام، والأهم من ذلك أن يعقوب المُسِن كان ينتظر بشدّة عودتهم لأن رئيس القبيلة يكون دائمًا قلقًا أكثر من الآخرين على حفظ قبيلته.

في نهاية الأمر انتهى الانتظار وعادت قافلة فلسطين إلى وطنها ووصل أبناء يعقوب عليه السلام بسلامة إلى أهليهم، واجتمع حولهم أحفاد يعقوب. بيد أنَّ حِمْلَ عشرة بُعران كان قليلاً بالنسبة إلى أسرة كبيرة مثل أسرة يعقوب، لذلك كان عليهم أن يعودوا إلى مصر ثانيةً قبل أن تنتهي الغلات التي أتوا بها [ليشتروا القمح من جديد]. لكنهم واجهوا مشكلة وهي أنه من جهة، كان عزيز مصر قد قال لهم: أحضروا معكم أخاكم الصغير في سفركم القادم وإلا فلن أُعطيكم الحبوب. ومن الجهة الأخرى كان الأب المُسِنّ متعلقًا بهذا الابن الصغير وكان يُحبّه في مكان ابنه الضائع، لذلك كان من الصعب إبعاد هذا الابن عن أبيه. خاصةً أن أباهم -بسبب سوابقهم السيئة وما فعلوه بيوسف من قبل مما آذى الأب أشدّ الإيذاء- كان سيء الظن بهم جدًا.

أجل. لا يُمكن محو وصمة العار بسرعة ولا يمكن إعادة الاعتبار والثقة المفقودة بسهولة.

وعلى كل حال بدأت الغلات تنقص وصار من الضروري لبني إسرائيل أن يُسافروا إلى مصر لتأمين معيشتهم. ولكن هذه المرّة كان إنجاح السفر بيد الأب الجليل لأنه إن لم يُرسل ابنه الصغير معهم فلن يُعطيَهم العزيزُ الحبوبَ.

لذا قال الإخوة لأبيهم: يا أبانا! نحن نعلم أن بنيامين أنيسُكَ، وأنَّ قلبَكَ متعلِّقٌ به، ولكن حياةَ الأسرة متوقّفةٌ على إرسالك إياه معنا إلى مصر، لأنه لو لم يأتِ معنا فلن يُعطيَنا العزيزُ الطعامَ. فعليك أن تتحمل هذه الصعوبة وتُرسل معنا أخانا الصغير لتأمين معيشتنا: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ﴾، علاوةً على أنه عندما يأتي معنا فإن العزيز سيُعطينا حِملَ بعير إضافيًا من الطعام.

كان يعقوب ﷺ يعلم أنَّ ما يطلبه أبناؤه منطقيٌّ وكان يميل إلى حفظ الأسرة بأي نحو ممكن. ولكنه لم يكن يثق بأبنائه ذوي السوابق السيئة، وكان يخاف أن يقع على بنيامين ما وقع على يوسف، فيزداد غمًّا وحُزْنًا، لذلك قال لأبنائه: كيف لي أن أثق بكم بعد أن فعلتم بأخيه ما فعلتم وأخذتموه ولم تُعيدوه وقلتم كاذبين: أكله الذئب؟ ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ...﴾؟ أنا لا آمل بحفظكم ومراقبتكم ولكني آمل بحفظ الله.

شعر أبناء يعقوب بالخجل ونكسوا رؤوسهم وتجددت في ذهنهم ذكرى يوسف المُرَّة بعد سنوات من وقوعها. لكن لم يكن أمامهم سوى الصبر. لذلك أعادوا طلبهم وأتوا بدليل آخر فقالوا: إنهم لما فتحوا رحالهم وجدوا أن بضاعتهم قد رُدَّت فيها، وقالوا: أي عذر لدينا اليوم في عدم السفر وهذا رأس مالنا قد عاد إلينا فليس عندنا ضيق من ناحية المال. إننا نلتمس منك أن تُرسِلَ معنا أخانا كي لا نُحْرَم من الحصول على الطعام لعائلاتنا ولكي نحصل على حِمل بعير زائد لأجل أخينا الصغير مما سيكون عونًا لمعيشتنا.

كان على الأب المُسِنّ الذي كان يرأس عشيرة إبراهيم أن يسعى لإنقاذها من خطر المجاعة. لكن ما العمل وهو لا يثق بأبنائه ويخشى أن يفقد خليفة يوسف أيضًا؟

لذلك قال يعقوب ﷺ لأبنائه: أعطوني موثقًا من الله وأشهدوا الله الناظر الرقيب أنكم تُعاهدونني على إعادة ابني لي إلا أن تُصابوا بأمر قاهر يخرج عن إرادتكم.

سُرَّ أبناء يعقوب عليه السلام وأعطوه فورًا عهدهم وميثاقهم وأشهدوا الله عليه وتذكروا في هذه اللحظة العهد والـميثاق الذي كانوا قد أعطوه لأبيهم عندما أخذوا منه يوسف. ولكنهم لم يكونوا ينوون الخيانة هذه الـمرة بل كانوا صادقين ويُريدون الخير، وقد عاهدوا أباهم بكل صدق. ولكن لما كانت سوابقهم سوداء لم يستطيعوا أن يكسبوا ثقة الأب مئة بالـمئة.

وفي نهاية الـمطاف اضطرّ يعقوب للقبول بسفر ابنه مدّة شهر، فلما أراد أبناؤه الانطلاق أوصاهم قائلاً:

﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٦٧ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٦٨﴾ [يوسف: ٦٧-٦٨].

الفوائد: لما اضطر يعقوب عليه السلام لإرسال ابنه الصغير مع إخوته في قافلة فلسطين إلى مصر، ولما كان ذهابه وإيابه يستغرق شهرًا وكان الطريق طويلاً ومحفوفًا بالـمخاطر، قبَّل ابنَه وأوصى أبناءه أن لا يدخلوا مصر من باب واحد بل أن ينقسموا إلى عدة مجموعات ويدخلوا من أبواب مختلفة.

لعلّ يعقوب عليه السلام خشي أن ينظر بعضُ الناس بعين الحسد إلى أبنائه الشجعان الرشيدين ذوي القامة الجميلة، أو خشي أن يُسيء بعضُ الجنود وجواسيسُ مَلِكِ مِصْرَ السِّرِّيُّون الظنَّ بهم ويُسبِّبَ لهم الـمتاعب فتطول عودتهم.

وعلى كل حال، دخلوا من أبواب متفرِّقة، وقد ذكَّرهم يعقوب عليه السلام أنه لا يُمكنه أن يمنع قضاء الله وقدره لأن الحكم فقط لخالق الكون ومُدبِّره: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾ كي لا يتعلَّق أمل أبنائه إلا بالله.

دخل الأبناء عاصمة مصر كما أمرهم أبوهم إذ لم يُقصّر أبوهم الرحيم والرؤوف بهم في الاهتمام بشأنهم، ولا غروَ، فواجب الأب دائمًا إرشاد أبنائه [إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم].

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ٦٩﴾ [يوسف: ٦٩].

الفوائد: قال بعضهم: انقسم أبناء يعقوب عليه السلام إلى ثلاث مجموعات، وقال بعضهم: دخلوا مصر مثنى مثنى ودخل بنيامين وحده.

لعلَّ قصد أبيهم من وصيته لهم أن يدخلوا من أبواب متفرقة كان رغبته أن لا يتأثروا بقلّتهم وأن يشعروا بقدر وأهمية بعضهم بعضًا، أو أن يتوبوا من الخطيئة التي ارتكبوها بحقّ يوسف ويتجهوا إلى الله، ولا يبتلوا أخاهم الصغير في بلاد الغربة بالوحدة والغربة كما فعلوا بأخيه يوسف من قبل.

وعلى كل حال كان الإخوة مشتاقين لزيارة العزيز لِمَا رأوه منه من حُسن استقباله ومحبّته لهم في سفرهم السابق. لمَّا وصلوا إلى بعضهم البعض كان ملجؤهم الوحيد بيت العزيز لاسيما أنهم نفَّذوا رغبتَه واصطحبوا معهم أخاهم الصغير.

بعد أن نظَّفوا أنفسهم من غبار السفر كانت أفضل هدية يُمكنهم أن يأخذوها إلى العزيز هي إحضارهم أخاهم إليه.

وهكذا انطلقوا بخطوات واثقة جاعلين أخاهم الصغير في وسطهم فكان كالقمر الذي تدور حوله الكواكب، وساروا بِكُلِّ أُبَّهةٍ وبرغبةٍ زائدةٍ نحو قصر العزيز وعندما وصلوا إلى القصر عرَّفوا أنفسهم للبوَّابين.

وصل خبر قدوم أحد عشر أخًا فلسطينيًا إلى سمع العزيز، فَسُرَّ بذلك وشعر بشوق شديد لرؤيتهم لكنه حافظ على جلاله ورئاسته ولم يُبْدِ لهم حماسه الشديد للقائهم، وسمح لهم بالدخول.

أُبلغ الإخوة بسماح العزيز لهم بالدخول، ولعلهم دخلوا بقلوب تغمرها الهيبة لما كانوا يعرفونه من عظمته، لكن أخاهم الصغير الذي كان يلتقي بالعزيز أول مرة كان منزعجًا أكثر من الآخرين.

وعلى كل حال، دخلوا إلى القصر الخاص كما أرشدهم إليه الحُجَّاب وبعد أداء التحية والاحترام أخذ كل واحد منهم مكانه الـمخصَّص له.

أمر يوسف عليه السلام -دون أن يُعرِّف نفسَهُ لإخوته - موظفيه أن يُعدّوا الطعام لهم وقال

للمشرف على قصره: ستتناول طعام الغداء معنا.

عندما قام مشرف القصر بإرشاد إخوة يوسف إلى القصر الخاص وقعت في نفوسهم الريبة والشك، إذْ كانوا قد وجدوا - في سفرهم السابق - نقودهم داخل حمولة القمح التي اشتروها، فقالوا في أنفسهم: لعلّ عزيز مصر ظنَّ خيانتهم وهو يُريد الآن مُعاقبتهم واسترقاقهم، ولذلك لما وردوا دهليز القصر قالوا للمشرف على القصر: لقد وجدنا في سفرنا السابق نقودنا وسط رحالنا، ويبدو أن موظفي مستودع الحبوب قد وضعوا نقودنا وسط رحالنا سهوًا. وقد أتينا بها لنُعيدها لكم كاملةً تامةً. طمأنهم مشرف قصر يوسف أن لا مؤاخذة عليهم. وأدخلهم القصر بكل احترام واستضافهم وقدّم العلف لدوابِّهم.

دخل يوسف في وقت الغداء فتكلَّم الناطق باسم الإخوة وعرّف أخاهم من أبيهم. شكرهم يوسف عليه السلام وتلاطف معهم وأمر بتقديم طعام الغداء لهم واعتنى بهم، ودلل بنيامين أكثر من البقية وقال: إنك وحدك من ناحية أمك من بين جميع أبناء يعقوب عليه السلام فاقبلني أخًا لك.

قال بعضهم: لما ورد إخوة يوسف في هذا السفر عليه، كان بيد يوسف قدحٌ، هو الصُّوَاع الـملكي. فنقر يوسف الصُّوَاع فظهر منه صوت فأدناه من أذنه ثم قال: إن صُوَاعي هذا يخبرني أنكم كنتم اثني عشر أخًا وإنكم انطلقتم بأخ لكم فبعتموه. (تجاهل يوسف هنا وتظاهر أمام إخوته أن الصاع هو الذي يقول له ذلك، لأنه لم يكن يرى مصلحةً في إخبار إخوته بنفسه عن هذا الأمر، خشية أن يفهموا أنه يوسف). فلما سمعها بنيامين قام فسجد ليوسف وقال: أيها الـمَلِكُ! سل صُوَاعك هذا أَحَيٌّ أخي ذاك أم لا؟ فنقر العزيزُ [أي يوسف] الصُّوَاعَ مرةً ثانيةً وخرج منه صوتٌ ثم قال: نعم هو حيٌّ وسوف تراه. قال بنيامين: إذن فليقع عليَّ أيُّ بلاءٍ كان، فسوف يأتي أخي بسرعة ويخلِّصني. هنا لم يتمالك يوسف عليه السلام نفسَه فدخل إلى غرفته الخاصَّة فبكى ثم توضأ ثم خرج[1]. (ولكن هذه الرواية لا تبدو لنا صحيحة).

١- هذه الرواية نقلتها بعض كتب التفسير ولكن في سياق مختلف قليلاً. انظر مثلاً: ابن الجوزي، **زاد الـمسير في علم التفسير**، ٤/ ١٩٩ - ٢٠٠. والسيوطي، **الدر الـمنثور**، ٤/ ٥٠٦.

وقال بعضهم: التقى يوسف بأخيه سرًّا وأخذه الوجد وهاجت عواطفه عندما رأى أخاه أول مرة بعد ثلاثين عامًا. رُبَّما شعر أخوه الذي كان يلتقي بالعزيز أول مرة بالخوف من شخصيته ومقامه، ولكنه رأى -خلافًا لتوقعه- أن العزيز تصرف معه على نحو أخوي ودون حفظ جلال الرئاسة وضمه بين ذراعيه وأخذ بيده وأجلسه إلى جانبه وسأله عن أحواله وعن سلوك إخوته معه وعن حال أبيه الذي عانى من البلاء، وطلب منه أن يشرح له بشكل كامل غم الهجران وبكاء أبيه وشكواه، كما سأله عن أخيه الـمفقود. تعجب بنيامين عندما رأى العزيز حزينًا إلى هذه الدرجة وحكى له كل ما جرى عليه وجفاء إخوته وبكاء أبيه، وأظهر له خلال ذلك أسفه على فقدانه أخيه وأنه لا زال منذ سنوات ينتظر بشوق أن يرى أخاه لأبيه وأمه وأنه يُشارك أباه الغم والحزن في هذا الأمر، كل ما في الأمر أن أباه يُبشِّر دائمًا بأن لقاء ذلك الأخ الـمفقود سيحصل يومًا ما.

قال ابن الأثير في كتابه «**الكامل**»: إن يوسف قال لأخيه بنيامين: «**أتُحبُّ أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك؟ فقال بنيامين: ومن يجد أخًا مثلك؟ ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل، فبكى يوسف** عليه السلام **وقام إليه وعانقه وقالَ له: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾، فإنَّ الله قد أحسن إلينا ولا تُعلمهم شيئًا ممّا علمت**»[1].

وعلى كل حال، لم يعد يوسف الجليل يُطيق إخفاء الحقيقة أكثر من ذلك، فقال لأخيه: يا عزيزي أنا يوسف الـمفقود، أنا ذلك الشخص الـمظلوم الذي يحترق منذ سنوات بنار فِراق أبيه وأمه، أنا أخوك الـمُحبُّ لك، ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾. هنا رُبَّما فقد الاثنان قُدرتهما وانهمرت عيونُهما بالدموع وتعانقا ولما خمدت دموع الشوق قال يوسف الرحيم لأخيه مواسيًا له ومُقَوِّيًا: أخي العزيز! اليوم انتهت أيام بلائك ومصائبك، من كان له أخ مثلي فلا ينبغي عليه أن يقلق. عزيزي! لقد قررتُ أن أُؤَمِّنَ لك كلَّ وسائل الراحة، ولن تتعرَّض بعد ذلك لجفاء إخوتك، فانْسَ الـماضي وأعرض عن جفاء إخوتك ولا تحزن: ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

١- وانظر أيضًا: الثعلبي النيسابوري، **تفسير الكشف والبيان**، ج٥/ ص ٢٣٨.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ۝٧٠ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ۝٧١ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ۝٧٢﴾ [يوسف: ٧٠-٧٢].

الفوائد: في هذا السَّفَر الثاني أمر يوسف ﷺ أن يُحضروا القمح لإخوته من مستودع مصر وسَمَحَ بمُراجعتهم له واحتمل أن لا يعود إخوته إلى مصر ثانية، خاصةً أنهم عانوا في السفر الـماضي. فقد أُخذ أخوهم شمعون رهينةً -كما تذكر التوراة- مما آلم أباهم وأحزنه. فرُبَّما تنقطع علاقتهم بيوسف بعد الآن. لذلك صمَّم يوسف أن يحتفظ بأحد إخوته، ولعلَّه تآمر سرًّا مع أخيه بنيامين على أن يُبقيه عنده، ورُبَّما يكون بنيامين هو الذي أظهر رغبته بالبقاء عند يوسف.

ولكن لما كان يعقوب ﷺ قد أخذ من أبنائه عهدًا أكيدًا أن يُعيدوا بنيامين إليه، فلو طلب العزيز (أي يوسف) من إخوته أن يتركوا بنيامين عنده لن يقبلوا بذلك بالتأكيد، بل سيقولون: إنه هو أيضًا سيأخذ حِمل بعير ويرجع معهم إلى كنعان.

لهذا السبب، اضطرَّ يوسفُ للتخطيط مع أخيه لحيلةٍ تُمَكِّنُه من الاحتفاظ بأخيه عنده بشكل قانوني، وهي أن يضع قدح سِقاية الـملك الذهبيّ وسط رِحال أخيه فيُعيد بنيامين إلى مصر ثانيةً بهذه الحُجَّة.

عندما انتهت عمليات تحميل الحبوب، تهيَّأ الإخوة للسفر كي يُوصلوا الغلَّة إلى وطنهم بسرعة. هنا وضع يوسف أو أحد موظفيه قدح الـملك الذهبيّ في رحل بنيامين.

ولما كانت مسؤولية حفظ الأوعية الـملكية تقع على عاتق موظفي القصر، بدؤوا بالبحث عن القدح، وظنوا بالقافلة سوءًا ورُبَّما أطْلَعَ يوسفُ ذاتُه موظفيه على فقدان الوعاء، لكن هذا بعيد.

وعلى كل حال لما تحرَّكت القافلة نادى شخصٌ: أيتها القافلة! إنكم لسارقون.

ينبغي أن نعلم أنه من البعيد أن يأمر يوسف ﷺ باتهام القافلة بالسرقة، بل الصحيح أن موظفي القصر لما شعروا بفقدان القدح الـملكي أعلنوا ذلك.

ورُبَّما كان يوسف لا يرغب بقيامهم بذلك الإعلان بل كان يميل أن يحتجَّ بنيامين بذلك -أي بوجود القدح الـملكي في رحاله- ويطلب العودة إلى مصر. وأيًّا كان الأمر، فبالتأكيد لم يَقُمْ

يوسف عليه السلام بما يُلام عليه في ذلك الأمر.

كان في ذلك النداء إهانة للقافلة ولأبناء يعقوب. بناءً على ذلك قام يوسف عليه السلام بوضع القدح في رحل أخيه سرًّا على نحو لا يعلم بذلك لا إخوته ولا موظفو القصر، وهذا هو المراد من قوله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ﴾.

لما لم يجد موظفو المستودع قدح السِّقاية، اعتقدوا أن المسافرين الكنعانيين اغترُّوا باهتمام العزيز الزائد بهم فأخذوا معهم قَدَحَ سِقايته. فنادى مناديهم: ﴿أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ﴾

قال بعضهم: إن فقدان قدح السِّقاية لا يُبرِّر اتهام القافلة والإخوة الأحد عشر بالسرقة فقالوا: مُراده من ﴿إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ﴾ سرقة يوسف في طفولته من يدي أبيه. لكن هذا القول غير صحيح بنظرنا، لأنهم لم يأخذوا يوسف من أبيهم بشكل مخفيّ كما يفعل اللصوص.

وقال بعضهم: إن جملة: ﴿إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ﴾ جملة استفهامية حُذف منها حرف الاستفهام. لكن ينبغي أن نقول: إن هذا الكلام غير صحيح، لأن اتّهامهم بالسرقة لم يكن بأمرٍ من يوسف بل قال الموظفون ذلك انطلاقًا من مسؤوليتهم وتشدَّدوا مع القافلة حتى أجبروهم على تقديم رحالهم للفحص والتفتيش.

إذن الوجه الصحيح أن الموظفين أسندوا تلك التهمة إلى القافلة دون الرجوع إلى يوسف وبدؤوا بتفتيش القافلة. وأن الذي نادى ذلك النداء أحد موظفي المستودع أو أحد مشرفي القصر ولذلك قالوا: ﴿نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ﴾.

تعرُّض إخوة يوسف للغربة

وقع نداء ﴿إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ﴾ مثل الصاعقة على أسماع إخوة يوسف، وكان كخنجر غُرس في صدورهم، ولما كانوا قد اتُّهموا من قبل بالتجسُّس أيضًا فإن تهمتهم الحالية جعلتهم يشعرون بالوحدة والغربة وكان الأمرُ ضربةً قاصمةً لهم. واستسلموا لموظفي المستودع مثل جيش مهزوم وقالوا: ﴿مَّاذَا تَفۡقِدُونَ﴾؟ ودافعوا عن أنفسهم قائلين: إنكم تعلمون أننا لسنا بلصوص وأننا لما وجدنا نقودنا في رحالنا في سفرنا السابق أتينا بها إليكم، وقد كمَّمنا أفواه دوابِّنا لما عبرنا

مزارع مصر لئلا تتناول من حروث الناس شيئًا، وأقسموا قائلين: لم نأتِ بنيّة السرقة والفساد ولسنا من أهل ذلك: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ نحن طاهرون أبرياء ولا يُمكننا أن نجد وعاءكم الضائع بين رحالنا ونفوز بالجائزة: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ﴾. وإن لم تصدقونا فتعالوا وفتّشوا بأنفسكم.

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ٧٣ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ٧٤ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٧٥ فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ٧٦﴾ [يوسف: ٧٣-٧٦].

الفوائد: دعا موظفو المستودع القافلة إلى المحاكمة، وأيّد يوسف عليه السلام هذا الإجراء. وقالوا لإخوة يوسف: لو رأينا صاع الملك في رحالكم فما جزاء من سرقه؟ فأجابوا مطمئنين إلى براءتهم من هذا الأمر: أي حكم أصدرتموه بحق السارق فنحن جاهزون للقبول به وتنفيذه.

ولكن يبدو أنه عندما سأل الموظفون ما جزاء السارق؟ أجاب إخوة يوسف أن جزاء السارق هو أن يتم استرقاقه، ونحن نُجازي السارق هذه المجازاة. أي أن هذا الحكم أصدره إخوة يوسف لا موظفوه، لأنه لم تكن هناك مثل هذه العقوبة في قانون مَلِكِ مصر، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾.

إذن من المُحتمل أن عقوبة السارق في شريعة إبراهيم عليه السلام كانت مثل هذا الاسترقاق. وبناءً على ذلك، أصدر موظفو القصر حكمًا بتفتيش القافلة وأن من وُجد صُواع الملك في رَحْلِهِ فسيُسْتَرَقُّ.

وقال بعضهم: إن حكم استعباد من يُوجد الصاع في رحله لم يكن قانونًا بل ذكره الإخوة استنادًا إلى يقينهم ببراءتهم من هذه التهمة الكبيرة، فقالوا: نحن جاهزون حتى لاسترقاق من تجدون الصاع في رحله. وقيل: إن ذلك الحكم رُبَّما كان قانونًا معمولاً به في بلاد مصر. ولكن كما

ذكرنا: كان ذلك الحكم قانونًا في شريعة يعقوب ﵇ لذلك ذكره الإخوة وقبله موظفو مصر.

التفتيش الـماهر كان من خطَّة يوسف

يتبيّن من جملة: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ أن يوسف نفسه قام بعملية التفتيش هذه بمهارة كي لا يُهان إخوته.

لم يبدأ بتفتيش رحل بنيامين كي لا يُثير الشكوك حول نفسه، بل بدأ بأوعية إخوته الآخرين، وفتَّش رحل بنيامين في وسط تفتش رحالهم أو جعله آخر رحل لتفتيشه، واستخرج قدح الـمَلِكِ منه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾.

أيقن الجميع أن بنيامين سارق وأنه طبقًا لما وافقوا عليه من حكم ينبغي استرقاقه. بهذه الخطة احتفظ يوسف بأخيه عنده، وكان هذا التدبير الذي نجح دون أي صخب أو ضجَّة مددًا غيبيًّا، لذلك قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾. وإلا فإن قوانين مصر لم تكن لتسمح بالاحتفاظ بالأخ دون سبب وجيه، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾.

بِنَاءً عَلَى ذَلِكَ وكما تُشير إليه هذه الآية الأخيرة لم يكن الحكم باسترقاق السارق قانونًا مصريًا بل كان حكمًا شخصيًا ألقاه الله على ألسنة إخوة يوسف كي يتم إبقاء بنيامين عند يوسف في مصر.

وجملتا ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ و﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ لا تتناسبان حسب الظاهر مع الحكم الذي أصدره يوسف، بل الـمراد منهما أنه لأجل قرب يوسف وبنيامين ودرجاتهما عندنا أنقذنا أسرة يعقوب من العيش في البرية ونقلناهم إلى العيش في الـمدينة والتواصل مع يوسف.

والـمقصود من كلمة: ﴿ذِى عِلْمٍ﴾ العلم العرضي، ومن كلمة ﴿عَلِيمٌ﴾ العلم الذاتي أي علم الله.

﴿قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا

كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [يوسف: ٧٧-٧٩].

الفوائد: رُغم أن بنيامين كان بريئًا، وأنه قام بإثبات الجرم على نفسه بالاتفاق مع أخيه الذي قال له: سأحتفظ بك عندي، إلا أنه لما بدا أمام الإخوة -ظاهرًا- أن أحد إخوتهم من أبناء يعقوب سَرَقَ، شعر الإخوة بالخجل الشديد وبالخزي والعار.

قال الشاعر (بيت من الشعر بالفارسية):

لما قام أحد القوم بعمل جاهل صار جميع الأبرياء الأنقياء غشاشين

بناءً على ذلك، رُبَّما قام سائر أفراد القافلة وأبناء وطنه بلوم بنيامين قائلين: وهل يُمكن لابن نبيٍّ أن يسرق؟ كيف يسرق أحد أبناء إبراهيم؟ وكذلك انتقد الإخوة العشرة بنيامين قائلين: أتينا بك لأخذ حمل زائد لا لتسرق، لقد ذهبتَ بماء وجه أهل بيت النُّبُوَّة؟

ويُمكن القول: إن بنيامين دافع عن نفسه قائلاً: لماذا لا تكون اليد ذاتها التي وضعت النقود في رحالكم [في السفر السابق] هي التي وضعت صُواع الملك في رحلي؟ إن مُجرَّد وجود الصُّوَاع في رحلي لا يدل على أنني سرقته. لكن إخوته لما كانوا غير رحماء به، لم يهتموا بالدفاع عنه. وتظاهر بنيامين أنه تأثر بهذا الأمر كثيرًا في حين أنه لم يكن مكترثًا.

ولكي يُؤكد الإخوة أنهم غير مسؤولين عن فعل أخيهم أجمعوا على قولهم: إن كان هذا الشخص قد سرق فلا علاقة لنا بذلك لأنه من أمٍّ أخرى، وهذه الرذالة إنما رضعها من حليب أمه بدليل أن أخًا سابقًا له من أمه قد سرق: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ﴾. إذن فنحن لا علاقة لنا بمُحاسبته. ويبدو أن نسبتهم السرقة إلى أخيهم يوسف أيضًا إنما كانت بسبب شعورهم بالخجل والخزي بسبب السرقة التي قام بها أخوهم بنيامين.

شهامة يوسف

انزعج يوسف ﷺ كثيرًا مما نسبه إليه إخوته من السرقة، لكنه لكرم أخلاقه وشهامة نفسه لم يُبدها لهم وكتمها في قلبه كسائر الذكريات المُرَّة التي تحمَّلها من هؤلاء الإخوة. قال تعالى:

﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْۚ﴾ وقال: الله أعلم بما تصفون.

وقد قال يوسف: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًاۖ﴾ في جواب إخوته لأنه أراد أن يقول لهم: إن عملكم الآن إذ تُسلِّمون أخاكم بهذه الصورة وتُسيئون القول بحقه أسوأ من السرقة لأن كلامكم يُثبت أن السرقة في دمكم بل أنتم لصوص. لأن مثل ذلك الكلام من الإخوة [أي قولهم: إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل] كلام قبيح وبشع، خاصةً أن الإخوة كان باستطاعتهم أن يقولوا: إن اليد التي وضعت أمتعتهم في رحالهم في سفرهم السابق هي ذاتها التي وضعت هذا الصُّوَاع الملكي في رحل أخينا. ولكن رُبَّما لم يقولوا ذلك حسدًا لأخيهم.

وعلى كل حال حكمت المحكمة بأخذ بنيامين والسماح لبقيّة إخوته بالذهاب.

ولكن لَمَّا كان الإخوة قد عاهدوا أباهم أن يُعيدوا إليه بنيامين لذلك طلبوا من العزيز بكل التماس وتضرُّع قائلين: أيها العزيز! إن لهذا الولد أبًا عجوزًا يأنس به؛ فنرجو منك أن تأخذ أحدنا مكانه، فنحن لا نقول لك أن تصرف النظر عن العقاب، كل ما في الأمر أننا نستحي أن نعود إلى أبينا دونه، لأننا قمنا قديمًا بعمل جعل أبانا يشك فينا ولا نستطيع اليوم أن نُقنع أبانا أن ابنه هذا سرق، ولن يقبل منا أبدًا هذا الكلام. إن استرقاقَ السارق عقوبةٌ يُمكن العفو عنها أو استبدال الشخص بآخر، وكلنا أمل بلطفك وكرمك أيها العزيز: ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

عذر غير مقبول

رُغم أن يوسف عليه السلام كان قلقًا من انزعاج أبيه وحزنه ولم يكن يرغب بمُضايقة إخوته لكنه لم يقبل طلبهم لسببين:

الأول: كان يوسف الصديق مَظْهَرًا للعدل والقسط ولم يكن باستطاعته أن يتجاوز القانون ويأخذ بريئًا مكان مذنب. لذلك قال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾، ولو صرفنا النظر عن حقّ المَلِكِ الخاص فماذا نفعل بالحقّ العام، أي حفظ النظام والأمن المتعلق بعامة طبقات الشعب؟ فلا بدّ من معاقبة السارق كي يعتبر به الآخرون.

الثاني: كان يوسف ﷺ مشتاقًا للبقاء إلى جانب أخيه. فلا معنى لأخذ أخ آخر مكانه، حتى لو كان ذلك الأخ الآخر البريء مستعدًّا لتسليم نفسه للتوقيف بدلاً من الـمُذنب.

بِنَاءً عَلَى ذَلِكَ فالقانون مُحترم ولا يجوز تجاوز القانون بطلب من هذا أو ذاك. أضف إلى ذلك أنه لا بدّ من تأديب السارق نفسه كي لا يُكرِّرَ فعلته السيئة مرةً ثانيةً. عَلَاوَةً عَلَى ذَلِك فإن السارق الذي يُسترَّق:

أولاً: يكون تحت حراسة سيِّده فيمنعه من القيام بمثل هذا العمل ثانيةً.

و**ثانيًا**: عادةً ما تكون السرقة لأجل سدِّ الحاجة، وحاجات العبد على عاتق سيِّده فإذن عندما يكون رقيقًا لن يحتاج إلى السرقة، وإذا حصل على مال كان الـمالُ مُلْكَ سيِّده فلا فائدة له من السرقة.

لذلك لم يكن باستطاعة يوسف ﷺ أن يصرف النظر عن مُعاقبة السارق.

اضطرَّ أبناءُ يعقوب ﷺ إلى تسليم أخيهم بنيامين إلى القانون ومغادرة العزيز وهم يائسون مُحبطون.

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [يوسف: ٨٠-٨٢].

الفوائد: لم تُـجْدِ مساعي إخوة يوسف في استخلاص أخيهم بنيامين من يوسف نفعًا فاجتمعوا إلى بعضهم وتشاوروا سِرًّا كي يجدوا حلاً لهذه الـمعضلة. بدأوا بمُناقشة الـموضوع مع بعضهم بـحِيرَةٍ ووجوههم تعلوها الكآبة والحزن، وحالهم مضطربة وهم يشعرون بالغُربة والغُصَّة، فكان كلُّ واحد منهم يشكو من هذا الوضع الحالي. ماذا نقول لأبينا؟ كيف نواجهه؟ يا الله! ما أصعب وأمرَّ هذا الـمصير الذي قُدِّر علينا؟ لقد حملنا ضغط القحط وجوع نسائنا

وأطفالنا إلى قطع كل هذه الفراسخ للمجيء إلى هنا، عندئذ ألزمنا العزيز بإحضار أخينا الصغير فبذلنا جهدًا كبيرًا لإقناع أبينا بذلك. والآن بعد أن اصطحبنا أخانا معنا إلى مصر قام بسرقة مفضوحة ذهبت بماء وجهنا، وأشْعَرَتْنا بالخزي والخجل من أبينا ومن الناس. هذا عدا عن أن أبانا لن يُصدِّق كلامنا. ألم تكن غُصّة فُقدان يوسف كافية لأبينا حتى يُبتلى بفراق ابنٍ آخرَ له؟ آه! كم سبَّب لنا هذان الأخوان من التعب ووجع الرأس.

قال كبيرهم شمعون: ليس لنا وجه نعود به إلى أبينا، فهذه ثاني مرّة يفقد فيها أعزَّ أبنائه على أيدينا، إضافةً إلى السابقة السيئة التي لدينا بشأن يوسف والـميثاق الغليظ الذي أخذه أبونا منا. أنا لن أخرج من مصر ولا يُمكنني أن أُلاقي أبي الـمسن والحزين خاصةً بعد ذلك الوعد القاطع الذي أخذه مني بأن أُعيد له بنيامين. اذهبوا أنتم فأخبروا أبانا بسبب الـمشكلة والـمصيبة التي وقع بنيامين بها والجُرم الذي ارتكبه وقولوا: نحن أعطيناك عهدنا على قدر استطاعتنا ولكن ما العمل لقد سرق أخونا من غير علمنا ولم يكن لنا علم بالغيب.

هنا يقولون: ﴿إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ﴾ولا يقولون: «إن أخانا سرق»، في حين أنهم لما أخذوه معهم من أبيهم قالوا: «أخانا» وهذا من أنانيتهم وحُبِّهم لأنفسهم.

وعلى كل حال قالوا: لا علم لنا بالغيب ولم نتوقع أن يسرقَ بنيامينُ. وإن كنت لا تُصدِّق كلامَنَا فلدينا مجموعتان من الشواهد على ما نقول:

الـمجموعة الأولى: أهل مدينة مصر الذين سمعوا جميعًا بقصتنا، وَالـمَقْصود مِنْ ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ القرية التي كانت خارج مصر وكانت مخازن الحبوب فيها، ورُبَّما كان الـمقصود من القرية: مصر ذاتها.

الـمجموعة الثانية: القافلة التي رجعنا معها من مصر إلى فلسطين: ﴿وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ﴾.

قال كبير الإخوة كلامه هذا وودَّعهم وبقي في مصر وقلبُه يتألم من الغربة ونفسه تشعر بالضياع وانتظار الـمصير الـمجهول. فهو لا يعلم مدة بقائه في ديار الغربة في أيام القحط تلك

ولا يدري كيف سيُؤمّن معيشته ورُبّما اضطر أن يُصبح عاملاً يعمل مع العمال.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [يوسف: ٨٣-٨٦].

الفوائد: عندما غادر أبناء يعقوب أباهم متجهين إلى مصر في سفرهم الثاني كانوا أحد عشر نفرًا، لكنهم أصبحوا الآن وهم يغادرون مصر عائدين إلى كنعان تسعة أشخاص فقط! فبنيامين تمَّ توقيفه عقوبةً على جُرم فقدان صواع الملك، وشمعون بقي في مصر خجلاً من العودة ولقاء أبيه. دخلت تلك القافلة مُطأطئةً رأسها وحزينةً إلى أرض كنعان.

كان يعقوب عليه السلام يعدّ الأيام لعودة أبنائه. إضافةً إلى انتظاره أن يأتوا بالحبوب في أسرع وقت ممكن. كان ينتظر بشوق عودة بنيامين سالـمًا غانمًا. وعندما كان في أوج الانتظار سمع صوت أجراس جمال القافلة مُعلنةً دخول القافلة. رُبَّما هُرع ذلك الأب الـمُسن مع عدد من أحفاده إلى استقبال القافلة.

لما سمع الأب الكبير صوت زغاريد أحفاده الذي اختلط بصوت أجراس القافلة، فَرِحَ فَرَحًا شديدًا. وكذلك كان الأولاد يقفزون من الفرح. ولكن عندما اقتربت القافلة سمع يعقوب عليه السلام صوت بعض أحفاده يقولون: عمي! أين أبي؟ انزعج يعقوب ورأى أن مثل هذا السؤال يزداد. كان عدد من الأحفاد ضجرًا متململاً. ما الذي يُزعج أبانا الجليل؟ أدركوا من القرائن أن هناك خبرًا جديدًا. دخل الأولاد وفتحوا الأمتعة وانشغلوا بأحوالهم واهتموا بحيواناتهم ثم جاؤوا إلى أبيهم خجلين مُطأطئي الرؤوس بحالة أسوأ من حالتهم يوم أخذوا يوسف ثم أتوا أباهم بخبر افتراس الذئب له. في ذلك اليوم كانت علامات الخيانة والكذب واضحة على جبينهم ولكنهم كانوا ناجحين يمتلكون أسباب القوة والجرأة واستطاعوا أن يختلقوا تلك الكذبة بمهارة، لكنهم

في هذا السفر تعرَّضوا إلى هزائم وفشل كبير ولم يعودوا يستطيعون أن يُثبتوا حتى كلامهم الصادق لأبيهم. كان شعورهم بالخجل والخزي لحنثهم بوعدهم وَلِـمَا وقع من أخيهم فأراق ماء وجههم، ولفقدانهم أخاهم الصغير وأخاهم الكبير، قاصمًا لظهورهم.

قدَّموا تقريرهم لأبيهم أمام بقية أفراد الأسرة بكل خجلٍ وانكسار.

لم يكن الأب صاحب القلب الـمُحطَّم بقادر على تصديقهم، لاسيما ما قالوه عن أخيهم بنيامين. فقال -مُجيبًا عما قالوه - الجملةَ ذاتَها التي قالها عند سماعه خبر افتراس الذئب ليوسف وهي: ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ﴾.

لما كانت أهم مسؤولية أُنيطت بأبناء يعقوب هي حفظ بنيامين، وقد اتهمهم أبوهم بالتفريط به، أخذوا يُحاولون إلقاء مسؤولية كل ما حدث على عاتق بنيامين ذاته، وأصرُّوا أمام أبيهم على أنه سرق.

يتبيّن من عدم حصول يعقوب ؑ على معلومات أكيدة من كلام أولاده، أن أبناءه أنفسهم أيضًا ما كانوا مطمئنين إلى قيام بنيامين بالسرقة، لأن مجرد وجود صواع الـملك في رحله لا يُثبت سرقته له، خاصةً مع سابقة وجود متاعهم ونقودهم في رحالهم دون معرفتهم بمن وضعها فيها، وأن من الـممكن تمامًا أن تكون اليد ذاتها التي وضعت نقودهم ومتاعهم في رحالهم في الـمرة الـماضية قد وضعت هذه الـمرة صواع الـملك في رحل بنيامين. إذن كان على الإخوة أن يُدافعوا عن أخيهم بنيامين لدى العزيز ولكنهم لم يفعلوا ذلك. وهذا يُظهر أن أولئك الإخوة ما كانوا يُحبّون أخاهم الصغير كثيرًا ولا يهتمون لافتراقه عن حضن أبيه كثيرًا. وكانت الأسباب التي حملتهم على ارتكاب جُرمٍ بحقِّ يوسف موجودة بذاتها بشأن بنيامين. أي لم يكن حسدهم لبنيامين بسبب معزَّته الزائدة لدى أبيه بأقل من حسدهم ليوسف. كل ما في الأمر أن بنيامين لم يكن لديه ذلك الجمال والحلاوة وخفة الدم التي كانت ليوسف ولذلك لما وُجد الصُّوَاع في رحل بنيامين لم يُدافع إخوته عنه دفاعًا صحيحًا كأن يقولوا: لعل أحد عمال الـمستودع أو عمال القصر وضعه في رحله وهو ذاته الذي وضع لنا نقودنا ومتاعنا في رحالنا في السفر السابق، بل صدّقوا قيامه

بالسرقة على الفور وقالوا: إن سرقته تُشبه سرقة أخيه من أبيه وأمه: يوسف.

ومن هنا، ولأن كلامهم لم يكن نابعًا من نقاء وإخلاص، لم يؤثر في أبيهم، الذي قال لهم: إن كلامكم هذا أوهام منشؤها نفوسكم الحسودة، وأنا لا أصدق كلامكم ولكن ليس أمامي سوى الصبر.

رُغم كل تلك المصائب، كان قلب يعقوب عليه السلام عامرًا بأمل واضح بأن الله سيجمع جميع أبنائه إليه. ولعل منشأ هذا الأمل الواضح تلك الرؤيا التي رآها يوسف والتي لم يأتِ تأويلها بعد. إذن كان يعقوب عليه السلام آملاً بمستقبل سعيد.

وعلى كل حال، لما قدمت قافلة مصر ولم يكن فيها رئيسها، ووصل إلى يعقوب خبر اعتقال بنيامين المُرعب اشتعل قلبه ألمًا، وبعد ثلاثين عامًا من فراق يوسف تجدَّدت أحزانه بهذه الحادثة وأعرض بوجهه عن أبنائه وجلس جانبًا والحزن يغمر قلبه وهو يقول: واأسفا! وشعر بجبل من الغمِّ والحزن فوق رأسه وابيضت عيناه من الحزن والبكاء.

تساءل الأبناء والأقرباء: كيف لا تزال ذكرى يوسف تجول في رأس أبينا حيةً لم تُمحَ رُغم مرور ثلاثين عامًا عليها؟ لا يزال قلب هذا الأب العجوز يأمل بوصال يوسف!

لكن قلب يعقوب كان يحترق ألمًا لما يرى من سوء نية أبنائه وتشاؤمهم، إذْ كانوا لا يزالون يُعارضونه ويحسدون يوسف لمُجرد ذكر اسمه ويقولون لأبيهم: لماذا لا تزال تذكر يوسف؟ أجل، كان عندهم الحقّ في ذلك، لأنهم عندما كانوا يسمعون اسم يوسف كانت أبدانهم ترتجف هلعًا إذ يتذكرون خيانتهم له، فتتجلَّى أمام أعينهم تلك الجريمة النكراء التي ارتكبوها بحقه وبحق أبيه البريء، لذلك كانوا يُحاولون أن لا يذكر أبوهم اسمَ يوسف كي تبقى جنايتهم وخيانتهم مكتومةً ومستورةً ولا يتذكّروها من جديد.

كان يعقوب يُدرك أن ذكره ليوسف ثقيل على أبنائه لذا كان يتجرع الغُصَّة في نفسه ويكظم غيظه ويقول: إنما أشكو حزني إلى الله. أنا لست مثلكم يائسًا من يوسف العزيز عليّ. أنا مطمئن أنه سيأتي يوم تنزاح فيه عني غمامة الكآبة والحزن هذه، ولكن الله ابتلاني – لِحِكْمَةٍ يعلمها –

بغم فراقه الآن، والله تعالى هو وحده العليم بأسرار تقديره ومصالح تدبيره: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

كان قلب يعقوب مليئًا بالحزن والأسى. كان يُحدِّث نفسه فيقول: يا يوسف يا راحة فؤادي، يا قمري، لماذا اختفيت عن ناظريّ؟ لقد كنت ضياء حياتي، بل نور قلبي، كانت روحي تنتعش وتتجدَّد من صفاء روحك، فما الذي جرى حتى جعلتَ قلبي وحياتي مظلمةً كئيبةً؟ أيها العزيز! في أيِّ صحراء أنت الآن؟ هل تفترش التراب؟ هل تضع رأسك على وسادتك في الليل غريبًا وحيدًا؟ هل أثَّر عليك فراق أهلك؟ هل عيناك البريئتان الجميلتان تملؤهما الدموع؟ أيها العزيز! لقد قصم غيابك ظهري وأذهبَ البصرَ من عينيَّ. لا أستطيع اليوم أن أنظر إلى جمال الطبيعة. عزيزي! لقد امتلأ صدري حزنًا وألمًا وبلغ الأسى مني مبلغه، وإنما أتحمَّل هذه المرارات على أمل الفرج من عند الله. بالطبع كان يعقوب يمتنع عن البوح بلواعج نفسه هذه أمام الآخرين.

وكلما مرَّ الزمان وزادت سِنُّ يعقوب عليه السلام رقَّ قلبه أكثر. وكانت أسرة بني إسرائيل كلُّها تتألم لالـمه، لكن يعقوب كان راضيًا بقدر الله ولم يكن يبث حزنه إلى الخلق فلا لوم عليه. كان يبوح بأسرار قلبه إلى الله فقط ولم يكن قانطًا أبدًا من لطفه العميم: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧﴾ [يوسف: ٨٧].

<u>**الفوائد**</u>: طالت سنة الجدب والقحط، وكاد الطعام الذي اشتراه بنو إسرائيل في سفرهم الثاني ينفد رُغم اقتصادهم فيه، لذلك بدؤوا يتحضرون لسفر ثالث، ولم يستطيعوا أن يمحوا من رأس أبيهم التفكير بيوسف، بل كان تفكيره بيوسف يزداد يومًا بعد يوم. قال يعقوب لأبنائه: ما لم تجدوا يوسف وتُعيدوه إليّ لن يهدأ بالي. لا تقنطوا من وِجدان يوسف. لم يأكله الذئب، فاذهبوا وابحثوا عنه في أرض مصر لعلكم تظفرون به وبأخيه. لا تقنطوا من رحمة الله لأن القنوط من رحمة الله كفر. هنا ذكَّر يعقوب عليه السلام أبناءَه بعدة أمور:

١- لا تمتنعوا عن البحث عن يوسف، وإذا وجدتموه فلا تقلقوا بشأن الخيانة التي قمتم بها بحقه وحقي وسبَّبتم كل ذلك العذاب لي. قد يعفو الله عنكم ويغفر ذنبكم. توبتكم أن تبحثوا عنه وتندموا على ما اقترفتموه من ذنب.

٢- إن يوسف حيٌّ. وهو علاوةً على بقائه حيًّا لم يُصب بأذى في نفسه في هذه المدة. لا تفقدوا الأمل.

وقد يقول قائل: من أين كان ليعقوب هذا اليقين بأن يوسفَ حيٌّ لم يُصب بأذى؟ والجواب: لعل منشأ هذا الإيمان عند يعقوب تلك الرؤيا التي رآها يوسف والتي لم يأتِ تأويلها بعد. ومن الممكن أن يكون منشأ هذا اليقين الوحي الإلهيّ.

٣- نبَّه أبناءَه إلى ذنبهم وإلى ضرورة توبتهم منه، وعلَّمهم طريق التوبة؛ لأن التوبة من كل ذنب يجب أن تتناسب مع طبيعة هذا الذنب. توبة ترك الصلاة قضاؤها، وتوبة أكل مال الناس بالحرام إعادة المال إلى أصحابه و... . والتوبة لا تُقبل إلا إذا تدارك الإنسان ما يُمكن تداركه من الذنب الذي فعله. وتوبة من أضلَّ شخصًا أن يُبْعِدَهُ عن الضلال ويُعيدَه إلى طريق الحقّ ويُرشده إليه. إن توبتكم من إثم أخذ يوسف وإضاعته أن تبحثوا عنه وتجدوه.

٤- أفهمَ أبناءَه أن ذنبَهم قابلٌ للعفو عنه، وَوَعَدَهُمْ بالصفح عن ذنبهم إذا وجدوا يوسفعليه السلام، وقال: سنعفو عنكم أنا ويوسف، والله سيغفر لكم إن تبتم من ذنبكم.

كانت تلك مُقدِّمات حتى إذا ما وجد أبناؤه يوسف عليه السلام أو عرَّف يوسف نفسه إليهم أن لا ينهاروا من شدة الخجل والحياء، وأن لا يُصابوا بصدمةٍ قاتلة.

ورُوي –رُغم أن هذا مُستبعدٌ– أن يعقوب عليه السلام كتب رسالةً إلى عزيز مصر بهذا المضمون:

«من يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله إلى عزيز مصر المُظْهِر للعدل والموفي الكيل، أما بعد: فإنا أهل بيت وُكِّلَ بِنَا البلاء؛ أمَّا جدي إبراهيم فشُدَّتْ يداه ورجلاه وأُلقي في النار، فجعلها الله عليه بردًا وسلامًا، وأما أبي فشُدَّت يداه ورجلاه ووضع السكين على قفاه، ففداه الله. (يقول كاتب هذه السطور: وهذه الجملة غير صحيحة لأنه لم تحدث

لأبيه مثل هذه الحادثة، بل حدثت لعمِّه إسماعيل. علاوةً على أنه لا يصحُّ أن يشتكي يعقوب من ذلك الأمر، لأن الله هو الذي أمر بذبح إسماعيل، وكان ذلك امتحانًا من الله). وأما أنا فكان لي ابن وكان أحبَّ أولادي إليَّ فذهب به إخوته إلى البريَّة ثم أتوني بقميصه ملطَّخًا بالدم، فقالوا: قد أكله الذئب، فذهبت عيناي [من البكاء عليه]، ثم كان لي ابنٌ وكان أخاه لأمه، وكنت أتسلَّى به، وإنك حبسته وزعمت أنه سرق، وإنَّا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقًا، فإن رددته عليَّ وإلا دعوتُ عليك دعوةً تدرك السابع من ولدك»[1].

أخذ أبناء يعقوب هذه الرسالة وحملوها إلى عزيز مصر فلمَّا قرأ يوسف الكتاب لم يتمالك البكاء وَعِيْلَ صبرُه، فأظهر نفسه وقال: ﴿هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ﴾؟؟ وهذا الإخبار هو الذي كان الله تعالى قد أوحاه إليه لما رُمِي في الجبِّ بقوله: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾.

واعلم أن اليأس والقنوط من رحمة الله لا يقع في قلب الإنسان إلا إذا كان لا يعتبر الله غير قادرٍ قدرةً مطلقةً، أو إذا كان يعتبر الله غير كريمٍ أو لا يعتبرُ اللَّهَ عالـمًا بجميع الـمعلومات، وكل واحدة من هذه الاعتقادات كفرٌ، لذا قال الله تعالى: ﴿لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾.

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ٨٨ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ٨٩ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٠﴾ [يوسف: ٨٨-٩٠].

الفوائد: استهلكت أسرة بني إسرائيل التي كانت تتكون من عدة أُسر كل ما كان لديها من

١- انظر: النيسابوري الثعلبي، **قصص الأنبياء الـمسمى بالعرائس**، ص ١٥٢. وانظر البغوي، **معالـم التنزيل**، ٤/ ٢٧١. وأخرجه الحكيم الترمذي وأبو الشيخ عن وهب بن منبه، وهو ضعيف. وانظر: السيوطي، **الدر الـمنثور**، ٤ / ٥٧٩.

طعام في سنوات القحط تلك. الآن ينوي أبناء الأُسرة السفر إلى مصر للمرَّة الثالثة لشراء الحبوب لرفع الجوع عن أنفسهم وحفظ عائلاتهم، وقد أوصاهم أبوهم في هذا السفر أن يبحثوا عن يوسف، ولكنه لم يأتِ على أخيهم الكبير بذكر؛ لأنه كان يحتمل أن يكون أخوهم الكبير مُتّفقًا معهم ويكون على علم بمكانه.

رأى أبناء يعقوب أن البحث عن يوسف الذي فُقد أثره منذ ثلاثين عامًا ليس أمرًا عقلانيًا، وكذلك الشأن بأخي يوسف الذي أصبح عبدًا لعزيز مصر ولم تَعُدْ هناك فائدةٌ من البحث عنه، لكنهم قبلوا كلام أبيهم في الظاهر مراعاةً للأدب رُغم أنهم لا يملكون أي علامة تدلُّهم على مكان يوسف.

الأمر الذي كان يهمُّهم هو الوصول إلى العزيز وشراء الطعام وإنقاذ عائلاتهم من القحط والمجاعة، ولم تكن وصية يعقوب لهم حول يوسف وأخيه مهمةً في نظرهم.

وعلى كل حال، طالت سنوات القحط واستهلكوا رأس مالهم ولم يبقَ لديهم سوى متاع قليل. قال بعضهم: أتوا معهم بشيء من الأثاث القديم لشراء القمح. وقال آخرون: أتوا بشيء من الأقط والصوف والسمن.

بينما كان إخوة يوسف في أسفارهم السابقة جماعة من التجار ذوي الاعتبار والقدرة المالية وأصحاب مال كاف للشراء ولم يكونوا مرتهنين لِمَنَّةِ العزيز، صاروا في هذا السفر خَجِلين ناكسي الرؤوس لأنهم لا يمتلكون نقدًا ذا قيمة.

بعد أن قطعوا الطريق الطويل وصلُوا مصر متعبين منهكين، فذهبوا في البداية نحو أخيهم الكبير وقصُّوا عليه ما جرى عليهم مع أبيهم. ثم دخلوا إلى العزيز بقلب يعمره الأمل ونفس خجلة، وطلبوا من العزيز أن يتصدَّق عليهم ودعوا له بالخير قائلين: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾.

جواز الصدقة على أولاد الأَنْبياء

يُسْتَفَادُ مِنْ جملة: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ...﴾ أن أبناء الأَنْبياء يحلُّ لهم أكل الصدقة. وإضافةً إلى

ذلك فقد وردت في كتاب وسائل الشيعة (كتاب الخُمس والزكاة) أخبار عديدة في أن الصدقة على أولاد رسول الله ﷺ جائزة (فلتُراجع ثمَّة). فالأحاديث التي وضعوها في أنَّ الصَّدَقَةَ لا تَنْبغي لآلِ مُحمَّدٍ أو أنها مُحرَّمة على أولاد الأَنْبياء أحاديث موضوعة لمخالفتها القرآن[1].

هنا وصلت محنة أبناء يعقوب إلى أوجها وأصبحوا في غاية الاضطراب والارتباك. فرقَّ قلبُ عزيز مصر لحالهم عندما رأى أن أولئك الإخوة الأقوياء جاؤوا ملتمسين العون منه قائلين: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾.

رأى يوسف عليه السلام أنه لا يليق به أن يراهم في حالة انكسار وكآبة، فقال لهم في بداية كلامه: هل تعلمون ما فعلتموه من قبل -جهلاً- بأخيكم البريء يوسف؟ وأيُّ ظلم استبحتموه بحقّ ذلك الطفل المظلوم؟

لعلّ يوسف أراد أن يُفهمهم أنه لا ينبغي للإنسان إذا كان مقتدرًا أن يظلم، وأن حالتكم المزرية الآن هي نتيجة من نتائج ذلك الظلم والجهالة التي ارتكبتموها. اضطرب حال أبناء يعقوب بسماعهم هذه الجمل أكثر، فإضافةً إلى غُربتهم وارتباكهم وجوعهم وانكسارهم، شعروا بالخجل والحيرة لسماعهم هذا الكلام. لأنهم عندما رموا بيوسف عليه السلام في غيابة الجُبِّ لم يطَّلع عليهم أحدٌ سواه. فكيف علم عزيز مصر بهذا الأمر. وصلت حيرتهم ومصيبتهم ومسكنتهم إلى أقصاها. ولما كان آخر الشدة أول الفرج، رحمهم يوسف وتبسم في وجوههم ابتسامةً رقيقةً ووضع التاج عن رأسه كي يروه بشكل صحيح ويعرفوه.

لما نظر إليه الإخوة أُصيبوا بالدهشة والحيرة وتملكهم الخوف وقالوا في أنفسهم: هل يُمكن أن يكون عزيزُ مصر، صاحبُ هذا المقام والعظمة، هو أخانا يوسف؟ إن كان هو فعلاً فأيَّ فخر ناله! وقالوا: أأنت يوسف؟ أأنت أخونا المُعذَّب؟ وأدركوا فعلاً أن هذا المسؤول الكبير

١- يمكن القول بأن ما قصَّه القرآن الكريم في هذه السورة كان تشريعًا لمن سبقنا، وقد جاء في شريعة الإسلام ما ينسخه، فلا تعارض بين الآية وبين ما جاء في أحاديث صحيحة رواها الفريقان بأن الصدقة لا تحل لمحمد وآل محمد عليهم السلام. والله تعالى أعلم.

الذي يقفون أمامه خاضعين هو أخوهم الصغير ذاته.

سارع يوسف، قبل أن يُصابَ إخوتُهُ بالسكتةِ من العذاب والحُزْنِ، إلى القول: أجل أنا يوسف وهذا أخي، وبدأ يوسف يعظهم ويُرشدهم وينصحهم.

أشار يوسف -الذي كان يعرف كيف يغتنم الفرص المناسبة بوصفها قائدًا مرشدًا - إلى نقطة مهمة، بالطبع لا يهتم أصحاب المناصب العالية عادةً بسبب مشاغلهم الكثيرة، بالأمور المعنوية والروحية. لكن يوسف ﷺ مع كل جلاله وعظمته كان يهتم بالإيمان والتقوى والفضيلة.

قال يوسف ﷺ مرشدًا إخوته: أجل، هناك أمران أدَّيا إلى نجاحي وتوفيقي وهما سبب سعادة ونجاح كل إنسان:

الأول: التقوى والطهارة وحفظ النفس من الآثام والذنوب.

الثاني: الصبر على المصاعب والشدائد.

لقد شملني الحقّ تعالى بلطفه بسبب ذينك الأمرين: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

كم يحسنُ أن يقتدي زعماء العالم وقادته بعزيز مصر يوسف، ويصرفوا جانبًا من وقتهم في تقوية الإيمان والتقوى لدى شعوبهم، بدلاً من انشغالهم بالتسابق في التسلُّح. وأن يدعوا مجتمع البشرية إلى طهارة الأخلاق وإلى الأمور المعنوية.

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ٩١ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٩٢ ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٣﴾ [يوسف: ٩١-٩٣].

الفوائد: عندما تعرَّف إخوة يوسف عليه ووجدوا أنفسهم أمامه كعبيد أذِلَّاء، جثوا على رُكبهم فورًا واعترفوا بذنبهم. وعندما فهموا أن عزيز مصر بكل ما يملكه من جاهٍ وجلال هو أخوهم سُرُّوا -مِنْ جِهَةٍ- سرورًا لا حدَّ له وشعروا بنوعٍ من الغرور، فقد كانوا يعتبرون أنفسهم

غرباء مساكين لكنهم الآن أصبحوا يشعرون أن بيتَ العزيز بيتُهُم وأنهم لن يُعانوا بعد ذلك من الفقر وضيق ذات اليد، لأن كل خزائن مصر بِيَدِ أخيهم. ومن الجهة الأخرى ولأنهم كانوا قد خانوا أخاهم وظلموه ظلمًا عظيمًا فقد شعروا أمامه بالخجل والاستحياء الذي لا حدَّ له. لذلك قالوا للعزيز جملتين:

الجملة الأولى: لقد فهمنا أن الأمر بيد الله؛ فنحن الذين أردنا إبعادك عن أبينا وأن نُشرِّدك في الأرض كي يصفوَ لنا قلبُ أبينا ونُصبح أعزَّاء لديه، لم نكسب إلا سوء ظنِّه بنا وَجَعْلَه يُعاني ويتألم، وفي مقابل ذلك أوصل اللهُ أخانا المظلوم إلى أوج العِزَّة. ما أحكمه من إله! لقد نقل عبدَهُ الصالحَ المُتَّقي من قعر البئر إلى أوج الملك، فجلالة مقامك وعظمتك ليست مُستندةً إلى وساطة أو احتيال وخداع.

عجبًا ليد الله الحكيم الخفيَّة التي لها القدرة فوق هذا العالم خلافًا لما يُريده العباد! فهو يُوصل من يشاء إلى أوج العِزَّة ولو كان إخوته وجميع أهل الدنيا لا يُريدون ذلك.

يقول الكاتب: قلتُ في ديواني [بالفارسية] المُسمَّى (گلشن قُدْس) أي «روضة أزهار القدس» [ما ترجمتُهُ]:

أفعال الله كلُّها لها حكمة	سخط الله ورضاه له علَّة
أفعال الله كلُّها ذاتُ سبب ودليل	لكن أسبابها خارجة عن فهم العليل
مِنَ المُسَلَّمِ به لدى كلِّ عاقلٍ	أن ليس لأحد علمٌ بأفعال اللهِ
لا يعلم العبد أسرار الله	فلا يليق به أن يسأل كيف ولماذا؟
لو لم يذهب يوسف إلى بئر كنعان	ولو لم يدخل في مصر سِجْنَ السجَّان
كيف كان سيجلس على سرير المُلْكْ	كيف كان مأواه قرب الحق؟
كي يُوصل الخير إلى الشعب	ويُنقذ الشعب من القحط والمجاعة

وقال شاعر آخر: [بيت بالفارسية وترجمتُهُ]:

(على الرُّغم من الإخوة الحُساد *** خرج عزيز مصر من قعر البئر ووصل إلى علياء القمر).

لما رأى إخوة يوسف أنه نال العظمة والجلال من الله حنوا رؤوسهم أمامه ولم يروا سبيلاً أمامهم سوى الاستسلام له قائلين: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾. ولم يُبدِ لهم يوسف ﷺ -بما أُوتيه من نظرة رفيعة ومقام النُّبُوَّة الشامخ- أيَّ نظرة غضب، بل ضرب عنهم صفحًا وعفا عنهم.

الجملة الثانية: أقرّ الإخوة بذنبهم ولسان حالهم يقول: يا تُرى هل سيغفر لنا أخونا خطيئَتَنَا أم لا؟ رغم أنهم يعرفون جيدًا أن يوسف عزيز مصر، رجلٌ شهمٌ كريم الأخلاق، إلا أنه كان من الـممكن أن يعاقب الـمجرمين لا من باب الانتقام بل ليؤدبهم. فهنا قال يوسف ﷺ: إياكم أن تحزنوا وتغتمُّوا ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ [أي لا لوم ولا تقريع]. ما فات باتَ. لن ألومكم على ما سبق، وسأضرب صفحًا عما فعلتم من قبل، وأما ربُّكُم فالأمر إليه ﴿يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

لكن إخوة يوسف ظَلُّوا قلقين لسببين:

الأول: أنهم آذوا أباهم الجليل حتى ابيضَّت عيناه من البكاء.

الثاني: من ناحية الجَدْب والفقر الذي كانوا يعانون منه في ذلك الوقت والذي جعلهم غير قادرين على الإتيان بمال في سفرهم الثالث هذا، فماذا سيفعلون تجاه هذا الغلاء، مع فقرهم وعجزهم عن شراء الطعام؟

حلَّ يوسف ﷺ مشكلتيهما هاتين أيضًا وأزال تمامًا أسباب القلق والغمّ عن نفوسهم وقال:

بالنسبة إلى الـمشكلة الأولى ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا﴾. يقول هذا الرجل السماوي الذي فُتِح عليه باب من عالَم الغيب في قعر البئر وزاوية السِّجْن وأصبح حل الـمشكلات بالنسبة إليه أمرًا سهلاً، بشكل قاطع: خذوا قميصي هذا وألقوه على وجه أبي يرتدُّ بصيرًا.

تعجب إخوته، بل تعجب كل شخص، كيف سيعود البصر إلى أبيه بمثل هذا العمل البسيط؟ هل هذا اكتشافٌ علميٌّ جديد أم ينطوي على صيغة علمية أم أن قميصَ يوسف نازلٌ من الجنَّة؟؟

كل واحد ذهب فيه الخيال إلى مكان. ولكن ينبغي أن نقول: ما العيب في أن يكون يوسف عليه السلام مثل عيسى عليه السلام قادرًا على شفاء الأعمى؟

وأما بالنسبة إلى المسألة الثانية، أي القلق من القحط والغلاء، فقد قال يوسف لهم: اذهبوا وأحضِروا كلَّ أسرتي واسكنوا هنا في المدينة. وأنا سأكون مسؤولاً عن معيشتكم. ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

ثم قام يوسف عليه السلام بتعريف إخوته إلى مَلِكِ مصر ورجال البلاد، وكان لهذا التعريف أثرٌ عميقٌ وجيِّدٌ جدًّا، لأن أهل مصر كانوا حتى تلك اللحظة يتصوَّرون أن غلامًا كنعانيًا وصل بفضل أهليته إلى هذه الدرجة من الاحترام والشعبية، وكانوا يعتقدون أن قائدهم عبدٌ مملوكٌ. ولكن لما عرَّفهم يوسف بإخوته تبيَّن لهم أنه من أحفاد إبراهيم خليل الرحمن وأنه ذو نسب عريق وأسرة جليلة.

إضافةً إلى ذلك، ولكي يُفْرِحَ يوسُفُ إخوتَهُ ويخلِّصَهم من الاستحياء الذي استولى عليهم، قال لهم: إنكم سببٌ لعزَّتي وزيادة احترام الناس لي. ثم طلب من ملك مصر أن يعطي أسرة يعقوب مرعًى مناسبًا يسكنون فيه، ففعل، فأصبح بإمكانهم الهجرة الآن والنجاة من ضيق اليد وضغط القحط والمجاعة. ووضع تحت أيدي إخوته وسائل وعربات ومراكب مزيَّنة كي ينقلوا بها كل أثاثهم وقِطعَان مواشيهم إلى مصر. ولو أراد مساعدتهم حتى يبقوا في فلسطين لأدى ذلك إلى بقائهم بعيدين عنه، ولكانت كلفة نقل الحبوب والأطعمة إليهم كبيرة.

وعلى كل حال، وصل أبناء يعقوب إلى الغرور الكامل والنجاح الذي لم يكونوا يتصوَّرونه، لأنهم لما أرادوا الانطلاق نحو مصر كانوا بائسين قد استولى عليهم الفقر والاحتياج والقلق، وكانوا يدركون أن أباهم سَيِّءُ الظنِّ بهم، وكانوا محتارين كيف سيطيعون أمرَ أبيهم في البحث عن يوسف عليه السلام؟ وكيف لهم أن يقوموا بأمرٍ لا يُجَدِّد في نفس أبيهم ذكرى خيانتهم السابقة له؟ ومن الجهة الأخرى كانوا قلقين من بكاء الأب وفقدانه لبصره، ومن ضغط الفقر والبضاعة المزجاة التي أتوا بها.

أما الآن فقد زالت كلُّ الهموم ودواعي القلق والاضطراب تلك، فكانت السعادة تغمرهم وهم يستعدُّون للحركة نحو فلسطين، والدنيا لا تكاد تسعهم فرحًا واستبشارًا. هكذا قرّروا العودةَ، أحد عشر فردًا، مع أخيهم الكبير، وفي الظن الغالب، مع أخيهم الصغير بنيامين أيضًا، كي يرى بنيامين أقرباءه ويقوم بأعماله الشخصية.

مَن الذي كان بيَدِه القميص وَمَن الذي نال فخر حمله؟ ليس من المعلوم، وربما كانوا قد أرسلوا القميص إلى أبيهم على جناح السرعة كي يروا أباهم بصيرًا عندما يصلون إليه.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ۝٩٤ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ۝٩٥﴾ [يوسف: ٩٤-٩٥].

الفوائد: كانت أسرة يعقوب عليه السلام التي ضربها القحط تعدّ الأيّام لعودة كبارها حاملين الزاد معهم من مصر. كان أفراد الأسرة يعلمون أن السفر سيستغرق بضعة أيام، وكانوا يتوقّعون أن يخرج أبناء يعقوب من مصر في هذه الأيام.

لم تكن أسرة يعقوب تعرف ماذا حدث. لكن أفرادها أخذوا يسمعون من يعقوب عليه السلام كلامًا جديدًا لا يُصدَّق. هل أوحي إلى يعقوب خبرٌ من عالـم الغيب؟ إنه يقول: إنِّي أجد ريح يوسف! لقد اقترب زمن الوصال. إن الـمستقبل السعيد الذي كان يخمن مجيئه حسب رؤيا يوسف قبل ثلاثين عامًا أصبح قريبًا. بدت علامات النشاط على وجه يعقوب عليه السلام. كأنه قد أوحي إليه. هل في ذلك أمر غير معقول؟ كيف ونحن نجد اليوم أن لاقطًا إلكترونيًا يمكنه أن يلتقط أصواتًا آتية من مئات الفراسخ في الشرق أو الغرب فلماذا لا يمكن ليعقوب أن يجد ريح يوسف؟ أي ريح كانت ليوسف أصلاً؟ كيف لم يشم يعقوب تلك الريح بقوته النبوية من قبل ولكنه وجد هذه الريح الآن؟

يمكن القول: إن الـمقصود من ريح يوسف ريح لقائه. مثلاً يقولون: أتت ريح الفتح والنصر في تلك الـمعركة، أي أن الفتح والنصر أصبحا قريبين. ويُقال: إن ريح السلام آتية: يعني أن السلام أصبح قريبًا، هذا رغم أنه ليس للسلام والنصر ريح. فالظاهر أن هذا هو مراد يعقوب عليه السلام من قوله: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ أي أن رؤيتي ليوسف عليه السلام ووصالي له أصبحا قريبَين.

رأى علماء التفسير أن قميص يوسف ﷺ أو يوسف نفسه لم يكن له رائحة حتى تصل تلك الرائحة من مصر إلى كنعان، لأن القميص إما أن يكون من القطن أو من الكتان أو الحرير وليس لهذه الأقمشة رائحة خاصة. الرائحة الطيبة تأتي عادةً من الأزهار أو من بعض الزيوت الخاصة التي يحمل الهواء ذراتها اللطيفة وينشرها ولكن ليس لقميص يوسف أو لجسمه هذه الخاصية. لهذا قال بعضهم: إن المقصود الإشارة إلى حاسّة الشم الباطنية التي يدرك بها الإنسان أشياء عن بُعد مثل الأذن الباطنة أو العين الباطنة التي يدرك بها الإنسان أشياء لا يمكنه إدراكها بعينه أو بأذنه الظاهرية، ولهذا اعتبر الله في آيات عديدة الكفار الذين لم يكونوا قادرين على إدراك شيءٍ من الحق عميًا صمًّا بكمًا، أي أنهم عميٌ صمٌّ باطنيًا. أو مثلاً جاء في الروايات أن بعض الناس يوم القيامة سيجدون ريح الجنة من على بعد خمسمئة عام في حين أن طوائف أخرى من الخاطئين المذنبين لن يجدوا ريح الجنة مع أنه يُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ خَمْسِمئَةِ عامٍ. أو كقول رسول الله ﷺ: «**إني لأجد ريح أُوَيْسٍ القَرَنِيِّ**»[1] أو قوله ﷺ: «**إني لأجد نفس الرحمن من صوب اليمن**»[2].

أو مثل قول مجنون العامري:

أرادوا ليخفوا قبرَها عن حبيبها وطيبُ ترابِ القبرِ دلَّ على القبرِ

وكل من لم يكن له حسُّ الشمِّ الباطنيّ أو الشمِّ النَّبَوِيّ الذي كان ليعقوب ﷺ لن يصدِّق كلامه. لكن يجب أن نقول: إن مراد يعقوب ﷺ من جملة: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾هو قرب الوصال ذاك لا ريحه.

هل كانت رائحة يوسف العطرة محمولة على حبل مَوَدَّةٍ مُدَّ من مصر إلى كنعان؟ هل أوصلت أمواج المحبة أو أمواج النُّبُوَّة وأشعتها تلك الريح من الابن إلى الأب؟ هل كانت تلك الأمواج

١- لم أجد له أصلاً.

٢- أخرجه الطبراني، ٧/ ٥٢ ، رقم (٦٣٥٧)، والحديث موضوع، كما قال الملا علي القاري الحنفي في كتابه **المصنوع في معرفة الحديث الموضوع**، ص ٦٩، رقم (٧٠) ، وفي **الموضوعات الكبرى**، ص ٨٢، رقم (٣٠٣). وقال الحافظ العراقي في **تخريج أحاديث الإحياء**: لم أجد له أصلاً.

سريعة التأثير أكثر من أمواج الراديو، وهل يُمكن أن تكون للمحبّة موجاتٌ تُكتشف يومًا ما مع تقدم العلم؟ ولو كان للمحبَّة موجاتٌ فلا شك أنها لم تكن مخفيةً عن يعقوب وإلا لما قالوا له: ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾. رُبَّما يُخترع في المستقبل جهاز ينقل موجات المحبَّة من الشرق إلى الغرب، فهل أعطى الله يعقوب عليه السلام مثل هذا الجهاز؟ وهل أنه مثلما تقوم تلك الأجهزة بنقل ذبذبات وطنين الذرات المادية إلى مسامع أهل الدنيا كذلك كانت تنقل ريح يوسف من خلال جهاز غيبيّ قلبيّ؟ كما كانت تنقل صوت الحقِّ من عرش الله إلى سمع رسولالله صلى الله عليه وآله وسلم. هل نحتاج إلى هذه التوجيهات أم يكفينا أن نقول: إن المراد من وجدان ريح يوسف التعبير بعبارة مجازية عن استشعار قُرب الوصال؟

جاء في الرواية: «**أنّ لِلَّهِ تعالى مَلَكاً يُنادِي عندَ كُلِّ صلاةٍ: يا بَني آدَمَ! قُومُوا إلى نِيرَانِكُمْ التي أوْقَدْتُمُوها على أنْفُسِكُمْ فَأَطْفِئُوها بالصَّلاةِ**»[1].

أورد المُفسِّرون توجيهات لقميص يوسف فقالوا مثلاً: إن القميص كان قميصًا نزل من الجنَّة على إبراهيم عليه السلام ولذلك كان له مثل تلك الرائحة، لكن كل تلك التوجيهات ضعيفة.

لم يُصدِّق أحفاد يعقوب كلام جدِّهم العجوز ذي الضمير النيِّر ولذلك كانوا يقولون: ألم يكن الجوع يكفينا حتى جاء هذا العجوز وزاد الطين بِلَّة وأخذ يقول كلامًا لا يُمكن تصديقه؟ ولذلك قالوا له: ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ . أجل، لديهم الحقّ أن يقولوا ذلك لأنه لم يكن لهم علم بما يجري وراء الستار وبالأسرار الخفيَّة لعالم الغيب الإلهي. إنهم يظنون أن كلام يعقوب كلام فارغ. لكن المستقبل أظهر أن ذلك الشيخ المُسِنّ ذا الضمير النيِّر أدرك الحقيقة التي عجز سائرُ الناس عن إدراكها، ولذلك بيَّن يعقوب عليه السلام عذرهم وقال: إني لأجد ريح يوسف ﴿لَوْلَآ

١- أخرجه الطبراني في **الأوسط**، والضياء المقدسي عن أنس، ورواه الهيثمي في **مجمع الزوائد**، ١/ ٢٩٩، حديث رقم: (١٦٥٩) وقال: «رواه الطبراني في الأوسط والصغير وقال: تفرَّد به يحيى بن زهير القرشي، قلت: ولم أجد من ذَكَرَهُ إلا أنه روى عن أزهر بن سعد السمان، ورَوَى عنه يعقوب ابن إسحق المخرمي، وبقية رجاله رجال الصحيح». انتهى من مجمع الزوائد للحافظ الهيثمي.

أَن تُفَنِّدُونِ﴾ أي لولا أنكم ستضلِّلونني وتظنُّون أن إحساسي هذا خاطئ.

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾ [يوسف: ٩٦-٩٨].

الفوائد: استقبلت أسرة يعقوب مسافريها العائدين من مصر الذين أَتَوْهُم بما يحتاجونه من الحبوب والطعام، وسُرَّت الأسرة بذلك. لكن كانت على وجوه مسافريهم أمارات السرور والنشاط الزائد وذلك لأن حالهم هذه المرة كانت تختلف عن أحوالهم في المرات الماضية. هذه المرة حُلَّت جميع مشكلاتهم فكانوا في غاية الفرح والسرور.

أول ما فعلوه أنهم أعطوا قميص يوسف لأبيهم. قال بعضهم: كان يهوذا هو الذي حمل قميص يوسف ﷺ كي يُعوِّض الآن عما فعله سابقًا عندما أتى بقميص يوسف المُلطَّخ بالدَّم عندما رموا يوسف في الجُبّ.

هل حمل أحد أبناء يعقوب القميص؟ أم حمله شخص باسم «**البشير**» تقدم على القافلة وسبقها إلى يعقوب؟ قال بعضهم: كان الذي حمل القميص مالك بن ذعر رئيس القافلة الذي اشترى يوسف من إخوته.

وقال آخرون: كان الذي حمل القميص ابن جارية يعقوب، إذ كان يعقوب قد اشترى جاريةً مع ولدها، فباع ولدها إلى قافلةٍ ذاهبةٍ إلى مصر، وفرَّق بذلك بين الولدِ وأمِّهِ، فشكت أمُّ الولد يعقوبَ إلى الله ودعت على يعقوب قائلةً: اللهم فرِّق بينه وبين ابنه، ولا تُرِهِ ابْنَهُ ما لم أرَ ابني قبل ذلك، فاستجاب الله دعاءها! وكان اسم ابنها «**البشير**». فكان البشير هذا هو حامل القميص، حيث صادف عند دخوله كنعان امرأةً عجوزًا على ماء، فسألها عن موضع منزل يعقوب؟ فقالت العجوز: وماذا تريد منه؟ قال: أريد أن أبشّره ببشرى يوسف. فقالت العجوز: يا ربِّ! لقد سألتك أن لا يرى يعقوب ابنه قبل أن أرى ابني. فقال البشير لها: وما اسم ابنك أيتها العجوز؟ قالت: اسمه «**البشير**»، وقد بيع إلى قافلة ذاهبة إلى مصر، فذهبوا به إلى مصر وانقطعت أخباره

عني منذ سنوات طويلة، ولا أملك أي شيء أو اسم يدلني على مكانه. فعرف البشير أن المرأة العجوز هي أمّه، فقال لها: أمي الحبيبة! أبشري فقد أدركتِ مُناكِ، وآتاكِ اللهُ سُؤْلَكِ، أنا هو ابنك «**البشير**». فاعتنقته أمُّه وأخذت بيده إلى بيت يعقوب!! وبمجرّد وروده على يعقوب ألقى «البشيرُ» قميص يوسف على وجهه فارتدَّ بصيرًا، وعادت إلى يعقوب تلك القوة والنشاط والحيوية التي كانت عنده قبل أن يفارقه يوسف(١).

كان يعقوب عليه السلام تائهًا حائرًا نتيجةً لفراق عزيزه يوسف وحزنه الشديد عليه، ولم يكن ينتبه كثيرًا إلى الأشخاص الذين حوله. فلما وصلت إليه بشرى يوسف عليه السلام وقميصه، عاد إليه نشاطه وبصره وفتح عينيه فرأى أمامه أبناءه الذين رجعوا من مصر. عمَّت الفرحة والسعادة أسرة يعقوب بعد سنوات من الحزن والأسى. رجع إلى يعقوب بصره بعد العمى وفُرِّج عنه بعد الشدة ورجع إليه نشاطه وحيويته بعد المحنة.

انتشر خبر إبصار يعقوب وهُرِع الناس إلى زيارته فوجًا فوجًا. سأل يعقوب عليه السلام أبناءه، قبل كل شيء، عن أحوال يوسف وكيفية معيشته ورئاسته في مصر وسألهم عما جرى بينهم وبين يوسف؟ فقصَّ عليه أبناؤه كيف استقبلهم يوسف وأكرمهم.

ارتفعت منزلة يعقوب وعظمته في نظر أبنائه إذْ كانوا من قبل إذا قال لهم أبوهم: اذهبوا وابحثوا عن يوسف، أو قال لهم: إني لأجد ريح يوسف أي أشعر أن زمن لقائه قد اقترب، اعتبروا كلامه ناجمًا عن ضعف قواه العقلية! أما الآن فقد اتَّضح للجميع أن ما كان يقوله ذلك الشيخ العاقل كان إلهامًا غيبيًا وإخبارًا عن علم يقيني. ومن الجهة الأخرى شعر أبناؤه بالخجل الشديد أمام وجدانهم بسبب ما فعلوه، وكانوا ينظرون إلى أبيهم وَ رُؤُوسُهُم مُنَكَّسَةٌ من شدة الحياء والخجل. ولأن يعقوب عليه السلام كان يُريد خيرهم ولكنهم هم الذين لم يكونوا يُعيرون كلماته اهتمامًا جاهلين بلطف الله الخفيّ، قال لهم مُرشدًا ومُبيِّنًا: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

١- لم أجد لقصة الجارية هذه وابنها الذي اسمه «البشير» أي سند في أي كتاب معتبر، كشأن كثير من القصص التفصيلية التي يذكرها المؤلِّف.

هل علمتم الآن أي خطط ترسمها يد قدرة الله في عالـم الغيب، وكيف تسوق قدرة الله العِلل والأسباب الظاهرية نحو الهدف الذي أراده الله؟ هل علمتم أن الله جعل الحِكَمَ والكُنُوزَ كامنةً في البلايا والـمحن؟ اعترف الأبناء بكل خجل وحياء بجهلهم وخطئهم وندموا - بما أوتوه من فِطرة أصيلة ونجابة موروثة- على أعمالهم الـماضية. وكما شعروا أمام يوسف بالخجل والحياء شعروا أيضًا - بالـمقدار ذاته - بالخجل والحياء من أبيهم. وندموا على ذنبهم الذي ارتكبوه منذ سنوات وأحرقوا به قلب أبيهم.

بما أنهم آذَوْا أباهم كان من الضروري، إن أرادوا التوبة وأن يعفوَ الله عن ذنبهم، أن يؤدُّوا حقّ أبيهم ويعتذروا منه لأنه ما لم يؤدِّ الـمُذنبُ حقّ الناس لا تُقبل توبته. لقد ظلم أبناء يعقوب أباهم وَلِحُسْنِ حظِّهم لا يزال أبوهم حيًا فعليهم قبل كل شيء أن يطلبوا منه أن يعفو عنهم ويصفح عن ذنبهم. إضافةً إلى ذلك عليهم أن يلتمسوا منه أن يسأل اللّهَ لهم غفران ذنوبهم، إضافةً، بالطبع، إلى استغفارهم هم أنفسهم أيضًا اللّهَ عزَّ وجلَّ، لذا قالوا: ﴿يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ﴾.

كان يعقوب أبًا رحيمًا رؤوفًا، وآلمه ما وجده في أبنائه من الحياء والانكسار، ولذلك، دون أن يُوبِّخهم، وعدهم أنه سوف يستغفر لهم عن قريب.

قال الـمُفسِّرون: أخَّرَ الاستغفارَ لهم إلى السحر من ليلة الجمعة؛ لأن ذلك وقتٌ يُستجاب فيه الدعاء.

هنا أخطأ بعضهم في استنباطه من هذه القصة وقالوا: بما أن أبناء يعقوب طلبوا منه أن يستغفر لهم، فلا مانع أن يطلب كل شخص من النبيِّ أو الإمام —حتى في هذه الأزمنة التي لم يعد فيها النبيُّ ولا الإمام في هذه الدنيا-، أن يستغفر له حتى يغفر الله له. والحقيقة أن هذا الكلام خطأ لما يلي:

أولاً: لقد ظلم أبناء يعقوب أباهم، وكان لزامًا عليهم أن يعتذروا منه ويذهبوا إليه لطلب الصفح عنهم. أما الآخرون —كالناس في زماننا- فلم يظلموا النبيَّ أو الإمامَ حتى يلزم عليهم أن يذهبوا إليه لطلب العفو منه ويسألوه أن يستغفر اللّهَ لهم!

ثانيًا: كان يعقوب ﷺ حيًّا حاضرًا وكان باستطاعة أبنائه أن يذهبوا إليه. أما الآخرون الذين مات نبيُّهم منذ مئات السنين فكيف يذهبون إليه؟ لا يُمكنهم أن يطلبوا شيئًا من نبيِّهم لأنه رحل عن هذه الدنيا إلى عالم آخر. وكذلك الإمام الذي تُوفِّي وانتقل من دار الفناء إلى دار السلام لم يعد حاضرًا ناظرًا حتى يستطيع أحد من الناس أن يطلب منه شيئًا.

ثالثًا: قال الله: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ﴾ ولم يقل: «ادعوا نَبِيَّكُمْ»! وقال: أمير المؤمنين عليّ ﷺ في نهج البلاغة: «إن الله ليس له باب ولا بوَّاب، وهو حاضرٌ في كُلِّ مكان ومع كُلِّ إنسان وجان»[1].

رابعًا: قرأ هؤلاء الخرافيون جملة: ﴿يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ﴾ولم يقرؤوا الجملة التي قالها يعقوب ﷺ في الآية ٦٧ لأبنائه، أو قرؤوها ولم يفهموها، وهي قوله: ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾.

أجل، كان من الواجب على أبناء يعقوب أن يذهبوا إلى أبيهم طالما كان حيًّا وحاضرًا، ويطلبوا منه الصفح والغفران. وكانت طريقة استغفارهم -كما كتبوا- وقوفُ يعقوب ﷺ أمامهم يدعو اللَّهَ، واصطفافُ أبنائه خلفه يُؤَمِّنون على دعائه (أي يقولون: آمين).

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ٩٩ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ١٠٠﴾ [يوسف: ٩٩-١٠٠].

الفوائد: أعاد يوسف إخوته في سفرهم الثالث إلى كنعان ومعهم مئتا جمل وعدة عربات

١- هذا النص غير موجود في **نهج البلاغة**، وإن كان معناه صحيحًا تمامًا، ولكنه ليس بحديث. وأقرب ما وجدته له دُعاءٌ مرويٌّ عن الإمام الْبَاقِرِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ ﷺ يقول فيه: «.... **يَا مَنْ لَيْسَ لَهُ حَاجِبٌ يُغْشَى، يَا مَنْ لَيْسَ لَهُ بَوَّابٌ يُرْشَى**.... الخ». انظر **بحار الأنوار**، ج ٧٣/ ص ٢٦٢.

ودعاهم أن يقطعوا هم وأبوهم علاقتهم بكنعان ويُهاجروا إلى مصر بكل ما معهم ويُقيموا عنده في مصر.

عندما وصل إخوته إلى كنعان وأخبروا أباهم وعائلاتهم بشوقٍ ونشاط عن استقبال يوسف لهم وضيافته وإكرامه، وعن مقامه الرفيع في مصر؛ استعدَّ الجميع ليُهاجروا إليها، ولا شك أن ذلك الأمر كان ضروريًّا لأنه لم تصل سنوات القحط إلى آخرها بعد وكانت أسرته بحاجة تامة إلى معيَّة يوسف. لذلك لما علموا بمقام يوسف ومنزلته وما له من محبة في قلوب أهل مصر قالوا لأبيهم: إن يوسف اليوم قد نال صلاحيات واسعة في حكم مصر بفضل أتعابه وخدماته المخلصة وجهوده الخيِّرة المتواصلة في حفظ ذلك البلد الكبير، وأنه أنقذ شعبًا كبيرًا من الهلاك بالمجاعة، ولدوره في الحياة الاقتصادية وضبطه لموضوع الحبوب وتقسيمه الصحيح لها، وأنه هو نفسه قد دعاهم جميعًا إلى المجيء إليه في مصر بعد أن يرتدَّ إلى أبيهم بصره وأن يبدؤوا حياةً مرفَّهةً في مصر في ظلِّ حمايته.

انطلاق القافلة السعيدة نحو مصر

بعد أن عاد إلى أبيهم بصره وبعد أن علموا أن أحد أفراد أسرتهم أصبح ذا مقامٍ وقدرةٍ خاصَّةٍ متميِّزةٍ في مصر وأن النجاة من المجاعة أصبحت متاحةً لهم، غدت أسرة يعقوب سعيدةً مبتهجةً وصرفت كلَّ همَّتها لإعدادِ العُدَّة للسفر إلى مصر، وانطلقوا نحو مصر بكل نشاط فقطعوا المسافة التي تستغرق عادةً اثني عشر يومًا في تسعة أيام.

كانت البهجة والفرحة تعمر أفراد القافلة إذ كانت قلوب أفرادها مليئةً بمحبَّة يوسف ﷺ، لاسيما الأب الشيخ الكبير الذي عاش سنوات طويلة على أمل وصال ابنه، فلا شك أن الدنيا لم تكن تسعه من الفرح والابتهاج وأنه كان يعدُّ الدقائق للقاء ابنه العزيز وضمه بين ذراعيه.

ومن الجهة الأخرى كان يوسف ﷺ أيضًا، الذي ابتُلي بفراق والديه منذ سنوات طويلة، مشتاقًا جدًّا إلى اللحظة التي يتبدل فيها عذاب الهجران إلى سعادة الوصال.

عندما وصل خبر قدوم أسرة بني إسرائيل إلى مصر، خرج يوسف ﷺ الذي كان مشتاقًا إلى

رؤية أبيه وأمه لتعظيمهما وإكرامهما وإجلالهما بعد أن حُرم من رؤيتهما مدَّة ثلاثين عامًا، خرج إلى خارج المدينة حيث مقر رئاسته ليستقبلهم.

وتدل جملة: ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ﴾ أن يوسف عليه السلام ذهب إلى استقبال عائلته ولقائهم خارج مصر، ولا شك أن وزراء مصر ورجال الدولة فيها والجيش وغيرهم من الأعيان والطبقات خرجوا مع عزيز مصر احترامًا له في موكب استقبال أسرته.

من المُسلَّم به أنه لما رأى يعقوب عليه السلام ومرافقوه موكب يوسف عليه السلام من بعيد استولى على الطرفين الحماس والانفعال الشديد. إن يعقوب عليه السلام الذي تحمَّل من المصائب ما تحمَّل والذي عاش سنوات طويلة بقلب يعمره الأمل بوصال يوسف عليه السلام والذي تحمَّل الأمرَّين من فراق ابنه العزيز، مشتاقٌ الآن لضمِّ يوسف العزيز إلى صدره بعد أن أُخِذ من حضن أبيه وأمه كل تلك السنوات الطويلة. لا شك أن القلم لا يستطيع وصف حالة الوصال تلك بعد الهجران.

ويتبيَّن من جملة: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ﴾ أن موكب يوسف كان في انتظارهم وأن يعقوب عليه السلام هو الذي دخل عليه. أسرع أبو يوسف وأُمُّه وهما يذوبان شوقًا لوصاله نحو يوسف وضموا إليهم ابنهم العزيز واستعد موكب يوسف لاستضافة الضيوف الجدد.

بمُجرَّد أن رأى يوسف أباه وأمه ضمهم بين ذراعيه وجعلهم إلى جانبه وكان لسان حال الأب الجليل والأم التي عانت من ألم فراق حبيبها يقول: أيها العزيز! لقد ابتُلينا بفراقك وذاب قلبنا شوقًا إليك واحترقت روحنا حزنًا عليك. لقد أُخذْتَ عندما كنتَ شابًّا يافعًا من حضن محبتنا وابتُليت بالحوادث المرة وكان دعاؤنا وألمنا وحُرقتنا عليك معك دائمًا.

ذُكر في التاريخ أنه بمُجرَّد أن رأى الأب الجليل ابنَه قال: **السلام عليك يا مُذهب الأحزان.** ضمَّ يوسفُ الجليلُ الذي كان غارقًا في المشاعر وأمواج الانفعالات العاطفية، بكلِّ تواضع وإخلاص، أباه وأمه العزيزين إلى جوار لطفه ومحبته وقوته، وبشرهم بالأمن والراحة وأنه قد انتهت من الآن فصاعدًا محنة الفراق وضيق ذات اليد والقحط والمجاعة قائلاً لهم: ليس عليكم

أن تقلقوا بعد الآن وسوف تعيشون باحترام وبراحة تامة، فلنتحرك الآن نحو المدينة.

يُسْتَفَادُ مِنْ جملة ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ﴾ وجملة: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ عدة أمور:

الأول: أنَّ أمَّ يوسف كانت على قيد الحياة حتى ذلك الوقت، فما ذكره بعضهم من أن يوسف لما أُخذ عبدًا مملوكًا إلى مصر وكانت القافلة في الطريق وجد قبر أمِّهِ فرمى نفسه عليه من فوق الجمل وبدأ بالبكاء والعويل، كذِبٌ.

الثاني: يقولون: لما ورد يعقوب إلى مصر استقبله يوسف وأراد أن يُجِلَّ أباه وأمَّه إلا أن جاه الرئاسة وجلالها منعاه من ذلك، ولم يترجَّل عن مركبه لذا جاء جبريل وذهب بنور النُّبُوَّة منه! وهذا أيضًا كذبٌ كُلُّهُ لأن الآيات -كما بيَّنا آنفًا- تدل على أن يوسف كان في حالة انتظار لقدوم أبويه وأن يعقوب هو الذي ورد عليه وأن يوسف ضمَّه بين ذراعيه وأعطاه مكانًا عنده وبعد دخولهم إلى مصر أجلس أبويه بكل احترام وإجلال على العرش كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾. فهل يُمكن القول إن يوسف الذي أثنى اللهُ تعالى عليه كل ذلك الثناء وكان من المحسنين الذين لا يغفلون عن ذكر الله ولم ينحرف عن العدل خلال رئاسته قيد أنملة، هو الآن يتكبر ويغتر أمام أبيه؟! إن هذا لا يُمكن تصديقه أبدًا.

تحرَّكت أسرة يعقوب بعد دخولها إلى مصر نحو مركز الرئاسة وقصر العزيز الخاص ولما وصلوا إليه أخذوا مراكبهم إلى مكان معيَّن أرشدهم إليه موظفو القصر وأُدْخِلَتْ تلك الأسرة بكل احترام إلى القصر. في تلك اللحظة أجلَسَ يوسفُ صاحِبُ الأخلاق الكريمة العالية، أبويه، بكل تواضع، على سرير المُلك والرئاسة: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ﴾.

بعد أن أجلس أبويه على العرش، يقول القرآن: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ﴾. هل يعود فاعل «خَرُّوا» على إخوة يوسف أم على إخوته وأبويه معًا فيكون المعنى أنهم سجدوا له جميعًا؟ في حين أن يوسف كان على رأسه التاج ويلبس اللباس الرسمي بكل جلال وعظمة. هل أدهشتهم عظمة يوسف وجلاله فسجدوا له مرةً واحدة تعظيمًا وإجلالاً؟ ولعل هذا النوع من الآداب كان رائجًا في مصر. أم أنهم سجدوا لِلَّهِ شكرًا له على أنه منح ابنهم يوسف هذا المقام الرفيع؟

هنا نطق يوسف ببضع كلمات شكرًا لِلَّهِ على ألطافه ورحمته وقال:

١- ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ﴾. أولاً، تذكَّر الحُلُم الذي رآه في سنّ طفولته، بعناية الله به، والذي فسره له أبوه بأنه سينال مقامًا رفيعًا وسيُعلِّمه تأويل الأحاديث ويُتِمُّ نعمته عليه كما أتمَّها على آل يعقوب من قبل. الآن بعد كل تلك السنوات حان وقت تأويل تلك الرؤيا وتحقَّقت، وَنَجَا آلُ يعقوب ببركة يوسف من عذاب القحط والمجاعة ومن العيش في الصحراء.

نعم، عندما كان الجميع مستغرقًا في البهجة والسرور في تلك الحفلة الجليلة، كان لا بدَّ من ذِكر الله. وهكذا قال يوسف وهو يشكر نعمة الله عليه ويعترف بفضله: ﴿قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾أي أنَّ الله حقَّق تلك الرؤيا، وليس الأمر ناتجًا عن فكري أو فكرك.

٢- تذكَّر يوسف أيام السجن ولم ينسَ زمان السجن والسجناء. إنه يذكر لطفه وعنايته التي أنعم بها على عبده المظلوم وأنقذ عبده المسكين من براثن الظلم والجور والاستبداد وبيَّن براءَتَهُ لجميع الناس وحفظ له ماء وجهه وعِرضه وأوصله إلى أعلى المناصب. قال يوسف: يا أبتِ الكريم! إنها إرادة الله: ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ﴾.

ولكن لماذا لم يذكر يوسف عليه السلام نجاته من الجُبِّ؟ لكي لا يُذكِّر إخوته بفعلتهم لأنه قد قال لهم: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾.

٣- وذكر يوسف نجاته من الفرقة والفراق وأن الله أنعم على أسرته نِعمةً كبيرة وأتى بكم من البدو إلى المدينة والحضارة حيث توجد جميع سُبل الرُّقي والتكامل، كي تتمتعوا بالمسجد والمدرسة وسائر الهبات الإلهية: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾. الآن تستطيع أسرتنا أن تعيش عيشةً كريمة وأن تسير في طريق الرُّقي والتكامل في حدود الإمكانات المتاحة.

٤- ذَكَرَ يوسف النجاة من اختلاف الكلمة والفتنة التي أوقعها الشيطان بينه وبين إخوته وكيف أزال من بيننا الصفاء والمودة والوحدة ودفع إخوتي -بدافع الحسد- إلى إبعادي عن أسرتي وبيعي كعبد مملوك. ما أمرَّ المصائب التي جلبوها على أبي الذي تحطم قلبه. أما الآن فها نحن الآن قد تبدل فراقنا إلى وصال وتبدل خلاف إخوتي معي إلى صلح واتحاد، وتبدلت

الكراهية والكدر إلى مودة ومحبة: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾.

جاء في الأخبار أن يعقوب عليه السلام سأل هنا ابنه يوسف عليه السلام فقال: أخبرني ما فعل إخوتك بك؟ فلم يرَ يوسف من المناسب أن يُجدِّد آلام أبيه ويُحرج إخوته، فقال: يا أبتِ! الآن وقت الاشتغال بالشكر لا بالشكوى.

وفي النهاية لقد فعل الله اللطيف الحكيم العليم ما رأى لنا فيه الصلاح والخير، وكل ما وقع علينا وقع بحكمة الله وعلمه فلا يجوز أن ننسى ألطاف الله.

إحدى الفتن النفسية والشيطانية التي حفظ الله تعالى يوسف منها ونجَّاه من شرها أنه لم يبتله بعشق زليخا لأن يوسف كان عارفًا بالله ومُحِبًّا له، والتلوُّث بالعشق مرض نفسي شديد أنقَذَ اللّٰهُ يوسفَ منه.

أحد آثار الإيمان بالله ومحبته أن يُنقِذَ اللّٰهُ عبدَه من العشق الـمُفرط والحبّ الجنوني للموجودات المادّيّة، لأنه عندما يقْوَى نور الإيمان في قلب الإنسان ويشتدّ، لا تخدعه ظواهر عالم المادة وجمالها فلا يلهث وراءها بجنون. ولذلك قال عليٌّ عليه السلام في وصف المؤمنين: «**عَظُمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ**». وسُئل الإمام الصادق عليه السلام عَنِ الْعِشْقِ فقال: «**قُلُوبٌ خَلَتْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ حُبَّ غَيْرِهِ**»[1].

طبقًا لبعض التواريخ كان عدد أفراد أسرة يعقوب ثلاثةً وسبعين أو خمسةً وسبعين نفرًا وكان يعقوب عليه السلام أكبرهم سنًّا، وقام يوسف عليه السلام الذي كان بمنزلة رئيس وزراء مصر بأخذ إجازةٍ من ملك مصر لتقديم أرض الجوشن التي كانت مرعًى ومرتعًا خِصبًا لأسرة يعقوب كي يسكنوا فيها ويرعَوا مواشيهم، وأسكن أباه الجليل في قصر خاصّ وانصرف إخوته إلى أعمالهم. وليس من المعلوم أنهم شاركوا في أعمال الدولة أم لا.

لم تمضِ مدة طويلة حتى وقع يعقوب طريحًا يحتضر على فراش الموت بعد أن عاش مئةً وأربعين عامًا، وحضر يوسف عليه السلام عنده، كما حضر ابناه أفراييم ومنسّي فباركهم يعقوب.

---

١ - ابن بابويه القمي، **الأمالي**، المجلس ٩٥، ص ٦٦٨. وله أيضًا في: **علل الشرائع**، ج ١/ ص ١٤٠ .

أوصى يعقوب ﵇ في حال احتضاره أبناءَه بوصية مهمة ذكرها القرآن الـمجيد في الآيتين (١٣٢ و١٣٣) من سورة البقرة حيث قال: من تعبدون بعد موتي؟ فقالوا: نعبد إلهك وملجأك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق. لقد أوصاهم بهذه الوصية كي يلزموا التوحيد وعبادة الله، ويُحافظوا على دين التوحيد سبيل العِزّة والسعادة في الدُّنْيَا والآخرة.

﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف: ١٠١].

الفوائد: رُغم كل الرئاسة ومشاغلها التي كانت تشغل يوسف ﵇، فإن قلبه الحيَّ اليَقِظَ لم يتلطَّخ بحُبِّ الرئاسة والجاه ولم يغفل عن الله. كان قلبه طافحًا بنور الإيمان وهو في أوج سلطانه وقدرته، ولم ينصرف عن لذَّة مناجاة الله. أما عُبَّاد الدُّنْيَا فإنهم يغفلون عن الله عندما ينالون أقل منصب ورئاسة في الدُّنْيَا، وتُفْتَتَنُ قلوبُهُم بالـمظاهر الفاتنة للرئاسة والحكم فيصرفون كل همَّتهم إليها. أما ابن يعقوب فكان يعتبر نفسه عبدًا ضعيفًا لِلَّهِ ويقول: إلهي! أنت الذي أكرمتني بهذه الرئاسة والـمنصب والحكم وأنت الذي علمتني علم حل الـمشكلات، وإرادتي خاضعة لقدرتك. أنت وليي في الدُّنْيَا والآخرة وأنا لا أجد في نفسي أي أهلية أو استحقاق لشيء ولا أرى نفسي جديرًا، فارحمني واجعلني في زمرة عبادك الصالحين. إنه يُشير في كلامه هذا إلى أن الـمُلْك الذي أكرمه الله به لا يُعدُّ شيئًا يُذكر أبدًا أمام قدرة الله تعالى وملكه الذي لا حدود له. كما أنه يُقرُّ أن العلم الذي أكرمه الله به ليس سوى قطرة من بحر علم الله وحكمته الذي لا ساحل له. كما يشير في مناجاته تلك إلى أن قافلة الوجود وهذه الدُّنْيَا بكل ما فيها من نعم لا تُعدُّ شيئًا مقارنةً مع نعمة التسليم للحقّ فكل ما في الكون فانٍ وإلى زوال ولا قيمة له. أما الشيء الذي يطلبه يوسف من الله يرى أنه هو القيمة الحقيقية فهو أن يعيش مسلمًا مطيعًا لأمر الله. إنه يسأل ربَّه أن يعيش مستسلمًا للحقّ وأن يبقى ثابتًا على ذلك حتى يُسلمَ الروح ويُلحِقَه اللهُ بعباده الصالحين ويجعلَه في الآخرة الأبدية في سعادة لا نهاية لها مُتنعِّمًا بظل لطف الله: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

هذه هي مدرسة يوسف عليه السلام الذي كان من رُسل الله العظام.

ليت جميع رؤساء الدُّنْيَا وأصحاب القدرة فيها يقتدون بيوسف عليه السلام، وليت الذين بيدهم زمام أمور المسلمين ويقومون بإدارة أمورهم لا يغفلون لحظةً عن الله وحقائق عالم الآخرة، ولا ينخدعون بزخارف الدُّنْيَا وبهارجها. لاسيما أولئك الرؤساء وأصحاب القوة الذين ألقوا الرعب في نفوس أهالي شرق العالم وغربه بما هم عليه من سَبُعِيَّةٍ وتوحُّش، فهم يستخدمون علمهم وقدرتهم -وهي من الأمور التي تُعتبر رأسمال كبير للبشر- في طريق إفناء البشرية[1].

لو نظر قادة العالم إلى كمالات يوسف عليه السلام وتأسَّوا بها وجعلوها نبراسًا لهم لأنقذوا العالم من الجهل والضعف وفقدان الإيمان ومن الخوف كما فعل يوسف في زمانه هذا الأمر.

إذن اتضح لنا أن مدرسة يوسف عليه السلام هي مدرسة التقوى والطهارة وإرادة الخير للبشر، وقد أوحى الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم بهذه القصة والأخبار ليهدي البشر إلى ما فيه سعادتهم وخيرهم.

﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ ١٠٢﴾ [يوسف: ١٠٢].

الفوائد: هذه القصة الجميلة والمليئة بالفوائد والمثيرة والمليئة بالعبر، مهمَّةٌ جدًا من جهات عديدة، لذلك أشار الله تعالى إليها باسم الإشارة «**ذَٰلِكَ**» الذي يُشار به إلى الشيء العظيم ويدل على العظمة. وتبرز أهمية هذه القصة في الأمور التالية:

١- أفضل سند تاريخي لأحوال مصر - في تلك الحقبة - وأحوال بني إسرائيل.

٢- تَقْوَى يوسف عليه السلام وطهارته أسوةٌ ونبراسٌ لجميع الشباب. وفي كيد إخوة يوسف ومكرهم وكيد زليخا الذي لم يوصل أصحابه إلى ما أرادوه من أهداف، أكبر عبرة ودرس لأهل الدنيا لاسيما الحُكَّام.

٣- أصبحت هذه القصة ببلاغتها وفصاحتها وإثارتها منبع إلهام واقتباس للشعراء والكُتَّاب.

١- يبدو أنه يشير في ذلك إلى أمريكا وإدارتها الشيطانية التي تسعى للهيمنة على شعوب العالم بقوتها العسكرية الهائلة وأسلحتها الحديثة الفتَّاكة.

٤- صارت هذه القصة بسبب إعجازها مرشدًا لطُلاب الهداية، لذا قال الله تعالى: إنها من أنباء الغيب، وإنها معجزة، ودليلٌ على صدق محمَّد ﷺ، وذلك لأنه لم يكن لرسول الله ﷺ ولا لأهل الدنيا أيُّ معرفةٍ بهذه القصَّة بكل تلك التفاصيل التي ذكرها القرآن، ولا يُتَصَوَّرُ أن يستطيع أحدٌ من البشر أن يُبيِّن مثل هذه الوقائع التاريخية على نحوٍ يتطابق مع الواقع بحذافيره دون أن يوحيَ الله له بذلك.

وإذا أشكل أحدهم فقال: إن هذه القصة موجودةٌ بعينها في التوراة، وقد أخذها محمَّدٌ (ﷺ) أو أشخاصٌ آخرون من التوراة، فليس فيها إخبار بالغيب، فكيف قال عنها: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾؟ فالجواب ما يلي:

أولاً: كثيرٌ من النقاط والأمور التي جاءت في هذه القصَّة في القرآن ليست موجودة في التوراة، لاسيما الأمور المفيدة التي هي هدف القرآن من بيان هذه القصة، فلا نجد لها أيَّ ذِكْرٍ في التوراة. وكل من أراد أن يعرف صدق ما نقوله فليرجع إلى كتاب «**جمال إنسانيت**» أي جمال الإنسانية للشيخ صالحي [نجف آبادي] حيث وضَّح هناك كل الأمور الموجودة في القرآن والتي لا وجود لها في التوراة.

ثانيًا: راجعوا التوراة لتروا أن هذه القصة جاءت في التوراة مختلطةً بكثير من الأوهام ونسبة الأمور القبيحة ليوسف ؈ وغير ذلك من الأمور المخالفة للعقل والواقع. في حين أن القرآن الكريم لم يأتِ بكلمة واحدة من الأوهام والخرافات في هذه القصة. ومعظم قصص القرآن إخبارٌ عن الغيب كقصة نوح التي قال تعالى بشأنها في سورة هود: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا...﴾ [هود: ٤٩]

إذن، لم يكُنْ رسولُ اللهِ ﷺ ولا قومُهُ يعلمون تأويل هذه الأخبار وكيف حدثت في عالم الواقع. وحتى لو كان أهل التوراة يعلمون شيئًا من هذه القصص، فإن نبيَّ الإسلام ﷺ وقومه الذين كانوا أميين لم يكونوا يعلمون منها شيئًا.

ثالثًا: يُمكن القول إن هذه الأخبار هي غيب بالنسبة إلى نبيِّ الإسلام ﷺ وقومه، وليست

غيبًا بالنسبة إلى الآخرين، لأن محمدًا ﷺ كان أُميًّا لا يقرأ ولا يكتب ولم يُعلِّمه أحدٌ التوراة والإنجيل، ولو وُجد من يُعلِّمه ما فيهما فإن القصص الموجودة في التوراة والإنجيل مشوبة بأوهام وبأمور غير معقولة.

وفي ما يلي نذكر نموذجًا عما ذكرته التوراة في قصة يوسف: فقد جاء في سِفر التكوين، الإصحاح ٣٧/ فقرة ٢: «هَذِهِ مَوَالِيدُ يَعْقُوبَ: يُوسُفُ إِذْ كَانَ ابْنَ سَبْعَ عَشَرَةَ سَنَةً كَانَ يَرْعَى مَعَ إِخْوَتِهِ الْغَنَمَ...».

أما القرآن فيقول إنَّ يوسف أُبْعِد عن إخوته وهو طفل.

تقول التوراة (في سفر التكوين، الإصحاح ٣٧) إن يعقوب هو الذي أراد أن يرسل ابنه يوسف إلى البادية عند إخوته.

أما القرآن فيقول: إن الإخوة هم الذين أصرُّوا على أخذ يوسف بلطائف المكْر والحيَل من عند أبيهم.

فإن قال قائلٌ: إذن أُوحِيَت إلى محمَّدٍ ﷺ أخبارٌ غيبيةٌ، وهذا يدل على أنه ﷺ كان يعلم الغيب، فكيف قال تعالى في آيات أخرى: إن محمدًا ﷺ لا يعلم الغيب؟

فالجواب: رُغم أن الله تعالى أوحى بعض أخبار الغيب إلى محمد ﷺ، إلا أن الذي يؤمن بما أُوحي إليه من أخبار الغيب ويُصدِّق بها يكون مؤمنًا بأخبار الغيب لا عالـمًا بالغيب. لأنه لا يُمكننا أن نقول: إن كل من علَّمه الآخرون شيئًا من أخبار الغيب صار عالـمًا بالغيب، ولذلك فإن كل ما أوحاه الله من أخبار الغيب إلى رسولِه محمَّد ﷺ بلَّغه النبيُّ إلى أمته فأصبحت أمته أيضًا عالـمة بهذه الأخبار، ومعلومٌ أن أمته ليست عالـمةً بالغيب بل مؤمنةً بهذه الأخبار الغيبية.

إذن، فإن محمدًا ﷺ وعلماءَ أمته والصالحين منها كُلَّهم يؤمنون بأخبار الغيب ولا أحد منهم يُعتبر عالـمًا بالغيب. فهم عالـمون ومؤمنون بالأخبار وليسوا عالـمين بالغيب نفسه. إن الخبر الغيبي ليس هو الغيب ذاته. فالله عالـم بالغيب والآخرون عالـمون بالأخبار الغيبية فقط لا غير، أي عالـمون بتلك الأخبار التي بيَّنها الله لعباده فحسب.

﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣ وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٤ وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ١٠٥﴾ [يوسف: ١٠٣-١٠٥].

الفوائد: لَمَّا نزلت سورة يوسف بكل هذه الهداية والفصاحة والأخبار الغيبية، توقَّع رسول الله ﷺ أن يؤمن المشركون بنزول هذه السورة، لكنهم استمرُّوا على كفرهم ولم يؤمنوا. هذا رغم أن هذه السورة دليل على صدق نُبُوَّة محمَّد ﷺ. لذلك كان الحزنُ يُصيبُ رسولَ الله ﷺ من لجاج الكفار وعنادهم، لأن الآيات التي تؤثِّر في الصخر لم تكن تؤثِّر في قلوب قومه.

فقال تعالى - للترويح عن نفس رسول الله ﷺ ورفع حزنه وإزالة حرصه على إيمان أولئك الكفَّار -: لن تؤثِّرَ أيَّةُ معجزةٍ في الذين أمضوا عمرًا في الجهل والبطالة وعيونُهُم وآذانُهُم وقلوبُهُم معرضةٌ عن كلام الحق. ورغم أنك تسعى بكل جهدك لهدايتهم وإرشادهم، لكن سعيك وحرصك هذا لن يؤثِّر فيهم. فعليك أن تقوم بواجبك في الدعوة وأن لا تهتم بالنتائج بعد ذلك بل تترك الأمر إلى الله تعالى، لأن هذه الأدلة الكثيرة على التوحيد موجودة في السموات والأرض، هم يرونها جميعًا، ففي كل شيء له آيةٌ تدلُّ على أنه الواحدُ، لكن ما فائدة ذلك لقومٍ جاهلين ينظرون ولا يعتبرون؟

﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ١٠٦ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٠٧﴾ [يوسف: ١٠٦-١٠٧].

لفوائد: بيَّنت الآيات السابقة أن الضالِّين لا يؤمنون. وفي هذه الآية يُبيِّنُ الله تعالى أن أكثر الذين يؤمنون ويتسمَّوْنَ بالـمؤمنين هم مشركون في الواقع، لأنهم لم يدركوا التوحيدَ الواقعيَّ ولم يعرفوا درجات التوحيد، وقد سَمُّوا أنفسهم بالـمسلمين متخيِّلين أنهم كذلك فعلاً. ذلك أن التوحيد أربعة أقسام: **توحيد الذات، وتوحيد الصفات، وتوحيد الأفعال، وتوحيد العبادة.**

وهؤلاء الناس يشكُّون في هذه الأقسام الأربعة كلِّها أو ينكرونها. وبعضهم يُقِرُّ بتوحيد

الذات ولكنه لا يعترف بالأقسام الثلاثة الأخرى للتوحيد. وبعضهم يفهمون قسمين من أقسام التوحيد ولكنهم لا يعرفون القسمين الآخرين أو ينكرونهما. وبعضهم يؤمنون بالأقسام الثلاثة الأولى للتوحيد لكنْ لديهم إشكالٌ في القسم الرابع (توحيد العبادة).

وعلى كل حال، كلُّ مَنْ لَمْ يكُنْ كاملاً في الإيمان بأقسام التوحيد الأربعة كلِّها، أو كان عنده إشكالٌ أو شكٌّ في أحدها، فهو ليس موحِّدًا حقيقيًّا بل مشركًا.

كان مشركو مكَّة مؤمنين بالتوحيد الذاتي والصفاتي، ولكنهم كانوا منحرفين في توحيد الأفعال وتوحيد العبادة.

أحد الدلائل على التوحيد التي ذُكِرَتْ في الآية ١٠٧ هي أن الإنسان عاجز جدًّا في محيط حياته، ولا أحد سوى الله يحيط بجميع أنواع البلايا والمزعجات والمشاكل والمصائب التي تحفُّ بالإنسان، ويقدر على دفعها عنه، ويحفظ البشر في كل لحظة من أسباب الشقاء جميعها، ويغلق أبواب المصائب والبلايا أمامه، فهل يمكن لأحدٍ أن يحفظ الإنسان من الحوادث ويدْفَع عنه السوء سوى الله؟ بالطبع لا. فعلى الإنسان أن لا يأمَنَ أن يأتيه عذاب الله من حيث لا يشعر، وعليه أن يلجأ إلى الله وحده.

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٠٨﴾ [يوسف: ١٠٨].

الفوائد: ذَكَرَتْ هذه الآيةُ خَصِيصَتَيْنِ من خصائص دين الإسلام ومنهج المسلمين، وهما دليلٌ أيضًا على حقيقة الإسلام وصحَّته، وهما:

أولاً: أن دعوة الإسلام دعوةٌ إلى الله وحده لا إلى غيره، لأن كل ما سوى الله مخلوقٌ لِلَّهِ ولا يملكون من أمر أنفسهم شيئًا.

الثاني: ينبغي أن تقوم هذه الدعوة على أساس العقل والبصيرة العقلية والتوجُّه إلى الله تعالى، وينبغي أن يَبْتَنِيَ الدينُ على البصيرة العقلية، ولا يجوز الإصغاء إلى كل صوت ونداء، ولا ينبغي السير وراء كل شخص جاهل، فالتقليد باطلٌ في دين الله.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠٩﴾ [يوسف: ١٠٩].

الفوائد: كان منكرو النُّبُوَّةِ يتوقَّعون دائمًا أن لا يكون رسول الله ﷺ مثلهم، بل أن يكون شخصًا مجرَّدًا من الصفات البشرية ومتَّصِفًا بالصفات الـملكوتية، بل يتوقعون أن يكون بين الله ورسوله نوعٌ من نسبٍ أو قرابة، وبما أن الله مجرَّدٌ ولا يحدُّه مكانٌ ولا زمانٌ، فيجب - برأيهم - أن يكون الرسول على نحو يشبه ذلك أيضًا. لذلك ردَّ الله تعالى عليهم في هذه الآية.

يقول بعض الناس مثلاً: بما أننا لسنا أهلاً أن نكون مخلوقين لِلَّهِ، فلا بد أن يكون اللهُ قد خلق في البداية العقلَ الـمجرَّد أو نورَ النُّبُوَّة، ثم قام ذلك العقل الـمجردُ أو النورُ بِـخَلْقِنَا. وقد ردَّ الله تعالى هذا الكلام في القرآن وقال: لم نرسل قبلك أنبياءَ إلا كانوا بشرًا رجالاً كسائر أفراد البشر، كل ما في الأمر أن الرسل يجب أن يتمتعوا بعدة صفات خاصَّة هي التالية:

الأولى: أن يكونوا رجالاً لا نساءً. لا شك أنه كانت هناك عديد من النساء الـمُخْتارات الـمُقَرَّبات من الله، حتى أنه وجدت نساء كان لهنَّ اتِّصال بالوحي الإلـهي وبعالـم الغيب عبر الإلهام، وقد اختصَّهُنَّ الله تعالى بلطف منه وعناية خاصَّة، مثل مريم وسارة وآسية، ولكن لم يكن لأيٍّ منهنَّ منصب السفارة عن الله والرسالة.

الثانية: يجب أن يكون رُسُل الله بشرًا مثل سائر البشر من جميع النواحي وأن يميِّزوا أنفسهم عن سائر الناس.

الثالثة: أن يوحَى إليهم ويأخذوا العلم بحقائق الدين من الله تعالى عبر الـملاك أو بشكل مباشر ودون واسطة.

الرابعة: أن لا يكونوا من أهل البادية بل من أهالي الـمدن والقرى ويعيشون وسط الـمجتمع.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١١٠﴾ [يوسف: ١١٠].

الفوائد: يُبَيِّنُ اللهُ تعالى لنا في هذه الآية سُنَّةً تاريخيةً عامَّةً، تسليةً للمؤمنين وتقويةً لقلوبهم حتى لا يصيبها اليأس، فيقول: مهما ضاقت السبل على أهل الحق والحقيقة فإنهم لا يهلكون. أي أن أعداء الحق يواصلون دائمًا عداوتهم له ويحقِّقون انتصارات على أهل الحق أحيانًا، ويُضَيِّقون على رسل الله ويضطهدونهم إلى درجة ينقطع معها أمل الرسل وأتباعهم بنصر الله وبهداية قومهم، ويظنون أن وعد الله بنصرِ عباده المؤمنين لا يتعلق بهذه الدنيا بل بالآخرة. ولكن في اللحظة الأخيرة يأتي نصر الله، ويُهزَم المعاندون للحق، ولربما هلكوا جميعًا كقوم نوح وهود وصالح وشُعَيْب وأمثالهم.

في زمن نبي الإسلام ﷺ، وقعت على رسول الله وعلى أصحابه حوادث جسيمة كادت تصيبهم باليأس. رمى مشركو العرب المسلمين عن قوس واحدة وتكالبت على المسلمين القبائل العربية الوثنية واليهود إلى حد اقترابهم من القضاء التام على المسلمين وظنُّوا أنهم سيريحون خاطرهم من خطر الإسلام تمامًا، ولكن سرعان ما جاء نصر الله، وقوي أمر الإسلام وانتشر.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ١١١﴾ [يوسف: ١١١].

الفوائد: تنقسم التواريخ والقصص الرائجة بين الناس إلى عدة أقسام:

١- التواريخ الأسطورية التي نسجها كل شعب حول تاريخه القديم وعظمائه، وغالبًا ما أُلحِق بذلك أمورٌ خارقةٌ للعادة، كالتواريخ القديمة التي نظمها أكثر الشعراء على شكل ملاحم أو التي كتبت لتكون زينة المجالس ومعجزات مخترعة.

٢- التواريخ والقصص الروائية التي يقوم مؤلفوها بتأليفها من خيالهم، فيكتبون قصصًا مُخْتَلَقةً لهم أغراض مختلفة من نشرها.

٣- التواريخ العامة التي تُذكر فيها الحوادث التاريخية الماضية دون فلسفة (أي دون التعليق على الحوادث ببيان أسبابها والدروس والعبر المستقاة منها).

٤- التواريخ الفلسفية أو الفلسفات التاريخية. وأهم التواريخ من هذا القسم: القرآن الـمجيد الكتاب الجامع للفنون والعلوم البشرية. فالقرآن يقصُّ علينا القصص التاريخية الواقعية ويذكر لنا خلال ذلك فلسفتها ونتائجها الـمعنوية.

إن قصص القرآن كلها بيان للحقائق وليس فيها أي شيء مُخْتَلَق أو خرافات أو كذب.

يرمي القرآن الـمجيد من خلال ذكر القصص إلى عدة أهداف:

١- الـموعظة والعبرة لأصحاب البصائر وأولي الألباب حتى يجعلوا تلك القصص مرآةً يدركون من خلالها بشكل كامل الخير والشر وحُسْن الأمور وقُبْحها.

٢- شهادة صادقة على صدق النبي ﷺ وأن الإسلام حقّ.

٣- تسلية لرسول الله ﷺ ولسائر مُرَبِّي البشر.

٤- فيها الإرشاد والهداية وبيانُ طريق الرُّقِيّ وتكامل الإنسان ومنهجه.

٥- التعرُّف على طرق عظماء الدين والأنبياء عليهم السلام ومنهجهم، والارتباط بتعليماتهم والأنس بها، والاقتداء بهم لنيل السعادة.

والـمقصود من ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ تفصيل كل شيء من الأمور الـمتعلّقة بالدين.

إلى هنا انتهينا من ترجمة سورة يوسف وبيان الفوائد الـمستنبطة منها وذلك بتاريخ الاثنين، ٢٤ شعبان الـمعظم، ١٣٨٦ هجرية قمرية.

سورة الرعد

مدنيّة وهي ثلاث وأربعون آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ١ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ٢﴾ [الرعد: ١-٢].

الفوائد: تدُلُّ جملةُ: ﴿أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ﴾ أن ما لم يُنزله الله كالروايات والحكايات والأشعار والمنامات والأقيسة والفلسفات إما ليست حقًا، أو على الأقل أن حقيقتها موضع شك. وجملة: ﴿أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ خبرٌ إلهيٌّ في أنه ليس على المُرشدين أن يطمعوا بإيمان الناس جميعهم.

واستدلَّ الله تعالى بقوله: ﴿رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَا﴾ على التوحيد لأن هذه الكواكب الضخمة التي تدور في فلك خاص بها لا بُدَّ لها من مُخصِّصٍ لأن لِكُلٍّ منها مكانًا وفضاءً خاصًّا وهو ليس ذاتيًا لأن الأجسام متساوية في حاجتها إلى المكان، ولو كان من خواص جميع الأجسام أن تجتمع في مكان ما للزم من ذلك اجتماع جميع الأجسام في مكان واحد وهذا محال. فلا بدَّ من مُخَصِّصٍ خَصَّ كلَّ جسم بحيِّزٍ خاصٍّ به، لأن هذه الأجسام ليس لها اختصاص ذاتي بل مرجعها ومُخصِّصها هو الذي خصَّصها بمكان محدد وهو القادر والقاهر لها جميعًا. ولو كان لِلَّهِ حيِّزٌ لاحتاج إلى موجود خصَّصه لهذا الحيِّز كما أن اختصاصه بحيِّزٍ مُعَيَّن دليل

على حدوثه وعلى حاجته إلى مُخَصِّصٍ، وعندئذ لا يكون إلهًا بل يكون المُخصِّص له هو الله.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أن كلَّ كوكب وجسم في العلوِّ يحتاج إلى كائن قاهر قادر خصَّصه بذلك المكان.

ويُمكن أن نقول بشأن قوله تعالى: ﴿بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَا﴾، أن العَمَد هي القدرة الإلهية، ويُمكن أن نقول: إنها قوة الجاذبية التي أوجدها الله.

واعلم أن الله تعالى جعل جملةَ: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ دليلاً على التوحيد.

وليس المقصود من استواءِ الله على العرشِ استقراره عليه: أولاً لأنَّ الاستواء بهذا المعنى ليس مُشَاهدًا أو معلومًا لأحد حتى يكون دليلاً على التوحيد، وثانيًا: لأنه إذا كان المقصود منه استقرار الله على عرشه، وكان للعرش مكانٌ معيَّنٌ دلَّ ذلك على أن اللَّهَ كان قبل ذلك مُعْوَجًّا ثم استوى! إضافةً إلى دلالة ذلك على حاجة الله إلى المكان والحيِّز.

إذن فالمقصود من الاستيلاء على العرش نفوذ حكم الله على عوالم الوجود بالقهر والغلبة والتدبير، وهذا التدبير مُشاهَدٌ ومحسوسٌ لكلِّ أحدٍ ويدُلُّ على التوحيد[1].

١- علوُّ الله - تعالى - على العالَم، صفةٌ ذاتيَّة ملازمة لذاتِه - عزَّ وجلَّ - أزلاً وأبدًا، لا تنفكُّ عنْه والعلم به معلومٌ بالفِطَر الضَّروريَّة؛ فإنَّه ما قال أحدٌ قطُّ: يا ربَّاه، إلاَّ قبل أن يتحرَّك لسانُه، قام في باطنِه قصدٌ لا يتخلَّف يقصد الفوْقَ، وجعله - سبحانه - في بنية الفطرة، فلا تسأل أحدًا من النَّاس: أين ربُّك؟ إلاَّ قال: في السَّماء، أو أوْمأ بيدِه أو بطرفِه.

أمَّا العِلْم باستِواء الله على العرْش بذاته بعد خلْق السَّماوات والأرْض، فإنَّما عُلم بالسَّمع - أدلَّة الكتاب والسنَّة - وهو صفة خبريَّة سمعيَّة، من صفات الأفعال التابعة للمشيئة والقدْرة؛ قال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ۝٥﴾ [طه: ٥]، وقال تعالى في خَمسة مواضِع: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الأعراف: ٥٤، يونس: ٣، الرعد: ٢، الفرقان: ٥٩، السجدة: ٤، الحديد: ٤].

والاستِواء عند السَّلف الصالح من الأمة، هو العلوُّ والارتفاع، وهو إجْماع السَّلف الصَّالح. قال البغويّ في تفسيره المشْهور: «وقال ابنُ عبَّاس وأكثرُ مفسِّري السَّلف: استوى إلى السَّماء: ارتَفع إلى السَّماء». قال العالِمِ الربَّاني عبدالله بن المبارك: «نعرِف ربَّنا بأنَّه فوق سبعِ سموات، على العرش استوى، بائن من خلقه،

ومن دلائل التوحيد الأخرى التي ساقها الله في الآية جملة: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ لأن اختصاص الشمس والقمر والنجوم بالحركة الدائمة بمقدار خاص ومدار خاص يحتاج إلى مُخَصِّصٍ ومُرجِّح هو القاهر لكلِّ شيء والقادر على كل شيء.

ولا نقول كما قالت الجهميَّة»؛ [رواه الدَّارمي والحاكم والبيْهقي وغيرُهم بإسناد صحيح]. وقال البخاريُّ في صحيحه: «قال أبو العالية: استوى إلى السَّماء: ارتفع، وقال مجاهد: استوى: علا على العرْش».

فمذهب السلف الصالح من الصحابة والتابعين وغيرهم من أهل العلم أنهم يقولون: إن الله استوى على عرشه بلا تكييف ولا تمثيل ولا تحريف ولا تعطيل، فهو سبحانه مستوٍ على عرشه استواء يليق بجلاله وعظمته وكماله، ولا يشبه استواء أحد من خلقِه، واستواؤه حقيقة لا مجاز، وأما كيفية ذلك الاستواء فهي مجهولة لدينا والسؤال عن كيفية ذلك الاستواء بدعة، لأن الله سبحانه لم يطلعنا على كيفية ذاته فكيف يكون لنا أن نعرف كيفية استوائه، وهو سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٥٥] كما ورد عن الإمام مالك رحمه الله لَـمَّا سُئِل عن الاستِواء فقال: «الاستِواء معْلوم، والكيْف مجْهول، والإيمان به واجبٌ، والسُّؤال عنْه بدعة».

والقول أن استواء الله على العرش يعني أنه متحيز وأن العرش يحويه. فنقول: ما يلزم في المخلوقات لا يلزم في الخالق عز وجل، فـ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، والله استوى على العرش استواءً يليق بجلاله، لا كاستواء المخلوقين، وهو أعظم من العرش ومن كل شيء، ولا يحويه أو يُحيط به شيء.

وجدير بالذكر **أن استواؤه على العرش لا يلزم منه احتياجه إليه** فهو ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]، ولكنه يفعل ما يشاء كما يشاء، بعلمه وحكمته.

أما تفسير ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ بمعنى استولى، فهذا باطل من عدة أوجه، منها:

الأول: أن هذا القول مخالف لظاهر النص. ثانيًا: مخالف لإجماع الصحابة وإجماع السلف قاطبة. ثالثًا: أنه لم يرد في اللغة العربية أن (استوى) بمعنى (استولى)، وما استُدِلَّ به على ذلك لا يتم به الاستدلال. رابعًا: أنه يلزم عليه لوازم باطلة منها: ١- أن العرش صار في ملكه بعد أن لم يكن في ملكه قبل خلق السماوات والأرض، والله خالق كل شيء ومالكه، لا يخرج شيء من ملكه أبدًا. ٢- أن كلمة (استولى) تعطي في الغالب أن هناك مغالبة بين الله وبين غيره، فاستولى عليه وغلبه. [الـمُصحح]

ويُمكن أن يكون الـمقصود من قوله تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ السير الخاص في مدة خاصة بسرعة خاصة، ويُمكن أن يُقصد من ذلك سير الكواكب حتى زمن زوال الكون وتكوير الشمس وانكدار النجوم أي يوم القيامة، «**سبحان القادر الذي لا يشغله شأن عن شأن ولا فعل عن فعل**».

والنقطة الأخرى هنا أن الله تعالى وصف نفسه بالقدرة على رفع السماوات بغير عَمَد وتدبيرِ أمور الكون كي يُعلَم أن هذا القادر هو الذي فصَّل هذه الآيات ورتَّبها حتى تتبيَّن عظمة القرآن.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ أن الذي ذُكر في هذه الآية كما يدل على التوحيد يدل على الـمعاد، أي لقاء الله يوم القيامة أيضًا، لأن الذي قدر على خلق مثل هذه الأشياء وعلى تدبيرها بنحو منظَّم، قادرٌ على حشر العباد ونشرهم، كما رُوي: «أن عليًّا عليه السلام سُئل: كَيْفَ يُحَاسِبُ اللهُ الْـخَلْقَ عَلَى كَثْرَتِهِمْ فِي حَالَةٍ وَاحِدَةٍ؟ فَقَالَ: كَمَا يَرْزُقُهُمْ عَلَى كَثْرَتِهِمْ فِي حَالَةٍ وَاحِدَةٍ»[1]. فكذلك يسمعُ كلٌّ منهم نداءَه يومَ القيامة فيُجِيبون النداءَ كلُّهم دفعةً واحدةً.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣﴾ [الرعد: ٣].

الفوائد: أثبت الله تعالى في هذه الآية وجودَ الصانع بأربعة أمور:

الأول: بسطُهُ الأرضَ ومدُّه إياها وجعلُه للأرض حجمًا خاصًّا وسِعةً مُحَدَّدَةً، ومدُّ سطحها على نحو يجعلها قابلة للحياة عليها، وكل هذا التحديد بمقادير خاصة يحتاج إلى مُخَصِّص وهو الله.

الثاني: استدل بوجود الجبال التي أرساها الله في بعض جوانب الأرض فهي أيضًا تحتاج إلى مُخَصِّصٍ، ثم وضع فيها الـمعادن والفلزّات والأحجار الكريمة والنفط والقير والكبريت وغيرها، في حين أن تأثير الشمس على الأرض كلِّها واحدٌ فهذه الاختصاصات إنما وُجدت بواسطة تقديرٍ وتدبيرِ قادرٍ قاهرٍ.

١ – انظر: **نهج البلاغة**، قسم حِكَم أمير الـمؤمنين عليه السلام، ص ٥٢٨.

يقول العلماء اليوم: إن مساحة سطح الكرة الأرضية هو حوالي: ٥١٠،٦٠٧،٠٠٠ كيلومتر مربع، وأن حوالي ١٥٠ مليون كيلومتر مربع منها فقط هو سطح اليابسة وبقية المساحة يغمرها الماء أي البحار، كما يقولون إن حجم الكرة الأرضية هو حوالي: ١٠٨،٢٨٤،١ مليون كيلومتر مربع، ووزنها حوالي: ٥٩٧٧ تريليون طن، ووزن الأرض الخاص (أي كثافتها) بشكل متوسط هو: ٥/ ٥. وتدور الكرة الأرضية حول نفسها بسرعة محددة إذْ تدور دورةً كاملةً حول نفسها في مدة ٢٤ ساعة. ومن هذا الدوران ينشأ الليل والنهار. وسرعة دوران الأرض حول نفسها هي ٣١ كيلومترًا في الدقيقة. إضافةً إلى ذلك فإن الأرض تدور حول الشمس في مدار بيضاوي الشكل، وتُسمَّى الحركة الانتقالية، وسرعتها ٦/ ٢٩ كيلومتر في الثانية. والمدة التي تستغرقها الدورة الكاملة للأرض حول الشمس هي: ٣٦٥ يومًا وست ساعات.

والنقطة الأخرى أنه بسبب ثِقل وزن الأرض وضغط الجبال فإن الأبخرة الموجودة في جوف الأرض تُحبس وتتصاعد وتخرج من أطراف الجبال من خلال الفتحات وتؤدي إلى خروج ينابيع من الأنهار ولذلك قال تعالى: ﴿رَوَاسِيَ وَأَنْهَرًا﴾.

الثالث: من الدلائل على إثبات الصانع عجائب خلق الفواكه والنباتات حيث تذهب الحبة إلى باطن الأرض وعلى إثر رطوبتها يخرج من الحبة غصنان في جهتين مختلفتين، الأول اسمه الساق والثاني اسمه الجذر، وتخرج من تلك البذور ثمرات وفواكه لها خواص وأطعمة مختلفة ومتضادة. فمثلاً الأترجُّ قشرته حارة وجافة. ومثلاً العنب قشرته باردة وجافة ولُحمته وماؤه حار ورطب وبذوره أو نواته باردة وجافة. إن ظهور هذه الطبائع المختلفة من الحبة الواحدة لا يكون إلا بتدبير حكيم قادر قاهر.

ويجدر بالذكر أنَّ المُفَسِّرين قالوا هنا: إن المقصود من: ﴿زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ صِنْفا الحلو والحامض، والبارد والحار، أو الأبيض والأسود وأمثالها. ولكن ذلك كله مخالف للظاهر بل المقصود من «زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ» الذكر والأنثى، وقد صرح الحقّ تعالى بهذه الأزواج التي تتكون منها كل الثمار والفواكه والورود حيث إن لجميعها صنفين: ذكر وأنثى. بالطبع فإن الله تعالى

خلق جميع موجودات العالـم أزواجًا: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ [يس: ٣٦]، حتى إن علماء اليوم، يؤمنون بوجود عالـم مقابل عالـمنا هذا، باسم العالـم الـمضاد للمادة، ويقولون: لقد جاءت أشعة هذا العالـم في الكون والفضاء وقد شُوهدت.

بناءً على ذلك فإن الله وحده متصف بالوحدانية والفردانية.

الرابع: من دلائل إثبات الصانع أحوال الليل والنهار. وكل ذلك إنَّما يُفيد قومًا يُعمِلون فِكرَهم، لذلك قال: ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ۞وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾﴾ [الرعد: ٤-٥].

الفوائد: ذكر الله تعالى في هذه الآية أيضًا دلائل على التوحيد وإثبات الصانع، ومن جملتها الأراضي الـمتجاورة التي تشرق عليها شمسٌ واحدةٌ ولا فرق في تأثير الكواكب عليها، ومع ذلك ترى بعضَها ناعمًا ورخوًا وبعضَها صلبًا وبعضَها رمليًّا وآخر ترابيًّا وبعضَها سبخة مالحة وبعضَها الآخر غير ذلك، وبعضَها تنبت عليه النباتات وبعضَها الآخر لا تنبت عليه. وهذا الاختلاف في الصفات هو بتقدير قادر عليم.

إضافة إلى ذلك نجد في البساتين أشجارًا مختلفةً تُسقَى بماء واحد وتنبت من أرض واحدة وتستفيد من هواء واحد ولكنها تنتج فواكه مختلفة في الصفات في الطعم واللون واللذة والخواص. وتجد شجرتي عنب: الواحدة إلى جانب الأخرى، إحداهما ذات طعم حامض والأخرى ذات طعم حلو، إحداهما سوداء والأخرى حمراء، بل تجد في غصن الوردة الواحدة أن جزءًا من الأوراق لونه أسود وفي الطرف الآخر لونه أحمر، وفي الوقت ذاته تجد أوراق هذه الورود في غاية اللطف والجمال. فلا بُدَّ من مؤثر أوجد الفرق بين هذا الطرف وذاك.

إذن، من الـمُسلَّم به أن هناك مدبرًا غير مجرد الوسائل الطبيعية.

والعجيب كيف لا يؤمن الكفار بالقدرة الإلهية رغم كل هذه الآيات ويقولون: كيف نحيا بعد أن نصبح ترابًا؟! إن لهؤلاء الكفار ثلاث صفات:

الأولى: إنهم كافرون بربهم وكافرون بعلمه وقدرته وكلامه. أما كفرهم بقدرة الله فدليله أنهم يقولون: إن الله فاعل بالإيجاب (أي ليس بالإرادة الحرة) أو يقولون: إنه يوجِدُ الـموجودات بواسطة الأبوين وسائر الوسائل الطبيعية، فهو عاجز عن الإيجاد بغير واسطة. أو يقولون: إن الله ليس عالـمًا بالجزئيات ولا يعرف العاصي والـمطيع، أو أنهم لا يعتبرون أن الأخبار الـمذكورة في الكتب السماوية صحيحة، ففي الحقيقة ينكرون الله كامل الذات والصفات.

الثانية: لقد ضُرِبَت على أعناقهم سلاسل الجهل والتعصب.

الثالثة: أنهم خالدون في جهنّم.

ومن هذه الآية يتبيّن أيضًا أن غير الكافر لا يخلد في النار.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ۝٦ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ۝٧﴾ [الرعد: ٦-٧].

الفوائد: الـمقصودُ من السيئة التي يستعجلون وقوعها: نزولُ العذاب. والـمقصودُ من الحسنة حصولُ النصر أو الـمهلةُ الإلهية، إذْ كان الكفار يقولون: يا محمد! أنزل علينا العذاب ولا تطلب منا الإيمان: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

والـمقصود من «**الْمَثُلَاتُ**» العقوبات وأنواع العذاب التي أنزلها الله على الأمم الـماضية.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ أن الكفار كانوا يطلبون الـمعجزة من رسول الله ﷺ، وكان الله يجيبهم بأنك يا محمد منذرٌ فقط، ولا تملك صنع الـمعجزات وليست الـمعجزات بإرادتك. وفي هذه الآية ردٌّ على من ينسبون إلى الـمرشدين والأقطاب أو إلى الأئمّةِ عليهم السلام آلاف الـمعجزات.

واعلم أن جملة ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ معطوفةٌ على كلمة «مُنْذِر» وهي خبر لِـ «أنت» فيكون المعنى إذن: أنت منذر وأنت هادٍ لكل قوم. وإذا اعتبرنا الواو واو استئناف يكون المعنى كالتالي: أنت منذر، ولكل قوم -سواء من الماضين أم من الآتين في المستقبل - هادٍ من الأنبياء والعلماء.

﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۚ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ٨ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ٩ سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۢ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ١٠﴾ [الرعد: ٨-١٠].

الفوائد: يذكّرنا الله في هذه الآية بأنه يعلم جميع المعلومات سواء الجزئية منها أم الكلية، فهو يعلم بما تحمله كل امرأة ذكرًا كان أم أنثى، وأنه هل سيصير إلى سعادة أم إلى شقاء، ويعلم بما سيسقط من أرحام النساء أو ما ينقص من الطفل أو ما يزيد على خلقه، ويعلم بالتوأم الثنائي أو الثلاثي وغير ذلك. وباختصار يعلم بكل ما في الأرحام.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ﴾ أن الله خلق كل شيء بمقدار محدَّد فلا يزيد في مقداره ولا ينقص عما خلقه الله عليه وإلا لفسد. فكل الموجودات سواء الموجودات المجردة من الجسم (اللامادية) أو الموجودات المادية ذات مقدار محدد. فمثلاً روح الإنسان ذات مقدار معيَّن.

والمقصود من ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾ الأمر الغائب عن نظر المخلوق حتى الأنبياء والملائكة.

وليس المقصودُ من ﴿ٱلۡكَبِيرُ﴾ - في قوله تعالى ﴿ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ﴾ -: كِبَرَ الحجم والمقدار بل كِبَرَ القدرة والعظمة.

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ١١﴾ [الرعد: ١١].

الفوائد: جعل الله لكل إنسان ملائكةً مأمورين بحفظه من الآفات والحوادث المختلفة ومن الفساد وقد جاءت في ذلك عدة أحاديث.

بناء على ذلك، من الممكن أن يُراد من كلمة ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾: الملائكة. ومن الممكن أن تكون جملة «**لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ**» صفة لـ ﴿وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ التي ذُكِرَت في الآية التي قبلها. وعندئذ يصبح المعنى: يستوي عند الله من أسرّ كلامه وأخفى نفسه ومن ظهر للعلن، ولكلهم عباد منتخبون يحفظونه من أمامه ومن خلفه فالكُلُّ مقهور لإرادة الحق.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ على أنّه إذا اتجهت إرادة الله إلى شيء فلا يمكن ردّها.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ أنّ أمّة الإسلام اليوم في معرضِ سخطِ اللهِ وغضبِهِ، لأنه لا وليّ لها ولأنها لم تنتخب إمامًا عليها. ولذلك قال عليٌّ (عليه السلام) في جواب الرسالة التي حملها إليه أبو الدرداء وأبو هريرة عن معاوية:

«**الْوَاجِبُ فِي حُكْمِ اللهِ وَحُكْمِ الْإِسْلَامِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، بَعْدَ مَا يَمُوتُ إِمَامُهُمْ أَوْ يُقْتَلُ، ضَالاً كَانَ أَوْ مُهْتَدِيًا، أَنْ لَا يَعْمَلُوا عَمَلاً وَلَا يُقَدِّمُوا يَدًا وَلَا رِجْلاً قَبْلَ أَنْ يَخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ إِمَامًا....**»[١].

وقد غضب الله على المسلمين لأنهم لم يقوموا بهذا الأمر اليوم، بل هم جاهلون تمامًا بأحكام الله والقوانين الإسلامية.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾ [الرعد: ١٢-١٣].

الفوائد: ذكر الله تعالى في هذه الآيات عدة آيات على قدرته:

الآية الأولى: البرق الذي يظهر في السماء قبل هطول المطر في الغالب، فإذا بَرِقَ البرقُ أَمَلَ الناسُ الذين ينتظرون المطرَ بهطوله، كالذين زرعوا في الأرض زرعًا وينتظرون أن ينبت زرعهم، أو الذين أصبح جوُّهُم ترابيًا متّسخًا، فهم ينتظرون غسله بماء المطر. في حين يخشى

١- المجلسي، **بحار الأنوار**، ج ٣٣/ ص ١٤٤ نقلاً عن كتابِ سُلَيْمِ بْنِ قَيْسٍ الهِلاليِّ. وانظر أيضًا **مستدرك الوسائل**، للنوري الطبرسي، ج ٦/ ص ١٤.

الـمطر آخرون كالذين وضعوا أشياء لتجف تحت أشعة الشمس أو الذين يحملون بضاعةً فهم يخشون من فسادها إذا هطل الـمطر عليها.

وأما آية القدرة في البرق فدليلها أن في البرق نارًا وحرارة وهو مع ذلك يخرج من بين الغيوم التي هي رطبة وباردة وليس فيها حرارة. وإيجاد الضد من الضد من آيات الله والأدلة على قدرته، وهذا دليل كبير على عدم الصدفة ووجود قادر قاهر أوجد البرق.

الآية الثانية: إيجاد السحب والغيوم الثقيلة في جو الهواء أو في أعالي الفضاء، فإذا تصاعدت تلك الغيوم من البحر كان ذلك دليلاً على القدرة التي رفعتها إلى الأعالي، وإذا وُجِدَت تلك الغيوم من تلقاء نفسها في الفضاء فهي بحاجة إلى موجد حكيم قادر. وإذا تصاعدت الغيوم من الأرض أو من البحر فإذا وصلت إلى فضاء بارد وتبدلت إلى ماء وجب أن تنسكب على الأرض فورًا وبشكل واحد لا أن تهطل هذه الـمياه على الأرض بأشكال مختلفة: مرَّةً بشكل متطاول ومرَّةً بشكل غير متطاول، ومرَّةً بقطرات كبيرة ومرَّةً بقطرات صغيرة. [إذن فهذا التخصيص يدلُّ على الـمُخَصِّص وهو الله].

الآية الثالثة: من الدلائل الـمذكورة في هذه الآية: «**الرَّعد**» وهو اسم لهذا الصوت الـمَهيب الذي يظهر في الجو الغائم، وقد ذُكِرَتْ في الرعد أقوالٌ: منها أن الرعدَ صوتٌ ناتجٌ عن ضغط الغيوم بعضها بعضًا. ويقول آخرون: الرعد صوت الـملاك الذي يقود السحاب. وعلى كل حال، إيجاد مثل هذا الصوت دليل على القدرة الـمنزَّهة عن الجهل وعن العجز، ودليلٌ على القدرة التي تتمتَّع بالحكمة والتدبير. ودلالة الرعد هذه على قدرة الله هي الـمقصودة بتسبيح الرعد بحمد الله.

والـمقصودُ من جملة: ﴿وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ﴾ الإشارةُ إلى الذين يتكلَّمون عن اللهِ ويعتبرون اللهَ كائنًا ماديًّا كسائر الـمخلوقات، مثل عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة [أخي لبيد بن ربيعة] اللّذَيْنِ سألا النبي ﷺ: أخبرنا عن ربنا أَمِنْ نُحَاسٍ هو أم من حديد؟!

﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۚ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ

إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأٓصَالِ۩ ﴿١٥﴾﴾ [الرعد: ١٤-١٥].

الفوائد: هذه الآية إحدى الآيات الصريحة في كفر من يدعو غيرَ الله؛ إذْ قال تعالى: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾، وهذا بعد أن بيَّن في أول الآية أن الذين يدعون غير الله مثلهم كمثل الذي يبسط كفَّيه ويغمسهما في الماء ثم يخرجهما من الماء ولا يصل شيءٌ من الماء إلى فمه.

وَالمَقْصود مِنْ ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ﴾ السجود التكويني الذي يؤدِّيه لِلَّهِ كلُّ ما يتحرك وكلُّ من يعقل في السماوات والأرض، إذ كلهم خاضعٌ لِلَّهِ مستسلمٌ لإرادته طوعًا أو كرهًا. أي أن هذا السجود يؤديه كل العباد سواء الكافر أم المسلم شاؤوا أم أبوا.

وَالمَقْصود مِنْ ﴿وَظِلَٰلُهُم﴾ أن آثارهم الوجودية وجميع ذرَّات وجودهم حتى أقل آثارهم شأنًا أي ظلهم خاضعةٌ أيضًا لِلَّهِ ومستسلمةٌ لأمره. ولما كانت الظلال تظهر في الصباح والمساء أي العصر لذلك قال: ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأٓصَالِ۩﴾.

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّاۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾ [الرعد: ١٦].

الفوائد: ذُكِر حرف «القاف» في هذه الآية عشر مرات، وكُرِّرَتْ كلمة «**قُلْ**» خمس مرات ولم تأتِ آيةٌ أخرى في القرآن على هذا النحو، وهذا لأن هذه الآية جاءت في الرد على من اتخذوا أولياء غير الله وتوجهوا إليهم، مثل شعبنا المسلم اليوم.

يقول الله تعالى في هذه الآيات: اسألهم من هو ربُّ العالمين؟ ولما كانت الإجابة الواضحة والبديهية: «**الله**» قال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾، ثم قال: إذا كان الأمر كذلك فلماذا جعلتم المخلوقات التي لا تملك لأنفسها نفعًا ولا ضرًّا أولياءكم مع أن الذي لا يملك لنفسه النفع ولا الضر، لن يملكهما لغيره من باب أولى. ولا يخفى أن هذه الآية تشمل بعمومها الأَنْبياء والأولياء والأئمة،

وذلك لأن القرآن صرَّح بأن النبيَّ الخاتم ﷺ لا يملك للآخرين نفعًا ولا ضرًّا ولا خيرًا ولا رشدًا، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾﴾ [الجن: ٢١].

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾ [الرعد: ١٧-١٨].

الفوائد: ضرب الله تعالى في هذه الآيات مثلاً لأهل الحقّ وأهل الباطل ولأتباع القرآن ومُنكريه، وشبَّه القرآن الذي نزل من مقام عظمة الله بالماء الذي ينزل من السماء، وشبَّه القلوب بالأودية، وأنه كما تثبت أنوار علوم القرآن في القلوب كذلك تستقرُّ المياه في الأودية، وكما أن كلَّ وادٍ يجتمع فيه ماء بحسب سَعته كذلك القلوب كل منها يتأثّر بماء القرآن الطاهر حسب سَعته ومقدار فهمه وسعة فِكره. وكما أن الزَّبد والقش ونحوها يتجمَّع فوق الماء كذلك تقوم الخرافات والأوهام بتغطية حقائق القرآن وأنواره وتُصبح سدًّا أمام نور القرآن، ولكن في آخر الأمر تزول تلك الخرافات وكذلك تزول الشكوك والشُّبُهات التي تعرض لقلوب المؤمِنين.

وَالمَقْصود مِنْ جملة ﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾ أن الناس يضعون الذهب والفضة والنحاس والقصدير والحديد في النار كي يفصلوا الشوائب عنها ويُزيلوا الشوائب التي تظهر فوقها وبعد إزالة الشوائب يصنعون من الذهب أو الفضة أو سائر المعادن التي خَلُصَت من الشوائب زينةً وحليةً وأمتعةً للإنسان، كذلك أنوار القرآن وحقائقه عندما تُزال منها أغشية الخرافات تكون زينةً وسعادةً للبشر.

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ

بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ١٩-٢٤].

الفوائد: تدلُّ عبارة ﴿كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ﴾ أنَّ كلَّ من لم يكن له علم بالقرآن ولا اطِّلاع لديه على أنوار الوحي ونزول القرآن وآياته، مصابٌ بالعمى الباطني أي هو أعمى البصيرة، وبناءً على ذلك مُعظم المسلمين اليوم مصابون بعمى الباطن لأنهم بعيدون عن معرفة آيات الوحي.

وَالمَقْصود مِنْ ﴿عَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ ما يشمل العهود الشرعية والعهود الفطرية الإيمانية ونفور الإنسان بفطرته من جميع السيئات، والمقصود من نقض هذا العهد ارتكاب تلك السيئات.

وَالمَقْصود مِنْ ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ كلُّ ما أمر الله بوصله: مثل صلة الرحم وصلة الأقرباء وصلة الإخوة في الإسلام وعيادة المرضى ومساعدة الفقراء وأداء الزكاة والامتناع عن أذى الناس وإفشاء السلام وتشييع جنازة المسلم وإيصال الخير للمؤمنين ودفع الشر عنهم، وغير ذلك.

وَالمَقْصود مِنْ ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾ صبرهم على فعل الواجبات وترك المحرمات والسعي إلى رضا الله والتوجه نحوه.

ومعنى ﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ مقابلة الإساءة بالإحسان، مثلاً إذا شتمك رجل فلا تشتمه بل تدعو له وتطلب له الهداية، كما يفعل بعض أدعياء العلم والمشيخة من سبِّي وشتمي، أما هذا العبد الفقير فأرى أن واجبي ليس سوى الدعاء وطلب الهداية لهم من الله. أو أن يكون المقصود من الجملة المذكورة أنك إذا ارتكبتَ معصيةً أن تُسارع فورًا إلى التوبة منها. قال رسول الله ﷺ: «**إذا عَمِلْتَ سَيِّئَةً فاعْمَلْ بِجَنْبِها حَسَنَةً تَمْحُهَا [السِّرَّ بالسِّرِّ والعَلانِيَةَ**

بالعَلانِيَةِ]»[١]. وإذا استطعتَ فلتعفُ عمن آذاك، اللهم إلا أن يؤدِّي ذلك إلى الـمزيد من جُرأة الطرف الـمقابل على الأذى، وكذلك إذا قطعك أحد أقربائك، فلا تقطعه بل صِلْهُ[٢].

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الرعد: ٢٥-٢٦].

الفوائد: ﴿عَهْدِ ٱللَّهِ﴾هو ذلك العهد الذي أخذه الله على عباده أن يوحِّدوه ويؤمنوا بالنبوة والـمعاد، كما جاء بيانه في الآية السابقة.

وعبارة: ﴿مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ مُطلقةٌ وتشمل كلَّ ما أمر الله بوصله مثل صلة الرسول ﷺ ومحبته ومحبة جميع الـمسلمين والـمؤمنين.

وَالـمُرَاد مِنْ عبارة ﴿مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ أن الله أكَّد ميثاق الفَطرة بالدلائل العقلية والسمعية الأخرى.

وَالـمَقْصود مِنْ ﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الدعوة إلى الكفر والشرك والقوانين غير الإلهية وظلم النفوس وتخريب البلاد ونشر الخرافات والبِدع.

والظاهر أن جملة: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾الردُّ على من يقول: إذا كان نقض الـميثاق وقطع ما أمر الله بوصله والإفساد في الأرض لعنة ونكبة، فلماذا نجد أن بعض من يفعل

١- قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: «أخرجه البيهقي في **شعب الإيمان** من حديث معاذ، وفيه رجل لم يُسَمَّ، ورواه **الطبراني** من رواية عطاء بن يسار عن معاذ ولم يَلْقَه». انتهى. قلتُ: وأخرج نحوه الإمام أحمد في **الـمسند** بلفظ مختلف، ٥/ ١٦٩، رقم (٢١٨١٩). وقال محققه شعيب الأرنؤوط: «حسن لغيره وهذا إسناد ضعيف لجهالة أشياخ شمر بن عطية».

٢- كما ورد في الحديث: «أفضلُ الْفَضائِل أنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعكَ وتُعْطِيَ مَنْ حَرَمك وتَصْفَحَ عمَّنَ ظَلَمَكَ». أخرجه أحمد والطبراني.

ذلك في الدنيا يرفل في النعم؟ فيُجيب الحقّ تعالى: إن سَعة الرزق لا علاقة لها بالإيمان أو بالكفر.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ۝٢٧ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ۝٢٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ۝٢٩﴾ [الرعد: ٢٧-٢٩].

الفوائد: كان الكفار يقولون استهزاءً: لماذا لا تنزل مُعجزة على محمد ﷺ؟ يقول الحقّ تعالى ردًّا عليهم: إن الهداية والضلال بيد الله وكل من طلب الهداية هداه الله دون معجزة، لأن الأَنْبياء السابقين رُغم أنهم أتوا الناس بمعجزات لم يؤمن الناس بهم، فعلى الناس أن يُدركوا فوائد الإيمان ويؤمنوا. ويكفي في فوائد الإيمان بالله أن الإيمان بالله وذِكره سبب لطمأنينة القلب وراحة النفس. ومهما خسر المؤمن من الدُّنْيَا ومهما ابتُلي بالشدائد والمصائب فيها فإن أمله بالله، ولا يجزع ولا ييأس، لأن توكله على الله، ويعلم أن الله هو الذي قدَّر عليه ما فيه خيره ومصلحته سواء كان ذلك عسرًا ومشقةً أو يُسرًا وراحةً، وأن كل ما فقده من الدُّنْيَا فإن الله قادر على أن يُعوِّضه عنه.

و«طوبى» شجرةٌ من أشجار الجنَّة كما قالوا، ولكن المقصود بها هنا الحياة الطيبة.

﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ۝٣٠ وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ۝٣١﴾ [الرعد: ٣٠-٣١].

الفوائد: المقصود من جملة ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ قريش، الذين كانوا يقولون: ﴿وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا۩﴾ [الفرقان: ٦٠].

قيل: نزلت هذه الآيات في صلح الحُديبية، عندما أرادوا أن يكتبوا مُعاهدة الصلح والهدنة بين رسول الله ﷺ والـمشركين، فأمر رسول الله ﷺ عليًّا عليه السلام أن يكتب: بسمِ اللهِ الرَّحمن الرَّحيم. فقال سُهيل بن عمرو، ممثل الـمشركين: ما نعرف الرحمن إلا صاحب اليمامة، أي مُسيلمة الكذاب، فاكتب: باسمك اللهم، وهكذا كانوا يكتبون زمن الجاهلية. ثم قال رسول الله ﷺ: اكتب: «هذا ما صالح عليه محمد رسول الله»، فقال مشركو قريش: لئن كنت رسولَ الله ثم قاتلناك لقد ظلمناك! ولكن اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله . فقال أصحاب رسول الله ﷺ: دعنا يا رسول الله نقاتلهم! فقال: لا ولكن اكتبوا كما يريدون، فنزلت هذه الآيات [1].

وأما الآية (٣١) فنزلت في نفرٍ من مشركي مكة فيهم أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية الـمخزوميان، جلسوا خلف الكعبة، ثم أرسلوا إلى رسول الله ﷺ فأتاهم فقال له عبد الله: إن سَرَّكَ أن نتَّبِعَك فسيِّر لنا جبال مكَّة بالقرآن فأذهبها عنا حتى تنفسح فإنها أرض ضيِّقةٌ، واجعل لنا فيها عيونا وأنهارًا حتى نغرس ونزرع فلستَ كما زعمت بأهون على ربِّك من داود حين سخَّر له الجبال تسير معه. وسخِّر لنا الريحَ فنركبُها إلى الشام نقضي عليها ميرتنا وحوائجنا، ثم نرجع من يومنا فقد كان سليمان سُخِّرت له الريح كما زعمت فلست بأهون على ربك من سليمان بن داود. وأحْيِ لنا قُصَيًّا جدَّك أو من شئت أنت من موتانا نسأله: أحقٌّ ما تقول أنت أم باطل؟ فإن عيسى كان يحيي الـموتى ولست بأهون على الله منه! فأنزل الله تعالى: وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ... الآية» [2]. أي حتى لو فُعِلَت تلك الأمور بواسطة القرآن فلن يؤمنوا به أيضًا.

وَالـمَقْصود مِنْ ﴿قَارِعَةٌ﴾ البلايا والحوادث والقحط والقتل ومصائب الحرب التي تقع على الكفار كَـلِقَائِهِم جيشَ الإسلام وهلاكِهِم في بدر. وربما يكون الـمقصود منها القنابل الهيدروجينية!.

ومن الـممكن أن تكون التاء في جملة ﴿تَحُلُّ قَرِيبًا﴾ تاء الـمُخَاطَب يعني أنك سوف تحل

١- ذكره عدد من الـمفسرين انظر مثلاً: الطبري، **جامع البيان**، ١٦/ ٤٤٥-٤٤٦. والقرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ٩/ ٣١٨.

٢- القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ٩/ ٣١٨ - ٣١٩.

قريبًا بديارهم وَالـمُرَاد مِنْ ذلك فتح مكة[١].

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسِۭ بِمَا كَسَبَتْۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلْأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ﴿٣٤﴾﴾ [الرعد: ٣٢-٣٤].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَمْلَيْتُ﴾ أن الحقّ تعالى يُمْهِل الكفَّار ويفتح أمامهم طريق الكفر والفسق ولكنه يأخذهم فجأةً بالعذاب.

وَالـمُرَاد مِنْ جملة: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسِۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ الاحتجاج على المشركين بأنه: هل الله الحافظ لجميع النفوس والعليم بأحوال العباد ومصالحهم وما ينفعهم أو يضرهم والذي يُوصل إليهم ما يشاء من ضُرٍّ ونفع ويثيبُهُم أو يُعاقبُهُم، مثل المخلوق الذي لا يملك هذه الصفات؟

وَالـمُرَاد مِنْ جملة: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ التحقير أي سَمُّوا ذلك الـمخلوق الذي تتوجهون إليه كي يتبيَّن هل يستحق هذا الـمخلوق التوجُّه إليه أم لا؟

وَالـمَقْصود مِنْ ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؟ أنه لا وجود لشريكٍ لِلَّهِ ولو كان موجودًا لعلمه الله، فلا وجود لمثل هذا الشريك، لأن الله لا يعلم بوجود مثل هذا الشريك.

ثم يقول تعالى: ﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾؟ أي إن هذا الأمر الذي يدَّعُونه سهلُ القول، وفي الظاهر إنهم يضعون اسم الخالق على كل مخلوق، ولكن هذا لا يعدو كلامًا ظاهريًا ولقلقةً باللسان [لا حقيقة لـمضمونه].

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَاۚ تِلْكَ

١- واضح أن الضمير في الفعل (تَحُلّ) يرجع إلى القارعة والـمصائب التي وُعِدوا بها.

عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾﴾ [الرعد: ٣٥-٣٦].

الفوائد: تدلُّ جُمْلَةُ: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ أنَّ أشجارَ الجنَّةِ خضراءُ نضرةٌ مثمرةٌ على الدوام وفاكهتها قابلةٌ للأكل في كل وقت، ولا يزول طعمها ولا لذتها.

وتدل كلمة: ﴿وَظِلُّهَا﴾ أن ليس هناك في الجنَّة حرُّ شَمْسٍ ولا بَرْدُ هواء ولا ظلمةٌ.

والـمُرادُ مِنْ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾: الذين آتيناهم التوارة والإنجيل، وأنهم فرحوا بما أُنْزِلَ في هذا القرآن لأنه مصدق لما معهم، وقد آمن كثيرٌ منهم، ولذا اعتبر الله تعالى في آخر آيةٍ من هذه السورة شهادَتَهم كافيةً لإثبات صدق الرسالة.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّاۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةًۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد: ٣٧-٣٩].

الفوائد: الـمُرَادُ مِنْ جُمْلَة: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ﴾ التي ابتدأت بكاف التشبيه: أن نزول القرآن أدى إلى إيمان بعض الناس وكفر آخرين، مثله في هذا مثل سائر كتب الأنبياء التي آمن بها بعض الناس فسُعِدوا وكفر بها آخرون فشَقُوا.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ على أن اتِّبَاع الفتاوى في الدين غير جائز[١]، وأنه لا بد من العمل طبقًا للعلم [لا للظنّ].

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ﴾ : أنه لا يمكن لأيِّ نبيٍّ أن يأتي

١- من الواضح - كما تدل عليه أقوال الـمؤلف في مواضع أخرى-، أنه يعني الاتِّباع الأعمى للفتاوى دون العلم بالدليل، ويعني التقليد الـمحض للفتاوى مع الجهل بالقرآن والسنة، لأن هذا كله من الظن الذي لا يغني من الحق شيئًا ولا يجوز اتباعه كما نصَّت عليه آيات قرآنية عديدة.

من عند نفسه بمعجزة، إلا إذا أراد الله نفسه ذلك وخلق الـمعجزة، فصيرورة نار إبراهيم بردًا وسلامًا، وتحوّل عصا موسى إلى ثعبان، وسائر معجزات الأنبياء كلها حدثت بإذن الله، أي بإرادته ومشيئته، إثباتًا لنبوَّة كلِّ نبيٍّ.

والـمُرَادُ مِنْ جُمْلَةِ: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ الردّ على الكُفَّار الذين كانوا يقولون: لماذا لا يأتي عذاب الكفَّار وانتصار الـمسلمين الذي يتحدَّث عنه محمّدٌ (ﷺ)؟ فيردُّ الله تعالى عليهم قائلاً: كلُّ حادثةٍ لها وقتُها الـمُعَيَّن، كما أن الإنسان لابد أن يكون نطفةً في مرحلةٍ ثم يصبح علقةً، وهكذا حتى يصل إلى مرحلة الإنسان الكامل، والأمر ذاته بالنسبة إلى موت الناس وحياتهم من جديد والهلاك والانتصار، كلُّها لها وقتها الـمحدَّد في علم الله وفي اللوح الإلـهي الـمحفوظ.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴿٣٩﴾﴾: أن الحق تعالى قادرٌ على محو ما يشاء من الـمقدَّرات وإثبات ما يشاء منها، وأن يزيل العِلّيّة من تسلسل العلل، ويخلق لكل حادثة علَّةً.

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَاۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًاۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴿٤٢﴾﴾ [الرعد: ٤٠-٤٢].

الفوائد: جُمْلَةُ: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ﴾ تهديدٌ للكفار وتسليةٌ للنبيِّ ﷺ وتقويةٌ له، إذ يقول تعالى: سواء أظهرنا لهم ما وعدناك من فَتْحٍ وانتصار للمسلمين وذِلَّةٍ للكافرين وأسرٍ وقتلٍ لهم، قبل وفاتك، أو أظهرنا لهم ذلك بعد وفاتك، سيانٌ عند اللهِ، وليس عليك من واجب سوى تبليغ أحكام الله تعالى وأداء أمانته ورسالته [وعلينا الحساب].

والـمُرَادُ مِنْ جُمْلَةِ: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾: أن جزاء الـمكر كلّه بيد الله.

والـمُرَادُ مِنْ جُمْلَةِ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أننا نعطي الأرض فريقًا من الناس، ثم نأخذها منهم شيئًا فشيئًا، ونعهد بها إلى قومٍ آخرين، ثم نأخذ هذه الأرض

مِنْ أطرفها ونعطيها لفريق آخر، كما نزعنا أطراف مكة من يد الـمشركين وأعطيناها للمسلمين.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ ٤٣﴾ [الرعد: ٤٣].

الفوائد: كان الكفار يقولون للنبيِّ ﷺ: لستَ رسولاً لِلَّهِ. فقال اللهُ: قل لهم: اللهُ يشهدُ على رسالتي، وَشَهَادَةُ اللهِ وَشَهَادَةُ علماءِ أهلِ الكتابِ كافيةٌ لإثبات صدق رسالتي.

إذا عرفنا ذلك فعلينا أن نرى كيف كانت شهادة الله لرسوله ومتى وأين؟

فاعلم أن شهادة الله لرسوله هي في خَلْقِه الـمعجزةَ أي قيام الله تعالى بخرق العادة وإظهار الـمعجزة كي تكون تصديقًا وشهادة على صدق رسالة رُسُلِهِ.

والـمُرَادُ مِنْ جُمْلَةِ: ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ علماء اليهود والنصارى الذين أخبر كتابهم برسالة رسول الله ﷺ، وكل من كان عالـمًا بالتوراة والإنجيل كان يعلم أن محمدًا رسول الله ﷺ، فقد شهد الله في هذه الكتب الثلاثة: القرآن والتوراة والإنجيل، على رسالة محمد ﷺ، وهذه الكتب الثلاثة كلها من الله. فقول التوراة والإنجيل أيضًا يعود في حقيقته إلى الشهادة الإلـهية. وطبقًا للآية ٩٦ من سورة الإسراء فإن شهادة الله كافية.

قال بعض الأخباريين - استنادًا إلى أحاديث موضوعة - إن الـمقصود مِنْ ﴿مَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ عليُّ بنُ أبي طالبٍ ؏! وهذا ليس بصحيح لأن الكفار لم يكونوا مصدِّقين بقول رسول الله ﷺ نفسه ولا مؤمنين برسالته، فكيف يُصَدِّقُون بشهادةِ طفلٍ نشأ في بيت رسول الله ﷺ؟! هل يُعْقَل هذا؟

وهناك قراءةٌ للآية ﴿مَنۡ عِندَهُۥ﴾ بأنها: «**مِنْ عِنْدِهِ**» بكسر ميم «مِنْ» التي هي حرف جرٍّ[1]، فإذا اخترنا هذه القراءة كان الـمعنى أن الشاهد على رسالة محمَّد هو الله وحده فقط، وأما إذا اعتبرنا «منْ» اسم موصول، فيمكن أن يكون الـمقصود منه: سلمان الفارسي وعبد الله بن سلام

١- قراءة الجماعة (وَمَنْ) بفتح الـميم، وقُرِئَت (وَمِنْ) بكسر الـميم، ورويت هذه القراءة عن علي بن أبي طالب وابن عباس وأبي بن كعب ﭫ، ورويت عن بعض التابعين. انظر: **الـمحتسب**، لابن جنّي، (٢/ ٣٥٨).

وتميم الداري وأمثالهم الذين أخبروا برسالة محمَّد ﷺ طبقًا للبشارات به في كتب الله السماوية.

إذن الرأي الصحيح والقول الثابت هو أن الشاهد على رسالة محمَّدٍ ﷺ هو ما جاء من البشارات والإخبار عنه في كتب الأنبياء السابقين، ومعرفة علماء بني إسرائيل بذلك. وهذا مثل قوله تعالى في سورة الشعراء:

﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ۝١٩٦ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ۝١٩٧﴾ [الشعراء: ١٩٦-١٩٧].

وقوله سبحانه في سورة القصص:

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ۝٥٢ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ...﴾ [القصص: ٥٢-٥٣]

وفي سورة العنكبوت:

﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [العنكبوت: ٤٧].

وفي سورة الأعراف:

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ...﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وفي سورة المدَّثِّر:

﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ...﴾ [المدثر: ٣١].

وفي سورة الأنعام:

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ...﴾ [الأنعام: ٢٠]

ومثل ذلك أيضًا ما جاء في سورة البقرة، الآية ١٤٦، وفي سورة آل عمران، الآية ٨١، وكثيرٌ من الآيات الأخرى، التي جاءت في الغالب في السور المكّيّة، وكُلُّها تشهد أن المُراد من جملة: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ علماء أهل الكتاب.

وحتى في هذه السورة - سورة الرعد - ذاتها، جاء هذا المعنى قبل عدّة آيات، وهو قوله تعالى في الآية ٣٦ من السورة:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ﴾

ثم قال تعالى في آخر السورة:

﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٤٣].

ألا تُصدِّق تلك الآيات بعضُها بعضًا في أن علماء اليهود والنصارى كانوا يشهدون أن محمَّدًا ﷺ رسولٌ من عند الله، وقد آمن كثير منهم في زمن النبيِّ ﷺ أيضًا كما جاء في الآيات ٨٢ إلى ٨٥ من سورة المائدة، مما يدلُّ ويشهد لصحة هذه الحقيقة والواقع من أن المُراد مِنْ: ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: علماء الإنجيل والتوراة.

بِناءً عَلى ذَلِكَ لا يُمكننا أن نصرف النظر عن هذه الآيات جميعها ونقول: إن المقصود من ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ هو عليٌّ عليه السلام، الذي كان –حين نزول كثير من هذه الآيات – لا يزال طفلاً لم يبلغ سِنَّ التكليف.

وَليت شعري! هل يجوز التلاعب بآيات القرآن بواسطة أحاديث موضوعة رواها غُلاةٌ وكذَّابون، وأن نقول: إن الله قال للكفار: إن لم تُصدِّقوا برسالة محمد فاسألوا الطفل الذي يعيش في بيته ونشأ في كنفه واقبلوا شهادته على صحة رسالة محمد؟!

إن هدف الغلاة من ذكر مثل هذه الخرافات أن يخترعوا لعليٍّ عليه السلام ولايةً تكوينيةً، وأهم رواية يتمسَّكون بها في هذا المجال روايةُ الكُلَيْنِيّ في الكافي في بابٍ عنوانه: «**نادرٌ فيه ذِكْرُ الغَيْبِ**» (ج١/ ص ٢٥٧)، بسنده عَنْ سَدِيرٍ قَالَ: كُنْتُ أَنَا وَأَبُو بَصِيرٍ وَيَحْيَى الْبَزَّازُ وَدَاوُدُ بْنُ كَثِيرٍ فِي مَجْلِسِ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام إِذْ خَرَجَ إِلَيْنَا وَهُوَ مُغْضَبٌ فَلَمَّا أَخَذَ مَجْلِسَهُ قَالَ: «**يَا عَجَبًا لِأَقْوَامٍ يَزْعُمُونَ أَنَّا نَعْلَمُ الْغَيْبَ! مَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ؛ لَقَدْ هَمَمْتُ بِضَرْبِ جَارِيَتِي فُلَانَةَ فَهَرَبَتْ مِنِّي فَمَا عَلِمْتُ فِي أَيِّ بُيُوتِ الدَّارِ هِيَ؟**» ..... (إلى آخر الرواية) وفي آخرها أن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**عِلْمُ الْكِتَابِ وَاللهِ كُلُّهُ عِنْدَنَا**».

علاوةً على ضعف سند هذه الرواية وأمثالها، فإن متن أمثال هذه الروايات يتضمن تناقضات. هل من الممكن – استنادًا لأمثال هذه الروايات– القول: إن المشركين الذين لم

يكونوا يؤمنون بالنبيِّ في بداية البِعثة، سيقبلون بنبوته إذا شهد له بها عليٌّ عليه السلام؟ أليس في هذا الكلام سُخرية؟ لدينا في تاريخ الإسلام شواهد عديدة على أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحال مُنكري نبوته إلى علماء اليهود والنصارى. من ذلك قضية عبد الله بن سلام وإسلامه وشهادته على رسالة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ولكن ليس لدينا أدنى دليل أو خبر يُفيد أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحال الناس الذين كانوا يُكذِّبون برسالته إلى عليٍّ عليه السلام ليُثبت بذلك صحة رسالته.

بل إن بعض المشايخ الذين أرادوا أن يُوصلوا عليًّا إلى مقام الإلهية واخترعوا له ولايةً تكوينية، وكتبوا ردودًا علينا، سعوا -استنادًا إلى روايات موضوعة- إلى الاستدلال بهذه الآية ذاتها على الولاية التكوينية لعليٍّ عليه السلام.

وأقول في الردِّ عليهم: عندما كان الكفار يُطالبون النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم بدليلٍ على رسالته، كان من الواجب عليه أن يأتيَ بدليل على رسالته جوابًا عن طلب الكفار، لا أن يُحيلهم، بدلاً من ذلك، إلى عليٍّ عليه السلام ويأتي لهم بدليل على ثبوت ولاية عليٍّ التكوينية!! هذا مع العلم أنهم ما كانوا يؤمنون بنبوة النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم نفسه!.

وليت شعري! ما هدف هؤلاء الشيوخ الذين يتلاعبون بآيات القرآن على هذا النحو؟ إن كانوا يُريدون إثبات ولاية عليٍّ عليه السلام أي وجوب محبَّتِهِ وتَوَلِّيه فما من أحد يُنكر ذلك حتى يحتاج إلى دليل يدلُّ عليه. وإن كانوا يُريدون إثبات إمامته (السياسية) وخلافته بعد النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم، فليس في ذلك أيضًا فائدةٌ عمليةٌ لأنه لا يُمكننا الآن أن نُحييَ عليًّا عليه السلام من جديد وأن نوصله إلى سُدَّة الخلافة! وإن كانوا يُريدون إثباتَ ولايةٍ تكوينيةٍ لعليٍّ عليه السلام على عالم الوجود أي إثبات أن عليًّا عليه السلام قيُّوم السماوات والأرض وأنه الخالق الرازق، فهذا نتيجته ليست سوى الشرك بالله والخُسران يوم القيامة. علاوةً على أنه لو كان للإمام مثل هذه الولاية لما كان فيها فائدة له ولا كان فيها أي دليل على إمامته السياسية. لكن يبدو أن القوم لا يتَّبعون عقولهم.

ومن الممكن أن يكون المقصود من جملة: ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ العلماء العالمون بالقرآن وفصاحته وبلاغته وأسراره العلمية والذين يشهدون على صحة رسالة

النبيِّ ﷺ.

إلى هنا نتتهي من ترجمة سورة الرعد وبيان ما فيها من الفوائد.

سورة إبراهيم

مكية وهي اثنتان وخمسون آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ۝٢ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ۝٣﴾ [إبراهيم: ١-٣].

الفوائد: الـمَقْصود مِنْ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ ظلمات الكفر والشرك والخرافات، وَالـمَقْصودُ مِنْ «**النُّور**»، حسبما بيَّنه تعالى بالجملة الـمعطوفة: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾، التوحيدُ والصراطُ الـمستقيم وطريقُ الهداية والسعادة.

وقد أتى بـ ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ بصيغة الجمع وبـ ﴿ٱلنُّورِ﴾ بصيغة الـمفرد لأن طرق الباطل متعددة وطريق الحقّ واحد. وإنما اعتبر طريق الحقّ نورًا لأنه طريق الله العزيز الحميد، فهو العزيز القادر على كل شيء وأعماله كلها خير وحكمة وليس فيها أي قبح فهو الحميد أي الـمحمود.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ أن الله أراد الإيمان وأحبه وطلبه من الـمُكلَّفين.

ومعنى الاستحباب في قوله تعالى: ﴿يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ طلب محبة الشيء، وأقول: إن الإنسان قد يحبُّ الشيءَ ولكنه لا يحبُّ كونَهُ مُحِبًّا لذلك الشيء، مثل من يميل طبعه إلى الفسق والفجور ولكنه يكره كونه مُحِبًّا لهما، أما إذا أحبَّ الشيء وطلب كونه مُحِبًّا له، وأحبَّ تلك

الـمحبَّة فهذا هو نهاية الـمحبَّة فقوله: ﴿يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ يدل على كونهم في نهاية الـمحبَّة للحياة الدنيويَّة.

وتدلُّ عبارة: ﴿عَلَى ٱلْآخِرَةِ﴾ أن الدُّنْيَا الـمذمومة هي التي يُرجِّحها الإنسان ويُفضِّلها على الآخرة، أما إذا لم يُفضِّلها على الآخرة فليست بمذمومة.

وَالـمَقْصود مِنْ جملة: ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾أنهم يرغبون بأن يبدو طريقُ الله للناس مُعْوَجًّا من خلال إلقاء الشكوك والشبُهات فيه مُحاولين تقبيح شكلِ طريق الله بكل ما يقدرون عليه من حيل كي لا يرغب به أحدٌ من الناس. وكلمة ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ أصلها يبغون لها.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾ [إبراهيم: ٤].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ أنه ليس هناك ما يُسمَّى بالحقائق الشرعية بل كل ما جاء في الشرع حقائق لغوية. واستدلَّ بعضهم بجملة ﴿بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ أن محمدًا ﷺ بُعِث إلى قومه –أي إلى العرب– فقط، وقالوا: لا يُمكن لأحد سوى العرب أن يُدركوا إعجاز القرآن؛ فلا تثبت حُجِّية القرآن على غير العرب. وقد أُجيب عن ذلك بأن الـمقصود من ﴿قَوْمِهِۦ﴾ أهل مدينته لا جميع الناس بدليل الآيات الأخرى التي نزلت بشأن الأَنْبياء وأُطلقت فيها كلمة ﴿قَوْمِهِۦ﴾ على أهلهم وعشيرتهم لا على جميع أهل لغتهم. وأما الدليل على أن محمدًا ﷺ مبعوث إلى البشرية جمعاء فهو آيات أخرى تدل على ذلك بشكل قاطع: من ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقوله سبحانه: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨]. التي تحدَّى الله فيها الإنس والجِنّ.

وآية:

﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ [النساء: ٧٩].

وآية:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وآيات أخرى مثلها.

وَالـمُرَاد مِنْ جملة: ﴿بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ﴾ بيان أنه عند إرسال الرسول بلسان قومه يكون فهمهم لأسرار شريعته أفضل ووقوفهم على حقائقها أسهل ويكونون عن الغلط والخطأ أبعد.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ٥ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ٦﴾ [إبراهيم: 5-6].

الفوائد: بعد أن أمر الحقُّ تعالى رسولَه ﷺ أن يُخرج الناس من الظلمات إلى النور، أخذ يُذكِّره بكيفية صبر الأَنْبياء وما تحمَّلوه من الشدائد في مواجهة أقوامهم تسكينًا لقلبه ﷺ وتثبيتًا لأقدامه فيما يُواجهه من شدائد.

وَالـمُرَاد مِنْ ﴿أَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ أيام الشدَّة والعُسر والسعادة والسرور التي نزلت بالأنبياء قبله مثل أيام اضطهاد فِرعون لبني إسرائيل وتعذيبه إياهم، وأيام نزول الـمنّ والسلوى عليهم، وفي هذا حثٌّ للمؤمنين على الصبر في أيام العسر والـمحنة والشكر في أيام الراحة والنعمة.

﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ٧ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ٨ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ٩﴾ [إبراهيم: ٧-٩].

الفوائد: ﴿تَأَذَّنَ﴾ و«**آذَنَ**» بمعنى واحد، ولكن «**تَأَذَّنَ**» من باب التفعيل ومعناه الإعلام مع التأكيد.

وَالـمَقْصود مِن الشكر في هذه الآيات أن يعترف الإنسان بنعم الـمُنعم وأن يصرف تلك النِّعَم في الـمصارف التي عيَّنها له الـمُنْعِم. ولا شك أن العبد الشكور لمولاه - أي لِلَّهِ - أكثر محبةً وأكثر اعترافًا بنعمه، ومثل هذه الصفة منشأٌ للخيرات جميعها، وهي تَصرِف العبد عن التوجه إلى غير الله وتسوقه نحو السعادة.

ويَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ على الـمعنى الذي لخَّصه الشاعر بقوله:

(بيت شعر بالفارسية وترجمته):

لو كفرت الكائنات جميعها — لم يُصِبْ رداءَ كبريائه ذرة غبار

ويَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أن لا أحد —حتى نبيّ الإسلام- يعلم عدد الأَنْبياء وأفراد أمتهم وأحوالهم إلا الله. فهذه الآية تُخالف الأخبار التي تقول إن رسول الله ﷺ أو الإمام «**يعلم بما كان وما يكون إلى يوم القيامة!**»، لأن عدد الأَنْبياء الـماضين وأحوال أُممهم جزء من العلم بما كان، وقد نَفَتْ هذه الآية عن رسول الله ﷺ هذا العلم.

وَالـمَقْصود مِنْ ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ إذا اعتبرنا أن ضمير ﴿فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ يعود على أقوام الأنبياء: أنهم كانوا يعضُّون أصابعهم بأسنانهم من شدَّة الغضب والغيظ، أو يضعون أيديهم في أفواههم تعجبًا، أو لصدّ الناس عن كلام الأَنْبياء بالإشارة أو بالضحك أو الاستهزاء. أما إذا قلنا: إن ضمير ﴿أَفْوَٰهِهِمْ﴾ يعود على الأَنْبياء فيكون الـمعنى أن الكفار كانوا يضعون أيديهم على أفواه الأَنْبياء ليمنعوهم من الكلام والتبليغ أو أن الأَنْبياء أنفسهم كانوا يضعون أيديهم على أفواههم.

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٞ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٖ مُّبِينٖ ۝١٠﴾ [إبراهيم: ١٠].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ على أن وجودَ اللهِ العالـمِ القادرِ لا يحتمل الشكَّ، أي أن ذلك مستقرٌّ في فِطرة كل إنسان، ولذلك فإذا لطمت صبيًا على وجهه، صاحَ وقالَ: لماذا

ضربتني؟ أي أنه يُدرك بفطرته أن هناك فاعلاً مختارًا لطمه، كما أنه يطلب بفطرته معاقبة الضارب، ويحكم وجدانه بمجازاته، كما يدل على أن فطرة الطفل تحكم بوجوب أن يكون هناك قانون ومُشَرِّعٌ يُعيِّن مقدار العقوبة والجزاء.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ على أنَّ لدى الكفَّار ثلاث أدلَّة على نفي نبوَّة الأَنْبياء، بيد أنَّ أدلَّتهم هذه ليست سوى شُبُهات محضة:

الشُّبهة الأولى: أن الأشخاص الإنسانية متساوية في تمام الماهية، فيمتنع أن يبلغ التفاوت بين تلك الأشخاص إلى هذا الحدّ وهو أن يكون الواحد منهم رسولاً من عند الله مطَّلعًا على الغيب مخالطًا لزمرة الملائكة، والباقون يكونون غافلين عن كل هذه الأحوال.

الشُّبهة الثانية: التمسُّك بطريقة التقليد، وهي أنهم وجدوا آباءهم وعلماءهم وكبراءهم مُطْبِقِين مُتّفقين على عبادة الأوثان. قالوا: ويبعُدُ أن يُقال: إن أولئك القدماء على كثرتهم وقوة خواطرهم لم يعرفوا بطلان هذا الدين، وأن الرجل الواحد عرف فساده ووقف على بطلانه.

الشُّبهة الثالثة: أنهم شكوا في أن هذه الدلائل التي أتى بها الأَنْبياء هل تدل فعلاً على صدقهم أم لا؟ فقالوا: ائتوا لنا بدليل أوضح ومعجزة جليَّة حسب ما نطلبه نحن[1].

وقد أجاب الله تعالى عن هذه الشُّبهات الثلاث في الآية التالية:

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [إبراهيم: ١١-١٢].

الفوائد: جملة: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ جواب عن قول الكفار: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾، أي من الممكن أن يمنّ الله على أحد البشر ويُميِّزه عن سائر البشر بالوحي إليه.

١- استفاد المؤلف بيان هذه الشبهات من **التفسير الكبير** للفخر الرازي، ج ١٩ / ص ٩٥ باختصار وتصرف يسير.

وأما شُبهة الكفار الثانية فكانت قولهم: هل من الممكن أن لا يفهم جميع آبائنا وأجدادنا وعلمائنا الحقَّ ويفهمه هذا الرسول وحده فقط؟ والجواب عن هذه الشُّبهة هو الجواب نفسه عن الشُّبهة الأولى، أي من الممكن أن يمنّ الله على أحد البشر ويُطلعه على بُطلان عقائدكم. وأما شُبهتهم الثالثة التي طالبوا فيها بسلطان مبين ومعجزة جلية حسب طلبهم فقد أجاب الله عنها بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾. وأما بقية الآية فهي جواب عن تهديدات القوم الذين كانوا يقولون: سنضربكم وسنقتلكم.. الخ.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٣ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ١٤ وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ١٥ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ١٦ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ ١٧﴾ [إبراهيم: ١٣-١٧].

الفوائد: لما كان أهل الحقّ، في كل زمن، قلّة، وأهل الباطل كثرة، تجرّأ أهل الباطل دائمًا على أهل الحقّ ورموهم بالسفاهة وهدَّدوهم بالقتل أو الأذى، كحال الناس في زماننا، حيث نجد كلَّ من قام لإظهار حقٍّ، شتمه الناس واتهموه وهددوه، لكن الله تعالى يقول رُغم ذلك: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ١٧٣﴾ [الصافات: ١٧٣].

وَالـمُرَاد مِنْ كلمة: ﴿مَقَامِي﴾ مقام العظمة أو محضر القُدس الإلهي في محكمة يوم القيامة.

وقرأ بعضهم ﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ﴾ بكسر التاء واعتبروها فعل أمر وخطابًا من الله للأنبياء.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٨ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٩ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ٢٠﴾ [إبراهيم: ١٨-٢٠].

الفوائد: شبَّه الله تعالى في الآية ١٨ أعمال الكفار بحفنة من الرماد هبَّت عليها الريح في يوم

عاصف ففرقتها وذهبت بها، ووجه الشبه هنا هلاك الأعمال وعدم الفائدة منها حيث يُشبه هذا ذهاب الرماد وعدم الفائدة منه بعد تفرقه وأنه لا يُمكن لأحد أن يجمعه من جديد ويستفيد منه.

وتدل الآيتان ١٩ و٢٠ أن إحدى الصفات الخاصة بالحقّ تعالى هي إهلاك الموجودات والذهاب بها وإيجاد المخلوقات من العدم، الذي اعتبره الفلاسفة من المحالات أو استشكلوه، في حين يقول الله تعالى: إن ذلك ليس صعبًا عليه: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾.

﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعًا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ﴿٢١﴾﴾ [إبراهيم: ٢١].

الفوائد: تدلّ هذه الآية على حُرمة التقليد، لأنه إذا ضلَّ المَرجِع أو أفتى بحكم مخالف لما أنزل الله فإن مُقلِّديه الذين اتبعوه في فتاويه لا يُمكنهم أن يجعلوا وِزْرَ انحرافهم على عاتق مَرْجِعِهِم يوم القيامة، وإذا قالوا للمرجع: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾؟ أجابهم: لا مفرَّ لنا ولكم من عذاب الله.

فالعجب كيف يَظَلُّ المسلمون جاهلين مع امتلاكهم مثل هذه الآيات، ولا يزال كلُّ فريق منهم يتبعون كُبَرَاءَهُم ويقبلون العقائد والأعمال الخرافية المضادَّة للقرآن بحُجّة تقليدهم المرجع الفلاني أو سكوت ذلك المرجع عنها.

﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم: ٢٢].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ أنه عندما ينتهي الأمر ويتحدَّد مصير أهل النار وأهل الجنَّة ويتعلّق حكم الله بعذاب أو ثواب المستحقين يبدأ الشيطان وأتباعه بالمجادلة والعداوة.

وتدلُّ جُمْلَةُ: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ﴾ أنه ليس للشيطان سلطان على البشر، بل البشر يسيرون نحو الخطيئة برغبتهم وميلهم النفسي بدليل جملة: ﴿وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ في هذه الآية.

ومعنى جملة: ﴿إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُ﴾ أنني كفرت قبلكم بالله الذي أشركتموني معه في العبادة والطاعة. ومن الممكن أن تكون «**ما**» في عبارة ﴿بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ﴾ «**ما**» المصدرية، وعندئذٍ يُصبح المعنى: إني كفرت بشرككم في طاعتكم لي كطاعة الله أي أنني الآن أرفض شرككم هذا.

وَالـمُرَاد مِنْ ﴿مِن قَبۡلُ﴾ هذه الدُّنْيَا التي أطاع العصاة فيها الشيطان. ومن هذا التقرير يتبيَّن أن طاعة غير الله نوع من الشرك.

﴿وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٖ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ ﴿٢٦﴾﴾ [إبراهيم: ٢٣-٢٦].

الفوائد: لما بيَّن الله تعالى عاقبة أتباع الرؤساء والشياطين، شرع في هذه الآية ببيان عاقبة أهل الإيمان فقال: ﴿وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ﴾ وقال «**أُدْخِلَ**» بضم الهمزة أي مبنيًا للمجهول لبيان أن الملائكة هي التي ستُدخل المؤمنين الصالحين الجنَّة بتشريفٍ لهم وإكرام، لا أن المؤمنين سيدخلون الجنَّة وحدهم بأنفسهم.

وَالـمَقْصود مِنْ ﴿كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ﴾ كلمة التوحيد والإخلاص «**لا إله إلا الله**»، لأن التوحيد كشجرة جذورها مغروسة في أعماق قلوب المؤمنين، وأغصانها وأوراقها هي الأعمال الحسنة والعبادات وخدمة عباد الله والأخلاق الحسنة.

وأما ﴿كَلِمَةٍ خَبِيثَةٖ﴾ فهي الكفر والشرك الذي هو كشجرة أغصانها وأوراقها هي الثمرات

السيئة للشرك والكفر كالأخلاق الرذيلة والأعمال القبيحة وإيذاء الناس وظلمهم. وكما أن الشجرة التي لا جذور لها لا تُنبت ثمارًا حسنة كذلك الكفر والشرك لا يُنبتان إلا آثارًا خبيثةً، والـمشرك لا ثبات له في الخير وهو يميل كل يوم إلى صنم أو إلى باب حوائج غير الله.

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴿٢٧﴾ ۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَاۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴿٣٠﴾﴾ [إبراهيم: ٢٧-٣٠].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ...﴾ أن الله يحفظ قلوب أهل التوحيد من الزلل والكفر ويُنقذهم من الزيغ والتردُّد الفكري، خلافًا للذين لا يؤمنون بالله الذين تجدهم متردِّدين متزلزلي العقيدة لا يثبتون على رأي واحد، والله تعالى يحفظ الـموحدين عند رحيلهم من الدُّنْيَا وعند بعثهم أحياء لحضور يوم القيامة فيُثَبِّتهم على إيمانهم ويؤدي ثباتهم هذا إلى نجاتهم ببركة كلمة التوحيد، فيُلقِّنهم الـمأمورون بقبض أرواحهم كلمة التوحيد. وقد جاء في الحديث [عن أمير الـمؤمنين عليّ (عليه السلام)] أنه قال:

«إِنَّ ابْنَ آدَمَ إِذَا كَانَ فِي آخِرِ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا وَأَوَّلِ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الْآخِرَةِ مُثِّلَ لَهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ وَعَمَلُهُ، فَيَلْتَفِتُ إِلَى مَالِهِ فَيَقُولُ: **وَاللهِ إِنِّي كُنْتُ عَلَيْكَ حَرِيصًا شَحِيحًا فَمَا لِي عِنْدَكَ**؟ فَيَقُولُ: خُذْ مِنِّي كَفَنَكَ. قَالَ فَيَلْتَفِتُ إِلَى وَلَدِهِ فَيَقُولُ: **وَاللهِ إِنِّي كُنْتُ لَكُمْ مُحِبًّا وَإِنِّي كُنْتُ عَلَيْكُمْ مُحَامِيًا فَمَاذَا لِي عِنْدَكُمْ**؟ فَيَقُولُونَ: نُؤَدِّيكَ إِلَى حُفْرَتِكَ نُوَارِيكَ فِيهَا. قَالَ: فَيَلْتَفِتُ إِلَى عَمَلِهِ فَيَقُولُ: **وَاللهِ إِنِّي كُنْتُ فِيكَ لَزَاهِدًا وَإِنْ كُنْتَ عَلَيَّ لَثَقِيلاً فَمَاذَا عِنْدَكَ**؟ فَيَقُولُ: أَنَا قَرِينُكَ فِي قَبْرِكَ وَيَوْمِ نَشْرِكَ حَتَّى أُعْرَضَ أَنَا وَأَنْتَ عَلَى رَبِّكَ. قَالَ: فَإِنْ كَانَ لِلَّهِ وَلِيًّا [أي كان مؤمنًا موحِّدًا] أَتَاهُ أَطْيَبُ النَّاسِ رِيحًا وَأَحْسَنُهُمْ مَنْظَرًا وَأَحْسَنُهُمْ رِيَاشًا فَقَالَ أَبْشِرْ بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَجَنَّةِ نَعِيمٍ وَمَقْدَمُكَ خَيْرُ مَقْدَمٍ........»[1] وإن كان غير مُوَحِّدٍ كان حاله على العكس من ذلك.

١- الكُلَيْنِيّ، **الكافي**، بَابُ أَنَّ الْـمَيِّتَ يُمَثَّلُ لَهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ وَعَمَلُهُ قَبْلَ مَوْتِه، ج٣/ ص ٢٣١ - ١٣٣.

﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ۝٣١ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ۝٣٢ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۝٣٣ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ۝٣٤﴾ [إبراهيم: ٣١-٣٤].

الفوائد: ﴿يُقِيمُواْ﴾ و ﴿وَيُنفِقُواْ﴾ في الآية ٣١ بمعنى: ليقيموا وليُنفقوا أي بصيغة أمر الغائب، كي يكون ذلك جوابًا لـ ﴿قُل﴾، ولذلك جاء الفعلان مجزومين بحذف النون. وقد عدَّد الحقّ تعالى في هذه الآيات عشرة أنواع من نِعمه الكُبرى، ومن جملتها: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ حيث تدل العبارة الأخيرة أن الله أعطى الإنسان كلَّ ما يحتاجه، ثم قال: إنكم لو أردتم أن تُحصوا نِعم الله وتعدوها فلن تستطيعوا إلى ذلك سبيلاً. أجل، كلُّ نَفَسٍ يستنشقه الإنسان يُمِد حياته فإذا أخرج النَّفَس كان مُفرحًا لذاته. فإذا كان في كل نَفَسٍ نِعمتان كبيرتان بل مئات النِّعم فكيف يُمكن للإنسان أن يُعَدِّد نِعَمَ اللهِ الظاهرةَ والباطنةَ ونِعمَه البدنيةَ والروحيةَ والدينيةَ؟ ويحك أيها الإنسان! بدلاً من أن تشكر الله على هذه النِّعم، تقابلها بالجحود والكفران.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ۝٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣٦ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ۝٣٧﴾ [إبراهيم: ٣٥-٣٧].

الفوائد: إن أشكل أحدهم فقال: إن سؤال إبراهيم عليه السلام ربَّه أن يجعل مَكَّةَ مدينةَ أمْنٍ وأمان وأن لا تبتليَ ذريَّتُهُ بعبادة الأصنام ليس عمليًا ولم يتحقَّق عمليًا على صعيد الواقع! إذ وقعت في

مكة حروبٌ عديدةٌ وكان أكثرُ أهلها مشركين يعبدون الأصنام [قبل بعثة النبي ﷺ].

فالجواب: نعم إن دعاء إبراهيم عليه السلام لم يُستجب لكن نتيجة دعائه كانت معرفة أهل الحجاز وذريتهم أن إبراهيم عليه السلام يُسَرُّ من الأمن في مكة كما يُسَرُّ من اجتناب عبادة الأصنام ويكره خلاف ذلك(١).

ويعود الضمير في ﴿أَضْلَلْنَ﴾ على الأصنام رُغم أنها ليست من ذوي العقول وذلك باعتبار أن الأصنام كانت تماثيل للأنبياء والصالحين، كما جاء هذا المعنى في سورة الأنبياء على لسان إبراهيم عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢]. ولا يخفى أنه لما كانت قبيلة جُرهم مجاورة لمكة وكانوا من أقرباء هاجر، لذلك ذهب إبراهيم بهاجر إلى ذلك المكان، لأنه لا يُعقل أن يترك إبراهيم ابنه وحيدًا في صحراء ليس فيها ماء ولا شجر(٢).

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٣٨ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٩ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ٤٠ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ٤١﴾ [إبراهيم: ٣٨-٤١].

الفوائد: كان إبراهيم عليه السلام يطلب من ربِّه في دعائه الأمانَ قبل أي شيء آخر، مما يدل على أنَّ نِعمة الأمنِ من أعظم النِّعم والخيرات. وسُئِل بعض العلماء: هل الأمن أفضل أم الصحة؟ فقال: الأمن أفضل، والدليل عليه أن شاةً لو انكسرت رجلها فإنها تصح بعد زمان، ثم إنها تقبل على الرعي والأكل، ولو أنها ربطت في موضع وربط بالقرب منها ذئب فإنها تمسك عن العلف ولا

١- للمفسرين إجابة عن هذا الإشكال يمكن مراجعتها في تفاسيرهم لهذه الآية، انظر مثلاً: تفسير **مفاتيح الغيب** للفخر الرازي (١٩/ ١٠٤ - ١٠٥) طبع دار الكتب العلمية، وتفسير **القرآن العظيم** لابن كثير (٢/ ٥٤١) طبع دار الفكر، وتفسير **فتح القدير** للشوكاني (٣/ ١١٢)، طبع دار الفكر.

٢- واضح أن هذا الكلام يحتاج إلى إعادة نظر. فما الدليل على أن هاجر من قبيلة جرهم؟ ثم إن نص القرآن يخالف هذا. ثم لماذا لم يذهب إبراهيم إلى قبيلة جرهم ويخبرهم أن «هاجر» عند البيت المحرم ليذهبوا إليها ويراعوا أمرها؟

تتناوله إلى أن تموت[١].

وَالـمُرَاد مِنْ جملة: ﴿وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ﴾ مَنْحُ اللهِ إبراهيمَ عليه السلام الولدَ في سن شيخوخته كما بيَّنَتْ ذلك الآيةُ ٧٢ من سورة هود وكما شرحناه في سورة يوسف.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾ [إبراهيم: ٤٢-٤٦].

الفوائد: معنى جملة: ﴿مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ﴾ ناكسو رؤوسهم بلغة قريش. وهذا أحد الاحتمالات.

ومعنى جملة: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أنهم لا يُحرِّكون أعينهم بل تشخص أبصارهم بشكل متواصل ولا تطرف لهم عين، من شدة الخوف.

وَالـمُرَاد مِنْ جملة ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ الإشارة إلى ما كانوا يقولونه: لن يكون لنا انتقال من هذا العالـم إلى عالـم آخر.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ...﴾ أنهم بذلوا غاية جهدهم وأعملوا كل ما أمكنهم من مكر وحيلة كي يقتلوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويُطفئوا نور دعوته، لقد بذلوا غاية مكرهم للقضاء على جبل الرسالة وجبل الصبر وجبل الوقار وجبل الاستقامة، لكنهم لم ينجحوا في ذلك، وهذا مثلٌ يُراد منه التهويل.

وَالـمَقْصود مِنْ ﴿وَإِن كَانَ﴾ هنا: ما كان[١].

١- استفاد الـمؤلف هذا البيان من **التفسير الكبير** للفخر الرازي، ج ١٩ / ص ١٣٥.

﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ ٤٧ يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ٤٨ وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ٤٩ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ٥٠ لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٥١ هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٥٢﴾ [إبراهيم: ٤٧-٥٢].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ أن أرض المحشر ليست هذه الأرض التي نعيش عليها الآن. والغيرية إما أن تكون بالصورة فقط أو بالمادة أو بكليهما، فإذا كان التبدُّل في الصورة فقط فمعنى ذلك أن الأرض ستبقى نفسها من حيث المادة لكن صورتها ستتغير لأن الجبال والوديان ستزول وستُصبح الأرض مستويةً. وإذا كان التغيير لمادة الأرض فمعنى ذلك أن الله سيُعدم الأرض ويخلق أرضًا أخرى.

وقد تكون اللام في كلمات: ﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ و ﴿وَلِيَعۡلَمُوٓاْ﴾ و ﴿وَلِيَذَّكَّرَ﴾ لام التعليل أي أن القرآن نزل لأجل أن يصل للناس كي يُنذَروا به وكي يعلموا أن الله إله واحد وكي يتذكروا. ومن الممكن أن تكون اللام في الأفعال الثلاثة المذكورة لام أمر الغائب، كما ذكرنا ذلك في ترجمة الآيات.

وعلى كل حال، ثمَّة عدة فوائد تُستفاد من هذه الآية:

الفائدة الأولى: تدل هذه الآية على أن القرآن كافٍ لمعرفة جميع ما يحتاج إليه الناس من أمور الدين.

الفائدة الثانية: أن بيان القرآن بيان بليغ ومفهوم ولا يحتاج إلى غيره ليُبيِّن معانيه، كل ما في الأمر أن على كل طالب علم أن يبذل جهده ويُضاعف همَّته ويتعلم مقدارًا من اللغة العربية وآدابها كي يفهم القرآن.

---

١ – هذا غير صواب. فـ «إنْ» هنا ليست نافية، بل هي المخففة من «إنَّ» واسمها ضمير الشأن محذوف. ومعنى الجملة: وإن كان شأنهم وحالهم لتزول الجبالُ من مكرهم.

الفائدة الثالثة: أن إنذار رسول الله ﷺ وإرشاده إنما يتم بواسطة هذا القرآن وببركته وبوسيلته إذ قال تعالى: ﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ وباء «**بِهِ**» تدل على هذا الـمعنى.

الفائدة الرابعة: أن الحقّ تعالى أراد من الناس التوحيد والعلم به وذلك بدليل جملة: ﴿وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ وفي هذا ردٌّ على الجبريَّة الذين قالوا: إن الله أراد من النصارى التثليثَ ومن الزنادقة والـمجوس الشركَ والعقيدةَ الثنويةَ.

الفائدة الخامسة: أن الله تعالى أراد بجملة: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أن يتذكر البشر جميعهم ويتدبروا ويفهموا، وأنه جعل العقل حُجَّةً عليهم لأنه لا يُمكن لغير العاقل أن يتدبر ويتفكر.

سورة الحِجْر

مكية وهي تسع وتسعون آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ١ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ٢ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٣ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ٤ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ٥﴾ [الحجر: ١-٥].

الفوائد: تنوين ﴿وَقُرۡءَانٖ﴾ للتنكير وللدلالة على عظمة القرآن. وتدلُّ جملة: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ....﴾ أنه سيأتي زمان يتمنَّى فيه الكفار لو كانوا أسلموا. وقد روى أبو موسى [الأشعريُّ] عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إذا كان يوم القيامة وَاجْتمعَ أَهْلُ النَّار في النَّارِ، وَمَعَهُمْ مَنْ شَاءَ اللهُ مِنْ أهْلِ القِبْلَةِ، قال الكفَّارُ لَهُمْ: أَلَسْتُم مُسْلمينَ؟ قالوا: بَلى، قالوا: فَمَا أغْنَى عَنْكُم إسْلامكُم وَقَدْ صِرْتُمْ مَعَنَا في النَّار؟ فيتفضَّلَ اللهُ تعالى بِفضْلِ رَحْمته، فيَأمرُ بإخْراجِ كُلِّ مَنْ كانَ مِنْ أهْلِ القِبْلَةِ مِنَ النَّار، فيَخْرجُونَ مِنْهَا، فحينئذٍ يودُّ الذين كفروا لَوْ كَانُوا مُسْلمينَ**»[1].

وتدلُّ جملةُ: ﴿وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُ﴾ أن الآمال الدنيوية تؤدي إلى هلاك الإنسان كما قال رسول

١- الحديث نقله معظم المفسِّرين كالطبري في **جامع البيان** (١٧/ ٦١)، والبغوي في **معالم التنزيل** (٤/ ٣٦٨)، والثعلبي النيسابوري في **الكشف والبيان** (٥/ ٣٣١)، والفخر الرازي في **التفسير الكبير**، (١٩ / ١٥٤). وتناقله عنهم سائر المفسِّرين. ورواه ابن أبي عاصم في «**السنة** (١/ ٤٠٥-٤٠٦)، والحاكم في **المستدرك** (٢ / ٤٤٢)، وقال: صحيحٌ ولم يخرِّجاه. ووافقه الذهبي في التلخيص. قال الهيثمي في **مجمع الزوائد** (٧ / ٤٥): «رواه الطبراني، وفيه خالد بن نافع الأشعري، قال أبو داود: متروك».

الله ﷺ: «**يَهْرَمُ ابْنُ آدَمَ وَتَشِيبُ فيهِ خَصْلَتَانِ: الْحِرْصُ وَطُولُ الْأَمَلِ**»[١]. وقال عليٌّ عليه السلام: «**إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ اثْنَانِ: اتِّبَاعُ الْهَوَى وطُولُ الأمَلِ؛ فَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ، وأَمَّا طُولُ الأمَلِ فَيُنْسِي الآخِرَةَ**»[٢].

وَالـمُرَاد مِنْ جملة: ﴿وَلَهَا كِتَابٌ مَّعۡلُومٌ﴾ أن إمهال الله للكفار ينبغي أن لا يؤدي إلى غرورهم لأن عذاب الدُّنْيَا والموت سينزل بهم في الوقت الذي حدده الله.

﴿وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ ٦ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ٧ مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ٨﴾ [الحجر: ٦-٨].

<u>**الفوائد**</u>: إحدى أسماء القرآن «**الذِّكْر**» لأن القرآن سببٌ لتذكُّر الله وتذكُّر أحكامه، وهنا سُمِّي السَّبَب باسم الـمُسَبَّب.

ومعنى جملة: ﴿لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ﴾ أي لماذا لا تُحضر الملائكة لتشهد لك على صدق ادعائك؟ وقد ردَّ الله عليهم بقوله: إنه لو جاءت الملائكة فستأتي بصورة البشر فلن يُصدِّقك الكفار أيضًا، وعندئذ سيكون إحضار الملائكة لغوًا وباطلاً، ونحن لا ننزل الملائكة إلا بالحق. ويُمكن أن نقول: إن سؤال الكفار كان: لماذا لا تأتي الملائكة لتُنزل علينا العذاب كما تقول؟ وجوابهم: إنه لو نزلت الملائكة فلن تكون هناك مهلة لكم: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ﴾.

﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر: ٩].

<u>**الفوائد**</u>: تدلُّ جملة: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ التي جاءت على نحو التأكيد، أن الله حافظٌ

١- رواه أحمد في **المسند** (٣/ ١١٥، ١١٩، ١٦٩) بما يشبه هذا اللفظ وعبارته: «يَهْرَمُ ابْنُ آدَمَ وتبقى منه اثنتان: الْحِرْصُ والأَمَلُ» ، ولكن أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب الزكاة/ باب كراهة الحرص على الدنيا، رقم ١٠٤٧) والترمذي وابن ماجه في سننهما بلفظ مختلف قليلاً وهو: «يَهْرَمُ ابْنُ آدَمَ وَتَشِبُّ مِنْهُ اثْنَتَانِ: الْحِرْصُ عَلَى الْمَالِ وَالْحِرْصُ عَلَى الْعُمُرِ».

٢- **نهج البلاغة**، قسم خطب أمير المؤمنين عليه السلام، ص ٨٣ - ٨٤، والكُلَيْنِيّ، **الكافي**، ٨/ ٥٨.

للقرآن، ووجوه التأكيد هي التالية:

الأول: حرف «إِنَّ» وهو من الحروف الـمُشبَّهة بالفعل ويفيد التأكيد.

الثاني: اللام في كلمة ﴿لَهُۥ﴾.

الثالث: اللام في كلمة ﴿لَحَـٰفِظُونَ﴾.

الرابع: التعبير عن هذا الأمر بجملة اسمية.

الخامس: الإتيان بصيغة الـمُتكلم مع الغيب والإتيان بلفظ الجمع ﴿حَـٰفِظُونَ﴾ والتي تدل على معنى: إنا نحن الله أصحاب القدرة الكاملة والعلم التام حافظون للقرآن.

هذه الآية دليل محكم على أن القرآن مصون من الزيادة والنقصان ومحفوظ من أن يأتيه الباطل، وأن الله تعالى هو الذي تكفل بحفظه حتى آخر الزمن الذي تقوم فيه أمة الإسلام فوجًا فوجًا بحفظه، وينقله أهل كل عصر إلى أهل العصر اللاحق كي تتم الحُجَّة به على البشر، وتدلُّ أيضًا أن الله يحفظ القرآن من كيد الكفار ويحفظه من البِلَى والاندثار، وهذه الآية دليل أيضًا على أن آية «**بسم الله الرحمن الرحيم**» جزءٌ من القرآن وليست زائدةً عليه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ۝١٠ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ
يَسْتَهْزِءُونَ۝١١ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ۝١٢ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ
ٱلْأَوَّلِينَ۝١٣ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ۝١٤ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا
سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ۝١٥ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا
لِلنَّـٰظِرِينَ۝١٦ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ۝١٧ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ
مُّبِينٌ۝١٨﴾ [الحجر: ١٠-١٨].

الفوائد: الغرض من هذه الآيات الكريمة تسلية رسول الله ﷺ ومواساته بأنه إن استهزأ بك هؤلاء فقد استهزؤوا بسائر الأنبياء من قبلك أيضًا.

وضمير ﴿نَسْلُكُهُۥ﴾ يعود على القرآن والذكر، أي أنه من خلال إرسال الرسول واستهزاء الكفار ولِجاجهم وما يثيرونه من غوغاء وفتن، فإن قلوب الـمجرمين تتوجه إلى قول الطرفين

(الرسول والكفار)، فيدخل كلام الله إلى قلوبهم.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أنه لو شاهد الكفار ملكوت السماوات وذهبوا بأنفسهم إلى الكواكب فلن يؤمنوا ولن يتخلَّوْا عن عقائدهم الخرافية مثل المسيحيين في زماننا الذين وصلوا إلى الكواكب ولا يزالون متمسِّكين بخرافاتهم لا يتخلَّوْنَ عنها.

وَالمَقْصود مِن البروج التي جعلها الله في السماء الكواكب التي تبدو للنظر على شكل اثني عشر برجًا.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ﴾ أن الشياطين كانوا يصعدون إلى أعالي السماء ويُحاولون أن يسترقوا السمع ليُدركوا شيئًا من الوحي أو من الأخبار التي تُعطَى للملائكة. وأن الله طردهم عن السمع بواسطة الشهب.

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحجر: ١٩-٢٥].

الفوائد: المراد من جملة ﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ أن كل نبات أو شجرة أو أي شيء معدني في الهواء أو الأرض أو الجبال خلقه الله بمقدار مُعَيَّن متناسب وأنبته بقدر حاجة البشر له لا أكثر ولا أقل، طبقًا لما تقتضيه حكمة الله، كما جعل الله لتلك الأشياء عللاً وأسبابًا بحدٍّ معيّنٍ ومقدارٍ معيّنٍ. مثلاً جعل الله إشعاع الشمس وهطول المطر اللذين يُشكلان عِلَّة نمو النباتات، يتمّان بمقدار معيَّن حتى يكون المعلول لها كافيًا للناس.

وإذا اعتبرنا اسم الموصول «مَنْ» في جملة: ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾، معطوفًا على ضمير

«كُمْ» في جملة: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾، فإن المعنى يكون: وجعلنا الأرض مكانًا لمعيشتكم ووسيلةً لها ولمعيشةِ مَن لا ترزقونه مثل خدمكم وحيواناتكم. أما إذا عطفنا اسم الموصول «مَنْ» على «مَعَايِشَ» فيُصبح المعنى: وجعلنا الأرض لكم وسيلةً للعيش وجعلنا لكم الخدم والحيوانات الذين لا ترزقونهم.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ أن الله يخلق كل شيء من العدم، حيث إن المراد من الخزائن قدرة الله، وأن الله يُنزل الأشياء بمقدار معيَّن تقتضيه الحكمة.

وكلمة ﴿لَوَٰقِحَ﴾ جمع لاقح بمعنى الحامل إذ تقوم الرياح بتجميع الغيوم والسحب حتى يهطل منها المطر، وإذا اعتبرنا «لاقح» بمعنى المُلقِّح -الذي جاء أيضًا في اللغة- أصبح المعنى: إن الرياحَ مُلقِّحَةٌ للأشجار والنباتات، إذْ تقوم بتلقيح بذور الأشجار من الأشجار المذَكَّرة إلى الأشجار المؤنثة.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾ أن الإحياء والإماتة منحصرة بذاته تعالى، بدليل الإتيان بضمير الفصل بعد ضمير الوصل.

وَالمُرَاد مِنْ ﴿ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾ الماضين، ومن ﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ اللاحقين الذين سيأتون في المستقبل.

ويُمكن أن يكون المرادُ من ﴿ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾ و ﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ الماضين من الناس الحاليين أنفسهم واللاحقين منهم أنفسهم أيضًا. ومن الممكن أن يكون المراد المتقدمين في صفوف المعركة والمتأخرين عنها، أو المتقدمين في الخير والبطيئين عنه، أو المتقدمين في صفوف صلاة الجماعة والمتأخرين فيها، وَالمَقْصود أننا نعلم حال المتقدمين والمتأخرين ونيَّتهم، أي نعلم نية من وقف في الصف الأول في الجماعة ومن وقف في الصف الثاني.

ومن الممكن أن يُراد بذلك المُراد والمُريد، أو أن يكون المراد جميع المعاني المذكورة.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾

فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ۝٢٩﴾ [الحجر: ٢٦-٢٩].

الفوائد: ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ مشتق من الإنس، ولذلك يميل الإنسان بفطرته إلى الأُنس بالآخرين من أفراد جنسه.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ أنه تعالى خلق حضرة آدم من الطين الذي بقي مدةً حتى أنتن وتغير ثم جفَّ ويَبِس، ثم نفخ الله فيه الروح.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ﴾ أن اللَّهَ خَلَقَ الجنَّ قبل مدة طويلة من خلق آدم.

وَالـمَقْصود مِنْ كلمة ﴿مِن رُّوحِى﴾ إثبات شرف الروح وأهميتها حيث أُضيفت إلى ياء الـمتكلم الخاصَّة بالله، وهذه الإضافة إضافة تشريف وتكريم كالإضافة في عبارات: شهر الله وبيت الله.

﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ۝٣٠ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ۝٣١ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ۝٣٢ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ۝٣٣ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ۝٣٤ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ۝٣٥ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ۝٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ۝٣٧ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ۝٣٨﴾ [الحجر: ٣٠-٣٨].

الفوائد: الإنسان جسم يُمكن لمسه أما الشيطان فهو موجود خُلق من عنصر النار وهو ألطف من البشر ولذلك رفض أن يسجد لآدم لأن آدم من ناحية جسمه كثيف مظلم، لكن الشيطان لم يلتفت إلى الروح الـموجودة في آدم والتي هي من عالـم القدس.

وقد طلب الشيطان من الله أن يُمهله حتى يوم الجزاء، ولو أمهله حتى يوم الجزاء لوجب أن لا يموت حتى ذلك اليوم، ولكنَّ الحقَّ تعالى قال: إنك من الـمنظرين إلى يوم الوقت الـمعلوم، لأن الـمكلَّف لو عرف الزمن الذي سيبقى فيه حيًا لما كان ذلك في صالحه لأن هذا سيؤدي إلى طغيانه وغروره، ولكن الله لم يُحدد له زمن انتهاء مهلته كي يبقى دائمًا في خوف واضطراب.

وَالـمَقْصودُ مِنْ ﴿ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ الـمعلوم عند الله، يعني الـمعلوم عند الـمتكلِّم لا عند الـمخَاطَب.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ۝٤١ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝٤٢ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٣ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ۝٤٤﴾ [الحجر: ٣٩-٤٤].

الفوائد: تدلُّ جملة: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ أن الشيطان نسب ضلاله وغِوايته إلى الله وأراد أن يقول: لما أمرني الله بالسجود لآدم فقد هيّأ لي أسباب الضلال والغواية. والجواب عن ذلك: أن ضلال الشيطان لم ينشأ من أمر الله له بالسجود بل من حسده وتكبره، بدليل أن الله أمر الـملائكة أيضًا بالسجود لآدم فلم يكن ذلك سببًا لضلال الـملائكة وغوايتهم.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠﴾ أن الشيطان أراد أن لا يكون كاذبًا وأن لا يظهر كذب كلامه لأنه كان يعلم أن كيده ومكره لا يؤثران في عباد الله الـمُخْلَصين. إذن فالذي لا يحترز من الكذب أسفلُ رتبةً من الشيطان.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ أن الله لم يُسَلِّط الشيطان على بني آدم وأن بني آدم يختارون العِصيان برغبتهم واختيارهم وإرادتهم الحرة.

واختلفوا في ما يُشير إليه اسم الإشارة في جملة: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ فيُحتمل أن تكون الإشارة به إلى إخلاص الـمخلصين، يعني طريق الإخلاص صراطٌ مستقيمٌ إليّ، والسائر فيه يصل إليّ.

وتدل جملة: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ﴾ على أن لجهنم سبعة أبواب، وقد سُمِّي كل باب باسم طبقة أو فريق من العصاة، وقيل: إنَّ كلَّ باب يقع فوق الباب الآخر. رُوي عن عليٍّ عليه السلام أنه قال: «**إِنَّ جَهَنَّمَ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوابٍ أَطْبَاقٍ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ وَوَضَعَ إِحْدَى يَدَيْهِ عَلَى الْأُخْرَى فَقَالَ هَكَذَا وَإِنَّ اللَّهَ وَضَعَ الْجِنَانَ عَلَى الْعَرْضِ وَوَضَعَ النِّيرَانَ بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ فَأَسْفَلُهَا جَهَنَّمُ وَفَوْقَهَا لَظَى**

وَفَوْقَهَا الْـحُطَمَةُ وَفَوْقَهَا سَقَرُ وَفَوْقَهَا الْـجَحِيمُ وَفَوْقَهَا السَّعِيرُ وَفَوْقَهَا الْـهَاوِيَةُ»[١].

﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ٤٥ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ٤٦ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ٤٧ لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ ٤٨ ۞نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ٥٠﴾ [الحجر: ٤٥-٥٠].

الفوائد: ﴿جَنَّٰتٖ﴾ جمع جنَّة، فكما أن لجهنم سبع طبقات كذلك للجنَّة ثمانية أبواب أو ثماني طبقات. وكذلك كلمة ﴿وَعُيُونٍ﴾ جمع عين، فعيون الجنَّة أيضًا متعدِّدَة. وجملة ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ﴾ وجملة ﴿لَا يَمَسُّهُمۡ...﴾ تدلان على أنه لن يكون لأهل الجنَّة أي عذاب روحي أو جسمي، لأن أهل الدُّنْيَا يُعانون من أنواع الـمشقات والعذاب الروحي والجسمي لتحصيل الـمقامات والرغبات الدنيوية، أما أهل الجنَّة فكل شيء متوفر لهم ولا يحتاجون إلى بذل الـمشقة وتكبد العناء وتجشم الصعاب ومعاناة الألم.

والغرض من ذكر ﴿ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ﴾ بعد ﴿ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ في الآيات ٤٩-٥٠ أن لا يغترَّ العباد برحمة الله ويتصوَّروا أنه لما كان الله رحيمًا فيُمكنهم ارتكاب كل إثم وذنب، فالأمر ليس كذلك لأنه إذا كان الله ﴿ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فإن عذابه أيضًا هو ﴿الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ ﴿ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ﴾، كما قال تعالى في آية أخرى أيضًا: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩٨﴾ [المائدة: ٩٨]. ولذلك كلَّما ذكر القرآن الجنَّة أعقب ذلك بذكر جهنم.

﴿وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٥١ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗا قَالَ إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ ٥٢ قَالُواْ لَا تَوۡجَلۡ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ٥٣ قَالَ أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ٥٤ قَالُواْ بَشَّرۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ ٥٥ قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ

١- الـمجلسي، **بحار الأنوار**، ج ٨/ ص٢٤٥-٢٤٦. وفي مصادر السنة: الثعلبي النيسابوري، **الكشف والبيان**، ج٥/ ص٣٤٢، والقرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج ١٠/ ص٣٠، وغيرهما. وانظر الطبري، **جامع البيان**، ج١٧/ ص١٠٦ - ١٠٧. وقد رُوِيَ نحو ذلك أيضًا عن ابن عباس وابن جريج والضحاك.

رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الحجر: ٥١-٦٠].

الفوائد: كلمة ﴿ضَيْفِ﴾ مصدر واسم جنس وتطلق على الجمع.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ على أن إبراهيم عليه السلام لما دخل عليه الـملائكة واستقبلهم وأضافهم لم يكن يعرف أنهم ملائكة، وهذا يدلُّ على أنَّ رُسُلَ الله لا يعرفون كلَّ شَيْءٍ. وقد خاف إبراهيم عليه السلام من ضيوفه الـملائكة عندما رأى أيديهم لا تمتد إلى الطعام الذي قدمه لهم، إذ ظنّ أن عدم رغبتهم في الأكل من طعامه سببه عدم رغبتهم أن يكون له عليهم فضل، لأنهم ينوون به سوءًا.

والـمراد من ﴿بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ حضرة إسحق عليه السلام.

﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الحجر: ٦١-٧٢].

الفوائد: قال لوط عليه السلام للملائكة: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ لأنه لم ير مثل تلك الهيئة ومثل أولئك الأشخاص الـمؤدّبين من قبل، إذ كل من عرفهم من رجال مدينته كانوا أشخاصًا قليلي الأدب وعديمي الإيمان، ولذلك تعجّب منهم.

والـمُرَادُ مِنْ جُمْلَةِ: ﴿بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾ العذاب الإلهي، لأن لوطًا ﷺ كان يخوّف قومه من عذاب الله إنْ ظَلُّوا على كفرهم، وكان يعدهم بحلول العذاب بهم، أما هم فكانوا يَشُكُّون في هذا الوعد.

وجملة: ﴿لَعَمۡرُكَ﴾ قسم، والله يقسم بما يشاء، أما عباده فلا يجوز لهم أن يقسموا إلا به. وإذا كان المقصود من كاف المخاطَب في كلمة ﴿لَعَمۡرُكَ﴾ محمد ﷺ فالعبارة دليل على إكرام الله لنبيّه وتشريفه له إذ أقسم باسمه. أما إذا اعتبرنا الخطاب في كلمة ﴿لَعَمۡرُكَ﴾ موجّهًا إلى لوط ﷺ فتكون العبارة عندئذ من قول الملائكة للوط ﷺ. وبناء على ذلك فالمقصود من جملة ﴿إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ قوم لوط ﷺ الذين كانوا غارقين في سَكْرَة الكفر. وبناء على القول الأول يعود ضمير ﴿إِنَّهُمۡ﴾ إلى مشركي مكة.

﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ٧٣ فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ٧٤ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ٧٥ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ ٧٦ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٧٧﴾ [الحجر: ٧٣-٧٧].

الفوائد: تُسَمَّى بلاد لوط ﷺ «**سدوم**» وهم الذين سمعوا الصيحة الكبرى وهلكوا لشدة الهلع والخوف.

والـمُرَادُ مِنْ جُمْلَةِ: ﴿لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ﴾ أن بلاد قوم لوط التي خربت وبادت بقيت آثارها على الطريق بين الحجاز والشام كي يمرّ بها الناس في أسفارهم دائمًا ويأخذوا منها العبرة. ولا شك أن هذه الآثار عبرة للمؤمنين ومدعاة ليقظتهم، أما الكفار فإنهم يفسِّرون مثل هذه القضايا بالصدفة أو يعتبرونها نتيجة لاتصال الكواكب واقترانها.

﴿وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ٧٨ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ ٧٩ وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٨٠ وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ٨١ وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ٨٢ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ٨٣ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨٤ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ

لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ۝٨٥ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٨٦﴾ [الحجر: ٧٨-٨٦].

الفوائد: كلمة ﴿ٱلۡأَيۡكَةِ﴾ في لغة الفرس معناها الغابة المكتظَّة بالشجر. وكانت ﴿ٱلۡأَيۡكَةِ﴾ محلاً قريبًا من مدينة «مَدْيَن» وقد بُعِث شعيب عليه السلام لكلا المكانين.

وتدلُّ جُمْلَةُ: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ أن كلمة الإمام تطلق أيضًا على الطريق الذي يرشد المسافر إلى مقصده. وكانت مدينة ﴿ٱلۡأَيۡكَةِ﴾ وسدوم على مثل هذا الطريق.

والمراد من ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ﴾ قوم صالح النبي عليه السلام الذين كان يُقال لهم: قوم ثمود. والحِجْر اسمٌ للوادي الذي كان مسكنهم.

وتدل كلمة ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ أن الله بعث إلى أولئك القوم عدَّة أنبياء غير النبيِّ صالح عليه السلام فكذّبوهم جميعًا.

وتدلُّ جُمْلَةُ: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ أن الله لم يخلق الناس عبثًا ولم يتركهم سدًى بل إنما خلقهم لحكمة وهي أن يعبدوه فيصلوا إلى الكمال وخلقهم ليكون لديهم حرية الاختيار، وهدف الخلق تكامل البشر والوصول إلى الدرجات الأخروية.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ۝٨٧ لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٨٨ وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ ۝٨٩ كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ ۝٩٠ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ ۝٩١﴾ [الحجر: ٨٧-٩١].

الفوائد: المراد من كلمة ﴿سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي﴾ - حسب الظاهر - سورة الحمد التي تتألف من سبع آيات واعْتُبِرَت مثاني لأنها تُقرأ في الصلاة مرتين، وآياتها ثناء مكرر ودعاء مكرر، فنصف سورة الحمد حمدٌ وثناء ونصفها الآخر مسألة ودعاء، وأغلب كلماتها تكرَّر مرتين. وبناء على ذلك، فحرف الجر «مِن» في عبارة ﴿مِّنَ ٱلۡمَثَانِي﴾ للبيان.

وقال بعضهم: المثاني هي سور القرآن التي تكررت فيها المواعظ والقصص وهي من السور الطوال أو السور الحواميم، وبناء على هذا القول فإن حرف الجر «مِن» في عبارة ﴿مِّنَ ٱلۡمَثَانِي﴾ للتبعيض. وعبارة ﴿وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ﴾ معطوفة على ﴿سَبۡعٗا﴾ من باب عطف العام

على الخاص.

والـمُراد من ﴿ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ - في الظاهر - عدد من الـمشركين الذين قسّموا أنفسهم إلى جماعات وتوزّعوا على مداخل مكة ووقفوا في طريق الناس القادمين إليها ليوصوهم ألا يستمعوا إلى كلام محمد ﷺ ولا يغترُّوا بحديثه، وكانوا ستة عشر نفرًا وقيل أربعين.

والـمُرَادُ مِنْ جُمْلَةِ: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴿٩١﴾﴾ أنهم قسّموا القرآن إلى أجزاء وكانوا يقولون عن جزء: إنه سحر وعن جزء آخر: إنه شعر وعن جزء: إنه أساطير وعن آخر: إنه افتراء وهكذا... وهذه الآية إشارة إلى أنه لا يجوز تقسيم القرآن إلى أجزاء وقطع كتقسيمه إلى ١٢٠ ربع حزب مثلاً، وقال بعضهم: إن الـمراد من عبارة ﴿ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ الذين أقسموا أن يهجموا ليلاً على منزل النبي صالح ﵇ ليقتلوه، فعذّبهم الله بملائكته الذين رمَوهم بسهام العذاب.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٢-٩٩]

الفوائد: تدلُّ جُمْلَةُ: ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أن الله سيستجوب الجميع، ولكن الله تعالى قال في سورة الرحمن: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴿٣٩﴾﴾ [الرحمن: ٣٩]. مما يدل على أن الجن والإنس لن يُسألوا عن آثامهم! فكيف التوفيق بين الآيتين؟ الجواب: إن الاستجواب غير الاستفهام، لأن الاستجواب يكون للتقريع وتعيين ما يستحقه الـمُسْتَجوب من عقاب أو ثواب.

والـمقصود من ﴿ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ الكفار الذين كانوا يستهزئون برسول الله ﷺ ويحقِّرونه ويقولون للناسِ: لا تذهبوا إليه إنه لـمجنون!.

وكان الـمستهزئون كثيرين وكانوا يتعصَّبون لباطلهم وكان أشهرهم: **الْعَاص بن وَائِل، وَالوَلِيد بن الْـمُغيرَة، وَأَبُو زَمعَة الأسود بن الـمُطَّلِب، وَالأسود بن عبد يَغُوث، والحَارِث بن**

قَيْس، وَالحَارِث بن الطلاطلة[١]. وكانوا جميعًا من الأغنياء المترفين ومتولي سدانة الأصنام، فأهلكهم الله جميعًا. رُوِيَ أن رسول الله ﷺ كان يومًا جالسًا في الحرم، فجاء خمسةٌ من هؤلاء المستهزئين وقالوا كلامًا مسيئًا بحقِّ النبيِّ وبدؤوا بالطواف حول الكعبة. فجاء جبرائيل إلى رسول الله ﷺ وقال له: يا رسول الله! لقد أمرني الله أن أكفيك شرَّهم: فأومأ بيده إلى ساق الوليد بن المغيرة وأشار إلى راحة قدم العاص بن وائل السهمي وأومأ إلى أنف الحارث بن قيس، وإلى وجه الأَسْوَدِ بْنِ عَبْدِ يَغُوثَ، وإلى عينِ الأَسْوَدِ بْنِ المُطَّلِبِ، فأصيب كلٌّ من هؤلاء الخمسة بآفة في عضوه الذي أشار إليه جبرائيل فكان ذلك سببًا في هلاكه.

ومن ذلك أن **الوليد** بن المغيرة كان مسبلاً ثوبه يجُرُّهُ تكبُّرًا وخُيلاءَ فمَرَّ على دُكَّانِ بَرْيِ السِّهَام فعلق بثوبه نَصْلُ سَهْمٍ فمنعه الكِبْرُ أن يخفض رأسه فينزعها وجعلت النصل تضرب ساقه فخدشته فقطعت عرقَهُ فلم يزل مريضًا من ذلك حتى هلك وصار إلى الجحيم. وأما **العاص** بن وائل فوطئ على شبرقةٍ [نبتة حجازية ذات شوك] فدخلت شوكةٌ في أخمص رجله فَوَرِمَتْ منها قدمُهُ فلم يزل يحكُّها حتى مات منها. وأما **الحارث** فامتخط قيحًا [أي التهب أنفه وخرج منه قيح] فلا زال يخرج منه القيح حتى هلك. وأمَّا الْأَسْوَدُ بْنُ عَبْدِ يَغُوثَ، فَاسْتَسْقَى بَطْنُهُ وورم من ذلك رأسُهُ ووجهُهُ ولا زال يضرب رأسه في الأرض حتى هلك، وقيل: بل اصطدم رأسُهُ بشجرةٍ فانغرست شوكة من الشجرة في وجهه، وكانت سبب هلاكه. وأما الأسود ابن المطلب فعمي فجعل يضرب رأسه على الجدار من الغضب حتى هلك»[٢].

١- جاء في بعض المصادر «**الحارث بن الغيطلة**» بدلاً من «الحارث بن الطلاطلة»، وقد قال البلاذري في كتابه «**أنساب الأشراف**» في ترجمة: «**مالك بن الطلاطلة**»: «قال الكلبي: سمعت من يقول: هو الحارث بن الطلاطلة، وليس ذلك بشيء، وهم يغلطون **بابن الغيطلة** وابن الطلاطلة، فيجعلون هذا ذاك وذاك هذا». انتهى. ومعنى كلامه أن اسم ابن الطلاطلة الصحيح: مالك لا الحارث.

٢- لم أجده بمثل هذا اللفظ والسياق في أي مرجع! ولكنه موجود في مراجع متفرقة بألفاظ متقاربة، مثلاً انظر المجلسي، **بحار الأنوار**، ج ١٨/ ص ٤٨ - ٤٩. وانظر تفسير الآية في كل من **تفسير علي بن إبراهيم** القمي، **وتفسير العياشي** وغيرهما. وفي المصادر السنّيّة: انظر **سيرة ابن هشام**، ج ١/ ص ٤١٠. **وتفسير الطبري**،

يقول الـمؤلِّف: وفي يومنا، كلما قام رجلٌ وأراد أن يبين الحقَّ وأن يُبَلِّغ الناسَ تعاليم القرآن، قام عدد من قراء الـمراثي والـمتلبِّسين زورًا بلباس أهل العلم، والوعاظ الـمتظاهرين بالتَّقْوَى، مِمَّن اتَّخذوا الدين حانوتًا يتكسَّبون به، وَهُمْ أجمعون جاهلون بالقرآن، وبصائرهم عمياء عن معرفة الحق، بالاستهزاء به واتهامه بشتَّى التُّهَم والطعن به بكل طريق ممكن، مقتدين بذلك بالـمستهزئين زمن رسول الله ﷺ! وقد ألفتُ كتبًا وكانت لا تزال مخطوطةً وليس عندي منها سوى النسخة الخطية الواحدة التي كتبتها بيدي، فسُرِقَت من غرفتي وكِيلَت لي مختلف التُّهَم.

والـمُراد من ﴿ٱلۡيَقِينُ﴾ الـموت الذي هو سبب اليقين؛ لأن من مات أيقن بالعالـم الآخر وبعالـم الغيب، فأُطلق هنا اسم الـمُسَبَّب على السبب. وقال علي عليه السلام: «**ما رأيت يقينًا أشبه بالشك من الـموت**».

١٧/ ١٥٤ - ١٥٧، وتفسير القرطبي، ١٠/ ٦٢.

سورة النحل

مكية وهي مئة وثمان وعشرون آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ١ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ٢﴾ [النحل: ١-٢].

الفوائد: لما كان رسول الله ﷺ يُخوِّف الناس من عذاب الدُّنْيَا والآخرة، أما عذاب الدُّنْيَا فهو القتل والذلة والتفرقة والخضوع للآخرين، وأما عذاب الآخرة فهو معروف، وكان أهل مكة لا يرون شيئًا مما يعدهم ويتوعدهم به رسول الله ﷺ ويقولون: أين العذاب الذي تتوعدنا به؟ ولماذا لا يأتينا؟ أجابهم الله تعالى: لقد أتى العذاب، أي أن المستقبل آتٍ وحتميّ فلا تستعجلوا.

ولما كان الكفار يقولون: حتى لو كان وعدك يا محمَّد صادقًا فإن هذه الأصنام شفعاؤنا عند الله، أجابهم الحقّ تعالى: إن الله مُنزَّهٌ عن أن يتدخَّل مخلوقٌ في فعله أو أن يُشاركه أحد في أموره.

ولما كان الكفار يقولون: كيف فهمتَ يا محمَّد أن الله وعد وأوعد وكيف شهدت أسرار الغيب ولم يُشاهدها أحد غيرك؟ ردّ عليهم الله بقوله: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ﴾ وَالـمُرَاد مِنْ الـملائكة إما جبريل مع مرافقيه من مأموري الوحي، أو جبريل وحده، ولا يمنع من ذلك أنه فردٌ وعُبِّر عنه بالجمع (الـملائكة) لأن التعبير بالجمع لرئاسته لسائر الـملائكة.

وأما ﴿ٱلرُّوحِ﴾ فرغم أن لها معانيَ متعددةً إلا أن معناها هنا الوحي كما قال في آية أخرى:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]. وقال في آية أخرى: ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: ١٥]. وسبب تسمية الوحي الإلهي بالروح هو « أن جسد الإنسان مواتٌ كثيفٌ مظلمٌ، فإذا اتَّصل به الروح صار حيًا لطيفًا نورانيًا. فظهرت آثار النور في الحواس الخمس، ثم الروح أيضًا ظلمانية جاهلة، فإذا اتصل العقل بها صارت مشرقةً نورانيةً، ثم العقل أيضًا ليس بكامل النورانية والصفاء والإشراق حتى يستكمل بمعرفة ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله ومعرفة أحوال عالـم الأرواح والأجساد، وعالـم الدنيا والآخرة، ثم إن هذه الـمعارف الشريفة الإلهية لا تكمل ولا تصفو إلا بنور الوحي والقرآن. فبالقرآن والوحي تكمل الـمعارف الإلهية والـمكاشفات الربانية وهذه الـمعارف بها يشرق العقل ويصفو ويكمل، والعقل به يكمل جوهر الروح، والروح به يكمل حال الجسد، وعند هذا يظهر أن الروح الأصلي الحقيقي هو الوحي والقرآن، لأن به يحصل الخلاص من رقدة الجهالة، ونوم الغفلة، وبه يحصل الانتقال من حضيض البهيمية إلى أوج الـملكية، فظهر أن إطلاق لفظ الروح على الوحي في غاية الـمناسبة والـمشاكلة»[١].

وبما أن قوة الإنسان العلمية والعملية إنما تكتمل بواسطة روح الوحي لذلك قال تعالى عن القوة العلمية: ﴿أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾، وعن القوة العملية: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾. وبما أن وصول الوحي للأنبياء إنما يتم بواسطة الـملائكة قُدِّم الإيمان بالـملائكة على الإيمان بالرسل كما قال في سورة البقرة: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ٤ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٥ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ٦ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٧﴾ [النحل: ٣-٧].

الفوائد: بعد أن بيَّنت الآية السابقة الهدف من إرسال الرسل وأنه معرفة الله والتقوى، بدأ في

١- استفاد الـمؤلف هذا التوضيح من **التفسير الكبير** للفخر الرازي، ١٩/ ٢١٩ - ٢٢٠.

هذه الآيات ببيان دلائل التوحيد. فذكر في البداية خلق السماوات والأرض، إذ تدُلُّ السَّماوات والأرض على وجود فاعل مختار قادر من عدة جهات:

١- لأن حجم السماوات والأرض متناهٍ أي له نهاية وحد معيَّن، وتخصيصهما بهذا الحدّ الـمُعيَّن الذي لا يزيد ولا ينقص يحتاج إلى مُخصِّص حدَّده بهذه الـمقادير.

٢- من ناحية تخصيص السماوات والأرض بنظام محدد مما يحتاج إلى مُنظِّم قادر.

٣- من ناحية حركتهما لأن الحركة حادثة وتحتاج إلى مُحدث.

٤- للسماوات والأرض أجزاء يقع بعضها في السطح وبعضها في العمق، واختصاص كل جزء بمكان مُعيَّن يحتاج إلى مُخصِّص قادر مختار.

وهذه الجهات تنطبق على النطفة وعلى سائر الـمخلوقات.

وَالـمُرَاد مِنْ جملة ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ بيان نهاية الحقارة ونهاية القدرة.

ويُمكن أن تكون كلمة ﴿خَصِيمٌ﴾ صفة للنطفة لأن ذرات النُّطف تتسابق مع بعضها، فكأنها تتخاصم مع بعضها في الوصول إلى هدف الإنسانية.

وَالـمَقْصود مِنْ ﴿دِفْءٌ﴾ الدفء الذي يناله الإنسان بواسطة صوف الحيوانات ووَبَرها وفِرَائِها.

﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾ [النحل: ٨-١١].

الفوائد: تدلُّ جملة: ﴿لِتَرْكَبُوهَا﴾ على أن الخيل والبغال والحمير خُلقت للركوب عليها لا لأكل لحومها، لذلك استدلَّ بعضُ الفقهاء بهذه الآية على حُرمة لحومها.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ أنه من الواجب على الله أن يُبيِّن لعباده طريق الحقّ والباطل.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ على أنه يجب على الإنسان أن يتفكَّر في مظاهر قدرة الله في الحيوانات والأشجار وخلق السماوات والأرض. وتخصيص كل عضو من أعضاء الإنسان بمكانه ووظيفته يحتاج إلى مُخصِّص قادر مختار.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النحل: ١٢-١٦].

الفوائد: اللام في جملة ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ...﴾ لأجل النفع، أي أن الله سخر لكم هذه الأمور لمنفعتكم لا أن الله جعلها مُسخَّرةً بأمركم بل جعلها مُسَخَّرةً لكم أي أن الـمُسَخِّر لها هو أمر الله ولذلك قال: ﴿مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ﴾.

وجملة ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ﴾ ردٌّ على الطبيعيين الذين يقولون: إن خالق الأشياء هو الطبيعة! في هذه الآية يقول: «بما أن الطبيعة واحدة فيجب أن تكون آثارها واحدة، فمثلاً أحد جانبي تلك الورقة في غاية الصفرة، والوجه الثاني في غاية الحمرة، ولو كان الـمؤثر فيها الطبيعة لوجب أن لا يكون هناك فرق بين داخلها وخارجها. أو أننا نجد في الحديقة الواحدة فواكه مختلفة وألوانًا متنوعةً، حتى في شجرة العنب الواحدة نجد أن خاصية ماء حبة العنب غير خاصية قشرها وغير خاصية بذرتها و.... فهذا يفيد القطع بأن الـمؤثر في حصول هذه الصفات والألوان والأحوال ليس هو الطبيعة، بل الـمؤثر فيها هو الفاعل الـمختار الحكيم، وهو الله[١].

وتدل جملة: ﴿لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ أن لحم الحيوانات البحرية جميعها حلال إلا إذا كانت مُضرَّةً أو من الخبائث، ولا فرق في ذلك بين الأسماك ذات الفَلْس (الحراشف) والتي لا

١- استفاد الـمؤلف هذه التوضيح من **التفسير الكبير** للفخر الرازي، ٢٠/ ٣ - ٤، مع اختصار وتصرُّف.

فَلْس لها، لأن كلمة ﴿لَحۡمٗا﴾ مُطلقة. وعلَّةُ تقييد اللحم بالطري في قوله: ﴿لَحۡمٗا طَرِيّٗا﴾ أن المقام مقام المِنَّة، واللحم الطريّ ألذُّ طعمًا، وهذا لا يعني أن اللحم الجاف أو المُمَلَّح حرام، بل هو حلال ما لم يتعفن ويصبحُ مُضِرًّا.

وَالمُرَادُ مِنْ ﴿حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَا﴾ الزينة والحِليّ والأشياء التي تُستخرج من البحر كاللؤلؤ والمرجان أو الأعشاب والنباتات البحرية التي يتخذها الناس ألبسة.

وَيدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ١٦﴾ على جواز السير بواسطة علامات الأرض أو النجوم أو الاعتماد على النجوم لمعرفة جهة القِبلة.

﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ١٩ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ٢٠ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ٢١ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ٢٢ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ٢٣﴾ [النحل: ١٧-٢٣].

الفوائد: المقصود من جملة: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ﴾ أن غير الخالق لا يتساوى مع الخالق، وأن التوجه إلى غير الخالق لطلب الحوائج منه ولعبادته مُخالف للعقل والتفكير الصحيح.

وَيدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا تُحۡصُوهَآ﴾ أن العبد إن لم يكن قادرًا على عدِّ نِعم الله فكيف يقدر على شكرها؟

وجملة: ﴿مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ دليل آخر على أنه لا يجدر بالعبد أن يتوجَّه إلى غير الله [ولا يجوز له ذلك]، لأن غير الله لا يعلم ما في باطن الإنسان ولا يعلم أنك صادق في كلامك أم كاذب.

وتدل الآيات التي جاءت بعد الآية ٢٠ والتي تقول: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ٢٠ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ٢١﴾ على أن كل من لا يستطيع أن يخلق شيئًا وهو مخلوق، وهو يموت ولا يعلم متى البعث وموعد يوم القيامة لا

يجوز أن يُدعى، كحال الأَنْبياء والأولياء جميعهم الذين هم مخلوقون وليسوا خالقين وقد رحلوا عن الدُّنْيَا ولا يعلمون متى القيامة. بِنَاءً عَلَى ذَلِكَ فإن دعاء الأَنْبياء والأولياء شرك. وقد صرَّح القرآن الكريم أن رسول الله ﷺ سيموت وأنه لا علم له بموعد يوم القيامة كما قال تعالى في سورة الأعراف وفي سور أخرى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ [الأعراف: ١٨٧].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [النحل: ٢٤-٢٧].

الفوائد: جملة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم﴾ ترجع إلى الكبراء الضالين الذين كانوا يسألون مَن تحت أيديهم: هل أنزل الله من شيء؟ وكانوا يقولون: ليس القرآن سوى أساطير الأولين فكانوا يحملون أوزارهم وأوزار من يُضلِّونهم على ظهورهم، كما قال رسول الله ﷺ: «**أَيُّمَا دَاعٍ دَعَا إِلَى الْهُدَى فَاتُّبِعَ كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ اتَّبَعَهُ لا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَأَيُّمَا دَاعٍ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ فَاتُّبِعَ فَإِنَّ عَلَيْهِ مِثْلَ أَوْزَارِ مَنِ اتَّبَعَهُ لا يَنْقُصُ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْءٌ**»[1].

وَتَدُلُّ جملةُ: ﴿كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾ على أن الضالين يُدافعون عن كبرائهم ويُؤيِّدونهم ويُعادون من يُنكر عليهم شركاءهم الذين تخيَّلوهم في أذهانهم..

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ۚ بَلَىٰٓ ۚ إِنَّ

١- النوري الطبرسي، **مستدرك الوسائل**، ج١٢ / ص ٢٣٠ عن الشَّيْخ وَرَّام فِي **تَنْبِيهِ الْخَاطِرِ**، باختلاف يسير في اللفظ. وفي مصادر السنة أخرجه بهذا اللفظ: ابن ماجه في **السنن** عن أنس، ١/ ٧٥ ، حديث (٢٠٥)، وقال الحافظ البوصيري في الزوائد: (١/ ٢٨): «هذا إسناد ضعيف لضعف سعد بن سنان».

ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ۝٢٨ فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ۝٢٩﴾ [النحل: ٢٨-٢٩].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ على أن بعض الملائكة مأمورون بقبض أرواح الظالمين والكفار. وبعضهم الآخر مأمورون بقبض أرواح الطاهرين كما سيأتي في الآيات التالية.

وقول الكفار: ﴿مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭ﴾ إما كذب أو أنهم لم يكونوا يعملون السيئات بنظرهم لأن أعمالهم زُيِّنت في أعينهم وظنوها حسنةً.

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ۝٣٠ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ۝٣١ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ۝٣٢﴾ [النحل: ٣٠-٣٢].

الفوائد: إن الذين يتَّقون اللَّهَ ويعملون بواجباتهم يُحسنون الظن بالقوانين الإلهية ويعتبرونها جميعًا خيرًا وصلاحًا للإنسان، بعكس المحتالين العصاة فإنهم يسيئون الظنَّ بآيات الله وقوانينه ويميلون إلى الهروب من العقوبة التي ستحل بهم نظرًا إلى توجههم إلى مقامات خيالية.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أن الأَنْبياء والأولياء والصالحين رحلوا عن الدُّنْيَا وقبضت ملائكة الرحمة أرواحهم وقيل لأرواحهم: اذهبوا فادخلوا الجنَّة بما كنتم تعملون. فأرواح الأَنْبياء والصالحين تدخل الجنَّة فهي ليست تحت التراب وليست في الضريح وليست في القبة ولا في الحرم ولا في الدُّنْيَا. فالذين يذهبون إلى قبور الأولياء والصالحين ويتخيلون أن أرواحهم ستكون هناك لا علم لهم بهذه الآيات القرآنية على الإطلاق، وقد وقعوا في وهم الخرافات استنادًا إلى بعض الأخبار الموضوعة والخطباء الخرافيين.

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ۝٣٣ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ

بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ۝٣٤ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ۝٣٥﴾ [النحل: ٣٣-٣٥].

الفوائد: كانت إحدى إشكالات الكفار على رسالة محمد ﷺ قولهم: لو كنتَ فعلاً مأمورًا من طرف الله فلماذا لا تَنْزِلُ الملائكةُ عليكَ لِتُصدِّقكَ؟ ولماذا لا يأتي أمر الله بإنزال العذاب علينا؟

يردُّ عليهم الحقّ تعالى بقوله: لقد كانت الأمم السابقة تقول مثل كلامكم هذا ولم يكن هدفهم الهداية بل الاستهزاء، بدليل قوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾

والإشكال الثاني للكفار أنهم يقولون: إن الله أراد وشاء أن نعبد غيره نحن وآباؤنا وأن نُحرِّم الحلال من عند أنفسنا باسم الدين، وإذا كان الله قد أراد كفرنا فما الفائدة من مجيء النبيّ؟

وقد أجاب الله عن قولهم هذا في الآية اللاحقة مُبيِّنًا أن الله أرسل أنبياء إلى الأمم جميعها ونهى الأمم عن عبادة غيره، إذن لم يُرِدْ كفرَ أحد.

يقول الكاتب: لو أراد الله بإرادته التكوينية من شخص الكفر للزم من ذلك الجبر والجبر باطل، وإنْ أراد كُفرَ شخصٍ بإرادته التشريعية وجب أن يُبلغ الناس بذلك في كتابه كي لا يكفر الناس، والحال أنه لم يتم مثل هذا الإبلاغ بل تم عكسه كما جاء في الآية التالية.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ۝٣٦ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ۝٣٧ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ۝٣٨ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ۝٣٩ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ۝٤٠﴾ [النحل: ٣٦-٤٠].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ أن هدف دعوة الأنبياء

أمران: عبادة الله واجتناب الشرك.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ﴾ أن الحقّ تعالى لا يعمل حسب طلب رسوله ورغبته، بل يعمل طبق سننه التي وضعها وأرادها. فمثلاً في موضوع الهداية قضت سنَّة الله أن يهدي كل من طلب الهداية وسعى إليها، ومن لم يطلب الهداية فإنه لن يهتدي بمُجرَّد رغبة الرسول بذلك، لأن رغبة الرسول لا تُبَدِّلُ سنن الله.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿وَأَقۡسَمُواْ...﴾ إلى آخر الآية، أنه لما كان الكفار يتصورون أنه من المحال أن يُعيد الله يوم القيامة أجزاء بدن الإنسان بعد تفرقها واندثارها وكانوا يُقسمون بالأيمان المُغلَّظة أنه لن يُحيِيَ اللَّهُ الموتى، ردَّ اللَّهُ عليهم بثلاثةِ أجوبةٍ ليبيِّن لهم إمكانية عودة الأجساد من جديد، فقال:

أولاً: أن الله وعد بذلك ومن المحال أن يتخلف وعد الله.

ثانيًا: أن ذلك لا بدَّ منه لتمييز المُبطل من المُحق والظالم من المظلوم وعدم استوائهما في الجزاء.

ثالثًا: أن الله خَلَقَ كلَّ شيء من العدم منذ البداية بأمر «**كُنْ**»، وَمِنْ ثَمَّ فإنه قادر يوم القيامة على إيجاد الأجساد من جديد بعد انعدامها.

فإن قيل: هل المُخَاطَب في أمر «**كُنْ**» المعدومات أم الموجودات؟ فالجواب: ليس المُخَاطَب أيًّا منهما، ولكن هذا التعبير للتمثيل والبيان بقدر إمكانية العقول حسب العُرف. ومن الممكن أن نقول: رُغم أن «**كُنْ**» خطاب لفظًا إلا أنها بمعنى الإخبار عن الحدوث.

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٤١ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٤٢ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٤٣ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٤٤﴾ [النحل: ٤١-٤٤].

الفوائد: نزلت آية ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ...﴾ بحق المُعذَّبين في الله من أصحاب رسول

الله ﷺ، وذلك أن الـمُشْرِكين كانوا يُنكرون القيامة ويُقسمون أنه لن يكون هناك بعثٌ للأموات وكانوا يُؤذون الـمُسْلمين ويُعذِّبونهم بكل ما أوتوا من قوة، وكان الـمُعذَّبون في الله [من الصحابة] كثيرين مثل صُهيب وعمار وأبويه [ياسر وسميَّة] وبلال وخبَّاب، وقد أبدلهم الله تعالى بعد هجرتهم بمدينة أفضل من مكة، إذْ أسكنهم المدينة [الـمنوَّرة] التي كان طقسها أفضل من مكة. رُوِيَ أن مشركي مكة أرادوا الإمساك بصُهيب عندما أراد الهجرة فقال لهم: أنا رجل كبير إن كنت لكم لم أنفعكم وإن كنت عليكم لم أضرَّكم، فافتدى منهم بماله، فتركوه فهاجر إلى الـمدينة ووصل إلى رسول الله ﷺ، فلما رآه أبو بكر قال: **ربح البيع يا صُهيب**. ورُوِيَ أن عمر كان كلما أعطى الـمهاجرين عطاءً من بيت الـمال قال: **خُذْ بَارَكَ الله لك فيه. هذا ما وعدك الله في الدنيا، وما ذخر لك في الآخرة أكبر**[١]، وقرأ عليه هذه الآية.

وَالـمرَاد مِنْ ﴿أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾ أهل الكتاب أي أهل التوراة والإنجيل.

﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ٤٥ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ٤٦ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ٤٧ أَوَ لَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ ٤٨ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ٤٩ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ۩ ٥٠﴾ [النحل: ٤٥-٥٠].

الفوائد: ذكر الحق تعالى في تهديد الكفار أمورًا أربعة:

الأول: هدَّدَهم بأن يخسف بهم الأرض كما خسفها بقارون.

الثاني: أن يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون.

الثالث: أن يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين، وفي تفسير هذا التقلب وجوه: الأول: أنه

١- استفاد الـمؤلف هاتين الروايتين وشرح الآية من الفخر الرازي، **التفسير الكبير (أو تفسير مفاتيح الغيب)**، ٢٠ / ٣٣-٣٤، بتصرّف.

يأخذهم بالعقوبة في أسفارهم، وثانيهما: أن يأخذهم بالليل والنهار في أحوال إقبالهم وإدبارهم وذهابهم ومجيئهم، وحقيقته في حال تصرفهم في الأمور التي يتصرف فيها أمثالهم. وثالثها: أن يكون الـمعنى أو يأخذهم في حال ما ينقلبون في قضايا أفكارهم فيحول الله بينهم وبين إتمام تلك الحيل قسرًا.

الرابع: هدَّدهم بأن يُخوِّفهم أو يُعذِّبهم بالنقص من أطراف بلادهم.

وَالـمَقْصود مِنْ جُمْلة: ﴿يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ﴾ أن الـموجودات جميعها - حتى أقل آثارها شأنًا وهو الظل - تخضع لأمر الله وقدرته.

وَليس الـمُرَاد مِنْ كلمة: ﴿مِّن فَوۡقِهِمۡ﴾ الفوقية الـمكانية بل الـمراد فوقية القهر والغلبة. وَيُسْتَفَادُ مِنْ هذه الآية عِصمة الـملائكة رُغم أنهم مختارون.

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ۝٥١ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ۝٥٢ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ۝٥٣ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ۝٥٤ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ۝٥٥﴾ [النحل: ٥١-٥٥]

الفوائد: لقائل أن يقول: إن الإلهين لا بد وأن يكونا اثنين، فما الفائدة في قوله: ﴿إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾؟ وجوابه: أن الشيء إذا كان مستنكرًا كان مستقبحًا، فمن أراد الـمبالغة في التنفير عنه عبَّر عنه بعبارات كثيرة ليصير توالي تلك العبارات سببًا لوقوف العقل على ما فيه من القبح.

وأما السبب في كون وجود إلهين أمرًا محالاً فهو: أنا لو فرضنا موجودَين يكون كلُّ واحدٍ منهما واجبًا لذاته لكانا مشتركين في الوجوب الذاتي ومتباينين بالتعيُّن، وما به الـمشاركة غير ما به الـمباينة، فكل واحد منهما مركب من جزأين، وكل مركب فهو ممكن، فثبت أن القول بأن واجب الوجود أكثر من واحد ينفي القول بكونهما واجِبَي الوجود. والثاني: أنا لو فرضنا إلهين وحاول أحدهما تحريك جسم والآخر تسكينه امتنع كون أحدهما أولى بالفعل من الثاني، لأن الحركة

الواحدة والسكون الواحد لا يقبل القسمة أصلاً ولا التفاوت أصلاً، وإذا كان كذلك امتنع أن تكون القدرة على أحدهما أكمل من القدرة على الثاني، وإذا ثبت هذا امتنع كون إحدى القدرتين أولى بالتأثير من الثانية، وإذا ثبت هذا فإما أن يحصل مراد كل واحد منهما وهو محال، أو لا يحصل مراد كل واحد منهما وهو محال أو لا يحصل مراد كل واحد منهما ألبتة. فحينئذ يكون كل واحد منهما عاجزًا، والعاجز لا يكون إلهًا. فثبت أن كونهما اثنين ينفي كون كل واحد منهما إلهًا. الثالث: أنا لو فرضنا إلهين اثنين لكان إما أن يقدر أحدهما على أن يستر ملكه عن الآخر أو لا يقدر، فإن قَدَرَ فذاك إله والآخر ضعيف[1]، وإن لم يقدر كلاهما فهما ضعيفان وعاجزان، والعاجز ليس بإله، إذن من المحال أن يكون هناك إلـهان.

هذا، واستحالة وجود الشريك لِلَّهِ ذاتًا تنطبق أيضًا على مشاركة الله في صفاته وأفعاله، كما أن إشراك أحد مع الله في العبادة قبيح ومستنكر.

وقوله: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا﴾[2] عِلَّته أن الـممكن في ذاته في حالة حاجة دائمة.

﴿وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ ٥٦ وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ ٥٧ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ٥٩ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٦٠﴾ [النحل: ٥٦-٦٠].

الفوائد: إلى ماذا يعود الضمير في قوله: ﴿لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ﴾؟ فيه قولان: الأول: أنه عائد إلى الـمشركين الـمذكورين في الآية السابقة، والـمعنى أن الـمشركين لا يعلمون. والثاني: أنه عائد إلى الأصنام أي لا تعلم الأصنامُ ما يفعل عُبَّادُها.

١- استفاد الـمؤلف هذه الأدلة من **التفسير الكبير** للفخر الرازي، ٢٠ / ٤٨.

٢- الـمقصود بالدين هنا الطاعة والانقياد والإخلاص. ومعنى ﴿وَاصِبًا﴾: دائمًا لازمًا، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ﴾ [الصافات: ٩]. فمعنى العبارة: أن كل ما في الكون خاضعٌ مطيعٌ لِلَّهِ على الدوام.

والنصيب الذي جعلوه للأصنام هو: أنهم جعلوا لله نصيبًا من الحرث والأنعام يتقرّبون به إلى الله تعالى به، ونصيبًا إلى الأصنام يتقرّبون به إليها[١] وذلك مثل: البَحِيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام، التي ذُكرت في الآية ١٠٣ من سورة المائدة. ومثل عبَّاد النجوم الذين يعتقدون أن لبعض الكواكب والنجوم تأثيرًا في الكون، وكذلك مثل بعض عُبَّاد الأصنام الذين يعتبرون أولياء الله–وهم يرون أن الأصنام مظاهر لأولياء الله – مؤثرين في الكون، كالشيعة والصوفية الذين يعتبرون الأولياء والمرشدين مؤثرين في الكون [٢].

وجملة: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ...﴾ تُشير إلى زمن الجاهلية حيث كان الرجل إذا ظهرت آثار الطَّلْق بامرأته توارى واختفى عن القوم إلى أن يعلم ما يُولد له، فإن كان ذكرًا ابتهج به، وإن كانت أنثى حزن ولم يَظْهَر للناس أيامًا يُدبِّر فيها ماذا يصنع بها؟ أيدسها في التراب، أم يحبسها أم يقتلها.

وروي عن قيس بن عاصم أنه قال: **يا رسول الله! إني واريت ثماني بنات في الجاهلية. فقال**ﷺ: «**أَعْتِقْ عَنْ كُلِّ واحِدةٍ منهُنَّ رَقَبَةً**» **فقال: يا نبيَّ اللهِ! إني ذو إبلٍ، فقال**: «**أَهْدِ عَنْ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنهُنَّ هَدْياً**». ورُوِيَ أَنَّ رَجُلاً قالَ: «**يا رسول الله! ما أجدُ حلاوةَ الإسلامِ منذُ أسلمتُ، فقد كانت لي في الجاهلية ابنةٌ فأمَرْتُ امرأتي أن تُزَيِّنَهَا فأخْرَجَتْهَا إليّ فانتهيتُ بها إلى واد بعيد القعر فألقيتُها فيه، فقَالَتْ: يا أبَتِ قَتَلتَنِي، فكُلَّما تَذَكَّرتُ قَوْلَها لَمْ يَنْفَعْنِي شيءٌ، فقال** ﷺ: **مَا كانَ في الجاهليَّةِ فَقَدْ هَدمَهُ الإسْلامُ**» [٣].

وكان بعض أهل الجاهلية يُغرق بناته في ماء البحر وبعضهم يحفر الحفيرة ويدفن ابنَتَهُ فيها إلى أن تموت، ومنهم من يذبحها، ومنهم من يُمسكها ويُنشئها وهو يشعر بالخزي والهوان.

١– مرَّ شرح ذلك في آخر سورة الأنعام فليُراجَع ثمَّةَ.

٢– من الأدق أن يُقال: بعض الشيعة والصوفية، هذا ومما يؤخذ على المؤلف أنه يُعمِّم في جميع أحكامه.

٣– تفسير الآية، والروايتان نقلها المؤلِّف عن الفخر الرازي، **تفسير مفاتيح الغيب**، ٢٠/ ٥٥. والروايتان أيضًا في تفسير **اللباب في علوم الكتاب**، [٢٠ جزءًا]، لابن عادل عمر بن علي الحنبلي الدمشقي(ت بعد ٨٨٠ هـ) ، ج ١٢/ ص ٩٠.

وَالـمَقْصود مِنْ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ صفات الكمال والجلال مثل «**الاستغناء عن المخلوق وعدم الاحتياج إلى الولد والـمكان والصاحبة وغيرها**».

وَالـمَقْصود مِنْ جملة: ﴿فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ صفات التشبيه والعجز وأمثالها، أو الـمراد الـمِثل والنِّد والضِّد.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النحل: ٦١-٦٣].

الفوائد: [قال بعضهم] إن جُمْلَةُ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ تَدُلُّ أن جميع الناس ظالـمون حتى الأَنْبياء، ولكن يُمكن أن يُرَدَّ على ذلك بالقول: إن الأَنْبياء أنفسهم ليسوا بظالـمين ولكن إذا كان هناك من آبائهم وأجدادهم ظالـمون وعذَّبهم الله وأهلكهم لَمَا خُلق الأَنْبياء، وَمِنْ ثَمَّ لم يبقَ على الأرض من دابَّة. فإن قيل: إن الحيوانات لم تظلم فلماذا يتم إهلاكها؟ فالجواب: إن الحيوانات خُلقت لنفع البشر فإذا لم يكن هناك بشر أصبح وجود تلك الحيوانات كعدمه.

والـمقصود من ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ التي يرى الكفار أنها لهم - كما في جملة: - ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ البنون،لأنهم يعتبرون البنين شيئًا حسنًا، وينسبون لِلَّهِ البنات! وقد يكون مرادهم من «**الْـحُسْنَى**»: العاقبة الحسنة أي قولهم: إن الجنَّة لنا. فإن قيل: إن الكفار يُنكرون القيامة فكيف يقولون ذلك؟ فالجواب: إنهم يقولون هذا في مواجهة رسول الله ﷺ ومحاججته، يعني أنه لما كان رسول الله ﷺ يقول لهم: الجنَّة للمؤمنين، كان الـمشركون يدَّعون أنه على فرض صدقك يا محمَّد فالجنَّة ستكون لنا!

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ

يُؤۡمِنُونَ۝٦٤ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ۝٦٥ وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ۝٦٦ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ۝٦٧﴾ [النحل: ٦٤-٦٧].

الفوائد: ليس الـمُرَاد مِنْ جملة ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ...﴾ أن الحليب في وسط البطن وأن السرجين (أي الكرش أو الفرث) أسفله والدم أعلاه، بل الـمراد من الآية هو أن اللبن إنما يتولد من بعض أجزاء الدم، والدم إنما يتولد من الأجزاء اللطيفة التي في الفرث، وهو الأشياء الـمأكولة الحاصلة في الكرش، وهذا اللبن متولد من الأجزاء التي كانت حاصلة فيما بين الفرث أولاً، ثم كانت حاصلة فيما بين الدم ثانيًا، فصفاه الله تعالى عن تلك الأجزاء الكثيفة الغليظة، وخلق فيها الصفات التي باعتبارها صارت لبنًا موافقًا لبدن الطفل.

«واعلم أن حدوث اللبن في الثدي واتصافه بالصفات التي باعتبارها يكون موافقًا لتغذية الصبي مشتمل على حكم عجيبة وأسرار بديعة، يشهد صريح العقل بأنها لا تحصل إلا بتدبير الفاعل الحكيم والـمدبر الرحيم، وبيانه من وجوه: الأول: أنه تعالى خلق في أسفل الـمعدة منفذًا يخرج منه ثقل الغذاء، فإذا تناول الإنسان غذاءً أو شربةً رقيقة انطبق ذلك الـمنقذ انطباقًا كليًّا لا يخرج منه شيء من ذلك الـمأكول والـمشروب إلى أن يكمل انهضامه في الـمعدة وينجذب ما صفا منه إلى الكبد ويبقى الثقل هناك، فحينئذ ينفتح ذلك الـمنفذ ويترك منه ذلك الثقل، وهذا من العجائب التي لا يمكن حصولها إلا بتدبير الفاعل الحكيم، لأنه متى كانت الحاجة إلى بقاء الغذاء في الـمعدة حاصلة انطبق ذلك الـمنفذ، وإذا حصلت الحاجة إلى خروج ذلك الجسم عن الـمعدة انفتح، فحصول الانطباق تارة والانفتاح أخرى، بحسب الحاجة وتقدير الـمنفعة، مما لا يتأتى إلا بتقدير الفاعل الحكيم. الثاني: أنه تعالى أودع في الكبد قوة تجذب الأجزاء اللطيفة الحاصلة في ذلك الـمأكول أو الـمشروب، ولا تجذب الأجزاء الكثيفة، وخلق في الأمعاء قوة تجذب تلك الأجزاء الكثيفة التي هي الثقل، ولا تجذب الأجزاء اللطيفة ألبتة. ولو كان الأمر بالعكس لاختلفت مصلحة البدن ولفسد نظام هذا التركيب. الثالث: أنه تعالى أودع في الكبد

قوة هاضمة طابخة، حتى إن تلك الأجزاء اللطيفة تنطبخ في الكبد وتنقلب دمًا، وتخصيص كل واحد من هذه الأعضاء بتلك القوة والخاصية لا يمكن إلا بتقدير الحكيم العليم. الرابع: أن في الوقت الذي يكون الجنين في رحم الأم ينصب من ذلك الدم نصيب وافر إليه حتى يصير مادة لنمو أعضاء ذلك الولد وازدياده، فإذا انفصل ذلك الجنين عن الرحم ينصب ذلك النصيب إلى جانب الثدي ليتولد منه اللبن الذي يكون غذاء له، فإذا كبر الولد لم ينصب ذلك النصيب لا إلى الرحم ولا إلى الثدي، بل ينصب على مجموع بدن المتغذي، فانصباب ذلك الدم في كل وقت إلى عضو آخر انصبابًا موافقًا للمصلحة والحكمة لا يتأتى إلا بتدبير الفاعل المختار الحكيم. والخامس: أن عند تولد اللبن في الضرع أحدث تعالى في حلمة الثدي ثقوبًا صغيرة ومسام ضيقة، وجعلها بحيث إذا اتصل المص أو الحلب بتلك الحلمة انفصل اللبن عنها في تلك المسام الضيقة، ولما كانت تلك المسام ضيقة جدًّا، فحينئذ لا يخرج منها إلا ما كان في غاية الصفاء واللطافة، وأما الأجزاء الكثيفة فإنه لا يمكنها الخروج من تلك المنافذ الضيقة فتبقى في الداخل، والحكمة في إحداث تلك الثقوب الصغيرة، والمنافذ الضيقة في رأس حلمة الثدي أن يكون ذلك كالمصفاة، فكل ما كان لطيفًا خرج، وكل ما كان كثيفًا احتبس في الداخل ولم يخرج، فبهذا الطريق يصير ذلك اللبن خالصًا موافقًا لبدن الصبي سائغًا للشاربين. وهذه الأحوال إنما تحدث بتدبير إلهٍ قادر حكيم»[1].

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [النحل: ٦٨-٧٠].

<u>الفوائد</u>: المقصود من الإيحاء إلى النحل -ظاهرًا- الوحيُ الغريزيُّ، أي أن الله وضع في

١- استفاده المؤلِّف من **التفسير الكبير**، للفخر الرازي، ٢٠/ ٦٤-٦٧، باختصار وتصرف يسير.

النحل مثل هذه الغريزة والعادة أن تقوم بتذوق واستنشاق رحيق النباتات والثمار والندى الذي يترسب فوقها من الهواء فتأخذ ذلك بفمها وتجمعه في الخلايا سداسية الشكل.

وقال بعضهم: الوحي إلى النحل وحي تشريعي وأمر ونهي، لأنه من الممكن أن يكون لها عقل، ولكن في رأينا التفسير الأول أصح.

وعلى كل حال، فإن النحل يعيش على شكل حياة اجتماعية في الغابات والمناطق الجبلية وأحيانًا يجتمع أكثر من عشرين ألف نحلة في مكان واحد ومعظمها أنثى وواحدة منها نحلة تُسمَّى الملكة وهي أكبر من سائر النحل وهي رئيستهنَّ. وتضع هذه الملكة من أواخر شهر «فروردين» إلى أواخر شهر «خرداد»[1] حوالي ألف وخمسمئة بيضة، ولإناث النحل خرطوم تمتصُّ بواسطته رحيق الأزهار، ويدخل هذا الرحيق إلى كيس العسل الموجود في جسم النحلة ومن هناك يدخل قسم منه إلى أمعائها والباقي تصبه النحلة من فمها في خلايا النحل حيث يتحول تدريجيًّا من سائل رقيق إلى سائل غليظ (سميك)، كما أن الشمع يترشح من غدد خاصة موجودة في بطن النحل حيث يأخذ النحل ذلك الشمع بأرجله الخلفية إلى الفم ويعجنه ويبني منه خلايا سداسية الشكل. أما ذكور النحل فلا تعمل وعملها الوحيد القيام بعملية التوالد والتناسل. ويعيش النحل في فصل الشتاء داخل الخلايا ويأكل من العسل الذي خزَّنه فيها.

واعلم أن النَّدى ينشأ من الهواء ويترسَّب فوق أوراق الشجر وأوراق الفاكهة مثل نبتة الحاج، وقد ألهم الله النحلة أن تجمع هذا النَّدى بفمها وتجعله غذاءها فإذا شبعت أخذته بفمها وذهبت به.

وأما قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا﴾ فالمراد منه باطن الفم وقال بعضهم: إن النحلة تأكل النَّدى ثم تُعيده من بطنها وتتقيؤه عسلاً. وهذا الشراب الذي يُسمَّى عسلاً له ألوان مختلفة فمنه الأحمر والأصفر وأحيانًا الأبيض، وهذا دليل على أنه لم يتكون بالطبع والطبيعة، لأنه لو كان كذلك لوجب أن يكون لونًا واحدًا [ولما حدث على ألوان مختلفة، فدلّ ذلك على أن حدوث تلك

١- «فروردين» أول شهور السنة الشمسية الإيرانية وهو يبدأ من ٢١ آذار (مارس) وينتهي في ٢٠ نيسان (أبريل). وخرداد ثالث أشهر السنة الإيرانية ويبدأ من ٢٢ أيار (مايو) وينتهي في ٢١ حزيران (يونيو).

الألوان بتدبير الفاعل الـمختار].

وتدلُّ جُمْلَةُ: ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ على أن العسل فيه أثر الشفاء بشكل إجمالي. وهذه التدبيرات التي وضعها الله في تشكيلات النحلة والحلاوة والفوائد واختلاف الألوان التي وضعها في العسل، والتدبيرات في الخلايا سُداسية الشكل وفي كِبر الإنسان وشيخوخته وتبدل حاله من قوة إلى ضعف دليل على وجود قدرة قاهرة قادرة مُدبِّرة.

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [النحل: ٧١-٧٢].

الفوائد: إحدى حالات الإنسان التي تدلُّ على تدخُّل إرادة الله وتدبيره، ما أشارت إليه هذه الآية ذاتها وهو تفضيلُ اللهِ بعضَ الناس على بعضهم في الرزق، فنحن نرى أحيانًا أكيسَ الناس وأكثرَهم عقلاً وفهمًا يفني عمره في طلب القَدْرِ القليل من الدنيا ولا يتيسر له ذلك، ونرى أجهلَ الخلق وأقلَّهُمْ عقلاً وفهمًا تنفتح عليه أبواب الدنيا، وكلُّ شيء خطر بباله ودار في خياله فإنه يحصل له في الحال، ولو كان السبب جهد الإنسان وعقله لوجب أن يكون الأعقل أفضل في هذه الأحوال، فلما رأينا أن الأعقل أقل نصيبًا، وأن الأجهل الأخس أوفر نصيبًا، علمنا أن ذلك بسبب قسمة القسَّام، كما قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الزخرف: ٣٢]. ولذلك قال الإمام الشافعي:

وَمِـنَ الـدَّلِيل عَـلَى الْقَضَـاءِ وَكَوْنِـهِ ... بُؤسُ اللَّبِيبِ وَطِيبُ عَيْشِ الأحْمَقِ[١]

وقال شاعرٌ آخر:

كـم عاقـل عاقـل أَعيـت مذاهبـه ... و جاهـل جاهـل تلقـاه مرزوقـا

هـذا الـذي تـرك الأَوهـام حائـرة ... وصـيَّر العالـم النحريـر زنـديقا

١- استفاده الـمؤلف من فخر الدين الرازي، **التفسير الكبير**، ٢٠/ ٧٨.

واعلم أن هذا التفاوت غير مختص بالـمال بل هو حاصل في الذكاء والبلادة والحسن والقبح والعقل والحمق والصحة والسقم. فهذا عقله أكبر ولكن رزقه أقل، وذاك حماقته أكثر وعقله أقل وهكذا.. وكم مِنْ عِليَةِ الناس وأعيانهم وأشرافهم لا يستطيع بلع فاكهة معطَّرةٍ وكم من فقير «**صحيح الـمزاج كامل القوَّة قوي البنية**»، ولا يجد ملء بطنه طعامًا، فهذا كله من قدرة الله.

والـمقصود مِنْ جُمْلَةِ: ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ....﴾ أن الذين يملكون كلَّ شيءٍ لا يعتبرون مماليكهم (أي عبيدهم) مساوين لهم وشركاءَ لهم، فكيف تساوون أيها الـمشركون بين الخالق والـمخلوق، وتجعلون العبد الـمخلوق مساويًا لسيده الخالق أي لِلَّهِ تعالى؟ وهذا مِثْلُ مشركي زماننا الذين يقولون: إن العبد الصالح الفلاني - الذي لا يعلم شيئًا عما قُدِّرَ له - يشارك الله في أفعاله أو في بعض صفاته -بإذن الله-! ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٣]. و ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠].

﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ٧٣ فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧٤ ۞ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنٗا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرّٗا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٧٥ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٧٦﴾ [النحل: ٧٣-٧٦].

الفوائد: تشمل عبارة ﴿مَا لَا يَمۡلِكُ﴾ كلَّ معبودٍ جمادًا كانَ أم حيوانًا أم من العقلاء والأولياء، بدليل ضمير فعل ﴿وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ الخاص بالعقلاء. فلا فرق من هذه الناحية بين النبيِّ ﷺ وبين الجمادات، أي من ناحية عدم امتلاك النفع والضر للناس وعدم القدرة على ذلك، وهذا طبقًا لصريح القرآن الذي يقول: ﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ٢١﴾ [الجن: ٢١].

وَتدلُّ جُمْلَةُ: ﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ على أنه لا يجوز تشبيه الله بالخلق، أو أن نذكر

الـمخلوق الفلاني كمثال على الله، لأن الله واحد أحد لا مِثْلَ له ولا نظير. فالذين شبَّهوا الله بالـمَلِكِ قالوا – وهم يهدفون من وراء ذلك إلى إعطاء الأولياء والصالحين تدخلاً في أفعال الله–: بما أننا لا نستطيع الاتّصال بالـمَلِكِ مباشرةً، فإذا أردنا منه شيئًا فلابد أن نذهب إلى حاشيته الـمُقرَّبين ونجعلهم واسطتنا أو شفعاءنا كي يتوسطوا لنا عند الـمَلِك ليقضي لنا حاجتنا ويغفر لنا ذنوبنا وأمثال ذلك، كذلك نحن لسنا أهلاً أن نتصل بالله مباشرةً لذلك عندما نُريد منه شيئًا لابُدَّ أن نتوسل إليه بعباده الـمُقرَّبين. وهذا التشبيه باطلٌ وفاسدٌ ودليلٌ على جهل صاحبه بالله تعالى لأن الله ليس كالـملِكِ من وجوه عديدة:

– الـمَلِكُ لا علم له بقلوب رعيَّته أما الله فهو عليم بذلك.

– الـمَلِكُ بعيد عن رعيَّته وبينهم وبينه مسافة وحُجَّاب، أما الله فليس كذلك.

– الـمَلِكُ لا يُمكنه معرفة الصادق من الكاذب ولكن الله يعلم ذلك.

– الـمَلِكُ يحتاج إلى وزير والله لا يحتاج إلى ذلك. و...

والـمُرَادُ مِنْ جُمْلَةِ: ﴿عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ...﴾ ومِنْ جُمْلَةِ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ بيان أن الخالق لا يُمكن أن يتساوى مع الـمخلوق ولا القادر مع العاجز، فلا تُشبِّهوا الله بخلقه ولا تبحثوا عن صفاته في خلقه.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٧٧ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٧٨﴾ [النحل: ٧٧-٧٨].

الفوائد: في عبارة: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ﴾ تقديم للجار والـمجرور وهذا يدل على أن العلم بغيب الكائنات الأرضية والسماوية منحصر بالله وحده. فهذه الآية تدل على كمال علم الله وقدرته. أما كمال علم الله فدليله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وأما قدرته فدليلها ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ لأن إيجاد القيامة في لحظة قصيرة بمقدار طرفة عين أو أقل دليل على القدرة اللامتناهية.

وتدلُّ جُمْلَةُ: ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ أن كل إنسان - بما في ذلك الأنبياء - لا يعلمون شيئًا عندما يخرجون من بطون أمهاتهم. وبناءً على ذلك فالروايات التي تقول: إن العبد الصالح الفلاني تكلَّم مع أمه وهو لا يزال في بطنها أو كان عليمًا عندما وُلِدَ، كلها روايات موضوعة وخرافية وكاذبة ومضادة للقرآن، كالروايات التي تزعم أن عليًّا عليه السلام قرأ بعد ولادته الكتبَ السماويةَ أو كان يعلَمُ بها. نسأل الله أن ينقذ شعبَنا من الخرافات ومن شرِّ الخُرَافِيِّين ويهديه إلى سواء السبيل.

﴿أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [النحل: ٧٩-٨١].

الفوائد: من آيات قدرة الحقّ أنه خلق الطيور على نحوٍ يُمَكِّنها من الطيران في الفضاء، فبعضها يطير باسطًا جناحيه ولا يُرفرفهما وبعضها الآخر يطير مرفرفًا جناحيه مثل المجاديف التي يستخدمها راكبو الزوارق في الماء. وخلقَ اللَّهُ الهواءَ خِلقةً لطيفةً رقيقةً يسهُل بسببها على الطيور خرقه والنفاذ فيه، وجعل صدور الطيور كصدر السفينة مخروطيّة الشكل كي تشقّ الهواء أمامها.

والمقصود من ﴿بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ الخيام التي كان أعراب البادية يصنعونها من جلود الحيوانات.

والمقصود من ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ الدروع الحربية التي كانت تقي أجسام المقاتلين طعنَ السيوف والحِراب.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ

ٱلْكَـٰفِرُونَ۝٨٣ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ۝٨٤ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ۝٨٥﴾ [النحل: ٨٢-٨٥].

الفوائد: بعد أن بيَّن الله تعالى نِعمه والآيات التي تدل على وجوده كي يؤمن الكفار، شرع هنا بتسلية خاطر رسوله ﷺ بقوله له: إن وجدتَ قومَك قد أعرضوا عنك فلا عليك من ذلك لأن وظيفتك هي إبلاغ الرسالة فحسب. وهذا يدل على أن وظيفة الأنبياء ليست سوى إبلاغ رسالات ربِّهم، أما التدخل في أمور التكوين والتشريع فليس من وظائفهم ولم يَكِلْه الله إليهم بل هو مخالف لوظيفتهم.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ أن كلَّ واحدٍ من الأنبياء شاهدٌ على أمته يوم القيامة إلى الحدِّ الذي كان يعيش فيه بين أمته ويُشاهد أعمالهم وأفعالهم، والشهادة يوم القيامة غير منحصرة بالأنبياء عليهم السلام.

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَـٰذِبُونَ۝٨٦ وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ۝٨٧ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَـٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ۝٨٨﴾ [النحل: ٨٦-٨٨].

الفوائد: المقصود من الشركاء في هذه الآيات أولياء الله والصالحون المُقَرَّبون الذين سيقولون يوم القيامة لمن كانوا يتوسلون بهم ويدعونهم: إنكم لكاذبون. فإن قيل: عندما نزلت هذه الآيات في زمن رسول الله ﷺ لم يكن هناك من يدعو الأولياء والأئمة الصالحين ويتوسل بهم كما يحصل في زماننا اليوم؟ فالجواب: كانت هناك في زمن النبيّ ﷺ جماعةٌ يُدْعَون الملائكة والمسيح وسائر الأَنْبياء، وأما الذين كانوا يدعون الأصنام أو يعبدونها فإنهم كانوا يعتبرون تلك الأصنام تماثيل لصالحين عظماء كانوا في الماضي، فهم في عبادتهم للأصنام يتوجهون في الواقع إلى من ترمز إليهم تلك التماثيل لا إلى التماثيل ذاتها. بِنَاءً عَلَى ذَلِكَ، فما قاله المُفَسِّرون من أن المراد

في هذه الآيات هو الأصنام بدليل أنه لم يكن أحد في ذلك الزمن يتوجه إلى الأولياء أو يدعو الصالحين، لم ينتبهوا إلى حقيقة الآية ولا إلى الآيات الأخرى التي نزلت في هذا الشأن.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ [النحل: ٨٩-٩١].

الفوائد: يُمكن أن يكون الـمراد من الشهداء على كل أمة: الأَنْبياء، ويُمكن أن يكون الشهداء أفراد الأمة أنفسهم الذين يشهد بعضهم على بعض. فإن قيل: إن الشاهد يجب أن يكون عادلاً وليس كل فرد من أفراد الأمة عادلاً؟ فالجواب: إن أحكام الشهادة في الدُّنْيَا لا تنطبق على الشهادة يوم القيامة لأن الألسن والأيدي والأرجل تشهد أيضًا على فِسق أصحابها يوم القيامة وهي لا توصَف بالعدالة أو غيرها!.

وَالـمُرَاد مِنْ كلمة ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ هنا المعاصرون لرسول الله ﷺ الذين كان الرسول ﷺ شهيدًا عليهم طالما كان بينهم.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ أن القرآن بيان لكل شيء من أحكام الدين إما صراحةً أو إيماءً وتلميحًا. أي أن القرآن لما صدَّق ما قبله من الكتب أي التوراة والإنجيل فكُلُّ ما ذُكر فيهما ولم ينسخه القرآن كان كأن القرآن بيَّنه، وكذلك الأحكام العقلية والسنَّة النبويَّة، لأن القرآن صدَّقها وصوَّبها. وَمِنْ ثَمَّ فإن جميع أحكام العقل القطعية والسنَّة النبويَّة تكون كأنَّها موجودة في القرآن نفسه وقد بيَّنَتْ هذه الأحكامُ والسنَّةُ أحكامَ الدين بشكل كامل.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ.....﴾ على الأمر بكلِّ ما هو معروف وإحسان وخير، والنهي عن كلِّ ما هو منكر وَسَيِّئ، لأن العدل إما أن يكون في العقائد أو في

الأعمال، أما العدل في العقائد فهو الاعتدال، وهو في أمر التوحيد: أن يكون المؤمن مجتنبًا للتعطيل والتشبيه، فلا يُشبِّه اللَّهَ بخلقه ولا ينفي صفاته، ولا يقول بصفاتٍ حادثةٍ في ذات الباري عزّ وجلّ. وفي موضوع الجبر والتفويض، العدلُ: أن لا تكون قائلاً بالجبر المحض ولا معتقدًا بالتفويض المحض. وفي موضوع حكم مرتكب الكبيرة، العدلُ: أن لا تقول بعدم مؤاخذة المؤمن على ذنوبه ومعاصيه ولا تقول بخلود العصاة في نار جهنم. والأمر نفسه ينطبق في موضوع التكاليف وموضوع الشهوة والغضب وسائر الصفات، وكما ورد: «**بالعدل قامت السماوات والأرض**». وفي هذه الآيات نقاط وفوائد كثيرة ذُكرت في تفسير الفخر الرَّازي فلتُراجَعْ ثَمَّة.

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ۝٩٢ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٩٣﴾ [النحل: ٩٢-٩٣].

الفوائد: شبَّه الله تعالى المكلَّف الذي عاهد الله ولم يفِ بعهده بالمرأة القُرشية التي كان اسمها ريطة، وكانت حمقاء تغزل الغزل هي وجواريها فإذا غزلت وأبرمت أَمضرَتْهُنَّ فنقضن ما غزلن.

وَالـمُراد مِنْ ﴿تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ﴾ العرب زمن الجاهلية الذين كانوا يُحالفون الحُلفاء ثم يجدون من كان أعزّ منهم وأشرف فينقضون حِلف الأولين ويُحالفون هؤلاء الذين هم أعزّ، فنهاهم الله تعالى عن ذلك واعتبره غشًّا وخيانة.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝٩٤ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٩٥ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٩٦ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ

أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٤-٩٧].

الفوائد: تَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾ على أن كل من سلك طريق الخداع والمكر والخيانة ابتُلي بالزلل والانحطاط.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖ﴾ على أن هناك فرقًا بين ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ وبين «ما عند الناس» وأنهما أمران منفصلان. وَليس المَقْصود مِنْ «**وَمَا عِنْدَ اللهِ**» أو «ما عند الربّ» الدُّنْيَا، بل عالم الآخرة، ولذلك فينبغي أن يُقالَ لِمَنْ يستدلُّ بقوله تعالى: ﴿أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]. على خرافاته قائلاً: بما أن الشهداء أحياء فهم في الدُّنْيَا وهم مُطَّلعون على كلِّ شيء، ينبغي أن يُقال له: **أولاً**: مُجرَّد كون الشخص حيًّا لا يدل على علمه بأمور الدُّنْيَا جميعها وما يجري فيها. **ثانيًا**: الحياة عند الربّ غير الحياة عند الخلق. الحياة عند الله هي تلك الحياة الأخروية الباقية: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖ﴾. والحياة الأخروية لا تستلزم العلم بالأمور الدنيوية وبشؤون أهل الدُّنْيَا. وبناءً على ذلك، فلا الحياة الأخروية ولا الحياة الدنيوية تُثبت علم صاحبهما بكل شيء.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ أن العمل الصالح مع الإيمان نتيجته الحياة الطيبة. واختُلف في هذه الحياة الطيبة هل هي في الدُّنْيَا أم في الآخرة؟ الآية مطلقة وتشمل الحياتين. فأما الحياة الدنيوية الطيبة فينبغي أن نعلم أنها إنما تكون بالقناعة، لأنه كما قيل: «**لا يطيب عيش أحد في الدنيا إلا عيش القانع وأما الحريص فإنه يكون أبدًا في الذلِّ والكد والعناء**». واعلم أن عيش المؤمن في الدنيا أطيب من عيش الكافر لوجوه: الأول: أنه لما عرف أن رزقه إنما حصل بتدبير الله تعالى، وعرف أنه تعالى محسن كريم لا يفعل إلا الصواب كان راضيًا بكلِّ ما قضاه وقدَّره، وعلم أن مصلحته في ذلك، بعكس الكافر الذي لا يمتلك ولا يعرف هذه العقائد والأصول فيكون أبدًا في الحزن والشقاء.

وثانيها: أنه لما كان قلب المؤمن مهتمًّا بالمعارف الحقَّة ومنشغلاً بعظمة الله، صَغُرَت الدنيا في عينيه ورآها أقلَّ شأنًا من أن يحزن لأجلها، فلا يعظم فَرَحُهُ بوجدانها وغمّه بفقدانها، أما

الكافر الـمادي فقلبه خال عن معرفة الله تعالى ولا يعرف سعادة أخرى سوى الدنيا فلا جرم يعظم فرحه بوجدانها، وغمُّه بفقدانها، فلا تكون حياته الدنيوية حياةً طيبةً، وأما حياته الأخروية فحاله فيها معلوم.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل: ٩٨-١٠٠].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ أن رسول الله ﷺ كان يخشى شرَّ الشيطان ويعجز عن دفعه وحده إلا إذا التجأ إلى الله فألجأه الله وحماه من شرِّه.

ويعود ضمير ﴿بِهِۦ﴾ في ﴿بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ على كلمة ﴿رَبِّهِمْ﴾ التي جاءت في جملة ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾. ويُمكن أن يعود ضمير ﴿بِهِۦ﴾ على الشيطان، أي أنهم يُشركون بواسطة طاعتهم وساوس الشيطان.

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل: ١٠١-١٠٣].

الفوائد: اعلم أن الحقَّ تعالى بيَّن في هذه الآيات شُبُهات مُنكري نبوة محمَّد ﷺ وردَّ عليها. وإحدى شُبُهات الـمُشْرِكين وإشكالاتهم هي أنهم كانوا يقولون: لماذا يأتي محمَّدٌ ﷺ أحيانًا بآيات وأحكام غير ما أتى به من قبل، وينسخ بها تلك الآيات والأحكام السابقة؟ والجواب: أن الله تعالى يُنزِّل مثل تلك الآيات حسب مقتضى الأحوال ولأجل تثبيت قلوب الـمُؤْمنين وهدايتهم.

وشُبهتهم الثانية أنهم كانوا يقولون: إن محمَّدًا إنما يذكر هذه الآيات والقصص القرآنية لأنه يستفيدها من رجل أعجميّ ويتعلَّمها منه ثم ينسبها إلى نفسه. واختلفوا في هذا البشر الذي نسب

الـمُشْرِكُون النبيَّ ﷺ إلى التعلم منه، فقيل: إنه كان رجلاً نصرانيًّا روميًّا أعجميّ اللسان يعمل حدادًا في مكة اسمه بلعام، وأنه كان يُعلِّم محمدًا تلك القصص. وقيل: إنه سلمان الفارسيّ. وقيل: إنهما كانا شابين نصرانيين من أهل عين التمر اسم أحدهما يسار والآخر خير. وعلى كل حال، فقد أجاب الله تعالى عن هذه الشُّبهة بأن القرآن نزل بلسان عربي فصيح وأن الأعجميّ لا يُمكنه أن يأتي بمثل هذا الكلام.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٠٤ إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ١٠٥ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٠٧ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٠٨ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٠٩﴾ [النحل: ١٠٤-١٠٩].

الفوائد: جملة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ شَرْحٌ للآيات التي تقول: ﴿يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ والتي تقول: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ بِناءً عَلى ذَلِكَ، لا جبر في الهداية الإلهية، فكل من اختار الكفر بإرادته؛ لا يهديه الله.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أن الخطباء الذين يقولون الأكاذيب باسم الدين لا يؤمنون بآيات الله أي بالقرآن.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ أن لا حرج على المسلم إذا قال كلمة الكفر خوفًا من القتل وكان قلبه مطمئنًا بالإيمان، فالتقيَّةُ جائزةٌ، كما فعل عمَّار بن ياسر الذي قال ما طلبه منه الـمُشْرِكُون من لفظة الكفر وأنقذ نفسه من الموت بعد أن رأى والديه قُتلا أمام عينيه واستُشْهِدَا على أيدي الـمُشْرِكين.

ولكن التقيَّة جائزة من الكفار لا من الـمُسْلمين[١].

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١٠ ۞يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١١١ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١١٢﴾ [النحل: ١١٠-١١٢].

الفوائد: الـمراد من جملة: ﴿هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ﴾ الصحابة الذين هاجروا إلى الـمدينة بعد أن ابتُلوا بأذى الكفار وتعذيبهم لهم مثل خبَّاب وبلال وعمار وصُهيب وأمثالهم، وبعد أن هاجر أولئك الـمُعذَّبون جاهدوا في سبيل الله أيضًا، ولم يكونوا كبعض الناس الذين لما ابتُلوا بعذاب شديد ارتدوا عن الدين.

وكلمة: ﴿قَرۡيَةٗ﴾ وإن كانت عامةً إلا أن الـمراد منها هنا أهل مكة الذين كانوا في أمن وأمان من الحروب والـمخاصمات، ولم يكونوا بحاجة إلى التنقل والترحال من مكان إلى آخر من ناحية لطف الطقس، وكان يأتيهم الرزق من جميع الأطراف والنواحي.

وسبب قوله تعالى: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ﴾ أنه لما كان جوعُهُم وخوفُهُم شديدين وكاملين، فكأن الجوع والخوف أحاطا بهم مثل إحاطة اللباس بصاحبه.

﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡهُمۡ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١١٣ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١١٤ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا

١- قال الفخر الرازي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗ..﴾ [آل عمران: ٢٨]. «ظاهر الآية يدل أن التقية إنما تحل مع الكفار الغالبين إلا أن مذهب الشافعي رضي الله عنه أن الحالة بين الـمسلمين إذا شاكلت الحالة بين الـمسلمين والـمشركين حلَّت التقيَّة محاماةً على النفس». انظر **التفسير الكبير**، ج ٨/ ص ١٤.

عَادٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴿١١٥﴾﴾ [النحل: ١١٣-١١٥].

الفوائد: المراد من جملة: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ﴾ أهل مكة الذين ابتُلوا بالعذاب والجوع والقحط الشديد واستمرَّت المجاعة في مدينتهم سبع سنوات، إلى أن أرسلوا إلى رسول الله ﷺ رسالةً بأننا ابتُلينا بالشدائد والجوع والقحط، فإن كنا مُشركين فما ذنب أطفالنا؟ فدعا لهم رسول الله ﷺ وسمح للناس أن يحملوا الطعام إلى المُشْرِكين. هذا رُغم أن سبب النزول لا يُخصِّص عموم الآيةِ والآيةُ باقية على إطلاقها.

﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴿١١٨﴾﴾ [النحل: ١١٦-١١٨].

الفوائد: كان علماء اليهود، كالمشركين والمُتلبِّسين زورًا بلباس علماء الإسلام اليوم، يُحلِّلون ويُحرِّمون حسب ذوقهم ويُضيفون مُحرَّمات من عندهم إلى دين الله. وقد ذكر الحق تعالى المحرَّمات في الآية ١١٥، ثم قال في الآية ١١٨: لقد حرَّمنا على اليهود أشياء بسبب ظلمهم وقد بيَّن الله ما حرَّمه المُشْرِكُون واليهود على أنفسهم من مُحرَّمات في آية:

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ ....﴾ [الأنعام: ١٤٥].

وفي آية:

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ﴾ [المائدة: ١٠٣]. فلتُراجَعْ ثَمَّة.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴿١١٩﴾﴾ [النحل: ١١٩].

الفوائد: بعد أن بيَّن الله افتراء الكفار عليه في التحريم والتحليل، بيَّن الحق تعالى بعبارة مؤكَّدة بعدة حروفِ تأكيدٍ أنه إن تاب أولئك المُشْرِكُون وأصلحوا فإن الله يقبل توبتهم ويعفو عنهم ويغفر ذنبهم حتى ولو كانوا قد أمضوا عمرًا مديدًا في الكفر والمعاصي.

﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٠ شَاكِرًا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ ١٢١ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةًۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٢٢ ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٣﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٣].

الفوائد: تَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ أنه إن كان هناك رجل واحد على طريق الحقّ اعتُبِر جماعةً وحدَهُ، ويجب أن لا يُنظر إلى انفراده وكثرة مخالفيه، كما أن إبراهيم عليه السلام كان شخصًا واحدًا وكان مخالفوه آلاف الأشخاص من العالـمين والجاهلين.

والعجب من مسلمي زماننا الذين يمتلكون القرآن الكريم ومع ذلك يُعرِضون عن منهج القرآن ودستوره، وبمُجرَّد أن يقوم عالـم مُوحِّد ببيان حقيقة من حقائقه يطعنون فيه بأنه رجل واحد ومخالفوه كُثُر ويقولون: هل يُعقل أن لا يفهم الناسُ جميعُهُم الحقّ ويفهمُهُ هذا الرجُلُ وحدُهُ؟ وبهذه الحُجَّة يقومون بمُحاربة الحقّ، كما حصل للمرحوم السيد أسد الله خارقاني والـمرحوم سنگلجي والـمرحوم الخالصي وأمثالهم الذين كانوا فرادى وكان مخالفوهم كثيرين فضاع الحقّ الذي نادوا به بسبب مخالفة علماء السوء الكثيرين لهم. وكاتب هذه السطور ذاته أظهرتُ بعض حقائق القرآن كتوحيد العبادة فانتفض لمخالفتي ومعاداتي كل الذين يسترزقون من الشرك ولم يتوانوا عن الإفتاء بكفري! وقد أبدلوا دين الله الواحد إلى مذاهب متعددة وقَبِلَ الجميعُ هذه البدعة والكفر.

واعلم أن الله تعالى وصف إبراهيم عليه السلام في هذه الآيات بعشرة أوصاف:

الصفة الأولى: أنه أُمَّةٌ وجماعةٌ وحدَه.

الصفة الثانية: كونه قانتًا لِلَّهِ، أي خاضعًا لِلَّهِ مُطيعًا له.

الصفة الثالثة: كونه حنيفًا والحنيف الـمائل إلى الحق، الذي يقبل الحق ويميل إلى الاستقامة.

الصفة الرابعة: قوله: ﴿وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ ومعناه: أنه كان من الـموحدين في الصِّغَرِ والكِبَرِ وكان غارقًا في بحر التوحيد.

الصفة الخامسة: قوله: ﴿شَاكِرًا لِّأَنۡعُمِهِ﴾. روي أنه عليه السلام كان لا يتغدَّى إلا مع ضيف فلم

يجد ذات يوم ضيفًا فأخَّر غداءه فإذا هو بقوم من الـملائكة في صورة البشر فدعاهم إلى الطعام.

الصفة السادسة: قوله: ﴿ٱجْتَبَىٰهُ﴾ أي اصطفاه للنبوَّة.

الصفة السابعة: قوله: ﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

الصفة الثامنة: قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ فأعطاه في الدنيا الثروةَ والاسم الحسن ولسان الصدق، فمسلمو الدنيا جميعهم يُصَلُّون عليه ويُسَلِّمُون حين يقولون: **كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم.**

الصفة التاسعة: قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

الصفة العاشرة: أوجب اتِّباعَهُ على نبيِّ الإسلام ﷺ وعلى سائر الـمسلمين جميعًا.

﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل: ١٢٤-١٢٥].

الفوائد: لما أمر الله محمَّدًا ﷺ أن يتَّبع مِلَّة إبراهيم عليه السلام، وكان محمَّد ﷺ قد اختصَّ يوم الجمعة للعبادة، فهل كان يوم الجمعة أيضًا في مِلَّة إبراهيم عليه السلام أم لا؟ وإن كان يوم الجمعة فلماذا اختار اليهود يوم السبت؟

أجابت الآية الـمذكورة أعلاه: بأن يوم السبت جُعل على اليهود لأن موسى عليه السلام أمر قومه بالجمعة وقال: تفرغوا لِلَّهِ في كل سبعة أيام يومًا واحدًا وهو يوم الجمعة لا تعملوا فيه شيئًا من أعمالكم، فأبوا أن يقبلوا ذلك، وقالوا: لا نريد إلا اليوم الذي فرغ فيه من الخلق وهو يوم السبت، فجعل الله تعالى السبت لهم وشدَّد عليهم فيه، ثم جاءهم عيسى عليه السلام أيضًا بالجمعة، فقالت النصارى: لا نريد أن يكون عيدُهم بعد عيدنا واتخذوا الأحد. فرُوِيَ عن النبيّ ﷺ أنه قال: «**إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ يَوْمَ الْـجُمُعَةِ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَنَا فَاخْتَلَفُوا فِيهِ وَهَدَانَا اللَّهُ لَهُ، فَالنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ، الْيَهُودُ غَدًا وَالنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ**»[1].

---

١ - مستفاد من **التفسير الكبير** للفخر الرازي، ٢٠/ ١٣٧.

واعلم أن الله تعالى أمر رسولَهُ ﷺ أن يدعوَ الناس بما يلي: **الأول**: بالحكمة، أي بالدلائل العقلية اليقينية، والدعوة بهذه الطريقة تكون للعلماء. **الثاني**: بالـموعظة الحسنة، وهي ذِكر الدلائل الظنية والإقناعية والعاطفية، وهذا يكون للعوام. **الثالث**: بالـمجادلة بالتي هي أحسن، وهذه الطريقة هي أن يذكر الـمُقدِّمات التي يُسلِّم بها الـمُخَاطَب دون أن يؤيِّد بذلك باطلاً أو أن يصدِّق بباطل. ولكن الله جعل الـمجادلة مقابلةً للدعوة.

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ١٢٦ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ١٢٧ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ١٢٨﴾ [النحل: ١٢٦-١٢٨].

الفوائد: قيل: إن هذه الآيات نزلت في قتل حمزة والتمثيل بجثته في معركة أُحد، وأن رسول الله ﷺ لما رأى الـمُثْلة بعمِّه قال: «**والله لأُمثِّلنَّ بسبعين منهم مكانك**» فنزل جبريل عليه السلام بخواتيم سورة النحل فكفَّ رسول الله ﷺ وأمسك عما أراد[1].

ولكن الأفضل أن نقول: إن هذه الآيات دستور عمليّ للمسلمين في جميع الحالات إذ نُهِيَ الـمسلمون عن الـمبالغة في العقاب. كل ما في الأمر أن هذه الآية قُرِئت في معركة أُحد فدخلت حادثة أُحد تحت عموم الآية.

١- مستفاد من **التفسير الكبير** للفخر الرازي، ٢٠/ ١٤١. ومثله في تفسير: **اللباب في علوم الكتاب**، لابن عادل الدمشقي الحنبلي، ١٢/ ١٨٨، وتفسير **الدر الـمنثور** للسيوطي ٥/ ١٧٩، وغيرهم، وانظر **السيرة الحلبية**، ٢/ ٣٨٦.

سورة الإسراء

مكيَّة وهي مئة وإحدى عشر آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١﴾ [الإسراء: ١].

الفوائد: تُسمَّى هذه السورة أيضًا سورةَ بني إسرائيل. وكلمة ﴿سُبۡحَٰنَ﴾ لها عدة معان:

١- التنزيه والتباعد.

٢- الصلاة، لأن تسبيح الحقّ تعالى يتم ضمن الصلاة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ١٤٣﴾ [الصافات: ١٤٣].

٣- الاستثناء وقول: إن شاء الله، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ ٢٨﴾ [القلم: ٢٨].

ولكن المقصود هنا في هذه الآية من سورة الإسراء هو المعنى الأول، وهو تنزيه الله وإبعاده عما لا ينبغي من الجهل والعجز وسائر صفات الممكنات.

ويُسْتَفَادُ مِنْ جملة: ﴿أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا﴾ أن سير رسول الله ﷺ كان في الليل، وأن الله هو الذي أسرى برسول الله لا أن الرسول سافر وسار تلك الرحلة بنفسه.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ أن إسراء رسول الله ﷺ (أي سفره بالليل) كان من مدينة مكة إلى بيت المقدس. وهل كان الإسراء من بيت أمّ هانئ أم

من داخل الـمسجد الحرام؟ ظاهر الآية أنه كان من داخل الـمسجد الحرام، هذا رغم أنه لو كان من بيت مجاور للمسجد لصحّ التعبير عنه أنه من الـمسجد الحرام أيضًا ولم يكن في ذلك إشكال.

ويُسْتَفَادُ مِنْ جملة: ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أن لِرَسُولِ اللهِ ﷺ تواجدًا في مكان واحدٍ محدَّد، وأنه لا يكون في مكانين في آنٍ واحد [ولو كان في كل مكان لما احتاج إلى الإسراء به من مكان إلى آخر].

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ أن أطراف مسجد بيت الـمقدس مباركة من ناحية الأنهار والأشجار والنِّعَم.

وتدل جملة: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ أن هدف هذا الإسراء هو إراءةُ الرسولِ ﷺ آياتِ اللهِ.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ أن السميع والبصير على نحو الإطلاق هو الله تعالى وحده فقط.

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾
ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى
ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا
بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾
ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾
إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟
وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ
رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا
ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا
كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الإسراء: ٢-٩].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ أن فساد اليهود وبني إسرائيل قد تفاقم في الأرض مرَّتين بنحوٍ سلَّط الله فيه في كل مرّة – طبقًا للوعد الذي قطعه على نفسه– عبادًا

له ذوي قوّة وشوكة وسطوة على بني إسرائيل، قاموا بقتلهم وأسرهم ولاحقوهم في كل زاوية من زوايا بيوتهم بالقتل والإغارة والسلب والنهب. ويُمكن أن نقول: إن المرَّة الأولى تحقَّقت عندما تغلَّب «**نبوخذنصَّر**» على بني إسرائيل، والمرَّة الثانية حصلت زمن تَغَلُّبِ إمبراطور القُسطنطينية عليهم. أو أن الزمان الأول كان زمان حضرة داود ﷺ وجالوت. على كل حال، في كل مرتبة تعرَّض اليهود للقتل وتعرَّضت ممتلكاتهم للهدم والسلب والدمار، حتى لم يبقَ أثر من التوراة وتحوَّل مسجد بيت المقدس إلى حطام.

ويُمكن أن يكون المخاطَبون بجملة: ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ﴾ اليهود، وقد يكون المُسْلمون هم المخاطَبين بالآية.

وقد اعتبرنا في ترجمة الآيات أن اللام في: ﴿لِيَسُـُٔواْ﴾ هي لام العِلَّة أي اللام الجارَّة، ولو اعتبرناها هي واللام في ﴿وَلِيَدۡخُلُواْ﴾ و ﴿وَلِيُتَبِّرُواْ﴾ لام الأمر لما كان هناك إشكال في المعنى. ومعنى كلمة: ﴿حَصِيرًا﴾ محصورٌ. [أي جعلنا جهنم موضعًا محصورًا لهم، لا يُمكنهم الخلاص منه].

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا ٩ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٠ وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا ١١﴾ [الإسراء: ٩-١١].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ أن القرآن بيَّن للناس أصحَّ العقائد والأعمال. كل ما في الأمر أن أمة الإسلام لم تتدبَّر القرآن ولم تستقِ عقائدَها وأعمالَهَا من القرآن، بل اسْتَقَتْهُ من كُتُب علمائها الكبار، ولذلك وقعت في الخطأ والانحراف في كثير من الأمور.

وكلمة ﴿وَيَدۡعُ﴾ بسكون الدال وضمِّ العين مشتقةٌ من مادة «دَعَا» كما أجمع على ذلك القُرَّاء ونحن أيضًا ترجمنا الآية طبقًا لذلك. ولم تُكتب هنا لام الفعل -أي حرف الواو - في رسم القرآن، مع أنه كان ينبغي كتابتها طبقًا لقواعد العربية، والسبب في ذلك أن الصحابة والتابعين استنسخوا

مصاحفهم من مصحف رسول الله ﷺ بعده، كي لا يحصل أيُّ تبديل أو تصرُّف في كيفية كتابة القرآن، وهذا دليلٌ على أن الصحابة ومَنْ بعدهم اهتمُّوا بشكل دقيق بحفظ القرآن ونقله.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ١٢﴾ [الإسراء: ١٢].

الفوائد: معنى المحو في قوله تعالى: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ جعلناها محوًا، أي جعلنا الليل ماحيًا ومظلمًا. أي أن الليل يمحو الأشياء عن النظر والمشاهدة. أي جعلنا الليل مظلمًا. ثم أزلنا الليل وجعلنا النهار مضيئًا ووسيلةً للرؤية والإبصار، وهذا دليل على القدرة وتدبير الحقّ تعالى المنظَّم، ودليل على حكمته. إضافةً إلى ذلك فإن الإنسان يستطيع من خلال الليل والنهار أن يعمل للكسب والشغل ثم يجد المجال للراحة، كما أنه يستطيع من خلال القمر والشمس والهلال والبدر أن يحسب الساعات والأيام والأسابيع والشهور والسنة. «**سبحان الخالق المُدَبِّر**».

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ١٣ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ١٤ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ١٥﴾ [الإسراء: ١٣-١٥].

الفوائد: معنى «**طَٰٓئِرَهُۥ**» هنا عمله، أي أن الله شبَّه عمل الإنسان بالطائر. يقول تعالى: إن صحيفة عمل الإنسان كالطير الذي يلتصق برقبة صاحبه ويلازمه ولا ينفصل عنه. وفُسِّر الطائر أيضًا بمعنى الحظ والبخت، أي بالحظّ الحسن والحظّ السيِّئ؛ وذلك لأن عمل الإنسان سببٌ لصلاح حاله وحسن حظه أو لشقائه وتعاسته وسوء حظه، فهنا أُطلق اسم المُسبَّب على السَّبب، وسُمِّي السبب، الذي هو العمل، بالطائر، الذي هو الحظ والسعد والبخت.

ومعنى ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ...﴾ أن الأوصاف والآثار التي نُقِشت في نفس الإنسان نتيجة تكرار العمل ستخرج يوم القيامة من عمق روحه وبدنه بصورة كتاب.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ على العدل الإلهي وأنه تعالى لا يُعذِّب أحدًا بلا سبب، وما لم يُرسل نبيًّا ويُبيّن للناس ما يُرضي الله وما يُغضبه فلن يُعذِّب الناسَ. فإن قيل: فما وظيفة العقل إذن؟ ألَا يُعذِّب الله الناس بواسطة حكم العقل؟ فالجواب: إن أحكام العقل باقيةٌ لجلب النفع ودفع الضر، وكلُّ ما حكم به العقل له أثر وضعي يترتب عليه. أما العذاب الأخرويّ أو العذاب الدنيويّ فقد رفعه الله تعالى قبل بِعثة الرسول ﷺ لطفًا منه.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾ أن اللّهَ لا يُعذِّب أحدًا بذنب غيره، إلا إذا كان الغير قد أكره الـمُذنبَ على ارتكاب الذنب، عندئذ تكون الـمؤاخذة على الـمُسَبِّب. أما الأطفال فإن الله تعالى لا يُعذِّبُهم بكفران آبائهم وبذنوب آبائهم، وكذلك لا يُعذِّب الله الـميت بسبب بكاء أهله عليه. وليس من الـمعلوم صحة أو سقم الرواية الـمنقولة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إن الـميت ليُعذَّب ببكاء أهله عليه**».

﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ١٦ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ١٧﴾ [الإسراء: ١٦-١٧].

الفوائد: جملة: ﴿أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا﴾ صفة لـ «**قَرۡيَة**» أي لما عصى مترفو القرية اللّهَ واتَّبعهم في ذلك أتباعهم وخدمهم كان ذلك سببًا لنزول عذاب الله عليهم وإهلاكهم. فلا يُستشكل بأنه كيف أراد الله إهلاكهم ثم هو نفسه هيَّأ أسباب إهلاكهم؟

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ...﴾ أن ليس لأحد علمٌ بذنوب العباد سوى الله، فالروايات التي تقول: إن النبيّ الفلاني أو العبد الصالح الفلانيّ يعلم أعمال العباد أو أن أعمال العباد تُعرض عليهم، روايات موضوعة كلها ومخالفة للقرآن وللعدل وللستر الإلهيّ. وجاء فعل ﴿أَمَرۡنَا﴾ أيضًا بمعنى كثَّرنا، أي «كثَّرنا عدد الـمُترفين ففسقوا». وقُرئت الآية أيضًا بلفظ: آمَرْنا وأَمَّرْنا، وهما بمعنى كثَّرنا[1].

---

١ - لكنها قراءة شاذَّة.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا۝١٨ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا۝١٩ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا۝٢٠﴾ [الإسراء: ١٨-٢٠].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ...﴾ وقوله: ﴿...وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ أن كل من أراد شيئًا يسَّر الله له سُبُلَهُ، وأن الله يُعطيه منه بالـمقدار الذي يشاء. وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ أن السعي ليس بلا فائدة بل هو مفيد ومؤثر، ولكن الوصول إلى الهدف وإدراك الـمقصود منوط بإرادة الله.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ....﴾ أن الذي يُمدّ الكفار والـمؤمنين هو الله وحده ولا أحد غيره، فالـمُمِدّ الغيبيّ هو الله فحسب، فالذين يطلبون الـمدد من غير الله ويقولون: [يا رسول الله مدد]، ويا عليّ مدد، واقعون في الضلال والشرك ولم يُدركوا بَعْدُ معنى ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. نعم، يُمكن طلب الـمدد من الشخص الحيّ الحاضر على سبيل التعاون بشرط أن لا يكون ذلك مددًا تكوينيًّا.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا۝٢١ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا۝٢٢ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا۝٢٣ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا۝٢٤﴾ [الإسراء: ٢١-٢٤].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَضَّلْنَا.....﴾ إلى آخر الآية أن الله فضَّل بعض الناس في الدُّنْيَا على بعضهم الآخر. ولم تذكر الآية جهة التفضيل بل أطلقت ذلك، ولا شك أن الله فضَّل الـمؤمن على الكافر والـمشرك، وفضَّل الذي يسعى على من يترك السعي. وفضَّل النبيّ على غيره. ولكل ذلك حكمة بالطبع.

قال الشاعر: (بيت شعر بالفارسية)

لا يعلـــــــم العبـــــــــدُ أسرارَ اللهِ ولا ينبغـــي أن يقــول: كيــف ولمــاذا؟

ولكن الأمر الـمُسلَّم به أن الله يُعطي كل إنسان على قدر استعداده وأهليَّته وعلى قدر سعيه.

﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا ٢٥ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ٢٦ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ٢٧ وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا ٢٨﴾ [الإسراء: ٢٥-٢٨].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ﴾ أن الله الذي أعطانا الوجود هو أعلم بنا وبخصائصنا وبصفات قلوبنا وبما يجول في نفوسنا وأذهاننا من تصورات وخيالات. وبِناءً عَلى ذَلِكَ، فالتعاليم التي أعطانا إياها هي لصالحنا فينبغي أن نعلم أنه لما كان الله أعلم منا بذاتنا وصفاتنا فهو أعلم بما يُصْلِحُنا.

ولا تدل جملة: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ على مقدار حقّ ذي القُربى، ولذلك قال الشافعيُّ: الإنفاق على الأولاد والوالدين واجب وأما على غيرهما فلم يثبت وجوبه. والتبذير إنفاق الـمال في غير طاعة الله، أما لو أنفق الـمال في طاعة الله فمهما زاد إنفاقه لم يعتبر تبذيرًا.

﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ٢٩ إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ٣٠ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا ٣١ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ٣٢ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا ٣٣﴾ [الإسراء: ٢٩-٣٣].

الفوائد: جملة: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ...﴾ خطاب للإنسان بأنه لا ينبغي له أن يكون مثله مثل الذي كُسرت يده ورُبطت إلى عنقه فلا يُحرِّك يده لأجل الإنفاق. وكذلك لا ينبغي له أن يبسط يده بسطًا

مفرطًا فيُنفق كل ما لديه. وجملة: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ...﴾ خطاب للآباء. والأبرار هم الذين يُحسنون إلى الأولاد والآباء. أما الإحسان إلى الأولاد فلأنهم في غاية الضعف والحاجة ولا كافل لهم سوى الوالدين، إضافةً إلى أن عدم الاعتناء بالأولاد يستلزم خراب العالم وانقطاع نسل آدم، وقتل الأولاد، إن كان خوفًا من الفقر فهو سوء ظن بالله وقدرته على رزق العباد، وإن كان بسبب الغيرة على البنات فإن هذا سعيٌ في تخريب العالم وقطع نسل آدم، ولكن العرب كانوا يقتلون البنات لعجزهنَّ عن الكسب وعن الحرب والقتل والنهب والغارة، وأيضًا كانوا يخافون أن فقرها يُنفِّر كُفأها عن الرغبة فيها فيحتاجون إلى إنكاحها من غير الأكفاء وفي ذلك عار شديد. وعلى كل حال، فإن الرحمة والشفقة تقتضي أن تكون البنت مثل الابن ويجب تربيتها تحت جناح الرحمة والعطف والحنان، ولا بدّ للإنسان من أمرين أساسيين: «**التعظيم لأمر الله، والشفقة بخلق الله**».

﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ٣٤ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ٣٥ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ٣٦ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ٣٧ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ٣٨ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ٣٩﴾ [الإسراء: ٣٤-٣٩].

الفوائد: الـمُرَاد مِنْ جملة ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ أن صاحب العهد كان مسؤولاً بحذف المضاف، ويُمكن أن يكون معنى جملة: ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ أنه «**كان موردًا للسؤال**»، يعني: أن صاحبه سيُسأل عنه. ويُمكن أن تكون الجملة على نحو الاستعارة التخييلية أي: «**يُخيَّل أن العهدَ رجلٌ ويُسأل عنه تبكيتًا للناكث**». وتدل هذه الجملة على وجوب الوفاء بالعقود جميعها.

وجملة: ﴿وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ أحد الأوامر التي تكررت في القرآن واهتم بها الـمُشرِّع، هذا رُغم أن الفرق الذي يُحصِّله الإنسان من خلال الإنقاص في الكيل والوزن فرق

بسيط ولكن عقابه شديد لأنه موضع حاجة جميع الناس في جميع الحالات. ويجب أن لا تتلوَّث الأنفس بالسرقة ولو بمقدار حقير وأن تحترز عن ذلك بشدة كي لا يتعوَّد الناس على الطمع بمال بعضهم بعضًا ويشعر البائع والمشتري براحة البال في التعامل، وكل كاسب وتاجر عُرف بالأمانة وبالتحرز من مثل هذه الخيانة أصبح بعد مدة قصيرة ذا أموال كثيرة. ولا شك أن الله يُبارك للإنسان في رزقه الحلال، كما قال شُعيب: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [هود: ٨٦].

وجملة: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ دليل على أنَّ اتِّبَاعَ الظنِّ والتقليد غير جائز «**إلا ما استُخرج بالدليل**».

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾ أن القرآن حكمة وأن كل من تعلم أحكامه وعمل به وصل إلى خير كثير، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٠-٤٤]

الفوائد: كان المُشرِكُون يتعيَّرون من البنات، ورُغم ذلك يعتبرون أن لِلَّهِ بناتٍ، أي يعتقدون أن الملائكة بنات الله! فقال الحقّ تعالى: إن كلامكم هذا باطل كبير لأنكم اعتبرتم أن الله – والعياذ بالله– ناقص وأقل شأنًا من أنفسكم.

ويُمكن أن تكون جملة: ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟...﴾ إشارة إلى دليل التمانع، أي لو كان هناك آلهة متعددة لتغلَّب بعضها على بعض واستوى على العرش. ومن الممكن أن تكون الجملة إشارة إلى أنكم تتقرَّبون إلى هذه الآلهة مع أنها لو كانت تستطيع فعل شيء لسلكت الطريق الذي يُقرِّبها إلى الله ربِّ العرش ولاكتسبت لنفسها مقامًا عنده.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ على البعد الكبير بين «الممكن بالذات والواجب بالذات، وبين القديم والحادث، وبين الغنيّ والمحتاج». ولا يخفى أنه ليس المقصود من تسبيح الكائنات وحمدها التسبيح المقالي لأن عدم فهم مقالها ليس جرمًا، ولذلك قال في آخر الآية: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾. وعلاوةً على ذلك، فإن الله قال: ﴿لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ ولو كان تسبيحهم مَقَاليًا لقال: «**لا تسمعون تسبيحهم**»؛ بل تسبيح الكائنات تسبيح حاليٌّ. والتسبيح الحالي للموجودات (أي تسبيحها الله بلسان الحال لا بلسان المقال) مثل حمدها لِلَّهِ. ومثل سجود الأشياء لِلَّهِ، كما قال تعالى في سورة الرحمان: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴿٦﴾﴾ [الرحمن: ٦]. فالذي يُمكن تدبُّره، والذي يؤدي عدم تدبُّره إلى عدم الفهم الذي ذمَّ الله المُشْرِكين عليه، أي على عدم فهمهم له، هو التسبيح الحالي.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴿٤٨﴾﴾ [الإسراء: ٤٥-٤٨].

الفوائد: روي أنه ﷺ كان كلما قرأ القرآن قام عن يمينه رجلان، وعن يساره آخران من ولد قصيّ يصفِّقون ويصفِّرون ويخلطون عليه بالأشعار، وعن أسماء أنه ﷺ كان جالسًا ومعه أبو بكر إذ أقبلت امرأة أبي لهب ومعها فهر تريد رسول الله ﷺ وهي تقول: «**مذممًا أتينا ودينه قلينا وأمره عصينا**»[1]. ولما كان التعصب والعناد بمثابة حجاب غير مرئيٍّ يفصل بين المُشْرِكين وبين رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ أي حجابًا غير مرئيّ. وهذا هو المقصود من جملة: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أي أن قلوبهم تُركت في الكفر والتعصُّب، أي

١- انظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ١٠/ ٢٦٩، والفخر الرازي، **مفاتيح الغيب**، ٢٠/ ٢٢٠-٢٢١ باختصار وتصرف يسير.

أن الله تعالى جعل تعصبهم كالغطاء والستر على قلوبهم، وهذا التعصُّب والكفر اختاروه بإرادتهم، ولما كان الله قد جعل ذلك التعصُّب والكفر سببًا لوجود ذلك الحجاب الساتر بينهم وبين رسول الله ﷺ قال: ﴿وَجَعَلْنَا﴾.

﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾ [الإسراء: ٤٩-٥٢].

الفوائد: كان الـمُشْرِكُون يستهزئون برسول الله ﷺ ويعتبرونه رجلاً مسحورًا، وكان أحد الأدلة التي يستدلُّون بها على مزاعمهم الباطلة تلك قولهم: إن محمدًا يدَّعي أن الإنسان بعدما يبلى جسمه وتتفرق ذرَّات جسمه في الأرض ويُصبح رُفاتًا سوف يعود حيًّا عاقلاً كما كان. يقول تعالى في الردّ عليهم: إن العظام البالية كانت حيَّةً من قبل وهي قريبة من الحياة، ولو كنتم حجارةً أو حديدًا، أي كنتم أبعد بكثير عن الحياة، فإن الله لديه القدرة أيضًا أن يُحييَ الحجر والحديد لأنه محيط بعناصر أجسادكم الـمتناثرة كما لديه القدرة على إحيائكم.

﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾ [الإسراء: ٥٣-٥٥].

الفوائد: يُمكن أن يكون الـمقصود من **عبادي** في جملة ﴿وَقُل لِّعِبَادِى﴾ الكفار، ويُمكن أن يُراد الـمُؤْمنون، ويُمكن أن يكون الـمراد أعمَّ من الـمؤمنين أو الكفار. وكل الاحتمالات صحيحة، وَالـمَقْصود أن يُحسِّن العباد كلامهم في الدعوة إلى الهداية ولا يخلطوه بالسبِّ والشتم، أي لا يتحجَّجوا بالشيطان لأجل الفتنة والفساد والإضلال، كما قال تعالى:، ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]. وقال أيضًا: ﴿وَلَا تُجَـٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ

إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ٥٧﴾ [الإسراء: ٥٦-٥٧].

الفوائد: كان مشركو مكة منحرفين في توحيد العبادة، أي كانوا يُشركون بالله في العبادة كما يفعل أهل زماننا، فكانوا مثلاً يذبحون لغير الله كما يذبحون لِلَّهِ، ويطلبون الحوائج من غير الله كما يطلبونها من الله، ويدْعُون الله عند المصائب والبلايا كما يدعون غير الله لكشف الضر عنهم. ولو تدبَّر الإنسان القرآن لرأى أن جزءًا مهمًّا من آياته ردٌّ على الشرك في العبادة، وفي هذه الآية المذكورة أعلاه ذمَّ الله الذين يدعون غير الله أي يدعون بعض عباد الله المُقرَّبين لكشف الضر عنهم أو تغيير أحوالهم. يقول الله لهم: إن من تدعونه لا يملك كشف الضر عنكم ولا تغيير أحوالكم وليس قادرًا على فعل ذلك ولا هو مسؤول عن ذلك. إن أولئك العباد المُقرَّبين والصالحين العِظام الذين تدعونهم هم أنفسهم يبحثون عن وسيلة تُقرِّبهم من رحمة الله أو تُخلِّصهم من عذابه، ومن الواضح تمامًا أن مثل هؤلاء الأشخاص الذين يرجون رحمة ربِّهم ويخافون عذابه لا يُمكن بأي نحو من الأنحاء أن يكونوا موجودات جامدة لا روح لها كالأصنام، بل هم عباد الله المُقرَّبون منه بل هم من أقرب المُقرَّبين إليه ومع ذلك قال تعالى: إنه لا يجوز دعاؤهم ولا فائدة من دعائهم. ورغم هذا التفصيل الذي جاء في مثل هذه الآيات لا تزال أمة الإسلام على غفلتها وعدم فهمها ولا تزال تدعو الصالحين العِظام الذين رحلوا عن الدُّنْيا منذ ألف عام وانتقلوا إلى عالم آخر، وذلك بغير حُجَّة بل بعناد ولجاج، ويعتبرونهم أبواب الحوائج. كيف لم يتخلص المسلمون من هذا الشرك وبقي هذا الشرك بين المسْلمين؟ «**لهذا فليتعجب المُتعجِّبون**»!

﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ٥٨ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا

ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴿٥٩﴾﴾ [الإسراء: ٥٨-٥٩].

الفوائد: المقصود من: ﴿مُهۡلِكُوهَا﴾: مهلكو أهلها بالموت. وَالمقْصود مِنْ: ﴿مُعَذِّبُوهَا﴾: مُعذِّبو أهلها بعذاب الاستئصال، وعذاب الاستئصال هو: العذاب الدنيوي بأنواعه المختلفة الذي حلّ بالأمم السابقة فاستُئصلت وأُبيدت.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أن الله لا يستجيب لكل معجزة يطلبها الناس ولو كانت ممكنة الوجود، لأن الأمم السابقة أرادت مثل تلك المعجزات ولما حدثت لم يؤمنوا أو آمنوا ثم ارتدوا بعد إيمانهم. فمعجزة القرآن كافية للمسلمين.

﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلۡمَلۡعُونَةَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِۚ وَنُخَوِّفُهُمۡ فَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا طُغۡيَٰنٗا كَبِيرٗا﴿٦٠﴾﴾ [الإسراء: ٦٠].

الفوائد: نزلت هذه الآية لتسلية رسول الله ﷺ وترغيبه، لأن الكفار كانوا يُطالبونه بمعجزات وكان الله تعالى لا يرى مصلحةً في إنزال تلك المعجزات التي يُطالبونه بها، وكان عدم إتيان النبيّ ﷺ بمثل تلك المعجزات سببًا للطعن فيه والسخرية منه والنفور منه، فهنا يقول الحقّ تعالى: لا تحزن لذلك وواصل دعوتك، فقد امتُحن أولئك القوم بواسطة الرؤيا التي أراك الله وبواسطة ذِكر شجرة الزَّقوم، وسيُمتحنون بواسطة عدم إتيانك بالمعجزات التي أرادوها، وكل ذلك لن يضيرك في شيء.

واختلف المُفسِّرون في الرؤيا التي أراها الله لرسوله ﷺ؟ فقد تكون تلك الرؤيا هي ما رآه ﷺ ليلة المِعراج. وأما شجرة الزقوم فلما نزلت آيات من القرآن حولها قال المُشْرِكُون: كيف يُمكن أن يكون في جهنم شجرة مع أن الشجرة تحترق في النار؟ كما قال الحقّ تعالى في سورة الصافات: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةٗ لِّلظَّٰلِمِينَ﴿٦٣﴾﴾ [الصافات: ٦٣]. وقال بعضهم: الرؤيا والشجرة الملعونة هي الرؤيا التي رأى رسولُ الله ﷺ فيها قردةً ينزون على منبره ويُبعدون الناس عنه.

﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ

ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٢ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً
مَّوْفُورًا ۝٦٣ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ
وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ۝٦٤ إِنَّ عِبَادِى
لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ۝٦٥﴾ [الإسراء: ٦١-٦٥].

الفوائد: المقصود من كلمة: ﴿جَزَآؤُكُمْ﴾ جزاؤك وإياهم فهي من باب التغليب. ومعنى ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ أي اجمع عليهم كل ما تقدر عليه من مكائدك وافعل كل ما تستطيعه لإغوائهم.

وَالمُرَاد مِنْ ﴿وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ رغِّبهم بالعقائد الباطلة واجعلهم يغترُّون بالخرافات والأعمال القبيحة وكرِّه إليهم الاعتقادات الصحيحة والأعمال الحقَّة، وأول ما يبدأ به الشيطان في هذا الصدد: التشكيك في المبدأ والمعاد ثم نفي ضرر المعاصي. ثم يعد الإنسان بأنواع الملذَّات ويقول له: لا فائدة من هذه العبادات. ويحمله على تسويف التوبة وتأجيلها إلى غد وبعد غد، ويُلقي في قلبه الأمانيّ الباطلة، ويُلقِّنه الوعد بشفاعة الأولياء. وأيًّا كان الأمر، فالشيطان يدعو إلى ثلاثة أشياء: إلى قضاء الشهوة وإلى السعي إلى الجاه وعُلوِّ المقام وإلى طلب الرئاسة، هذا في حين أن ملذَّات الدُّنْيَا لا قيمة لها والإنسان يشترك فيها مع الحيوانات، إضافةً إلى أنها لذَّات سريعة الزوال وتجلب متاعب كثيرة علاوةً على تسبُّبها بالحسرة والفقر والأمراض والشيخوخة.

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ
رَحِيمًا ۝٦٦ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ
أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ۝٦٧ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ
عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ۝٦٨ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ
فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا
بِهِۦ تَبِيعًا ۝٦٩﴾ [الإسراء: ٦٦-٦٩].

الفوائد: رُغم أن حركة السفينة في البحر تتم بواسطة رُبَّانها إلا أن الله تعالى سخَّر له الماء والهواء والسفينة، فكأنَّ الله هو الذي حرَّك السفينة في البحر.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ أنه عندما يقع المُشْرِكون في الخَطَر لا يدعون إلا الله، ويُمْحى من ذهنهم ما سوى الله، بعكس مشركي زماننا الذين لا يدعون الله في أوقات الشدَّة بل يدعون مخلوقاته تحت اسم التوسل.

﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ٧٠﴾ [الإسراء: ٧٠].

الفوائد: كرَّم اللَّهُ بني آدم بالعقل الذي يُميِّزون به بين الخطأ والصواب وبالكتابة التي يضبطون بها العلوم وبالنطق الذي يُعبِّرون به للآخرين عما في نفوسهم من علم، ويُعبِّرون عن ألمهم كذلك.

وَالمَقْصود مِنْ ﴿وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾ تفضيل بني آدم على غير الملائكة لأن القول الصحيح أن الملائكة أفضل من بني آدم لاسيما الملائكة المُقرَّبين.

﴿يَوۡمَ نَدۡعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمۡۖ فَمَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقۡرَءُونَ كِتَٰبَهُمۡ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلٗا ٧١ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ٧٢﴾ [الإسراء: ٧١-٧٢].

الفوائد: الإمام هو الشخص الذي يتَّبعه الناس ويأتمُّون به، سواء كان إمام هداية أو ضلالة، ونبيُّ كل أمة إمام لها، وأما في القيامة فيُمكن أن يكون المراد من إمام الناس صحيفة أعمالهم بقرينة الجملة التي جاءت بعدها أي قوله تعالى: ﴿فَمَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَقۡرَءُونَ كِتَٰبَهُمۡ﴾ أن أصحاب اليمين يقرؤون كتابهم. فإن قيل: لماذا هم وحدهم يقرؤون كتابهم، مع أن كل شخص يجب أن يقرأ كتابه؟ والجواب: إن أصحاب الشمال إذا نظروا إلى كتابهم استولى عليهم الرعب والخوف فمنعهم ذلك من أن يقرؤوه بشكل جيد. أما أصحاب اليمين فإنهم يكونون سعداء ويقرؤون كتابهم بشكل كامل ويقولون لأهل

الـمحشر أيضًا: ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾ [الحاقة: ١٩].

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ٧٣ وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ٧٤ إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا ٧٥ وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ٧٦ سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا ٧٧﴾ [الإسراء: ٧٣-٧٧].

الفوائد: سبب نزول هذه الآيات أن الـمُشْرِكين قالوا لرسول الله ﷺ: لا ندعك تستلم الحجر الأسود حتى تستلم أصنام آلهتنا أيضًا، فحدَّث نفسَه وقال: ما عليَّ أن أُلِمَّ بها بعد أن يدعوني أستلم الحجر، والله يعلم أني لها كاره! فأبى الله تعالى ذلك وأنزل عليه هذه الآية.

وقيل: سبب النزول هو قول أكابر قريش للنبي ﷺ: كُفَّ عن شتم آلهتنا والتعرُّض لها بالسوء حتى نجلس معك ونسمع منك، فَهَمَّ بذلك حتى نُهي عنه. وفي رواية أخرى أن الآيات نزلت في وفد ثقيف: أتوا النبيَّ ﷺ فسألوه شططًا وقالوا: متعنا بآلهتنا سنة حتى نأخذ ما يُهدى لها، فإذا أخذناه كسرناها وأسلمنا، وحرِّمْ وادِيَنا كما حرَّمْتَ مكَّةَ حتى تعرف العرب فضلنا عليهم، فَهَمَّ رسولُ اللهِ ﷺ أن يعطيهم ذلك فنزلت هذه الآية[1]. وعلى كل حال، فإن هذه الآيات نهت رسول الله ﷺ عن الركون إلى الـمُشْرِكين وطاعتهم فيما يطلبونه منه لأن مثل هذا العمل قبيح جدًا بمن أوحى الله إليه وجعله رسوله إلى الخلق، وسبب لمضاعفة العذاب عليه، كما ذُكر في الآية، حتى إن الـمُشْرِكين كانوا يرغبون بإخراجه فأمره الله بالاستقرار وعدم الخروج.

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ٧٨ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ٨٠ وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ٨١﴾ [الإسراء: ٧٨-٨١].

١- انظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ١٠/ ٢٩٩- ٣٠٠، باختصار وتصرف.

الفوائد: فسَّر بعضهم عبارة: ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾ التي تعني لغةً زوال الشمس وميلها بمعنى غروب الشمس، وفسَّرها بعضهم بمعنى زوالها وميلها في وسط النهار أي وقت الظهر.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ على أهمية قيام الليل لأنه فرَّعَ عليه الحصول على المقام المحمود وجعله نتيجةً له. وقد كان قيام الليل واجبًا على رسول الله ﷺ وهو سنَّة مؤكدة جدًا على أمته.

وَالمُرَاد مِنْ: ﴿مُدۡخَلَ صِدۡقٖ﴾ و ﴿مُخۡرَجَ صِدۡقٖ﴾ في الآية الدخول في كل عمل وفي كل أمر سواءً كان الدخول في الأعمال أو الطاعات والعبادات أو الدخول في المدن والأماكن، وكذلك الخروج، لأن الآية مطلقة.

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ٨٢ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا ٨٣ قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا ٨٤ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾ [الإسراء: ٨٢-٨٥].

الفوائد: إن القرآنَ شِفَاءٌ من الأمراض الروحية. والأمراض الروحية قسمان:

الأول: العقائد الباطلة.

والثاني: الأخلاق الرذيلة.

وقد بيَّن القرآن الكريم معالجة كلا هذين النوعين من الأمراض الروحية.

وقدَّم الشفاءَ على الرحمة لأنه لابدّ في البداية من معالجة المرض وإزالة موانع السعادة عن الروح، ثم الاتجاه نحو التكامل والتحلّي بالكمالات الخُلُقية والروحية.

وَالمَقْصود مِنْ ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ أن الروح ليست من عالم الخلق بل من عالم الأمر، فعالم الخلق هو عالم الأجسام وعالم الأمر هو عالم المُجرَّدات وجواهر الأشياء.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ أن العلم البشري - حتى علم النبيّ ﷺ - لا يساوي شيئًا يُذكر بل هو في غاية الضآلة أمام علم الله.

﴿وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيۡنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّ فَضۡلَهُۥ كَانَ عَلَيۡكَ كَبِيرٗا ﴿٨٧﴾﴾ [الإسراء: ٨٦-٨٧].

الفوائد: بعد أن بيَّن الله تعالى أنه آتى رسوله ﷺ علمًا قليلاً، قال في هاتين الآيتين: حتى هذا العلم القليل، لو نشاء لذهبنا به من ذهنكَ فنسيتَه، ولكن فضل الله ورحمته عليك كبيرة لذلك أعطاك العلم وأبقاه في ذهنك فلا تنساه.

﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٨٩﴾ وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء: ٨٨-٩٣].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ﴾ أن القرآن معجزة كافية باقية، ولا حاجة إلى معجزة أخرى مع وجود هذه المعجزة. لكن المُشْرِكين أرادوا ست معجزات أخرى:

الأولى: أن تُفجِّر لنا من أرض مكة القاحلة التي لا ماء فيها، ينبوعًا من الماء الجاري!

الثانية: أن تُوجِد لنا بستانًا من أشجار النخيل والعنب وتُفجِّر الأنهار من بين أشجاره!

الثالثة: أن تقطع السماوات قطعًا قطعًا وتُسقطها فوق رؤوسنا وتُهلكنا، كما ظننتَ قدرتَكَ على ذلك وقلتَ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ﴿١﴾﴾ [الانشقاق: ١]. و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ﴿١﴾﴾ [الانفطار: ١]!

الرابعة: أن تُحضر لنا اللّهَ والملائكةَ حتى نرى بأعيننا أنهم يشهدون لك بالرسالة!

الخامسة: أن تخلق لنا بيتًا من ذهب!

السادسة: أن تُوجد لنا سلمًا نصعد به إلى السماوات، ولن نؤمن بمُجرَّد صعودك إلى السماء إلا

إذا أنزلت علينا من السماء كتابًا نقرؤه!

فقال الحقّ تعالى ردًّا عليهم: قل: لا تطلبوا مني هذه الأشياء فأنا غير قادر على القيام بها لأنني لست سوى بشر مثلكم ولو طلبتم هذه الأمور من الله فإن الله مُنزَّه عن القيام بأعمال فيها لغو وعبث لأن الإعجاز تحقق بوجود القرآن المعجزة، ولا حاجة بعد ذلك إلى تلك الأمور التي تطلبونها، والله ليس مطيعًا لرغباتي أو رغباتكم. يُراجع في ذلك الفقرة ٢٥ من المقدمة في الجزء الأول.

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾ [الإسراء: ٩٤-٩٦].

الفوائد: يجيبُ اللَّهُ تعالى في هذه الآيات الكريمة عن شُبهة الكفار الذين استبعدوا أن يبعث الله إلى الخلق رسولاً من البشر بل اعتقدوا أن الله تعالى لو أرسل رسولاً إلى الخلق لوجب أن يكون ذلك الرسول من الملائكة.

فأجاب الله تعالى عن هذه الشُّبهة من وجوه:

الأول: قوله: بما أن الناس إنما يؤمنون بكون الرسول رسولاً من عند الله لأجل قيام المعجز الدال على صدقه، فهذا المعجز سواء ظهر على يد المَلَكْ أو على يد البشر وجب الإقرار برسالته.

الثاني: أن أهل الأرض لو كانوا ملائكة لوجب أن يكون رسولهم من الملائكة لأن الجنس إلى الجنس أميل.

الثالث: أن الله تعالى لما أظهر المعجزة على وفق دعواي كان ذلك شهادة من الله تعالى على كوني صادقًا، ومَنْ شَهِدَ اللَّهُ على صدقه فهو صادق، فبعد ذلك قول القائل بأن الرسول يجب أن يكون مَلَكًا لا إنسانًا تحكُّمٌ فاسدٌ لا يُلتفَتُ إليه[1].

---

١ - هذه الوجوه الثلاثة مستفادة من **التفسير الكبير** للفخر الرازي، ٢٠/ ٥٩- ٦٠، باختصار وتصرف.

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [الإسراء: ٩٧-٩٩].

الفوائد: تَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ على أن كل من طلب الهداية، هداهُ اللَّهُ، فهذه الآية ونظائرها تُوضِّح وتُبيِّن معنى الآيات الأخرى التي يقول تعالى فيها: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ إذ تُبيِّن أن هداية كل إنسان رهينة بإرادته ورغبته.

وتحتمل جملة: ﴿قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ معنيين ولكن المعنى الأول أظهر:

المعنى الأول: أن الله القادر على خلق السماوات والأرض، قادر على إماتتهم وأن يخلق مثلهم يعني أن يُعيدهم يوم القيامة، لأن الإعادة مثل الابتداء.

المعنى الثاني: أن الله قادر على أن يخلق عبيدًا آخرين مثلهم يُوحِّدونه ويُقِرُّون بكمال حكمته وقدرته [ويتركون ذكر هذه الشُّبهات الفاسدة]. وفي جميع الأحوال، فإن ضمير ﴿مِثْلَهُمْ﴾ يعود على الكفار.

﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الإسراء: ١٠٠-١٠٤].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أن فِرعون كان يعلم أن الآيات البيِّنات التي أتى بها موسى ﵇ هي من عند الله، ولكنه كان يجحد

ذلك ولا يعترف به حفاظًا على رئاسته، مثل كثير من الناس في زماننا الذين اتخذوا الدين حانوتًا يتكسَّبون بواسطته، فعندما تُناقشهم تشعر أنهم يعلمون الحقّ ولكنهم لا يُقِرُّون به حفاظًا على مُريديهم وجاههم.

وَالـمَقْصود مِنْ جملة: ﴿جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفًا﴾ جئنا بكم من قبوركم إلى الـمحشر أخلاطًا يعني أن جميع الخلق: الـمسلم والـمؤمن والـمشرك والكافر والبرُّ والفاجر كلهم يُحشرون مع بعضهم يوم القيامة، ثم يُفصل بينهم هنالك.

﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ١٠٥ وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ١٠٦ قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَۤ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗا ١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا۩ ١٠٩﴾ [الإسراء: ١٠٥-١٠٩].

الفوائد: بعد أن بيَّن الله تعالى شُبهات الكفار وإنكارهم، قال في هذه الآيات: إن هذا القرآن نزل بالحقّ والحقيقة، وأنت أيها الرسول أُرْسِلْتَ بمُهِمَّة التبشير والإنذار وليس لديك مُهمَّة سوى ذلك، فمن شاء آمن ومن شاء كفر.

هذا ولما كان القرآنُ يتنزَّلُ من عند الله بشكلٍ متفرِّقٍ وتدريجيٍّ، قال الكفار: إن في نزوله مُفَرَّقًا شبهةَ أن يكون محمَّدٌ هو الذي يختلقه، لأنه لو كان من جانب الله لما عجز الله عن إنزاله دفعةً واحدةً. فأجاب الله تعالى عن شُبهتهم هذه بقوله: إن في نزول القرآن بشكل متفرق وتدريجي مصلحة، وإن العلماء الذين كانوا قبل نزول القرآن لما سمعوا آياته أدركوا أنه حقٌّ وخرُّوا سُجَّدًا لصاحب القرآن – أي الله تعالى – واستسلموا له وخضعوا له.

﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا ١١٠ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا

وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾
[الإسراء: ١١٠-١١١].

الفوائد: كان الـمُشْرِكُون يقولون: إن محمدًا يقول: إن ربّي واحد مع أنه يدعو إلهين فأحيانًا يدعو الله وأحيانًا يدعو الرحمن! فقال الحقّ تعالى: سواء دعوتم الله أو دعوتم الرحمن فأنتم تدعون ذاتًا واحدةً ومُسمًّى واحدًا وإن كان له أسماء عديدة. ويُسْتَفَادُ مِنْ هذه الآية عدة أمور:

الأول: أنه لو دعا الإنسان أسماءً متعددةً وكان مقصوده مُسمًّى واحدًا لما كان هناك إشكال في ذلك، لأنه ليس بشرك، أما لو دعا الإنسان الاسمَ دون توجه للمُسمَّى فلا يجوز وهو شرك لأن الأسماء متعددة.

الثاني: أنه ينبغي ذِكر أسماء الله الحسنى قبل الدعاء.

الثالث: أن لا تُطلق أسماء غير حسنة على الله.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا...﴾ أنه لا يجوز رفع الصوت والصراخ في الصلاة والدعاء. وبالـمقارنة مع جملة ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ يُسْتَفَادُ أن الجهر القليل جائز بشرط أن يكون معتدلاً.

ومعنى ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ النهي عن دعاء الله بصوت خافت جدًا إلى حدّ عدم سماع الداعي أو القارئ صوت نفسه، بل عليه أن يُراعي أن لا يكون صوته مرتفعًا ولا أن يكون منخفضًا إلى درجة لا يسمعها هو نفسه.

سورة الكهف

مدنيّة وهي مئة وعشر آيات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ﴿١﴾ قَيِّمٗا لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدٗا ﴿٣﴾﴾ [الكهف: ١-٣].

الفوائد: لما كان نزول القرآن نِعمةً كبيرة حَمِدَ اللَّهُ تعالى ذاته العلية على إنزاله كي يفهم العباد نِعمة القرآن العظيمة ويَقْدُرُوهُ حقّ قدره ويحمدوا الله تعالى عليه.

وتدل كلمة: ﴿عِوَجَا﴾ أن القرآن كتاب كامل لا يتطرق إليه أي نقص أو اعوجاج أو انحراف أو باطل.

وتدل كلمة: ﴿قَيِّمَا﴾ أن القرآن علاوةً على أنه كامل، مكمل للآخرين أيضًا.

وتدل عبارة ﴿لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا...﴾ أن أفعال الله معللة بالأغراض والغايات وليست عبثًا وسُدىً، بل الله حكيم في كل أفعاله، ولإنزاله الكتاب هدف وغاية.

﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ [الكهف: ٤-٦].

الفوائد: الإنذار في الآية الأولى عام في حقّ كل من استحق العذاب أي عام في كل كفر

وعصيان، أما الإنذار هنا فخاصٌّ بمن أثبت لِلَّهِ ولدًا، وعادة القرآن جارية بأنه إذا ذكر قضيةً كليةً عطف عليها بعض جزئياتها تنبيهًا على كونه أعظم جزئيات ذلك الكليّ. ويُشبه ذنب الـمُثبتين الولد لِلَّهِ تعالى ذنب القائلين بأن لِلَّهِ خليفة. لأنه مثلما أن وجود الابن لِلَّهِ محال ونقص، كذلك وجود الخليفة لِلَّهِ محال ونقص، وأصلاً امتلاك الولد إنما يكون بهدف أن يخلف الولد أباه، فكما أن إثبات الولد لِلَّهِ منشؤه عدمُ العلمِ والجهلُ -كما قال تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ﴾- كذلك القول بأن لِلَّهِ خليفة منشؤه عدم العلم والجهلُ أيضًا.

واعلم أن الناس اختلفوا في حقيقة الكذب، فعرَّفوا الكذب على نحوين: **الأول**: أن الكذب هو الكلام الـمخالف للواقع مع علم قائله بأنه غير مطابق للواقع. **والثاني**: أن الكذب هو الكلام الـمخالف للواقع سواءً علم قائله بمخالفة كلامه للواقع أم لا. وجملة: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ تؤكد القول الثاني لحقيقة الكذب.

﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا ٨﴾ [الكهف: ٧-٨].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ أن الله خلق الحيوانات والأشجار والنباتات في الأرض لأجل الإنسان، كي يمتحن البشر وَيَتَبَيَّنَ الـمحسن والـمسيء، وأن الله لم يخلق ما على الأرض عبثًا أو سدىً بل له هدف من الخلق.

وَتَدُلُّ جملةُ: ﴿صَعِيدٗا جُرُزًا﴾ أن الأرض سوف تصبح ﴿قَاعٗا صَفۡصَفٗا﴾ مرتين، وستصبح يوم القيامة أرضًا قفرًا بلا أي زينة عليها.

﴿أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ٩ إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا ١٠ فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا ١١ ثُمَّ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِنَعۡلَمَ أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ أَحۡصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدٗا ١٢﴾ [الكهف: ٩-١٢].

الفوائد: سبب نزول قصة أصحاب الكهف [كما ذكر محمد بن إسحاق]: أن النضر بن

الحارث كان من شياطين قريش، وكان يؤذي رسول الله ﷺ وينصب له العداوة، وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث رستم واسفنديار، وكان رسول الله ﷺ إذا جلس مجلسًا ذكر فيه الله وحدَّث قومه ما أصاب من كان قبلهم من الأمم، كان النضر يخلفه في مجلسه إذا قام، فيقول: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثًا منه، فهلموا فأنا أحدثكم بأحسن من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس. ثم إن قريشًا بعثوه وبعثوا معه عتبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة وقالوا لهما: سلوهم عن محمَّد وصفته وأخبروهم بقوله فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم من العلم ما ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا حتى قدما إلى المدينة فسألوا أحبار اليهود عن أحوال محمد فقال أحبار اليهود: سلوه عن ثلاث:

١- عن فتية خرجوا من بين الناس في الدهر الأول لأجل حفظ دينهم.

٢- وعن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه؟

٣- وسلوه عن الروح ما هي؟

فإن أخبركم فهو نبيٌّ وإلا فهو مُتَقَوِّلٌ، فلما قدم النضر وصاحبه مكة قالا: قد جئناكم بفصل ما بيننا وبين محمد، وأخبروا بما قاله اليهود فجاؤوا رسول الله ﷺ وسألوه.

فقال رسول الله ﷺ: «أخبركم بما سألتم عنه غدًا» ولم يستثن (أي لم يقل إن شاء الله)، فانصرفوا عنه ومكث رسول الله ﷺ فيما يذكرون خمس عشرة ليلة – وقيل: أربعين يومًا – لا يُحدِث الله إليه في ذلك وحيًا، ولم يستطع الإجابة، حتى أرجف أهل مكة به، وقالوا: وعدنا محمَّدٌ غدًا واليوم خمس عشرة ليلة، فشق عليه ذلك، ثم جاءه جبريل من عند الله بسورة الكهف وفيها خبر ما سألوه عنه من أمر الفِتْيَة والرجل الطوّاف[1].

والكهف: الغار الواسع في الجبل، فإذا صَغُر فهو الغار.

وفي جملة ﴿أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ﴾ جاء الرقيم معطوفًا بواو العطف على أصحاب الكهف، مما يعني أن أصحاب الرقيم غير أصحاب الكهف.

١- انظر: الطبري، **جامع البيان**، ١٧/ ٥٩٣، والفخر الرازي، **مفاتيح الغيب**، ٢١/ ٨٢ باختصار وتصرف يسير.

وقال بعضهم: إن الرقيم لوح من حجارة وقيل: من النحاس أو الذهب نُقِشَت فيه قصة أصحاب الكهف وعددهم وأسماؤهم وعُلِّق على باب الغار أو نصب عليه، وقيل: الرقيم معناه المرقوم، سُمِّيَ بذلك لأن أخبار أهل الكهف رُقِمَت - أي كُتِبَتْ - فيه[1].

ورُوِيَ عن رسول الله ﷺ: إنّ ثلاثة نفر خرجوا يرتادون لأهليهم، بينا هم يمشون إذ أصابتهم السماء، فأووا إلى كهف فسقطت صخرة من الجبل فانطبقت على باب الكهف فانقفل عليهم، فقال قائل منهم: اذكروا أيّكم عمل حسنةً لعل الله برحمته يرحمنا. فقال رجل منهم: قد عملتُ حسنةً مرَّةً، كان لي أُجراء يعملون عملاً استأجرت كل رجل منهم بأجر معلوم، فغضب أحدهم وذهب وترك أجره، فوضعت حقَّهُ في جانب من البيت ما شاء الله، ثمّ نزل بي بعد ذلك بَقَرٌ فاشتريتُ به فصيلةً من البقر، فبَلَغَتْ ما شاء اللَّهُ، فمرّ بي بعد حينٍ شيخٌ ضعيف لا أعرفه، فقال لي: إنّ لي عندك حقًا. فَذَكَرَهُ حتى عرفتُهُ، قلتُ: إيّاك أبغي وهذا حقّك. فعرضتها عليه جميعًا. فقال: يا عبد الله! لا تسخر بي إن لم تتصدّق علي فأعطني حقي. قلت: والله لا أسخر، إنها لحقك ما لي فيه شيء، فدفعتها إليه. اللّهم إن كنت فعلت ذلك لوجهك فافرج عنّا. فانْصدَعَ الجبل حتى رأوا الضوء فأبصروا.

وقال الآخر: قد عملتُ حسنةً مرَّةً، كانت لي فضل، وأصاب النّاس شدّة (أي قحط ومجاعة)، فجاءتني امرأةٌ جميلةٌ تطلب مني قمحًا لدفع جوعها وجوع أولادها، فقلت: والله ما هو دون نفسك. فأبت عليَّ، وذهبت ورجعت ثلاث مرات وقلت: لا والله ما هو دون نفسك. فأبت عليّ وذهبت، وذكرت لزوجها، فقال لها: أعطيه نفسك وأغيثي عيالك. فرجعت إليّ ونشدتني بالله، فأبيت عليها وقلت: والله ما هو دون نفسك. فلّما رأت ذلك أسلمت إليّ نفسها، فلّما تكشّفتها وهممت بها ارتعدت من تحتي، فقلت لها: ما شأنك؟ قالت: أخاف الله رب العالـمين. فقلت لها: خفتِه في الشدّة ولم أخفه في الرخاء، فتركتُها وأعطيتُها ما يحق عليّ بما تكشفتها. اللهمّ إن كنت

---

١ - الرقيم: فعيل، أصله: مرقوم، ثم صُرف إلى فعيل، كما قيل للمجروح: جريح، وللمقتول: قتيل. والرّقم: الخط والعلامة، والرقم: الكتابة، يقال منه: رقمتُ كذا وكذا: إذا كتبتُهُ.

فعلت ذلك لوجهك فافرج عنا. فانصدع حتى تعارفوا وتبيّن لهم.

وقال الآخر: قد عملتُ حسنةً مرَّةً، كان لي أبوان شيخان كبيران، وكان لي غنم، فكنت أُطعم أبويَّ وأسقيهما ثمّ أرجع إلى أهلي. قال: فأصابني يومًا غيث حبسني حتى أمسيت فأتيت أهلي فأخذت محلبي وحلبت غنمي وتركتها قائمةً فمضيت إليهما، فوجدتهما ناما، فشقّ عليَّ أن أُوقظهما، وشقّ عليَّ أن أترك غنمي، فما برحت جالسًا ومحلبي على يدي حتى أيقظهما الصبح فسقيتهما. اللهم إن كنت فعلت ذلك لوجهك فافرج عنّا. فانزاحت الصخرة وفرج الله عنهم وخرج الثلاثة من الغار[1].

قصة أصحاب الكهف

وأما قصة أصحاب الكهف فكما يلي: مرج أهل الإنجيل وعظمت فيهم الخطايا وطغت فيهم الملوك حتى عبدوا الأصنام وذبحوا للطواغيت، [وفيهم بقايا على دين المسيح ابن مريم عليه السلام، متمسكون بعبادة الله عزّ وجّل وتوحيده]. وكان ممّن فعل ذلك من ملوكهم ملكٌ من الروم يُقال له «دقيانوس» أو «طغيانوس» كان قد عبد الأصنام وذبح للطواغيت وأجبر الناس على فعل ذلك وقتل من خالفه في ذلك من الموحِّدين [ممّن أقام على دين المسيح].

إلى أن اجتمع في البادية ستَّة نفر من الشباب اليافع من أهل المدينة من أشراف الرّوم فبكوا وتضرّعوا إلى الله عز وجّل يسألونه أن ينجيهم من دقيانوس وفئته. فلما علم دقيانوس بأمرهم أمر بإحضارهم، وهدَّدهم إما أن تكونوا على ديني [وتذبحوا للآلهة كما يذبح النّاس] وإما أن أقتلكم. فقالوا: [إن لنا إلهًا ملأ السماوات والأرض عظمته]، لن ندعو من دونه إلهًا أبدًا، ولن نقرّ

١- القصة مشهورة رواها البخاري ومسلم والنسائي عن ابن عمر وأبي هريرة، ورواها أيضًا كثير من المفسرين بألفاظ متقاربة ومتشابهة لكنها تختلف قليلاً عن هذا اللفظ الذي ذكره المؤلف، ورواها من الشيعة: الشيخ الصدوق (ابن بابويه القمي) في كتابه «**الخصال**»، ج ١ / ص ١٨٤- ١٨٥، والشيخ الطوسي في «**الأمالي**»، ص ٣٩٦. أما هذا اللفظ الذي أورده المؤلف فهو في تفسير **الكشف والبيان**، للثعلبي النيسابوري، ج ٦/ ص ١٤٥-١٤٦، باختصار وشيء من التصرف اليسير أيضًا.

بهذا الذي تدعونا إليه أبدًا، ولكنّا نعبد الله ربّنا وحده ولا نعبد سواه.

فقال دقيانوس: أمّا إذا فعلتم فإنّي سأؤخركم، وسأفرغ لكم فأُنجز لكم ما وعدتكم من العقوبة، وما يمنعني أن أعجِّل ذلك لكم إلاّ أني أراكم شبابًا، حديثة أسنانكم، ولا أُحب أن أُهلككم حتى أجعل لكم أجلاً تذكّرون فيه، وتراجعون عقولكم.

فاجتمع أولئك الفتية إلى بعضهم سِرًّا، واختاروا الفرار. وائتمروا بينهم أن يأخذ كلّ رجل نفقةً من بيت أبيه فيتصدقوا بها ويتزوّدوا مما بقي، ثمّ ينطلقوا إلى كهف قريب من المدينة في جبل فيمكثون فيه، ويعبدون الله عزّ وجلّ.

ومرُّوا في طريقهم إلى الكهف براعٍ معه كلبٌ فلما عرف الراعي بحالهم قال لهم: إني على دينكم، فاصطحبوه معهم وطردوا الكلب فنبح الكلب وعاد عليهم وكلما طردوه لحق بهم فأخذوه الكلب معهم أيضًا، حتى وصلوا إلى الجبل. فقال الراعي: أعرف في الجبل كهفًا يمكننا أن نلجأ إليه. فأووا إلى الكهف، وهو قريب من البلدة، فلبثوا فيه ونام الكلب على فم الغار، واشتغل الفتية بالصلاة والتسبيح والتكبير والتّحميد ابتغاء وجه الله تعالى، فجعلوا نفقتهم إلى فتىً منهم يُقال له «تمليخا»، فكان على طعامهم يبتاع لهم أرزاقهم من المدينة سرًّا، وكان من أجملهم وأجلدهم. [فلبثوا بذلك ما لبثوا، ثمّ قدم دقيانوس الجبّار إلى المدينة فأمر العظماء فذبحوا للطواغيت، ففزع من ذلك أهل الإيمان، [وكان تمليخا بالمدينة يشتري لأصحابه طعامهم وشرابهم، فرجع إلى أصحابه وهو يبكي ومعه طعام قليل، فأخبرهم أنّ الجبّار دقيانوس قد دخل المدينة، وأنهم ذُكروا والتُمسوا مع عظماء المدينة ليذبحوا للطواغيت. فلما أخبرهم فزعوا] ووقعوا سجودًا يدعون الله عز وجّل ويتضرّعون ويتعوّذون به من الفتنة. فبينا هم على ذلك إذ ضرب الله على آذانهم في الكهف فأنامهم فيه ٣٠٩ سنوات. فلما كان من الغد تفقّدهم دقيانوس والتمسهم فلم يجدهم، فأرسل إلى آبائهم فسألهم عنهم، فقال: أخبروني عن أبنائكم المردة الذين عصوني. فقالوا له: أمّا نحن فلم نعصك، فلم تقتلنا بقوم مردة قد ذهبوا بأموالنا وأهلكوها في أسواق المدينة؟ إننا لا ندري أين ذهبوا! يُقال: إنهم ذهبوا إلى كهف في وسط جبلٍ. فلما قالوا له ذلك خلّى سبيلهم. وأمر دقيانوس بالكهف أن يُسَدَّ عليهم، وقال: دعوهم كما

هم في الكهف يموتوا عطشًا وجوعًا، وليكن كهفهم الذي اختاروا قبرًا لهم. ورأى أحد الرعاة يومًا ذلك الغار وعليه السد فقام بهدم السد ليتخذ من الغار حظيرةً لغنمه، لكنه لما أراد الدخول في الغار خاف وانصرف.

وبعد ٣٠٩ عامًا أذن الله عز وجّل بالقدرة والعظمة والسلطان محيي الموتى للفتية أن يستيقظوا من نومهم فجلسوا بين ظهراني الكهف، وسلّم بعضهم على بعض كأنما استيقظوا بعد يوم أو نصف يوم من النوم. وشعر بعضهم أنهم ناموا مدَّةً طويلةً فقالوا: الله أعلم كم لبثنا في هذا الكهف وكم نمنا فيه! ثم قالوا لتمليخا صاحب نفقتهم: انطلق إلى المدينة فتسمّع ما يقال (عنّا) بها اليوم وما الذي نُذكر به عند دقيانوس، وتلطف ولا تشعرنّ بنا أحدًا، وابتع لنا طعامًا فائتنا به، فإنه قد نالنا الجوع. ففعل تمليخا كما كان يفعل، ووضع ثيابه، وأخذ الثياب التي كان يتنكّر فيها، فأخذ ورقًا من نفقتهم الّتي كانت معهم التي ضربت بطابع دقيانوس.

فلما رأى تمليخا باب المدينة رفع بصره فرأى فوق ظهر الباب علامة تكون لأهل الإيمان، فلمّا رآها عجب وجعل ينظر إليها مستخفيًا، فنظر يمينًا وشمالاً ثمّ ترك ذلك الباب فتحوّل إلى باب آخر من أبوابها فنظر فرأى مثل ذلك، فجعل يخيّل إليه أن المدينة ليست بالتي كان يعرف ورأى ناسًا كثيرًا محدثين لم يكن رآهم قبل ذلك، فجعل يمشي ويعجب ويخيل إليه أنه حيران، ثمّ رجع إلى الباب الذي أتى منه، فجعل يتعجب منه ومن نفسه ويقول: ليت شعري أمّا هذه عشية أمس فكان المسلمون يخفون هذه العلامة ويستخفون بها، فأما اليوم فإنها ظاهرة فلعلّي حالم ثمّ يرى أنه ليس بنائم، . ثمّ لقي فتىً من أهل المدينة، فقال: ما اسم هذه المدينة يا فتى؟ قال: أفسُوس. فعرف أنها هي المدينة التي كانوا فيها لكن أهلها قد تغيروا!.

فدنا من الذين يبيعون الطعام فأخرج الورق (أي الدراهم) التي كانت معه فأعطاها رجلاً منهم، فقال: يا عبد الله! بعني بهذا الورق طعامًا. فأخذها الرجل فنظر إلى ضرب الورق ونقشها، فرأى أنها سكَّة من مسكوكات الملك دقيانوس فعجب منها وقال للفتى: من أين أتيتَ بهذه السكَّة؟ فقال له تمليخا: ما شأنك بذلك، أعطني الطعام بها وحسب. فأراها البائع إلى رجل من أصحابه، فنظر إليها. ثمّ جعلوا يتطارحونها من رجل إلى رجل، ويعجبون منها، وانتشر الأمر في

المدينة، وقالوا: لعله وجد كنزًا من كنوز الأوّلين، فانطلقوا به إلى رئيس المدينة فلما انطلقوا به ظن تمليخا أنه يُنطلق به إلى طغيانوس الجبار ملكهم الذي هربوا منه، فازداد خوفه وأخذ يناجي الله ويتضرَّع إليه ويلجأ إليه من شر طغيانوس.

ولما رأى تمليخا أنه لم يُذهَب به إلى دقيانوس أفاق وسكن عنه البكاء، وأخذ الحاكم الدراهم وقال: أيها الفتى! اصدقني القول، أين وجدت هذا الكنز؟ هذا الورق يشهد عليك أنك وجدت كنزًا. فقال لهم تمليخا: ما وجدت كنزًا، ولكن هذا الورق ورق آبائي ونقش هذه المدينة وضربها، وقد أخرجت هذه الدراهم من منزل أبي. فقالوا له: فمن أنت؟ ومن أبوك؟ فأنبأهم باسمه واسم أبيه فلم يجدوا أحدًا يعرفه، ولا أباه، فقال بعض من حوله: هذا رجل مجنون. وقال بعضهم: ليس بمجنون، ولكن يحمّق نفسه عمدًا لينفلت منكم. فقال له أحدهما، ونظر إليه نظرًا شديدًا: أتظن أنا نرسلك ونصدقك بأن هذا مال أبيك وضرب هذا الورق ونقشها أكثر من ٣٠٩ سنوات، وأنت غلام شاب تظن أنك تأفكنا وتسخر بنا، ونحن شُرَط كما ترى، وحولك سراة أهل المدينة وولاة أمرها، وخزائن هذه البلدة بأيدينا، وليس عندنا من هذا الضرب درهم ولا دينار؟ إنني لأظنني سآمر بك فتعذّب عذابًا شديدًا ثمّ أُوثقك حتى تعترف بهذا الكنز الذي وجدت.

فلمّا قال له ذلك، قال تمليخا: أنبئوني عن شيء أسألكم عنه، فإن فعلتم صدّقتم ما عندي. قالوا له: سل، ما نكتمك شيئًا. فقال: ما فعل الملك دقيانوس؟ قالا له: ليس نعرف ملكًا يُسمى دقيانوس على وجه الأرض، ولم يكن إلاّ ملكًا قد هلك منذ ٣٠٩ أعوام وهلكت بعده قرون كثيرة. قال لهم تمليخا: فوالله ما هو بمصدّقي أحد من الناس بما أقول، لقد كنا فتية، وإن الملك أكرهنا على عبادة الأوثان والذبح للطواغيت فهربنا منه لأنه كان يمنعنا من اتِّباع دين المسيح. فذهبنا ونمنا في الكهف، فلما انتبهنا خرجت لأشتري لأصحابي طعامًا فإذا أنتم تتهمونني أنني وجدت كنزًا فإن لم تصدِّقوا كلامي فانطلقوا معي إلى الكهف الذي نمنا فيه أُرِكم أصحابي. فلما سمع حاكم المدينة ما قاله تمليخا، قال: يا قوم لعلّ هذه آية من آيات الله عزّ وجلّ جعلها لكم على يدي هذا الفتى، فانطلقوا بنا معه يُرِنا أصحابه كما قال. وانطلق معهم أهل المدينة كبيرهم

وصغيرهم نحو أصحاب الكهف ينظرون إليهم.

ولمّا رأى الفتية أصحاب الكهف أن تمليخا قد احتبس عليهم بطعامهم وشرابهم عن القدر الذي كان يأتي به، ظنوا أنه قد أُخِذ، فذُهب به إلى ملكهم دقيانوس الذي هربوا منه، فبينا هم يظنون ذلك ويتخوفون إذ سمعوا الأصوات وجلبة الخيل مصعدة نحوهم، وظنوا أنهم رسل دقيانوس الجبّار وأنه بعث إليهم ليؤتى بهم، فقاموا حين سمعوا ذلك إلى الصلاة، وسلّم بعضهم على بعض، وقالوا: انطلقوا بنا نأتِ أخانا تمليخا، فإنه الآن بين يدي الجبّار دقيانوس ينتظر متى نأتيه، فبينا هم يقولون ذلك، وهم جلوس بين ظهراني الكهف، فلم يروا إلاّ أرموس وأصحابه وقوفًا على باب الكهف، وسبقهم تمليخا فدخل عليهم وهو ويبكي، فلما رأوه يبكي، بكوا معه وسألوه عن شأنه، فأخبرهم بخبره وقصَّ عليهم النبأ كلّه فعرفوا عند ذلك أنهم كانوا نيامًا بأمر الله ذلك الزمان كلّه، وإنما أُوقظوا ليكونوا آية للناس، وتصديقًا للبعث، وليعلموا أن الساعة آتية لا ريب فيها.

ثمّ دخل على إثر تمليخا أرموس فرأى تابوتًا من نحاس مختومًا بخاتم من فضة فقام بباب الكهف، ثمّ دعا رجالاً من عظماء المدينة ففتح التابوت عندهم فوجدوا فيه لوحين من رصاص مكتوبًا فيها: أسماء الفتية وأنسابهم وأنهم كانوا فتيةً في التاريخ الفلاني هربوا من ملكهم دقيانوس الجبار مخافة أن يفتنهم عن دينهم، فدخلوا هذا الكهف، فلمّا أُخبر بمكانهم أمر بالكهف فسدّ عليهم بالحجارة، وإنا كتبنا شأنهم وخبرهم ليعلمه مَن بعدهم إن عثروا عليهم.

فلمّا رأوه عجبوا وحمدوا الله الذي أراهم آية البعث فيهم، ثمّ إنهم رفعوا أصواتهم بحمد الله وتسبيحه، ثمّ دخلوا على فتية الكهف فوجدوهم جلوسًا بين ظهرانيه مشرقة وجوههم، لم تَبْلَ ثيابهم، فخرّ أرموس وأصحابه سجّدًا، وحمدوا الله الذي أراهم آية من آياته، ثمّ كلّم بعضهم بعضًا وأنبأهم الفتيةُ عن الذي لقوا من ملكهم دقيانوس.

ثمّ إن حاكم المدينة وأصحابه بعثوا بريدًا إلى ملكهم الصالح تيدوسيس أن عجِّل، لعلك تنظر إلى آية من آيات الله جعلها الله على مُلْكِكَ.

ومن القدر أن ذلك الملك كان ملكًا صالحًا وكان قد سأل الله تعالى أن يريه ويري منكري

القيامة قدرته على إحياء الـموتى. فلما رأى الـملك الصالح ومن معه تلك الآية والقدرة الإلـهية خرّوا سجّدًا على وجوههم، وقام الـملك بمعانقة أصحاب الكهف وبكى، وهم جلوس بين يديه على الأرض يسبّحون الله عزّ وجلّ ويحمدونه، ثمّ قال الفتية لتيدوسيس: نستودعك الله، ونقرأ عليك السلام، ونسأل الله تعالى أن يعيدنا إلى حالتنا الأولى.

فبينا الـملك قائم إذ رجعوا إلى مضاجعهم فناموا وتوفّى الله أنفسهم، وقام الـملك إليهم فجعل ثيابه عليهم وأمر أن يُجْعَل لكل رجل منهم تابوتٌ من ذهب، فلما أمسوا ونام أتوه في الـمنام فقالوا: إنّا لم نخلق من ذهب ولا فضّة، ولكنا خلقنا من تراب وإلى التراب نصير، فاتركنا كما كنّا في الكهف على التراب حتى يبعثنا الله عزّ وجلّ منه. فأمر الـملك حينئذ بتابوت من ساج فجعلوا فيه وحجبهم الله تعالى حين خرجوا من عندهم بالرعب، فلم يقدر أحد على أن يدخل عليهم، وأمر الـملك فجُعل على باب الكهف مسجدٌ يُصلّى فيه، وسدَّ باب الغار[١].

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ أن اليهود وكذلك رسول الله ﷺ نفسه كانوا يتعجَّبون من سماع قصَّة أصحاب الكهف. وقال الحق تعالى: إنك تظن أن هذه القصة من آياتنا العجيبة مع أنها ليست بشيء بجانب قدرتنا وبجانب الآيات الأخرى.

والـمرَادُ مِنْ جُمْلَةِ: ﴿أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾ الفريقان من الـمسلمين أو من الناس الآخرين الذين اختلفوا في مقدار مكث أصحاب الكهف فيه، ومن الـممكن أن يكون الـمُراد أصحاب الكهف أنفسهم الذين انقسموا فريقين ولم يكونوا يعرفون، عندما استيقظوا، كم طال نومهم فيه؟ فقال عددٌ منهم: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾.

ويمكن أن تكون كلمة ﴿أَحْصَىٰ﴾ فعل ماضي، ويمكن أن تكون اسم تفضيل، وعلى الحالين لا إشكال في ذلك.

١- أورد الـمؤلف هذه القصة بهذا السياق نقلاً عن تفسير **الكشف والبيان** للثعلبي النيسابوري، ج٦/ ص ١٤٨ إلى ١٥٨، بحذف وتلخيص واختصار وتصرفات يسيرة.

بحث تحقيقي

لاشك أنَّ الـمعجزةَ وخرقَ العادة فعلُ الله لا فعلُ الـمخلوقِ، لأن الذي خلق قوانين الطبيعة يمكنه أن يتصرف فيها ويزيلها حين يشاء وينزع العِلِّيَّة من العلل، ويخرق العادة، ولا يستطيع كائن آخر فعل ذلك سوى الله. وقد صنع الله الـمعجزات لتكون شاهدًا مِنْ قِبَلِهِ على صدق أنبيائه ومرسَلِيهِ، ولا تثبت الـمعجزات لغير الأنبياء والـمرسلين.

واستدلَّ الصوفية وجماعات من أهل السنة، والشيعة الإمامية كذلك، بآيات قصة أصحاب الكهف على أن الكرامات جائزة للأولياء والأئمَّة عليهم السلام، ثم نسب كل فريق منهم آلاف الـمعجزات والكرامات لعظماء دينه وأئمته، أكثرها كذب بلا ريب. بل نسبوا إمكانية إظهار الخوارق لبعض أئمة الكفر الذين ادَّعوا الإلـهية مثل فرعون والدجَّال. والسؤال هو:

أولاً: هل يمكن أن نثبت الكرامات لمن يدَّعي – صادقًا أم كاذبًا – الولاية والتقرُّب من الله أم لا؟

وثانيًا: إننا نرى أن كل فرقةٍ من الفرق التي تدّعي لعظمائها وأئمتها الـمعجزات، أو قُلْ: الكرامات، تُكَذِّبُ بالكرامات التي تدعيها الفرق الأخرى لأئمتها وعظمائها، فالشيعة مثلاً يقولون: إن كرامات أئمة أهل السنة كلها كذب! وفي الـمقابل يقول أهل السنة: إن كرامات أئمة الشيعة كلها كذب! وكذلك يقول الشيعة: إن كرامات أقطاب التصوُّف كذبٌ! أو كرامات عظماء الـمسيحيين أو البوذيين أو الفرق الأخرى كذبٌ! وفي الـمقابل تقول تلك الـملل والفرق عن كرامات عظماء أهل الإسلام: إنها كذبٌ! فعلينا أن نرى هل ثمَّة أدلة عقلية أو قرآنية على ثبوت الكرامات أم لا؟ فإن كان ثمَّةَ أدلةٌ أقررنا بالكرامات وإلا فلا. بل حتى لو أثبتنا إمكان وقوع الكرامات فهذا لن يكفي وحده لإثبات الوقوع الفعلي لها [لأن الإمكان أعم من الوقوع] بل لا بد من إثبات وقوع كل كرامة نُسِبَتْ إلى شخص بشكل خاص.

ونقول في البداية إن قصة أصحاب الكهف لا تدل على ثبوت الكرامات لأولياء الله لما يلي:

أولاً: لا يمكن قياس أولياء الله الآخرين على أصحاب الكهف.

ثانيًا: لم يَتَبَيَّن كون أصحاب الكهف من أولياء الله إلا بعد أن وقعت قصتهم ونقلها القرآن،

عندئذٍ وبعد وفاتهم تبيَّنَ أنهم كانوا أولياء لِلَّهِ، أما الأحياء أو الذين يدَّعون التقرُّب إلى الله ويقولون عن أنفسهم: إنهم أولياء الله، فإن قولهم هذا بحد ذاته دليل على عُجْبِهِم بأنفسهم وعدم قربهم من الله!

وثالثًا: لم تَثْبُتْ في قصَّة أصحاب الكهف كرامةٌ لهم على نحو فيه إثبات فضل لهم على سائر الناس، بل الذي ثبت في قصَّتهم هو أن الله تعالى هو الذي قام بخرقِ العادة فيهم ولا علاقة لأصحاب الكهف أنفسهم بذلك.

وعلى كل حال، ذكر أهل كل مذهب كرامات عديدة لعظمائه، أكثرها يُخالف العقل، ورُواتها أنفسهم فسقة فاجرون.

نحن نعلم مثلاً أن رسول الله ﷺ اختفى في غار ثور خوفًا من مشركي مكة الذين كانوا يُلاحقونه ويُريدون قتله، ومكث مختفيًا في الغار ثلاثة أيام ثم هاجر إلى المدينة وتجشَّم الصعاب والعناء الشديد حتى قطع المسافة إلى المدينة ولم تكن لديه القدرة على طيِّ الأرض في حين أن الشيعة والصوفية ينسبون إلى مئات الأشخاص القدرة على طيِّ الأرض. من ذلك قولهم: إن عليًّا عليه السلام طوى الأرض وذهب في لحظة من المدينة إلى المدائن ليُصلِّي على جنازة سلمان، أو أن الإمام الجواد طوى الأرض من المدينة إلى طوس ليُصلِّي على جثمان الإمام الرضا عليه السلام. ومحمد بن أسلم الطوسيّ طوى الأرض من نيسابور إلى مصر، وهكذا ...

أو أننا نعلم أن رسول الله ﷺ تحمل أنواع الأذى والإهانات من المُشْرِكين ولم يأتِ أيُّ أسد ليفترس أعداءه الذين كانوا يؤذونه ويشتمونه، أما في الاجتماع الذي وُجِّهت فيه إهانة إلى الإمام الرضا فقد تحولت صورة الأسد التي كانت على قماشة في الجدار إلى أسد حقيقيّ هجم على من وجَّه تلك الإهانة وافترسه وقطَّعه إربًا إربًا، هذا رُغم أن عقاب الإهانة ليس القتل. أو قولهم: إن الكعبة جاءت لاستقبال المرشد الفلاني والترحيب به في حين أن الكعبة لم تأتِ لاستقبال رسول الله ﷺ! أضف إلى ذلك أن وجود الكرامة وإظهار المعجزة الخارقة على يَدَيِ الوليّ سيؤدي إلى غروره وهذا بحدّ ذاته قطعٌ لطريق عبوديته وذُلِّهِ أمام ساحة القدس الأحدية، فالذي يعتبر نفسه من أهل الكرامة سيفرح ويُسرّ بذلك وسيُبعده فرحه هذا عن الله.

ثانيًا: الأولياء الذين ليسوا أنبياء لا يمتلكون منصبًا خاصًا مِنْ قِبَل الله، وَمِنْ ثَمَّ فلا يقوم الله بخرق العادة لأجلهم لإثبات ذلك المنصب لهم.

ثالثًا: الفرح بالكرامة فرحٌ بغير الله وفرحٌ بالمخلوق، والفرح بالمخلوق حجابٌ عن الحقّ والحقيقة.

رابعًا: الذي يستحقُّ الكرامةَ بسبب عمله سوف يعتقد أن لعمله قيمةً وأثرًا، في حين أن أعمال العباد وطاعاتهم كلها لا قيمة لها في مقابل كرم الله وعطائه وجلاله، بل هي قصور وتقصير، ولا يملك أحدٌ بسبب عمله حقًّا على الله كي يُعطيه الله كرامات عليه، وأصلاً علامة قبول العمل أن لا يراه العامل شيئًا وأن ينساه، أما إذا كبر عمله في عينيه وتخيَّل أنه صنع شيئًا مهمًا فإن عمله هذا لن يُقبل.

خامسًا: إن ذُلَّ [العبد لربِّه] وتواضعه سبب لقرب العبد من الله، ولكن إنْ صدرت عن العبد كرامةٌ كانت سببًا في تكبّره وعجبه بنفسه فهذا دليل على عدم الولاية، كما نجد أن إبليس وبلعم باعور وسائر علماء بني إسرائيل وعلماء المذاهب الأخرى سقطوا بسبب هذا التكبّر ذاته والاغترار والعُجب بالنفس، وصاروا مذمومين مطرودين، إذ قال تعالى في حق إبليس: ﴿ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [ص: ٧٤- البقره:٣٤] وقال في حقّ بلعم باعور: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ [الأعراف: ١٧٦]. وقال في حقّ العلماء: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩].

سادسًا: هل يعلم وليُّ الله أنه وليٌّ لِلَّهِ أم لا؟ إنْ كان يعلم أن اللَّهَ يُحِبُّه فإن ذلك سيكون مبعثًا لتكبّره.

إذن أولياء الله لا يعتبرون أنفسهم أولياء لِلَّهِ ولا ينبغي أن يعتبروا أنفسهم كذلك، ولذلك نجد عليًّا عليه السلام يقول في دعاء كميل: «**اللَّهُمَّ .. وَاجْعَلْنِي مِنْ أَوْلِيَائِكَ**»، ولو كان يعتبر نفسه وليًّا لِلَّهِ لما دعا بهذا الدعاء، بل كان عليٌّ يعتبر نفسه مُقَصِّرًا ومُذْنِبًا بدليل آلاف الكلمات التي جاءت في أدعيته، وهو نفسه لم يدَّعِ قطّ أنه وليُّ الله أو منصوبٌ ومنصوصٌ عليه مِنْ قِبَلِ اللهِ ورسولِهِ، لكن مُدَّعي اتِّباعه يعتبرونه وليَّ الله ومنصوصًا عليه مِنْ قِبَلِ اللهِ ورسولِهِ، ويذكرون آيات

وروايات يُؤوِّلونها في هذا الأمر، لكن ينبغي أن نعلم أنه لما اعتبر رسول الله ﷺ -طبقًا للوحي الذي يأتيه من الله- عليًا ﵇ وليَّ الله وحبيبه فنحن عندئذٍ اعتبرناه أيضًا -تبعًا لذلك- وليَّ الله وحبيبَه. وعلى كل حال، من الصعب جدًا التصديق بأمور لا يعضدها دليل محكم من العقل والقرآن.

استدل مُدَّعو كرامات الأولياء بقصة مريم وقصة الذي أتى بعرش بلقيس كما قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلۡمٌ مِّنَ ٱلۡكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ...﴾ [النمل: ٤٠].

لكنَّ هذه الأمور لا تدل على ما يُريدون إثباته، لأن قصة مريم دليل على كرامة عيسى ﵇ وهو نبيٌّ ورسولٌ، وليس لغير الأَنْبياء منصبٌ إلهيٌّ حتى يُقاسوا على الأَنْبياء. وأما الإتيان بعرش بلقيس وآية ﴿ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلۡمٌ مِّنَ ٱلۡكِتَـٰبِ﴾ فيُحتمل أن يكون الفاعل لذلك سليمان ﵇ وهو نبيٌّ أيضًا أو يكون الفاعل ملاكًا، وإن كان هو آصف بن برخيا فهو أيضًا نبيٌّ ولا يرتبط عمله بغير الأَنْبياء، ولا يُمكن إثبات هذا الأمر بالقياس.

ثُمَّ إنَّ وليَّ اللهِ هو من يُحِبُّه اللَّهُ لا من يُحِبُّ اللَّهَ، ومحبَّة اللهِ للعبد أمر سريٌّ ولا ينبغي أن يطَّلع عليها أحد، حتى الوليُّ نفسُه، لأن طاعات العبد ومعاصيه ليست سببًا لمحبَّة اللهِ للعبد أو بغضه له، لأن الطاعات والمعاصي حادثةٌ ولا يُمكن للحوادث أن تُحدث تأثيرًا في الذات الأحدية[1]، إضافةً إلى أن الطاعات والمعاصي قابلة للمحو والإبطال، فيُمكن أن يُصبح العاصي مطيعًا فيما

١- كلام المؤلف هنا يحتاج إلى إيضاح، وأعتقد أنه يريد القول: إن محبةَ الله للعبد أو بغضَه له، سابقان لأعماله الحالية الحادثة، لأن الله - بعلمه الشامل- مطلع سابقًا وقبل خَلق العبد على ما سيقوم به العبد من طاعات أو معاص، ومما لا شك فيه أن المحبة السابقة أو البغض السابق سببهما أعمال العبد من طاعات أو معاصٍ، ومن اليقين أن المؤلف رحمه الله لا يخفى عليه ذلك، كيف لا وهناك عشرات الآيات التي تدل على ذلك؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]. وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦]. وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]. وقوله تعالى في المقابل: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: ٢٧٦] وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَـٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢]. وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [آل‌عمران: ١٤٠]، والآيات في ذلك كثيرة.

بعد ويتوب توبةً نصوحًا من ذنوبه، كما يمكن أن يتحول المطيع إلى عاصٍ، فكل شيء موقوف على الخاتمة، فكرامات الأولياء غير قابلة للتصديق بشكل كليّ!.

﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾ [الكهف: ١٣-١٥].

الفوائد: تدلُّ جُمْلَةُ: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ أن أولئك الفتية لما آمنوا بالله وحده زادهم الله هدايةً وهكذا شأن كل من يؤمن بالله تعالى.

والـمرَادُ مِنْ جُمْلَةِ: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ ربطنا على قلوبهم الصبر واليقين، وهذا كناية عن تقوية قلوبهم وتشديدها وتثبيتها.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾ أنهم قاموا علنًا أمام «دقيانوس» وقالوا: لا نؤمن بدينك بل نعبد الله وحده ولا ندعو غيره. وينبغي على من يدعو غير الله باسم التوسل بعظماء الدين وأئمته أو الـمقرَّبين من الله، ويقع بذلك في الشرك، أن يأخذ الدرس والعبرة من تلك الجملة التي قالها أصحاب الكهف.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾ أن التقليد باطلٌ، وأنه لا بد من الدليل البَيِّن على كل قول أو فعل.

﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾ [الكهف: ١٦-١٧].

الفوائد: تدلُّ جُمْلَةُ: ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ على حسن الهجرة والفرار من دار الكفر. كما تدلُّ جُمْلَةُ: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ...﴾ أن مدخل الغار كان في جهة الشمال، فكان من يقف

عند باب الغار يرى طلوع الشمس، فإذا طلعت الشمس سطعت على يمين الكهف ثم عند العصر والغروب تسطع الشمس على يسار الكهف. وفي عبارة ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى حفظ الله لأبدانهم من الفساد والتعفُّن، وأنه كان ينالهم في الكهف برد الريح ونسيم الهواء. وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أن وسط الغار كان مكانًا فسيحًا.

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾ [الكهف: ١٨-٢٠].

الفوائد: اسم الإشارة ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ عطفٌ على جملة ﴿زِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ أن بعضهم لاحظ آثار التغيُّر في أبدانهم مثل طول الشعر والأظافر وشعروا أنهم قد ناموا مدة طويلةً لذلك قالوا: الله أعلم كم لبثنا.

والمراد من كلمة ﴿وَرِقِكُمْ﴾ مسكوكات الذهب والفضَّة.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ...﴾ أن الكفار إذا ظهروا على المسلمين: إما قتلوهم أو سعوا إلى ردِّهم عن دينهم وإيقاعهم في العذاب الأبديّ.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ [الكهف: ٢١-٢٢].

الفوائد: في الزمن الذي استيقظ فيه أصحاب الكهف من نومهم كان [دقيانوس قد مات

ومضت قرون] وَمَلَكَ أهلَ تلك الديار رجلٌ صالحٌ، فاختلف أهل بلده في الحشر وبعث الأجساد من القبور، فشكَّ بعضُ الناس في ذلك واستبعدوه وقالوا: إنما تُحشر الأرواح، والجسد تأكله الأرض. وكَبُرَ ذلك على الـملِك وتضرَّع إلى الله تعالى أن يُبيِّنَ هذا الأمر للناس بيانًا واضحًا بحجَّة وبرهان، فأعثر الله على أهل الكهف؛ كما قال: ﴿أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾ أي أن الله أَطْلعَ الناسَ على أحوال أهل الكهف كي يوقنوا بالحشر والـمعاد الجسماني.

واخْتُلِف في ضمير ﴿يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡ﴾ على من يعود؟ [أي من هم الـمتنازعون فيما بينهم؟]. ظاهر الكلام أنه يعود على الذين شكُّوا في الحشر والـمعاد الجسماني. كما اختلف الـمفسرون أيضًا في الأمر الذي تنازعوا فيه، أي على أي شيء تنازعوا فيما بينهم؟ ويمكن أن نقول: إن نزاعهم كان حول يوم الحشر ذاته، ويمكن أن نقول - بقرينة ﴿فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنًا....﴾ - إنهم تنازعوا في أمر أصحاب الكهف وهل أن نومهم للمرة الثانية كان نومًا أم موتًا؟

وعلى كل حال، قال بعض من كان من أهل الهداية منهم: لِنَبْنِ بناءً أمام الغار ونَسُدَّ بابه، وقالوا: ﴿رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡ﴾، لكن جماعة آخرين - وكان أكثريةً - قالوا: بل لِنَبْنِ على قبرهم مسجدًا.

وينبغي أن نعلم أن الناس اختلفوا في عدد أصحاب الكهف: فقالت طائفة من النصارى وهم اليعاقبة، إنهم كانوا ثلاثةً رابعهم كلبهم، وقال النساطرة: بل كانوا خمسةً سادسهم كلبهم، أما الـمسلمون فقالوا: كان أصحابُ الكهف سبعةً وثامنهم كلبهم. ويُسْتَفاد من هذه الآية أن القول الأخير هو الحق، ويدلُّ عليه وجوه: **الأول**: أنه تعالى أورد الواو في قوله: ﴿وَثَامِنُهُمۡ﴾ ولم يذكرها في قوله ﴿رَّابِعُهُمۡ﴾ و﴿سَادِسُهُمۡ﴾، وهذه الواو هي الواو الحالية[1]، وفائدتها توكيد ثبوت الصفة للموصوف والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت مستقر، فكانت هذه الواو دالة على صدق الذين قالوا: إنهم كانوا سبعة وثامنهم كلبهم. **الوجه الثاني**: أنه تعالى أتبع القولين الأولين بقوله: ﴿رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِ﴾ - أي أنهما قولان بلا علم ولا دليل- وتخصيص الشيء بالوصف يدل على أن

١- يقصد بالواو الحالية: الواو التي تدخل على الجملة الواقعة حالاً عن الـمعرفة كما في قولك جاءني رجل ومعه آخر، ومررت بزيد وفي يده سيف، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ٤﴾ [الحجر: ٤].

الحال في الباقي بخلافه، فوجب أن يكون المخصوص بالظن الباطل هو القولان الأولان، وأن يكون القول الثالث مخالفًا لهما في كونهما رجمًا بالظن، لاسيما أنه تعالى لما حكى قولهم: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ قال بعده: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾؛ فإتْبَاعُ القولين الأولين بكونهما رجمًا بالغيب وإتْبَاعُ هذا القول الثالث بقوله: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ يدل على أن هذا القول ممتاز عن القولين الأولين بمزيد القوة والصحة. فهو القول الصحيح[١].

وقد رُوِيَ أن أصحاب الكهف كانوا من وزراء «دقيانوس» وندمائه، فكان ثلاثة منهم يجلسون على يمين الملِكِ، وثلاثة آخرون يجلسون عن يساره، [وكان الملِكُ يستشير هؤلاء الستة في مهماته]، والسابع هو الراعي الذي وافقهم لما هربوا من مَلِكِهِمْ، ولما كان عدد السبعة بين العرب يدل على الكثرة، كانوا يأتون بعده بحرف الواو، لذا قال تعالى هنا: ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾.

هذا وقد ذكر اللَّهُ تعالى كلبَ أصحاب الكهف في كتابه ببركة مجاورته لهم، واعتبره ثامنهم، وفي هذا قال الشاعر: (بيتان بالفارسية)

پسر نوح با بَدَان نِشَسْت … خاندان نبوَّتش گم شُدْ
سگ اصحاب كهف روزى چند … پى مردم گرفت ومردم شُدْ

وترجمته:

جالسَ ابنُ نوحٍ الأشرار … فضاعت بركة أسرته النبوية
واتَّبَعَ كلبُ أصحاب الكهف بضعة أيام … الناسَ (الشرفاء) فصار منهم

ولا يخفى أنه في جملة: ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ إذا كان «القليل» مستثنى (من عدم العلم)

١- استفاد المؤلف هذه الوجوه في ترجيح أنهم سبعة وثامنهم كلبهم من **التفسير الكبير** للفخر الرازي، ٢١/ ١٠٥-١٠٦، باختصار وتصرف، وقد نقلتُ الاقتباس بدون اختصار إتمامًا للفائدة ولتتضح الفكرة.

دون أن يُذكر الـمستثنى منه، كان له حكم الفاعل، فيُستَفاد من ذلك أن الناس لم يكونوا يعرفون عدد أصحاب الكهف إلا قليلاً منهم، وكان من هؤلاء القليل: رسولُ اللهِ ﷺ وبضعةٌ من أصحابه، سمعوا منه عددهم الصحيح فعلموا به. أما إذا لم نعتبر كلمة ﴿قَلِيلٌ﴾ فاعلاً بل اعتبرنا أن الفاعل هو الضمير الـمستتر في فعل ﴿يَعْلَمُهُمْ﴾ والذي يعود على الله، أصبح الـمعنى كالتالي: لا يعلمهم الله إلا قليلاً أي أنهم في علم الله قلَّةٌ. أي أنه أيًّا كان القول الصحيح في عددهم، فإن عددهم كان في الواقع قليلاً، لأن العباد الصالحين قلةٌ دائمًا، وفي هذه الحالة كان من الـمناسب أن تكون كلمة «قَلِيلاً» منصوبة.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ [الكهف: ٢٣-٢٦].

الفوائد: لابدَّ من تقدير أحد أمرين في جملة: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ الأول: «**إلا أن – تقول– يشاء الله**» أي لابد من تقدير كلمة «**تقول**». أو نقدِّر: «**أن يأذن لك**»، فتصبح الجملة: «**إلا أن يشاء الله أن يأذن لَكَ**». والتقدير الأول أكثرُ مناسبةً لما ذُكِر من سبب نزول الآية، إذْ ذكروا أن سبب نزولها أن الـمشركين سألوا رسول الله ﷺ عن ثلاثة أمور، أحدها قصة أصحاب الكهف، فقال رسول الله ﷺ: غدًا أخبركم. ولم يَقُلْ: إن شاء الله. فقال تعالى له: لَا تَقُلْ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ تقول: إن شَاء اللَّهُ.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ﴾ أن لا وليَّ تكوينيَّ لهم إلا الله وحده.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ أن لا أحد يشارك الله فيما يصدره من أحكام، لا رُسُل الله ولا غيرهم، فقول العوام: يا شريك القرآن! كفرٌ.

﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥۖ

وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ٢٧-٢٨].

الفوائد: القراءة أعم من التلاوة، والتلاوة أخصّ. فالتلاوة خاصَّةٌ بقراءة كتاب الله وتدبُّره.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أن لا أحد يمكنه أن يبدِّل كلمات القرآن أو أن يغير أوامر الله.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ أن لا ملجأ لأحد سوى الله، فهو وحده ملجأ العباد وملاذهم وسندهم.

وَجُمْلَةُ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ...﴾ إلى آخر الآية، نزلت في أكابر قريش الذين اجتمعوا وقالوا لرسول الله ﷺ: «إن أردتَ أن نؤمن بكَ فاطرد هؤلاء الفقراء من عندك، فإذا حضرنا لم يحضروا، وتُعَيِّن لهم وقتًا يجتمعون فيه عندك»، فأنزل الله تعالى هذه الآية وبيَّن فيها أن طردهم لا يجوز [بل تجالسهم وتوافقهم وتعظِّم شأنهم] وأن الالتفات إلى أقوال أولئك الكفار خطأ.

والمقصود من جملة: ﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾: «**إنَّا حبَّبْنا إليهم الدنيا وانجرَّ ذلك إلى غفلتهم**» أو «**تركناهم غَفَلاً وتركناهم في غفلاتهم**».

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾ [الكهف: ٢٩-٣١].

الفوائد: تدلُّ جُمْلَةُ: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ على الإرادة الحرَّة لدى الإنسان وحرية الاختيار. وصيغة ﴿فَلْيُؤْمِن﴾ و ﴿فَلْيَكْفُرْ﴾ للتهديد لا للأمر التخييري.

والـمُرَادُ مِنْ: ﴿سُندُسٍ﴾ الديباج، أي القماش الحريري، الـملوَّن الرقيق، وهو الـمصنوع من الخزّ. والـمُرَادُ مِنْ: ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ الديباج، أي القماش الحريري، السميك (الغليظ).

والفرق بين الأريكة والسرير هو العام والخاص. لأن الأريكة، وجمعُها أرائك، هي السرير الذي يُجعَل في حجلة العريس، أما السرير وحده فلا يسمى أريكة.

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾ [الكهف: ٣٢-٤٤].

الفوائد: لما ردَّ الله تعالى - في الآيات السابقة - على الكفار افتخارهم بأموالهم وأنصارهم على فقراء المسلمين ومطالبتهم بأن يعين رسول الله ﷺ وقتًا خاصًا بهم لمجالسته لا يحضره الفقراء، ضرب الله تعالى في هذه الآيات مثلاً لصاحبين أحدهما فقير والآخر غنيٌّ، ليبيِّن أن لا قيمة ولا أهميَّة للثروة والمال.

وجملة: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ وجوابها في جملة: ﴿أَكَفَرْتَ.....﴾ تدلان على أن الافتخار بثروة الدنيا كفرٌ في حقيقة الأمر.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ أن التوجه إلى مال الدنيا وجاهها في حقيقته شركٌ بالله.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن الإنسان عندما تتجه نفسه إلى مال الدنيا ومنالها

وجاهها وثروتها، فعليه أن يتَّجه فورًا إلى الله ويقول: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ أن الولاية التكوينية منحصرة بالله الواحد الدائم.

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف: ٤٥-٤٦].

الفوائد: آية: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ مثل آخر على حقارة الدُّنْيَا وعدم أهميتها وسرعة زوالها، فلا يجوز لأغنياء الـمُشْرِكين أن يتكبَّروا على الفقراء. فالدنيا مثلها مثل الـمطر الذي يهطل على الأرض فينبت به النبات الأخضر النَّضِر لكن سرعان ما يصفر هذا النبات ويجف ويتكسر ويتناثر، كذلك الدُّنْيَا ما إن تجمعها وتبلغ بها قمة الزينة والـمتاع إلا وتُؤذنك بالرحيل، وكذلك الـمالُ والأولادُ متاعان سريعا الزوال والانقضاء. فلا ينبغي على العاقل أن يُعلِّق قلبه بهما ويفتخر بهما. أما ما يقوم به العبد لوجه الله من عمل صالح فثوابه باقٍ ويُمكن عقد الأمل عليه. واختلف الـمُفسِّرون في الـمقصود من ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ فقال بعضهم: هي التسابيح الأربعة وقال آخرون: هي الصلوات الخمس الـمفروضة، وقال فريق آخر: هي كل قول وعمل صالح يُراد به وجهُ الله. وهذا هو القول الحق.

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٧-٤٩].

الفوائد: يمكن أن يكون الـمُرادُ من جملة: ﴿نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ نسيِّرُها إلى العدم أي نفنيها، أو نجعلها ذرَّات منتشرة، كما قال في سورة الواقعة: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾﴾ [الواقعة: ٥-٦].

والـمُرَادُ مِنْ جُمْلَةِ: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ عدم بقاء أي شيء فوق الأرض من العمارات والقصور والجبال والأشجار.

وتدلُّ جُمْلَةُ: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ أن الذنوب قسمان: صغائر وكبائر. فقال بعضهم: الكبيرةُ ما يزيد عقابه على ثواب فاعله، والصغيرة ما ينقص عقابه عن ثواب فاعله. وقال بعضهم: الطاعات محصورة في نوعين: التعظيم لأمر الله، والشفقة على خلق الله؛ فكل ما كان أقوى في كونه جهلاً بالله كان أعظم في كونه كبيرة، وكل ما كان أقوى في كونه إضرارًا بالغير كان أكثر في كونه كبيرةً، أما إذا كان الجهل بالله ضعيفًا والإضرار بالغير قليلاً كان العمل صغيرةً. وبالطبع هناك أقوال أخرى في هذا الأمر.

وتدلُّ جملةُ: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا﴾ على تجسُّم الأعمال. وقد قال رسول الله ﷺ: «**يُحاسَب الناسُ في القيامة على ثلاثة: يوسف، وأيوب، وسليمان. فيدعو بالـمملوك ويقول له: ما شَغَلَكَ عَنِّي؟ فيقول: جعلتَني عبدًا للآدميِّ فلم تُفَرِّغْني، فيدعو يوسف عليه السلام، ويقول: كان هذا عبدًا مثلك فلم يمنعه ذلك عن عبادتي فيؤمر به إلى النار، ثم يدعو بالـمبتلى فإذا قال: شغلتني بالبلاء، دعا بأيوب عليه السلام فيقول: قد ابتليتُ هذا بأشد من بلائك فلم يمنعه ذلك عن عبادتي، فيؤمر به إلى النار، ثم يؤتى بالـمَلِكِ في الدنيا مع ما آتاه الله من الغنى والسعة فيقول: ماذا عملتَ فيما آتيتُكَ؟ فيقول: شغلني الـمُلْكُ عن ذلك، فيُدعَى بسليمان عليه السلام فيقول: هذا عبدي سليمان آتيتُهُ أكثر مِمّا آتيتُك فلم يشغَلْهُ ذلك عن عبادتي، اذهبْ فلا عذرَ لك ويُؤمَر به إلى النار**»[1].

وعن معاذ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لاَ تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أربعٍ: عَنْ جَسَدِهِ فِيمَا أَبْلاَهُ، وَعَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ كَيْفَ عَمِلَ بِهِ**»[2].

١- لم أجد له أصلاً في كتب الرواية، لا السنية ولا الشيعية، والوحيد الذي رواه هو الفخر الرازي في **التفسير الكبير**، حيث أورده بلا سند. انظر **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، ٢١/ ١٣٤-١٣٥.

٢- أخرجه الترمذي في **سننه** (٢٤١٧) بلفظ قريب مع تقديم وتأخير في الجُمَل. وقال: هذا حديث حسن صحيح. وأخرج نحوه: ابن أبى شيبة في **الـمصنف**، ٧/ ١٢٥، (٣٤٦٩٤)، والدارمي في **السنن** (٥٣٧)، والبيهقي في **شعب الإيمان**، ٢/ ٢٨٦، (١٧٨٥)، وأبو يعلى في **مسنده**، ١٣/ ٤٢٨، (٧٤٣٤)، وغيرهم.

﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ٥٠ ۞مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ٥١ وَيَوۡمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُم مَّوۡبِقٗا ٥٢ وَرَءَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمۡ يَجِدُواْ عَنۡهَا مَصۡرِفٗا ٥٣﴾ [الكهف: ٥٠-٥٣].

الفوائد: السجدة في هذه الآيات معناها غاية التواضع، وليس المُراد منها السجود المعروف أي وضع الجبهة على الأرض، لأن الملائكة ليس لها جبين مثل بني آدم.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ...﴾ أن إبليس من صنف الجنّ وليس من صنف الملائكة؛ فما ورد في الخطبة القاصعة (المنسوبة إلى أمير المؤمنين عليّ ؏ في نهج البلاغة) من أن الشيطان كان نوعًا من الملائكة، وتقسيم الملائكة من حيث السجود لآدم إلى قسمين وقوله: «**ثُمَّ اخْتَبَرَ بِذَلِكَ مَلائِكَتَهُ الْمُقَرَّبِينَ لِيَمِيزَ الْمُتَوَاضِعِينَ مِنْهُمْ مِنَ الْمُسْتَكْبِرِينَ**» إلى أن يقول: «**كَلا مَا كَانَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِيُدْخِلَ الْجَنَّةَ بَشَرًا بِأَمْرٍ أَخْرَجَ بِهِ مِنْهَا مَلَكًا**»، وغير ذلك من الأمور المضادّة للقرآن في تلك الخطبة، يُثْبِتُ أن تلك الخطبة - في نظرنا - خطبة موضوعة وليست من كلام أمير المؤمنين عليّ ؏ قطعًا، إضافةً إلى أن الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم. وبالطبع، يوجد في نهج البلاغة بعض المطالب الأخرى المخالفة للقرآن أيضًا.

وَتدلُّ جُمْلَةُ: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ﴾ أن الله لم يُشْهِد الظالمين على الخلق، وينبغي أن نعلم أن الله لم يُشْهِد أحدًا على الخلق عقلاً ونقلاً، كما قال حضرة الإمام السجَّاد ؏ في دعاء يوم الاثنين: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يُشْهِدْ أَحَدًا حِينَ فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ**». ولكن الكُلَيْنِيَّ روى في الكافي، في باب مولد النبي ﷺ، الحديث (٥)، عن الغلاة، روايةً تقولُ: «... إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَمْ يَزَلْ مُتَفَرِّدًا بِوَحْدَانِيَّتِهِ ثُمَّ خَلَقَ مُحَمَّدًا وَعَلِيًّا وَفَاطِمَةَ فَمَكَثُوا أَلْفَ دَهْرٍ ثُمَّ خَلَقَ جَمِيعَ الْأَشْيَاءِ فَأَشْهَدَهُمْ خَلْقَهَا....» !

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ أنه لا يجوز الاستعانة بِالْمُضِلِّينَ في أيِّ أمر من الأمور.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾ [الكهف: ٥٤-٥٦].

الفوائد: الفرق بين «**بَيَّنَّا**» و«**صَرَّفْنَا**» أن الأول معناه البيان والثاني معناه البيان بصُوَرٍ متغيِّرةٍ وعباراتٍ مُتَنَوِّعَةٍ.

وقد فُسِّرت جملة: ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ بأنه لم يمنع إيمان الناس إلا انتظارهم مجيء العذاب الذي كان يحلُّ عادةً بالـماضين، أي عذاب الهلاك في الدُّنْيَا الذي يُسمَّى بعذاب الاستئصال. ولكن الـمانع -في نظرنا- من إيمان الناس هو اقتداؤهم بعادات السابقين من أسلافهم واتِّباعهم لدينهم، إذ كانت عادة الناس وطريقتهم دائمًا أنهم إذا رأوا مصلحًا مريدًا للخير يريد إنقاذهم من شرِّ الـمتاجرين بالدين استهزؤوا به ولم يكترثوا بنُصْحِهِ كما فعلوا مع كاتب هذه السطور وكالوا له التُّهَم الـمختلفة.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾ [الكهف: ٥٧-٥٩].

الفوائد: تشمل جملة: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ بعمومها أمتنا الحالية التي أعرضت تمامًا عن آيات القرآن، حتى مشايخها، وبسبب هذا الإعراض والتعصُّب

ضُربت على قلوبهم ستائر وأغطية حجبتهم عن الفهم وجعلت آذانهم الباطنية ثقيلة السمع. أجل إن التعصُّب للمذهب وللأحاديث المذهبية الباطلة وللكتب والأشعار المذهبية في زماننا صار أكبر مانع يحول بين الناس وبين فهمهم لحقائق الدين وصاروا مثالاً حيًّا لقول الله تعالى الصريح: ﴿وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرًا..﴾: تفسيره أن الله هو الذي جعل لكل عِلَّةٍ معلولَهَا، فإذا أخذَ الناسُ بالعِلَّة أتاهم الله بالمعلول، وهنا لما تعصَّب الناس لمذاهبهم كان أثر ذلك، أي المعلول، هو حدوث ستار وغطاء على فهمهم، فهذا الغطاء وُجِد بإرادة الله [لذلك نسب الله جعله وإيجاده إلى نفسه، وإن كان المُتَسَبِّبُ به هو الإنسان، فلا جَبْرَ ولا إضلال إذن].

﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبًا ٦٠ فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبًا ٦١ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ٦٢ قَالَ أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبًا ٦٣ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ٦٤﴾ [الكهف: ٦٠-٦٤].

الفوائد: اعلم أن هذا ابتداء قصة ثالثة ذكرها الله تعالى في هذه السورة في تنبيه الكفَّار الذين افتخروا على فقراء المسلمين بكثرة الأموال والأنصار، كي يعلموا أن موسى ؈ مع كثرة عِلْمِهِ وعَمَلِهِ وعُلُوِّ منصبه واستجماع موجبات الشرف التّام في حقِّه ذهب إلى الخضر لطلب العلم وتواضع له وذلك يدل على أن التواضع خير من التكبُّر، وأما نفع هذه القصة في قصة أصحاب الكهف فهو أن اليهود قالوا لكفار مكة: إن أخبركم محمَّدٌ عن هذه القصة فهو نبيٌّ وإلا فلا، فبيَّن اللَّهُ تعالى لهم في هذه الآية أن قولهم هذا ليس بشيء لأنه لا يلزم من كون محمَّدٍ (ﷺ) نبيًا من عند الله تعالى أن يكون عالـمًا بجميع القصص والوقائع، كما أن كون موسى ؈ نبيًا صادقًا من عند الله لم يمنع من أمر الله إياه بأن يذهب إلى الخضر ليتعلم منه.

وعلى كل حال ذكر الـمفسِّرون أقوالاً مختلفةً في سبب أمر اللهِ لموسى بتلك الـمهمة أي الذهاب إلى الخضر للتعلُّم منه، فقيل: إن موسى عليه السلام لما أُعْطِي الألواحَ وكلَّمَهُ اللَّهُ تعالى قال: من الذي أفضل مني وأعلم؟

فقيل: عبدٌ لِلَّهِ يسكن جزائر البحر وهو الخضر، وفي رواية أخرى أن موسى عليه السلام لما أوتي من العلم ما أوتي ظن أنه لا أحد مثله فأتاه جبريل عليه السلام وهو بساحل البحر قال: يا موسى انظر إلى هذا الطير الصغير يهوي إلى البحر يضرب بمنقاره فيه ثم يرتفع فأنت فيما أوتيت من العلم دون قدر ما يحمل هذا الطير بمنقاره من البحر. رغم أن ثمَّة إشكالاً في هذه الرواية: [ولذلك حكم الأصوليون بأنها رواية ضعيفة] وذلك لأن الأنبياء يجب أن يعلموا أن معلومات الله لا نهاية لها في حين أن البحر محدودٌ.

وجاء في رواية أخرى: إن موسى عليه السلام سأل ربه: أي عبادك أحب إليك؟

قال: الذي يذكرني ولا ينساني.

قال: فأي عبادك أقضى؟

قال: الذي يقضي بالحق ولا يتّبع الهوى.

قال: فأي عبادك أعلم؟

قال: الذي يبتغي علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمةً تدلّه على هدى أو تردّه عن ردى.

فقال موسى عليه السلام: إن كان في عبادك من هو أعلم مني فادللني عليه.

فقال: أعلم منك الخضر.

قال: فأين أطلبه؟

قال: على الساحل عند الصخرة.

قال: يا ربِّ! كيف لي به؟

قال: تأخذ حوتًا في مكتل فحيث فقدته فهو هناك.

فذهب موسى وفتاه يوشع بن نون يمشيان نحو مجمع البحرين وهو مكان التقاء بحر الروم ببحر فارس، وقال موسى لفتاه: إذا فقدتَ الحوت فأخبرني. ورقد موسى واضطرب الحوت وطفر إلى البحر، ولكن يوشع نسيَ أن يخبر بذلك موسى عليه السلام. فلما جاء وقت الغداء طلب موسى الحوت فأخبره فتاه بأن الحوت قفز إلى البحر عند الصخرة التي كانت قرب الساحل، فرجعا من ذلك الموضع إلى الموضع الذي طفر الحوت فيه إلى البحر، فإذا رجل مُسَجًّى بثوبه فسلم عليه موسى عليه السلام فقال: وأنّى بأرضك السلام؟! فعرَّفه نفسَه[1].

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾ [الكهف: ٦٥-٧٠].

الفوائد: تدلُّ جُمْلَةُ: ﴿عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ أن الشخص الذي وجده موسى كان عبدًا من عباد الله المقرَّبين أو ملكًا من الملائكة المطيعين، وجُمَلُ: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ و ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ و ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ كلُّها تفيد أن ذلك الشخص كان سفيرًا إلهيًا ونبيًا أو ملاكًا، وينبغي أن نعلم أنه قد شاع بين الناس التعبير عن علم الوحي بالعلم اللدنّي، ويقولون: إن فلانًا عالـم بعلمٍ لَدُنِّيٍّ، وقد نشأت هذه الشهرة من جملة: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ لأن الله تعالى قال فيها: ﴿مِن لَّدُنَّا﴾. وعلى كل حال، الوحيُ خاصٌّ بالأنبياء والملائكة، ولا يجوز أن تُسَمَّى علوم الأئمَّة عليهم السلام وسائر العلماء بالعلم اللَدُنِّيِّ.

اعلم أن للتعليم والتعلم آدابًا وشروطًا وقد راعى موسى عليه السلام معظَمَها بل كلَّها، كما راعاها

١- انظر تفسير **الطبري** و**الكشاف** للزمخشري وتفسير **الكشف والبيان** للثعلبي النيسابوري **والتفسير الكبير** للفخر الرازي **وتفسير ابن كثير** وتفسير **الدر المنثور** للسيوطي وغيرهم، فقد نقلوا تلك القصة لدى تفسيرهم لآيات قصة موسى والخضر في سورة الكهف.

معلمُهُ الذي كان إمَّا ملاكًا أو كان الخضر أو كان من كان. وسنُشير فيما يلي إلى بعض هذه الآداب التي ذُكرت في الآيات:

١- يجب على الـمُتَعَلِّم أن يجعل نفسه تابعًا لرغبة الـمُعَلِّم وإرادته، كما قال موسى عليه السلام: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾.

٢- لا بدّ للمُتَعَلِّم أن يستأذن أستاذه في الأمور التعليمية، كما قال موسى عليه السلام: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾.

٣- على الـمُتَعَلِّم أن يُقِرَّ بجهله وحاجته للعلم كما قال موسى عليه السلام: ﴿أَن تُعَلِّمَنِ﴾.

٤- يجب على الـمُتَعَلِّم أن يعتبر أستاذه عالـمًا ويُقِرَّ له بالعلم بدليل قول موسى عليه السلام: ﴿أَن تُعَلِّمَنِ﴾.

٥- يجب على الـمُتَعَلِّم أن يكون متواضعًا وأن يطلب مقدارًا من علم معلمه لا كله كما قال موسى عليه السلام: ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ وحرف «مِنْ» هنا للتبعيض أي علِّمني بعضًا من علمك، فهو يطلب من معلمه كما يطلب الفقير العون.

٦- يجب على الـمتعلم أن يعتبر العلم الذي يريد تعلمه علمًا نافعًا وسببًا لرشده، كما قال موسى عليه السلام: ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾.

٧- يجب على كل من الـمُتَعَلِّم والـمُعَلِّم أن يَعْلَمَ أنه كما وهب الله الـمُعَلِّمَ العلم دون مِنَّة فعلى الـمُعَلِّمِ أن لا يمُنَّ على الـمُتَعَلِّم بعلمه كما قال موسى عليه السلام: ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ﴾.

٨- ليعلم الـمُعَلِّم أن شكر الله على نِعمة العلم الذي علَّمه إياه إنما يكون بمنح هذا العلم وتعليمه للمتعلمين بدليل قول موسى عليه السلام: ﴿أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ﴾.

٩- على الـمُتَعَلِّم أن يَعْلَمَ أن ﴿من علَّمنى حرفاً فقد صيَّرنى عبداً﴾، فكما أن الـمُعَلِّم عبدٌ لِلَّهِ وقد تعلَّم عِلمَه من الله، فإن الـمُتَعَلِّم تعلَّم علمَه من الـمُعَلِّم، فهما متشابهان من هذه الناحية بدليل ﴿أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ﴾.

١٠- يجب على الـمُتَعَلِّم أن يُسلِّم أمره للمُعَلِّم ولا يُنازعه أو يعترض عليه بدليل: ﴿هَلْ

أَتَّبِعُكَ...﴾ ومتابعته لمعلمه مطلقة غير مقيَّدة كما يُفيده إطلاق عبارة ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ...﴾.

١١- مهما كان الـمُتَعَلِّم عالـمًا وصاحب قدر ومنزلة وجاهٍ ورئاسة عليه أن يعتبر نفسه في مقابل مُعَلِّمه جاهلاً وحقيرًا، كما أن موسى رُغم مقام نُبُوَّته ورئاسته، أظهر نفسه جاهلاً وصغيرًا وقال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾.

١٢- إن كان الـمُتَعَلِّم أعلم من مُعَلِّمه في العلوم التي لا يعلمها مُعَلِّمه فإن عليه أن لا يرى نفسه عظيمًا بل يعتبر نفسه صغيرًا في العلم الذي هو جاهل به ويريد أن يتعلمه من الـمُعَلِّم.

١٣- على الـمُتَعَلِّم أن يعتبر نفسه خادمًا أولاً ثم متعلمًا، بدليل ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ التي قال بعدها: ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾.

١٤- يجب أن يكون هدف الـمُتَعَلِّم العلم فقط لا الـمال والجاه بدليل ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾. ولم يقل: «**هل أتبعك على أن تعطيني مالاً أو جاهًا**».

١٥- يجب على الـمُتَعَلِّم أن يصبر في التعلم ويتروى ولا يستعجل بدليل: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾.

١٦- لا يجوز للمتعلم أن يعصي أمر معلمه فيما يتعلّق بأمور التعليم بدليل: ﴿وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرًا﴾.

١٧- يجب على الـمُتَعَلِّم أن يُعطي الفرصة لمعلِّمه ليُبيِّن له من ذات نفسه دون أن يسأله، وأن لا يُلِحَّ على مُعَلِّمِهِ بالأسئلة الـمتتالية، بدليل: ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ﴾.

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرًا ٧١ قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرًا ٧٢ قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرًا ٧٣ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسًا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٍ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا نُّكۡرًا ٧٤ ۞قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ

صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾ [الكهف: ٧١-٧٦].

الفوائد: يُسْتَفَادُ مِنْ هذه الآيات أن الـمُهِمَّة التي أُرسل بها الخضر ﷷ، أو الـملاك، كانت متعلِّقةً ببواطن الأمور، أما موسى ﷷ فكان مأمورًا بالأحكام الظاهرية. وعلى أي حال، لما رافق موسى الخضر أو الـملاك، قام الأخير بثلاثة أعمال أو ثلاثة مهامّ مراعيًا في كلٍّ منها تقديم الأهم على الـمهمّ:

العمل الأول: قام بخرق السفينة لأنه لو تركها سالـمةً لقام السلطان الغاصب، الذي كان يستولي على السفن السليمة، بأخذها من أصحابها، وكانت السفينة لجماعة من الـمساكين، ولو فعل الخضر ذلك –أي ترك السفينة سالـمةً– لما كان عليه مسؤوليةٌ في هذا الأمر، لكنَّ الأهمَّ والأولى كان أن يقوم بخرق السفينة كي يواصل الـمساكين كسب لقمة عيشهم بها، ويمنع ذلك السلطان الغاصب من الاستيلاء عليها، فهذا كان أكثر أهميةً، لذا قام به الخضر.

العمل الثاني: قام بقتل غلام اقترب من سن التكليف أو كان مكلَّفًا لأنه لو عاش ذلك الغلام لأوقع نفسَه ووالديه في الطغيان والكفر، أما لو قُتل الغلام لما انحرف الوالدان نحو الكفر والطغيان ولما ابتُلي الغلام نفسه بذلك، وهذا الأمر أهم من حياته لأنه أقلُّ ضررًا. فإن استشكل شخص وقال: إنَّ قَتْلَ الغلام قصاص قبل الجناية، علاوةً على أنه إذا كانت عِلَّةُ قتل الغلام ذلك لوجب قتل كل غلام عاقبته الشر، في حين أن مثل هذا الأمر يتنافى مع التكاليف الاختيارية. فالجواب: أولاً: ليس من الـمعلوم أن ذلك العبد الصالح كان الخضر، بل ربما كان –كما قلنا– ملاكًا مثل عزرائيل الذي يقبض أرواح آلاف الأطفال بعد بلوغهم أو قبل بلوغهم، ولا يجوز الاعتراض على ذلك لأنه يقع بأمر العزيز الحكيم الذي: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

وأما **العمل الثالث**: فسنذكره في ترجمة الآيات التالية. وأما آداب التعليم والتعلم التي أشارت إليها هذه الآيات فهي التالية:

١٨- على الـمُتَعَلِّم أن يُطيع معلمه ما لم يأمره بمعصية، أما لو أمره بمعصية فعلى الـمُتَعَلِّم أن يعترض على معلمه ولا يجوز له ارتكاب الـمعصية، وهنا لما قام الـملاك أو الخضر

بأعمال ظاهرها معصية الله قام موسى بالاعتراض عليه. وبِنَاءً عَلَى ذَلِكَ فإن قول الصوفية: لا يجوز للمُريد أن يعترض على مرشده [وأن يكون بين يديه كالـميت بين يدي الـمُغسِّل] غير صحيح، بل يجب شرعًا على الـمُريد أن يعصي مرشده إذا رآه خالف الشرع وأن يترك اتِّباعه ومحبَّته.

١٩- على الـمُتَعَلِّم أن يسأل معلمه عن الأمور التي لا يعلم وجهها الشرعي ويراها -حسب الظاهر- مخالفةً للشرع، كما سأل موسى عليه السلام الـملاك (أو الخضر) على نحو الاستفهام الإنكاري: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾؟! و﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾؟! وهكذا .....

٢٠- لا يجوز للمعلم أن يكون شديدًا مع تلميذه ويقسو عليه ولذلك قال موسى عليه السلام:. ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾.

٢١- على الـمُعَلِّم أن يكون عفُوًّا صفوحًا حليمًا وأن لا يُؤاخذ تلميذه إذا نسي شيئًا أو غفل عنه ونحو ذلك، كما قال موسى عليه السلام: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾.

٢٢- على الـمُتَعَلِّم أن يعذر معلمه في الأمور في التي خالف فيها أوامره كما قال موسى عليه السلام: ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾.

وبالطبع سنذكر بقية آداب التعليم والتعلم في الآيات اللاحقة.

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾ [الكهف: ٧٧-٧٨].

الفوائد: دخل موسى مع ذلك العالـم إلى مدينة أنطاكية أو إلى مدينة أخرى سمّاها الله هنا قريةً لأن أهلها لم يقوموا بواجب الضيافة، ولكن سمّاها في الآيات اللاحقة أي في جملة: ﴿لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ بالـمدينة، مما يُبيِّن أن عدم الضيافة والامتناع عن إطعام الـمسافرين القادمين أمر قبيح، «لذا رُوِيَ في بعض كتب الحكايات أن أهل تلك القرية لما سمعوا نزول هذه

الآية استحيوا وأرسلوا وكلاءهم إلى رسول الله ﷺ بأحمالٍ من الأقمشة النفيسة والذهب والـمجوهرات وقالوا: يا رسول الله! نشتري بهذا الذهب أن تحذف هذه الآيات من القرآن، فامتنع رسول الله ﷺ وقال: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ٣٤]: فقالوا: يا رسول الله! إذن فاجعل الباء تاءً حتى تصير القراءة هكذا: فَأَتَوْا أن يضيفوهما؛ أي كان إتيان أهل تلك القرية إليهما لأجل الضيافة، وقالوا: غرضنا منه أن يندفع عنا هذا اللؤم، فقال رسول الله ﷺ: «إن تغيير هذه النقطة يوجب دخول الكذب في كلام الله، وذلك يوجب القدح في الإلهية». فعلمنا أن تغيير النقطة الواحدة من القرآن يوجب بطلان الربوبية والعبودية»[١].

وعلى كل حال، لما اعترض موسى عليه السلام على عمل العالِم للمرَّة الثالثة قائلاً: لقد كنا جوعى فكان الأولى أن تطلب أُجرةً على إصلاح الجدار لنشتري بالأجرة طعامًا، قال العالِم: ألم تُعاهدني أن لا تسألني عن شيء دون إذن مني؟ ولذلك ينبغي الآن أن ننفصل عن بعضنا، ولكني سأخبرك بحقيقة الأعمال التي قمت بها:

﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ۝٧٩ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۝٨٠ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ۝٨١ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ۝٨٢﴾ [الكهف: ٧٩-٨٢].

الفوائد: في هذه الآيات إشارة إلى بقية آداب الـمُعلِّم والـمُتعلِّم وهي التاليه:

٢٣- يجب على الـمُعلِّم أن يُفارق تلميذه قبل أن يحصل بينهما شيء يؤدي إلى الشرّ والضغينة بينهما كما قال العالِم لموسى عليه السلام: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾.

١- انظر أصل هذه الحكاية لدى: الفخر الرازي، **مفاتيح الغيب**، ٢١/ ١٥٧ باختصار وتصرُّف. وهي قصة غريبة وتبدو بعيدة عن الواقع، بل هي باطلة قطعًا.

٢٤- لا ينبغي على الـمُعَلِّم أن يبخل في تعليم الحقائق بل عليه أن يُبيِّن لتلميذه الحقائق الـمفيدة كما قال العالِم لموسى ؈: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ﴾.

٢٥- لا يجوز للمُعَلِّم أن يُبقي الإشكالات والشُّبهات في ذهن تلميذه خاصةً إذا كانت متعلِّقة بأمور الدين، بل عليه أن يُسارع إلى رفع تلك الشُّبهات وإزالتها كما قال العالـم لـموسى ؈: ﴿سَأُنَبِّئُكَ .....﴾ وسارع إلى دفع الشُّبهة التي حصلت لديه.

٢٦- على الـمُعَلِّم أن يُراعي القوة الفكرية للمُتَعَلِّم وأن يُعلِّمه على نحو يمتلك الـمُتَعَلِّم معه استطاعة الفهم والإدراك، كما نجد أن العالـم بيَّن لموسى تلك الأمور التي تساءل عنها بقوله: أما كذا ... وأما كذا.

٢٧- على الـمُعَلِّم أن لا يُظهر للمُتَعَلِّم أمرًا لا يحتمله فكره ولا يُطيق فهمه، كما نجد أن العالِم لو قال لموسى بشأن السفينة: أراد ربك أن يَعيبها، لما قبل منه موسى ذلك، ولذلك قال: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، ونسب لنفسه الرغبة بإحداث عيب ونقص في السفينة، رغم أن الله كان قد أمره بذلك وأنه فعله بإرادة الله.

٢٨- يجب على العالِم أن يُعلِّم الـمُتَعَلِّم الحقائق التي لا يُمكن قبولها للوهلة الأولى بشكل تدريجيّ لا أن يُعطيه إياها دفعةً واحدة فيدفعه إلى الفرار، ولذلك نجد أن العالِم نسب إلى نفسه في تلك الآيات الأعمال التي كانت أعمالاً سيئةً وقبيحةً حسب الظاهر، ثم أخذ يذكر بشكل تدريجيّ شيئًا فشيئًا إرادة الله في هذا الأمر: فقد نسب العمل الأول إلى نفسه على نحو مستقل وقال: ﴿فَأَرَدتُّ﴾، ثم لما فَهِمَ الـمُتَعَلِّمُ أنه كانت هناك مصلحة في ذلك العمل، ضمَّ الـمُعَلِّمُ في العمل الثاني إرادة الله إلى إرادته وقال: ﴿فَأَرَدْنَآ﴾، ولما فهم الـمُتَعَلِّمُ أن الـمصلحة كانت في ذينك العملين؛ نسب الـمُعَلِّمُ عمَلَه الثالث إلى إرادة الله على نحو مستقل فقال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾. أما لو قال للمتعلِّم من أول الأمر ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ لما صدقه الـمتعلم ولزاد من سوء ظنه.

٢٩- يجب على العالِم أن لا يُبيِّن الـمعلومات للمُتَعَلِّم على نحو يدفعه إلى سوء الظن بالله تعالى

كما فعل العالِم هنا مع موسى.

٣٠- يجب على العالِم أن يُذكِّر الـمُتعَلِّم بمصالح التكاليف وبمصالح التكوين، كي يزيد من إيمانه.

ويستفاد من جملة: ﴿فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ أن لقب الـمسكين يُطلق على من يمتلك وسيلةً للكسب والعمل، وعنده رأسمال، ولكنه لا يفي بنفقاته. أما الفقير فهو من كانت حاله أسوأ من الـمسكين.

ويُسْتَفَادُ مِنْ جملة: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ.....﴾ أن الغلام كان قد وصل إلى سن التكليف وارتكب أعمالاً منكرةً فأراد الله إبدال أبويه بغيره. رُويَ أن الله أبدلهما عنه بجارية، فتزوّجها نبيٌّ من الأنبياء، فولدت له نبيًا فهدى الله عزَّ وجلَّ على يديه أُمّة من الأُمم.

ويُسْتَفادُ مِنْ جُمْلَةِ: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ أن صلاح الآباء يفيد العناية بأحوال الأبناء وقد سُمِّيَ ذلك الـمكان باسم الـمدينة ببركة ذلك الرجل الصالح، وحفظ الله كنز الأولاد، حتى يبلغوا سن الرشد ويستخرجوا كنزهم بأنفسهم. رُوِيَ أنه كان بين الغلامين وبين الأب الصالح سبعة آباء، ومن هذا يتبيَّن أن ذلك الرجل كان جدَّهم وأنه يصحُّ إطلاق لفظة الأب على الجدّ.

وجاء في الرواية أن ذلك الكنز كان لوحًا من ذهب مكتوبًا فيه: **بسم الله الرحمن الرحيم. «عَجِبْتُ لِـمَنْ يُؤْمِنُ بِالْقَدَرِ كَيْفَ يَحْزَنُ»، «عَجباً لِمَنْ أَيْقَنَ بِالرِّزْقِ كَيْفَ يَتْعَبُ»، «عَجباً لِـمَنْ أَيْقَنَ بِالْـمَوْتِ كَيْفَ يَفْرَحُ»، «عَجَبًا لِمَنْ يُؤْمِنُ بِالْحِسَابِ كَيْفَ يَغْفُلُ»**.

وتدلُّ جُمْلَةُ: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ أن ذلك العالـم إنما كان يقوم بتلك الأعمال بوحيٍ من الله وأمْرٍ منه، وَمِنْ ثَمَّ فإنَّه كان نبيًّا أو ملاكًا.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ

عَذَابًا نُّكۡرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الكهف: ٨٣-٨٨].

الفوائد: اختلف الناس في أنَّ ذي القرنين من هو؟ واختلفوا حول السَّبَب في تسميته بذي القرنين؟

كان اليهود هم الذين علَّموا الـمشْرِكين أن يسألوا رسول الله ﷺ عن قصة ذي القرنين كأحد الأسئلة الثلاثة التي دفعوهم أن يسألوها من الرسول ﷺ.

ويُسْتَفَادُ مِنْ هذه الآيات أن ذا القرنين كان ملكًا قويًا وصل سلطانه إلى الشرق والغرب، واجتمعت إليه كل أسباب الرُّقيّ والحركة، ويُسْتَفَادُ أيضًا من هذه الآيات، لاسيما من جملة: ﴿يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ ....﴾ أنه كان مخاطبًا مِنْ قِبَل الله أي كان نبيًّا يُوحى إليه. وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿فَأَتۡبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾ التي ذكرها الله في مدحه أن على كل شخص، خاصةً سلاطين الدُّنْيَا، أن يُعدُّوا أسباب التقدُّم والتطور ورفعة الأمة ولا يُقصِّروا في ذلك.

وأما السبب في تسميته بذي القرنين فيُمكن أن يكون أن حكمه وسلطانه دام قرنين من الزمن، أو لأن خوذته كانت ذات قرنين، أو غير ذلك.

واستشكل بعضهم جملة: ﴿وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٍ﴾ قائلاً: إن الشمس لا تغرب في عينٍ طينية شديدة الحرارة، والجواب: أن الله لم يقل: إن الشمس تغرب في عين حمئة، بل قال: إن ذا القرنين وجدها كذلك أو رآها على هذا النحو. وبالطبع فإن من يقف على ساحل على البحر يرى أن الشمس تُشرق من البحر وتغرب فيه، خاصةً أنه قال عن ذي القرنين: إنه وجد عند تلك العين أو عند موضع غروب الشمس قومًا.

﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٍ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَۖ وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمًا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلًا ﴿٩٣﴾ قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ

سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾ [الكهف: ٨٩-٩٨].

الفوائد: أوضح السيد «صدر بلاغي» في كتابه «فرهنگ قرآن» (أي معجم القرآن) أن المراد من ذي القرنين: «كورش» (الأخميني) وأنه هو الذي بنى سدًّا في أرض تقع بين بحر قزوين والبحر الأسود في سلسلة جبال القوقاز التي كانت بحدّ ذاتها جدارًا طبيعيًّا بين الشمال والجنوب، ولم يكن هناك طريق بينهما إلا مضيق جبلي يُدعى مضيق داريال، حيث يوجد حتى اليوم، قرب مدينة «**تفليس**»[1]، جدار حديديّ. وأما قوم يأجوج ومأجوج فهم قبائل متوحشة كانت تهاجم آسيا من ذلك الطريق وتشنُّ حملات نحو الغرب والجنوب من خلاله، وكانت جيوش المغول وجنكيزخان من بقايا أولئك الأقوام المتوحشين وذريَّتهم. وكان «كورش» قد احتلَّ الغرب والشرق ثم اتَّجه نحو الشمال وبنى ذلك السد. ولكن بعض المُفسِّرين قالوا: إن ذا القرنين لقب للإسكندر المقدونيّ[2]. وعلى كل حال، هذا الخبر القرآني أحد معجزات القرآن الذي نزل على قلب النبيّ الأميّ محمد ﷺ.

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾﴾ [الكهف: ٩٩-١٠١].

الفوائد: المَقْصود مِنْ جملة ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ...﴾ أنه بعد بناء السد

١- هي مدينة «**تبليسي**» عاصمة جورجيا الحالية وكبرى مدنها.

٢- ذكر عدد من المفسرين أنه من المستحيل أن يكون ذو القرنين الإسكندرَ المقدونيَّ لأنه كان وثنيًّا مشركًا وملكًا ظالـمًا وفاسقًا، فلا يمكن أن يمتدحه الله في كتابه، بل ذو القرنين هو «كورش»، كما ذهب إلى ذلك بعض المحققين. يُراجع كتاب «**كورش أو ذو القرنين**» لـ«أبي الكلام آزاد».

تركنا قوم يأجوج ومأجوج يختلطون ببعضهم، وأما يوم يُنفخ في الصور فسيجمعهم الله ويُحضرهم جميعًا وسيعرض عليهم جهنم فالذين أعرضوا عن آياته وأعمَوْا أبصارَهم وصمُّوا آذانَهم عن سماع كلمة الحق كفروا واستحقوا نار جهنم.

﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوۡلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ نُزُلٗا ١٠٢ قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِى ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ١٠٥ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ١٠٦﴾ [الكهف: ١٠٢-١٠٦].

الفوائد: تذمُّ هذه الآيات الذين يتَّخذون أشخاصًا «غيرَ الله» أولياءَ قيِّمين على أمورهم، ويعتبرونهم قادرين على كل شيء، وتحكم هذه الآيات بكفرهم، والـمُراد منهم أولئك الذين يجعلون عباد الله أولياء عليهم ويعتقدون أنهم يقضون حاجاتهم وأنهم أربابٌ لهم. والعجب أنه مع وجود مثل هذه الآيات في القرآن، لا يزال [بعض] مراجعنا الدينيين جاهلين تمامًا بها، كما أفتى أحدهم بأن أئمةَ الشيعة أصحابُ ولاية تكوينية ومنشأٌ لإرادة كيت وكيت، وقَبِلَ الجاهلون من شعبنا هذه الفتوى ودخلوا في الكفر وهم في الوقت ذاته يعتبرون أنفسهم مسلمين مُتَّبِعين للقرآن!.

ومعنى **النُّزُل** ما يُعَدُّ للضيف من مقدّمات الضيافة وهي الحواضر التي تُقَدَّم للضيف في بداية قدومه حتى إذا استراح من عناء السفر أُضيف على نحو أفضل الضيافةَ الكاملة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ١٠٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ١٠٨ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ١٠٩ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ١١٠﴾ [الكهف: ١٠٧-١١٠].

الفوائد: تدلُّ كلمة ﴿نُزُلًا﴾ أن جنان الفردوس هي حواضر البيت التي تُقدَّم للضيف أول

قدومه، ثم بعد ذلك تأتي ألطاف الله وعنايته بالـمؤمنين كلٌّ على قَدْر درجته.

وكلمة: ﴿حِوَلًا﴾ تعني التحول والانتقال وتدلُّ أن الفردوس وما يأتي بعدها من ألطاف الله الخاصة بالعبد تُمثِّل قِمَّة الكمال للمؤمنين ولا يكون بعدها درجة أعلى منها حتى يطلب الـمؤمن التَّحَوُّل والانتقال عنها.

وَالـمَقْصود مِنْ ﴿لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي﴾ مخلوقات الله ومقدّراته وأوامره.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَىَ: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أن النبيَّ بشرٌ مثل سائر البشر من جميع النواحي باستثناء ما استثنته آيات الله وهو الوحي لا غير، فكل ما ادَّعاه أهل الغُلوِّ بحقه أو بحقّ الأئمة من أولاده وذريته، أخبار موضوعة وأحاديث كاذبة لا أساس لها من الصحة.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَىَ: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ أنه لا يجوز عبادة أحد مع الله وإشراك أحد مع الله في العبادة، حتى النبيّ والإمام. ولما كان الدعاء عِبَادةً فدعاء غير الله يوجب الشرك. ومرةً ثانية نتعجب من أمة الإسلام التي لم تفهم هذه الآيات الواضحة إلى هذه الدرجة وتدعو غير الله، وتضع أدعيةً وتقول: إننا ندعو أولياء الله بوصفهم واسطةً ووسيلةً نتوسل بهم إلى الله. والجواب: إن ادِّعاءَكم هذا لا دليل عليه من الوحي ولا سندَ له فيما أنزله الله، وهو قولٌ ما أنزل الله به من سلطان، فليس عندنا في شرع الإسلام أمرٌ بدعاء أشخاص بوصفهم واسطةً ووسيلةً إلى الله.

سورة مريم

مكيَّة وهي ثمان وتسعون آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾ [مريم: ١-٣].

الفوائد: كما ذكرنا في أول سورة البقرة، لم تُذكَر حروف الهجاء المقطَّعة في بداية بعض السور لتؤدي معنى معينًا، بل ذُكِرَت لأجل تركيبها إلى جانب بعضها فقط، ولكن ابن عباس اعتبر أن هذه الحروف تشير إلى أسماء الله تعالى وقال: الكاف تعني الكافي لعباده، والهاء تعني الهادي لعباده، والعين معناها العالم بعباده، والصاد تعني الصادق!.

واختُلِف في إعراب كلمة ﴿ذِكۡرُ﴾، وقد اعتبرناها مبتدأ، اعتبرنا جملة: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾ خبرها. فإن قيل: إنَّ النداء لا يكون إلا بالجهر ورفع الصوت فكيف قال: إن زكريا نادى ربَّهُ نداءً خفيًّا؟ فالجوب: إن نداء الله غير نداء المخلوق.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبًا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾ [مريم: ٤-٦].

الفوائد: تدلُّ جُمْلَةُ: ﴿وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي﴾ على كمال الضعف وإظهار العجز، لأنه إذا ضعُفَت أقوى أجزاء البدن وهي العظام كان ضعف سائر أعضاء البدن من باب أولى.

وَالـمُرَادُ مِنْ جُمْلَةِ: ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ أنني لم أكن محرومًا من إجابتك في أدعيتي السابقة، لأنه إن لم يعتنِ الله بدعاء عبده، أصابَ العبدَ كلُّ شقاء.

والـمراد من ﴿ٱلْمَوَٰلِيَ﴾ أولاد العم وسائر الأقرباء. والـمراد من ﴿ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ أولاد يعقوب بن إسحق بن إبراهيم الخليل عليهما السلام، لأن زكريا كان من أولاد رحبُعام بن سليمان بن داود، وتعود سلسلة نسبه إلى هارون أخي موسى بن عمران عليهما السلام، ويعود نسب موسى عليه السلام إلى لاوي بن يعقوب.

وكان زكريا عليه السلام من الأنبياء العظام وقد ذُكِر اسمه في سبع آيات من القرآن: في الآيتين ٣٧-٣٨ من سورة آل عمران، وفي الآية ٨٥ من سورة الأنعام، وفي الآيات ٢-٧ من سورة مريم، وفي الآية ٨٩ من سورة الأنبياء.

ومعنى ﴿عَاقِرًا﴾: عجوزًا عقيمًا. والـمراد من عبارة «رَبِّ رَضِيًّا» أي اجعله يا ربِّ نبيًّا لك، لأن الأنبياء مرضيٌّ عنهم مِنْ قِبَل الله، ولا شك أن الأب ينبغي عليه أن يدعوَ أن يكون ابنه مرضيًّا عنه مِنَ الله.

﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩﴾ [مريم: ٧-٩].

الفوائد: يُطْلَقُ «الغُلام» على الولد الذي وصل إلى بداية الشهوة، كما يُطْلَقُ على الولد بشكل عام ودون قيد. ومعنى «**عِتِيًّا**» كِبَر السنّ إلى درجة الانحطاط والانكسار وفقدان القوى على نحو غير قابل للإصلاح.

ويدلُّ قولُهُ تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ على سهولة خلق النطفة من الرجل والـمرأة اللذين بلغا سن العجز والشيخوخة، ودليله أن الله يخلق ما يشاء من العدم، فالقادر على الإيجاد من العدم قادر على أن يوجد الولد من أبوين عجوزين.

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ

قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ١١﴾ [مريم: ١٠-١١].

الفوائد: لما أراد زكريا عليه السلام آيةً وعلامةً من الله تدلُّه على وقت خلق الغلام قال تعالى له: إنَّ علامة ذلك أنك لن تقدر أن تتكلم مع الناس ثلاثة أيام رغم أن لسانك سيكون قادرًا على ذكري.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ﴾ أنه لم يكن قادرًا على أن يكلِّم الناس فقط إلا بواسطة الإشارة والرمز. والمقصود من ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٖ﴾ ثلاثة أيام بلياليها بدليل قوله تعالى في سورة آل عمران ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗا﴾ [آل عمران: ٤١].

﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ١٣ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ١٤ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ١٥﴾ [مريم: ١٢-١٥].

الفوائد: تدلُّ جُمْلَةُ: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾ على أنه كما يعطي الحق تعالى مقام الرسالة والنُّبُوَّة لمن بلغ الأربعين من عمره يعطيها لرجل في حال طفولته أيضًا، ولكن لا يمكن قياس غير الأنبياء على الأنبياء، والله فاعل مختار . وقد ذكر الله في هذه الآيات عددًا من الصفات الحسنة ليحيى عليه السلام وهي:

١- خاطبه الله تعالى دون واسطة ملاك.

٢- كان له مقام النُّبُوَّة ومنصب الحكم، هذا إلا أن بعض المفسرين قالوا: المقصود من الحُكْم الحِكْمة والفهم أو العقل والذكاء، إذ لما كان الأطفال يدعونه إلى اللعب كان يقول: «**ما لِلَّعِبِ خُلِقْنا**». ولكن الآية ظاهرةٌ في النُّبُوَّة، لأنها في مقام إثبات الشرف والمنزلة ليحيى، ولا شرف أرفع من مقام النُّبُوَّة، ومقام النُّبُوَّة يصلح لحكم الناس ورئاستهم.

٣- حنون ورؤوف بنفسه وأمته. ﴿وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا﴾.

٤- طاهرٌ نقيٌّ ومبارَكٌ: ﴿وَزَكَوٰةٗ﴾

٥- تقيٌّ يتقي ترك الواجبات كما يتَّقي فعل المحرَّمات: ﴿وَكَانَ تَقِيّٗا﴾.

٦- متواضعٌ ومحسنٌ وبارٌّ بوالديه. ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾.

٧- لم يكن عنيدًا متمردًا بل متواضعًا، لأن «**من عرف نفسه بالذل وعرف ربه بالكمال كيف يليق به الترفع والجدال**».

٨- معصوم عن العصيان.

٩- تلقى السلام والعناية به من الله: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ﴾

١٠- حيٌّ عند ربه: ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾ [مريم: ١٦-١٨].

الفوائد: وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا...﴾ أن مريم ابتعدت عن عائلتها واتخذت لنفسها مكانًا منفصلاً. ولم تذكر الآية سبب قيامها بذلك، فقال بعضهم: السبب أنها حاضت فذهبت لتغتسل وتتطهَّر، وقال آخرون: عطشت فذهبت لتشرب الماء. وقال آخرون: ذهبت لتغتسل. وعلى كل حال فإن جملة ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ تدل على أنها ذهبت إلى الشرق من بيت المقدس، ولذلك اتخذ النصارى شرق بيت المقدس قبلةً لهم. والمقصود من ﴿رُوحَنَا﴾ جبريل عليه السلام.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ [مريم: ١٩-٢١].

الفوائد: جملة: ﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾ بمنزلة «ليهب الله لك» لأن جبريل قام بذلك العمل بأمر الله، ولما قالت مريم متعجِّبةً: كيف يمكنُ لِلَّهِ أن يرزقني الولد ولم يمسسني بشرٌ؟ أجابها جبريل: إن الله قال: هذا العطاء سهلٌ عليَّ لأني أخلق ما أشاء من العدم، وقد خلقتُ بشرًا دون والدين وأستطيع أن أخلق بشرًا دون أبٍ، ولكي أجعل ذلك الولد آيةً للناس. ومن هذا يَتَبَيَّنُ أن هذه

الكيفية من الخلق كانت إرهاصًا أي علامات مبكِّرَةً لعلامات ثبوت نبوة عيسى عليه السلام.

﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ٢٢ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ٢٣﴾ [مريم: ٢٢-٢٣].

الفوائد: كما ذكرنا في الآية ٩١ من سورة الأنبياء أي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١]. فهنا أيضًا يجب تقدير جملة «**فنفخ فيها**» قبل كلمة: ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾، أي نُفِخَ في رحم مريم فحملت. ويُسْتَفاد من حرف «الفاء» في جملتي ﴿فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ﴾ و ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ﴾ أنها حملت مباشرةً ثم ولدت دون مضيِّ مدة الحمل، وعلى كل حال لجأت إلى نخلةٍ لم يكن فيها أغصان ولا أوراق بل بقي جِذْعها فقط، لأن العرب يقولون لأصل جسم النخلة: الجِذْع.

﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ٢٤ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ٢٥ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ٢٦ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ٢٧ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ٢٨﴾ [مريم: ٢٤-٢٨].

الفوائد: المنادي الذي نادى مريم هو - حسب ظاهر القرآن - عيسى عليه السلام. وجذع النخلة كان شجرة خشبيَّةً جافَّةً لا أغصان لها ولا أوراق. وقد شاهدت حضرة مريم عليها السلام عدة معجزات هنا.

وقدم الحق تعالى قولَه ﴿فَكُلِى﴾ على قولِهِ ﴿وَٱشْرَبِى﴾ لأن النفساء أكثر حاجةً للتمر من حاجتها إلى الماء.

ونذر مريم كان عن الكلام، أي نذرت الصمت والسكوت. وهذا يُبَيِّن أن مثل هذا النذر كان جائزًا في الشرائع السابقة، واختُلِف في جوازه في شريعتنا، والأصح أنه لو ابتُلِيَ الإنسان باضطراره للتكلُّم مع السفهاء بما لا طائل تحته، وكان في صومه عن الكلام وسيلةٌ للفرار من

التكلُّم معهم، فهو جائز. وهنا: هل بيَّنَتْ مريم نذرها بلغة الإشارة [حتى لا تحنث بنذرها]، أم أنها نذرت بعد أن أخبرتهم بعزمها على هذا النذر؟ الله أعلم.

وتدلُّ عبارة: ﴿يَـٰٓأُخۡتَ هَـٰرُونَ﴾ أنه كان لمريم أخٌ يُدعى هارون كان رجلاً صالحًا.

﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا۝٢٩ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا۝٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا۝٣١ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا۝٣٢ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا۝٣٣﴾ [مريم: ٢٩-٣٣].

الفوائد: لما وبَّخ الناسُ مريمَ عليها السلام أشارت إلى عيسى عليه السلام، عندئذٍ نطق الوليد وبدأ بالكلام، أي أنطقه الله القادر على أن يُنْطِقَ كلَّ شيءٍ. وظاهر الآية أن ذلك الطفل الوليد بعد أن نطق بتلك الكلمات لزم الصمت ورجع كسائر الأطفال غير قادر على الكلام، إلى أن وصل إلى السن التي يبدأ الأطفال فيها عادةً بالكلام. ولكن يمكن أن نستنبط من جملة: ﴿أَيۡنَ مَا كُنتُ﴾ [الأعراف: ٣٧]. وجملة: ﴿مَا دُمۡتُ حَيّٗا﴾ أنه عليه السلام أُمِر بالصلاة والزكاة منذ سن الطفولة ذاك، وأنه كان متميِّزًا عن سائر الأطفال، وَمِنْ ثَمَّ لم يكن كسائر الأطفال غير قادر على الكلام.

وَيُسْتَفَادُ مِنْ جُمْلَةِ: ﴿مَا دُمۡتُ حَيّٗا﴾ أن التكليف يبقى على الإنسان ما دام حيًا ولا يسقط عنه بحالٍ من الأحوال إلا بموته[1]. وقول عيسى عليه السلام: ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ لمنع الغلوِّ بحقِّه.

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ۝٣٤ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ۝٣٥ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ۝٣٦﴾ [مريم: ٣٤-٣٦].

الفوائد: يشير اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى عيسى عليه السلام الذي قال: ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ أي أن

١- وفي هذا ردٌّ على بعض الغلاة المبتدعين القائلين بأنه إذا وصل العارف إلى معرفة الله أو إلى معرفة الإمام سقط عنه التكليف!

عيسى الواقعي والحقيقي هو ذاك الذي قال: إنني عبدُ الله! ولم يكن ذاك الذي قال عنه اليهود: إنه كان ساحرًا، ولا كان الذي قال عنه النصارى: إنه كان ابنَ اللهِ، لأن الابن يجب أن يكون من نوع جنس أبيه، وليس اللَّهُ تعالى بشرًا مثل عيسى عليه السلام!! إضافةً إلى أن عيسى عليه السلام حادثٌ ولا يمكن أن يكون الحادثُ قديمًا مثل الحق تعالى! وجملة: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ معطوفة على جملة: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾، أي أن عيسى عليه السلام قال: إنِّي عبدُ اللهِ، وإنَّ اللَّهَ تعالى ربِّي وربُّكم.

﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [مريم: ٣٧-٤٠].

الفوائد: المقصود من ﴿ٱلْأَحْزَابُ﴾: فرق اليهود والنصارى. وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ أن الكفار سيكونون جميعًا مبصرين وسامعين يوم القيامة، أما قوله تعالى في آيات أخرى أن الكفار سيحشرون صُمًّا وبكمًا [الأنعام: ٣٩] فالمقصود أنهم **صُمٌّ وَبُكْمٌ** عن الحق والهداية. والـمُرَادُ مِنْ جُمْلَةِ: ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾: أي إلى حكمنا يُرْجَعُون، لأنه ليس لِلَّهِ تعالى مكانٌ محدَّدٌ.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾ [مريم: ٤١-٤٥].

الفوائد: لما انتهت قصَّة عيسى وزكريا عليهما السلام التي كان الهدف من ذكرها الهداية لأمر المبدأ والمعاد رجع الحق تعالى إلى قصَّة إبراهيم عليه السلام لوجوهٍ أحدُها أن إبراهيم عليه السلام كان أبَ العرب وكانوا مقرين بعلوّ شأنه وطهارة دينه.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ...﴾ أن الدين يجب أن يقومَ ويُبْنَى على

الاستدلال لا على التقليد. كما تدلُّ جملة: ﴿قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ أن الدين يجب أن يكون علميًّا. وتدلُّ كلمة ﴿يَـٰٓأَبَتِ﴾ وتكرارها على رأفة إبراهيم بأبيه ومداراته له وعطفه عليه.

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَـٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيًّا ٤٦ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ٤٧ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ٤٨﴾ [مريم: ٤٦-٤٨].

الفوائد: بما أنه لم يكن لدى آذر أيُّ جوابٍ منطقيٍّ، بدأ يهين إبراهيم ويهدِّده، وحتى أنه لم يراعِ معه العاطفة الأبوية فلم يقل: يا بُنيَّ! بل قال: يا إبراهيم! إن لم تنتهِ عن دعوتك هذه سأطردك وأرجمك بالحجارة.

والمقصود من شقيًّا في عبارة ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ أي عسى أن يستجيب الله بلطفه لدعائي ولا يمنع عني استجابته فأشقى. هذا وقد كان سببُ استغفار إبراهيم لأبيه أَمَلَهُ بإيمانه.

﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلًّا جَعَلۡنَا نَبِيًّا ٤٩ وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيًّا ٥٠﴾ [مريم: ٤٩-٥٠].

الفوائد: لما رأى الله تعالى أن إبراهيم عليه السلام أقدم على البرهان على التوحيد والثبات أمام المشركين من جميع النواحي، وأنه أسلم وجهَهُ لِلَّهِ وأَسْلَمَ قَلْبَه للإيمان، وعوَّد لسانَه ذكرَ الله المنَّان وأعدَّ جسمه للاحتراق بنار نمرود، وابنَه للتضحية به تنفيذًا لأمر الله، وقدم ماله لإكرام الضيوف، أنزل عليه رحمته وأعطاه عطاءً وافرًا من نُبُوَّة الأبناء وحسن الذكر لدى الآتين في المستقبل، أي لدى اليهود والنصارى والمسلمين.

ولا يخفى أن كلمة: ﴿عَلِيًّا﴾ في جملة ﴿لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيًّا﴾ ليست اسمًا بل وصفًا أي جعلنا لهم ثناءً عاليًا ومدحًا خالدًا، لكن الذي اخترع دعاء الندبة تخيل أن لفظةَ عَلِيٍّ هنا اسمُ عَلَمٍ للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام!!.

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥١ وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ٥٢ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا ٥٣﴾ [مريم: ٥١-٥٣].

الفوائد: كلمة ﴿مُخۡلَصٗا﴾ بفتح اللام، ولكنها قُرئت بكسرها أيضًا، فإن كانت بفتح اللام كان الـمعنى أن موسى اسْتُخلِص أي اخْتِير واصْطُفِي من بين العباد. أما إن اعتبرنا اللام مكسورةً صار الـمعنى أن موسى أَخْلَصَ لِلَّهِ في التوحيد والعبادة.

وكلمتا ﴿رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾ كلتاهما خبرٌ لِـ «**كانَ**»، و«النبيُّ» هو الذي يأتي بالخبر أي الذي يُنبئُ به، وأيضًا معناه الشخص ذو الشأن العالي والقدر الرفيع، والظاهر في هذه الآية هو هذا الـمعنى الثاني.

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥٤ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ٥٥﴾ [مريم: ٥٤-٥٥].

الفوائد: قصة إسماعيل عليه السلام هي خامس قصة من قصص الأنبياء في هذه السورة، وهل إسماعيل هو ابن إبراهيم أم هو نبيٌّ آخر؟ الظاهر أنه ابن إبراهيم ذاته. وقد ذكر الله تعالى عدة أوصاف حميدة له هي التالية:

الصفة الأولى: أنه كان صادق الوعد، وهذا الصدق مطلقٌ يشمل وعودَهُ لِلَّهِ ووعودَه للخلق، أما وعده لِلَّهِ فيشمل كل تكليف تعهد أن يؤديه لِلَّهِ في وقته، كما وعد - في قصة الذبح- أن يصبر فوفى بوعده. وأما مع الخلق فإنه وعد شخصًا بأنه سينتظره فنسي الشخصُ الـمَوْعِدَ فبقي إسماعيل ينتظر في مكان الوعد ولم يتركه حتى جاء ذلك الشخص إلى ذلك الـمكان لقضاء حاجةٍ من حوائجه فلقي إسماعيل ينتظره.

الصفة الثانية: أنه كان رسولاً نبيًا أي رفيع القدر عالي الـمنزلة.

الصفة الثالثة: أنه كان يأمر أهله بالصلاة والزكاة، والـمراد من «أَهْلِهِ» - حسب الظاهر- زوجته وعياله، ويمكن أن يكون الـمقصود أمته وأتباعه.

الصفة الرابعة: أنه كان عند ربه مرضيًّا، وكانت هذه الصفة أكبر مديح رباني له عليه السلام.

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ٥٦ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧﴾ [مريم: ٥٦-٥٧].

الفوائد: قصة إدريس سادس قصة من قصص الأنبياء في هذه السورة، وحضرة **إدريس** عليه السلام هو جَدُّ أبي نوح، وجاء في التوراة وفي التواريخ أن اسمه الحقيقي **أخنوخ**، ولكنه لكثرة دراسته سُمِّيَ باسم **إدريس**، وكان أوّل من خاط الثياب ولبس المخيط وعلَّمَهُ اللَّهُ علمَ النجومِ والحسابِ والفلكِ، فكان تلك معجزته.

واختُلِف هل المراد من ﴿وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧﴾ الرفعة في المكان أم في المقام؟ وهل كان الرفعُ جسمانيًا أم روحيًا؟ وفي نظرنا: الذي يناسب مقام النُّبُوَّةِ هو الرفعة في المكانة والمنزلة، وأن ذلك الرفع كان روحيًّا.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا۩ ٥٨﴾ [مريم: ٥٨].

الفوائد: اعلم أنه تعالى أثنى على كل واحد ممن تقدم ذكره من الأنبياء بما يخصُّه من الثناء، ثم جمعهم آخرًا فقال: «أولئك الَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم» أي بِالنُّبُوَّةِ، وذكر نَسَبَهُمْ فَجَمَعَهُمْ في كونهم من ذريِّةِ آدم مثل حضرة إدريس وسائر الأنبياء، ثم خَصَّ بعضهم بأنه من ذرية نوح ومِمَّنْ حُمِلَ معه من أتباعه. وبعضهم من ذرية إبراهيم ويعقوب مثل حضرة إسماعيل وموسى وهارون وزكريا وغيرهم.

والمقصود من الإنعام الإلهي الذي أنعم الله به عليهم: مقام النُّبُوَّة وسائر النِّعَم الدنيوية والأخروية، وكان من صفات جميعهم أنهم عند سماعهم آيات الله يَخِرُّون سُجَّدًا وَبُكِيًّا خُضُوعًا وخُشُوعًا وَحَذَرًا وَخوفًا.

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ٥٩

إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾
جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ
فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًاۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنْ
عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾ [مريم: ٥٩-٦٣].

الفوائد: كلمة «**خَلَفَ**» بفتح اللام تعني الخَلَف الصالح، وإن كانت خَلْف بسكون اللام كان معناها الخلف الطالح، وهنا جاءت بسكون اللام والـمراد منها الأشخاص الذين جاؤوا بعد الأنبياء وتركوا عبادة الله وضلوا عن سبيله.

والـمُرَادُ مِنْ جُمْلَةِ: ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ الرزق الدائم لأن الجنة ليس فيها صباح ومساء.

والـمقصود من ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ وعد الجنة التي هي غائبة عن النظر الآن.

والـمقصود من ﴿نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ نورث من عملهم بحسب الظاهر. وعلى كل حال يتبين من هذه الآية أن الجنة هي مكان الـمتقين الصالحين وليست مكانًا للعصاة الفاسقين الـملوَّثين بأقذار الـمعاصي والآثام.

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ
نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ
سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم: ٦٤-٦٥].

الفوائد: ظاهر الكلام أن جملة ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ...﴾ كلام الـملائكة، لأن الكفَّار كانوا يقولون - كما جاء في سورة الضُّحى - لقد ودَّع اللَّهُ محمَّدًا وقلاه ولن يُوحَى إليه بعد ذلك، لأن الوحي انقطع عنه مُدَّةً. فلما نزل جبريل قال له رسول الله ﷺ: لِمَ تأخرت عليَّ، فقال جبريل هذه الكلمات: بإذن الله وبأمره، وفي خلال ذلك جاء الخطاب إلى النبيّ ﷺ بأن ربَّك ليس نَسِيًّا حتى ينساك، وإنما عليك الصبر وطول حبل الأناة والثبات وأن لا تكُ في ضَيْقٍ مما يقوله الكفار عنك.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ أن أسماءَ الله خاصَّةٌ به، أي أنه لا يجوز إطلاق

أسماء الله على الـمخلوق وإن أُطلق ذلك في الوحي أحيانًا، فإما أن الاسم لم يكن خاصًا بالله، أو أنه أُطلق على سبيل الـمجاز، وبناءً على ذلك لا يحقّ لأحد أن يُطلق اسم الله على غيره. وجملة: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ وإن كانت استفهامًا إلا أنها استفهام إنكاري معناه النفي أي: «**لا تعلم له سَمِيًّا**».

﴿وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ٦٦ أَوَ لَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا ٦٧ فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيّٗا ٦٨ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيّٗا ٦٩ ثُمَّ لَنَحۡنُ أَعۡلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمۡ أَوۡلَىٰ بِهَا صِلِيّٗا ٧٠﴾ [مريم: ٦٦-٧٠].

الفوائد: أنكر الكفار الحشر والنشور دون دليلٍ بل لُمجَرَّد الاستبعاد، ولذلك كانوا يقولون على وجه الاستنكار والاستبعاد: هل يُمكن أن يحدث مثل هذا الشيء؟ في مقابل ذلك ردَّ الله عليهم بالاستدلال والبرهان على إمكانية ذلك من خلال خلقهم من العدم بدليل جملة: ﴿وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا﴾.

والشيعةُ في جُملَةِ: ﴿مِن كُلِّ شِيعَةٍ...﴾: كلُّ جماعة يتَّبعون كبيرهم وعظيمهم، كما جاءت في آيات أخرى من القرآن كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿أَيُّهُمۡ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ عِتِيّٗا﴾ أن زعماء الكفار الذين كانوا أكثر تمرُّدًا على الله وأكثر عنادًا وعصيانًا له وكانوا سببًا في ضلال أتباعهم، سيفصلهم الله يوم القيامة عن سائر الكفار وسينطبق عليهم قوله تعالى: ﴿زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ﴾ [النحل: ٨٨].

﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ٧١ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا ٧٢﴾ [مريم: ٧١-٧٢].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ أن أفرادَ البشر جميعَهم، مؤمنَهُمْ وكافِرَهُمْ، سَيَرِدون جهنم. واستشكل بعضهم كيف يتفق هذا مع قوله تعالى في حقِّ الـمؤمنين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]. و: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ [الأنبياء: ١٠٢]؟

ويُمكن أن نقول في الجواب: إن الـمقصود من الورود الاقتراب من جهنم وليس الدخول فيها، كما قال تعالى في سورة القصص عن موسى عليه السلام لما اقترب من بئر ماءِ مدين: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ﴾ [القصص: ٢٣]. إذ ليس الـمقصود بالطبع دخول موسى داخل ماء البئر. والجواب الآخر: حسنٌ، حتى لو قلنا: إن الـمؤمنين يدخلون النار حقيقةً إلا أن الحقّ تعالى يُبعد النار عنهم ولا يُوصل أصواتها الـمخيفة والـمرعبة إلى آذانهم. وهذا الجواب أكثر انسجامًا مع جملة: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي...﴾ ولهذا الورود إلى النار عدّة فوائد:

الفائدة الأولى: أنهم عندما يخرجون منها يكونون أكثر سعادةً وسرورًا.

الفائدة الثانية: أنه عندما يرى أهل النار خروج الـمؤمنين الصالحين منها يزداد غمُّهم وحزنهم، كما يزداد التذاذ الـمؤمنين بنعيم الجنَّة ويزداد شكرهم لِلَّهِ وحمدهم له.

﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا ٧٣ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَحۡسَنُ أَثَٰثٗا وَرِءۡيٗا ٧٤﴾ [مريم: ٧٣-٧٤].

الفوائد: لما كانت آيات العذاب والثواب تُتلى على كفار مكة كان الكفار يُرجِّلون شعورهم ويدَّهنون ويتطيَّبون ويتزيَّنون بالزينة الفاخرة ويقولون للمسلمين الذين كانوا في الفقر والشدّة: نحن أكرم على الله منكم ومجالسنا أكثر نِعمةً وراحةً وعِزًّا. فأنزل الله تعالى الآيات الـمذكورة ردًّا عليهم[1].

﴿قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضۡعَفُ جُندٗا ٧٥ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٞ مَّرَدًّا ٧٦﴾ [مريم: ٧٥-٧٦].

الفوائد: يمدّ الله تعالى بمدده كلَّ الناس سواءً الضالين أم الـمهتدين، ولما كان هذا الأمر عند الله حتميًّا جاء بصيغة الأمر فقال: ﴿فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ..﴾ كي يعتبر السامع أن ذلك أمرًا

١- انظر مثلاً **التفسير الكبير** للفخر الرازي، ٢١/ ٢٤٥. و**معالم التنزيل** للبغوي، ٥/ ٢٥٢.

قطعيًّا. ثم قال تعالى ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ ردًّا على قول الكفار: ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا﴾ وقال تعالى أيضًا: ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ ردًّا على قول الكفار: ﴿وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ وقال: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ﴾ ردًّا على قولهم: ﴿أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾.

والمقصود من جملة: ﴿إِمَّا ٱلْعَذَابَ﴾ الذل والفقر والمرض والخوف في الدنيا وتسلط المؤمنين عليهم.

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ٧٧-٨٢].

الفوائد: نزلت هذه الآيات في الوليد بن المغيرة والمشهور أنها في العاص بن وائل، إذ قال خَبَّابُ بنُ الأَرَتِّ: كان لي عليه دين فاقتضيته فقال: لا والله حتى تكفر بمحمد. قلت: لا والله لا أكفر بمحمد ﷺ لا حيًّا ولا ميتًا ولا حين تُبعث. فقال: فإني إذا متُّ بُعِثْتُ؟ قلتُ: نعم. قال: إن بعثتُ وجئتَني فسيكون لي ثمَّةَ مالٌ وولدٌ فأعطيك، وقيل: صاغ خبَّاب له حليًا فاقتضاه فطلب الأجرة فقال: إنكم تزعمون أنكم تُبعثون، وأن في الجنة ذهبًا وفضة وحريرًا فأنا أقضيك ثمَّةَ، فإني أُوتى مالاً وولدًا حينئذ، فأجاب الله تعالى عن كلامه بقوله: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾[1].

وكان المشركون يتوسلون بالأصنام وبالعظماء وبالأنبياء الماضين وينذرون لهم النذور ويدعونهم كي يكونوا سببًا لعزّتهم فقال الحقّ تعالى: هؤلاء العظماء والأنبياء أنفسهم سيكفرون بعبادة المشركين لهم ويُنكرونها وسيكونون أعداءً لمن أشركهم مع الله في العبادة.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ

١- انظر **التفسير الكبير**، للفخر الرازي، ٢١/ ٢٤٩.

لَهُمۡ عَدّٗا﴿٨٤﴾﴾ [مريم: ٨٣-٨٤].

الفوائد: المقصود من ﴿أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ...﴾ أننا تركنا الكافرين لوساوس الشياطين. ومعنى ﴿نَعُدُّ لَهُمۡ﴾: نعدُّ أنفاسهم وساعات عمرهم أو أعمالهم.

﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا﴿٨٦﴾ لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا﴿٨٧﴾﴾ [مريم: ٨٥-٨٧].

الفوائد: هذا العهد المشار إليه في الآية الأخيرة هو الذي ذكره الله في سورة البقرة في قوله: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴿٨٠﴾﴾ [البقرة: ٨٠]. أي أنكم لو اتخذتم عند الله مثل ذلك العهد بأنكم مهما ارتكبتم من جرائم وآثام فستنالكم الشفاعة ويُعفى عن جميع ذنوبكم، لوفى الله بالطبع بذلك العهد لكم. وفي الحقيقة الاستثناء في جملة: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ...﴾ استثناء منقطع، أي لم يعطِ الله أبدًا مثل ذلك العهد لأحد.

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا﴿٨٨﴾ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا﴿٩٠﴾ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا﴿٩٥﴾﴾ [مريم: ٨٨-٩٥].

الفوائد: هذه الآيات تتعلّق بالنصارى الذين قالوا كلامًا ركيكًا وشديد القبح بحق الله فنسبوا إليه الولد جهلاً منهم بالله، كما أن هذه الآيات ردٌّ على الذين قالوا إن لِلَّهِ خليفةً، لأنه كما يكون الابن خليفةً لأبيه ومحبوبًا منه كذلك يكون خليفةُ الشخص -حسبما نسبه العوام لِلَّهِ-. كما أن هذه الآيات ردٌّ أيضًا على الذين زعموا أن الملائكة بنات الله، ويبدو أن المشركين لم يكونوا يعلمون أن بين الابن والأب توالدًا وجزئيةً، بل أحيانًا يكون الأب بعيدًا جدًا عن ابنه ولا يكون لكل من الأب والابن أي اطلاع على حال الآخر، ففي الحقيقة لم يعرف المشركون اللَّهَ وظنوا به هذه الظنون الجاهلة وصغَّروا عظمته. «**نعوذ بالله من الجهالة والحماقة!!**».

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ٩٦ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ٩٧ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا ٩٨﴾ [مريم: ٩٦-٩٨].

الفوائد: كلمة ﴿وُدّٗا﴾ مصدرٌ بمعنى الحُبّ، أي أن الله سيحدث لهم في القلوب مودة ويزرعها لهم في قلوب الأنبياء والملائكة والمؤمنين. ويُمكن أن نعتبر ﴿وُدّٗا﴾ بمعنى المحبوب أي نعتبر المصدر على معنى المفعول، أي سيهب الله لهم ما يُحِبُّون، ومعناه سيعطيهم الرحمن وُدَّهُم أي محبوبهم في الجنة(١).

١- مستفاد من **التفسير الكبير**، الفخر الرازي، ٢١/ ٢٥٥ - ٢٥٦.

سورة طه

مكيَّة وهي مئة وخمس وثلاثون آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طه١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ٢ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ٣ تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى٤ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ٥ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ٦﴾ [طه: ١-٦].

الفوائد: **طه**: من الحروف المقطَّعة وقد بيَّنَّا أنها لم تُوضع لتؤدي معنىً محددًا، لكن بعضهم اعتبرها إشارة إلى الطاهر والهادي وغير ذلك.

لما كان رسول الله ﷺ يقوم الليل في تهجُّده شكرًا لِلَّهِ على نزول الوحي عليه حتى تورَّمت قدماه الشريفتان من كثرة الوقوف بين يدي الله، قال الحقّ تعالى له: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ٢﴾ كي لا يُوقع نفسه في المشقة والتعب. وقال بعض الكفار: إن نزول القرآن عليك كان سببًا لشقائك وتعبك حيث تركت دين آبائك وخاصمت قومك، فقال تعالى ردًّا عليهم: ليس الأمر كذلك، فالقرآن لم يُنزَّل عليك ليُسبِّب لك الشقاء والتعب بل هو سبب لفوزك وفلاحك وسعادتك. وقال بعضهم: يُحتمل أن يكون المراد لا تشقّ على نفسك ولا تُعذِّبها بالأسف على كفر هؤلاء والحسرة عليهم لأننا ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ٢﴾، فلا يحزنك كفرهم.

ولعلَّ رسول الله ﷺ كان يظنُّ أنه مسؤول عن قومه فقال تعالى له: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾ [الأنعام:١٠٧].

وهذه السورة من أوائل ما نزل بمكة وكان رسول الله ﷺ حينها مقهورًا تحت ذلّ أعدائه فكأنّه سبحانه قال له: «لا تظنّ أنّك تبقى على هذه الحالة، بل يعلو أمرك ويظهر قدرك ولا تبقى شقيًّا بنظرهم».

والـمقصود من ﴿ٱلۡعَرۡشِ﴾ كلّ العالـم والكون وما سوى الله، الذي يجري فيه أمر الله، لأن الله لا يحدُّه مكان[1].

﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ٨﴾ [طه: ٧-٨].

الفوائد: تدلُّ جُمْلَةُ: ﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ...﴾ أنه لا فرق عند الله أن يُؤدي الإنسان عبادته جهرًا وعلنًا أم سِرًّا وخُفيةً لأن الله يعلم كل ذلك. والـمقصود من ﴿ٱلسِّرَّ﴾ ما يجول في فكر الإنسان أو السِرّ الذي لا يعلمه أحد سوى صاحبه. وأما كلمة ﴿وَأَخۡفَى﴾ فالـمراد منها الأمور التي كانت في ذهن الإنسان فنسيها أو الأشياء التي يحتاج إلى إعمال فكره حتى يتذكّرها وتأتي إلى ذهنه.

ومن الـممكن أن يُراد من حرف ﴿إِن﴾ في جملة ﴿وَإِن تَجۡهَرۡ...﴾ «إِنْ» الوصلية يعني: رغم أنك تقول كلامك جهرًا إلا أن الله يعلم أيضًا السر وأخفى. والخلاصة، تشير الآيَةُ إلى ترك الجهر.

وأما ﴿ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ فقد شرحناها في سورة الأعراف، الآية ١٨٠، وسورة الإسراء، الآية ١١٠. وسنُبيِّنها أيضًا في التعليق على الآية ٢٤ من سورة الحشر.

﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ٩ إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ

١- بل المراد العرش حقيقة، وهو عرش الرحمن ﷻ. انظر تعليق الـمُصحح في هامش تفسير الآية الأخيرة من سورة التوبة. وأما في استواء الله تعالى على عرشه كما يليق بجلاله دون تكيف ولا تمثيل، فانظر تعليق الـمُصحح في هامش تفسير الآية الثانية من سورة رعد. [الـمُصحح]

ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ١٢﴾ [طه: ٩-١٢].

الفوائد: جملة: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ﴾ ليست استفهامًا حقيقيًّا، ولذلك أجاب الـمتكلم نفسه عن السؤال لا السامع، فهو استفهام تقريري. قال الـمُفسِّرون: استأذن موسى عليه السلام حماه (أبو زوجته) شعيبًا في الرجوع إلى مصر لرؤية والدته فأذن له، فخرج فولد له ابنٌ في الطريق في ليلة شاتيةٍ مُثلجةٍ وكانت ليلة الجمعة وقد حاد عن الطريق وأضاعه، فقدح موسى عليه السلام النار فلم تورِ الـمقدحة شيئًا، فبينا هو في مزاولة ذلك إذْ نَظَر نارًا من بعيد عن يسار الطريق. فقال لامرأته: امكثي، وإنما جاء بصيغة الجمع: ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ﴾ احترامًا لعياله وتفخيمًا لها. وقال: لعلي آتيكم بشعلة من النار، واستخدم كلمة ﴿لَّعَلِّيٓ﴾ احترازًا عن الكذب كي لا يقول أمرًا لا يستيقن من قدرته على الوفاء به. والـمراد من ﴿ٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾ إما خلع النعلين الحقيقيين، أو تطهير الباطن أو قطع تعلق القلب بالـمرأة والولد أو ترك الدنيا، حسبما اختلف فيه الـمُفسِّرون، ولكن ظاهر الآية هو خلع النعلين الـمعروفين.

﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ١٣ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ١٦﴾ [طه: ١٣-١٦].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱخۡتَرۡتُكَ﴾ أن مقام النُّبُوَّة يكون باختيار الله واصطفائه ولا يُنال بالرياضات الروحية وعبادات النبيّ، وجملة: ﴿ٱخۡتَرۡتُكَ...﴾ دليل على كمال اللطف الإلهي به.

وفي جملة: ﴿فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ نهاية الهيبة والجلالة، فكأنه قال: لقد جاءك أمر عظيم هائل فتأهب له واجعل كل عقلك وخاطرك مصروفًا إليه.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي....﴾ على تقديم التوحيد على العبادة وتقديم الأصل على الفرع، كما تدل على أن الله يستحقّ العبادة بدليل ألوهيته.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ أن هدفَ الصلاةِ ذِكْرُ الله، والصلاة تشتمل على الذكر،

بل الصلاة هي الذكر في حدّ ذاته لإطلاق الكل على أجزائه. ومن الممكن أن يكون المعنى: «**أقم الصلاة لذكري إياك**»، أي اذكرني أذكرك. يعني كن ذاكرًا لي غير ناسٍ. أو: «**أقم الصلاة في أوقات الصلاة**»، يعني لوقت ذكري. أو «**وأقم الصلاة حين تذكرها**»، يعني: «**إذا نسيت الصلاة فاقضها إذا ذكرتها**».

ولا يخفى أن «**كاد**» من الله واجبة، فمعنى ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ أي «**أنا أُخْفيها**». وجملة: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ تدل على ذم التقليد: «**من اتَّبع هواه فهو مذموم ومن اتَّبع هوى غيره بطريق أولى!**».

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [طه: ١٧-٢١].

الفوائد: جملة: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ...﴾ ليست استفهامًا حقيقيًا بل هي استفهام تقريري. وذكر موسى عليه السلام فوائد للعصا ومقصوده التكلم مع المحبوب وإلا فإن الحقّ تعالى لم يسأله عن فوائدها. والغرض من أمر ﴿أَلْقِهَا﴾ في تلك الليلة الشاتية، تعويد موسى واختباره حتى إذا ألقى العصا في قصر فِرعون فتحوَّلَتْ ثعبانًا مبينًا لم يخف منه. وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ أن الله هو الذي جعل العصا ثعبانًا وهو الذي أرجعها إلى حالتها الأولى، فالمعجزة إذن لم تكن من صنع موسى عليه السلام.

﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [طه: ٢٢-٢٤].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾ أن إحدى معجزات موسى عليه السلام كانت اليد البيضاء، وذلك أن موسى كان حنطيَّ اللون فلما جعل يده تحت إبطه ثم أخرجها خرجت بيضاء نورانية.

﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ٢٥ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ٢٦ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ٢٨ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ٣٣ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ٣٥﴾ [طه: ٢٥-٣٥].

الفوائد: لما رأى موسى عليه السلام تلك الآيات وسمع تلك الكلمات وفهم أنه بُعث لهداية العالمين لاسيما لهداية شخصٍ عنيدٍ عاتٍ مثل فِرعون جاءه الخطاب من الحضرة الإلهية: «**يا موسى، اسمع كلامي واحفظ وصيتي وانطلق برسالتي فإنك بعيني وسمعي وإني ألبستك جُنَّة من سلطاني لتستكمل بها القوة في أمري. أبعثك إلى خلق ضعيف من خلقي، بطر نِعمتي وأمن مكري وغرَّته الدُّنْيَا حتى جحد حقي وأنكر ربوبيَّتي، وإني أقسم بعزَّتي لولا الحُجَّة والعذر الذي وضعت بيني وبين خلقي لبطشت به بطشة جبار، ولكن هان عليَّ وسقط من عيني، فبلِّغه عني رسالتي وادعه إلى عبادتي وحذِّره نقمتي. لا يغترَّنَّ بلباس الدُّنْيَا فإن ناصيته بيدي لا يطرف ولا يتنفس إلا بعلمي، فسكت موسى سبعة أيام لا يتكلم ثم جاءه ملك فقال: أجب ربَّك**»[1]. ثم عرض موسى عليه السلام حاجاته الثمانية على الله فأجابه الحقّ تعالى:

﴿قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ٣٦ وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ ٣٧ إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ٣٨ أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ٣٩﴾ [طه: ٣٦-٣٩].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنَنَّا عَلَيۡكَ مَرَّةً أُخۡرَىٰٓ﴾ أن الله كان يُراعي مصلحتك دائمًا فلأن يُراعيها الآن من باب أولى، وأراد بكلمة «مَنَنَّا» أن يقول له: إنك لم تكن طالبًا لتلك النِّعم أو مستحقًا لها لكننا أعطيناكها تفضّلاً منا.

وليس المراد من جملة: ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾ وحيَ النُّبُوَّةِ، بل إما كان ذلك إلهامًا لها، أو أراها

١- أبو حيان الأندلسي (ت ٧٤٥ هـ)، **تفسير البحر المحيط**، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م. ٦/ ٢٢٣. وعلاء الدين علي بن محمد البغدادي الشهير بالخازن (ت ٧٤١)، **تفسير الخازن**، بيروت، دار الفكر، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م. كلاهما دون سند عن وَهَب بن منبِّه.

اللَّهُ ذلك رؤيا في المنام، أو ألقى في ذهنها تلك الفكرة، أو تجسَّد لها ملاكٌ فأرشدها إلى ذلك الفعل، لأن الله تعالى قال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ [الأنبياء: ٧]. (فالنبوَّة والوحي للرجال فقط). وعلى كل حال، أرشد اللَّهُ أمَّ موسى وقوَّى قلبها كي ترمي بموسى في نهر النيل بعد أن تضعه داخل صندوق.

﴿إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَۚ وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ يَٰمُوسَىٰ ۝٤٠ وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ۝٤١﴾ [طه: ٤٠-٤١].

<u>الفوائد</u>: لما طلب موسى عليه السلام ثمانية أشياء من الله أجاب الله طلبه ومنَّ عليه في ثمانية أمور:

١- أننا أوحينا إلى أمك.

٢- ألقيتُ عليك محبَّةً مني أي جعلت محبَّتَك في قلوب الناس حتى أن امرأة فِرعون أحبَّتك أيضًا.

٣- ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ أي لنُرَبِّيك تحت نظرنا وحراستنا.

٤- ﴿إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ﴾ أي حملنا أختك على أن تذهب وتقول: ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥ﴾

٥- ﴿وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا فَنَجَّيۡنَٰكَ﴾

٦- ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗا﴾ لمزيد ثوابك. (ولا يخفى أن هذه الآية تدل على أن الله يُمكن تسميته بالفتَّان، ولكن لما كانت أسماءُ الله توقيفيةً ولم يرد مثل هذا الاسم في القرآن فلا يجوز إطلاق الفتَّان على الله، لأن هذه الصفة هي صفة ذم في عُرف الناس).

٧- ﴿فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ﴾ أي لبثت عشر سنوات حتى أصبحت قادرًا وبلغت سن النُّبُوَّة ورجعت طبقًا لقضاءٍ مُعيَّن ووقتٍ مُعيَّن قدَّره الله من قبل.

٨- ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي﴾.

﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ﴿٤٢﴾ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه: ٤٢-٤٦].

الفوائد: الخطاب والجواب في هذه الآيات لشخصين هما موسى وهارون، هذا مع أن هارون لم يكن في صحراء سيناء ولا جبل الطور فيها، فيُمكننا أن نقول: إنه بعد أن سأل موسى ربَّه قائلاً: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ﴿٢٩﴾﴾ وأجاب الله طلبه، أُمِرَ هارون بوحيٍ من الله أن يذهب إلى الطريق بين مدين ومصر ليلتحق بموسى، وأن تلك الخطابات نزلت عليهما هناك.

والـمقصود من الذكر في جملة: ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي﴾ قد يكون أن ذِكري وتذكُّري سببٌ لطمأنينة قلبيكما، وسببٌ إلى أن تعدُّوا سلطنة فِرعون -في هذا الطريق الـمليء بالخطر- حقيرة الشأن وتمتلكوا الشجاعة والجرأة أكثر: ومن الـممكن أن يكون الـمقصود من الذكر تبليغ الرسالة أو تذكير فِرعون وآله بإحسان الله ونِعمه عليه وبعقاب الله وثوابه.

﴿فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾ [طه: ٤٧-٤٨].

الفوائد: الـمقصود من ﴿ايَةٖ﴾ في جملة: ﴿قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ﴾ جنس الآية الذي يشمل اليد البيضاء والعصا وسائر الآيات.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿أَنَّ ٱلۡعَذَابَ...﴾ أن الكفار معذَّبون أما الـمؤمنون الـمذنبون الذين اتبعوا الهدى، أي الذين كانت عقائدهم صحيحة، فإنهم لا يبقون إلى الأبد في العذاب لأن ألف ولام التعريف في ﴿ٱلۡعَذَابَ﴾ للاستغراق.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ على جواز السلام على كل من اتبع الهدى حتى لو رحل عن الدُّنْيَا.

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ

فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ [طه: ٤٩-٥٢].

الفوائد: لما دعا موسى فِرعون إلى عبادة الله لم يُسارِع فِرعون بالبطش بموسى وإيذائه أو سبِّه والسفاهة معه بل بدأ معه بالمناظرة وطالبه بالدليل. لكن بعض مدَّعي العلم والإسلام في زماننا يُباشرون فورًا بالسفاهة وشتم من يُخالفهم في الرأي! وعلى كل حال، بدأ موسى عليه السلام بذكر الأدلة على ما يدعو إليه، وهذا يدل على أن التقليد فاسد.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ أن الحقّ تعالى خلق كل شيء ثم هداه إلى إدراك ما ينفعه ويضره، فالطفل عندما يأتي إلى الدُّنْيَا يُرشَدُ إلى طريقة الرضاعة من ثدي أمه، ويُعطيه الله العقل والذكاء الذي يُدرك فيه ما ينفعه وما يضرُّه، بل إن الله أعطى شجرة العنب الكلاليب التي تتشبث بواسطتها بالأشياء لتحفظ نفسها.

والمقصود من الكتاب في جملة: ﴿فِى كِتَٰبٍ﴾ اللوح المحفوظ الذي كُتب لأجل الملائكة كي يعملوا وِفْقَهُ. ومعنى ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ «**أنه يعلمه بعلمه الثابت ولا ينسى**».

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: ٥٣-٥٥].

الفوائد: في جملة: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ انتقال من الغائب إلى المتكلم، وهذا يدل على أن الله تعالى هو الذي قال هذه الجمل وإن كانت قد جرت على لسان موسى.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ أن جميع أفراد البشر حتى الأنبياء سيعود جسمهم إلى التراب أي الأرض، كما أن أمير المؤمنين عليًّا عليه السلام عندما ضربه ابن ملجم في محراب مسجد الكوفة، فوقع أرضًا، فقام بنثر تراب الأرض فوق جبينه وقال: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ۝٥٦ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٥٧ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ۝٥٨﴾ [طه: ٥٦-٥٨].

الفوائد: ليس المقصود من ﴿ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا﴾ جميع الآيات على وجه التمام حقيقةً بل المقصود الكلية النسبية أي أريناه كل الآيات الكافية لهداية الإنسان، ومع ذلك امتنع فرعون من قبول الهداية، ولأجل أن يثيرَ الناسَ ضدَّ موسى قال: لقد جاءكم هذا ليُخْرِجَكُمْ من أرضكم ويستولي عليها وما جاء به من آيات هو سِحْرٌ فَلْنُحَدِّدْ موعدًا يجتمع فيه الناس في البادية ليصنع السحرة عملاً مماثلاً لفعل موسى.

﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ۝٥٩ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ۝٦٠ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ۝٦١ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ۝٦٢﴾ [طه: ٥٩-٦٢].

الفوائد: المراد من ﴿يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ يوم عيدٍ كان المصريون يتزيَّنون فيه، وأراد موسى أن يجتمع الناس جميعهم كي يروا آيات الله فينشروا خبرها، ولذلك عيَّن وقتًا قريبًا من وقت الظهر أي وقت الضحى حيث يكون النهار في كمال ضيائه ولا تخفى الرؤية فيه على أحد. وجمع فِرعون أيضًا سحرته وأعدّوا مكرهم وتآمروا على ما سيقولونه ويفعلونه حتى يتهموا موسى ويُنفِّروا الناس عنه، ولذلك حذَّر موسى السَّحَرَةَ ووعظهم بقوله: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا.....﴾.

وليس من المعلوم ما هو التنازع الذي كان بين السحرة وبين فِرعون وأتباعه، وهناك احتمالات مختلفة. وكذلك الأمر في السر الذي تناجوا به، ويُمكن أن نقول: إنهم أسروا النجوى على إيجاد الخوف لدى الناس أو إيجاد سوء الظن بموسى وتحريك الناس ضده، أو أنهم أسروا النجوى بأنهم إذا غلب موسى عليهم فسيؤمنون به.

﴿قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا

بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾ [طه: ٦٣-٦٤].

الفوائد: كان فِرعون وأتباعه يُنفِّرون الناس من موسى بواسطة ثلاثة أمور:

الأول: ادعاؤهم أن موسى وهارون ساحران، ومن المعلوم أن السحر خداع، وبهذا كان فِرعون يُريد أن يسيءَ الناسُ نظرتهم إلى موسى وهارون.

الثاني: ادعاؤهم أن موسى وهارون يُريدان أن يُسيطرا على بلدكم ويتصرفا في ثروتكم، وبهذا أراد فِرعون أن يُحرِّض الناس ويجعلهم متوحشين ضد موسى، لاسيما عُبَّاد الدُّنْيَا.

الثالث: ادعاؤهم أن موسى وهارون يُريدان أن يُبدِّلا دينكم ويذهبا بطريقتكم في العيش وديانتكم. ولا شك أن الـمُتعصِّبين ينفرون بشدَّة من هذا الأمر. وهذا يدل على أنه في كل زمن كان الأمر كذلك وهو أن عُبَّاد الدُّنْيَا يتَّهمون أهل الحقّ بتهم دينية، كما هو الحال في زماننا حيث كل من قال كلامًا حقًا وبيَّن للناس حقيقةً قال عُبَّاد الدُّنْيَا الذين يركبون ظهور الناس: إن هذا الشخص يُريد أن يُبعدكم عن دينكم، أو يأخذ منكم مثلاً محبَّتكم لعليّ ﵇، وهكذا يُثيرون العوام ضدَّه بمثل هذه الافتراءات.

﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ [طه: ٦٥-٦٩].

الفوائد: تَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِىَ...﴾ أن السحرة كانوا مؤدبين في تعاملهم، وأدبهم هذا كان السبب في هدايتهم. وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ﴾ أن سحرهم لم يكن أمرًا واقعيًا بل كان شعوذةً وخِفَّةَ يَدٍ وتخييلاً للناظر، وَتَدُلُّ الجُمْلَةُ أيضًا أن هذا الأمر الخياليّ ألقى الخوف في قلب موسى. وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ أن السحر حرام والساحر بعيد عن الفلاح.

﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ

ءَاذَنَ لَكُمْۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ [طه: ٧٠-٧١].

الفوائد: تدلُّ الفاء في ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ أن السحرة سجدوا لِلَّهِ على الفور. هنا قدّم الله تعالى هارون على موسى رعايةً للسجع في أواخر الآيات أو لسبب آخر. وقد ألقى فِرعون في كلامه شُبهتين: **الأولى**: أنكم آمنتم أيها السحرة قبل التشاور والـمناقشة معي أي آمنتم دون بحث ومناظرة، وهذه الجملة دليل على حماقة فِرعون لأنه لا معنى للتشاور مع شخص عنيد عاتٍ واستئذانه. **الثانية**: أن موسى كان كبيركم الذي علَّمكم السحر وقد اتفقتم معه من قبل على إضلال الناس.

﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾ [طه: ٧٢-٧٣].

الفوائد: دخل الإيمان في قلوب السحرة -الذين كانوا قُدوةً للكفار- في لحظة واحدة على نحو ثابت ونافذ إلى درجة جعلت الخوف من أي شيء سوى الله يسقط من قلوبهم وأن يقولوا لفِرعون: افعل بنا ما بدا لك. أما في زماننا فنجد أن بعض قادة الـمؤمنين وزعمائهم الذين يعتبرون أنفسهم من مُتَّبعي القرآن منذ سنوات طويلة يبيعون دينهم بعرض زائل حقير من الدُّنْيَا.

ويتبيَّن من جملة: ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ أن رؤساء السحرة الذين كانوا ٧٢ شخصًا، تعلَّموا السحر مكرهين، يعني أن سلاطين ذلك الزمن كانوا يُجبرون فريقًا من الناس على تعلُّم السحر كي يكونوا على الدوام عُدّةً يستخدمونها لحفظ عظمة سلطانهم ومُلْكِهِم.

إضافةً إلى ذلك كان السحرة قد لاحظوا أنه عندما ينام موسى عليه السلام فإنَّ عصاه تحرسه، فعرفوا أن موسى ليس بساحر لأن الساحر عندما ينام يبطل سحره، وعلاوةً على ذلك كان فِرعون قد أحضرهم من الـمدن البعيدة بالقوة والإجبار: ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا﴾.

﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ٧٤ وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ٧٥ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ٧٦﴾ [طه: ٧٤-٧٦].

الفوائد: لما جاءت جملة: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا....﴾ في مقابل جملة: ﴿وَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا....﴾ كان المقصود منها (أي من الجملة الأولى) الكفار، فالمؤمن المجرم لا يكون حسابه مثل حساب الكافر المجرم. وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ أن الكافر المجرم لا يموت في جهنم ولا يحيى، ولكن لا يوجد قسم ثالث غير الحياة والموت، ولذلك فالمقصود أنه لا يحيى حياةً حقيقيةً يتمتع فيها بمعنى الحياة ولا يموت فيرتاح بموته، أي أن المنفي في الآية هو الحياة المُتمتع بها والموت المريح.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ﴾ أن للمؤمنين الذين عملوا الصالحات درجاتٍ عاليةً في الجنَّة، أما الذين لم يعملوا ما يكفي من الأعمال الصالحة فلن تكون لهم الدرجات العالية.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أن الدرجات العالية خاصة بمن زكّى نفسه وطهَّرها. أجل، إن الجنَّة ودرجاتها ليست مأوى للأفراد الملوثين بأقذار المعاصي بل هي لكل تقي نقي كما قال تعالى في سورة مريم الآية : ﴿تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ٦٣﴾ [مريم: ٦٣].

﴿وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ٧٧ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ ٧٨ وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ٧٩﴾ [طه: ٧٧-٧٩].

الفوائد: المُرَادُ مِنْ جُمْلَةِ: ﴿أَسۡرِ بِعِبَادِي﴾ السير في الليل، والحكمة في أن يسري بهم ليلاً عدَّة وجوه: أولاً: أن يكون اجتماعهم لا بمشهد من العدوّ فلا يمنعهم عن استكمال مرادهم في ذلك. وثانيها: ليكون عائقًا عن طلب فرعون ومتّبعيه. وثالثها: ليكون إذا تقارب العسكران لا يرى عسكر موسى عسكر فرعون فلا يهابونهم.

وباختصار، كان بنو إسرائيل قد استعاروا من قوم فرعون الحليّ والدوابّ كي يذهبوا في يوم العيد لرؤية فرعون، فأمر موسى عليه السلام بني إسرائيل أن يخرجوا من بيوتهم ليلاً وخرج بهم ليلاً وهم سبعون ألفًا. وأعلن فرعون التعبئة العامة للخروج للقبض على موسى ومن معه، وخرج فرعون وتعداد جيشه مليون ونصف، فلما انتهى موسى إلى البحر ورأى بنو إسرائيل أن البحر حائلٌ بينهم جزعوا؛ إذْ رَأَوا أن العدو من ورائهم والبحر من أمامهم وأصابهم الذُّعْرُ لقلَّة عددهم وكثرة جيش فرعون، وقالوا: يا موسى، سيقبضون علينا. قال لهم موسى: لا تخافوا. فأوحى الله إلى موسى: أن اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق فقال لهم موسى عليه السلام: ادخلوا فيه فقالوا: كيف وأرضه رطبة فدعا الله فهبت عليه ريح الصبا فجفت، وقيل: فتح في البحر اثنا عشر طريقًا وقيل: بل فتح طريقٌ واحدٌ، وسار بنو إسرائيل في الطريق الذي فتح لهم وخرجوا من البحر، ولما وصل فرعون وجنوده أراد فرعون أن يحتاط ولا يدخل في الطريق داخل البحر، لكن اقتحام الخيول داخل البحر أفشل احتياطه، فدخل هو وجميع جنوده في البحر حتى إذا دخل آخرهم وكاد أولهم أن يخرج التقى البحر عليهم فغرقوا فسمع بنو إسرائيل خفقة البحر عليهم، [فقالوا: ما هذا يا موسى؟ قال: قد أغرق الله فرعون وقومه فرجعوا لينظروا إليهم فقالوا: يا موسى ادع الله أن يخرجهم لنا حتى ننظر إليهم، فدعا فلفظهم البحر إلى الساحل وأصابوا من سلاحهم][1].

قصة عجوز بني إسرائيل

وقد كان يوسف عليه السلام عهد إلى بني إسرائيل عند موته أن يخرجوا بعظامه معهم من مصر فلم يخرجوا بها، فتحيَّر القوم حتى دلَّتْهُم عجوز على موضع العظام فأخذوها فقال موسى عليه السلام للعجوز: احتكمي، فقالت: أكون معك في الجنة. وذكر ابن عباس أن محمدًا صلى الله عليه وسلم وأبا بكر هجموا على رجل من العرب وامرأة ليس لهم إلا عنزة فذبحوها لهما فقال عليه السلام: إذا سمعت

١- انظر **التفسير الكبير** للفخر الرازي، ٢٢/ ٩٣ - ٩٤. وأبو حيان الأندلسي، **تفسير البحر المحيط**، ٦/ ٢٤٤-٢٤٥.

برجل قد ظهر بيثرب فأته فلعلَّ الله يرزقك منه خيرًا، فلما سمع بظهور الرسول ﷺ أتاه مع امرأته فقال: أتعرفني؟ قال: نعم عرفتك، فقال له: احتكم، فقال: ثمانون ضأنية فأعطاه إياها وقال له: «أما إن عجوز بني إسرائيل خير منك»[١].

وجملة: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾ مقابلة لقول فِرعون: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه: ٨٠-٨٢].

الفوائد: المنُّ هو الترنجبين وهو شيء حلو لزج كالعسل. والسلوى هو الطائر المعروف بالسّماني [ويسمى في بلاد الشام بالفري] الذي كان ينزل عليهم مشويًا، وقد سبق بيان ذلك في الآية ٥٧ من سورة البقرة.

وَالمقْصود مِنْ جُمْلَة: ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ هو طالب الهداية الذي يستمر ويستقيم عليها، ولذلك أتى الله بهذه العبارة بعد الإيمان والعمل الصالح.

وَالمقْصود مِنْ جملة: ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى﴾ لا يبغي ولا يعتدي بعضكم على بعض.

﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾﴾ [طه: ٨٣-٨٥].

الفوائد: استعجل موسى عليه السلام فذهب إلى جبل الطور قبل الموعد شوقًا منه إلى سماع الخطاب الإلهيّ، ولذلك خاطبه ربُّ العِزَّة بقوله: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾﴾،

١- انظر **التفسير الكبير** للفخر الرازي، ٢٢/ ٩٣.

وقال له: لقد فَتَنَّا قومك، والمراد بـ «فتنَّا»: امتحنَّاهم. وكان السامريّ أحد كبار بني إسرائيل وأحد علمائهم وأحبارهم، ولما كان محطَّ أنظارهم استطاع أن يُضلَّهم، فأضل منهم جماعةً كبيرة ودفعهم إلى الشرك وعبادة العِجل، وهكذا أيضًا نجد أمثاله من علماء السوء بين المسلمين المتلبسين زورًا بلباس التقوى هم الذين يُضلُّون المسلمين.

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ﴿٨٩﴾﴾ [طه: ٨٦-٨٩].

الفوائد: المُرَاد مِنْ جملة: ﴿أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًا﴾ الوعود الإلهية المتعلِّقة بإهلاك فِرعون ونجاتهم والتسلط على مملكته، ويُمكن أن يكون المقصود الوعد بنزول التوراة وثواب العمل بها، إذْ كان الله قد وعد أن يُنزلها في ثلاثين ليلة، فكم طالت عليكم تلك الليالي. ويُمكن أن يكون ذلك الوعد هو العهد الإلهي المشار إليه في جملة: ﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ حيث طغوا.

وَالمَقْصود مِنْ جُمْلَة: ﴿حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ﴾ حُلِّي ومجوهرات آل فِرعون التي عهد بها موسى إليهم ليحفظوها ولذلك كانوا يقولون: ﴿حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا...﴾ لأنه كان لها حكم الغنائم فيجب أن تُصرف في المصالح حسب أمر الله، أو أن النفس الأمَّارة ألقتها على عاتقهم فكانت حِملاً ثقيلاً عليهم، فقال لهم هارون: هذه الحليّ والجواهر وِزرٌ ووبالٌ عليكم، ولابد أن تُبعدوها عن أنفسكم، وكان السامريّ يقول لهم: ما تأخّر موسى عليكم إلا بسبب هذه الحُليّ والجواهر التي معكم، فألقوها عنكم في حفرة، فألقوها في حفرة وألقى السامريّ أيضًا كل ما كان لديه في تلك الحفرة، كما قال تعالى: ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ وإضافةً إلى ذلك كان السامريّ عالـمًا

بفنّ سباكة الـمعادن وصياغة الذهب فصبّ تلك الحُلّي في قالب عِجل صغير وجعله عُجيلاً يصدر منه صوت.

والظاهر أن الضمير الـمستتر الفاعل لفعل ﴿فَنَسِيَ﴾ يعود على موسى لأنه أقرب مذكور، أي أن السامريّ قال لهم: «هذا إلهكم وإله موسى فنسي موسى أن هذا هو الإله فذهب يطلبه في موضع آخر». ومن الـممكن أن يعود ضمير الفاعل على السامريّ فيكون الـمعنى إن السامريّ نسي الله ولم يعلم أن العجيل لا يُجيب طلب أحد ولا يملك لأحد ضرًّا ولا نفعًا.

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾ [طه: ٩٠-٩١].

الفوائد: لما كان هارون عليه السلام مأمورًا من الله بهداية قومه وبالأمر بالـمعروف والنهي عن الـمنكر، وكان رؤوفًا بقومه شفيقًا عليهم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**من أصبح لا يهتم بالـمسلمين فليس منهم**»[١]، أو قال: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ، تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى**»[٢]، لذلك نهاهم هارون عن عملهم القبيح في عبادة العجل فردّوا عليه قائلين: لا نقبل حُجَّتك ولكن نقبل قول موسى، وهذه عادة الـمُقلِّد لا يقبل الكلام الذي معه الدليل ولكنه يقبل كلام الشخص الذي يُحِبُّه دون دليل، كذلك نجد مُقلِّدين لا يقبلون كتاب الله الذي فيه بيان كل شيء ولكنهم يقبلون كتاب فلان بل يعتبرونه كافيًا!.

١- انظر: كتاب **الجعفريات**، ص ٨٨، وكتاب **فقه الرضا**، ص ٣٦٩، **وبحار الأنوار**، ج٧٢/ ص٢١، وفي مصادر أهل السنَّة: أخرجه الحاكم في **الـمستدرك** عن حذيفة (٤/ ٣٥٢، رقم ٧٨٨٩) وعلَّق عليه الذهبي في التلخيص بقوله: «أحسب الخبر موضوعًا». وأخرجه الحاكم عن ابن مسعود أيضًا، (٤/ ٣٥٦، رقم ٧٩٠٢)، وعلَّق عليه الذهبي في التلخيص بقوله: «إسحاق ومقاتل ليسا بثقتين ولا صادقين» فالحديث في نظره غير صحيح. وأخرجه البيهقي في **شعب الإيمان** (٧/ ٣٦١، رقم ١٠٥٨٦) عن أنس، وقال: إسناده ضعيف.

٢- الـمجلسي، **بحار الأنوار**، ج ٥٨/ ص ١٥٠، وفي مصادر أهل السنة: أخرجه مسلم في **صحيحه** (٢٥٨٥)، وأحمد في **الـمسند**، ٤/ ٢٧٠، وغيرهما.

﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي ﴿٩٤﴾﴾ [طه: ٩٢-٩٤].

الفوائد: يُوهم خطاب موسى لهارون وغضبه عليه وما أجاب به هارون، انتفاء العِصمة عن الأَنْبياء، لكننا يُمكننا أن نحمل تلك التصرفات على ترك الأولى منهم، أضف إلى ذلك أن موسى عليه السلام كان عنيفًا خشنًا في ذات الله وفي مقام التوحيد والدفاع عنه. وأما هارون فلم يذهب إلى موسى ليُطلعه على حال قومه، كي يبقى بين قومه ويمنعهم عن الوقوع في الشرك، وكي لا يقول له موسى: لماذا تركت القوم حتى وقع جماعة منهم في الشرك؟ أجل، كان الأَنْبياء يعتبرون التوحيد أهمّ وأعظم من كل شيء آخر.

﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا ﴿٩٨﴾﴾ [طه: ٩٥-٩٨].

الفوائد: ذكر بعض الـمُفسِّرين في جملة: ﴿بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ﴾ أشياء لا ينبغي أن تكون حقيقيةً وهي بعيدة عن الـمنطق والعقل ومخالفة لظاهر الآية أيضًا، من ذلك أن السامريّ قال: رأيت جبريل فقبضت قبضةً من التراب الذي كان تحت حافر فرسه! هذا في حين أنه لم تأتِ في الآية أي إشارة إلى التراب ولا إلى فرس جبريل وحافره. وقال بعضهم: ما أراد السامريّ قوله أنه أخذ قدرًا من تعاليم الرسالة ثم تخلّى عنها وانصرف إلى الخداع والـمكر واتِّباع هوى النفس، فأراد أن يقول: إن نفسي الأمّارة هي التي دفعتني إلى ارتكاب ذلك الأمر، ونرى أن هذا الشرح أقرب إلى الصحة. وعلى كل حال، قام موسى بطرد السامريّ وأمر أن لا يتصل به أحد، ثم أحرق العِجل وذرَّ رماده في البحر.

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾ [طه: ٩٩-١٠٤].

الفوائد: المقصود من الذكر في جملة: ﴿مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ القرآن، وقد سُمِّي القرآن ذِكرًا لأن فيه ذِكر ما يحتاج إليه الناس من أمر الدين والدنيا، أو لأنه قد ذُكرت فيه أنواع النِّعم وأنواع المواعظ والأمثلة، أو لأنه ذِكرٌ وشرفٌ لرسول الله ﷺ وقومه، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]. وقد سمَّى اللَّهُ تعالى سائرَ الكتب السماوية بالذكر أيضًا حيث ذُكرت فيها وعود الله ووعيده.

والظاهر في عبارة: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾ أنها إشارة إلى اللبث في عالم البرزخ أو القبر.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾﴾ [طه: ١٠٥-١١١].

الفوائد: كان مشركو مكة هم الذين سألوا عن الجبال، وربما كان قصدهم من هذا السؤال السخرية أو أن يفهموا كيف سيكون حال الأرض يوم القيامة. وعلى كل حال، يُستَفاد من هذه الآيات أن الأرض ستُصبح يومَ القيامة سهلةً بسيطة لن يكون فيها مرتفعات أو منخفضات.

والمقصود من الداعي في جملة: ﴿يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ﴾ ذلك الملاك الذي يدعو الناس إلى الحساب.

وَالمَقْصود مِنْ ﴿مَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ المشفوع له، بقرينة ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾

حيث إن العالم بالعباد هو الله وحده وهو الذي يعلم أحوال الماضين والآتين ويعلم ما بين أيدي العباد وما خلفهم. ويُمكن أن يكون المقصود من عبارة: ﴿مَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ الشافع المأذون له. وعلى كل حال، سواءً كان المقصود الشافع أو المشفوع له فإن كلمة: ﴿أَذِنَ﴾ فعل ماضٍ ويدل على وقوع الإذن في الماضي، فإذا افترضنا أن الشفاعة هي استغفار الأَنبياء والملائكة للمؤمنين بإذن الله، أو استغفار المؤمنين بعضهم لبعض، فيُمكن أن نقول: إن ذلك الاستغفار سيكون مفيدًا في هذا اليوم.

ويُمكن أن نقول أيضًا: إن المراد من الشفاعة ليس سوى قيام الأَنبياء بإبلاغ رحمة الله للمؤمنين. وبِنَاءً عَلَى ذَلِكَ، يجب أن نقول: لا وجود للشفاعة المتعارف عليها أو الشائعة بين الناس لها. وقد نُقل عن أحد الأئمة عليه السلام قوله: «**إِنَّمَا أُمِرُوا بِالصَّلَاةِ عَلَى الْمَيِّتِ لِيَشْفَعُوا لَهُ وَلِيَدْعُوا لَهُ بِالْمَغْفِرَةِ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ أَحْوَجَ إِلَى الشَّفَاعَةِ فِيهِ وَالطِّلْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ مِنْ تِلْكَ السَّاعَةِ**»[1].

وعلى كل حال، فإن الشفاعة يوم القيامة نوع من إبلاغ رحمة الله للمؤمنين. ويُمكن أن نعتبر الاستثناء في الآية استثناءً منقطعًا.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ بشكل مؤكد على أن الظالم بعيد من رحمة الله يوم القيامة.

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه: ١١٢-١١٤].

الفوائد: تدل عبارة: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أن العمل الصالح لا يُفيد إلا إذا ترافق مع الإيمان.

١- الحديث مروي عن الإمام الرضا عليه السلام، انظر **وسائل الشيعة**، ج٣ / ص ٧٨ نقلاً عن كتابَي علل الشرائع وعيون أخبار الرضا عليه السلام للشيخ ابن بابويه القُمّي المعروف بالشيخ الصدوق.

هذا ولما كان رسول الله ﷺ يستعجل في قراءة الآيات التي تُوحى إليه كي لا ينساها، أوحى الله إليه أن لا يعجل بالقرآن وقال له -كما في سورة الأعلى- ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾ [الأعلى:٦]. والعجلة ثلاثة أنواع:

الأول: العجلة في قراءة القرآن في نفسه. **الثاني**: العجلة في قراءته على أصحابه وفي بيانه لهم. **الثالث**: العجلة في تفهم معانيه قبل أن يصل الكلام إلى آخره لأنه لا بدّ من التوقف في الاعتماد على الظهور حتى يصل الكلام إلى نهايته ويتم بيان الاستثناء أو الإضافات إن وُجدت.

وأحد أسماء الله الحسنى: «**الحَقّ**» أي ثابت الوجود.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ۝١١٥ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ۝١١٦ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ۝١١٧ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ۝١١٩﴾ [طه: ١١٥-١١٩].

الفوائد: لما نهى الله تعالى رسوله ﷺ عن العجلة بالقرآن أراد أن يُفهمه أن كل إنسان عُرضة للسهو والنسيان وبحاجة إلى الأمر والنهي، ولذلك ذكر الله له قصة آدم عليه السلام.

وسبب عداوة إبليس لآدم عدّة أمور: **الأول**: حسد إبليس، لأنه وجد آثار نِعم الله على آدم فحسده. **الثاني**: أن آدم كان شابًا عالـمًا أمّا الشيطان فكان عجوزًا جاهلاً. **الثالث**: أن أصل الشيطان من النار، وأصل آدم من التراب والـماء وهذان الأصلان لا يجتمعان مع بعضهما.

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ۝١٢٠ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝١٢١ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ۝١٢٢﴾ [طه: ١٢٠-١٢٢].

الفوائد: يُسْتَفَادُ مِنْ ظاهر هذه الآيات أن آدم رغم أن الله نهاه عن اتِّباع الشيطان وحذَّره من عداوته، ورغم أن الله أكرمه بحياة مريحة وأسكنه الجنَّة وأخبره أنه لن يعطش فيها ولن يجوع وأنه لن يُعاني فيها من البرد أو الحر، رغم كل ذلك خُدع آدم بوعد الشيطان له بالراحة ودوام النِّعمة.

وفي هذه الحالة لا يُمكننا أن نحمل جملة ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ على ترك الأولى لأننا بذلك نكون قد خالفنا ظاهر عبارة الآية، ولكن يُمكن القول: إن هذا العصيان كان قبل النُّبُوَّة، كما تدل عليه جملة ﴿ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾.

﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ١٢٦ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ ١٢٧﴾ [طه: ١٢٣-١٢٧].

الفوائد: جملة: ﴿ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾ خطاب لآدم وذريّته وللشيطان وذريّته أيضًا أي هي خطاب للفريقين وليست خطابًا لحواء وآدم، لأن عبارة: ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾ لا معنى لها إذا قُصد بها آدم وحواء.

وجملة: ﴾ ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ دليل على أن الضلال والشقاء كسبيّان لا ذاتيّان، وأن كل من سعى نحو الهداية وطلبها وسلك طريقها فلن يضل ولن يشقى.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي...﴾ أنه إذا لم يكن هناك إيمان بالله والتزام بتعاليمه في المجتمع فإن ذلك المجتمع سيُعاني على الدوام من البلايا والشدائد ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ ١٢٧﴾.

﴿أَفَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ١٢٨ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامٗا وَأَجَلٞ مُّسَمّٗى ١٢٩ فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ١٣٠﴾ [طه: ١٢٨-١٣٠].

الفوائد: فاعل ﴿أَفَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ﴾ هو جملة: ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا﴾ أي كان ينبغي أن يكون إهلاك القرون السابقة هاديًا لهم أي كان عليهم أن يعتبروا به.

و «الكلمة» في جملة: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ هي الإمهال الإلهي الذي قدَّره الله على العباد، ولولاه لَعَذَّبهم على الفور، كما يُقْصَد منها أيضًا المدَّة التي عينها الله لعذاب كل شخص، سواء في الدنيا أم في الآخرة.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ.....﴾ على أوقات الصلاة لأن الأمر ﴿وَسَبِّحْ﴾ يفيد الوجوب والتسبيح الواجب ليس إلا الصلوات الخمس المفروضة فالتسبيح قبل طلوع الشمس هو صلاة الفجر، وقبل الغروب هو فريضتا الظهر والعصر، والتسبيح ﴿مِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ﴾ هو صلاتا المغرب والعشاء. وهنا أُطلق الجزء على الكل لأن التسبيح الذي هو جزءٌ من الصلاة أُطلق على الصلاة كلها. ومعنى ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ أي لعلك تصل إلى الدرجات العالية فترضى، أو لعلك ترضى بما تنال من الثواب.

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه: ١٣١-١٣٢].

الفوائد: المقصود من الآية الأولى أن لا تنظر أيها الرسول إلى مال الناس وثروتهم وشوكتهم بعين الرغبة والحسرة، لأن هذه الأمور فتنة وسبب لامتحانهم وعذابهم. قال أبو الدرداء: «**الدُّنْيَا دَارُ مَنْ لا دَارَ لَهُ، وَمَالُ مَنْ لا مالَ لَهُ، وَلَهَا يَجْمَعُ مَنْ لا عَقْلَ لَهُ**»(١). وقال آخر [وهو الحسن البصري]: «**لولا حمق الناس لخربت الدُّنْيَا**». وقال عيسى عليه السلام: «**لَا تَتَّخِذُوا الدُّنْيَا رَبًّا فَتَتَّخِذَكُمْ لَهَا عَبِيدًا**». وقال أبو رافع: «نزلَ ضَيفٌ بالنبِّي ﷺ فبعثني إلى يهوديٍّ لبيعٍ أو سَلَفٍ، فقال: واللهِ لا أفعلُ ذلك إلا بِرَهْنٍ، فأخبرتُه بقوله، فأمرني ﷺ أن أذهبَ بدرعه إليه فنزل قوله تعالى: ﴿وَلَا

١- أخرجه الإمام أحمد في **مسنده** عن عائشة، ٦/ ٧١، وحكم شعيب الأرنؤوط عليه بأن سنده ضعيف. ورواه الهيثمي في **مجمع الزوائد** (١٨٠٧٨) وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير دويد وهو ثقة. قلتُ: وأورده السيوطي في **الجامع الصغير** (٤٢٧٤) وعزاه إلى **أحمد في المسند** عن عائشة، وإلى البيهقي في **شعب الإيمان** موقوفًا على ابن مسعود، وحَكَمَ بصحته. أما الألباني فحَكَمَ عليه في كتابه **ضعيف الجامع الصغير وزيادته** (الفتح الكبير)، رقم (٣٠١٢) بأنه: ضعيف.

تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ....﴾[١].

ولما لم يكن لدى رسول الله ﷺ أي طمع بمال أي شخصٍ فقد تقدَّم دينه وانتصر وملأ الدنيا. ولكن للأسف فإن مدعي الإسلام ومُرَوِّجيه اليوم جعلوه وسيلةً لكسب مال الدنيا.

﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَ لَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ١٣٣ وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ ١٣٤ قُلۡ كُلّٞ مُّتَرَبِّصٞ فَتَرَبَّصُواْۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ١٣٥﴾ [طه: ١٣٣-١٣٥].

الفوائد: من جملة ﴿لَوۡلَا يَأۡتِينَا ....﴾ يتبيَّن أنه ما عدا القرآن الكريم، لم تكن لخاتم الأنبياء ﷺ أي معجزات أخرى، مما كان يريده المشركون.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا﴾ على أنه بإرسال الرسول تتم الحجَّة وأنه لا تبقى بعد الأنبياء حاجة لشيء أي لحجَّةٍ، كما قال تعالى في الآية ١٦٥ من سورة النساء: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]. كما تدل الآية أيضًا على أن الله يقبل الحجة من عباده إذا كانت الحجَّة دليلاً صحيحًا.

١- هذه الروايات كلها ذكرها الفخر الرازي، **التفسير الكبير**، ٢٢/ ١٣٥ – ١٣٦. ثم رواها المفسر نظام الدين الحسن بن محمد القمي النيسابوري (ت بعد ٨٥٠هـ) في تفسيره: **غرائب القرآن ورغائب الفرقان**.

هذا ورواية أبي رافع رضي الله عنه حول رهن النبي ﷺ درعه عند يهودي تلقاء طعام استلفه، رواية صحيحة روى نحوها المحدِّثون بألفاظ مشابهة، ومنهم من ذكر أن النبي ﷺ توفي ودرعه هذه لا تزال مرهونة عند اليهودي مقابل ثلاثين صاعًا من شعير استلفها منه، انظر **صحيح البخاري** (٢٧٥٩)، **وصحيح مسلم** (١٦٠٣)عن عائشة، **والنسائي في سننه الكبرى**، ح (٦٢٤٦) عن عائشة، وح(٦٢٤٧) عن ابن عباس، **والترمذي وابن ماجه في سننهما وأحمد في مسنده** عن عائشة وابن عباس وأسماء بنت يزيد، **والبيهقي في سننه** وغيرهم. وانظر **السيرة النبوية**، لابن كثير، ج٤/ ص٥٦٢.

سورة الأنبياء

مكيّة وهي مئة واثنتا عشرة آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣﴾ [الأنبياء: ١-٣].

الفوائد: تَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ على قرب يوم القيامة، فإن قيل: كيف اقترب يوم القيامة مع أنه ربما لا يزال هناك عشرة آلاف سنة أخرى لمجيئه؟ فالجواب: أن ما هو بعيد بالنسبة إلينا قريب بالنسبة إلى الله: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]. إضافةً إلى أن المستقبل مهما كان بعيدًا فإنه قريب: «**كلُّ ما هو آتٍ قريبٌ**». قال الشاعر عن محبوبه:

فَـلاَ زَالَ مَـا تَهْـوَاهُ أَقْـرَبَ مِـنْ غَـدٍ ... وَلاَ زَالَ مَـا تَخْشَـاهُ أَبْعَـدَ مِـنْ أَمْـسِ

ثالثًا: أن المعاملة إذا كانت مؤجلةً إلى وقت معيَّن وانقضى نصفه فإنه يُقال: اقترب الأجل، وفي حالنا: الباقي من مدة التكليف أقل من الماضي.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ أن القرآن حادثٌ[1].

١- انظر تعليق المُصحح في هامش تفسير الآية ٨٧ من سورة النساء في الجزء الأول من هذا الكتاب. [المُصحح]

وَالـمُرَاد مِنْ جملة: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى﴾ أنهم تشاوروا مع بعضهم خُفيةً كيف يطعنون بنُبُوَّة رسول الله ﷺ وبأي حُجَّة، فرأَوْا أن يحتجُّوا: **أولاً**: بأنه بشر مثلكم. **ثانيًا**: بقولهم إن الذي أتى به سحر. **ثالثًا**: بقولهم إنه أتى بكلام ركيك كالأحلام المضطربة. **رابعًا**: بقولهم إنه شاعر. **خامسًا**: بأنه لم يأتِ بمعجزة كمعجزات سائر الأَنْبياء. وقد أجاب الله تعالى في الآيات التالية عن كل واحدة من هذه المطاعن:

. ﴿قَالَ رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٤ بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ ٥ مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ ٦﴾ [الأنبياء: ٤-٦].

الفوائد: لما بيَّنوا جميع احتمالاتهم التي تحجَّجوا بها للطعن في نُبُوَّة رسول الله ﷺ فلم يُجدهم ذلك نفعًا؛ قالوا في نهاية المطاف: ، ﴿فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ وقد أجاب الله تعالى عن هذا السؤال بقوله: إن الأمم السابقة رأوا الآيات التي اقترحوها على أنبيائهم ولم يؤمنوا فهل أنتم ستؤمنون؟ لما كنتم أكثر عنادًا فلن تؤمنوا، ولذلك فطلبكم الإتيان بمثل هذه الآيات والإتيان بها فعلاً لن تكون له أية فائدة.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ٨ ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ فَأَنجَيۡنَٰهُمۡ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهۡلَكۡنَا ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٩ لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠﴾ [الأنبياء: ٧-١٠].

الفوائد: قوله تعالى: ﴿إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ جواب عن اعتراضهم على بشريّة رسولالله ﷺ أي أن جميع رسلنا كانوا رجالاً من جنس البشر. وَالـمَقْصود مِنْ جُمْلَة: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾ سؤال أهل الكتاب أي سؤال اليهود والنصارى الذين يُقرُّون أن كل نبيّ كان بشرًا. فإن قيل: إن أهل الكتاب كانوا أعداءً للإسلام فكيف أمر اللَّهُ المسلمينَ أو المُشْرِكين بالرجوع إليهم؟ فالجواب: أن الله أرجعنا إليهم في خصوص هذه المسألة فقط وهي بشرية النبيّ لا في

المسائل الأخرى. فسؤال أهل الكتاب هو عن موضوع بشرية النبيّ فحسب ولا يشمل سؤالهم عن موضوعات أخرى. ولم يكن في استطاعة أهل الكتاب أن يُنكروا هذه المسألة أو يُخفوها. وقال بعضهم: المقصود من أهل الذكر هنا أهل القرآن أو عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وهذا ليس بصحيح لأن المُشْرِكين الذين لم يكونوا يؤمنون بالله ولا برسوله صلى الله عليه وآله وسلم لم يكونوا يؤمنون بقرآن الله أيضًا، فالأمر بالرجوع إلى أهل القرآن لغو ومردود من قِبلهم! كما أن الذي لم يعتقد برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أصلاً كيف سيؤمن بعليّ عليه السلام ويجعله قاضيًا في هذه المسألة؟! ليت شعري! ألم يكن الذين ذكروا مثل هذه الاحتمالات في تفسيرهم يعقلون؟

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ على لزوم التعلُّم أي عليكم أن تسألوا لأجل أن تعلموا. ولو كان التقليد يُفيد علمًا لأصبح جميعُ المُقلِّدين علماءَ كبارًا، في حين أن الآية تقول: إن كنتم لا تعلمون فاسألوا كي تعلموا. وثانيًا: لا علاقة لهذه الآية—كما ذكرنا سابقًا- بموضوع التقليد في مسائل الفروع والأحكام الذي يتكلمون عنه أصلاً.

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الأنبياء: ١١-١٦].

الفوائد: المراد من ﴿قَرْيَةٍ﴾ أهل القرية، وَالمُرَاد مِنْ كلمة ﴿بَأْسَنَا﴾ العذاب الدنيوي كالقحط والمجاعة وغلاء الأسعار وتسلط الأشرار.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ أن خلق العالم ليس أمرًا مبنيًّا على مُجرَّد الصدفة أو أنه بلا غاية وهدف بل هو أمر له حكمة وهدف وغاية وهو وصول الإنسان إلى الكمال ودخوله إلى يوم القيامة لنيل الجزاء من عقاب أو ثواب.

﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ۝٢٠﴾ [الأنبياء: ١٧-٢٠].

الفوائد: حرف ﴿لَوۡ﴾ في جملة ﴿لَوۡ أَرَدۡنَآ﴾ للامتناع، أي من الممتنع وجود مثل هذا اللهو من قِبلنا، ولو أردنا أن نرتكب لهوًا لفعلناه من لدنا أي لدينا ولكن هذا محال. وفي جملة ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ﴾ تشبيه للحقّ بصخرة قوية وللباطل بجرم رخو فعندما يُضرب البناء الرخو بحجر قوي ينهار ذلك البناء.

وَالـمَقْصود مِنْ جُمْلَة: ﴿مِمَّا تَصِفُونَ﴾ تلك الأوصاف التي وصف بها الـمُشْرِكُون والـماديون خالق العالـم مثل عدم الحكمة وعدم التدبير واللهو والـمصادفة والهرج والـمرج. وَالـمُرَاد مِنْ ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ﴾ الـملائكة.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ۝٢١ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٢٢ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ۝٢٣ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ ۝٢٤ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ۝٢٥﴾ [الأنبياء: ٢١-٢٥].

الفوائد: هذه الآيات في بيان التوحيد ونفي الشرك والأنداد. وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ على دليل التمانع، وهو أن عبارة ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ معناها غير الله، أي لو كان هناك آلهة أخرى غير الله كامل الذات القادر الـمطلق، فلو أراد كل منهم أن يخلق شيئًا ولم يُرد الآخر خلقه، فإما أن يقع مراد كليهما وهذا يؤدي إلى اجتماع النقيضين وهو محال، وإما أن يقع مراد أحدهما ولا يقع مراد الآخر فيلزم عن ذلك عجز الذي لا يقع مراده وهذا ينفي كونه قادرًا مطلقًا فهو ليس بإله. وثالثًا: هل يقدر كل واحد منهما على دفع الآخر أم لا؟ إن قدر لزم من ذلك نقص كليهما وإن لم يقدر لزم من ذلك نقص كليهما أيضًا، وإضافةً إلى ذلك فإنَّ وجود أكثر من إله يستلزم التمانع في الـموجودات والفساد في الكون.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا﴾ أن الله لا يُسأل عن فعله لأنه من الذي يستطيع أن يؤاخذ الله؟ أو يُعاقبه والعياذ بالله؟!

وَالـمَقْصود مِنْ جُمْلَة: ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِيۗ﴾ أن هذا الاستدلال ذِكر كتابي وذِكر الأَنْبياء من قبلي.

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ٢٧ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ٢٨ ۞وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٩].

الفوائد: نزلت هذه الآيات في خُزاعة حيث قالوا: الـملائكة بنات الله، وأضافوا إلى ذلك أنه تعالى صاهر الجِنّ، فنزَّه الله سبحانه وتعالى نفسه عن ذلك بقوله: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۚ﴾ لأن الولد لا بدّ أن يكون شبيهًا بالوالد، فلو كان لِلَّهِ ولد لأشبهه من بعض الوجوه، ثم لا بدّ وأن يُخالفه من وجه آخر، وما به الـمشاركة غير ما به الـمايزة فيقع التركيب في ذات الله سبحانه وتعالى وكل مركَّب ممكن، فاتخاذه للولد يدل على كونه ممكنًا غير واجب، وذلك يُخرجه عن حدِّ الإلهية لذلك نزَّه نفسه عنه. إضافةً إلى ذلك ليس لِلَّهِ داخل ولا خارج حتى يخرج منه الولد، وليس له شهوة. ثم قال تعالى: إن الـملائكة عباد مُكْرَمون لا يسبق قولهم قوله أي أنهم يتَّبعون اللَّهَ في قوله ولا يقولون شيئًا حتى يقوله، وكما أن قولهم تابع لقوله فعملهم أيضًا كذلك مبنيٌّ على أمره لا يعملون عملاً ما لم يُؤمروا به وهذا دليل على عصمة الـملائكة. وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ﴾ دليل على أن الـملائكة مخيَّرون لديهم إرادة حرة، والـملائكة لا يشفعون لأحد إلا لمن رضي الله عنه وعيَّنه للملائكة لأن الذي يعلم ظاهر العبد وباطنه وماضيه ومستقبله هو الله وحده فقط لا الـملائكة بدليل جملة ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾. وبالـمناسبة لا تُستفاد من هذه الآية شفاعة الأولياء، ولا يُمكن قياس غير الـملائكة على الـملائكة ولا أن يُقال: بما أن الآية ذكرت أن الـملائكة يشفعون فالأولياء من البشر أيضًا يشفعون. كما لا يُمكن أن

يُقال: بما أن الـملائكة يقبضون الأرواح فالأولياء البشريون أيضًا يقبضون أرواح العباد! وربما يكون الـمراد من شفاعة الـملائكة هنا تبليغهم رحمة الله للعباد. أو يكون الـمراد استغفار الـملائكة للمؤمنين في الدُّنْيَا، كما ذكرت ذلك بعض الآيات. وَرُوِيَ عَنْ ابن عباس، في تفسير جملة: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ قوله: «﴿لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾: **أي لمن قال لا إله إلا الله، وشفاعتهم الاستغفار**».

﴿أَوَ لَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنبياء: ٣٠-٣٣].

الفوائد: كانت السماوات والأرض في بدء الأمر شيئًا واحدًا مثل الدخان الـمتصل ببعضه ثم انفصلتا عن بعضهما بالتدريج بقدرة الله، أو حصل هذا الافتراق بواسطة هطول مطر الضباب، ونشأت من ذلك السماوات والأرض ثم وقع التخلخل والانفراج في الأرض بواسطة نمو الأشجار والنباتات.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ أنه لو لم تكن الجبال مرتفعة لاضطربت الأرض وأدت إلى اضطراب الناس الذين عليها.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾على ذمِّ الذين لا يتفكرون في كيفية الخلق والسير الـمنظم للسماوات والكواكب ولا يتأملون فيه. فلا بدّ على كل مكلف أن يُلم بشيء من علم النجوم كي يطَّلع على آيات قدرة الله في السماوات كي يعرف الله على نحو أفضل، كما رُوِيَ عَن الإمام الرضا عليه السلام: «**مَنْ لمْ يعرف الهيئةَ والتشريح فهو عنِّينٌ في معرفة الله**».

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ على دوران الكواكب العليا.

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ٣٤ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ٣٥﴾ [الأنبياء: ٣٤-٣٥].

الفوائد: كان كفار مكة يتمنون موت رسول الله ﷺ، فردّ الحقّ تعالى عليهم بقوله: إن مت فإنهم هم أيضًا ميتون فلا عيب في موتك.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ أن جميع أفراد البشر قبل رسول‌الله ﷺ ماتوا لأن النكرة في سياق النفي تُفيد العموم، فهذه الآية تُفهمنا أن جميع الأَنْبياء عليهم السلام رحلوا عن الدُّنْيَا سواءً كان ذلك موسى أم عيسى أم الخضر أم إلياس، فما اشتُهر بين العوام وفي بعض أخبار الآحاد أن النبيّ الفلانيّ لا يزال حيًّا يُناقض تمامًا هذه الآية فهو كذب جملة وتفصيلاً. وقد جاء في التاريخ أنه عندما انتقل رسول الله ﷺ عن دار الدُّنْيَا ولحق بربّه ورأى عمر أن الأنصار اجتمعوا في السقيفة لينتخبوا خليفةً، امتشق سيفه وقال: إن محمدًا ﷺ رسولَ الله لم يمت! إلى أن جاء أبو بكر وردّ على عمر قوله وقال: إن محمدًا قد مات وإن الله تعالى قال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ٣٠﴾ [الزمر: ٣٠] وعلى كل حال، فالذين يقولون: إن النبيّ أو الإمام لم يمت هم ممن أعجبهم قول عُمَر وقلَّدوه فيه[١].

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ٣٦ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا

١- وقد رجع عُمَر رضي الله عنه عن رأيه عندما تلا أبوبكر رضي الله عنه الآية التي تتحدث عن موت النبي ﷺ، كما في صحيح البخاري وغيره: [عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ أَبَا بَكْرٍ خَرَجَ وَعُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ يُكَلِّمُ النَّاسَ فَقَالَ: اجْلِسْ يَا عُمَرُ، فَأَبَى عُمَرُ أَنْ يَجْلِسَ، فَأَقْبَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ، وَتَرَكُوا عُمَرَ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: «أَمَّا بَعْدُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لاَ يَمُوتُ، قَالَ اللَّهُ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾... إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ٱلشَّٰكِرِينَ١٤٤﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وَقَالَ [عمر]: وَاللَّهِ لَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ هَذِهِ الآيَةَ حَتَّى تَلاَهَا أَبُو بَكْرٍ، فَتَلَقَّاهَا مِنْهُ النَّاسُ كُلُّهُمْ، فَمَا أَسْمَعُ بَشَرًا مِنَ النَّاسِ إِلَّا يَتْلُوهَا .... وَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ تَلاَهَا فَعَقِرْتُ، حَتَّى مَا تُقِلُّنِي رِجْلاَيَ، وَحَتَّى أَهْوَيْتُ إِلَى الأَرْضِ حِينَ سَمِعْتُهُ تَلاَهَا، عَلِمْتُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ مَاتَ»]. [المُصحح]

تَسۡتَعۡجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةٗ فَتَبۡهَتُهُمۡ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الأنبياء: ٣٦-٤٠].

الفوائد: كان كفار مكة إذا رأوا رسول الله ﷺ قالوا على سبيل الاستهزاء والتحقير: هذا الذي يذكر آلهتكم بسوء، ولم يكونوا يرغبون أن يُنكر محمد (ﷺ) آلهتهم في حين أنهم كانوا يكفرون بالله العالـم القادر الواحد. ولكن ينبغي أن نعلم أن الناس في زماننا أسوأ من الناس في زمن الجاهلية لأنهم إذا سمعوا شخصًا يردّ بعض خرافاتهم مستدلاً بآيات من القرآن استهزؤوا به وقالوا: جميع العلماء لم يفهموا ذلك وفهمه هذا وحده! وبهذه الحُجَّة أعرضوا عن الكلام الحقّ.

﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَ أَنفُسِهِمۡ وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلۡ مَتَّعۡنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۗ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنبياء: ٤١-٤٤].

الفوائد: جملة ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ تسلية لرسول الله ﷺ كي يعلم أن الأنبياء جميعًا تعرَّضوا للاستهزاء، والآية أيضًا تسلية للعلماء الصادعين بالحق كي يعلموا أن أهل الباطل كانوا دائمًا يُحاربون الـمنادين بالحق ويستهزئون بهم، وأن عليهم أن لا يخافوا ويعلموا أن الذي يحفظهم من شر الأشرار بالليل والنهار هو الله وحده فقط بدليل جملة: ﴿قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾.

وَالـمُرَاد مِنْ جملة: ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَآ﴾ وما جاء في الآية ٤١ من سورة الرعد أيضًا، السلطان والشوكة في الأرض اللذان يُعطيهما الحقّ تعالى لأُناس ويأخذهما تدريجيًّا من آخرين لعدم أهليَّتهم لها.

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتۡهُمۡ نَفۡحَةٞ مِّنۡ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٥-٤٧].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ﴾ أن إنذار رسول الله ﷺ ودعوته إنما هي بالقرآن فقط كما تدل الآية أن من طلب الهداية لن يجدها إلا في القرآن. وَالـمَقْصود مِنْ الـميزان العدل الإلهيّ، وقد يُراد به ميزان حقيقي ذو كفَّتين. وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ أن الذي يُحاسب العباد على أعمالهم هو الله وحده فقط لا الأَنْبياء ولا الأولياء ولا الآخرون بدليل كلمة: ﴿وَكَفَىٰ﴾.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ وَضِيَآءٗ وَذِكۡرٗا لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُۚ أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنبياء: ٤٨-٥٠].

الفوائد: يَتَبَيَّن مِنْ كلمات ﴿ٱلۡفُرۡقَانَ وَضِيَآءٗ وَذِكۡرٗا﴾ أن توراة موسى عليه السلام كانت مثل القرآن كتابًا يفرق بين الحقّ والباطل وكتابًا فيه نور العلم والهداية وذِكرى وتذكيرًا للمتقين، لكنها مع الأسف إما زالت أو حُرِّفت.

والـمُرَادُ مِنْ جُمْلَةِ: ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ...﴾ أنه كيف يُمكن إنكار القرآن مع كل تلك الأوصاف التي يمتاز بها ككونه معجزة وكفصاحته وهدايته وكونه روح حياة ومباركًا؟ فالاستفهام هنا استفهام توبيخي وتقريعي.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ

ٱلشَّٰهِدِينَ۝٥٦﴾ [الأنبياء: ٥١-٥٦].

الفوائد: الـمَقْصود مِنْ عبارة: ﴿رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾الرشد الفكريّ والبدني لإبراهيم قبل أن يُعطى منصب النُّبُوَّة، وقد يكون الـمراد من عبارة ﴿مِن قَبْلُ﴾ قبل موسى الذي ذُكر في الكلام. وَالـمَقْصود مِنْ: ﴿ٱلتَّمَاثِيلُ﴾ تماثيل العظماء والصالحين الذين كان الناس يُحبُّونهم في الدُّنْيَا لأعمالهم الصالحة وصنعوا لهم تماثيل احترامًا لهم وتحول الأمر شيئًا فشيئًا إلى عبادتهم، وهذا يُشبه حال الناس في زماننا الذين يتوجهون –كأهل الجاهلية– إلى العظماء وإلى صورهم وتماثيلهم ويعتبرون هذا العمل من شعائر الدين وآدابه. وضمير ﴿فَطَرَهُنَّ﴾ يعود على التماثيل، وقد يعود على السماوات والأرض.

﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ۝٥٧ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ۝٥٨ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ۝٥٩ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ۝٦٠﴾ [الأنبياء: ٥٧-٦٠].

الفوائد: قال إبراهيم للمشركين: ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ ولم يقل لأُكَسِّرَنَّ أصنامكم لأن رُشد إبراهيم اقتضى أن لا يشي عن نفسه.

ويعود ضمير ﴿إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ على ﴿كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ لا على إبراهيم، رغم أنه من الـمحتمل أن يعود إلى إبراهيم نفسه أيضًا، لكنَّ ﴿كَبِيرًا﴾ أقرب للمرجعيّة وأكثر مناسبةً من حيث الـمعنى.

﴿قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ۝٦١ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ۝٦٢ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ۝٦٣ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ۝٦٤ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ۝٦٥﴾ [الأنبياء: ٦١-٦٥].

الفوائد: أحضروا إبراهيم لاستجوابه في محكمة عامة أمام أعين الناس كي يُثيروا الناس ضده. وثانيًا: كي يكون لهم عذر إذا قرروا إعدامه بأن يقولوا: إن حكم الإعدام صدر من محكمة شعبية عامة. وينبغي أن نقول: عملهم هذا كان فيه شيء من العدل لأنهم شكلوا له محكمة عامة

عندما اعتقدوا أنه مذنب في نظرهم، أما في زماننا فإن مدّعي الدين إذا رأوا أحدًا يُحارب خرافاتهم طعنوا به وحطّموه دون تشكيل أي محاكمة له.

ويعود ضمير ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ على إبراهيم، هذا إذا اعتبرنا أن جملة: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ ليست نقلاً لكلام الله، بل كلام الناس، أما إذا اعتبرنا جملة: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ كلام الله فإن المخاطَب عندئذ هو كل قارئ له.

﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنبياء: ٦٦-٧٠].

الفوائد: جملة: ﴿مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ مطلقة أي لا تعبدوا كل ما لا يملك لكم نفعًا ولا ضرًّا بشرًا كان أم حجرًا، وإذا ضممنا إلى هذه الآية، الآية ١٨٨ من سورة الأعراف التي قال الله فيها لنبيّه: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا...﴾ [الأعراف: ١٨٨]، كانت النتيجة أنه لا يُمكن عبادة الأنبياء ولا يُمكن أن نمدَّ إليهم أيدينا بالدعاء.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ﴾ أن أهل الباطل ليسوا أهل منطق أو دليل بل منهجهم ومسلكهم القهر والإكراه والصراخ والغوغائية. وإضافةً إلى ذلك تَدُلُّ الجُمْلَةُ أن أهل الباطل أنصار وأعوان لباطلهم ولذلك فإن المتاجرين بالباطل يقومون دائمًا بإثارة العوام لصالحهم.

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنبياء: ٧١-٧٣].

الفوائد: المراد من جملة: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا﴾ أن الله نجّى إبراهيم وابن أخيه لوطًا من أرض العراق التي كانت مسكن نمرود وأرشدهما إلى الأرض المباركة التي هي الشام وفلسطين حيث الأنهار والأشجار والحياة الطيبة.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ﴾ أن الأَنْبياء جميعهم أئمة للناس وأن الإمامة لا تنحصر بأشخاص معيَّنين معدودين. وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ أن الأَنْبياء نالوا مقام القرب بعبادتهم.

﴿وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ ٧٤ وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٧٥﴾ [الأنبياء: ٧٤-٧٥].

الفوائد: المراد من «**الحُكم** هنا النُّبُوَّة» -حسب الظاهر-، وَالمُرَاد مِنْ ﴿ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ قرية سدوم التي كان أهلها من الأراذل والأوباش وكانوا أمةً فاسقةً يمارسون اللواط، وقرية سدوم هذه كانت في أطراف الشام، كما بيَّنا ذلك في السورة السابقة، وَالمُرَاد مِنْ ﴿رَحۡمَتِنَآ﴾ إما أهل رحمتنا أو الجنَّة.

﴿وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ٧٦ وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٧٧﴾ [الأنبياء: ٧٦-٧٧].

الفوائد: عبارة ﴿مِن قَبۡلُ﴾ مضاف، والمضاف إليه محذوف بقرينة الكلام. ويُمكن أن يكون: قبل الأَنْبياء أو قبل الطوفان.

وجملة: ﴿مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ﴾ حُذف مضافها بقرينة اللام أي من ضرر القوم أو من مكروه القوم. و﴿ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ هو حزن نوح الشديد على قومه الذين هلكوا بدعائه عليهم. فخاطبه الحقّ تعالى قائلاً: «**يا نوحُ! لا تتحسَّر فإنَّ دعوتكَ وافقت قدري**».

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ٧٩ وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ ٨٠ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ ٨١ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا

دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ﴿٨٢﴾﴾ [الأنبياء: ٧٨-٨٢].

الفوائد: دخل رجلان على داود ، أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم، فقال صاحب الحرث: إن هذا أرسل غنمه في حرثي، فلم يُبق من حرثي شيئًا. فقضى داود له بحكم وقضى ابنه سليمان له بحكم مختلف. قال داود لصاحب الحرث: اذهب فإن الغنم كلها لك، عوضًا عن الضرر الذي أصاب حرثك. أما سليمان الذي كان عمره حينذاك إحدى عشرة سنة فقضى أن يُدْفَعَ الغنمُ مدَّةً إلى صاحب الحرث ينتفع بدرِّها ونسلها وصوفها ومنافعها، ويبذر صاحب الغنم لصاحب الحرث مثل حَرْثِهِ، فإذا صار الحرث كهيئته يوم أُكِلَ دُفِعَ إلى أهله، وَأَخَذَ صاحب الغنم غنمه، فقال داود: القضاء ما قضيت وَحَكَمَ بذلك[1]. ويمكن أن نقول في هذه القضية إن كلا النبيين عليهما السلام حكما بالصواب، ولكن كان حُكْم سليمان أفضل، لأن الله تعالى قال: ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾، والظاهر أن المقصود من ﴿حُكۡمٗا﴾ في الآية الأخيرة: النُّبُوَّةُ. ومن حُكم داود يَتَبَيَّنُ أن قيمة ما أتلف من الحرث كانت مساوية لقيمة الغنم.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ﴾ أن الله تعالى كان شاهدًا وناظرًا لقضائهما. فلا بد من مراقبة الله في القضاء بين العباد.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ أن الله هو خالق معجزات الأنبياء لا الأنبياء أنفسهم، فالفاعل للمعجزات هو الله سبحانه.

﴿وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴿٨٣﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء: ٨٣-٨٤].

الفوائد: القصة السادسة التي جاءت في هذه السورة هي قصة أيوب الذي ابتلاه الله

١- رُوِيَ ذلك عَنْ ابن عباس، انظر **تفسير الطبري**، ١٧ / ٥١ - ٥٤، وتفسير **معالم التنزيل** للبغوي، ٥/ ٣٣٢، **وتفسير ابن كثير**، ٣ / ١٨٧.

سنوات عديدة بالأمراض والبلايا وذهاب الأموال وهلاك المزروعات ونفوق قطعان الماشية وموت الأولاد، ولكنه صبر ومهما حقَّره قومه من الكفار بسبب وقوع هذه الابتلاءات به لم يتوقف عن شكر الله فمدحه اللَّهُ تعالى في سورة ص بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤] وكان أيوب عليه السلام رجلاً من الروم وهو أيوب بن أنوص، وكان من ولد عيص بن إسحق، وكانت أمه من ولد لوط، وكان الله تعالى قد اصطفاه وجعله نبيًّا، وكان مع ذلك قد أعطاه من الدنيا حظًّا وافرًا من النعم والدواب والبساتين وأعطاه أهلاً وولدًا من رجال ونساء، وكان رحيمًا بالمساكين، وكان يكفل الأيتام والأرامل ويكرم الضيف، وكان معه ثلاثة نفر قد آمنوا به وعرفوا فضله. وابتُلِيَ في ماله وجسمه وبقي في البلاء ثماني عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا يغدوان ويروحان إليه. [فقال أحدهما للآخر ذات يوم: والله لقد أذنب أيوب ذنبًا ما أذنبه أحد من العالمين، فقال له صاحبه: وما ذاك؟ فقال: منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله تعالى ولم يكشف ما به]. فلما راحا إلى أيوب ولاماه على ما به قال أيوب عندئذٍ: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾وكان ذلك عندما قامت زوجته «رحمة» ببيع ضفيرتها لتشتري له بثمنها طعامًا[١]. وبقية القصة مذكورة في سورة ص.

﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنبياء: ٨٥-٨٦].

الفوائد: لقد أثنى الله تعالى على هؤلاء الأنبياء لأنهم كانوا صابرين وصالحين. أما إسماعيل فلأنه صبر على الانقياد إلى الذبح، وعلى الإقامة في أرض لا زرع فيها ولا بناء. وأما إدريس فقد صبر على إنكار قومه له حتى رفعه الله مكانًا عليًّا. وأما ذو الكفل فقد صبر على كفالته وعهوده وقيل: إن اسمه الحقيقي كان إلياس.

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ

١- انظر **التفسير الكبير** للفخر الرازي، ٢٢/ ٢٠٣ - ٢٠٨ بتلخيص واختصار.

إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨].

الفوائد: كان يونس بن متَّى من أهل فلسطين أو من أهل نينوى وكان معاصرًا لداود عليه السلام وبُعث بالرسالة وله من العمر ثلاثون عامًا، ثم دعا على قومه بالهلاك عندما بلغ من العمر ثلاثةً وستين عامًا، ثم ابتُلي ببلع الحوت له وسُمِّي حوته باسم «نون» وقد أنقذه الله من بطن الحوت بفضل تسبيحه، وقد ذُكرت قصته في الآية ٨٩ من سورة يونس.

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٨٩ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠﴾ [الأنبياء: ٨٩-٩٠].

الفوائد: هذه هي القصة التاسعة من القصص التي وردت في هذه السورة. وقد دعا زكريا ربَّه عندما كانت سنه مئة وسن زوجته تسعًا وتسعين، أو أقل فقال: ربِّ لا تذرني وحيدًا دون أنيس، فأصلح الله له زوجته التي ربما كانت سيئة الخُلق أو قليلة الاهتمام بأمور الدين، أو أنها لم تكن صالحة للحمل فأصلح الله جسمها من هذه الناحية، وقد استجاب الله دعاء زكريا وزوجه بفضل تلك الصفات التي مدحهم الله فيها في تلك الآيات وهي: أنهم كانوا يدعون ربَّهم في جميع الأحوال، وأنهم كانوا يُسارعون في أعمال الخير، وأنهم كانوا متواضعين خاشعين لِلّهِ.

﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩١﴾ [الأنبياء: ٩١].

الفوائد: المقصود من ﴿أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾ حفظه من ناحية الحلال والحرام، لأن الإحصان مطلق.

وَإن كان المراد مِنْ عبارة: ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ جبريل كان المعنى: أننا نفخنا فيها من طرف جبريل. وإن كان المراد روحًا بشريةً وأُضيفت إلى ضمير «**نا**» على سبيل التشريف، كان المعنى أننا نفخنا فيها من الروح التي خلقناها.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ۝٩٢ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ۝٩٣ فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ۝٩٤﴾ [الأنبياء: ٩٢-٩٤].

الفوائد: الأمة هي الجماعة التي لها هدف واحد، أي أن جماعة الأَنبياء هذه كانت جماعةً ذات هدف واحد وهو توحيد الخالق وطاعته، فعلى المسلمين أن يكون لهم هذا الهدف الواحد وهو توحيد الله وطاعته وأن لا يفترقوا عن بعضهم ويتحزَّبوا فرقًا فرقًا. وَالـمُرَاد مِنْ جملة: ﴿فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ﴾ أن سعيه مشكور سيُثاب عليه.

﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ۝٩٥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ۝٩٦ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٩٧﴾ [الأنبياء: ٩٥-٩٧].

الفوائد: ذُكرت معانٍ متعددة لجملة: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ﴾ لا تتفق مع ظاهر الآية. وما يتفق مع ظاهر الآية هو ما ذكرناه في الترجمة أي أن الحق تعالى يقول: إنه من الصعب والـمؤلم للأشخاص الذين هلكوا أنهم لا يستطيعون العودة إلى الدُّنْيَا إلى أن يُفتح سدّ يأجوج ومأجوج وتقوم القيامة. وهذه الآية ردّ على أهل التناسخ الذين يقولون: إنَّ من رحل عن الدُّنْيَا عادت روحه إليها في بدن جديد.

﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨ لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٩٩ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ ۝١٠٠﴾ [الأنبياء: ٩٨-١٠٠].

الفوائد: حرف «ما» في جملة ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ هي ما الـموصولة الخاصة بغير ذوي العقول، يعني: أن الأحجار والأخشاب التي صنعتموها وعبدتموها حصب جهنَّم، فهذا لا يشمل عيسى وعُزيرًا والـملائكة.

ويُطلق الزفير على شعلة النار وعلى صوت الهواء الذي يخرج من الصدر. وأيًّا كان الـمعنى

فلا إشكال في ذلك. وضمير ﴿وَهُمْ فِيهَا﴾ الذي هو ضمير الجمع المذكر يعود على المعبودين أو العابدين أو كليهما.

﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٣-١٠٤].

الفوائد: المقصود من الحسنى التي سبقت تلك الألطاف والعناية الخاصة التي أكرمهم الله بها مثل إعطاء النُّبُوَّة والإمامة والتوفيق للطاعة والوعد بالثواب والأجر العظيم. وَالمقْصود مِن: ﴿ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ قيام الساعة.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ أن الله يُعيد يوم القيامة الإنسان إلى خلقته الأولى التي ولد عليها في الدُّنْيَا، ومن الممكن أن يُقال: إن المقصود من ﴿أَوَّلَ خَلْقٍ﴾ الخلق من العدم أي كما خَلَقَ أول مرة من العدم سيَخْلق في المرة الثانية كذلك.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَـٰذَا لَبَلَـٰغًا لِّقَوْمٍ عَـٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥-١٠٧].

الفوائد: المراد من ﴿ٱلذِّكْرِ﴾ في جملة ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ التوراة، بقرينة ودليل الآية ٤٨ من هذه السورة ذاتها التي قال تعالى فيها: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

وَالمرَاد مِنْ جملة: ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾ أن هذه الدُّنْيَا الحالية وهؤلاء العباد الصالحين الذين يبذلون جهدهم وسعيهم ويتركون الكسل والخمول جانبًا سيرثون حكم هذه الأرض. ويُمكن أن نقول: إن المقصود من الأرض هنا الجنَّة، كما جاء في سورة الزمر عن أهل الجنَّة قولهم: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ...﴾ [الزمر: ٧٤]

وَالـمَقْصود مِنْ عبارة: ﴿رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ أن الله أراد أن يشمل عباده جميعًا برحمته، وأن يهديهم جميعًا، ولذلك أرسل رسوله لهذا الغرض، فكل من أقبل إلى هذه الرحمة شملته تلك الرحمة وكل من أعرض عنها لم تشمله.

﴿قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٨ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ ءَاذَنتُكُمۡ عَلَىٰ سَوَآءٖۖ وَإِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ ١٠٩﴾ [الأنبياء: ١٠٨-١٠٩]

الفوائد: في جملة ﴿قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ أداتان للحصر وتدلان على أن الوحي منحصر بالتوحيد، وهذا على سبيل الإغراق والأهمية.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿فَقُلۡ ءَاذَنتُكُمۡ عَلَىٰ سَوَآءٖۖ﴾ أن رسول الله ﷺ أبلغ رسالته لأصحابه بشكل متساوٍ فلم يُبلِّغ أحدًا شيئًا أخفاه عن الآخرين، وتدل أن ذلك التبليغ كان بطريق الإعلان.

هذا ولما كان أهل مكة يُؤذون رسول الله ﷺ إيذاءً شديدًا أوصى اللَّهُ رسولَهُ أن يتوجَّه إليه وقال له: اللَّهُ هو الـمستعان فاطلب العون منه.

سورة الحج

مدنيَّة وهي ثمان وسبعون آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ٢﴾ [الحج: ١-٢].

الفوائد: هاتان الآيتان من أشد آيات الإنذار والتحذير التي أنزلها الله تعالى. رُوِيَ في الحديث «أن هاتين الآيتين نزلتا بالليل والناس يسيرون، فنادى رسول الله ﷺ فاجتمع الناس حوله فقرأهما عليهم، فلم يُرَ باكيًا أكثر من تلك الليلة، فلما أصبحوا لم يحطُّوا السُّرُج ولم يضربوا الخيام ولم يطبخوا القدور، والناس بين باك وجالس حزين متفكر»[1]. ولذا قال تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ﴾.

وأتى الله هنا بلفظة ﴿مُرۡضِعَةٍ﴾ ولم يَقُلْ «مُرْضِعٌ» لأن المرضعة اسم لمن تكون في حال الإرضاع مُلْقِمَةً ثديَها الصبيَّ، أما المُرْضِعُ فشأنها أن تُرْضِعَ وإن لم تباشر الإرضاع في حال وصفها به، [فقيل: مرضعة ليدل على أن ذلك الهول إذا فوجئت به هذه وقد ألقَمَتْ الرضيعَ ثديَها نَزَعَتْهُ مِنْ فيه لما يلحقها من الدهشة].

وحرف «ما» في عبارة ﴿عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ﴾ قد يكون ما المصدرية [أي تذهلُ كل مرضعة عن

---

١ - انظر: **التفسير الكبير**، الفخر الرازي، ٢٣/ ٣.

إرضاعها]، ومن الممكن أن تكون «ما» الموصولة» بمعنى «مَنْ» [أي تذهل عن الذي أرضعته أي عمَّن أرضعت].

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ۝٣ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾ [الحج: ٣-٤].

الفوائد: نزلت هذه الآية ردًّا على النضر بن الحارث[1] الذي كان يُكذِّب بالقرآن، وكان كثير الجدل، وكان يقول: الملائكة بنات الله، والقرآن أساطير الأولين، وكان ينكر البعث وإحياء من صار ترابًا دون دليل علمي على إنكاره. وهي ردٌّ أيضًا على كلّ من ينكر الحقائق دون علم واستدلال.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦﴾ [الحج: ٥-٦].

الفوائد: اعلَم أن الحقّ تعالى لما حكى عن المُشْرِكين جدالهم بغير علم لنفي المعاد وإنكار الحشر والنشر، أتى هنا بدليلين للردّ على استبعادهم للمعاد ولإثبات إمكانيته وهما:

الأول: كيفية خلق البشر من تراب.

الثاني: كيفية خلق النبات.

وَلِـجُمْلَةِ: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ﴾ مفعول به مقدّر، وهو إما جملة «أننا قادرون على الإعادة» أو «أننا قادرون على أنواع الخلقة». ويُمكن أن نقدِّر «ما يُزيل ريبكم».

١- انظر: **معالم التنزيل**، البغوي، ٥/ ٣٦٥، والسيوطي في **الدر المنثور**، ٦/ ٨، وعزاه لابن أبي حاتم.

وَالـمَقْصود مِنْ: ﴿مُّخَلَّقَةٍ﴾ تامَّة الخلقة والصورة. والـمقصود مِنْ ﴿لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ﴾ بلوغ الأطفال سنّ اكتمال العقل والقوة أي سنّ البلوغ. والـمقصود من ﴿أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾ حالة الشيخوخة التي يتجه فيها الإنسان إلى الضعف وانحطاط قواه الجسمية وينسى كل ما تعلمه ويفقد حواسه ومدركاته شيئًا فشيئًا.

يقول كاتب هذه السطور: اللهم إننا نتلو كتابك ونأمل أن لا نصل إلى تلك السن ببركة القرآن.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ٧﴾ [الحج: ٦-٧].

الفوائد: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى تلك التصرفات والتغيُّر في حالة الإنسان والنبات الذي هو دليل على قدرة الحقّ تعالى، وقد فرّع الحقّ تعالى على هذا الدليل عدة أمور: **الأول**: أنه واجب الوجود وثابت الوجود.

الثاني: أنه مُحيي الـموتى.

الثالث: أنه على كل شيء قدير.

الرابع: أن الساعة آتية لا ريب فيها وأن وعد الله صدق.

الخامس: أن الله يبعث من في القبور فيجمع ذرّات الأبدان بعد تفرّقها ويُعيد الأجسام من جديد.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٨ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٩ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٠ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١ يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٢ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ١٣﴾ [الحج: ٨-١٣].

الفوائد: تتعلّق الآية الثالثة في هذه السورة بالتابعين الـمُقلّدين، وتتعلّق هذه الآية الثامنة

بالـمتبوعين الـمُقَلَّدين.

والـمقصود مِنْ ﴿يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾ العلم الضروريّ، أي يجادل بمُجرَّد الجهل الـمحض. والـمقصود من ﴿وَلَا هُدٗى﴾ أي من دون استدلالات عقلية. والـمقصود من ﴿وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ أي من دون استناد إلى كتب الوحي، أي أن مجادلة الكفار لا تستند لا إلى العقل الصريح ولا إلى النقل الصحيح.

وَالـمقْصود مِن ﴿ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ﴾ التكبّر والخُيلاء كتصعير الخدّ وتحقير الآخرين، كما يفعل أكثر أهل زماننا. ولذلك قال تعالى: ﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ﴾ ولهذا نرى أكثر الـمتدينين في عصرنا الذين يتصفون بمثل هذه الصفات يعيشون في الذل والتعاسة والشقاء.

وَالـمَقْصود مِن ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ﴾ أولئك الأعراب الذين كانوا يقدمون على النبي ﷺ بالـمدينة مهاجرين من باديتهم فكان أحدهم إذا صح بها جسمه ونتجت فرسه مهرًا حسنًا وولدت امرأته غلامًا وكثر ماله وماشيته رضي به واطمأن إليه، وإن أصابه وجع وولدت امرأته جارية أو أجهضت رماكه[١] وذهب ماله وتأخرت عنه الصدقة أتاه الشيطان وقال له ما جاءتك هذه الشرور إلا بسبب هذا الدين فينقلب عن دينه[٢]. كما يُقصد من العبارة أيضًا: **الـمؤلفة قلوبهم واليهود**، كما تنطبق الآية أيضًا على حال أكثر الـمسلمين في زماننا.

وتشمل جملة ﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ﴾ شعبنا الحالي الذي يدعو الأولياء وعظماء الدين الذين تُوفّوا ورحلوا عن الدُّنْيَا، لأن الله تعالى وصفهم بكل صراحة بأنهم لا يضرون ولا ينفعون بدليل قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ٢١﴾ [الجن: ٢١]. فالذين يدعونهم إذن في ضلال بعيد.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ

١- رماكه: من الرماك جمع رمكة، وهي الفرس أنثى الحصانة، أو البِرذونة أنثى الحمار، تتخذ للنسل والنتاج، وتجمع على أرماك أيضًا.

٢- مستفاد من **التفسير الكبير**، الفخر الرازي، ٢٣/ ١٣.

ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ١٤ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ١٥ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ ١٦﴾ [الحج: ١٤-١٦].

الفوائد: يعود ضمير «الهاء» في جملة ﴿لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ﴾ على ﴿مَن﴾ الموصولة حسب قانون الكلام، وعليه يكون المعنى: كل من ظنّ أن الله لن ينصره على أعدائه أو لن يرزقه، فَلْيَمُتْ بِغَيْظِهِ. وَالمُرَاد مِنْ ﴿فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أن يمدّ من غيظه حبلاً إلى سقف منزله ويشنق نفسه به ويقطع نَفَسَه من الغضب. أو يشتري وسيلةً تُمكِّنه من الصعود إلى السماء وقطع المسافات ليرى هل يُمكنه أن يجد حيلةً تُمكِّنه من إزالة غضبه وسخطه؟ ومعنى كل ذلك: ارضوا بنصر الله لكم ورزقه لكم ولا تُلقوا بأنفسكم إلى المشقة والعناء بلا فائدة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١٧ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ۩ ١٨﴾ [الحج: ١٧-١٨].

الفوائد: كل واحد من الأديان المذكورة في الآية ١٧ يعتبر نفسه على الحقّ والآخرين على باطل، والله سيقضي بينهم يوم القيامة وسيُميِّز الصالح من الطالح.

وَالمَقْصود مِن سجود الأرض والسماوات والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب: كونها مُسخَّرة لِلَّهِ خاضعة لأمره، أما سجود الناس فهو سجود تشريعي، فمعنى السجود إذن: الانقياد المحض وغاية التواضع، وهو أقسام وأنواع. ومن هنا يَتبَيَّن أن البشر الذين لا يسجدون لِلَّهِ أي لا يستسلمون لإرادته ويتواضعون لعظمته أحطّ من الجمادات.

﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ١٩ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ٢٠ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ

حَدِيدٖ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾
[الحج: ١٩-٢٢].

الفوائد: يُشير اسم الإشارة ﴿هَٰذَانِ﴾ إلى فريقَي المؤمنين والكافرين أو المطيعين والعاصين، الذين مرّ ذكرهم في الآيات السابقة. ويُمكن أن يُشير إلى الطوائف الست الذين ذُكروا في الآية ١٧. وقد نزلت هذه الآية في ستة نفر من قريش تبارزوا يوم بدر، أي عليّ وحمزة وعُبيدة بن الحارث وخصومهم: عُتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عُتبة، وإن كان سبب النزول هذا صحيحًا فهذا يدل على أن الآية نزلت في المدينة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحج: ٢٣-٢٤].

الفوائد: ذكر الحقّ تعالى في هذه الآيات أربع نِعم للمؤمنين:

الأولى: المسكن [وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾.

الثانية: الحِلية [وهو قوله تعالى: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ﴾.

الثالثة: الملبس [وهو قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾.

الرابعة: الطيِّب من القول الذي هو كلمة التوحيد بدليل آية: ﴿كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤]، أو هو كلمة الحمد أي قولهم: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ﴾ [الزمر: ٧٤]، و﴿وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠]، أو المقصود كلا الأمرين.

وجملة: ﴿صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ مضاف ومضاف إليه والمقصود من ﴿ٱلۡحَمِيدِ﴾ الله المحمود، ويُمكن أن تكون كلمة ﴿ٱلۡحَمِيدِ﴾ وصفًا للصراط[1].

١- لا يصح هذا الاحتمال لأن الصفة تتبع الموصوف في التعريف والتنكير.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادِۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ [الحج: ٢٥-٢٩].

الفوائد: تَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ على كفر الذين يصدون الناس عن الذهاب إلى الحج ويضعون الموانع والعوائق أمام سفر الراغبين للحج أو يضعون تكاليف ونفقات باهظة للحج أو يُجبرون الناس على دفع الرُّشى أو اللجوء إلى المحسوبيات والوساطات للتمكُّن من الذهاب إلى الحج أو يمنعون أشخاصًا معيَّنين من السفر إلى الحج بحُجج مختلفة.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ﴾ أن المقيم والمسافر متساويان من ناحية الاستفادة من الكعبة ومن السُّكنى في مكة والنزول بها أو بأطرافها، أي أن أهل مكة لا يُمكنهم منع الواردين إليها لأجل الحج من السُّكنى فيها.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادِۭ بِظُلْمٍ﴾ أنه لا يحقّ لأهل مكة وحُكّامها أن يظلموا القادمين إليها أو يرفعوا الأسعار أو يحتكروا أو يرتكبوا أي نوع من أنواع التعدّي والإيذاء، وكل من ارتكب مثل هذه الأعمال يكون قد ارتكب إثمًا كبيرًا وذنبًا عظيمًا، والخلاصة أنه لا بدّ من تقديم التسهيلات للحجاج والزوار.

ويُمكننا أن نستنبط من جملة ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ﴾ التي أمر الله فيها إبراهيم بتطهير بيته أن البيت كان معمورًا قبل زمن إبراهيم عليه السلام حتى خاطبه الله بمثل هذا الخطاب وأمره بتطهيره، ولهذا عُبِّر في الآيات التالية عن ذلك البيت بعبارة: ﴿ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾، حيث يُطلق العتيق على الشيء

القديم جدًا. وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ﴾ أن على إمام المسلمين وزعيمهم أن يُعلن في وسائل إعلامه عن أهمية الحج ويدعو الناس إلى الحج إلى الكعبة بيت الله الحرام.

وَيُسْتَفَادُ مِنْ جملة: ﴿أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ﴾ أنه لا بدّ من تحديد اليوم الأول من شهر ذي الحجة ليتبيَّن اليوم التاسع والعاشر منه، أي لا بدّ من مراقبة ظهور الهلال كي لا يحصل خطأ في تحديد يومي التاسع والعاشر من ذي الحجة وكي يؤدي المسلمون تكبيراتهم في أيامها المحددة. وَالمَقْصود مِن ذكر اسم الله في أيام معدودات هذا التكبير أي «الله أكبر ... إلخ» الذي يُقال بعد صلاة عيد الأضحى وسائر الصلوات.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ﴾ أنه يجب الأكل من الأُضحية والأضاحي وأن يُعطى منها للفقراء والمساكين، لا أن تُترك الأضاحي فوق التراب وتحت أشعة الشمس إلى أن تتعفن ثم تُدفن في التراب لأن هذا من الإسراف والتبذير فلا بُدَّ من إعداد البرَّادات الكبيرة لاستيعاب هذه اللحوم.

﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ٣٠ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ٣١ ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ٣٢﴾ [الحج: ٣٠-٣٢].

<u>**الفوائد**</u>: الحُرُمات هي الأشياء التي حرَّمها الله في مناسك الحج أو التي حرَّمها الله بشكل عام سواءً في الحج أو غيره. والأشياء التي ذُكر في القرآن أنها حرام خمسة: (**١- البيت الحرام أي الكعبة. ٢- المسجد الحرام. ٣- البلد الحرام. ٤- الشهر الحرام. ٥- المشعر الحرام**).

كلمة ﴿حُنَفَآءَ﴾ وصف لمن ينصرفون عن الباطل ويميلون عنه إلى الحقّ.

وفي جملة: ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ شبَّه الله تعالى المشرك بمن أهلك نفسه بأن قذف بها من السماء إلى الأرض فاختطفته الطيور التي تأكل الجِيَف أو رمت به الرياح أو الشياطين في أودية

التعاسة والشقاء. وهنا تمّ إعمال كُلٍّ من تشبيه المفردات بالمفردات وتشبيه الجملة المركبة بالجملة المركبة.

﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ۝٣٣ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ۝٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ۝٣٥﴾ [الحج: ٣٣-٣٥].

الفوائد: المقصود من كلمة ﴿فِيهَا﴾ في عبارة ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ -حسب الظاهر- الأضاحي المُعَدَّة للهَدْي، ومنافعها: الاستفادة من لبنها ووبرها وصوفها وولدها ومن الركوب عليها إلى أن تصل إلى موضع الذبح.

أما إذا قُصِد بكلمة ﴿فِيهَا﴾ مطلق الشعائر أي: الواجبات والمحرمات، كان المقصود من المنافع التي فيها، المصالح التي تعود على من يعمل بها.

والأجل المُسمَّى هو وقت حلول الموت ورفع التكليف.

وَالمُرَاد مِنْ ﴿ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ الكعبة المشرَّفة التي أعتقها الله فحفظها من الغرق أو من تسلط الجبارين. وقد تكون كلمة ﴿ٱلْعَتِيقِ﴾ بمعنى القديم، أي أن الكعبة أقدم بيت وُضع في الأرض لعبادة الله.

وذُكر في معنى ﴿ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ لغةً: المطيعين والخاضعين والمخلصين والمطمئنين، ولكن لما أوضح الله معناها في جملة ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ...﴾ لم تعد بحاجة إلى تفسير.

﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌۖ فَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ۝٣٦﴾ [الحج: ٣٦].

الفوائد: معنى ﴿صَوَآفَّ﴾ أن يقف الحيوان على قوائمه وأن توضع أيديه وأرجله بالترتيب على الأرض، وكيفية نحر البدنة: أن تُعقل يداها من الركبة إلى الراحة أي تُربط بعضها إلى بعض

وتُغرس الـموسى في الطرف الأيمن من صدرها. وأما البقرة فتُربط قوائمها الأربعة ويُترك ذَنَبُها، ولما كانوا في زمن الجاهلية يُلطِّخون باب الكعبة وجدارها أو أصنامهم بدم الأضاحي ويعتبرون ذلك وسيلةَ تقرُّبٍ إلى الله، نهاهم الله عن ذلك وقال: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾، فالـمقصود من الأُضحية هو الطاعة والتقوى، كما قال: ﴿وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْۚ﴾. وجملة: ﴿لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ إشارة إلى هذه التكبيرات التي تُقال بعد صلوات أيام العيد أي: «الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر ولِلَّهِ الحمد على ما هدانا وله الشكر على ما أولانا، والله أكبر على ما رزقنا من بهيمة الأنعام».

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿جَعَلْنَـٰهَا لَكُم مِّن شَعَـٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾ أن الله هو الذي يُعيِّن الشعائر الإلهية أما في زماننا فكثيرٌ من شعائر الناس أصبحت تُسمَّى شعائر الله!

﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ٣٨ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ٣٩ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٖ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ٤١﴾ [الحج: ٣٨-٤١].

الفوائد: يدافع الله عن عباده بواسطة بعض عباده الآخرين، كما نزلت هذه الآيات في كفار مكة الذين كانوا يؤذون الـمسلمين ويُعذِّبونهم ويضطهدونهم قبل هجرة رسول الله ﷺ إلى الـمدينة، فكان الـمسلمون يأتون إلى رسول الله ﷺ وبعضهم قد تعرَّض إلى الضرب وبعضهم يأتيه وقد شُجَّ رأسه أو كُسرت يده فيتظلَّمون إليه فيقول لهم: اصبروا فإني لم أؤمر بقتال، حتى هاجر فأنزل الله تعالى هذه الآية وهي أول آية أُذن فيها بالقتال. وقيل: نزلت هذه الآيات في قوم خرجوا مهاجرين فاعترضهم مشركو مكة فأُذن في مقاتلتهم[1].

١- انظر: **التفسير الكبير**، الفخر الرازي، ٢٣/ ٣٩.

أَذِنَ الحقُّ تعالى للمؤمنين بالقتال، ولم يكن للمؤمنين ذنبٌ في نظر الكفار سوى أنهم كانوا مُوحِّدين ويقولون: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾.

وضمير ﴿فِيهَا﴾ في عبارة: ﴿يُذْكَرُ فِيهَا﴾ يعود على المساجد أو على ﴿صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ﴾، وقد ذكر المُفسِّرون كلا الاحتمالين. ولا يخفى أن الله أعان أولئك المؤمنين ودافع عنهم ووصفهم بصفة: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾، ولكن الله تعالى لن ينصر المسلمين بالاسم في زماننا الذين لا يتصفون بمثل هذه الأوصاف.

﴿وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٤-٤٦].

الفوائد: هذه الآيات تسلية لرسول الله ﷺ بأنه إن كذَّبك قومك فقد كُذِّب الأَنْبياء جميعهم من قبلك فلا تحزن ولا تكتئب.

وَالـمُرَاد مِنْ عبارة ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾ من أهل قرية.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ...﴾ أن السير في الأرض مُستحبٌّ لرؤية آثار الماضين وقبورهم وَقُرَاهُم للاعتبار مما حلَّ بهم، ولكن لما كان سماع أخبار الماضين ورؤية آثارهم يتمان بالأذن والعين، فما لم يكن لدى الإنسان يقظة روحية وبصيرة في قلبه فلن يُؤثِّر سماعه بالأذن ورؤيته بالعين الظاهرية، من هنا قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾. وهذه الجملة تدل على أن محلّ التفكير والتعقُّل هو الصدر، وقد يكون الدماغ والصدر كلاهما محل التعقل.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ

مِّمَّا تَعُدُّونَ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴿٤٨﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴿٤٩﴾﴾ [الحج: ٤٧-٤٩]

الفوائد: جملة: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ لها معانٍ مهمَّةٌ وعاليةٌ جدًا: **الأول**: أن هؤلاء الكفار الذين يستعجلونك بالعذاب ويقولون: أنزل علينا عذاب ربِّك، عليهم أن يعلموا أنه لا فرق عند ربِّك بين ألف سنة ويوم واحد فهو قادر على أن يُمهل يومًا ويُمهل ألف سنة، فعليهم أن لا يعتبروا إمهاله دليلاً على عجزه. **الثاني**: أن عذاب الله في الآخرة، وعذاب يوم واحد من عذاب الآخرة يبدو لشدته كأنه عذاب ألف سنة، فلو علم الكفار ذلك لما استعجلوا ذلك العذاب. **الثالث**: أنه حتى الأيام القصيرة التي تمضي بسرعة تكون طويلة على الإنسان، فما بالك باليوم الذي مقداره ألف سنة وعذابه أشدُّ من عذاب الدنيا بألف ضعف، كيف سيمضي على الإنسان؟ «**نعوذ بالله من عذابه وعقابه**».

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴿٥١﴾﴾ [الحج: ٥٠-٥١]

الفوائد: المقصود من ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ الرزق الذي يُرزقه الإنسان بإكرام ودون مِنَّة ودون تعب ومشقَّة، وأنه ليس مثل رزق الدُّنْيَا التي يُعاني الإنسان للحصول على الرزق الحلال فيها أنواعَ المتاعب والمذلّات والمشقَّات.

وَالمُرَاد مِنْ ﴿ٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا﴾ الذين يبذلون كل جهدهم لدحض آيات الله والردّ عليها بوصفها سحرًا وأساطير وغير ذلك من الحجج.

ومعنى ﴿مُعَـٰجِزِينَ﴾: جعل الرسول عاجزًا من خلال التشويش والشوشرة ومنع الناس من الإيمان وإلقاء الشُّبهات في قلوبهم.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍ

بَعِيدٍ۝٥٣ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ۝٥٤﴾ [الحج: ٥٢-٥٤].

الفوائد: يثبت من عطف النبيّ على الرسول أن بينهما فرقًا وتغايُرًا [لأن الشيء لا يُعطف على نفسه]، فالنبيّ هو الذي يأتيه الخبر من الوحي، سواءٌ أُمر بتبليغه أم لا، أما الرسول فهو الذي يأتيه الخبر من الوحي ويؤمر بتبليغه. «وقيل لرسول الله ﷺ: كم المرسلون؟ فقال: ثلاثمئة وثلاثة عشرة، فقيل: وكم الأنبياء؟ فقال: مئة ألف وأربعة وعشرون ألفًا الجمّ الغفير»[1]. فمن هذا يَتبيَّن أن بين الرسول والنبيِّ عمومًا وخصوصًا مطلقًا أي كلُّ رسولٍ نبيٌّ وليس كلُّ نبيٍّ رسولاً.

وذكروا في ترجمة وتفسير آية ﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ معاني مختلفة واحتمالات متفرقة، وهي كلها في نظرنا لا تتفق مع العقل ولا النقل ولا ظاهر القرآن، وسنذكر هنا وجهة نظرنا التي نستنبطها من ظاهر القرآن، فمن شاء قبلها ومن شاء لم يقبلها:

المقصود من هذه الجمل التي تبدأ من هذه الآية وحتى الآية ٥٤ أن كل نبيّ سواءً كان مرسلاً أم غير مرسل، يتمنَّى أن يهتدي الناس وأن يقبلوا آيات الله ودلائله دون جَلَبَةٍ وغوغاءٍ وتهويش، ولكن شياطين الإنس والجِنّ يُلقون في وسط أمنية النبيّ هذه، شُبهاتٍ في قلوب الناس ويدفعون الناس إلى الشك والشُّبهة، كما نرى في زماننا مثل ذلك، فمثلاً بيَّنَّا أن الحكُمْ والمُلْك وزمام الأمور في الكون كأمور الخَلق والرِّزْق منحصر بيد الله وحده لا غير، والمُدبِّر للكون هو ذات واحدة حصرًا هي الله تعالى، وأن الأَنْبياء والأولياء لا علاقة لهم بهذه الأمور من قريب أو بعيد، وقد قلنا هذا الكلام لأننا وجدنا أمتنا غارقةً في الغُلوِّ والشرك، وأردنا نجاتهم، ولو لم يكن هناك شياطين الإنس والجِنّ لقبل الناس كلامنا ولاعتنقوا التوحيد الخالص، ولكن مع الأسف

١- انظر: **التفسير الكبير**، الفخر الرازي، ٢٣/ ٤٩. والحديث أخرج نحوه أحمد في **المسند**، ٥/ ٢٦٥، رقم (٢٢٣٤٢) وقال محققه شعيب الأرنؤوط: ضعيفٌ جدًّا. وأخرجه الطبراني في **الكبير**، ٨/ ٢١٧، رقم (٧٨٧١)، وقال الهيثمي في **مجمع الزوائد** (٨/ ٢١٠): رجاله رجال الصحيح غير أحمد بن خليد الحلبي، وهو ثقة. وأخرج جزءًا منه: الحاكم في **المستدرك**، ٢/ ٢٨٨، رقم (٣٠٣٩) عن أبي أمامة، وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرِّجاه، ووافقه الذهبي في التلخيص.

قام عدّة من علماء السوء بكتابة كتب طرحوا فيها شُبهاتهم التي أرادوا من خلالها الردّ على ما كتبناه وقاموا بشتمنا من على منابرهم وفي مجالسهم، وسرقوا من مؤلفاتي خلال سنة واحدة سبعة كتب مخطوطة لم يكن عندي منها سوى تلك النسخة الواحدة، واستباحوا بحقي كل نوع من الأذى، وعلى كل حال، أوقعوا الناس في الحيرة وفي أودية الضلالة. ولكن هذا الجدال والشوشرة والتهويش استمر طويلاً وبدأ عدد من الناس من أهل العلم والإيمان يميلون شيئًا فشيئًا إلى التسليم بكلامنا الحق وهدؤوا، أما الذين في قلوبهم مرض والذين يعتاشون على الدين وهم أسرى لزخارف الدُّنْيَا وقد ملأ قلوبهم الحسد وحُبّ الدُّنْيَا، فإنهم بقوا على عداوتنا ولا زالوا مشغولين بإساءة القول بحقنا ومسرورين بذلك. وهذه الآيات في هذه السورة وهذا المعنى الذي ذكرناه تؤيده الآية ١١٢ من سورة الأنعام: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢] والآية ٣١ من سورة الفرقان: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٣١]، ولكن الله وعد بأن يُزيل شيئًا فشيئًا إلقاءات الشيطان وينسخ شُبهات الشياطين ويُحكم الكلام الحقّ كما نُشاهد ذلك في زماننا.

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ٥٥ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٥٦ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ٥٧﴾ [الحج: ٥٥-٥٧].

الفوائد: إحدى علامات الكفر الشك في آيات القرآن، وفي زماننا هناك كثير من الناس بين المسلمين يشكّون في كثير من آيات القرآن ورغم ذلك يعتبر بعضهم نفسه من زعماء المسلمين، وهذا الخبر في القرآن باقٍ على الدوام كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ...﴾.

وتُطْلق صفة ﴿عَقِيمٍ﴾ في عبارة ﴿يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ على اليوم الذي لا يُرى فيه أيُّ خيرٍ، وعلى اليوم الذي لا ليل فيه ولا غد، وعلى اليوم الذي تضع فيه كل ذات حمل حملها، وعلى اليوم الذي لا نظير له، وكل ذلك واقع يوم القيامة.

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٥٨ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ۝٥٩ ۞ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ۝٦٠ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ۝٦١ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ۝٦٢﴾ [الحج: ٥٨-٦٢].

الفوائد: نزلت هذه الآيات في المهاجرين الذين اضطرُّوا مُكرَهين إلى ترك وطنهم، فلقيهم قومٌ من مشركي مكَّة لليلتين بقيتا من المحرَّم فقالوا: إن أصحاب محمَّد يكرهون القتال في الشهر الحرام فاحملوا عليهم؛ فناشدهم المسلمون ألا يقاتلوهم في الشهر الحرام؛ فأبى المشركون إلا القتال، فحملوا عليهم فثبت المسلمون ودافعوا عن أنفسهم فنصرهم الله على المشركين؛ وحصل في أنفس المسلمين من القتال في الشهر الحرام شيء؛ فنزلت هذه الآية تقبل عذرهم[(١)].

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ بأنه يمكن اعتبار الله واجب الوجود أي ثابت الوجود.

ومعنى كون الله ﴿خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾: **أولاً**: أنه سبحانه مختصٌّ بأن يرزق ما لا يقدر عليه غيره. **ثانيًا**: أنه تعالى الأصل في الرزق، وغيره إنما يرزق بما تقدم من الرزق من جهة الله تعالى. **ثالثًا**: أن الله يرزق من العدم، أما غيره فينقل الرزق من يده إلى يد غيره. **رابعًا**: أن غيره إذا رزق فإنما يرزق لانتفاعه به، إما لأجل أن يخرج عن الواجب، وإما لأجل أن يستحق به حمدًا أو ثناء، وإما لأجل دفع الرقة الجنسية، فكان الواحد منا إذا رزق فقد طلب العوض، أما الحق سبحانه فإن كماله صفة ذاتية له فلا يستفيد من شيء كمالاً زائدًا فكان الرزق الصادر منه لمحض الإحسان. **خامسًا**: أن غيره إنما يرزق لو حصل في قلبه إرادة ذلك الفعل، وتلك الإرادة من الله، فالرازق في الحقيقة هو

---

١ - انظر: القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ١٢/ ٩٠.

الله تعالى[1]. **سادسًا**: أن رزق الله لأهل الجنَّة لا نهاية له، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴿٥٤﴾﴾ [ص: ٥٤].

ويُسْتَفاد من جملة: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ القصاص والعقاب بالـمثل.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴿٦٦﴾﴾ [الحج: ٦٣-٦٦].

الفوائد: بيَّن الحقّ تعالى في هذه الآيات دلائل قدرته حتى يكفَّ الـمُشْرِكُون عن شركهم ويُصبحوا موحدين، ولكن للأسف أصبح زماننا أسوأ من زمن الجاهلية، لأن هناك اليوم من يُسمِّي نفسه مسلمًا ويرى أن الإمام أيضًا يقوم بمثل هذه الأفعال وهذه الأعمال ذاتها التي بيَّن الله في هذه الآيات أنها خاصة به وحده! فالله تعالى يقول: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ... وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ وهؤلاء يقولون: كلَّا، إن الإمام! ويقوم عددٌ من قُرَّاء الـمراثي ومؤيدي الإمام ببث كلمات الكفر هذه في أذهان العوام.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ على نفي الحياة في القبر.

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴿٦٩﴾﴾ [الحج: ٦٧-٦٩].

الفوائد: نزلت هذه الآيات بشأن جدال الـمشركين في أمر الذبائح، وقولهم للمؤمنين: ما لكم تأكلون ما ذبحتم ولا تأكلون مما قتله الله - أي الـميتة - وتعتبرونها حرامًا مع أن ما قتل الله أحق

١- استفاد الـمؤلف هذه الوجوه الخمسة من: **التفسير الكبير**، للفخر الرازي، ٢٣/ ٥٧-٥٨، بتلخيص.

أن تأكلوه مما قتلتم أنتم بسكاكينكم! فقال تعالى ردًّا عليهم: إن هؤلاء يلجُّون في الخصام، ولا يفهمون مصالح الأحكام، فلا تنازعهم في ذلك وإن جادلوك فقُلْ: الله أعلم.

وكلمة **الـمَنْسَك** في جملة: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾: إما اسم زمان، أو اسم مكان، أو اسم مذهب ومسلك[1]. فالـمُراد من الـمنسك إما محل الذبح أو مكان العبادة، أو زمن الـمنسك أو العبادة، أو الـمذهب والـمسلك الديني أي **الشريعة**.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾ [الحج: ٧٠-٧٢].

الفوائد: الـمُرَادُ مِنْ جُمْلَةِ: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ﴾ أن علم تلك الأمور محفوظ عند الله لأن الكتاب كناية عن الحفظ والتسجيل، وهذا هو معنى اللوح الـمحفوظ أي العلم الإلهيّ الـمحفوظ. وَالـمُرَادُ مِنْ عبارة: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ في جملة ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أن الـمدعوين الذين يتم التوجه إليهم وطلب الحوائج منهم مخلوقات مقامهم أدنى بكثير من الخالق فمعنى دون الله: أدنى من الله. وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ أن كل شيء ليس عليه دليل من الوحي لا يجوز دعاؤه ولا عبادته سواءً كان نبيًّا أم عبدًا مقربًا أم حَجَرًا.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ﴾ أن الكفار زمن الجاهلية كانوا مثل بعض الـمسلمين في زماننا تنقلب وجوههم عند سماع آيات القرآن ويستاؤون منها. بالطبع كان الـمُشْرِكُون في الجاهلية يفعلون ذلك حفاظًا على تجارة عبادة الأصنام التي ينتفعون منها أما بعض مسلمي عصرنا فيفعلون ذلك تعصبًا لخرافاتهم وحمايةً لها.

١- يُقال: نَسَكَ منسك قومه إذا سلك مذهبهم.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٧٤﴾ [الحج: ٧٣-٧٤].

الفوائد: لما ذمَّ اللَّهُ تعالى في الآيات السابقة الذينَ يعبدون غير الله دون دليل وبرهان على صحة عبادتهم هذه، بيَّن في هذه الآيات أن دعاء غير الله له الحكم ذاته، لأن دعاء مدعوٍّ غيبيٍّ غير الله والاستمداد منه والاستغاثة به يعني أن الداعي يعتبر غير الله هذا مماثلاً في صفاته لِلَّهِ [لأنه يعتبره حيًّا حاضرًا ناظرًا في كلِّ مكان لا تختلط عليه الأصوات]. وهنا ضرب الله تعالى مثلاً: وهو أنه لو اجتمع المخلوقات جميعهم على أن يخلقوا ذبابًا لما استطاعوا، فهم على هذا القَدْر من العجز، فكيف تدعون مثل هذه المخلوقات العاجزة إلى هذا الحد؟! ولا يخفى أنه ليس المقصود من عبارة ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ هنا الأصنام لأنه عبرَّ عن هؤلاء باسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ الذي يُطْلَق على العقلاء. أضف إلى ذلك أنه لو اجتمع الأنبياء والأولياء والمقرَّبون قاطبةً لما استطاعوا أن يخلقوا ذبابًا، فلا يجوز إذن دعاؤهم بحكم هذه الآية ذاتها، والذين يدعون غير الله لرفع البلايا وكشف الكُرُبات لم يعرفوا عظمة الله ولم يَقْدِرُوه حقَّ قدْرِه، كما بينت هذه الآية.

﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٧٦﴾ [الحج: ٧٥-٧٦].

الفوائد: لما ذمَّ الله تعالى في الآيات السابقة الذين يدعون أشخاصًا من دون الله رغم أن أولئك المدعُوِّين عاجزون تمامًا حتى عن خلق ذبابة، ذكر في هذه الآية أنه تعالى رغم اصطفائه لبعض الملائكة وبعض أفراد البشر لأجل حمل رسالته، إلا أن هذا الاصطفاء هو لأجل حمل الرسالة فقط وليس لأجل أن يجعلهم قادرين على كشف الضر عن الخلق أو قضاء حاجات الناس، لأن الله وحده عالم بأحوال جميع الخلق حتى بأحوال الملائكة والأنبياء أنفسهم، وهو وحده العليم بما هو أمام الناس وخلفهم أي العليم بمستقبلهم وماضيهم وبالدنيا والآخرة والظاهر والباطن:

﴿سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۚ﴾ وهو وحده المرجع في جميع الأمور كما يدل عليه تقديم: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ على: ﴿تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ الدال على الحصر.

وقد استدل بعضهم بآية: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ وبآية سورة القصص ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ﴾ [القصص: ٦٨] وسائر الآيات التي تتضمن مثل هذا المعنى، على أن اختيار إمام المسلمين وحاكمهم ومالك زمام أمورهم ينبغي أن يتمّ مِنْ قِبَل الله، لا أن يقوم الناس باختيار إمامهم وحاكمهم؛ لأن من ينتخبه الناس عُرضة للوقوع في الخطأ كما نجد أنه عندما اختار موسى سبعين رجلاً من قومه ليكونوا معه في جبل الطور كفر السبعون جميعهم ونالوا غضب الله.

لكن هذا الاستدلال غير صحيح لما يلي:

أولاً: إن من يختاره الله للإمامة يقع في الخطأ أيضًا، كما نجد أن يونس أخطأ عندما فرَّ من قومه وتركهم، ونجد أن موسى أخطأ عندما غضب بشدة على أخيه وشدّه من لحيته ورأسه، ونجد أن رسول الله ﷺ أخطأ عندما أذن للمنافقين بالتخلف عن غزوة تبوك دون أن يتحقق من صدقهم أو كذبهم حتى عاتبه ربّه فقال له: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ...﴾ [التوبة: ٤٣] فالوقوع في الخطأ لا يصلح دليلاً على عدم جواز اختيار الناس لإمامهم. وإضافةً إلى ذلك فإن الأَنْبياء رغم أن الله يُرشدهم بواسطة الوحي، وأن الله جعل لهم حراسًا من بين أيديهم ومن خلفهم للحفاظ على الوحي كما قال تعالى: ﴿يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾ [الجن: ٢٧]، رغم كل ذلك فإنهم عندما لا يُساعدهم الوحي ويأخذ بأيديهم إلى الأصوب يقعون في الخطأ، فما بالك بإمام المسلمين وحاكمهم الذي لا يُوحَى إليه كيف لا يقع في الاشتباه والخطأ؟!

ثانيًا: إن الله ذكر في هذه الآية أنه يصطفي الرسل من الملائكة ويصطفي الأَنْبياء والمرسلين من البشر، ولم يقل: إنه يصطفي الحُكَّام والأئمة!

ثالثًا: يريد المستدلون بهذه الآيات أن يقولوا: إنه لما اختار الله عليًّا عليه السلام لمنصب الإمامة والخلافة، كان ذلك دليلاً على أن عليًّا لا يقع في الخطأ، هذا في حين أن عليًّا عليه السلام وقع في الخطأ في

موارد عديدة –كما يدل عليه ما جاء في نهج البلاغة الذي يؤمن المستدلون بصحة كل ما فيه– فمثلاً في الرسالة ٧١ من نهج البلاغة وفي عدد من التواريخ ذُكر أن عليًّا عليه السلام اختار المنذر بن الجارود العبدي لمهمة جمع الصدقات وأرسله في هذه المهمة فقام باختلاس الأموال والتحق بمعاوية، فكتب له عليّ عليه السلام: «**أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ صَلاحَ أَبِيكَ غَرَّنِي مِنْكَ وظَنَنْتُ أَنَّكَ تَتَّبِعُ هَدْيَهُ**....» إلى آخر الرسالة.

ويتبيَّن من الرسالة ٦٣ من نهج البلاغة والتواريخ أن عليًّا عيَّن أبا موسى الأشعري واليًا على الكوفة فظهر أنه شخص منافق! (حسب ظنهم) وصار معارضًا للإمام [لتَثْبيطِهِ النَاسَ عَنِ الْخُرُوجِ إِلَى الإمام لَمَّا نَدَبَهُمْ لِحَرْبِ أَصْحابِ الْجَمَلِ]. وكذلك يظهر من الرسالة ٦١ من نهج البلاغة ومن التواريخ أن عليًّا عليه السلام عيَّن كميل بن زياد عاملاً له على «**هِيْتٍ**» فلم يُقاوم الأعداء وسلَّم مدينة هيت للعدو دون مقاومة فوبَّخه عليٌّ عليه السلام على هذا الصنيع. ويظهر من الرسالة ٤٤ من نهج البلاغة ومن التواريخ أن عليًّا نصَّب زياد بن أبيه عاملاً له على فارس فاشتبه في هذا الأمر [إذ تبيَّن فيما بعد أن هذا الرجل فاسقٌ مجرمٌ]، ويظهر من الرسالة ٤٣ من نهج البلاغة أن عليًّا نصَّب «مصقلة بن هُبَيرة الشيباني» عاملاً له على «أردشير خُرّة»[1] فظهرت خيانته. ويتبيَّن من الرسالة ٤١ من نهج البلاغة ومن كتب الرجال والتواريخ أن عليًّا أخطأ في تعيين عبد الله بن عباس.

وأخطأ عليه السلام في عزل «قيس بن سعد بن عبادة» عن ولاية مصر، كما ذكرت التواريخ جميعها، ونصَّب مكانه «محمد بن أبي بكر» فأدَّى ذلك إلى سقوط ولاية مصر، ثم أدرك عليٌّ فيما بعد أنه أخطأ في عزل قيس بن سعد وأنه كان ينبغي عليه أن لا يُصغي إلى كلام النمّامين بشأنه. وهناك المئات من مثل هذه الموارد يُمكن لمن أراد التحقيق فيها أن يرجع إلى الكتب ذات العلاقة.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ۩ ٧٧ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي

١- أرْدَشير خُرّة: -بضم الخاء وتشديد الراء-: بلدة من بلاد العجم.

ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾ [الحج: ٧٧-٧٨].

الفوائد: ذكر الله تعالى في آيات القرآن أركان الصلاة وكيفيتها، وهذه الآية إحدى الآيات التي بيَّنت هذا الأمر، فمن ذلك أنها ذكرت الركوع والسجود وقدَّمت ذِكر الركوع على السجود مما يُبيِّن أن الركوع يُؤدى قبل السجود.

ومعنى: ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾ أي هو اختاركم لعبادته وتمجيده وتقديسه وتكبيره.

وقال بعض المُفسِّرين أن الضمير في عبارة: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ يعود على إبراهيم، ولكن من قرينة الكلام يتبيَّن أنه يعود على الله، أي أن الله هو سمَّاكم المسلمين واختار لكم هذا الاسم في الكتب السابقة وفي هذا الكتاب أي القرآن، لأن إبراهيم لم يُطلق اسم المسلمين على أحد في القرآن، وبقرينة عبارة: ﴿وَفِي هَٰذَا﴾ أي في القرآن، يتبيَّن أن الله اختار هذا الاسم للمسلمين، فيجب على المسلمين أن لا يُبدِّلوا اسم «**الإسلام**» إلى اسم المذاهب وعليهم أن يتَّحدوا جميعًا تحت هذا الاسم ويفتخروا به لا أن يتسمَّى كل فريق باسم مذهبه [ويتعصب له ويفتخر به] ويوجد التفرقة بين المسلمين بهذا الطريق.

سورة الـمؤمنون

مكية وهي مئة وثماني عشر آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ٢ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ٣ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ٤ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ٧ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ٨ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ٩ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١١﴾ [المؤمنون: ١-١١]

الفوائد: ذكر الله تعالى في هذه الآيات صفات الـمؤمنين وعلاماتهم، فكل من اتَّصف بهذه الصفات فهو مؤمن وإن لم يضرب بدنه بالسلاسل أو يقوم بالأعمال الرائجة في الـمذهب مثل الـمشاركة في مواكب العزاء الحسيني وزيارة العتبات أو لم يعرف الإمام ولم يدعُهُ، لأن الـمؤمن يجب عليه أن يعرف الدين وأمور دينه لا أن يعرف أتباع الدين، والإمامُ تابعٌ للدِّين ومرشدٌ إليه وليس هو الدين عينه، فما شاع في زماننا من جعل الناس غرباءَ عن الدين نفسه وعلماءَ بالـمتديِّنِين (أي بالأئمة من آل الرسول) واعتبار ذلك علامةً للإيمان، مخالفٌ للقرآن.

ومعنى الفلاح: الوصول إلى الـمقصود والهدفِ، أي الوصول إلى السعادة.

واعتبر بعضهم الخضوع والخشوع في الصلاة من أفعال القلوب في حين اعتبرها آخرون من أفعال الجوارح، والحقّ أنها من أعمال القلوب والجوارح كليهما، أي أن القلب يجب أن يتَّجه نحو

الـمعبود ويعتبر نفسه عبدًا ذليلاً بين يدي مولاه الجليل، كما يجب أن تخضع الجوارح أي العين فلا تلتفت إلى هذا الطرف أو ذاك، وأن لا يلعب الـمصلّي بيديه ويتصرَّف في صلاته كالشخص الغافل، لأن الصلاة مناجاةٌ وتسبيحٌ وتقديسٌ للربّ الجليل.

و ﴿ٱللَّغْوِ﴾ عبارة عن الـمحرَّمات أو الـمكروهات أو الـمباحات التي لا حاجة لها.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ أن الـمقصود من الزكاة ليس زكاة الـمال فحسب، وإلا لقال: «للزكاة مؤتون»، بل الـمقصود زكاة الـمال وتزكية النفس أي تطهيرها من الرذائل.

و﴿ٱلْفِرْدَوْسَ﴾ طبقة ودرجة في أعلى الجنَّة ويجب على كل عبد أن يتمتَّع بها ولكن إذا كفر العبد أُخذ إلى الجحيم، وأخذ الـمؤمنون مكان ذلك العبد الذي كان له في الفِردوس لذلك عبَّر عن هذا الأمر بقوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ١٢ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ١٤ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ١٥ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ١٦﴾ [المؤمنون: ١٢-١٦].

الفوائد: اعلم أنه لما أمر اللّٰهُ سبحانه بالعبادات في الآية الـمتقدمة، وكان الاشتغال بعبادة الله فرعًا لمعرفة الإله الخالق، لاجرم أعقبها بالاستدلال على وجوده واتصافه بصفات الجلال والوحدانية بدليل تقلُّب الإنسان في أدوار الخلقة التسعة وهي:

الأولى: خلق الإنسان أي آدم مِن سُلالَةٍ مِن طِينٍ، أو خلق جميع البشر من الطين لأنهم يُخلقون من الأغذية التي تنشأ جميعها من الـماء والتراب[1].

١- لأن الأغذية - كما يقول الفخر الرازي - إما حيوانية وإما نباتية، والحيوانية تنتهي إلى النباتية، والنبات إنما يتولد من صفو الأرض - أي التراب- والـماء، فكل الناس في الحقيقة متولِّدون من سلالة من طين. (مستفاد من **التفسير الكبير**، ٢٣/ ٨٤).

الثانية: المني أو النطفة في أصلاب الآباء التي قُذِفَت بالجماع إلى رحم المرأة فصار الرحم قرارًا مكينًا لهذه النطفة.

الثالثة: بَدَّل المنيَّ - أي النطفة - عن صفاتها إلى صفات العَلَقَة وهي الدم الجامد.

الرابعة: جعل ذلك الدم الجامد مضغةً أي قطعة لحم كأنها مقدار ما يمضغ، وسمَّى التحويل خلقًا لأنه سبحانه يفني بعض أعراضها ويخلق أعراضًا غيرها فسمَّى خلق الأعراض خلقًا لها وكأنه سبحانه وتعالى يخلق فيها أجزاء زائدة.

الخامسة: صيَّر مضغة اللحم تلك عظمًا.

السادسة: كسا ذلك العظم باللحم.

السابعة: خلقه خلقًا مباينًا للخلق الأول مباينةً ما أبعدها حيث جعله حيوانًا وكان جمادًا، وناطقًا وكان أبكم، وسميعًا وكان أصم، وبصيرًا وكان أكمه، وأودع باطنه وظاهره بل كلَّ عضو من أعضائه وكلَّ جزء من أجزائه عجائب فطرة وغرائب حكمة لا يحيط بها وصف الواصفين، ولا شرح الشارحين، أي أعطى الإنسان الاستعداد للفهم وأعطاه العقل والإدراك والترقِّي في ذلك، وأودع فيه جميع الخيرات والبركات فهو حقًّا خالق مبارك لذا قال عن نفسه بحق: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾، لأن المخلوق إن خلق شيئًا فإنه يخلق صورته فقط لا مادَّته؛ أي يخلق من شيء، لا من لا شيء.

الثامنة: دورة الموت التي قال عنها: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ١٥﴾.

التاسعة: الحشر والنشر يوم القيامة الذي قال عنه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ ١٦﴾ وهنا لم يذكر عالم القبر والحياة فيه؛ فكيفية وجود هذه الحياة موضع بحث.

وَيُسْتَفَادُ أيضًا من هذه الآيات أن كلَّ ما ذكره المجلسي وعلماء الشيعة الآخرون حول الرجعة واعتقدوا به باطلٌ ومخترعٌ موضوع؛ لأنه طبقًا للآيات المذكورة أعلاه، يثبت أنه لن تكون هناك قيامةٌ من الموت إلا يوم الجزاء فحسب.

﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ ١٧ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ

مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۢ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ١٨ فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ لَّكُمۡ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ١٩ وَشَجَرَةٗ تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ ٢٠ وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٢١ وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ ٢٢﴾ [المؤمنون: ١٧-٢٢].

الفوائد: ومن دلائل قدرة الله أنه خلق السماوات في سبع طبقات الواحدة فوق الأخرى، وخلق ملايين المجرَّات ومليارات النجوم، وقدَّر المطر الذي يهطل من السماء إلى الأرض بمقدار معيَّن؛ ولو لم يهطل المطر حبة حبة وبمقدار معيَّن لأدى إلى هلاك الناس وإحداث دمار وخراب كبيرين، وحفظ ذلك الماء في بطن الأرض كي تتكون منه الآبار وتخرج منه العيون، وتنبت ببركته البساتين وحدائق الزهور.

وَالمرَادُ مِنْ جُمْلَةِ: ﴿بِٱلدُّهۡنِ وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ﴾ حبة الزيتون التي يُسْتَخلَص منها الزيت الذي يُعَدُّ به مرق الطعام.

والمُراد من ﴿مَنَٰفِعُ﴾ الأنعام: أصوافها وَأوبارها وَالسمن وَالزبدة التي تُصنَع من لبنها ويُنْتَفَعُ بها كما يُستفاد منها للتجارة والبيع.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٢٣ فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٤ إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ ٢٥﴾ [المؤمنون: ٢٣-٢٥].

الفوائد: المقصود من ﴿ٱلۡمَلَؤُاْ﴾ كبار القوم وأشرافهم الذين يملؤون العين وكانوا يمنعون قومهم من الإيمان. وَالمُراد مِنْ ﴿فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ أي اصبروا قليلاً حتى يموت أو يصحو من جنونه أو يكفَّ عن كلامه هذا. وبعضهم فسَّر ﴿فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ﴾ بمعنى احبسوه ولكن المعنى الصحيح هو ما ذكرناه.

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ۝٢٦ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ۝٢٧﴾ [المؤمنون: ٢٦-٢٧].

الفوائد: لما يئس نوح من إيمان قومه سأل ربَّه أن ينصره عليهم فجاءه الخطاب الإلهي أن اصنع السفينة برعايتنا وعنايتنا وتوجيه وحينا، فإذا جاء الأمر ورأيتَ التنورَ في بيتك يفور بالماء فاركب السفينة واحمل من كل صنف من الحيوانات زوجين أي ذكرًا وأنثى [كي لا ينقطع نسل ذلك الحيوان] واحمل كذلك من آمن بك في السفينة. وَالمُرَاد مِنْ ﴿مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ﴾ زوجته وابنه كنعان.

﴿فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ فَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٨ وَقُل رَّبِّ أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ۝٢٩ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ وَإِن كُنَّا لَمُبۡتَلِينَ ۝٣٠﴾ [المؤمنون: ٢٨-٣٠].

الفوائد: واختلف في جملة: ﴿رَّبِّ أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا﴾ التي أُمر نوح بقراءتها: هل أُمر أن يقرأها عندما ترسو السفينة أي المطلوب أن تنزل السفينة ذاتها مُنزلاً مباركًا؟ أم المقصود أنْزِلْنِا من السفينة إلى منزل مبارك؟ الظاهر هو المعنى الأول ويُمكن أن يكون المقصود كلا المعنيين.

﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ۝٣١ فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٣٢ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ ۝٣٣ وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ۝٣٤﴾ [المؤمنون: ٣١-٣٤].

الفوائد: المقصود من ﴿قَرۡنًا ءَاخَرِينَ﴾ قوم هود وغيرهم لأن الله تعالى ذكر في سورة هود وسورة الأعراف وسورة الشعراء قصة هود بعد قصة قوم نوح، وقال: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ﴾ [الأعراف: ٦٩]، وَالمَقْصود مِنْ: ﴿رَسُولٗا﴾ هود ؈. أو أقوام

هود وصالح و...، أي أن المقصود من الرسول الرسول النوعي وليس رسولاً محددًا بعينه.

وقد عدَّد اللَّهُ تعالى صفات أولئك الأقوام الآخرين كما يلي: **أولها**: الكفر بالخالق سبحانه وهو المراد من قوله: ﴿كَفَرُواْ...﴾. **ثانيها**: الكفر بيوم القيامة كما قال تعالى: ﴿وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾. **ثالثها**: الانغماس في حبّ الدُّنْيَا وشهواتها وهو المراد من قوله تعالى: ﴿وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾. **رابعها**: الشُّبُهات التي كانوا يطرحونها كقولهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ...﴾ إلى آخر الآية.

﴿هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ٣٦ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ٣٧ إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا وَمَا نَحۡنُ لَهُۥ بِمُؤۡمِنِينَ ٣٨ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ٣٩ قَالَ عَمَّا قَلِيلٖ لَّيُصۡبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ٤٠ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ بِٱلۡحَقِّ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤١﴾ [المؤمنون: ٣٦-٤١].

الفوائد: قصَّ اللَّهُ علينا قصص الماضين لأجل أن يعتبر بها اللاحقون، ويبدو أن اللاحقين من مكذِّبي الأَنْبياء مُقلِّدون تمامًا وبأجمعهم لنُظرائهم من الماضين، فكل ما كان يقوله أقوام الأَنْبياء لأنبيائهم، يقوله ويُكرِّرُهُ الناسُ في زماننا سواءً المتدينون أم اللادينيون، كلُّ ما في الأمر أن المتدينين أكثر حقدًا وأكثر إزعاجًا لدعاة الحقّ، لأن هناك جماعات من قُرَّاء المراثي والخطباء والمُتلبِّسين زورًا بلباس المشايخ وعلماء الدين في زماننا يُثيرون المتدينين ضدَّ من يتكلَّم بالحقّ، كما أن المتكلِّمين بالحقّ لا يقومون بالدعوة كما يجب لكونهم قلَّة، فنسأل الله تعالى أن ينصر الصادعين بالحقّ ويردّ كيد علماء السوء في نحرهم.

﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ٤٢ مَا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ٤٣ ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةٗ رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۖ فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم بَعۡضٗا وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَۚ فَبُعۡدٗا لِّقَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ٤٤﴾ [المؤمنون: ٤٢-٤٤].

الفوائد: تَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿مَا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ٤٣﴾ أن موت كل أمة وجماعة وحياتها مكتوب في علم الله، فلهم أجل محدد لا يتقدّمون عليه ولا يتأخّرون عنه.

ومعنى كلمة «تَتْرَى» أنه كان هناك في كل زمن رسول وأن الحُجَّة تمَّت به على أهل ذلك الزمن.

وَالمقْصود مِنْ جُمْلَة: ﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ إهلاك الأمم. والأحاديث في جملة: ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ جمع أُحدوثة وهي الخبر الغريب.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَـٰرُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَـٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَـٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾ [المؤمنون: ٤٥-٥٠].

الفوائد: إحدى الصفات السيئة التي تحول بين الأقوام وهدايتهم: التكبُّر والعُجب بالنفس التي وصف الله بها فِرعون وآله. وللأسف فإن هذه الصفات ذاتها هي التي تمنع أفراد زماننا أيضًا من الهداية.

وَالمُرَادُ مِنْ جُمْلَةِ: ﴿رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ مكانٌ مرتفعٌ يُمكن أن يستقر فيه الإنسان وتكون ظروف الحياة فيه متوفرة، بما في ذلك الأشجار والأنهار والمأكولات. ويُقال: إن المقصود من هذه الجملة بيت المقدس أو بلاد الشام التي تتوفَّر فيها تلك الأمور.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَـٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون: ٥١-٥٦].

الفوائد: بعد أن بيَّن الله تعالى سيرة الأَنْبياء ومصير أُممهم قال: لقد خاطبنا الأَنْبياء بقولنا: إن أُممَكُم جميعَها أمةٌ واحدةٌ يعني أن هدفكم واحدٌ وهو التوحيد وتعظيم الخالق والابتعاد عن الفرقة، لأن الأمة تُطلق في اللغة على الجماعة التي يكون لأفرادها جميعًا هدفٌ واحدٌ، والحاصل: أن معنى الكلام أنني إله واحد وأريد من الأَنْبياء وأُممهم أن يكونوا أمة واحدة ذات هدف واحد وألا يتفرَّقوا فيما بينهم.

وَالـمُرَادُ مِنْ جُمْلَةِ: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ تلك الفرق والجماعات التي افترى كلٌّ منها افتراءات على الدين وابتدعوا بِدعًا جعلوها سُننًا وسُعدوا بها. ولما دخلوا في مستنقع الخرافات ما عادوا يخرجون منه، لذا قال تعالى بشأنهم: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴿٥٤﴾﴾ والتي مرَّت ترجمتها، هذا في حين أنهم يظنون أن أموالهم وأولادهم سببٌ لخيرهم في حين أنها سببٌ لزيادة وزرهم والوبال عليهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١].

الفوائد: كلُّ إناءٍ بالذي فيه ينضحُ. من كان يخاف الله ويؤمن بآياته التكوينية والتشريعية لم يشرك بالله وتَسَابَقَ في أعمال الخير، كما ذُكر في هذه الآيات. ولكن يجب أن نعلم أن معنى الإيمان بالآيات التكوينية ليس مجرد التصديق بوجودها فليس لمثل هذا التصديق قيمةٌ كبيرةٌ، فكل إنسان يعلم أن هناك كائنات هائلة وعجيبة في الكون، بل يجب أن يعتبر هذه الكائنات دلائل على وجود الصانع وعلى علمه وحكمته فهذا هو الإيمان الذي يمدحه القرآن، ومثل هؤلاء الأشخاص الـمؤمنين لا يعتبرون أيَّ مخلوق مالكًا لصفات الله.

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴿٦٥﴾﴾ [المؤمنون: ٦٢-٦٥].

الفوائد: فسَّر الـمُفسِّرون كلمة: «الوُسْع» بمعنى الطاقة وفسَّروا الآية بمعنى: لا يُكلِّف الله نفسًا إلا بمقدار طاقتها، ومعنى ذلك أنه إذا كان هناك رجل عجوز يستطيع ويُطيق أن يُصلِّي ألف ركعة وأن يبقى خمسين ساعةً صائمًا دون طعام فعليه أن يفعل ذلك! فهل هذا صحيح؟ هل كلَّف الله الإنسان بقدر طاقته ووسعه واستطاعته، أم كلَّفه أقلّ من طاقته وبمقدار ما يكون له فيه راحة

ووسعة؟ [الشق الثاني هو الصحيح بالطَّبْع].

وَالـمُرَاد مِنْ ﴿كِتَٰبٌ﴾: كتاب العدل الإلهي الذي يحكم بالحق: ﴿يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّ﴾. ومن الممكن أن يكون المقصود من الكتاب هنا صحيفة الأعمال أو شيئًا آخر.

﴿قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ ٦٦ مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرٗا تَهۡجُرُونَ ٦٧ أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٦٨ أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ٦٩ أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢۚ بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ٧٠﴾ [المؤمنون: ٦٦-٧٠].

الفوائد: جملة: ﴿قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ ستُقال لهم يوم القيامة، ففِعْل «**قيل لهم**» مقدَّر. وقد أتى الله تعالى بعد بيان أعذارهم الثلاثة بالجمل التالية على نحو الاستفهام، أي ما عذركم أنتم الذين لا تؤمنون، ألا تتدبرون القرآن كي تفهموا أنه حق؟ أم أنه جاءكم خبر يُنبئكم أنكم ستُعْفَون من العذاب؟ لم يأتِ مثل هذا الخبر لآبائكم. أم أنكم لم تعرفوا محمدًا (ﷺ) بأنه رجل صادق أمين؟ أم رأيتم فيه جنونًا حتى ادَّعيتم أنه مجنون؟ وبيَّن تعالى بقية أعذارهم في الآيات التالية وردَّ عليها.

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ ٧١ أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ خَرۡجٗا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيۡرٞۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٧٢ وَإِنَّكَ لَتَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٧٣﴾ [المؤمنون: ٧١-٧٣].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ...﴾ أن آراءهم سبب لفساد الأرض والسماء لما يلي: **أولاً**: لأن آراءهم متناقضة، فأحدهما يقول بإيجاد العالم، والآخر يقول بعدم إيجاده [وأنه موجود من نفسه]. **ثانيًا**: آراؤهم شركية. والآلهة المتعددة سبب لفساد الخلق بدليل التمانع، فأحدهم يريد والآخر لا يريد، أو أحدهم يريد دفع الآخر، فسواء تحققت إرادته أم عجز عن تحقيقها، دلَّ ذلك على عدم تعدُّد الآلهة أي على بطلان الشرك. **وثالثًا**: تتضمن آراؤهم تكذيبًا لِلَّهِ وللرسول ونفيًا للإسلام: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

و «الخَرْج» أقلُّ من الخراج لفظًا ومعنىً.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَـٰكِبُونَ ۝٧٤ ۞وَلَوْ رَحِمْنَـٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٥ وَلَقَدْ أَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ۝٧٦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۝٧٧﴾ [المؤمنون: ٧٤-٧٧].

الفوائد: نزلت هذه الآيات حين أنزل الله مِرَارًا عذابًا على أهل مكة ولم يستيقظوا من غفلتهم: **فأولاً**: لما أسلم ثمامة بن أثال الحنفي ولحق باليمامة منع الميرة عن أهل مكة فأخذهم الله بالسنين حتى أكلوا الجلود والجيف، فذهبوا إلى رسول الله ﷺ والتمسوا منه أن يطلب من ثمامة أن لا يمنع التجارة عن أهل مكَّة فاستجاب لهم رسول الله ﷺ. **ثانيًا**: أصابهم القحط وغلاء الأسعار فجاؤوا إلى رسول الله ﷺ والتمسوا منه أن يدعو الله لهم فدعا فزال عنهم القحط والجوع لكنهم لم يستيقظوا من غفلتهم ولم يثوبوا إلى الحق. **ثالثًا**: ابتلاهم الله في الحروب وهُزموا في كل مكان ولكنهم رغم ذلك لم يكفُّوا عن شركهم وظلمهم.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٧٨ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٧٩ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَـٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٨٠ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٨١﴾ [المؤمنون: ٧٨-٨١]

الفوائد: تَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٨١﴾ أنَّ الناسَ كانوا في كلِّ زمنٍ يُقلِّدُون آباءهم وأجدادهم ولا يُعْمِلون عقولَهُم وتفكيرَهم للاستدلال على الحقّ. وفي زماننا هذا عندما قمنا ببيان الحق وإبطال الباطل لم نجد أمام دلائلنا أي كلام مستقيم موزون، لا من العالم والواعِظِ ولا من المثقَّفِ ولا من الأمّيِّ، بل انصرف الجميعُ إلى اتهامنا والافتراء علينا وبُغضنا ومعاندتنا وتهديدنا بالقتل.

﴿قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝٨٢ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَـٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨٣ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٤

سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٨٥ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٨٧ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨٨ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ٨٩ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٩٠﴾ [المؤمنون: ٨٢-٩٠].

الفوائد: كان الكفار والـمشركون يُنكرون الحشر والنشر والقيامة أولاً ثم يطلبون حوائجهم من غير الله وفي الوقت ذاته كانوا يؤمنون بالله. في هذه الآيات يُبيِّن الله لنا أن الـمُشْرِكين كانوا يؤمنون أن جميع الأعمال بيد الله وأنه خلق جميع الأشياء، ورغم ذلك خُدعوا واعتقدوا أن غير الله مؤثر في الوجود أيضًا. وفي خلال ذلك أراد الله أن يُفهمهم أنكم طالـما كنتم تعتبرون الله قادرًا على كل شيء فكيف أنكرتم قدرته على الحشر والنشر؟! فأنتم كاذبون في الواقع.

﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ٩١ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٩٢﴾ [المؤمنون: ٩١-٩٢].

الفوائد: إثبات الابن لِلَّهِ مرادف للإشراك به لأن امتلاك الأب لولد يستلزم التركيب في الأب، والقول بالتركيب في ذات الله يستلزم الحاجة والفناء والزوال والنقص، وقد ذكر الله القول باتخاذ الله ولدًا إلى جانب القول بوجود إله آخر مع الله. والدليل على بطلان الشرك أنه لابدّ أن يكون لكل خالق مخلوق أو مخلوقات تتجلى فيهم قدرته ولابدّ أن يكون هذا الإله قادرًا على دفع الآخر، فإذا لم يكن قادرًا على دفع الآخر كان عاجزًا وإن كان قادرًا على دفعه كان الآخر عاجزًا وإذا كان كل من الإلهين قادرًا على دفع الآخر كانا عاجزين كليهما!.

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ٩٣ رَبِّ فَلَا تَجۡعَلۡنِي فِي ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٩٤ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمۡ لَقَٰدِرُونَ ٩٥ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ٩٦ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ ٩٨﴾ [المؤمنون: ٩٣-٩٨].

الفوائد: تَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أن على رسول الله ﷺ أن يدفع

إساءات الناس وأذاهم وجهلهم، بالسلوك الحسن والأخلاق الحميدة وبالتي هي أحسن، أي عليه أن يُقابل جهلهم بالحِلم وأذاهم بالعفو وشتائمهم بالصمت والسكوت.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ٩٨﴾ أن الشياطين يعملون في كل الأوقات على إغواء الإنسان وخداعه والوسوسة له وأن على الإنسان أن يلجأ إلى الله من شرِّهم في كل لحظة. ولكن حضور الشياطين له خطورة بالغة في ثلاثة مواضع هي: **الأول**: عند الصلاة. **والثاني**: عند قراءة القرآن. **والثالث**: عند حضور الموت وقبض الروح. لذلك أمر الله بالاستعاذة به من الشيطان في هذه المواضع الثلاثة.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ٩٩ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ١٠٠﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠].

الفوائد: تتعلَّق جملة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ بفعل ﴿يَصِفُونَ﴾، أي أن أعداء الحق والأنبياء لا يتوقَّفون عن إساءة الكلام بحقّهم حتى يُدركهم الموت.

وَالمُرَاد مِنْ عبارة: ﴿فِيمَا تَرَكْتُ﴾ كل ما تركه الإنسان بعد موته من مال أو عبادات أو غير ذلك، باعتبار أن «**ما**» الموصولة تُفيد العموم.

وجاءت جملة: ﴿هُوَ قَآئِلُهَا﴾ جملة اسمية لأجل الدلالة على الدوام والاستمرار، أي أن الكافرين يقولون ذلك الكلام بشكل مستمر ولا يسكتون عنه وذلك لاستيلاء الحسرة عليهم. والبرزخ حائل بين حياتي الدُّنْيَا والآخرة.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ١٠١ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ١٠٢ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ١٠٣ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ١٠٤ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٠٥﴾ [المؤمنون: ١٠١-١٠٥].

الفوائد: ليس المراد من ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ نفي النسب حقيقةً بل نفي منفعة النسب وفائدتها، لأن كل إنسان يكون مشغولاً بنفسه يوم القيامة ولا يلتفت إلى غيره، فلا

ينشغل أحد بأحد: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥﴾ [عبس: ٣٤-٣٥]! وذلك بسبب الخوف الشديد والاضطراب الذي يمنع أحدًا أن يسأل عن حال الآخرين. وهذا هو المراد من عبارة: ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾

وكلمة: ﴿مَوَٰزِينُهُۥ﴾ جمع مضاف وهذا يُبيِّن أن لكل إنسان عدة موازين، وقد يكون أحد الموازين لوزن العقائد والميزان الآخر لوزن الأخلاق وميزان ثالث لوزن الأعمال.

وَيُسْتَفَادُ مِنْ جملة: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ عدم التمايز بين السيد (أي هاشمي النسب) وغير السيد وأن الأعمال الحسنة هي الشيء الوحيد الذي يُميِّز الإنسان ويُفيده يوم القيامة.

﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ۝١٠٦ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ۝١٠٧ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ۝١٠٨ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝١٠٩ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ۝١١٠ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝١١١﴾ [المؤمنون: ١٠٦-١١١].

الفوائد: نسبة النسيان إلى المؤمنين في عبارة: ﴿أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى﴾ باعتبار أن استهزاء الكفار وسُخريتهم بالمؤمنين أدّت إلى نسيانهم الله وغفلتهم عن ذِكره، فعلى المسلمين أن ينتبهوا ولا يهزؤوا من أهل التوحيد لأن هذا من كبائر الإثم، ويؤدي -كما ذكرت الآية- إلى قطع رحمة الله عنهم، إلى حد أن الله خاطب أمثال هؤلاء بقوله: ﴿ٱخْسَـُٔواْ﴾ وهذا الخطاب يُوجَّه للكلب عادةً وهو يدل على كمال التحقير.

﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ۝١١٢ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ۝١١٣ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١١٤ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝١١٥﴾ [المؤمنون: ١١٢-١١٥].

الفوائد: إذا اعتبرنا أن هذا السؤال والجواب يتعلقان بمدّة المكث في البرزخ فإننا نستنبط من ذلك أن الناس في عالم البرزخ تتمتع بحياة ناقصة مما يجعلهم يُجيبون بأنهم لم يلبثوا إلا يومًا

أو بعض يوم، ولا يُدركون أنهم لبثوا مدّةً طويلة ولا يحسون بمدى طول المدّة بين وفاتهم وبعثهم يوم القيامة[١].

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ۝١١٦ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١١٧ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝١١٨﴾ [المؤمنون: ١١٦-١١٨]

الفوائد: «**تَعَالَى**» فعل ماضٍ من باب تفاعل ومعناه أن الله أعلى من إدراك العقول وأعظم شأنًا وأعلى مقامًا من أن يقوم بأعمال عبثية أو من أن يُشابه صفات المخلوق.

ومعنى ﴿ٱلْحَقُّ﴾ أنه مستحقّ حقيقةً للمُلْك وأنه المالك الحقيقي، و﴿ٱلْحَقُّ﴾ معناه أيضًا: ثابت الوجود.

وعبارة: ﴿لَا بُرْهَٰنَ﴾صفة بعد الصفة للإله، وجاءت للتأكيد لا للاحتراز، أي أن كل من دعا غير الله فليس عنده برهان على جواز دعائه هذا أو صحته، فعلى الإنسان أن ينتبه إلى هذه الآية ويتدبرها جيدًا.

١- وذلك يشبه حال الذي يستيقظ من نوم عميق فلا يدرك لأول وهلة كم ساعة مرت عليه وهو نائم، ومن الجدير بالذكر أن هذا ليس حال جميع أهل البرزخ بل حال بعضهم.

سورة النور

مدنيّة وهي أربع وستون آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سُورَةٌ أَنزَلۡنَٰهَا وَفَرَضۡنَٰهَا وَأَنزَلۡنَا فِيهَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لَّعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ١ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ٢﴾ [النور: ١-٢].

الفوائد: إذا فسَّرنا الفرض في كلمة ﴿فَرَضۡنَٰهَا﴾ بمعنى الإيجاب كان معنى الآية أننا أوجبنا العمل بالأحكام الواردة في هذه السورة، أما إذا اعتبرنا الفرض على معنى القطع والفصل والتفريق كان معنى الآية أن هذه السورة اقتطعناها من السور الأخرى وفصلناها عنها، فيُستفاد من هذا أن الحقّ تعالى هو الذي أنزل سور القرآن مُتفرِّقةً واحدة واحدة وأمر بتنظيمها.

والجَلْدُ هو ضرب جِلْد بَدَنِ الإنسان بالسَّوْط. وَالـمُرَاد مِنْ جُمْلَة: ﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ أنه لا يجوز الرأفة والشفقة على الـمذنب الآثم في تنفيذ دين الله وتطبيق أوامره عليه كإسقاط الحدّ عنه أو الإنقاص والتخفيف منه بل لا بدّ من تنفيذ الحدّ بشكل كامل وبطريقة متوسطة بين الشدة الـمفرطة واللين.

﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ٣ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ

بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥﴾ [النور: ٣-٥].

الفوائد: الـمَقْصود مِنْ جُمْلَة: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ الحرمة الشرعية حيث إن لفظة «التحريم» تعني لغةً: منع الشيء وجعله محُرَّمًا، ولذلك فلا يجوز للرجل الـمؤمن أن يتزوَّج من امرأة زانية[1].

وَالـمُرَاد مِنْ جُمْلَة: ﴿يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ اتهام الـمرأة العفيفة بالزنا بعبارة صريحة كأن يقول لها: أيتها الزانية أو لقد زنيت، أما لو قذف امرأةً غير عفيفة أي اتهمها بالزنا فلا حدّ عليه.

والـمُخَاطَب بخطاب ﴿فَٱجۡلِدُوهُمۡ﴾ رئيس الـمسلمين وحاكمهم والدولة الإسلامية التي تُمثِّل الـمسلمين، هذا إن وجدت هذه الدولة وذلك الحاكم! أما إن لم يوجدا فالـمُخَاطَبون هم الـمسلمون جميعهم، وأن عليهم أن يسعوا – طبقًا لما يأمرهم به القرآن وآياته– إلى إيجاد الحكم الإسلامي وتطبيق أحكام الإسلام.

وتدلُّ عبارة: ﴿هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ أن الذي يقذف البريء يرتكب كبيرةً من الكبائر ويُصبح من الفاسقين.

﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٦ وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٧ وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٨ وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٩﴾ [النور: ٦-٩].

الفوائد: الـمُرَاد مِنْ جُمْلَة: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ﴾ أنه إذا رأى رجلٌ امرأَته تزني وذهب إلى الحاكم ا لشرعي واشتكى عليها ولم يأتِ بالشهداء على قوله، يُمكنه

١- الـمُراد بالزانية التي يحرم نكاحها: البغِيُّ التي تمتهن الزنا والدعارة، لا التي زنت ثم تابت. وقد ذهب الإمام أحمد رحمه الله إلى أنه لا يصح العقد من الرجل العفيف على الـمرأة البغيّ ما دامت كذلك، حتى تُسْتَتَاب، فإن تابت، صحّ العقد عليها، وإلا فلا، وكذلك لا يصح تزويج الـمرأة الحرة العفيفة بالرجل الفاجر الـمسافح حتى يتوب توبة صحيحة لقوله تعالى: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

أن يعمل بما جاء في هذه الآية ويُقال لهذا الحكم: «**اللِّعان**» أي أن يلعن كل من الطرفين الآخر ويُشهد الله على صدقه، وَيُسْتَفَادُ مِنْ آية اللِّعان وكيفية تطبيقها أن الرجل يقول أربع مرات: «**أشهد بالله إني لمن الصادقين فيما رميتها به**» ثم يقول في المرَّة الخامسة: «**إن لعنة الله عليّ إن كنت من الكاذبين**». ويُمكن للمرأة أن تدفع عن نفسها الحدّ بأن تُشهِدَ اللّهَ أربعَ مرَّاتٍ على أن زوجها كاذب بأن تقول: «**أشهد بالله إنه لمن الكاذبين**» وتقول في المرَّةِ الخامسة: «**إن غضب اللهِ عليّ إن كان من الصادقين**». وينبغي أن تُقال هذه الجُمل التي هي نوع من اللعن والدعاء بالطرد من رحمة الله بألفاظ عربية صحيحة وأن تُعيَّن مراجع الضمائر بالإشارة أو بذكر الاسم. وإذا تلاعن الطرفان وجب التفريق بين الرجل وزوجته وتُصبح المرأة حرامًا عليه.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ١٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١١ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ١٢ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ١٣ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٤ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ١٥ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ١٦﴾ [النور: ١٠-١٦].

الفوائد: نزلت هذه الآيات وبعض الآيات التي تلتها في حادثة الإفك وفي طهارة عائشة زوجة رسول الله ﷺ من البُهتان الذي قيل في حقِّها.

وقصة سبب النزول هي التالية: رووْا عن عائشة قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفرًا أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه، قالت فأقرع بيننا في غزوة غزاها قبل غزوة بني المصطلق فخرج فيها اسمي فخرجت مع رسول الله ﷺ وذلك بعد نزول آية الحجاب

فحملت في هودج فلما انصرف رسول الله ﷺ وقرب من المدينة نزل منزلاً ثم أذن بالرحيل فقمت حين أذنوا بالرحيل ومشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأني وأقبلت إلى رحلي فلمست صدري فإذا عقد لي من جزع أظفار قد انقطع فرجعت والتمست عقدي وحبسني طلبه، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلونني فحملوا هودجي وهم يحسبون أني فيه لخفتي، فإني كنت جارية حديث السن، فظنوا أني في الهودج وذهبوا بالبعير، فلما رجعت لم أجد في المكان أحدًا فجلست وقلت لعلهم يعودون في طلبي فنمت.

وقد كان صفوان بن المعطل يمكث في العسكر يتتبع أمتعة الناس فيحمله إلى المنزل الآخر لئلا يذهب منهم شيء فلما رآني عرفني، وقال: ما خلفك عن الناس؟ فأخبرته الخبر فنزل وتنحى حتى ركبت، ثم قاد البعير وافتقدني الناس حين نزلوا وماج الناس في ذكرى، فبينا الناس كذلك إذ هجمت عليهم فتكلم الناس وخاضوا في حديثي، وقدم رسول الله ﷺ المدينة ولحقني وجع، ولم أر منه عليه السلام ما عهدته من اللطف الذي كنت أعرف منه حين أشتكى، إنما يدخل رسول الله ﷺ ثم يقول: كيف تيكُم؟ فذاك الذي يريبني، ولا أشعر بعد بما جرى حتى نقهت فخرجت في بعض الليالي مع أم مسطح لمهم لنا، ثم أقبلت أنا وأم مسطح قبل بيتي حين فرغنا من شأننا فعثرت أم مسطح في مرطها فقالت تعس مسطح، فأنكرت ذلك وقلت: أتسبين رجلاً شهد بدرًا! فقالت: وما بلغك الخبر؟ فقلت: وما هو؟ فقالت: أشهد أنك من المؤمنات الغافلات، ثم أخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضًا على مرضي فرجعت أبكي، ثم دخل عليَّ رسول الله ﷺ وقال: كيف تيكم؟ فقلت: ائذن لي أن آتي أبويَّ فأذن لي فجئت أبوي وقلت لأمي: يا أمه! ماذا يتحدث الناس؟ قالت: يقولون كلامًا خبيثًا [يا بُنيَّة! هوِّني عليك فوالله لقلما كانت امرأة وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها، ثم قالت: الم تكوني علمت ما قيل حتى الآن؟ فأقبلتُ أبكي فبكيتُ تلك الليلة ثم أصبحت أبكي.

ودعا رسول الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب عليه السلام وأسامةَ بن زيد واستشارهما في فراق أهله فقال أسامة: يا رسول الله! هم أهلك ولا نعلم إلا خيرًا، وأما عليٌّ فقال: «يا رسول الله! لا يضيق صدْرُكَ من ذلك، واحكم بما تراه صوابًا. [لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير]، وإن تسأل

الجارية تصدُقْك. فدعا رسول الله ﷺ بريرة وسألها عن أمري. قالت بريرة: يا رسول الله! والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمرًا قط أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها حتى تأتي الداجن فتأكله.

قالت عائشةُ: كنت أعلم براءتي مما يقولونه، ولكن والله ما كنت أظن أن يُنْزِلَ اللَّهُ في شأني وحيًا يُتْلَى ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله في النوم رؤيا تدلُّ على طهارتي.

قالت عائشةُ: فقام النبي ﷺ خطيبًا على المنبر، فقال: يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهلي - وكان يقصد عبدَ الله بنَ أُبيّ - فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرًا، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيرًا وما كان يدخل على أهلي إلا معي، فقام سعد بن معاذ فقال: أعذرك يا رسول الله منه إن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج فما أمرتنا فعلناه، فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج، وكان رجلاً صالحًا ولكن أخذته الحمية، فقال لسعد بن معاذ: كذبت والله لا تقدر على قتله، فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ وقال: كذبت لعمر الله لنقتلنه وإنك لمنافق تجادل عن المنافقين، فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا، ورسول الله ﷺ على المنبر فلم يزل يخفضهم حتى سكتوا.

قالت: ومكثت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي، فبينا هما جالسان عندي وأنا أبكي إذ دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس، قالت ولم يجلس عندي منذ قيل فيَّ ما قيل ولقد لبث شهرًا لا يوحي الله إليه في شأني شيئًا، ثم قال: أما بعد يا عائشة فإنه بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله تعالى وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا تاب تاب الله عليه. قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته، فاض دمعي ثم قلت لأبي: أجب عني رسول الله. فقال: والله ما أدري ما أقول، فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله. فقالت: والله لا أدري ما أقول. فقلت وأنا جارية حديثة السن ما أقرأ من القرآن كثيرًا: إني والله لقد عرفت أنكم قد سمعتم بهذا حتى استقر في نفوسكم وصدقتم به فإن قلت لكم إني بريئة لا تصدقوني وإن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني بريئة لتصدقوني. والله لا أجد لي

ولكم مثلاً إلا كما قال العبد الصالح أبو يوسف ولم أذكر اسمه: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

قالت: ثم تحولت واضطجعت على فراشي، وأنا والله أعلم أن الله تعالى يبرئني ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحيًا يتلى فشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله في بأمر يُتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله في النوم رؤيا يبرئني الله بها. قالت: فوالله ما قام رسول الله من مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله الوحي على نبيه، فأخذه ما كان يأخذه عند نزول الوحي حتى إنه ليتحدر عنه مثل الجمان من العرق في اليوم الشاتي من ثقل الوحي، فلما سُرِّيَ عنه وهو يضحك فكان أول كلمة تكلم بها أن قال: أبشري يا عائشة! أما والله لقد برأك الله. فقلت: «**بحمد الله لا بحمدك ولا بحمد أصحابك**»، فقالت أمي: قومي إليه، فقلت: والله لا أقوم إليه ولا أحمد أحدًا إلا الله الذي أنزل براءتي، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ...﴾ العشر آيات، فقال أبو بكر: واللهِ! لا أنفق على مسطح بعد هذا، وكان ينفق عليه لقرابته منه وفقره، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ.....﴾، وسيأتي لاحقًا التعليق عليها، فقال أبو بكر: «**بَلَى وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لِي فَرَجَّعَ النَّفَقَةَ عَلَى مِسْطَحٍ**». انتهى[(١)].

واعلم أنه سبحانه وتعالى لما ذكر القصة وذكر حال المقذوفين والقاذفين عقبها بما يليق بها من الآداب والزواجر، وهي أنواع: فمنها جملة: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا...﴾ التي تدلُّ على أنه كان من الواجب على المؤمنين أن يكذِّبوا بهذا البهتان عندما سمعوه وأن يُحسِنوا الظنَّ بالمؤمنين وأن لا يقوموا بإذاعة هذا البهتان بحق أهل بيت رسول الله ﷺ وأم المؤمنين، كما رُوِيَ أنَّ أبا أيوب الأنصاري قال لزوجته: أما ترين ما يُقال؟ فقالت زوجته: أنت

١- وردت هذه الرواية كما ذكرها المؤلِّف لدى: الفخر الرازي، **التفسير الكبير**، ٢٣/ ١٧٤ - ١٧٦، وقد اختصر منها المؤلِّف قليلاً وتصرف شيئًا يسيرًا. وروى حديث عائشة هذا -بطوله- البخاري في صحيحه (٢٥١٨)، ومسلمٌ في صحيحه، (٢٧٧٠)، كما في **تفسير ابن كثير**، ٦/ ٦٨ - ٧٣.

أفضل أم صفوان؟ قال: صفوان. فقالت: فعائشة خير مني وصفوان خير منك. فأنا لا أظن ظنًا سيِّئًا بهما.

وقال تعالى: ﴿بِأَنفُسِهِمْ﴾ ليبين للمسلمين أنه ينبغي عليهم أن يكونوا كالجسد الواحد يحافظ بعضهم على بعض، كما قال رسول الله ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً**».

ومعنى «**الإفْك**» إظهار ما يخالف الحقيقة.

﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ [النور: ١٧-٢٠].

الفوائد: تؤكد هذه الآيات مرةً ثانية على النهي الشديد عن البُهتان والافتراء بحقّ الأبرياء ونشره، وتمنع من ذلك وتُهدّد فاعله، حيث يعظ الله فاعل ذلك. وهل يجوز – استنادًا إلى هذه الآية- تسمية الله بالواعظ؟ لم يأتِ في القرآن اسم «الواعظ» لِلَّهِ عزّ وجلّ ولم يأتِ ذلك في أي دعاء مأثور [فلا يجوز إطلاق هذا الاسم على الله لأن أسماء الله توقيفية].

هذا ومن كبائر الذنوب حبّ شيوع الفاحشة بين المؤمنين وهذا الإثم من ذنوب القلوب لا الجوارح، وتدلُّ هذه الآية على أنَّ اللَّهَ يُعذِّب على ذنوب القلوب أيضًا عذابًا دنيويًّا وأُخرويًّا، أما العذاب الدنيوي: فهو سوء ظنّ المؤمنين بعضهم ببعض، وابتلاؤهم بأنواع البلايا كشأن حسان بن ثابت الذي كان أحد من خاض في الإفك فعَمِيَ بصره في آخر عمره. وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ على أن حُبّ شيوع الفاحشة في المؤمنين من ذنوب القلوب التي لا يعلمها أحد إلا الله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن

يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴿٢٢﴾﴾ [النور: ٢١-٢٢].

الفوائد: رغم أن الـمُخَاطَبين بآية: ﴿لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ الـمؤمنون، إلا أنَّ الله أرادَ من جميع عباده عدم اتِّباعهم لخطوات الشيطان بدليل قوله: ﴿وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ و«مَنْ» الـموصولة تُفيد العموم.

وتُشير آية: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ﴾إلى أبي بكر الذي اعتبره الله صاحب فضل وسَعة، عندما أقسم أن لا يُنفق على مِسطح بن أثاثة رغم أنه كان ابن خالته لأنه كان ممن خاض في الإفك وأذاعه، فلما نزلت هذه الآية لم يقطع أبو بكر إنفاقه على مِسطح وقال: أُحِبُّ أن يغفر الله لي. وفي هذه الآية إشارة إلى أن اليمين على ترك عمل الخير لا أثر له [أي هو لغو ويجوز الحنث به ولا كفَّارة على الحنث به].

وقيل أيضًا: إن معنى ﴿لَا يَأۡتَلِ﴾ لا يحلف.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴿٢٣﴾ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴿٢٤﴾ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ﴿٢٥﴾﴾ [النور: ٢٣-٢٥].

الفوائد: نزلت هذه الآيات أيضًا بحقّ عائشة واعتبرتها مُحصنةً عفيفةً مؤمنة، وهذا لا يمنع أن سبب النزول لا يُخصِّص حكم الآية [لأن العِبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب] فكل من قذف الـمُحصنات الـمؤمنات الغافلات استحقّ عليه العقاب والعذاب الـمذكور في هذه الآيات. وقال بعضهم: نزلت الآية في حقّ كفار مكة الذين اتهموا النساء العفيفات الـمسلمات الـمُهاجرات إلى الـمدينة بأنهنَّ إنما يُهاجرنَ إلى الـمدينة ليُمارِسنَ فيها الفِسق والفجور. وأيًا كان الأمر فينبغي أن نقول: إن الآية عامة.

﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴿٢٦﴾﴾ [النور: ٢٦].

الفوائد: تُطلق كلمة: ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ﴾ على الكلمات القبيحة مثل القذف واللعن والذمّ، كما

تُطلق ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ﴾ على النساء الزانيات، وَالـمَقْصود مِن ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ﴾في هذه الآية القذف والكلمات القبيحة بقرينة: ﴿مِمَّا يَقُولُونَ﴾. وتُطلق كلمة: ﴿ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ على الكلمات الطيبة والطاهرة كما تُطلق على النساء الطاهرات العفيفات. وعلى كل حال، من الأفضل أن نجعل الـمراد من الآيات عامًا، وفي ذلك إشارة إلى أن رسول الله ﷺ و«صفوان» ونساء النبيّ كلهم طيبون طاهرون، ولا يجوز أن يُقال في حقهم أي كلام قبيح أو ذمّ. ومثل هذه الكلمات خاصة بالـمنافقين والقاذفين.

إلى هنا انتهت الآيات الـمتعلِّقة بعائشة وقصتها، وقد وعد الله في الآية الأخيرة عائشة وصفوان ومن دافع عنهما بالـمغفرة والرزق الكريم أي بالجنَّة. بِنَاءً عَلى ذَلِكَ لا يُمكن إساءة الكلام في حقهم أو لعنهم، وإذا كان الأمر كذلك وصدر فيما بعد خطأ عن عائشة في قصة معركة الجمل فإن عِقَابَهَا أو العفو عنها بيد الله، ولا يحق لأهل زماننا أن يُقْدِمُوا على اللعن والشتم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٢٨ لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ٢٩﴾ [النور: ٢٧-٢٩].

الفوائد: معنى: ﴿حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾ «**الاستئناس: طلب الأنس، والـمعنى: حتى تستعلموا: أهلُ الإنسِ موجودون في البيت أم لا**» أي حتى تطَّلعوا وتعرفوا هل هناك أحد في الـمنزل فيأذن لكم بالدخول أم لا؟ والسلام يكون بعد الاستئذان، ولا شك أن الاستئذان يسبق السلام وكلاهما واجب شرعًا وعقلاً، كما ذُكر في الآية. وعدد مرات الاستئذان ثلاث، فإن لم يُؤذن في الـمرة الثالثة فعلى الطارق أن يعود أدراجه، فقد جاء حديث بهذا الصدد فضلاً عن أن ذلك من محاسن الأخلاق، وإطلاق الآية يجعلها تشمل الدخول على بيوت الـمحارم أيضًا.

﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ

بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٣٠ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَاۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِيٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٣١﴾ [النور: ٣٠-٣١].

الفوائد: قال رسول الله ﷺ: «**لَكُمْ أَوَّلُ نَظْرَةٍ فَلَا تَتَّبِعُوهَا بالثَانِيَةِ فَتَهْلَكُوا**»[١]. وقد قُدِّم حكم غضِّ البصر في الآية على حكم حِفظ الفرج لأهميَّته، ولأن الأول مُقدَّمة للثاني. وَالـمُرَاد مِنْ جُمْلَة: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ...﴾ حُرمة إظهار المرأة لزينتها إذا كانت الزينة في بدنها. وَالـمُرَاد مِنْ جُمْلَة: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَاۖ﴾ الوجه والكفان اللذان في سترهما عسر وحرج. وَالـمَقْصود مِن ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ الإماء، رغم أن «**ما**» الموصولة تشمل بعمومها كُلاً من الأمة والغلام.

وجملة: ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ﴾ صفة لـ «**التَّابِعِينَ**» وهي كلمة جمع تشمل كُلاً من الرجال والأطفال، وأما إذا اعتبرناها صفة لـ «**الطِّفْلِ**» فقط لما كان ذلك صحيحًا من ناحية اللغة العربية.

١- كنز العرفان في فقه القرآن، جمال الدين المقداد بن عبد الله السيوري، ج ٢، ص ٢٢١. لم أجد الحديث بهذا اللفظ وإنما وجدتُ قولَه ﷺ: «يَا عَلِيُّ! لا تُتْبِعْ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ فَإِنَّ لَكَ الأُولَى وَلَيْسَتْ لَكَ الآخِرَةُ» كما رواه أبوداود والترمذي في سننهما وأحمد في مسنده، وقد حسّنه الألباني. ومثله في وسائل الشيعة، ج٢، ص١٩٤ وغيره. [الـمُصحح]

﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٣٢﴾ [النور: ٣٢].

الفوائد: الـمُخَاطَبون في جملة: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ...﴾ هم المسلمون وأولياء العقد، فيجب على المسلمين أن يسعوا إلى تزويج العُزَّاب من النساء والرجال لأجل خلق بيئة سالمة ومجتمع طاهر، وبالطبع فالواجب على الدولة الإسلامية أيضًا أن تبذل هِمَّتها وتُعِدّ وسائل زواج الشباب والشابات العُزَّاب، وللأسف فإن المسلمين والدول الإسلامية جاهلون بأوامر القرآن هذه وغافلون عنها.

و ﴿ٱلۡأَيَٰمَىٰ﴾ جمع أيِّم وهو كل ذكر لا أنثى معه، وكل أنثى لا ذكر معها، بكرًا كانت أم لا.

وَالـمَقْصود مِنْ جُمْلَة: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ...﴾أن لا يخشى الرجل والمرأة من الفقر وعدم امتلاك النفقة لأن الله يُوسِّع على من تزوَّج ولم يخشَ الفقر. وقد قال رسول الله ﷺ: «**مِنْ سَعَادَةِ الْمَرْءِ الزَّوْجَةُ الصَّالِحَة**»[١]، وقال أيضًا: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ طَاهِراً مُطَهَّراً فَلْيَتعَفَّفْ بِزَوْجَةٍ**»[٢]، وقال كذلك: «**مَنْ أَحَبَّ فِطْرَتِي فَلْيَسْتَسِنَّ بِسُنَّتِي، وَمِنْ سُنَّتِي النِّكَاحَ**»[٣]. وقال رسول الله ﷺ كذلك: «**يَا معشر الشَّبَاب، مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُم الْبَاءَةَ فليتزوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغضّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصن للفَرْجِ**»[٤]. ورُوي عن رسول الله ﷺ قوله أيضًا: «**أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ جِبْرَائِيلَ**

١- جُزء من حديث أطول: أخرجه **الطيالسي**، ص ٢٩، رقم (٢١٠). وأخرجه أيضًا: الحاكم في **المستدرك**، ٢/ ١٥٧، رقم (٢٦٤٠) وقال: صحيح الإسناد.

٢- أخرج نحوه ابن ماجه في **السنن** (١٨٦٢) عن أنس ولفظه: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَلْقَى الله طَاهِرًا مُطَهَّرًا فَلْيَتَزَوَّجِ الحَرَائِرَ». قال البوصيري في الزوائد: إسناده ضعيف لضعف كثير بن سليم. وسلام هو ابن سليمان بن سوار. قال ابن عدي عنده مناكير. وقال العقيلي: في حديثه مناكير. فالحديث ضعيف.

٣- أخرجه البيهقي في **السنن الكبرى** (١٣٢٢٩) وفي **شعب الإيمان** (٥٤٧٨)، بسنده عن أبي هريرة، ورَوَى نحوه ابْن عدي فِي الْكَامِل أيضًا عَن أبي هُرَيْرَة، ورواه **أبو يعلى في مسنده** (٢٧٤٨)عن عبيد بن سعد ورجاله ثقات إن كان عبيد بن سعد صحابيًّا وإلا فهو مرسل.

٤- متفق عليه.

أَتَانِي عَنِ اللَّطِيفِ الْخَبِيرِ فَقَالَ: إِنَّ الْأَبْكَارَ بِمَنْزِلَةِ الثَّمَرِ عَلَى الشَّجَرِ إِذَا أَدْرَكَ ثَمَرُهُ فَلَمْ يُجْتَنَى أَفْسَدَتْهُ الشَّمْسُ وَنَثَرَتْهُ الرِّيَاحُ؛ وَكَذَلِكَ الْأَبْكَارُ إِذَا أَدْرَكْنَ مَا يُدْرِكُ النِّسَاءَ فَلَيْسَ لَهُنَّ دَوَاءٌ إِلَّا الْبُعُولَةُ، وَإِلَّا لَمْ يُؤْمَنْ عَلَيْهِنَّ الْفَسَادُ لِأَنَّهُنَّ بَشَرٌ..»[١].

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [النور: ٣٣-٣٤].

الفوائد: الـمُخَاطَبون في جملة: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا....﴾ هم النساء والرجال العُزَّاب، والـمراد حثّهم على أن يحفظوا أنفسهم ويضبطوا شهوتهم قبل النكاح وقبل زواجهم من الزوج الذي أحبوه، ولا تتنافى هذه الآية مع الآية السابقة أي قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ....﴾ لأن هذا الخطاب هو للمجتمع الإسلامي ولأولياء العقد لا للزوجين، بينما الخطاب في آية ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ....﴾للرجال والنساء العُزَّاب، حيث يأمرهم الله أن يصبروا حتى يفتح لهم فرجًا في أمر زواجهم من شخص مؤمن صالح.

وَالـمَقْصود مِنْ جُمْلَة: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ أنه إذا رأيتم فيهم صلاحًا ورشدًا وقدرةً على الكسب بأنفسهم وأداء مال الكتابة فكاتبوهم. وَالـمُرَاد مِنْ جُمْلَة: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ﴾أي خفّفوا لهم من أقساط مال الكتابة وأعطوهم من رأس مالكم وأعيدوا لهم شيئًا مما أخذتموه منهم أو أعطوهم من الصدقات.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ أنه إذا رغبت الإماء، أي الأسيرات

١- الكُلَيْنِيّ، **الكافي**، ج ٥/ ص ٣٣٧. ولم أجد له أصلًا في مصادر أهل السنة.

الحربيّات، بالعِفَّة فلا تُجبِروهُنَّ على الزنا، ولكن في هذا إشكال وهو أن مفهوم المخالفة لهذه الآية هو: أن الإماء لو لم يُرِدْنَ التحصُّن -أي التعفُّف- فيجوز لكم أن تُكْرِهُوهُنَّ على البِغاء! والجواب عن هذا الإشكال: أن الله تعالى قال: إذا كُنَّ عفيفات فلا تُكْرِهُوهُنَّ على الزنا، وإن لم يكنَّ عفيفات وكُنَّ يَمِلنَ إلى الزنا ويرغبن به فعندئذ لا مجال لإكراهِهِنَّ على البِغاء لأن الأمر منتفٍ بانتفاء موضوعه أي سالبة بانتفاء الموضوع. فليس للآية مفهوم المخالفة.

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٣٥﴾ [النور: ٣٥].

الفوائد: هذه الآية من الآيات التي كثُر الكلام حولها وأصبحت معركةً للآراء، واحتمل المُفسِّرون في تفسير كلماتها وجملها احتمالات عديدة، وحولوها من آية بسيطة واضحة إلى آية مُبهمة ومُلغزة. ولكن ظاهر الآية هو ما يلي: الله مُظهر السماوات والأرض كما يُظهر النور المرئيات ويُرشدها، فالله هو الهادي ومثل نور هدايته كمثل مصباح يُشِعُّ ضياءً تامًّا وقد وُضع في مشكاة، وأما إضافة النور إلى الله في كلمة: «**نُورِهِ**» فلكي يعلم القارئ أن الله ليس نورًا لأن المضاف غير المضاف إليه[1]، وأما وجه تشبيه هداية الله بمشكاة فيها مصباح مليء بالنور

١- إن من الاعتقاد الصحيح الموافق لعقيدة أهل السنة والجماعة أن نعتقد أن الله تعالى نور، وأن النور اسم من أسمائه الحسنى وصفة من صفاته تعالى العليا، وهي صفة ذات لازمة له تعالى على ما يليق به، فلم يزل ولا يزال سبحانه وتعالى متصفًا بها. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مجموع الفتاوى: «وإن مما قضى الله علينا في كتابه ووصف به نفسه ووردت السنة بصحة ذلك أنه قال: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [النور: ٣٥] ثم قال عقيب ذلك: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖ﴾ وبذلك دعاه النبي ﷺ: «أَنْتَ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ». وقال ابن القيم رحمه الله: «والله سبحانه وتعالى سمَّى نفسه نورًا، وجعل كتابَه نورًا، ورسولَه ﷺ نورًا، ودينَه نورًا، واحتجب عن خلقه بالنور، وجعل دار أوليائه نورًا تتلألأ.... فبنوره

ونوره كذا وكذا فهو ما يلي:

أولاً: المصباح الذي يوضع في مشكاة - أي في كوة في الجدار - يكون محميًّا من هبوب الرياح عليه ومحفوظًا من الحوادث ولا ينطفئ، وكذلك الهداية الإلهية.

ثانيًا: كما أن للمصباح مكانًا معيَّنًا يُشعُّ منه نوره كذلك الهداية الإلهية لها مكان مُعيَّن هو كتاب الله أو نبيّه، فلا يُمكن الحصول على الهداية من مكان آخر أي من كتاب آخر أو من علماء آخرين.

ثالثًا: أن المصباح إذا كان في زجاجة صافية فإن الأشعة المنفصلة عن المصباح تنعكس من بعض جوانب الزجاجة إلى البعض لما في الزجاجة من الصفاء والشفافية وبسبب ذلك يزداد الضوء والنور، والذي يُحقق ذلك أن شعاع الشمس إذا وقع على الزجاجة الصافية تضاعف

اهتدى أهل السماوات والأرض، وهذا إنما هو فعله، وإلا فالنور الذي هو من أوصافه، قائم به، ومنه اشتق له اسم النور الذي هو أحد الأسماء الحسنى».

عنِ ابن مسعود ﷺ قال: «لَيْسَ عِنْدَ رَبِّكُمْ لَيْلٌ وَلَا نَهَارٌ، نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْ نُورِ وَجْهِهِ». قال ابن القيم معلقًا على قول ابن مسعود: «هذا مطابق لقوله ﷺ: «وَأَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ». فأضاف النور إلى الوجه والوجه إلى الذات واستعاذ بنور الوجه الكريم، فعلم أن نوره صفة له كما أن الوجه صفة ذاتية، وهو الذي قاله ابن مسعود هو تفسير قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾».

هذا وقد جاء عن بعض السلف تفسير قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ بأنه هادي أهل السموات والأرض وفسر أيضًا بأنه منور السموات والأرض، وهذا لا يتنافى أبدًا مع كونه تعالى نورًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى: «فقول من قال الله نور السموات والأرض، هادي أهل السموات والأرض كلام صحيح، فإن من معاني كونه نور السموات والأرض أن يكون هاديًا لهم أما إنهم نفوا ما سوى ذلك، فهذا غير معلوم وأما إنهم أرادوا فقد ثبت عن ابن مسعود ....». وقال كذلك رحمه الله: «وكذلك من قال منوِّرُ السموات والأرض لا ينافي أنه نور فهما متلازمان».

علمًا أن النور الذي هو اسمه وصفته تعالى لا يشبه نور المخلوقين وإنما هو نور يليق بعظمته وكبريائه وجلاله تعالى ولا يعلم كيفيته إلا هو سبحانه وهو القائل جل وعلا: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا ١١٠﴾ [طه: ١١٠][المُصحح]

الضوء الظاهر حتى أنه يظهر فيما يقابله مثل ذلك الضوء، فإن انعكست تلك الأشعة من كل واحد من جوانب الزجاجة إلى الجانب الآخر كثرت الأنوار والأضواء وبلغت النهاية الممكنة، وكذلك الهداية الإلهية يكون لها تأثير أكثر حسب الأوضاع والكيفيات المحيطة بها، فمثلاً إذا كانت الهداية الإلهية موجودة ضمن كتاب فصيح ذي ألفاظ جميلة، أو كانت على لسان نبيّ فصيح حسن الكلام وحسن الأخلاق وحلو الشمائل كان تأثيرها أشد.

ورابعًا: أن ضوء المصباح يختلف بحسب اختلاف ما يتقد به، فإذا كان ذلك الدهن صافيًا خالصًا كانت حالته بخلاف حالته إذا كان كدرًا وليس في الأدهان التي توقد ما يظهر فيه من الصفاء مثل الذي يظهر في الزيت فربما يبلغ في الصفاء والرقة مبلغ الماء مع زيادة بياض فيه وشعاع يتردد في أجزائه. وكذلك الهداية الإلهية إذا كانت من معدن الوحي وكانت مطالبها من اليقينيات وخاليةً من الأوهام والشكوك كانت أكثر فائدةً.

وخامسًا: أن هذا الزيت يختلف بحسب اختلاف شجرته، فإذا كانت لا شرقية ولا غربية بمعنى أنها كانت بارزة للشمس في كل حالاتها يكون زيتونها أشد نضجًا، فكان زيته أكثر صفاء وأقرب إلى أن يتميز صفوه من كدره لأن زيادة الشمس تؤثر في ذلك. كذلك الهداية الإلهية إذا كانت بواسطة شخص كُفءٍ من ذريَّة أجداد موحدين ومن سلالة إبراهيم ممن لم تؤثر فيه انحرافات البيئة المحيطة فكان مثالاً للنجابة والعِفَّة والصدق والأمانة والصفاء مثل محمَّد ﷺ كانت أشد تأثيرًا وأكثر فائدةً.

سادسًا: كما أن الشجرة إذا انحنت ومالت نحو الشرق أو الغرب ولم تكن مستقيمةً فإنها لا تتأثر على نحو صحيح بأشعة الشمس، كذلك الشخص الذي يتعلَّق ذهنه وأفكاره بالأمور المادِّيّة ويميل إلى الدنيا وحقارتها، لا يتأثر بالهداية الإلهية إلا قليلاً، أما الشخص ذو الأفكار السامية الرفيعة والذي لا يميل بفكره يمينًا وشمالاً فإن الهداية الإلهية تتجلى فيه بشكل أفضل، كذلك شجرة بني هاشم وذريَّة إبراهيم، الذين كانوا أشخاصًا بسطاء أنقياء لا تعرف قلوبهم الحقد والغش مُطهَّرين من الصفات الرذيلة، عندما أشرق من شجرتهم الطاهرة نور الهداية كان

أكثر تأثيرًا.

سابعًا: إذا كان المصباح وفتيلته نظيفَين صافِيَين لم يصلهما الكبريت بعد، فإنه -أي المصباح- يضيء كالغاز، خلافًا للمصباح المُتَّسِخ الذي يأخذ وقتًا حتى يشتعل. وهذا مثل الهداية الإلهية التي تكون أفضل وأكثر فائدةً عندما تُودَع في قلب شخص حريص على المؤمنين وهدايتهم ويسعى - دون أي تأخير أو تلكُّؤ ودون أخذ أي أجر- إلى هدايتهم، ويتلألأ ويضيء من ذات نفسه. لذلك قال تعالى في تشبيه مصباح هدايته: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾.

ثامنًا: إذا حفَّ بنور المصباح زجاج صافٍ أضاف على نور المصباح نورًا إضافيًا، وأصبح «**نُورًا عَلَى نُورٍ**»، وكذلك الهداية الإلهية تضيف على القلب الصافي والنقيّ طهارةً وضياءً، وتمنحه نورًا وتَلألُؤًا إضافيًا.

إذن فقد شبَّه الله تعالى هدايته من النواحي الثمانية المذكورة بالمصباح ذي الأوصاف الثمانية المذكورة. لكن هذه الهداية الإلهية التي تشبه المصباح المضيء إنما تفيد من أراد الاهتداء بها والاستنارة بنورها، فاللّهُ يهدي مثل هذا الإنسان فقط. أما الذي يعرض عن نور الهداية ولا يُبدي رغبةً في فهم حقائق الوحي، فمثله مثل من يعرض عن المصباح المشعّ نورًا، ويميل نحو الظلمات، فهو غير قابل للهداية ولا يهديه الله، لذلك قال في آخر الآية: ﴿يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ﴾.

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾ [النور: ٣٦-٣٨].

الفوائد: الجار والمجرور ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ يتعلقان بفعل ﴿يُسَبِّحُ﴾ الذي ذُكر بعدهما، أو يتعلقان بفعل ﴿يُوقَدُ﴾ أو بفعل مقدر: يكون.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ....﴾ أنه لا يجوز للإنسان أن تلهيه التجارة

وسائر أمور الدنيا عن ذكر الله وإقامة الصلاة وإعطاء الزكاة، وهذه الآية صريحة أن الزكاة واجبة في التجارة والبيع وأن على التاجر والبائع أن يؤدي زكاة ماله، فما جواب الذين لا يوجبون الزكاة في مال التجارة عن هذه الآية؟ أين ذُكرت في القرآن زكاة الجمال صريحًا؟ فكيف توجبون الزكاة في الجمال - رغم أنها لم تذكر في القرآن صراحةً - ولا توجبون الزكاة في مال التجارة رغم وجود هذه الآية الصريحة؟!.

ويتوهَّم بعض الناس أن أئمة أهل البيت عليهم السلام لم يكونوا يرَون الزكاةَ واجبةً في جميع الأشياء. إن هؤلاء لا يعلمون أن أئمة أهل البيت لم يكونوا يعتقدون على نحو يخالف القرآن والسنة بحصر الزكاة في الأشياء التسعة فقط، بل كانوا يقولون بأن الزكاة واجبة في كل شيء، كما رُوِيَت في ذلك روايات كثيرة عن أئمَّة أهل البيت عليهم السلام، ومن أراد معرفة ذلك فعليه مراجعة كتابَي **التهذيب** [للشيخ الطوسي] و**وسائل الشيعة** [للحُرّ العاملي] وأمثالهما.

فمثلاً رُوِي عن محمد بن مسلم أنه قال: «**سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ الله عليه السلام عَنِ الذَّهَبِ كَمْ فِيهِ مِنَ الزَّكَاةِ؟ فَقَالَ: إِذَا بَلَغَ قِيمَتُهُ مِائَتَيْ دِرْهَمٍ فَعَلَيْهِ الزَّكَاةُ**»[1]. أي أنه اعتبر ملاكَ الزكاة في الذهب قيمتَه ولم يأت على موضوع كون الذهب مسكوكًا أو منقوشًا بأي ذكر.

وجاء في كتاب التهذيب: «**عَنْ زُرَارَة قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام فِي الذُّرَةِ شيءٌ؟ قَالَ: الذُّرَةُ وَالْعَدَسُ وَالسُّلْتُ وَالْحُبُوبُ فِيهَا مِثْلُ مَا فِي الْحِنْطَةِ وَالشَّعِيرِ، وَكُلُّ مَا كِيلَ بِالصَّاعِ فَبَلَغَ الْأَوْسَاقَ الَّتِي تَجِبُ فِيهَا الزَّكَاةُ فَعَلَيْهِ فِيهِ الزَّكَاة**»[2].

وقال علي عليه السلام: «**مَنْ كَانَ لَهُ مَالٌ وَعَلَيْهِ مَالٌ فَلْيَحْسُبْ مَالَهُ وَمَا عَلَيْهِ فَإِنْ كَانَ مَالُهُ فَضَلَ عَلَى مِائَتَيْ دِرْهَمٍ فَلْيُعْطِ خَمْسَةَ دَرَاهِمَ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فَضَلَ عَلَى مِائَتَيْ دِرْهَمٍ فَلَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ**»[3].

ورُوِي في كتابَي: «**الكافي**» و«**من لا يحضره الفقيه**» عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**إِنَّمَا جَعَلَ**

١- الشيخ الكُلَيْنِيّ، **الكافي**، ج ٣/ ص ٥١٦.

٢- الشيخ الطوسي، **تهذيب الأحكام**، ج ٤/ ص ٦٥.

٣- النوري الطبرسي، **مستدرك الوسائل**، ج ٧/ ص ٥٤- ٥٥، نقلاً عن كتاب **الجعفريات**.

اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الزَّكَاةَ فِي كُلِّ أَلْفٍ خَمْسَةً وَعِشْرِينَ دِرْهَمًا، لِأَنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ الْـخَلْقَ فَعَلِمَ غَنِيَّهُمْ وَفَقِيرَهُمْ وَقَوِيَّهُمْ وَضَعِيفَهُمْ فَجَعَلَ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ خَمْسَةً وَعِشْرِينَ مِسْكِينًا وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَزَادَهُمُ اللَّهُ لِأَنَّهُ خَالِقُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِم»[1].

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٣٩ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ٤٠﴾ [النور: ٣٩-٤٠].

الفوائد: شبَّه الله في هاتين الآيتين أعمال الكفار وعقائدهم بأمور. فشبه أعمال الكفار بِحَال الظمآن الذي يسير في الصحراء وتشتد حاجته إلى الماء فإذا شاهد السراب من بعيد ظنَّه ماءً وتعلق قلبه به فإذا سار نحوه ووصل إليه مُتْعَبًا رأى أن سعيه كان بلا فائدة وأنه لم ينل من سعيه إلا التَّعب، وكذلك الكفار وأهل الخرافات يعملون أعمالاً يظنُّون أن لها نتائج كبيرة ولكن إذا كُشف الستار وظهرت الحقيقة عرفوا أن أعمالهم تلك لم تُفِدهم شيئًا سوى التعب والمشقَّة! وشبَّه الله عقائد الكفَّار، التي لا تعدو الخيالات والأوهام، بمن كان في وسط بحر عميق مظلم تحيط به الظلمات من عدة جهات، إلى درجة لا يكاد يرى معها يده.

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ٤١ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ٤٢ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٣﴾ [النور: ٤١-٤٣].

الفوائد: بعد أن بيّن الله تعالى لعباده أعمال الكفار وخرافاتهم، بيّن في هذه الآيات آثار قدرته.

١- ابن بابويه القمي، **من لا يحضره الفقيه**، ج ٢/ ص ٩.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ أن الطيور التي تزيد أنواعها على ٨٦ ألف نوع لها أذكار وتسبيحات خاصة بها تفهمها هي ولا نفهمها نحن. وعلى الإنسان أن ينظر إلى عجائب الطيور ليزداد معرفةً بالله، فمثلاً: يبلغ وزن النعامة الأفريقية ١٣٥ كيلوغرام ويبلغ طول قامتها مئتين وأربعين سنتيمترًا. ويبلغ طول جناح الطيور اليابانية ٣٠،٧ مترًا، وبعض الغربان تعمّر أكثر من مئة عام، ولابدَّ أيضًا أن نتفكَّر في كيفية خلقتها وغذائها وتناسلها وتكاثرها، ولقد رأينا طيورًا تدرك على نحو جيد ما يضرها وما ينفعها وتقوم بأفعال تحيّر العقول. كما أن طيور السَّحَر تقوم بالذكر والمناجاة. ألا ترى كيف يصطاد بعضها بعضًا وتسير في الجو المعتدل! فمثلاً الحبارة الذي هو طير بقدر الديك يقاتل الثعبان فإذا تسمم بلدغة الثعبان ذهب وأكل من أوراق نبتة تدعى الجرجير مما يؤدي إلى إزالة أثر سم الثعبان و...

واعلم أن للمطر والثلج أسماء كثيرة بحسب أنواعها وأقسامها: فهناك **البَرَد** وهناك **الديمة** وتُطلَق على المطر البطيء جدًا والمتواصل في الجو الساكن وهناك **الوابل** ويُطلَق على المطر الشديد، وهناك **المطر** وهو المطر المطلق بشكل عام، وهناك **الثلج** وهو يُطلَق على المطر نصف المتجمّد، وهناك **الطَّلّ** ويُطلَق على المطر القليل الذي يشبه **الندى**، فإذا نزل في الجو البارد جعل الندى يتجمد فيسمونه **الصقيع** وإذا كانت فائدته كثيرة ولم يكن فيه ضرر سُمِّيَ **بالغيث**.

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍۚ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾ [النور: ٤٤-٤٦].

الفوائد: يمكن أن يكون الجار والمجرور ﴿مِّن مَّآءٍ﴾ متعلِّقَيْن بفعل ﴿خَلَقَ﴾، وقد يكونان متعلقَيْن بـ ﴿دَآبَّةٍ﴾، فيصبح المعنى عندئذ: وخلق الله الدابة التي هي من ماء، ومعناه أن هناك دوابًّا - أو بالأحرى كائنات حية متحركة - غير مخلوقة من الماء مثل الجنّ والملائكة وحضرة آدم وحضرة عيسى عليهما السلام. وفي هذه الجمل استُعْمِل حرف ﴿مَّن﴾ وضمير ﴿هُم﴾ -

الـموضوعان في الأصل للعقلاء- في غير العقلاء تغليبًا للشريف على الخسيس.

وقد بيّن الله تعالى في هذه الآيات بعضًا من تجليات قدرته ويجب على الإنسان أن يتفكّر في بعض مظاهر قدرة الله وفي الـمليارات من مخلوقاته. ففي كل موجود ما يشهد على قدرة الله، فمثلاً انظر إلى كيفية خلق الحوت الأزرق حيث يبلغ طوله ٣٣ مترًا ووزنه ١٣٣ طنًا، أو انظر إلى كيفية خلق الخفاش وحياته وهو من الثدييات ويوجد منه ٢١٠٠ نوع، وكذلك انظر إلى الحيوانات الصحراوية كالفهد الذي تبلغ سرعته ١٤٥ كيلومترًا في الساعة، وتفكّر كذلك في ملايين الحيوانات كيف تتجلَّى فيها قدرة الله، فانظر إلى الزرافة التي يزيد طولها على خمسة أمتار وتعيش في بيئة الغابات التي تلامس أشجارها السماء في علوّها وعلى هذا الحيوان أن يأكل من أوراق هذه الأشجار الباسقة ويتغذى من ثمارها. وكذلك انظر في سائر الـموجودات. لكن يجب أن يكون هذا النظر بحدٍّ لا يجعلك تغفل عن العمل بالقرآن وعبادة الله. وقد أشرنا في كتابنا «**عقل ودين**» إلى بعض عجائب الخلقة فلتراجع ثمَّةَ.

وتدلُّ عبارة: ﴿ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍۚ﴾ أن آيات القرآن بيّنة واضحة بحد ذاتها ولا تحتاج إلى مبيّن آخر من جنس الكلام.

﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَـٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ۝٤٧ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ۝٤٨ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ۝٤٩ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ۝٥٠﴾ [النور: ٤٧-٥٠].

الفوائد: عندما يقول شخصٌ: آمنتُ بالله ورسوله فعليه أن يستسلم ويذعن لحُكم الله ورسوله، ولكن كان في زمن رسول الله ﷺ أشخاص - ويوجد مثلهم في كل زمان - يدّعون الإيمان بالله ورسوله ولكنهم يرفضون الاستسلام لِـحُكم الله، وذلك مثل بشر الـمنافق وكان قد خاصم يهوديًا في أرض وكان اليهودي يجرُّه إلى رسول الله ﷺ ليحكم بينهما، وجعل الـمنافق يجرُّه إلى كعب بن الأشرف، ويقول: إن محمدًا يحيف علينا، [وقد مضت قصتهما في سورة

النساء]، ومثل **المغيرة بن وائل** كان بينه وبين علي بن أبي طالب ﷺ أرضٌ فتقاسما فوقع إلى عليٍّ منها ما لا يصيبه الماء إلا بمشقة، فقال المغيرة: بعني أرضك فباعها إياه وتقابضا فقيل للمغيرة: أخذت سبخة لا ينالها الماء. فقال لِعَليٍّ اقبض أرضك فإنما اشتريتُها إن رضيتها ولم أرضها فلا ينالها الماء، فقال عليٌّ: بل اشتريتها ورضيتها وقبضتها وعرفت حالها لا أقبلها منك، ودعاه إلى أن يخاصمه إلى رسول الله ﷺ؛ فقال المغيرة: أما محمَّدٌ فلستُ آتيه ولا أحاكم إليه فإنه يبغضني وأنا أخاف أن يحيف عَلَيَّ! فنزلت هذه الآية على ما قيل[1]. وقد ذُكرت في هذه الآيات عدَّة علامات للمنافقين:

العلامة الأولى: أنهم طالبو دنيا ويميلون إلى كل مكان يرون فيه نفعًا دنيويًّا.

الثانية: في قلوبهم مرض.

الثالثة: من أهل الشك والريب.

الرابعة: لا يؤمنون بالله ورسوله.

الخامسة: ظالمون.

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥١ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٥٢ ۞وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّۖ قُل لَّا تُقْسِمُواْۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٥٣ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝٥٤﴾ [النور: ٥١-٥٤].

الفوائد: قُرِئَتْ كلمةُ: ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ بكسر القاف والهاء، وقُرِئَت أيضًا بكسر القاف وسكون

١- الروايتان في **الكشَّاف**، للزمخشري، ٣/ ٢٥٣، و**التفسير الكبير**، للفخر الرازي، ٢٤/ ٢٠. و**الجامع لأحكام القرآن**، للقرطبي، ١٢/ ٢٩٣، و**اللباب في علوم الكتاب**، لابن عادل الحنبلي، ١٤/ ٤٢٦ وفي غيرها من التفاسير.

الهاء، وقُرِئَت بسكون القاف وكسر الهاء، وفي المصاحف الحالية [أي قراءة حفص عن عاصم] رُسمت بسكون القاف وكسر الهاء. وكلها صحيحةٌ ولكُلٍّ وجهٌ.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَّا تُقْسِمُواْ﴾ على ذمِّ القسم بالله، والقسم إشهادُ المُقْسَم به، فعندما نُقسم بالله فإننا نُشهد الله على أننا سنقوم بالعمل الفلاني أو سنتركه، ولا يُمكن أن نُشهد أحدًا على أعمالنا سوى الله لأنه هو الوحيد الحاضر والناظر في كل مكان والشاهد لجميع الكائنات، أما النبيّ أو الوليّ الفلاني فليسا حاضرين في كل مكان! فمثلاً قال عيسى بن مريم: ﴿كُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧] أي أن عيسى أقرّ أنه بعد وفاته لم يكن شاهدًا على أتباعه وأن الله كان الشاهد الوحيد عليهم بعده].

ولذلك رُوِيَ عَن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام روايةٌ توافق القرآن، أنهما قالا: «**إن الله تعالى أن يقسم بما شاء من خلقه وليس لخلقه أن يقسموا إلا به**»[١].

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْۖ﴾ أن المسؤولية المُلقاة على عاتق الرسول ﷺ هي التبليغ فقط، والمسؤولية المُلقاة على عاتق الناس هي الاتّباع والطاعة، فليس لرسول الله ﷺ أي مهمة أخرى غير التبليغ، فما يقوله غلاة الشيعة من أن الإمام والرسول يقومون بكل الأعمال في الكون كلامٌ مضادٌّ للقرآن. كانت الأمانةُ والمهمَّةُ التي حُمِّلَها رسولُ اللهِ ﷺ: إبلاغَ رسالة ربِّه قولاً وعملاً، والأمانة التي حُمِّلَها الناس هي الإيمان بقول الله وسنة رسوله ﷺ. ولمزيد من الاطلاع على هذه النقطة تُراجع الفقرة ١٤ من مقدمة هذا التفسير.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ٥٥﴾ [النور: ٥٥].

الفوائد: وعد الحقّ تعالى الحاضرين زمن رسول الله ﷺ -بدليل كلمة «**مِنْكُمْ**»- بأنه

١- ابن شهر آشوب المازندراني، **متشابه القرآن**، ج٢/ ص ١٣٩.

سيستخلفهم في الأرض أي يجعلهم يخلفون الـمُشْرِكين في الحكم والسيادة، لا أنهم سيكونون خُلفاء لِلَّهِ لأن الله تعالى لا يغيب ولا يخلفه أحد، بدليل قوله تعالى: ﴿كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾: يعني أنه كان هناك قبل الـمؤمنين أمَّةٌ من الناس في القرون السالفة كانت لهم الزعامة والسيادة في جزء من الأرض، ثم ذهبوا وجعل الله قومًا آخرين خُلفاء لهم وأعطاهم الزعامة مكانهم أي أن سلطان مَنْ قَبلَهم انتقل إليهم. فكما أن الناس قبل الـمؤمنين كانوا خُلفاء في جزء من الأرض لا في كلها، كذلك وعد الله الـمؤمنين زمن رسول الله ﷺ أنه ستكون لهم السيادة والسلطان في جزء من الأرض، وقد تحقق هذا الوعد الإلهي عمليًا على أيدي الـمؤمنين زمن رسول الله ﷺ لأنهم كانوا مؤمنين صادقين وقاموا بالأعمال الصالحة التي أشارت إليها هذه الآية. وهكذا أبدل الله خوف الـمؤمنين - الذين كانوا غير قادرين على ممارسة شعائر دينهم وكانوا يعيشون في حالة خوف دائم من سطوة الـمُشْرِكين وأذاهم- أمنًا، كما وعدهم بذلك، وأصبحوا قادرين على ممارسة شعائر دينهم بكل حرية ووقعت أراضي الـمُشْرِكين والكفار بأيديهم وصارت تحت سيادتهم وسلطانهم.

وينبغي أن نعلم – كما ذكرت هذه الآية – أن الحكومة في الإسلام وفي سائر الأديان الإلهية ليست هدفًا بل وسيلة، وهدف الأديان هو ما ذكرته الآية من قوله تعالى: ﴿يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗا﴾. بِنَاءً عَلَى ذَلِكَ لم يكن هدف الأَنْبياء الحكومة ولم يكن لهم من منصب سوى تبليغ الرسالة والتبشير والإنذار، وآيات القرآن صريحة تمامًا في هذا الأمر.

والنقطة الأخرى التي ينبغي ذكرها هنا أن بعض الـمُتعصّبين الـمذهبيين لدينا يقولون: إن الـمراد من: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ﴾ الأئمة الاثني عشر! وذكروا روايةً موضوعةً في هذا الـمجال، ولكن هذا القول مُخالف لصريح الآية، لأن ﴿مِنكُمۡ﴾ خطاب للحاضرين زمن رسول الله ﷺ، والأئمة الاثنا عشر أو حضرة الـمهدي لم يكونوا حاضرين ولا مُخاطَبين بهذه الآية، بل كانوا يعيشون في زمنهم في الخوف والتقية دائمًا!.

وقد جاء في الخطبة ١٤٦ من نهج البلاغة أنه لما وقعت الحرب بين الـمسلمين وبلاد

فارس(إيران) أراد [الخليفة] عمرُ بن الخطاب أن يذهب ليقود الحرب بنفسه واستشار حضرة عليٍّ عليه السلام في ذلك فأشار عليه عليٌّ بعدم الذهاب واستند إلى هذه الآية ذاتها وقال عليه السلام:

«[إِنَّ هَذَا الأَمْرَ لَمْ يَكُنْ نَصْرُهُ ولا خِذْلانُهُ بِكَثْرَةٍ ولا بِقِلَّةٍ وهُوَ دِينُ اللهِ الَّذِي أَظْهَرَهُ وجُنْدُهُ الَّذِي أَعَدَّهُ وأَمَدَّهُ حَتَّى بَلَغَ مَا بَلَغَ وطَلَعَ حَيْثُ طَلَعَ] **وَنَحْنُ عَلَى مَوْعُودٍ مِنَ اللهِ وَاللهُ مُنْجِزٌ وَعْدَهُ وَنَاصِرٌ جُنْدَهُ** ومَكَانُ الْقَيِّمِ بِالأَمْرِ مَكَانُ النِّظَامِ مِنَ الْخَرَزِ يَجْمَعُهُ ويَضُمُّهُ فَإِنِ انْقَطَعَ النِّظَامُ تَفَرَّقَ الْخَرَزُ وذَهَبَ ثُمَّ لَمْ يَجْتَمِعْ بِحَذَافِيرِهِ أَبَدًا؛ والْعَرَبُ الْيَوْمَ وإِنْ كَانُوا قَلِيلاً فَهُمْ كَثِيرُونَ بِالإِسْلامِ عَزِيزُونَ بِالاجْتِمَاعِ، **فَكُنْ قُطْبًا واسْتَدِرِ الرَّحَى بِالْعَرَبِ وأَصْلِهِمْ دُونَكَ نَارَ الْحَرْبِ...** إلى آخر كلامه».

أما الشيخ الطوسي والشيخ المجلسي فإنهما يقولان ما يناقض كلام الله وكلام عليٍّ هذا إذ يقولان: لدينا رواية تثبت أن هذه الآية لا تتعلق بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ومسلمي صدر الإسلام، بل تتعلق بالمهدي - المعدوم - في زمن خروجه!!

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٥٦ لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٥٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٨ وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٩﴾ [النور: ٥٦-٥٩].

الفوائد: تَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ على وجوب دفع الزكاة من جميع الأموال على نحو مطلق. أما مقدارها فيختلف حسب اختلاف نوع المال. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**هاتوا رُبع عشر أموالكم**»[1]، وجاء في خبر آخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**مَلْعُوْنٌ كُلُّ مَالٍ لَا يُزَكَّى**»[1].

١- ابن أبي جمهور الإحسائي، **عوالي اللآلي**، ٣/ ١١٥، والنوري الطبرسي، **مستدرك الوسائل**، ٧/ ٩٩.

ولا بدّ من تقدير كلمة «كشف» قبل كلمة «عَوْرَات» في الآية، لأن هذه الأوقات الثلاثة: قبل الفجر وعند الظهر وبعد صلاة العشاء، هي الأوقات التي يُخَفِّف فيها الإنسان من لباسه ويتعرى لأجل النوم والراحة، لذلك أمر الحقّ تعالى الغلمان والأطفال الـمُميزين بالاستئذان قبل الدخول على أبويهم في تلك الأوقات.

وَالـمَقْصود مِنْ جُمْلَة: ﴿كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الرجال الذين كانوا يستأذنون قبل نزول آية الاستئذان.

وَالـمُرَادُ مِنْ: ﴿ٱلْحُلُمَ﴾ الاحتلام الذي هو سن بلوغ الأطفال أي خروج الـمَنيِّ منهم أو رؤيتهم في الحُلُم شيئًا يؤدّي إلى قذف الـمَنيِّ منهم. وبناءً على ذلك فإن بلوغ الذكور يحصل بالاحتلام، وبلوغ الإناث يحصل بالحيض. ومتى ما وصل الشخص إلى سن النكاح والاحتلام أصبح بالغًا، وقد يصل إلى البلوغ في سن الخامسة عشرة أو أكثر أو أقل.

﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ [النور:٦٠].

الفوائد: الـمَقْصود مِن ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ النساء اللواتي بلغ سنهنَّ مبلغًا جعلهنَّ غير مرغوب بهنَّ للزواج، وقال بعضهم: إنهنَّ النساء اللواتي بلغنَ سن اليأس من الحيض والإنجاب. ولكن جملة: ﴿لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ قرينة على الـمعنى الأول.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ

١- الكُلَيْنِيّ، **الكافي**، ٢/ ٢٥٨ . وعبد الله بن جعفر الحِمْيَري، **قرب الإسناد**، ص ٣٣.

عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴿٦١﴾﴾ [النور:٦١].

الفوائد: كلمة: «حَرَجٌ» التي نفاها الله في هذه الآية عن الأعمى والأعرج والمريض مطلقة، لكن بعض الكتاب جعل نفي الحرج خاصًا بعدم الخروج للجهاد أو جعله خاصًا بعدم حضور الجمعة، أو خاصًا بالأكل، وهذا خلاف ظاهر القرآن، بل الحرج مرفوع عنهم في كل الأمور المذكورة.

وَالـمُرَاد مِنْ: ﴿بُيُوتِكُمۡ﴾ بعض بيوت الأبناء بدليل حديث: «**أنت ومالك لأبيك**». لأن بيوت أبناء الإنسان مثل بيته، لكن ظاهر الآية أنه لو رأيتم في بيوتكم طعامًا حاضرًا فلا تحتملوا احتمالات موسوسة بأن هذا الطعام قد يكون لشخص آخر تركه عندكم، أو أن زوجاتكم أتوا به من مكان آخر أو هو عوض عن مال لآخرين.

وَالُمرَاد مِنْ: ﴿مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾بيان الحال الذي كان في زمن رسول الله ﷺ عندما كان الـمجاهدون يذهبون إلى القتال ويُعطون مفاتيح بيوتهم لعدد من أصحاب الأعذار وأمثالهم كي يستفيدوا من بيوتهم أو ليتعهدوها ويعتنوا بها. بِنَاءً عَلَى ذَلِكَ يجوز لمثل هؤلاء الأشخاص الـمعذورين أن يستفيدوا من مثل هذه البيوت التي أخذوا مفاتيحها ولو وجدوا فيها طعامًا جاز لهم أن يأكلوا منه.

وكلمة: ﴿صَدِيقِكُمۡۚ﴾ يُراد بها بيوت أصدقائكم.

وَالـمُرَاد مِنْ: ﴿أَن تَأۡكُلُواْ جَمِيعًا أَوۡ أَشۡتَاتٗاۚ﴾ جواز أن يأكل الـمسلمون مع الضيف أو مع الـمريض والأعمى أو أن يأكلوا وحدهم منفردين.

وَالـمُرَاد مِنْ: ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ أن يُسلِّم الإنسان على نفسه كأن يقول: «السلام علينا من ربِّنا» لأن السلام دعاء بالسلامة وبالبقاء على الحياة فهو عمل نافع ومبارك. وإن كان في الـمنزل أحد وجب السلام عليه كما مرّ في الآية ٢٧ من هذه السورة، فإذا كان في البيت أشخاص غير مسلمين من أهل الكتاب فالـمناسب أن يقول الـمُسلِّم: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ [طه: ٤٧].

﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ فَأۡذَن لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٦٢﴾ [النور: ٦٢].

الفوائد: المراد من: ﴿عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ﴾ الأمر الاجتماعي ذو الأهمية الذي يحتاج إلى التشاور أو يكون موقوفًا على المرافقة والمصاحبة أو الجمعة التي لا يجوز للمسلمين أن يغيبوا عنها لما لها من أهمية فعلى الجميع أن يبقى إلى آخر الصلاة إلا من أذن له الرئيس الذي بيده زمام أمور المسلمين بالذهاب.

وَالمُرَاد مِنْ: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمُ ٱللَّهَۚ﴾أن تستغفر لهم لأنهم تركوا الأولى واستأذنوك للذهاب مع أن بقاءهم معك كان هو الأفضل والأولى، أو استغفر لهم لأنهم أدوا واجب الاستئذان ففي مقابل عملهم بواجبهم اطلب لهم من الله الرحمة والغفران.

﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٦٣ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ وَيَوۡمَ يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ٦٤﴾ [النور: ٦٣-٦٤].

الفوائد: المُرَاد مِنْ: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ﴾أنه عندما يدعوكم رسول الله ﷺ لأمر ما ويُناديكم، عليكم أن تُلَبُّوا نداءه وتحضروا فورًا ولا تتعاملوا مع دعوته بعدم اكتراث أو إهمال كما قد تفعلون مع دعوة بعضكم بعضًا، والقرينة على هذا المعنى الجملة اللاحقة التي قال تعالى فيها: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ﴾. ومن الممكن أن يكون المعنى: لا تدعوا محمدًا وتُنادوه كما تدعون بعضكم بعضًا، أي لا تقولوا: يا محمَّد! بل قولوا: يا رسول الله ﷺ، ولا تُنادوا الرسول بصوت مرتفع كما قال تعالى في سورة الحُجرات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ [الحجرات: ٢] ولكن الأظهر هو

الـمعنى الأول.

ويستفاد من جملة: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ....﴾ وجوب الاستجابة لأوامر الله جميعها، فأمرُ اللهِ يجب العمل به، ولذلك استدل الأصوليون بهذه الآية على أن الأمر يدل على الوجوب، وهذا هو الحقّ.

سورة الفرقان

مكيّة وهي سبع وسبعون آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِى ٱلۡمُلۡكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ۝٢﴾ [الفرقان: ١-٢].

الفوائد: يدلُّ فعل ﴿نَزَّلَ﴾ على أن سور القرآن نزلت مُفرَّقةً وأن آياته نزلت بالتدريج. وكلمة ﴿ٱلۡفُرۡقَانَ﴾ من أسماء القرآن ومعناها الفارق بين الحقّ والباطل وبين الحرام والحلال. وَالـمُرَاد مِنْ: ﴿لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ جميعُ الـمُكلَّفين من كل صنف وهذا يدلُّ على أن محمدًا ﷺ مبعوثٌ إلى البشرية جمعاء.

ويدلُّ ذِكْرُ كلمة ﴿تَبَارَكَ﴾ في الحديث عن تنزيل القرآن أن القرآن منبع الخيرات والبركات.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾ على الخلق التقديري والتكويني، فالخلق التقديري غير الخلق التكويني. مثلاً الله مُنزَّهٌ عن الشرِّ ولن يُكوِّنَ الشرَّ، وهو الذي قدّر الخير والشر وحدد حدودهما.

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا ۝٣﴾ [الفرقان: ٣].

الفوائد: تدل هذه الآية على أنَّ ليس لما سوى الله تأثيرٌ في الوجود لا الأَنْبياء ولا غيرهم، إذْ

ذَكَرَتْ هذه الآيةُ الدليلَ على ذلك وهو أن ما سوى الله لا يستطيع خلقَ شيءٍ كما لا يملك القدرة على دفع الضر وجلب النفع لنفسه.

أضف إلى ذلك أن الإنسانَ - أيَّ إنسانٍ- لا يملك بعثه وحشره يوم القيامة، وهذا ينطبق على النبيِّ الخاتَم ﷺ كما ينطبق على غيره، أي أن النبيَّ مخلوقٌ وليس خالقًا لأي شيء، ولا يملك بعث نفسه وحشرها بل لا يعلم متى تقوم الساعة ومتى يُحشر العباد إلى الله، فلا يجوز طلب الحوائج منه فما بالك بطلبها من غيره؟!

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾﴾ [الفرقان: ٤-٩].

الفوائد: ذكر الكفار في هذه الآيات عدة شُبهات لنفي رسالة محمد ﷺ وقد أجاب الله عنها جميعًا:

١-قالوا: هذه القصص مخترعة وهي من أساطير الأولين؛ إذْ كَتَبَ جماعةٌ من الناس له نسخةً عنها وقرؤوها عليه مرارًا حتى حفظها، ومرادهم: **عداس** غلام حويطب، **ويسار** غلام عامر بن الحضرمي، وجبر غلام عامر، إذ كان هؤلاء من أهل الكتاب وكانوا يقرؤون التوراة فلما أسلموا وأخذوا يتردَّدون على رسول الله ﷺ ادّعى الكفار أنهم كانوا يُعلِّمون رسول الله ﷺ تلك القصص. وقد أجاب الله عن ذلك بقوله: إن هذا الادعاء عن رسول الله ﷺ ظلم وزور وبهتان لأنه لا يوجد في القرآن أي أساطير أو خرافات، إضافةً إلى أن القرآنَ في غاية الفصاحة والإعجاز، فإن كنتم صادقين في قولكم فاذهبوا واستعينوا بأهل الكتاب وائتوا بمثل آيات القرآن هذه. إضافةً إلى ذلك لا يُمكن لأحد أن يأتي بآيات

كآيات القرآن إلا الله المحيط بجميع المعلومات وبغيب السماوات والأرض وأسرارهما.

٢- قالوا: هذا الرسول مثله مثلنا يأكل ويمشي في الأسواق.

٣- قالوا: لماذا لا تنزل عليه الملائكة كي تُنذر الناس معه؟

٤- قالوا: لماذا لا يمتلك كنزًا؟

٥- قالوا: لماذا لا يمتلك حديقةً تُخفِّف عنه الحاجة إلى تجشُّم عناء تحصيل لقمة العيش؟

٦- قالوا: إنه ساحر أو مسحور.

ولما تكرر في القرآن الإجابة عن مزاعم الكفار تلك واتضحت قال تعالى: انظر كيف لم يستطيعوا أن يقدحوا أو يطعنوا فيك من أي طريق كان.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورَۢا ١٠ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ١١ إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا ١٢ وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا ١٣ لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا ١٤﴾ [الفرقان: ١٠-١٤].

الفوائد: يقول تعالى لرسوله ﷺ ردًا على الكفار: إني قادر أن أُعطيك خيرًا مما قاله الكفار ولكن هذا لا يصلح لك في الدُّنيَا بل سأُعطيك عطاء الآخرة. وقد رُويت روايات عديدة هنا منها: **أن جبريل عليه السلام نزل مرّة إلى النبي ﷺ، فبينما جبريل عليه السلام والنبي ﷺ يتحدثان إذ فُتِح باب من أبواب السماء لم يكن فتح قبل ذلك، ثم قال جبريل: أبشر يا محمَّد! هذا رضوان خازن الجنة قد أتاك بالرضا من ربك فسلم عليه، وقال: إن ربك يخيرك بين أن تكون نبياً ملكاً وبين أن تكون نبياً عبداً، ومعه سفط من نور يتلألأ، ثم قال: هذه مفاتيح خزائن الدنيا فاقبضها من غير أن ينقصك الله مما أعد لك في الآخرة جناح بعوضة. فنظر النبي ﷺ إلى جبريل كالمستشير فأومأ بيده أن تواضع فقال رسول الله ﷺ: «بل نبياً عبداً» قال فكان عليه السلام بعد ذلك**

لم يأكل متكئاً حتى فارق الدنيا(١). ومعنى لم يأكل مُتَّكِئًا أي لم يأكل بتكبُّر. وَرُوِيَ أنه ﷺ قال: «**أشبع يوماً وأجوع ثلاثاً، فأحمدك إذا شبعت وأتضرع إليك إذا جعت**»(٢).

﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾﴾ [الفرقان: ١٥-١٦].

الفوائد: الظاهر أن اسم الإشارة «**ذَٰلِكَ**» يعود على أنواع العذاب المذكورة في الآية السابقة ويُشير إليها. ويُمكن أن نعتبر كلمة: «**خَيْرٌ**» اسم تفضيل، يعني هل هذا أفضل أم ذاك؟

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ أن التخلُّف عن تنفيذ الوعد قبيح والحقُّ تعالى لا يفعل القبيح فالله لا يُخلف وعده.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [الفرقان: ١٧-١٩].

الفوائد: تدلُّ هذه الآيات على حُرْمَة تقليد السادة الكبار والعظماء وحُرمة جعلهم مرجعًا في

١- الفخر الرازي، **التفسير الكبير**، ٢٤/ ٥٤. والحديث أخرجه نحوه الطبراني في **معجمه الكبير** بلفظ مختصر عن ابن عباس(١٠٦٨٦)، وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ٢٠): فيه بقية بن الوليد ، وهو مدلس. وأخرجه أيضًا: النسائي في **السنن الكبرى** (٦٧٤٣)، وأخرج نحوه **الطبراني** أيضًا بلفظ مشابه عن ابن عمر (١٣٣٠٩). قال الهيثمي في **المجمع** (٩/ ١٩): فيه يحيى بن عبد الله البابلتى، وهو ضعيف. وأخرجه أيضًا: أبو نعيم فى **الحلية** (٣/ ٢٥٦).

٢- **التفسير الكبير**، الفخر الرازي، ٢٤/ ٥٤. والحديث أخرج نحوه الترمذي في **السنن** (٢٣٤٧) وقال: حسن. وأخرجه أحمد في **المسند**، ٥/ ٢٥٤، وقال محققه شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيفٌ جدًا. وأخرجه البيهقي في **شعب الإيمان** (١٤٦٧) وقال محققه مختار أحمد الندوي: إسناده ضعيف. وأخرجه ابن سعد في **الطبقات الكبرى**، ٣/ ٣٨١، والطبراني في **المعجم الكبير** (٧٨٣٥) كلهم عن أبي أمامة.

طلب الحوائج. كما تدلُّ على حُرمة قبول أحكامهم لأن في هذا نوعًا من العبادة. وتدلُّ الآيات أيضًا أن السادة الكبار سيتبرؤون يوم القيامة من أتباعهم وسيُكذِّبونهم. من هذا يتبيَّن أن هؤلاء الكبار الذين عُبِدوا من دون الله ليسوا أصنامًا لأن الصنم جماد لا يعقل فلا يمكن أن يُكذِّب أحدًا أو يتبرأ منه، كما يتبيَّن أن هؤلاء الضالين كانوا يستعينون بالعظماء والسادة الكبار ويطلبون منهم المدد والنُّصرة لذلك قال تعالى: ﴿وَلَا نَصْرًا﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان: ٢٠-٢٤].

الفوائد: جملة: ﴿بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ تعني أن بعضكم سبب لامتحان بعضكم الآخر وابتلائهم. فالأَنْبياء مُبتلون باستهزائكم وتكذيبكم، وأنتم مُبتلون بالحسد والكِبْر أو واقعون في المشقة والتعب لطاعتكم كُبراءكم. كان رؤساء المُشْركين يؤذون فقراء الصحابة، وكان الرؤساء يُسيئُهم أن يقول الفقير الفلاني: أنا من أهل النجاة وهؤلاء الرؤساء من أهل الجحيم، لذا كان الفقراء يتعرضون للأذى والاضطهاد. وقد قال رسول الله ﷺ: «**إن لِكلِّ أُمّةٍ فِتْنَةً، وإن فِتْنَةَ أُمَّتِي المال**»[1]. والفتنة عامة لذلك قال رسول الله ﷺ: «**وَيْلٌ لِلْعَالِمِ مِنَ الجَاهِلِ وَوَيْلٌ للسلطان من الرعية، وويل للرعية من السلطان، وَ وَيْلٌ لِلْمَالِكِ مِنَ المَمْلُوكِ، وَوَيْلٌ لِلْمَمْلُوكِ**

١- أخرجه الترمذي في **السنن**، ٤/ ٥٦٩، (٢٣٣٦) وقال: حسن صحيح غريب . وأحمد في **المسند**، ٤/ ١٦٠، والحاكم في **المستدرك**، ٤/ ٣٥٤، (٧٨٩٦) وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي وهو على شرط مسلم.

مِنَ المَالِكِ وَوَيْلٌ للضعيف من الشديد وَوَيْلٌ للشديد من الضعيف»[١].

أصحاب البلاء والأمراض يقولون: يا ليتنا كنا سالمين، ولكنَّ السالمين سيُسألون لماذا لم تعتنوا بالمرضى ولماذا لم تعتبروا من حالهم؟

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان: ٢٥-٢٩].

الفوائد: ألف ولام ﴿ٱلظَّالِمُ﴾ تفيدان العموم، وكذلك ﴿فُلَانًا﴾ نكرة في سياق النفي فهي تفيد العموم، أي أن كل ظالم سوف يعض على يديه من الحسرة وشدة النَّدَم يوم القيامة ويقول: يا ليتني لم أصاحب الكفار والفاسقين الذين كانوا يمنعونني من اِتِّبَاع القرآن ويضلُّونني عن سبيل الله. بناء على ذلك كل من يمنع توجُّه الإنسان نحو القرآن سوف يكون مُبْغَضًا مكروهًا يوم القيامة، كشأن مدعي المشيخة في عصرنا الذين يقولون للمؤمن: إنك لا تفهم القرآن ويصدُّونه عن التوجُّه نحو القرآن والاهتمام بفهمه ويُضِلُّونه. وقد رُوِيَ عَنْ حضرة الإمام الباقر عليه السلام قوله: «**اعْرِضْ نَفْسَكَ عَلَى مَا فِي كِتَابِ اللهِ فَإِنْ كُنْتَ سَالِكًا سَبِيلَهُ زَاهِدًا فِي تَزْهِيدِهِ رَاغِبًا فِي تَرْغِيبِهِ خَائِفًا مِنْ تَخْوِيفِهِ فَاثْبُتْ وَأَبْشِر**»[٢].

والـمُرَادُ مِن ﴿ٱلذِّكْرِ﴾ القرآن الذي من أسمائه الذِّكْر، بقرينة الآية التالية: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾، وبدليل قوله تعالى في سورة الحجر: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ [الحجر: ٩].

١- أخرج نحوه شيرويه بن شهردار الديلمي، في مسنده «**الفردوس بمأثور الخطاب**» عن أنس بن مالك، ٤/ ٣٩٤، (٧١٤١)، بلفظ فيه تقديم وتأخير وزيادة. وذكر السيوطي جزءًا منه في الجامع الصغير وعزاه إلى **مسند البزَّار** عن حذيفة ورمز له بالضعف، وكذلك قال المناوي في **فيض القدير** (٩٦٤٦): قال الحافظ العراقي: وسنده ضعيف.

٢- ابن شعبة الحرّاني (ت قرن ٤ هـ؟)، **تحف العقول**، ص ٢٨٤، والمجلسي، **بحار الأنوار**، ٧٥/ ١٦٢.

لكن بعضهم قال: إن الـمُراد من ﴿ٱلذِّكۡرِ﴾ هنا ذكر الله أو الإسلام.

وكما ذكرنا فإنَّ كلمة: ﴿فُلَانًا﴾ نكرة في سياق النفي فتفيد العموم، ولكن بعض الـملحدين الذين يعتقدون بتحريف القرآن يقولون إن آية ﴿لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا﴾ كانت تنص على اسم شخص بعينه، فأُزيل الاسمُ وَوُضِعَ مكانه كلمة ﴿فُلَانًا﴾. بيد أننا بيَّنَّا أن الآية عامَّة. إضافةً إلى ذلك، فإن الآية مكّيّة وفي تلك الفترة لم يكن هناك أي معنى لرفقة فلان مع فلان الـمذكور، فضلاً عن أن القول بتحريف القرآن زيغٌ وضلالٌ.

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ٣٠ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا ٣١﴾ [الفرقان: ٣٠-٣١].

الفوائد: هل قول الرسول الـمُشار إليه في آية ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ...﴾ سيكون في الآخرة أم في هذه الدنيا؟ ظاهر الآية أن رسول الله ﷺ قال ذلك في الدنيا، وهذا لا يمنع أن يقول ذلك في الآخرة أيضًا. وتدلُّ كلمة ﴿قَوۡمِي﴾ أن قوم النبيِّ تركوا القرآن وهجروه، لذلك يمكن القول: إن هذا يشمل أيضًا حال الأمة الإسلامية في زماننا الذين تركوا القرآن ولم يهتموا به.

والـمُرَادُ مِنْ جُمْلَةِ: ﴿جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أننا جعلنا حال الدنيا على هذا النحو: أنه كلما قام نبيٌّ أو رسولٌ ببيان الحق، قام الـمتكسِّبون بالباطل باختيارهم وإرادتهم الحرَّة بنصب العداوة لذلك الناطق بالحق، وحدث نتيجة ذلك نزاع ونقاش أدى إلى لفت أنظار الـمراقبين نحو ميدان صراع الحق والباطل هذا، فسمعوا الحق واهتدوا به.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ٣٣ ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ٣٤﴾ [الفرقان: ٣٢-٣٤].

الفوائد: كان الكفار يقولون: لماذا لم ينزل القرآنُ كُلُّهُ دفعةً واحدةً على محمَّدٍ كما أُنزلت التوراة على موسى والإنجيل على عيسى جُمْلَةً واحدةً؟ فردَّ الحق تعالى عليهم بقوله: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ

فُؤَادَكَ﴾ ويمكننا أن نبين هذا الجواب من عدة وجوه:

١- أنه ﷺ لما كان أُمِّيًّا لا يعلم القراءة والكتابة، فلو نزل عليه القرآن جملةً واحدةً لما استطاع أن يضبطه ولجاز عليه الغلط والسهو، خلافًا لحضرة موسى عليه السلام الذي كان يقرأ ويكتب.

٢- أن من كان الكتاب عنده، فربما اعتمد على الكتاب وتساهل في الحفظ فالله تعالى ما أعطاه الكتاب دفعةً واحدةً بل كان يُنزِلُه عليه آيةً آيةً أو سورةً سورةً ليكون حفظه له أكمل وأفضل.

٣- أنه تعالى لو أنزل الكتاب جملةً واحدةً على الخلق لنزلت الشرائع بأسرها دفعةً واحدةً فَثَقُلَ على الناس تحمُّلُها، ولأدَّى ذلك إلى اضطراب الرسول [لكنَّه لما نزل مُفرَّقًا مُنجَّمًا لا جرم نزلت التكاليف قليلاً قليلاً فكان تحملها أسهل].

٤- أنه لما كان القرآن ينزل آيةً آيةً وسورةً سورةً كان النبيُّ ﷺ يشاهد جبريل حالاً بعد حال، فيقوى قلبه بمشاهدته فكان أقوى على أداء ما حُمِّل، وعلى الصبر على عوارض النبوة وعلى احتماله أذية قومه وعلى الجهاد.

٥- أنه لما كانت كل سورة واحدة من القرآن معجزة لوحدها لا يستطيع أحد أن يأتي بمثلها، فمن باب أولى أن يكون القرآن كلُّه معجزةً، فالإعجاز يثبت أكثر بمجيء القرآن سورةً سورةً.

٦- كان القرآن ينزل بحسب أسئلتهم والوقائع الواقعة لهم فكانوا إذا نزل شيء من القرآن يتدبرونه ويدققون في معانيه أكثر، أما لو نزل دفعةً واحدةً دون حاجةٍ، فلن ينتبهوا إليه ويتدبروه كما يجب، وحتى رسول الله ﷺ نفسه لم يكن ليعطيه ذات الأهمية التي يعطيها للآيات التي تنزل حسب الحاجة.

٧- لو أُنْزِلَ القرآنُ على محمَّدٍ ﷺ دفعةً واحدةً لانتهت بهذا الإنزال سفارة جبريل وانقطع الوحي، وتوقف الاتصال بعالم الغيب، مما سيؤدي إلى حزن رسول الله ﷺ وغمِّه.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا﴾ أن القرآن أفضل مفسِّر لنفسه، ولا يحتاج إلى كل هذه التفاسير التي كُتِبَتْ.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾﴾ [الفرقان: ٣٥-٣٧].

الفوائد: تكرَّر ذِكْرُ قصص الأمم الماضية في القرآن تسليةً لرسول الله ﷺ وتهديدًا لقومه [بأنهم سوف يلقون ذات المصير الذي لقيه من سبقهم من مُكَذِّبي الرسل].

وقال تعالى عن قوم نوح أنهم ﴿كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ﴾ مع أنهم كذّبوا نوحًا فقط ولم يكذِّبوا رسلاً آخرين، فلماذا أتت كلمة الرسل بالجمع؟ والجواب: أن تكذيب الرسول الواحد بمنزلة تكذيب جميع الرسل، لأنه عندما يُكذِّب الإنسان نبيًّا أتى بالمعجزات والدلائل الواضحة فمن البديهي أنه سيُكذِّب بجميع أمثاله من الأنبياء. ومن الممكن أن يكون الله قد أرسل رسلاً آخرين أيضًا زمن نوح عليه السلام.

﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾ [الفرقان: ٣٨-٤٠].

الفوائد: جاء في القرآن تفصيل كل واحد من الأقوام الذين ذَكَرَتْهُم هذه الآية، إلا أصحاب الرسّ، واختلف الناس في أصحاب الرسِّ وذكروا فيهم أقوالاً:

قال بعضهم: إنهم كانوا قومًا من عبدة الأصنام أصحاب آبار ومواش، فبعث الله تعالى إليهم شعيبًا عليه السلام فدعاهم إلى الإسلام فتمادوا في طغيانهم وفي إيذائه فبينما هم حول الرسِّ خسف الله بهم وبدارهم.

وقال آخرون: هم أصحاب النبيّ حنظلة بن صفوان كانوا مبتلين بالعنقاء، وهي أعظم ما يكون من الطير، سُمِّيَتْ بذلك لطول عنقها، وكانت تسكن جبلهم الذي يقال له فتح، وكانت تنقضُّ على صبيانهم فتخطفهم إن أعوزها الصيد، فدعا عليها حنظلة فأصابتها الصاعقة، ثم إنهم قتلوا حنظلة فأُهْلِكُوا.

وقال بعضهم: هم **أصحاب الأخدود**، المذكورون في سورة البروج، والرس هو الأخدود.

وقال بعضهم: الرسّ بئر بأنطاكية، وأصحاب الرسّ أهل أنطاكية الذين قتلوا **حبيبًا النجّار** ورسُّوه في بئر أي دسُّوه فيها[١].

وَرُوِيَ عَنْ عليٍّ ﷺ أن أصحابَ الرسِّ قومٌ كانت لهم قرى على شاطئ نهرٍ يُقال له: الرسُّ من بلاد المشرق، فبعث الله تعالى إليهم نبيًّا من ولد يهوذا بن يعقوب فكذَّبوه، فلبث فيهم زمنًا فشكا إلى الله تعالى منهم فحفروا بئرًا ورسُّوه فيها وقالوا: نرجو أن يرضى عنا إلهنا، وكانوا قومًا يعبدون شجرة صنوبر يقال لها «شاه درخت» وكان حول تلك الشجرة اثنتا عشرة شجرة أخرى، وإنّما سُمّوا أصحاب الرسّ لأنهم رسّوا نبيهم في الأرض وذلك قبل سليمان بن داود، وكان له اثنتا عشرة قرية على شاطئ نهر يقال له الرس من بلاد المشرق، وبهم سُمّي ذلك النهر، ولم يكن يومئذ في الأرض أغزر منه ولا أعذب، ولا قرى أكثر سكانًا ولا أعمر منها، وقد جعلوا في كل شهر من السنة في كل قرية عيدًا تجتمع إليه أهلها ويضربون على الشجرة التي بها كلّةً من حرير فيها أنواع الصور، ثم يأتون بشياه وبقر فيذبحونها قربانًا للشجرة ويشعلون فيها النيران بالحطب، فإذا سطع دخان تلك الذبائح وقتاره في الهواء، وحال بينهم وبين النظر إلى السماء، خرّوا للشجرة سجّدًا يبكون ويتضرعون إليها أن ترضى عنهم! وكان هناك شخصٌ مُحتالٌ يأتي الشجرة فيحرّك أغصانها ويصيح من ساقها صياح الصبي: إني قد رضيت عنكم يا عبادي فطيبوا نفسًا وقرّوا عينًا! فيرفعون عند ذلك رؤوسهم ويشربون الخمر ويضربون بالمعازف فيكونون على ذلك يومهم وليلتهم، ثم ينصرفون. وكانوا يذهبون على رأس كل شهر إلى شجرة معيَّنة، ويذهبون على رأس السنة إلى الشجرة التي هي أكبر من الكل، والتي كانوا يعتبرون بقية الأشجار فروعًا لها، فكانوا يعتكفون عندها ويقرّبون لها الذبائح أضعاف ما قرّبوا للشجرة التي في قراهم، فيكونون على ذلك اثني عشر يومًا ولياليها بعدد أعيادهم سائر السنة ثم ينصرفون في اليوم

١- هذه الأقوال ذكرها الفخر الرازي في **التفسير الكبير**، ٢٤/ ٨٢، وذكرها أيضًا عددٌ من المفسّرين كالقرطبي في **الجامع لأحكام القرآن**، والثعلبي النيسابوري في **الكشف والبيان** وغيرهم.

الثالث عشر إلى منازلهم. [فلمّا طال كفرهم بالله سبحانه وعبادتهم غيره بعث الله سبحانه إليهم نبيًّا من بني إسرائيل من ولد يهوذا بن يعقوب فلبث فيهم زمانًا طويلاً يدعوهم إلى عبادة الله سبحانه وتعالى ومعرفة ربوبيته فلا يتبعونه].

فلمّا رأى نبيُّهُم شدّةَ تماديهم في الغيِّ والضلال، وتَرْكَهُم قبولَ ما دعاهم إليه من الرشد والصلاح وحضر عند قريتهم العظمى قال: يا ربّ إنّ عبادك أبوا إلاّ أن يكذّبوني ويكفروا بك وغدوا يعبدون شجرة لا تنفع ولا تضر، فأيبسْ شجرهم أجمَع وأرِهم قدرتك وسلطانك، فأصبح القوم وقد يبس شجرهم كلّه، فهالهم ذلك وقطعوا بها وصاروا فرقتين: فرقة قالت: سحر آلهتكم هذا الرجل الذي زعم أنه رسول ربّ السماء والأرض إليكم ليصرف وجوهكم عن آلهتكم إلى إلهه. وفرقة قالت: لا بل غضبت آلهتكم حين رأت هذا الرجل يعيبها ويقع فيها ويدعوكم إلى عبادة غيرها، فحجبت حسنها وبهاءها لكي تغضبوا لها فتنتصروا منه، فأجمع رأيهم على قتله فاتخذوا أنابيب طوالاً من رصاص واسعة الأفواه، ثم أرسلوها في قرار العين إلى أعلى الماء واحدة فوق الأخرى مثل البرابخ، ونزحوا ما فيها من الماء ثم حفروا في قرارها بئرًا ضيقة المدخل عميقة، وأرسلوا فيها نبيّهم وألقموا فاها صخرة عظيمة ثم أخرجوا الأنابيب من الماء وقالوا: نرجو الآن أن ترضى عنّا آلهتنا إذ رأت أنّا قد قتلنا من كان يقع فيها ويصد عن عبادتها ودفنّاه تحت كبيرها يتشفى منه فيعود لها نورها ونضرتها كما كان، فبقوا عامة يومهم يسمعون أنين نبيّهم عليه السلام وهو يقول: سيّدي قد ترى ضيق مكاني وشدّة كربي فارحم ضعف ركني وقلة حيلتي، وعجّل قبض روحي ولا تؤخّر إجابة دعوتي حتى مات عليه السلام.

فقال الله تعالى لجبريل: إنّ عبادي هؤلاء غرّهم حلمي وأمنوا مكري وعبدوا غيري وقتلوا رسولي، وأنا المنتقم ممّن عصاني ولم يخش عقابي، وإنّي حلفت لأجعلنهم عبرة ونكالاً للعالمين، فلم يرعهم وهم في عيدهم إلاّ ريح عاصف شديدة الحمرة قد عروا عنها وتحيروا فيها، وانضم بعضهم إلى بعض ثم صارت الأرض من تحتهم حجر كبريت تتوقد وأظلّتهم سحابة سوداء فألقت عليهم كالقبّة حمراء تلتهب فذابت أبدانهم كما يذوب الرصاص في النار **نَعُوذ بالله من**

غضبه ودرك نقمته[١].

وروى ابن جرير – كما قال «الفخر الرازي» [في التفسير الكبير] – عن رسول الله ﷺ: أن الله بعث نبيًا إلى أهل قرية فلم يؤمن به من أهلها أحد إلا عبدٌ أسودٌ، ثم عدوا على الرسول فحفروا له بئرًا فألقوه فيها، ثم أطبقوا عليه حجرًا ضخمًا، وكان ذلك العبد يحتطب فيشتري له طعامًا وشرابًا ويرفع الصخرة ويدليه إليه، فكان ذلك ما شاء الله. فاحتطب يومًا فلمّا أراد أن يحملها وجد نومًا فاضطجع فضرب الله على أذنه مُدَّةً، ثم هبَّ فحمل حزمته فظن أنه نام ساعة من نهار فجاء إلى القرية فباع حزمته واشترى طعامًا وشرابًا وذهب إلى الحفرة فلم يجد أحدًا، وكان قومه قد استخرجوه وآمنوا به وصدقوه، وكان ذلك النبي يسألهم عن الأسود، فيقولون: لا ندري حاله حتى قبضَ اللّهُ النبيَّ وقبض ذلك الأسودَ، فقال رسول الله ﷺ: «إن ذلك الأسود لأول من يدخل الجنة»[٢].

ولكن القرآن لم يذكر أيًّا من تلك التفاصيل والقصص حول أصحاب الرسّ، فليس من المعلوم أيها صحيح.

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤١-٤٤].

الفوائد: تدلُّ جُمْلَةُ: ﴿لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ على شدَّة المقاومة التي كان يبديها أهل

١- أصل هذه القصة بطولها ذكرها الثعلبي النيسابوري في تفسيره: **الكشف والبيان**، ٧/ ١٣٥ – ١٣٦، وقد اختصر منها المؤلف وتصرف في بعض ألفاظها تصرفًا يسيرًا.

٢- هذه القصة رواها ابن جرير الطبري في تفسيره **جامع البيان**، ١٩/ ٢٧١، ونقلها عنه الفخر الرازي في **التفسير الكبير**، ٢٤/ ٨٣. وذكرها عديد من المفسرين أيضًا. وقد اختصرها المؤلف.

الباطل للحق وتعصُّبهم الجاهل ضدَّه.

والـمُرَادُ مِنْ جُمْلَةِ: ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ أنك لست مكلَّفًا بحفظهم أو حمايتهم أو طلب الخير لهم، بل دعهم وشأنهم.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أن الإنسان الضالّ الذي لم يتَّبع العقل بل اتَّبع هوى نفسه ورغباتها وعطَّل عقله عن العمل، هو أسوأ من الحيوانات التي لا عقل لها، لأن الحيوانات لم تكفر بنعمة العقل. رُوِيَ عَنْ رسول الله ﷺ قوله: «**اسْتَرْشِدُوا الْعَقْلَ تُرْشَدُوا، وَلَا تَعْصُوهُ فَتَنْدَمُوا**»[1].

وأيًّا كان الأمر، فإن الإنسان الـمُتَّقِي يجعل هوى نفسه تابعًا لأمر الله، ويرجِّحُ العقل على الهوى، لأن هوى النفس يقود الإنسان إلى الدنيا الـمؤقتة الزائلة خلافًا للعقل.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾ [الفرقان: ٤٥-٤٨].

الفوائد: إحدى النعم الإلهية الكبرى التي يستفيد منها معظم سكان الأرض نعمة الظل،

١- الشيخ أبو جعفر الطوسي، **الأمالي**، ص ١٥٣، بسنده عن أبي هريرة. ونقله عنه الـمجلسي في **بحار الأنوار**، ١/ ٩٦. وأما في مصادر أهل السنة فقد رُوِيَ بلفظ: «اِسْتَرْشِدُوا العاقِلَ تَرْشُدُوا وَلا تَعْصُوهُ فَتَنْدَمُوا»، أخرجه الخطيب البغدادي في كتابه «**الرواة عن مالك بن أنس**»، كما في «**الـمداوي لعلل الجامع الصغير وشرحي الـمناوي**»، للحافظ أحمد الصديق الغماري (١/ ٥٢٣، رقم ٩٧٥) وحكم الغماري بأنه مكذوبٌ موضوعٌ. وأخرجه أيضًا: القاضي القضاعي في «**مسند الشهاب**»، تحقيق حمدي عبد الـمجيد السلفي، (١/ ٤١٩، رقم ٧٢٢) وحكم الـمحقق بأنه منكرٌ موضوعٌ. وأخرجه **الحارث بن أبي أسامة في مسنده**، (١/ ٣١٧) كما في «**الـمطالب العالية بزوائد الـمسانيد الثمانية لابن حجر**» (١٢/ ١٠٦، رقم ٢٧٧٨)، وذكره ابن عراق في «**تنزيه الشريعة الـمرفوعة عن الأحاديث الشنيعة الـموضوعة**» (١/ ٢١٥، رقم ١٥) فحكم بأنه مُنْكَر، وكذا حكم عليه الحافظ أحمد الصديق الغماري في «**الـمغير على الأحاديث الـموضوعة في الجامع الصغير**» (ص ٢٠) بالوَضْع.

والظل كيفية بين النور والظلام، فليس هو نورًا خالصًا ولا ظلمةً خالصةً، مثل الظل الذي يكون للأشياء منذ الفجر وإلى طلوع الشمس ومثل الظل تحت الأسقف وإلى جانب الجدران، وطبيعة الإنسان تنفر من النور المحض والظلام المحض وتميل إلى الظل لأن النور الخالص يُفقد العينَ نورَ الرؤيةِ ويُنشئ حرارةً مفرطةً مؤذية. ولذلك قال تعالى في وصف الجنَّة: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ۝٣٠﴾ [الواقعة: ٣٠]. وهذا الظل وُجد ببركة الشمس وظهر نفعه، فالشمس دليل على وجوده ونفعه. وعندما تميل الشمس نحو الغروب يتناقص الظل شيئًا فشيئًا حتى يزول نهائيًا أي يقبضه الله.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿مَآءً طَهُورًا﴾ على طهارة المطر وسائر المياه وقد شرحنا ذلك في كتابنا «**أحكام القرآن**».

﴿لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا۝٤٩ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا۝٥٠ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا۝٥١ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا۝٥٢﴾ [الفرقان: ٤٩-٥٢].

الفوائد: لماذا قال: ﴿أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾؟ لأن حاجة الأنعام للماء أكثر من حاجة الطيور، وكلمة: ﴿كَثِيرًا﴾ لأن كثيرًا من البلاد والقرى تشرب من ماء غير المطر. وضمير ﴿صَرَّفْنَٰهُ﴾ قد يعود على المطر ويُراد منه أننا نُحوِّل المطر بينهم، فمرّةً نُرسله إلى قوم ومنطقة ومرّةً إلى قوم ومنطقة أخرى كي يشرب منه الجميع ويرتووا من عطشهم وأحيانًا نُنقصه وأحيانًا نزيده لبعض الأقوام بسبب كفرانهم وعصيانهم، كما قال رسول الله ﷺ: «**ما من عام بأمطر من عام، ولكن إذا عمل قوم بالمعاصي حوَّلَ اللهُ ذلك إلى غيرهم، فإذا عصوا جميعاً صَرَفَ اللهُ ذلك إلى الفيافي...**»[1].

١- الكُلَيْنِيّ، **الكافي**، ٢/ ٢٧٢، وروى المجلسي، **بحار الأنوار**، ٧٠/ ٣٢٩. أما في مصادر أهل السنة فلم أجده بهذه اللفظ، والمروي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «مَا مِنْ عَامٍ بِأَقَلَّ مَطَرًا مِنْ عَامٍ وَلَكِنَّ اللهَ يَصْرِفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُواْ﴾ الْآيَةَ». أخرجه الحاكم في **المستدرك**، ٢/ ٤٠٣، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه». انتهى. وقال الذهبي في التلخيص: على شرط البخاري ومسلم. ورواه العُقَيلي في الضعفاء وأبو نعيم في الحلية عن عبد الله بن مسعود مرفوعًا. وحديث ابن عباس هذا نقله المجلسي في **بحار الأنوار**، ٥٦/ ٣٨٧.

ومن الممكن أن يعود ضمير ﴿صَرَّفۡنَٰهُ﴾ على كلام الله، أي أننا بيَّنَّا للناس هذا الكلام وهذه الآيات كي يتَّعظوا ولكن أكثر الناس يكفرون إلى الحدّ الذي يجعل بعضهم ينسب نزول المطر إلى قرب النجوم وبُعْدها.

ويُمكن أن يعود ضمير «بِهِ» في جملة: ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ على القرآن أو يعود على كلام الله أو يعود على عدم طاعة الكفار الذي كان نوعًا من الجهاد في مكة المكرمة.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ٥٣ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا فَجَعَلَهُۥ نَسَبٗا وَصِهۡرٗاۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرٗا ٥٤﴾ [الفرقان: ٥٣-٥٤].

الفوائد: من عجائب قدرة الله أنه جعل البحار أنواعًا وأقسامًا، فهناك البحر المالح والبحر العذب، وهذا على نحو نسبي بالطبع، وهناك بحر أبيض وأحيانًا بحر أسود. وقد مرج الله بين البحرين وفي الوقت ذاته بقي ماء كل منهما على حاله لم يختلط وجعل بين البحرين سدًّا أحد طرفيه ماء مالح وفي الطرف الآخر ماء عذب، وهذا شأن الطبيعة. ومن عجائب قدرته خلق أنواع البشر من المنيّ.

﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرٗا ٥٥ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٥٦ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ٥٧ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ٥٨﴾ [الفرقان: ٥٥-٥٨].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرٗا﴾ أن أهل الباطل يُدافعون عن آلهتهم الباطلة وينصرون أربابهم الفاسدين ويُثنون عليهم ويُمجِّدونهم ويمدحونهم، أما الله تعالى فلا حاجة له إلى مثل هذه الأمور.

وهذه الآية إحدى الآيات الدالة على أنه لا يجوز دعاء الأنْبياء والأولياء ومناداتهم أو التزلّف إليهم بالمدائح والإطراء، لأن الأنْبياء والأولياء لا يملكون – بعد وفاتهم – لأحد نفعًا ولا

ضرًّا ودعاؤهم ومناداتهم بعد وفاتهم نوع من العبادة لهم. وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٥٦﴾ أن الأَنْبياء لم يكن لهم أي منصب سوى منصب التبشير والإنذار، أي لم يكن لهم ولاية تكوينية ولم يكونوا مأمورين أن يُدخلوا الناس في الإسلام بالقوة والإكراه، ولم يكن هدفهم من الرسالة الوصول إلى الحكم! كما أشرنا إلى هذا الأمر في الآية ٥٥ من سورة النور. وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ أنَّ كلَّ حيٍّ يموت حتى الأَنْبياء والأولياء، والله وحده هو الحي الذي لا يموت.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ أن الله وحده فقط هو المطّلع على ذنوب عباده. فما جاء في بعض الروايات من أن أعمال العباد تُعرض على الرسول والإمام أو أنهم يطّلعون على أعمال الناس، كلُّهُ مخالفٌ لهذه الآية وَمِنْ ثَمَّ فهي روايات وأحاديث باطلة موضوعة.

﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا ٥٩ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْۤ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا۩ ٦٠﴾ [الفرقان: ٥٩-٦٠].

الفوائد: ليس المقصود من ستة أيام تلك الأيام التي نعرفها في الدُّنْيا (٢٤ ساعة) بل المقصود ست فترات زمنية، فكلمة «اليوم» لا يقتصر استخدامها على معنى اليوم الذي يبدأ من طلوع الشمس وينتهي بغروبه بل تُستخدم بمعنى مطلق الزمان كما قال عليٌّ عليه السلام: «**وَالدَّهْرُ يَوْمَانِ؛ يَوْمٌ لَكَ ويَوْمٌ عَلَيْك**»[1]. أو كما جاء في الحديث: «**وَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلا حِسَاب، وَغَداً حِسَابٌ وَلاَ عَمَلَ**»[2].إذ من البديهي أنه لا يُقصد من اليوم في مثل هذه الجمل ما يُقابل الليل بل

١- **نهج البلاغة** بشرح الشيخ محمد عبده، باب الحكم، الحكمة ٣٩٦.

٢- البيهقي، **شعب الإيمان**، تحقيق بسيوني زغلول، موقوفًا على علي بن أبي طالب أنه خطب به في الكوفة، (٧/ ٣٦٩، رقم ١٠٦١٤ و١٠٦١٥)، وعن جابر مرفوعًا (٧/ ٣٧٠، رقم ١٠٦١٦) لكن البيهقي ضعَّف الرواية المرفوعة. ورواه ابن النجار (ت ٦٤٣هـ)، «**ذيل تاريخ بغداد**» عن جابر مرفوعًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

الكلمة التي تدل على اليوم الذي يُقابل الليل هي «النهار». والدليل الآخر أنه قبل أن تُخلق السماوات والأرض وحين خلقها لم يكن هناك ليل ولا نهار بل نشأ الليل والنهار نتيجةً لدوران المنظومة الشمسية، اللهم إلا أن نقول: إن الخلق الذي تمّ في الأعالي تمّ في مدة مساوية للأيام الستة التي تحدُث نتيجةً للنظام الشمسي.

وَالمُرَاد مِنْ: ﴿ٱلْعَرْشِ﴾ كل ما سوى الله، أي العالم[1]. وذكر المُفسِّرون عدة احتمالات لضمير: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ أحدها أن المقصود من الخبير هو الله وأن ضمير «بِهِ» يعود على الخبير، أو يعود على كيفية الخلق كما ترجمنا به الآية.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان: ٦١-٦٢].

الفوائد: كلمة: «**بُرُوج**» جمع برج، والمقصود منه هيئات الكواكب التي تُشبه البرج والقلعة، وتظهر من بعيد في الليالي المظلمة. فعدد من الكواكب يظهر على شكل حَمَل، ومجموعة أخرى تظهر على شكل ثور، وهكذا حتى اثني عشر برجًا هي: الحمل، الثور، الجوزاء، السرطان، الأسد، السنبلة، الميزان، العقرب، القوس، الجدي، الدلو، والحوت. وتسير الشمس خلال الدورة السنوية بمُحاذاة هذه الكواكب والبروج، فتُحاذي كلَّ شهر واحدًا من تلك البروج. والقمر أيضًا يدور مُحاذيًا لهذه البروج، ولكن القمر يقطع هذه البروج جميعَها في شهر واحد. وهذه البروج منازل لكواكب الزُّحل والمشتري والمرِّيخ والزُّهرة وعُطارد. وَالمَقْصود مِنْ: ﴿خِلْفَةً﴾ أن الليل والنهار كل منهما يحل مكان الآخر ويخلفه، فمن أراد أن يشكر الله أو يعبده ولم يستطع فعل ذلك في الليل، أمكنه أن يُعوّض ذلك في النهار، وإن لم يستطع في النهار فيُمكنه

ورواه ابن عساكر، **تاريخ دمشق**» (٤٢/ ٤٩٤) موقوفًا على علي بن أبي طالب. وفيه يحيى بن مسلمة بن قعنب، قال العقيلي: حدَّث بالمناكير. ورواه الشريف الرضي **في نهج البلاغة** عن علي ﵇، الخطبة ٤٢.

١- بل المراد العرش حقيقة، وهو عرش الرحمن ﷻ. انظر تعليق المُصحح في هامش تفسير الآية الأخيرة من سورة التوبة. [المُصحح]

أن يُعوّض ذلك في الليل. وهذا هو الـمُرَادُ مِنْ جُمْلَةِ: ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾.
واستفاد بعض الفقهاء من هذه الآية حكم قضاء العبادات في اليوم والليلة.

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان: ٦٣-٦٧].

الفوائد: إضافة ﴿عِبَادُ﴾ إلى ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ إضافة نسبة واختصاص، يعنى العباد الـمشمولين برحمة الله وعنايته هذه صفاتهم.

وَالـمَقْصود مِنْ: ﴿خَاطَبَهُمُ﴾ خطاب العتاب الـمشوب بالتحقير إذ يجب على الـمؤمن أن يقول ردًّا على مثل هذا الخطاب: سلام عليك! ويمرُّ على ذلك مرور الكرام حرصًا على سلامة الطرفين. إذن من صفات عباد الرحمن ترك الأذى للآخرين وتحمل الأذى منهم. رُوي عن رسول الله ﷺ قوله: «**إِنَّ الشَّدِيدَ لَيْسَ مَنْ غَلَبَ الرِّجَالَ، وَلَكِنَّ الشَّدِيدَ مَنْ غَلَبَ نَفْسَهُ**»[1].
ورُوي عنه أيضًا قوله: «**بُعثت بمكارم الأخلاق ومحاسنها**»[2].

ومن صفات عباد الرحمن الأخرى الاستيقاظ في الليل لأجل السجود والقيام لعبادة الله وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾.

و «**غَرَامًا**» تعني الدَّيْن اللازم، أي أنه لما أنفق العباد الفاسقون نِعم الله واستفادوا منها ولم يُؤَدُّوا حقَّها فإن الدَّيْن الذي يلزمهم ولا يُفارقهم هو عذاب جهنم.

١- النسائي، **السنن الكبرى** (١٠٢٢٩). وأخرجه هناد في **الزهد**، ٢/ ٦٠٨، (١٣٠٢)، والبيهقي في **الزهد**، ٢/ ١٦٤، (٣٧٠).

٢- أخرج نحوه الإمام مالك بن أنس (ت ١٧٩هـ)، **الـموطَّأ**، ٢/ ٩٠٤، بلفظ: «بُعِثْتُ لأتَمِّمَ حُسْنَ الأَخْلاقِ»، وذكر محقِّقه نقلاً عن ابن عبد البرّ قوله: «هو حديث مدني صحيح متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره». وأخرجه البيهقي، **السنن الكبرى**، ١٠/ ١٩٢، بلفظ: «بُعِثْتُ لأتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاقِ».

وقد تمثَّل أصحاب رسول الله ﷺ بجملة: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ لذا لم يكونوا يأكلون الطعام لأجل اللذة ولكنهم يأكلون بقدر سدّ جوعهم وليكون أكلهم مُعينًا لهم على طاعة الله، وهكذا الأمر في اللباس والمسكن. فعلى المسلمين أن يكونوا وسطيين ويبتعدوا عن الإفراط والتفريط لأن الإسلام يُريد لهم سعادة الدُّنْيَا والآخرة. وقد قال رسول الله ﷺ: «**إني قد جئتكم بخير الدُّنْيَا وَالآخرة**»[1]. وعلى كل حال، هذه الآيات الواضحة كل الوضوح في الأصول الأخلاقية تُغنينا عن الإتيان بأي كلام بشري في هذا الباب.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾ [الفرقان: ٦٨-٧١].

الفوائد: هذه الآية إحدى الآيات التي نهى الله فيها عن الشرك في الدعاء وقال: إن عباد الرحمن هم الذين لا يدعون أحدًا سوى الله ولا يُشركون أحدًا مع الله في الدعاء.

وَالـمَقْصود مِنْ: ﴿يُضَٰعَفْ﴾ العذاب الـمضاعف بسبب العقيدة والعمل، بدليل الآية التالية التي قال تعالى فيها: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ وهذه الآية دليل على أن الكفار معاقبون في الآخرة على عدم عملهم بالفروع كما سيُعاقبون على تركهم الأصول.

وجملة: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا....﴾ ليست تكرارًا بل هي بيان لماهية التوبة. وتبديل السيئات إلى حسنات يُمكن أن يحصل بعدة صور:

الأول: تبديل العقاب إلى ثواب، والفاعل الحقيقي لذلك هو الله.

الثاني: التبديل في الدُّنْيَا الذي يُوفِّق اللَّهُ العبدَ إليه بعد توبته، فيقوم العبدُ بالأعمال الصالحة

١- أخرجه ابن إسحاق في **السيرة**، ٢/ ١٢٦، (١٨٩)، والطبري، **جامع البيان**، ١٩/ ١٢١ بلفظ: «يا بَنِي عَبْدِ المُطَّلِبِ، إنِّي واللهِ ما أَعْلَمُ شابًا فِي العَرَبِ جاءَ قَوْمَهُ بأَفْضَلَ ممَّا جئْتُكُمْ بِهِ، إنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِخَيْرِ الدُّنْيَا والآخِرَةِ.... الحديث».

بدلاً من الأعمال السيِّئة التي كان يرتكبها، فبدلاً من الشرك الإيمان، وبدلاً من قتل المؤمن قتل الكافر، وبدلاً من الكذب الصدق وهكذا.

الثالث: محو السيئات وكتابة الحسنات مكانها في حال الإيمان والعمل.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ٧٢ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ٧٣ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ٧٤ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ٧٥ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ٧٦ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ٧٧﴾ [الفرقان: ٧٢-٧٧].

الفوائد: شهادة الزور هي: الشهادة الكاذبة على أمر لم يره الإنسان ولم يشهده ولم يسمعه، كقول الذي يقف أمام قبور عباد الله الصالحين فيقول لهم: «**أشهد أنك ترى مقامي وتسمع كلامي وتردُّ جوابي**» مع أنه لم يسمع جوابًا من القبر ولم يرَ ذلك العبد الصالح. ومن الممكن أن يكون المراد من جملة: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ أن لا يحضر المؤمن في مجالس الكذب على الله ورسوله ﷺ كأكثر المجالس الدينية في زمننا. وَالمَقْصود مِنْ: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ أنهم لا يهتمون باللهو واللغو وسفاسف الأمور والأعمال التي يُمكن تركها. وإذا لم يكن لديهم القدرة على النهي عن المنكر فيمرّون على مثل تلك الأعمال مرور الكرام دون أن يُولوها أي اهتمام.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ أن على عباد الرحمن أن يكون هدفهم في الحياة هدفًا ساميًا وطموحهم نحو الأمور العالية، وعليهم أن يُزيِّنوا أنفسهم وسلوكهم بالصفات المذكورة في هذه الآيات كي يكونوا أئمةً للمتقين. فكل مسلم يستطيع أن يُوصل نفسه إلى مقام إمامة المتقين وليس أمر الإمامة مقتصرًا على اثني عشر نفرًا! والحقيقة أن هذه الآية ردّ على الذين يحصرون الإمامة باثني عشر إمامًا أو بستة أئمة أو أقل أو أكثر، ويعتبرون ذلك من أصول الدين، هذا مع أننا لا نجد ذكرًا في القرآن لمثل هذه الإمامة المزعومة التي يُقال إنها أصل الدين!

فكل إمام تابع للدين وليس أصل الدين ولا فرعه. وبناءً على ما تقدم يجب على كل مؤمن متدين أن يسعى لإحراز مقام الإمامة وأن يطلبه من الله، كما ذكر ذلك الحق تعالى في هذه الآية، لا أن يكفّ عن العلم والعمل ويشغل نفسه على الدوام بمدح الأئمة. فإن قيل: لقد قال رسول الله ﷺ: إن الأئمة بعدي اثنا عشر إمامًا؟ فالجواب: إن رسول الله ﷺ لم ينطق أبدًا بمثل هذا الكلام الذي يُخالف القرآن بل هو من اختراع [بعض] الشيعة ووضعهم. وإن أراد شخصٌ أن يفهم أن روايات الإمامة كلها موضوعة فعليه أن يرجع إلى الكتب التي كُتبت في هذا الباب لاسيما أن الشيعة يعتبرون الإمامة من أصول الدين، وأصول الدين أو المذهب لا يجوز التقليد فيها بل لا بدّ على كل إنسان أن يُحقّق فيها بنفسه ولا يقنع بمُجرَّد نقل كلام فلان وفلان.

سورة الشعراء

مكيّة وهي مئتان وسبع وعشرون آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ٤ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ ٥ فَقَدۡ كَذَّبُواْ فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٦﴾ [الشعراء: ١-٦].

الفوائد: لما ابتدأت هذه السورة بمدح القرآن وتمجيده وتعظيمه جاءت حروف الهجاء المقطعة في بدايتها كأنها تقول: إن القرآن مؤلف من هذه الحروف ذاتها التي بين أيديكم فأتوا بمثل القرآن إن استطعتم.

وَتَدُلُّ عبارة: ﴿ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ على وضوح القرآن وأن آياته قابلة للفهم.

كان رسول الله ﷺ يتأسف على حال الـمُشْرِكين إلى الحدّ الذي كاد أن يُهلك نفسه ويُضحِّي بها في سبيل هدايتهم؛ فأنبأه الله أنه لو أراد لأنزل عليهم صاعقةً أو شيئًا آخر أجبرهم فيه على الهداية، ولكن هدايتنا ليست بالجبر والإكراه، فلا تتأسف عليهم ولا تُتْلِفْ نفسك لأجل هدايتهم.

وتدلُّ كلمة: ﴿مُّحۡدَثٍ﴾ على أن القرآن حادث وليس قديمًا. وَالـمَقْصود مِنْ جملة: ﴿فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِ....﴾ سيأتيهم نتائج الأنباء.

﴿أَوَ لَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ٧ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٩ وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَۚ أَلَا يَتَّقُونَ ١١ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ١٢ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ ١٣ وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ١٤﴾ [الشعراء: ٧-١٤].

الفوائد: تدلُّ عبارة: ﴿زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾ على أن النباتات أزواجٌ: ذكر وأنثى. وهذه من المعجزات العلمية للقرآن الكريم.

وتدل صفة: ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ أن الله غالب دائمًا على كل شيء وقاهر لكل شيء ولا يُقهر أبدًا بأي قوة أخرى كما قيل: «**العزيز الذي يقهَر ولا يُقهَر**».

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿وَيَضِيقُ صَدۡرِي﴾ على أن على مُبلِّغ الدين أن يتمتَّع بالحلم وطول الأناة وانشراح الصدر لأن قلة الصبر تؤدي إلى الضغط على النفس وتلعثم اللسان، وَمِنْ ثَمَّ العجز عن التبليغ. والمقصود من جملة: ﴿وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ﴾ قَتْلُ خبَّازِ فِرعون، الذي كان موسى قد قتله في مصر ثم فرّ هاربًا.

﴿قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ ١٥ فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦ أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٧ قَالَ أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا وَلَبِثۡتَ فِينَا مِنۡ عُمُرِكَ سِنِينَ ١٨ وَفَعَلۡتَ فَعۡلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلۡتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩ قَالَ فَعَلۡتُهَآ إِذٗا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ٢٠ فَفَرَرۡتُ مِنكُمۡ لَمَّا خِفۡتُكُمۡ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكۡمٗا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢١﴾ [الشعراء: ١٥-٢١].

الفوائد: لما كان موسى عليه السلام يخاف من حكومة الظَّلَمَة أراد اللَّهُ تعالى بجملة: ﴿كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ﴾ أن يُقوّي قلبه وأن يُفهمه أنك ستكون في ظل عناية الله وحفظه وحراسته، لأن المعيَّة هنا ليست معيَّةً تكوينيةً بل معيَّة لطف وعناية.

واختلف المُفسِّرون في المُراد من جملة: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ فقال كلٌّ منهم شيئًا

لا يتناسب مع ظاهر الآية. فأحدهم قال: إنني ضللت الطريق. وقال آخر: إن المقصود أنني كنت غافلاً عندما لكمت شخصًا فقتلته. ولكن ظاهر الآية هي: أنني لم أكن مهتديًا إلى الدين الحقّ وكنت من الضالين.

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ۝٢٢ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ۝٢٣ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ۝٢٤ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ۝٢٥ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ۝٢٦ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ۝٢٧ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ۝٢٨﴾ [الشعراء: ٢٢-٢٨].

الفوائد: لما قال فِرعون لموسى: إننا ربيناك ورعيناك سنين طويلة حتى كبرت، أجاب موسى بقوله: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ۝٢٢﴾؟! أي قال: إن هذه النِّعمة والخدمة التي تمنُّ بها عليَّ ليست صحيحةً لأنك جعلت من بني إسرائيل عبيدًا لك وعذَّبتهم حتى اضطروا إلى إلقاء طفلهم في ماء النهر كي يقع بين يديك ويتربّى تحت كنفك.

وهل أراد فِرعون من قوله: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أن يسأل عن حقيقة الله وماهيَّته أم أراد السخرية؟ الوجهان محتملان. هذا ولما كانت حقيقة ذات الحق تعالى غير قابلة للإدراك والإحاطة العلمية بها أجابه موسى عليه السلام: إن ربّ العالمين يُعرف من آثار خَلْقِه. وعلى كل حال، فقد كان جيدًا قيام فِرعون بالسؤال والتحقُّق من كلام موسى وليس كما يفعل بعض أفراد زماننا الذين يُقْدِمُون فورًا على السبّ والشتم! ولما لم يكن جواب موسى عليه السلام مطابقًا لسؤال فِرعون، قال فِرعون لمن حوله: اسمعوا كيف يُجيب هذا الرجل جوابًا لا علاقة له بسؤالي. واستدل موسى عليه السلام أولاً بخلق السماوات والأرض، وبما أنه كان من الممكن أن لا يقبلوا بهذا الدليل ويعتبروا السماوات والأرض قديمة، استدل موسى بوجودهم ووجود آبائهم حيث إنهم حادثون فيحتاجون إلى مُحْدِثٍ. ولما نسب فِرعون الجنون إلى موسى استدل موسى عليه السلام بالنظم والتدبير السائدين في جهات المشرق والمغرب وَدَوَرَان العالم.

﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ۝٢٩ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ۝٣٠ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٣١ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝٣٢ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ۝٣٣﴾ [الشعراء: ٢٩-٣٣].

الفوائد: كلُّ مَنْ لا يملك جوابًا منطقيًا يُبادر إلى السبّ والشتم أو التهديد، كشأن معظم المتلبسين زورًا بلباس التقوى من علماء السوء في زماننا. لذلك ابتدأ فِرعون بتوجيه الإهانة إلى موسى ووصمه بالجنون ثم هدده بالحبس ولكنه لما رأى معجزات موسى خاف وامتنع عن حبسه.

﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝٣٤ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ۝٣٥ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٣٦ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ۝٣٧ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝٣٨ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ۝٣٩ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝٤٠ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝٤١ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٤٢﴾ [الشعراء: ٣٤-٤٢].

الفوائد: في هذه الآيات يُبيِّن الحق تعالى أن فِرعون قام بإثارة الناس ضدَّ موسى: **أولاً**: بأنه ساحر عليم. **ثانيًا**: بأنه يُريد أن يأخذ منكم ملككم ويستولي على ثروتكم.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ أن سحرة قصر فِرعون نهضوا ولم يكن هدفهم إحقاق الحق وإبطال الباطل في حين أن العالـم يجب أن يكون ساعيًا لخير الناس ويجب أن يوقظ الـمجتمع من غفلته.

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ۝٤٣ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ۝٤٤ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۝٤٥ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝٤٦ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝٤٨ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٩ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝٥٠ إِنَّا

نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴿٥١﴾﴾ [الشعراء: ٤٣-٥١].

الفوائد: قام السحرة بوصل آلاف العِصي والحبال بعضها ببعض ودهنوها بالزئبق الذي يتمدد بحرارة الشمس وألقوا الرعب في قلوب الناظرين، ولكنهم لما شاهدوا الحق آمنوا جميعًا ولم يخافوا من قَتْل فِرعون لهم. ولكنّنا نرى في زماننا أن الأشخاص الذين كانوا يظنون أنفسهم عبيدًا لِلّهِ منذ سنوات طويلة، يكفُّون عن عبادة الله بأقل مقدار من الضغط والخوف، بل إن علماء ديننا لا يُبرزون حقائق الدين خشيةً من العوام ولا يُبَيِّنون التوحيد الحقيقي كي يكسبوا الشهرة ويستفيدوا من منصبهم، من هنا قال رسول الله ﷺ: «**صِنْفَانِ مِنَ أُمَّتِي إِذَا صَلَحَا صَلَحَ النَّاسُ وَإِذَا فَسَدَا فَسَدَ النَّاسُ: الْعُلَمَاءُ وَالأُمَرَاءُ**»[1].

﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴿٥٢﴾ فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴿٥٦﴾ فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴿٥٩﴾ فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ﴿٦٠﴾﴾ [الشعراء: ٥٢-٦٠].

الفوائد: تَقَرَّرَ أن يَفِرَّ موسى وأصحابه ليلاً لأن الليل ستار للإنسان يُخفي تحرُّكه عن العدوّ. ثم أخبر موسى قومه أنه عندما تحين الليلة التي يطلع فيها القمر عليهم أن يخرجوا جميعًا ويجتمعوا في مكان معيَّن يقع على طرف شرق مصر؛ فخرج بنو إسرائيل كما قال لهم موسى، وكانوا جماعةً كبيرةً للغاية.

وَيُمكن أن يكون الـمَقْصود مِنْ جُمْلَة: ﴿فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ﴿٦٠﴾﴾ أن فِرعون تعقَّب موسى ومن تبعه وأن بني إسرائيل كانوا جماعةً كثيرة العدد تحركوا نحو الـمشرق فكلمة «**مُشْرِقِينَ**» حال لضمير الفاعل.

١- الديلمي، **الفردوس بمأثور الخطاب**، (٣٧٨٤)، وأبو نعيم، **حلية الأولياء**، كلاهما عن ابن عباس، ورمز له السيوطي في **الجامع الصغير** (٥٠٤٧) بالضعف. بل حكم الألباني في **ضعيف الجامع الصغير وزيادته** (٣٤٩٥) بأنه موضوع.

﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ٦١ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٦٢ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ٦٣ وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ٦٤ وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ٦٥ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ٦٦ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ٦٧ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٦٨﴾ [الشعراء: ٦١-٦٨].

الفوائد: لما كان جيش فِرعون يفوق في عدده جماعة موسى وأصحابه بعدة أضعاف، خاف موسى وأراد قومه منه أن يُدبِّر لهم حلاً ينقذهم، فخاطب اللَّهُ تعالى موسى عليه السلام أن اضرب بعصاك البحر، فلما ضرب موسى البحر بعصاه انشقّ الماء بقدرة الله وظهر قاع البحر ليعبر فيه موسى وأصحابه، ولما خرج موسى من البحر دخل إليه جيش فِرعون فإذا بالماء يُحيط به وبجنوده ويغرقون جميعًا. وكانت تلك معجزة وقدرة إلهية كما ذكَّرهم الله بذلك بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ﴾.

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ٧٠ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ٧١ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ٧٢ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ٧٣ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ٧٤ قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ٧٥ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ٧٦ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٧ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ٧٨ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ٨٠ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ٨١ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ٨٢﴾ [الشعراء: ٦٩-٨٢].

الفوائد: تَدُلُّ جُمْلَةُ: أن عُبَّاد الأصنام كانوا يفتخرون بعملهم. كما تَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ﴾ أن دعاءهم غير الله جرَّهُم نحو الشرك، ولم يكن دليلهم على هذا الدعاء إلا فعل آبائهم، وهذا يُماثل افتخار أهل البِدعة والخرافات في زماننا بأباطيلهم واستدلالهم على صحة بِدَعهم بعمل آبائهم وأسلافهم بها.

ومن لطائف الآية أن إبراهيم في قوله: ﴿خَلَقَنِي﴾ و ﴿يَهۡدِينِ﴾ و ﴿يُطۡعِمُنِي﴾ نسب هذه

الأفعال إلى الله، ولكنه نسب المرض إلى نفسه فقال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾ [ولم يقل إذا أمرضني].
وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ أن الشافي الحقيقي هو الله وحده فقط ولذلك كان الأنبياء أنفسهم يطلبون الشفاء من الله.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ أن الغفران الإلهي ليس هدفه انتفاع الحضرة الأحدية بل هو لمنفعة العبد فحسب.

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْأٓخِرِينَ ﴿٨٤﴾
وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ
يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ
ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن
دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ
إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ
نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا
صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ [الشعراء: ٨٣-١٠٤].

الفوائد: تدلُّ جُمْلَةُ: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أن للعباد الصالحين مقامًا عظيمًا عند الله إلى درجة أن إبراهيم عليه السلام طلب من الله أن يُلحقه بهم.

وَالمُرَادُ مِنْ جُمْلَةِ: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْأٓخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ اجعل لي اسمًا مباركًا وسمعةً حسنةً لدى الآتين في المستقبل وأن أكون نبراسًا لهم وأُسوةً، وقد استجاب الله دعاء إبراهيم وصار اسمه اسمًا مباركًا ومحبوبًا لدى أُمم اليهود والنصارى والإسلام والجميع يهتم به ويأتم به.
واخترع بعض الخرافيين دعاءً باسم دعاء الندبة وتلاعب فيه بهذه الآية فقال: «**وَبَعْضٌ اتَّخَذْتَهُ لِنَفْسِكَ خَلِيلًا وَسَأَلَكَ لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرَةِ فَأَجَبْتَهُ وَجَعَلْتَ ذَلِكَ عَلِيّاً...**»[1]. أي أن إبراهيم

١- المجلسيّ، **بحار الأنوار**، ٩٩/ ١٠٥.

سألك لسان صدق بين الآتِينَ في المستقبل فأجبت دعاءه وجعلت عليّ بن أبي طالب لسان الصدق ذاك! لقد دفع حُبُّ هؤلاء لعليّ بن أبي طالب عليه السلام إلى تلاعبهم بمعاني كتاب الله.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾﴾ [الشعراء: ١٠٥-١١٠].

الفوائد: تَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ أنه كان هناك رسلٌ آخرون في زمن نوح عليه السلام لذلك قال: ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ بالجمع. ومن الممكن أن يُقال: إن علة ذكر المرسلين بالجمع، رغم أنهم كذَّبوا نوحًا فقط، أن من يُكَذِّب نبيًّا مُرسَلاً مِنَ الله كان كمن كَذَّب بِرُسُل الله أجمعين.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أنه لم يكن لدى نوح وأولاده حكم باسم الخُمس.

وتكرار ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾﴾ لأجل التأكيد.

﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾ [الشعراء: ١١١-١١٥].

الفوائد: تَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ أن الفقراء هم الذين يُسارعون دائمًا إلى الإيمان، وأن الكفار ينظرون إليهم على أنهم أراذل وسفلة، مع أن الحقيقة هي عكس ذلك.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أن الأنْبياء لا يعلمون الغيب.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ أن حساب العباد هو على الله فقط، فالجملةُ التي اخترعوها في «الزيارة الجامعة» والتي تقول: إن الزائر يُخاطب الإمام قائلاً: «وحسابهم عليكم»! تخالف صريح القرآن ولا تصحّ.

﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ۝١١٦ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ۝١١٧ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ۝١١٨ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ۝١١٩ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ۝١٢٠ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ۝١٢١ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ۝١٢٢﴾ [الشعراء: ١١٦-١٢٢].

الفوائد: كل موضع في القرآن جاء فيه فعل ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ أو ﴿ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ فالمقصود منه القتل، إلا في سورة مريم إذ جاء على معنى الشتم.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ۝١٢٣ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ۝١٢٤ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ۝١٢٥ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ۝١٢٦ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ۝١٢٧ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ۝١٢٨ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ۝١٢٩ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ۝١٣٠ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ۝١٣١﴾ [الشعراء: ١٢٣-١٣١].

الفوائد: تُطلَق كلمة: ﴿رِيعٍ﴾ على المكان المرتفع، وكان قوم عاد يبنون أبنيةً مرتفعةً للعب بالحمام ولكي ينظروا منها إلى الناس ويؤذوهم. وقد قال رسول الله ﷺ: «**كُلُّ بِنَاءٍ يُبنى وَبَالٌ عَلَى صَاحِبِهِ يوم القيامة إِلَّا مَا لَا بُدَّ مِنْهُ**»[١]. وجاء في الحديث أيضًا: «**اللّهُمَّ ارزق محمداً وآل محمد ومن أحب محمداً وآل محمد العفاف والكفاف وارزق من أبغض محمداً وآل محمد كثرة المال والولد**»[٢].

﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ۝١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ۝١٣٣ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ۝١٣٤

١- النوري الطبرسي، **مستدرك الوسائل**، ٣/ ٤٥٧، بلفظ مقارب، ونحوه لدى الكُلَيْنِيّ، **الكافي**، ٦/ ٥٣١. أما في مصادر أهل السنة فروي معناه بلفظ مختلف قليلاً عن أنس مرفوعًا: يُنْظَر: أبو داود، **السنن**، (٥٢٣٧). وأحمد، **المسند**، ٣/ ٢٢٠، وابن ماجه، **السنن**، (٤١٦١) قال البوصيري (٤/ ٢٢٦): هذا إسناد فيه مقال عيسى بن عبد الأعلى لم أر من جرحه ولا من وثقه، وباقي رجال الإسناد ثقات. وأخرجه الطبراني في **الأوسط**، ٣/ ٢٥٨، رقم (٣٠٨١) وقال الهيثمي في **المجمع** (٤/ ٧٠): رجاله ثقات.

٢- الكُلَيْنِيّ، **الكافي**، ٢/ ١٤٠. ولم أجد له أصلاً في مصادر أهل السنة.

إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٣٥﴾ قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾ [الشعراء: ١٣٢-١٤٠].

الفوائد: ذُكِرَتْ قصةُ قوم عاد في سورة الأعراف وسورة هود ومنها يتبيَّن أنهم كانوا قومًا أغنياء ولديهم بنون كُثُر وبساتين ومزروعات كثيرة.

وَالـمُرَادُ مِنْ جُمْلَةِ: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ تقليد الـماضين، وقد ذمهم الله تعالى على هذا الكلام. وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ على غرورهم. هذا وقد أُهلكوا بريح صرصر عاتية.

﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتۡرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٖ وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ ﴿١٤٨﴾ وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الشعراء: ١٤١-١٥٢].

الفوائد: جاءت كلمة ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ في هذه الآيات جمعًا أيضًا باعتبار أن تكذيب رسول واحد بمثابة تكذيب الرسل جميعًا، واعتبرَ اللَّهُ صالحًا أخًا لثمود لأنه كان أخاهم الناصح الذي يُريد الخيرَ لهم، وفي هذا مدعاة إلى اهتمامهم بكلامه وإسراعهم إلى قبوله.

وَالـمُرَادُ مِنْ جُمْلَةِ: ﴿أَتُتۡرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ بيان أن الدُّنْيَا لا يوثق بها وهي سريعة التغيُّر والزوال.

وجملة: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٥١﴾﴾ تدلُّ على أن حاكم الـمسلمين ومن بيده زمام أمورهم لا يجوز أن يكون من الـمسرفين في بيت الـمال بل لابدّ أن يراعي الدقة الكاملة في التصرف في بيت الـمال حتى في الأشياء البسيطة كالكهرباء والكرسي والورق والقلم. ومن جملة

رسائل أمير المؤمنين عَلِيٍّ عليه السلام «**أَنَّهُ كَتَبَ إِلَى عُمَّالِهِ: أَدِقُّوا أَقْلَامَكُمْ وَقَارِبُوا بَيْنَ سُطُورِكُمْ وَاحْذِفُوا عَنِّي فُضُولَكُمْ وَاقْصِدُوا قَصْدَ الْمَعَانِي، وَإِيَّاكُمْ وَالْإِكْثَارَ فَإِنَّ أَمْوَالَ الْمُسْلِمِينَ لَا تَحْتَمِلُ الْإِضْرَارَ**»[1].

وكانت مكاتبات رسول الله صلى الله عليه وآله مختصرة وموجزة، فمثلاً كتب صلى الله عليه وآله ضمن رسالته إلى ملك فارس (إيران) هذه الجملة: «**أَسْلِمْ تَسْلَمْ، فَإِنْ أَبَيْت، فَإِنَّ عَلَيْك إِثْمَ الْمَجُوسِ**»[2]. فإذا كان الأمر في الورق والقلم هكذا فما بالك في التصرُّف في سائر الأموال؟ إذن لابد من إعمال الدقة والأمانة التامة فيها. وعلى كل حال، فلا تجوز طاعة المسرفين.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ١٥٣ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٥٤ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ١٥٥ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥٦ فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ ١٥٧ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٥٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٥٩﴾ [الشعراء: ١٥٣-١٥٩].

الفوائد: نسب الله في هذه الآيات – كما فعل في الآيات الأخرى التي تحدثت عن قصة صالح – عقر الناقة إلى قوم ثمود جميعًا مع أن الذين قاموا بذلك كانوا شخصين فقط، والسبب أن الآخرين إما كانوا راضين بذلك أو ساكتين عنه! ولذلك قال عليٌّ عليه السلام في الخطبة ١٩٢ من نهج البلاغة: «**إِنَّمَا عَقَرَ نَاقَةَ ثَمُودَ رَجُلٌ وَاحِدٌ فَعَمَّهُمُ اللهُ بِالْعَذَابِ لَمَّا عَمُّوهُ بِالرِّضَا**».

وقد تكررت جملة: ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ في هذه السورة كي يعلم القارئ أن أكثر الناس في كل أمة كانوا غير مؤمنين.

﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٦٠ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٦١ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ

١- ابن بابويه القمّيّ، **الخصال**، ١/ ٣١٠، والحرّ العاملي، **وسائل الشيعة**، ١٧/ ٤٠٤.

٢- المجلسي، **بحار الأنوار**، ٢٠/ ٣٨٩، نقلاً عن سيرة ابن إسحق. وانظر: **تاريخ الطبري**، ٢/ ٦٥٤- ٦٥٥. وهو عند ابن سعد في **الطبقات الكبرى** مختصرًا، ص ١٦، القسم الثاني، من الجزء الأول.

أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ
ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ
أَزۡوَٰجِكُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ ﴿١٦٧﴾
قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلۡقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهۡلِي مِمَّا يَعۡمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ
أَجۡمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ
فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ
ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾ [الشعراء: ١٦٠-١٧٥].

الفوائد: قوم لوط هم أنفسهم أصحاب القرى المؤتفكات وأهل بلاد سدوم الذين ذكرنا أحوالهم من قبل بشكل مفصل. وَالمُرَادُ مِنْ جُمْلَةِ: ﴿إِلَّا عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ زوجة لوط عليه السلام لأنها كانت راضية بعمل قومه وكانت تقول: أنا أرضى أن يحل بي ما يحل بهم.

وَالمَقصود مِنْ: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗا﴾ مطر الحجارة. وكان المؤمنون بلوط عليه السلام ابنتيه وصهريه فقط. وكان عذابهم أن خسف الله بهم الأرض وجعل عالي مدينتهم سافلها وخلال ذلك أمطرهم الله بمطر من الحجارة أو أمطرهم بذلك بعد انقلاب مدينتهم رأسًا على عقب.

﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ
أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ
ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الشعراء: ١٧٦-١٨٠]

الفوائد: ﴿لۡـَٔيۡكَةِ﴾ الغابة المؤلَّفة من الشجر الكثير الملتفّ، وتُسمَّى أيضًا الأحراج.

نقل الحقّ تعالى عن جميع الأنبياء الذين ذكرهم أنهم كانوا يقولون: إنهم لا يسألون الناس أي أجر على رسالتهم وأن أجرهم هو على الله فقط. إذن دين الأنبياء دين المساواة، ولا مكان في الدين الإلهي للتفرقة العنصرية، ولم يأخذ أي نبيّ من الأنبياء أجرًا لأولاده على رسالته، ولم يجعل لنفسه شيئًا باسم العُشر أو الخُمس، فهذا يُبيِّن أن قانون الخُمس لم يكن من التشريعات الإلهية بل مما أضافه الناس في الدين!

﴿أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ﴿١٨١﴾ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴿١٨٦﴾ فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴿١٩١﴾﴾ [الشعراء: ١٨١-١٩١].

الفوائد: تدلُّ جُمْلَةُ: ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ التي قالها الكفار جميعهم لأنبيائهم أن الكفار كانوا يميلون أن لا يكون نبيُّهم بشرًا كسائر البشر، كما هو الحال في زماننا. لذلك فهم يعتقدون بصفات للرسول وللأوصياء لا يعتقدون بمثلها لسائر البشر، من قبيل أن الأنبياء والأوصياء لا ظل لهم، وأنهم يعلمون الغيب، أو أنهم وسائل ووسائط بينهم وبين الله في الدعاء، فيجب أن يُدعَوْا أي تؤدَّى لهم عبادة الدعاء، وكل ذلك باطل ومن أفكار المستكبرين الذي يتكبرون عن طاعة بشر مثلهم.

وعذاب ﴿يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ هو أن الله تعالى سلَّط على قوم شعيب الحَرَّ سبعة أيام، فتعرَّى الناس من لباسهم من شدة الحر وخرجوا من بيوتهم، فبعث الله عليهم سحابةً، فحَلُّوا تحتها يلتمسون الرَّوْح فيها، فجعلها الله عليهم عذابًا، وبعث عليهم نارًا منها فاضطرمت عليهم فأكلتهم، فذلك عذاب يوم الظلَّة[1].

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴿١٩٦﴾ أَوَ لَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴿١٩٧﴾﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٧].

الفوائد: سَمَّى اللَّهُ تعالى جبريل بالرُّوْح الأمين لما يلي: **أولاً**: لأن خلقته لطيفة مثل الروح.

١- انظر: **تفسير الطبري**، ١٧/ ١٢٤، ولم يذكر فيه أنهم تعرَّوْا من لباسهم.

وثانيًا: لأنه كان أمينًا يوصِلُ الوحي إلى الأنبياء دون زيادة أونقصان.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أن القرآن كان لطيفًا مستحسنًا على قلب النبيِّ ﷺ، وأنه كان يثبت في قلبه فيحفظه دون زيادة أو نقصان.

ويُحتَمَل أن يعود ضمير الهاء في جملة ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ على القرآن، ومن الـممكن أن يعود على محمَّد أو على الـمذكور في هذه الآيات. وهنا جعل الله علم علماء بني إسرائيل آيةً ودليلاً على صحة ما جاء في القرآن، فبناء على ذلك فإن ما جاء في سورة الرعد من قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٤٣]. يتعلق بشهادة علماء أهل الكتاب هذه الـمشار إليها هنا من أنهم يشهدون بصدق مطالب القرآن وصحة رسالة محمَّد عليه الصلاة والسلام. يقول ابن عباس: إن سبب نزول هذه الآيات شهادة علماء اليهود في الـمدينة بصدق نُبُوَّةِ محمَّد ﷺ عندما كان لا يزال في مكة[1].

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ [الشعراء: ١٩٨-٢٠٧].

الفوائد: الأعجم (ومؤنثه العجماء) لغةً: الحيوان الأبكم الذي لا يقدر على الكلام. أو الإنسان الذي في لسانه لُكنة، والعُجْم لغةً يُقالُ لكل من لا يعلم اللغة العربية الفصيحة. والأعجم مبالغة من العُجْم.

والـمُرَادُ مِنْ جُمْلَةِ: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾﴾ أننا لو أنزلنا القرآن على شخصٍ

١- كما روى البغوي في تفسيره **معالم التنزيل**، ٧/ ١٢٩، وابن الجوزي في تفسيره **زاد الـمسير**، ٦/ ١٥٠، وغيرهما عن ابن عباس قال: **بعث أهل مكة إلى اليهود وهم بالـمدينة فسألوهم عن محمد ﷺ، فقالوا: إن هذا لزمانه، وإنا نجد في التوراة نعتَه وصفتَه، فكان ذلك آية على صدقه.**

أعجميٍّ أو جعلناه على لسان حيوان فقرأ مثل هذا الكلام الفصيح البليغ لكان ذلك أظهر في إعجاز القرآن، أي لكان إعجاز القرآن أوضح وأشدّ، ولكنهم رغم ذلك ما كانوا ليؤمنوا به عنادًا ولجاجًا. ومن الممكن أن نقول: إن المعنى أننا لو أنزلنا هذا القرآن بلغة العجم أي بغير اللغة العربية لما استطاع المشركون أن يدركوا معانيه ولما آمنوا به تكبرًا وعجبًا بالنفس؛ لكننا أنزلناه بلسان عربي كي يفهمه العرب ولا يبقى لهم عذر، فإن لم يؤمنوا به رغم ذلك وآمن به غير العرب تبيَّن أن غير العرب أفضل من العرب. ولكن الظاهر هو المعنى الأول.

﴿ذِكۡرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ﴿٢١٢﴾﴾ [الشعراء: ٢٠٩-٢١٢].

الفوائد: لما قال مشركو قريش إن الشياطين هي التي نزَّلت هذا القرآن على محمَّد، وأنه مثل الكهنة الذين تتنزَّل عليهم الشياطين وتأتيهم بأخبارٍ من الغيب، رد الله عليهم هنا بقوله: كلا إن هذا القرآن هداية من الله والشياطين مُبْعدون عن الوحي الإلهي، وليس من شأنهم إرشاد الناس، لأنهم هم أنفسهم ضالون فيكف يهدون الآخرين [فاقد الشيء لا يعطيه]. وينبغي أن نعلم أن الوحي الرحماني يختلف عن الإلقاء الشيطاني، فإلقاءات الشياطين كلها أوهام وخيالات وضلال وفتنة وفساد، كما قلتُ في ديواني الشعري (بالفارسية) الموسوم بـ «مثنوي منطقي»:

الوحي الشيطاني غير الوحي الرحماني	الوحي الرحماني خاص بالأنبياء
الوحي الشيطاني يظهر من المرتاضين	كوحي الكهنة والشعراء
الوحي الرحماني كله نور الحق	والوحي الشيطاني نصيب الأحمق
الوحي الشيطاني كله عمل وهدى	والوحي الشيطاني كله وَهْمٌ وهَوَى

﴿فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴿٢١٤﴾ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴿٢١٥﴾ فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴿٢١٦﴾﴾ [الشعراء: ٢١٣-٢١٦].

الفوائد: تدلُّ جُمْلَةُ: ﴿فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ أنه لا يجوز دعاء غير الله لقضاء

الحاجات وتفريج الكربات، وإلا فإن فاعل ذلك عرضة للعذاب الإلهي، وإنما يمكن دعاء الناس الأحياء الحاضرين وطلب العون منهم على سبيل التعاون، لا أن يُدعى الأنبياء أو الأولياء لطلب الحوائج منهم، وسؤالهم كشف الكربات. فالمقصود من عبارة: ﴿إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ ذلك المدعُوّ الغيبي الخيالي الذي كان المشركون يتوجَّهون إليه، وهناك في زماننا أيضًا كثيرٌ من الأفراد يدعون الأنبياء والأولياء ويتصوَّرون أنهم حاضرون ناظرون في كل مكان، فيقعون في الشرك.

ولما نزلت آية: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴿٢١٤﴾﴾ جمع رسول الله ﷺ بني عبد المطلب وهم يومئذ أربعون رجلاً، الرجل منهم يأكل المُسِنَّة[1] ويشرب العُسّ[2]، فأمر عليًّا برِجْل شاة فأدمها ثم قال: ادنُوا باسم الله فدنا القوم عشرة عشرة فأكلوا حتى صدروا، ثم دعا بقعب من لبن فجرع منه جرعة ثم قال لهم: اشربوا باسم الله، فشرب القوم حتى رووا؛ فبدرهم أبو لهب فقال: هذا ما يسحركم به الرجل، فسكت النبي ﷺ يومئذ فلم يتكلّم[3].

ثمَّ دعاهم من الغد على مثل ذلك من الطعام والشراب ثم أنذرهم رسول الله ﷺ فقال: «**يا بني عبد المطلب! إن الله بعثني إلى الخلق كافة وبعثني إليكم خاصة فقال عز وجل: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴿٢١٤﴾﴾ وأنا أدعوكم إلى كلمتين خفيفتين على اللسان ثقيلتين في الميزان تملكون بهما العرب والعجم وتنقاد لكم بهما الأمم وتدخلون بهما الجنة وتنجون بهما من النار: شهادة «أن لا إله إلا الله وأني رسول الله» فمن يجبني إلى هذا الأمر ويؤازرني عليه وعلى القيام به يكن أخي ووصيي ووزيري ووارثي وخليفتي من بعدي في أهلي؟ وقال: «فإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ»**، فلم يُجِبْهُ أحدٌ منهم سوى عليٍّ عليه السلام[4].

وجاء في خبر آخر أنه عندما نزلت هذه الآية جمع رسول الله ﷺ عشيرته وقرابته وقال لهم:

١- المُسِنَّة من الشاة أو البقر أو المِعْزَى التي نبتت أسنانها، وعادة ما يكون ذلك في السنة الثالثة.

٢- العُسّ: القَدَح الضخم الكبير الذي يروي الثلاثة أو الأربعة.

٣- الثعلبي النيسابوري، **الكشف والبيان**، ٧/ ١٨٢. وروى قريبًا منه سائرُ المفسِّرين.

٤- الشيخ المفيد، **الإرشاد**، ١/ ٤٩- ٥٠.

«يا بني عبد الـمُطَّلِب! يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ! اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ الله لاَ أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ الله شَيْئًا، يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ رسول اللهِ! يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الـمُطَّلِبِ! يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ! افْتَدُوْا أَنفُسَكُم مِنَ النَّار فإِنِّي لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا»[١].

وجاء في خبر آخر أنه ﷺ قال: «يا فاطمةُ! اعملي لنفسِكِ فإني لا أغني عنكِ من اللهِ شَيْئًا»[٢].

وجاء في خبر آخر أيضًا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ صَعِدَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى الصَّفَا فَقَالَ: يَا صَبَاحَاهْ فَاجْتَمَعَتْ إِلَيْهِ قُرَيْشٌ، فَقَالُوا: مَا لَكَ؟ فَقَالَ: أَرَأَيْتُكُمْ إِنْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ الْعَدُوَّ مُصْبِحُكُمْ أَوْ مُمْسِيكُمْ أَمَا كُنْتُمْ تُصَدِّقُونَنِي؟ قَالُوا: بَلَى. قَالَ: فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ. قَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبّاً لَكَ أَلِهَذَا دَعَوْتَنَا جَمِيعاً؟ فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ١﴾ [المسد: ١]. إِلَى آخِرِ السُّورَةِ»[٣].

ولاشك أن هذه الأخبار مقبولة وأن رسول الله ﷺ دعاهم أكثر من ذلك أيضًا ولكن للأسف رغم أن رسول الله ﷺ قال لفاطمة: اعمَلي لنفسِكِ ولا تعتمدي عليَّ فإني لا أغني عنكِ من الله شيئًا، لا يزال عددٌ من مدَّعي الإسلام متعلِّقين ببعض الأخبار التي وضعها الكذَّابون والخطباء الـمتكسِّبون بالدين، والتي تقول: إن على الـمسلم أن يعقد أمله على أولاد النبيِّ هؤلاء أنفسهم لا أن يكون سعيه واعتماده على اِتِّبَاع القرآن في عقائده، والعمل بكتاب الله.

وتدلُّ جُمْلَةُ: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ...﴾ أن النبي ﷺ كان في غاية التواضع مع الـمؤمنين. وقد رُوِيَ عَنْ أبي ذر الغفاري أنه قال: «كانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَجْلِس بَيْنَ ظَهْرَانَيْ أَصْحَابِه، فَيَجِيءُ

١- رواه بألفاظ مشابهة معظمُ الـمفسِّرين: انظر مثلاً الطبري، **جامع البيان**، ١٩/ ٤٠٥، والزمخشري، **الكشاف**، ٣/ ٣٤٥، والبغوي، **معالـم التنزيل**، ٦/ ١٣٣. ورواه أصحاب الحديث كالبخاري في صحيحه في تفسير سورة «تبت»: ٨/ ٥٠١-٥٠٢، وفي الوصايا وفي الأنبياء، ومسلم في الإيمان: ١/ ١٩٢-١٩٣.

٢- انظر الطبري، **جامع البيان**، ١٩/ ٤٠٥-٤٠٦، وانظر الزمخشري، **الكشاف**، ٣/ ٣٤٥.

٣- الـمجلسي، **بحار الأنوار**، ١٨/ ١٦٤. والحديث مشهور في مصادر السنة: رواه الشيخان **البخاري (٤٩٧٢)**، **ومسلم (٢٩٢٧)** والترمذي في **السنن** وغيرهم.

الْغَرِيبُ، فَلاَ يَدْرِي أَيُّهُمْ هُوَ، حَتَّى يَسْأَلَ...»[١].

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾ [الشعراء: ٢١٧-٢٢٠].

الفوائد: لما بيَّن اللهُ تعالى في الآيات ٢١٤ فما بعد ما يجب على رسوله ﷺ تجاه عشيرته الأقربين وأتباعه، ذكَّره في هذه الآيات أن عليه أن لا يلتفت إلى أحدٍ من الخلق، وأن يجعل توكله على الله وحده، لأن الله هو المطلع على أحوالك ويرى قيامك للتهجُّد في جوف الليل ويرى تقلبك بين أصحابك. جاء في الخبر أنه حين نُسِخَ فرضُ قيام الليل، طاف تلك الليلة ببيوت أصحابه لينظر ما يصنعون لحرصه على ما يوجد منهم من الطاعات، فوجدها كبيوت الزنابير لما يسمع منها من دندنتهم بذكر الله تعالى[٢].

ولا يخفى أن ظاهر الآية يوافق هذا الذي ذُكِر. لكن بعض المفسرين ذكروا في تفسير ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ وجوهًا غير مرضيَّةٍ تخالف ظاهر الآية، بل تناقض سائر آيات القرآن، من ذلك أنهم قالوا: معنى ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ أنك في صلاتك وسجودك تراقب أصحابك وتُقَلِّبُ نظرك فيهم أو ترى من خلفك كما ترى أمامك! ويجب أن نقول: **أولاً**: لا يجوز الالتفات إلى غير الله في الصلاة سواء كان ذلك بواسطة العين الأمامية أم بعين أخرى. **وثانيًا**: كان رسول الله ﷺ مثل سائر البشر من جميع الجهات سوى الوحي، ولا يمكن القول: إنه كان يرى من خلفه كما يرى أمامه إلا إذا قلنا إنه لم يكن كسائر البشر. وقال مفسر آخر، - بل نسب ذلك إلى الإمام الصادق عليه السلام - : إن معنى ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾: انتقال نطفتك في أصلاب النبيين نبيٍّ بعد نبيٍّ وفي الأرحام الطاهرة حتى أخرجه من صلب أبيه من نكاح غير سفاح من لدن آدم. وينبغي أن نقول: **أولاً**: لم يأتِ في الآية ذكرٌ للأصلاب والأرحام، فتقديرها في الآية خلاف للظاهر. **ثانيًا**: ليس للنطفة عقل ولا إرادة حتى تتنقل، فإن قيل: كان الله هو الذي

١- رواه أبو داود في **السنن** (٤٦٩٨)، والنسائي في **السنن الكبرى**(٥٨٧٤).

٢- من الفخر الرازي، **التفسير الكبير**، ٢٤/ ١٧٣.

ينقلها ويُقَلِّبُهَا. قلنا: هذا خلاف الظاهر لأن الآية قالت: ﴿وَتَقَلُّبَكَ﴾. وللأسف كل تلك الأخبار هي من وضع الغُلاة لعنهم الله.

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٢١-٢٢٧].

الفوائد: بعد أن بيّن الله تعالى أن القرآن ليس وحيًا شيطانيًا بيّن في هذه الآيات أن الشياطين إنَّما تتنزل على الكاذبين والآثمين والشعراء الذين لا تعدو أفكارهم نسج الخيال وتتناسب مع إلقاءات الشيطان.

وجملة: ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ......﴾ إذا اعتبرناها صفة للشياطين كان المعنى: أن الشياطين الذين أخذوا مسموعاتهم من الملائكة يُلقونها إلى الكاذبين بعد أن يزيدوا فيها من عندهم أكاذيب كثيرة. أما إذا اعتبرنا جملة: ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ......﴾ صفة لـ ﴿عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ كما رجَّحْتُهُ في الترجمة، أصبح المعنى أن الآثمين والمرشدين الذين يتخذون الدين حانوتًا يتكسَّبون به والشعراء يُصغون إلى الشياطين أي يُصغون إليهم بسمعهم الباطني.

هذه الآيات ذمَّت الشعراء لعدة أسباب:

الأول: أن أتباعهم ضالون ومحرومون من هداية كتاب الله.

الثاني: أنهم يدخلون حائرين في كل واد كالهائم على وجهه، فمرةً يمدحون العقل ومرةً يتكلَّمون عن العشق والجنون، وأحيانًا يمدحون الخمر والطرب وأحيانًا يُمجِّدون الشرع، أحيانًا يطعنون بالقيامة والكوثر وأحيانًا يجعلون معشوقهم إلههم.

الثالث: لا يعلمون بما يقولونه في أشعارهم.

هذه العيوب الثلاثة التي ذكرها الله تعالى جامعة لكل عيوب الشعراء. وقد كتبنا كتابًا باسم

«شعر وموسيقى» أي الشعر والـموسيقى، ذكرنا فيه أكثر عيوب الشعراء، فمن أراد الاطلاع على ذلك فليرجع إليه. وسنُشير هنا إلى بعض مفاسد الشعر:

مفاسد أشعار الشعراء

هدف الذين يُثنون على دواوين شعر الغزل والخمر والطرب وما إليها أن يجروا الشعب إلى مستنقع الخمول والـمجون والتحرُّر من كل قيد أخلاقي ومُعاقرة الخمرة واللامبالاة بالـماضي والـمستقبل؛ انظروا مثلاً إلى قول الشاعر:

أمضِ لحظة العمر هذه باللهو والبسطِ لا تفكر فيما مضى ولا تخف مما يأتي

كأسٌ من الخمر من شهر إلى شهر أفضل من الدرس وعلوم الجمل

والـمنطقيون ينسجون أشعارهم من القضايا والجمل الـمركبة من الخيالات، ويقول صاحب كتاب «**تهذيب الـمنطق**»: وأما الشعر فيتألف من الخيالات! أي أن القضايا الشعرية هي تلك القضايا التي تتألف من الخيالات، ولذلك فإن معظم دواوين الشعر هي من نسج الخيال كما قال «سعدي الشيرازي»:

لا يفقد الصوفي نظره إلا بمثل هذا الغزل لا يقول سعدي الغزل إلا بمثل هذا الخيال

نقل أبو الفتوح الرازي في تفسيره للآيات السابقة عن ابن عباس قوله: **الشياطين تُلقِّن الشعر للشعراء وكل من كان شيطانه أقوى كان شعره أحسن.**

وفي هذا قال الشاعر:

إني وكلُّ شاعرٍ من البشر شيطانه أنثى وشيطاني ذكر

وقد رُوِيَ عَنْ [عائشة] قولها: «**كَانَ الشِّعْرُ أَبْغَضَ الْحَدِيثِ إِلَى رَسُولِ الله** ﷺ»[1].

ورُوِيَ في مستدرك الوسائل كما روى الشَّيْخُ أَبُو الْفُتُوحِ الرازي فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ

١- النوري الطبرسي، **مستدرك الوسائل**، ج ٦/ ص ٩٩.

رَسُولِ اللّٰهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**لَأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحاً خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْراً**»[1].

وقد رويت روايات عديدة في ذم الشعر والشعراء لأن للشعر مفاسد عديدة منها:

١) إنه تخيلات، وَمِنْ ثَمَّ فإنه يبعد المجتمع عن الحقائق ويشغله بتأليف الكلام غير الواقعي.

٢) يتضمن في الغالب المدائح المُغرقة والمبالغ بها، مثل ديوان حافظ الشيرازي الذي ملأه بالمدائح. كقوله مثلاً:

رأينا شعر حافظ الذي يجذب القلوب في مدح الشاه (أي الملِك) * بيتٌ من تلك القصيدة أفضل من ألف رسالة!**

أعجب من «ملك الملوك» كيف لم يملأ حافظ بسبب شعره من رأسه إلى أخمص قدميه ذهبًا!

لقد أصبح حافظ علمًا في نظم الأشعار بيُمْنِ رايةِ الشاه «منصور».

لا عجب أن أتربع على عرش دواوين الغزل لأني أمضيت سنوات في خدمة صاحب السلطان

٣) العشق لأجل المال، كما قال حافظ:

إن قال أحدهم لا أريد أن أكون مثل حافظ عاشقًا مفلسًا

فقولوا له إن المتسول للسلطان لديه جليسه

٤) التملُّق والتزلُّف، كما قال حافظ لِمَلِكِ التُّرك:

اشتهر حافظ في العالَم بأنه عبدك وغلامك لقد وضع حلقة العبودية لجمالك في أذنه

٥) احتراف الشعر والتكسب به، كما قال حافظ في مدح الملك هرمز والملك يحيى:

---

١ - النوري الطبرسي، **مستدرك الوسائل**، ج ٦/ ص ٩٩. وهو في مصادر السنة: حديث متفق عليه رواه البخاري (٥٨٠٢) ومسلم (٢٢٥٧) في **صحيحيهما** والترمذي في **السنن**(٢٨٥١) وقال: وفي الباب عن سعد وابن عمر وأبي الدرداء، هذا حديث صحيح. لكن الحقيقة - كما أفاده شُرَّاح الحديث - أن المقصود من هذا الذم ليس مطلق الشعر بل الشعر الذي كان يُهجى به النبي ﷺ والشعر الباطل، بدليل أن رسول الله ﷺ مدح الشعر إذا كان صِدْقًا وكانت مراميه حسنةً وقال: «إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لسِحْرًا وَ إِنَّ مِنَ الشِّعْرِ لحِكْمَةً (أو حِكَمًا)». وكان يُحِبّ أن يستمع محاسن الشعر، كما كان يأمر حسان بن ثابت أن ينظم الشعر ردًّا على المشركين ودفاعًا عن رسول الله ﷺ ويقول له: «اهْجُهُمْ أَوْ هَاجِهِمْ وَجِبْرِيلُ مَعَكَ» (رواه البخاري في صحيحه).

لم يرني مَلِكُ «هرمز» ودون كلامٍ أكرمني بألطافه الكثيرة

ورآني مَلِكُ «يزد» فمدحته فلم يُعطني شيئًا

يبدو أن الملك يحيى نسي حافظ فيا ربّ ذكّره بإعطاء هذا الفقير!

٦) هجاء وقدح من لا يُعطي الشاعر شيئًا من المال.

٧) الكذب والمبالغات والمغالاة وكل منها من كبائر الذنوب وكلها نجدها بكثرة في أشعار الشعراء، فمثلاً يقول الشاعر حافظ:

فيا أيها الملِك! إن الفَلَكَ في رقصٍ وسماعٍ على مائدتكَ وفي محفلك * فلا تقصر يد الطرب عن هذه الزمزمة... ولا تتثاقل!**

وقال الشاعر نظامي:

لا تتقلَّب في الشعر وفي فنه أحسَنُ الشعر أكذبُهُ

٨) السبُّ والشتم والسخرية من الواعظ ومن الجنَّة والكوثر وسائر المقدسات الدينية، فمثلاً يقول الشاعر حافظ:

إنني اليوم في الجنَّة فلماذا أُصدِّق بوعد الزاهد عن الغد

أو يقول:

- في الخمَّارة لا يقبلون بسجادة الصلاة بدلاً عن كأس الخمر

فلا عجب أن لا تكون لسجادة التقوى قيمة بقدر كأسٍ من الخمر!

٩) ترويج أهل الباطل، كما نجد الشاعر حافظ يجعل «شيخ صنعان» المنافق مقتدى العشاق ويقول:

إن كنتَ مريدًا لطريق العشق، فلا تخشَ من الفضيحة وسوء السمعة * فإن «شيخ صنعان» [الذي كان شيخ الطريقة في عهده] دفعه العشق إلى رهن خرقته الصوفية لدى منزل الخمَّار [أي بائع الخمر] ليشتري بها كأسًا من عنده!**

١٠) التلون بأكثر من وجه والنفاق، فتجده يُثني على المسجد ويُثني على الخمارة، فقد قال

الشاعر حافظ الشيرازي:

أنا في مجْلِسٍ حافظٌ للقرآن وفي مجلسٍ شاربٌ للخمر * انظر إلى مِزاحي (أو وقاحتي) كيف أتصنع وأتظاهر أمام خلقِ الله!**

١١) استعمال الكلمات والمصطلحات القبيحة والركيكة مثل: الخمر والخمارة والصنم والوثن وتأويل هذه الكلمات، فمثلاً يقول حافظ في أشعاره: إنه يجب شرب الخمر، ويُقِرُّ أنها أم الخبائث وسبب للإفلاس ومخالفة للزهد ومن شجرة الكرم ومزيلة للعقل وسبب لفساد الدماغ وللسكر وتؤدي إلى ذهاب السمعة وثبوت العار، ورغم ذلك يتحدث عن شربها في عهد الشباب في فصل الربيع وفي محفل الملوك والوزراء وفي ذكرى كسرى وجمشيد مع المعازف والدف ووسائل الطرب وعلى حافة عين الماء وتحت شجرة الصفصاف مع الغلمان السكارى، ولكن مريدوه يقولون: إن قصده من الخمر هو الولاية. يقول مثلاً:

ما العيب في أن نشرب أنا وأنت بضعة كؤوس من الخمر؟ * إن الخمر مصنوع من دم شجرة العنب (الكَرْم) وليس من دمكَ [أي إننا لا نؤذي أحدًا إن فعلنا ذلك!]**

١٢) ترويج الخرافات. يقول حافظ:

- على أبواب الحانة صوفيون معربدون

يأخذون التيجان الملكية ويعطونها لمن يشاؤون!

١٣) إهانة المقدسات الدينية، يقول حافظ الشيرازي في إهانة جبريل:

الشاه «شجاع» حاكم الدين العادل الذي جعل روحَ القُدُس (أي جبريل) غلامًا تابعًا له ومطيعًا لأمره!!**

ويقول في موضع آخر من ديوانه:

تعالَ أيها الشيخ! واشرب من خمارتنا خمرةً لا يوجد مثلها في حوض الكوثر!!

١٤) الطمع والتكسب من أمور الدين، كما يقول حافظ للشاه «منصور»:

فلا تذهب إلى النوم فقد وَصَلَ «حافظٌ» إلى أعتاب القبول (لدى الملك)* بعدما قرأ وِرْدَ نصفِ الليل ودرسَ الصباح الباكر!**

١٥) إشاعة العشق والشهوات وتحقير العقل والحكمة والتعقُّل.

١٦) إشاعة الرقص والخلاعة والـميوعة. يقول حافظ:

- **عندما يبدأ صديقنا بالسماع (وينهض إلى التصفيق والرقص)**

تقوم ملائكة العرش بالرقص والتصفيق تجاوبًا معه!

١٧) اللعب بالأطفال أو الغلمان. يقول حافظ»

- **لقد سلبتني الراحة والطاقة والعقل والاتِّزان**

هذه الدمية «الحجريَّة القلب» «الفضية الآذان»...!!

- وإنَّها لحسناء كالـملاك، خفيفةٌ طروبةٌ لاهية

ظريفةٌ تشبه الأقمار، «تُركِيَّةٌ».... ترتدي الـملابس الزاهية...!!

١٨) الغرور والعجب بالنفس، كما يقول حافظ في مدح نفسه:

قسمًا بالقرآن الذي في صدركَ لم أرَ أجمل من شعركَ يا «حافظ»!

١٩) إنكار الدين والسخرية من الشرع. كما يقول حافظ:

أيها التقيُّ الزاهد! لا تدعُني إلى جنَّة الخُلْد * ففي نظري تفاحة خدِّ الحبيب أفضل من تلك الجنَّة!**

ويقول الشاعر عمر الخيام:

إن ديني هو شرب الخمر والفرح والـمرح   ديني هو التخلص من الكفر والدين كليهما

٢٠) تحقير الكائنات العلوية والـملائكة، كما يقول حافظ:

- **عندما يبدأ صديقنا بالسماع (وينهض إلى التصفيق والرقص)**

تقوم ملائكة العرش بالرقص والتصفيق تجاوبًا معه!

٢١) ترويج وإشاعة العقائد الباطلة والأفكار الفاسدة، يقول جلال الدين الرومي في ديوانه الـمثنوي:

عندما أصبحت الـمرأة صفراء الوجه بسبب عملها السيء * مسخها الله وجعلها كوكب الزهرة!**

٢٢) تأييد الجبر والجبريين، كما يقول حافظ:

رغم أن «الذنب» لم يكن باختيارنا يا «حافظ» * قل على سبيل الأدب الذنب ذنبي!**

ويقول في موضع آخر:

لم يَدَعُونا نعبر نحو منزل حسن السمعة * إن لم يُعْجِبْكَ هذا فغيِّر قضاء الله!**

٢٣) تشبيه الخالق بالخلق، وتشبيه الخلق بالخالق، الذي يؤدي إلى الشرك بالله. يقول الشاعر المولوي:

هل من مَخْلَصٍ سوى التسليم والرضا عندما تكون بين يدي أسدٍ مفترس؟!

٢٤) ترويج اللامبالاة والتحرر من كل قيد، يقول حافظ:

أيها الساقي! أعطني كأس الخمر! وأخرجني من خلوتي هذه * كي أكون متبذِّلاً [تاركًا الاحتشام] غير مبالٍ بشيء أتنقَّلُ في الخرابات [أو من هذه الخَمَّارة إلى تلك!].**

كان الشعراء حافظ الشيرازي وسعدي الشيرازي وجلال الدين الرومي صاحب المثنوي في زمن المغول أو بعد زمنهم ورغم ذلك كانت معظمُ أشعارهم ترغيبًا في معاقرة الخمر وفي العشق. ولم نجد لهم قصيدة واحدة تكون كلها في الترغيب بالشهامة والغيرة ودفع ظلم الظالمين بل على العكس يقول سعدي:

في ذلك الزمن كانت أوقاتنا سعيدة * عندما مضت ستمئة وستٌّ وخمسون سنةً على الهجرة**

في هذه السنة التي يذكر سعدي أن أوقاته كانت سعيدة فيها كانت جيوش المغول تقوم بمذابحها وغاراتها المُدمِّرة التي أهلكت الناس.

٢٥) الغلو والشرك وإضفاء الصفات الإلهية على الخلق ووصفهم بها.

يقول الشاعر المولوي:

مهما نظرت في الآفاق ولاحظت رأيت يقينًا عليًّا موجودًا في كل شيء

٢٦) تجرئة الناس على ارتكاب المعاصي وتشجيعهم على الفسق والفجور، كما قال أحد الشعراء:

كلُّ مَنْ كان سيدُهُ حيدرة فما خوفه من يوم المحشر؟

إن على الشعراء الذين يمتلكون قريحةً شعريةً أن يذهبوا أولاً ويتدبروا الكتاب السماوي القرآن الكريم ويتعلموا منه العقائد الإلهية الصحيحة كي لا ينظموا الأشعار التي تخالفها. وللأسف لم يقم بذلك أي شاعر من الشعراء بل معظم أشعارهم معادية للقرآن الكريم. ولقد استثنى الحق تعالى من ذمّ الشعراءِ، الشعراءَ الذين لا يُخالف شعرهم الحق والذين يتصفون بعدد من الصفات هي التالية:

١- ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: أي أن يكون الشاعرُ مؤمنًا بالله ورسوله وكتبه واليوم الآخر. وتقديم الإيمان على العمل الصالح سببه أنه ما لم يستقرَّ الإيمان في المجتمع لن يُذعن أفراده إلى القيام بالأعمال الصالحة والالتزام بالتشريعات الإسلامية. فالإنسان إنما يسعى للعمل بأوامر الله وتعاليمه كثمرة ونتيجة لإيمانه بالأصول والأحكام الدينية وبالله تعالى واضع القوانين الذي يعلم الخير والشر، فيسعى للعمل بالقوانين الإلهية التي تكفل له السعادة في الدنيا والآخرة دون أن يُجبره أحد أو يُكرهه على العمل بهذه الأحكام والقوانين، وهذا ما يُميِّز القوانين الإلهية عن القوانين البشرية لأنه في القوانين الإلهية، الإيمان هو الذي يدعو الإنسان إلى الالتزام والعمل بالقانون الإلهي[1].

٢- ﴿وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ أي الشعراء الذين يذكرون الله في أشعارهم ويحمدونه ويُثنون عليه لا أنهم يُثنون على المخلوقين، كما قال رسول الله ﷺ: «**احْثُوا التُّرَابَ فِي وُجُوهِ المدَّاحِينَ**»[2].

١- ما يريد المؤلف قوله: إن ما يميز نظام الإسلام عن غيره من الأنظمة القانونية البشرية، أن «الوازع النفسي والذاتي» النابع من إيمان المسلم بالله ومراقبته له، هو الذي يدعو المسلم إلى الالتزام بالقانون الإلهي والعمل به، ولو لم يوجد الشرطي والقاضي الذي يحاسب على التخلف عن القانون، بعكس القوانين البشرية.

٢- ابن بابويه القمي، **من لا يحضره الفقيه**، ٤/ ١١. وفي مصادر أهل السنة: أخرجه الترمذي، **السنن**، (٢٣٩٤) عن أبي هريرة وقال: حديث غريب. وابن حبان، **صحيح ابن حبان**، ١٣/ ٨٢، (٥٧٦٩) عن ابن عمر، وابن ماجه، **السنن**، (٣٧٤٢)عن عمرو بن الأسود. وأخرجه **مسلم في صحيحه والبخاري في الأدب المفرد وأحمد في مسنده وأبو داود والترمذي في السنن** وغيرهم كثير بلفظ: «إذا رأيتم الْمَدَّاحِينَ فَاحْثُوا فى وُجُوهِهِمُ التُّرَابَ» وصححه كثيرون.

وقال عليّ في الخطبة ٢٠٧ من نهج البلاغة: «**وقَدْ كَرِهْتُ أَنْ يَكُونَ جَالَ فِي ظَنِّكُمْ أَنِّي أُحِبُّ الإِطْرَاءَ واسْتِمَاعَ الثَّنَاءِ ولَسْتُ بِحَمْدِ اللهِ كَذَلِكَ، ولَوْ كُنْتُ أُحِبُّ أَنْ يُقَالَ ذَلِكَ لَتَرَكْتُهُ انْحِطَاطًا لِلَّهِ سُبْحَانَهُ عَنْ تَنَاوُلِ مَا هُوَ أَحَقُّ بِهِ مِنَ الْعَظَمَةِ والْكِبْرِيَاءِ، ورُبَّمَا اسْتَحْلَى النَّاسُ الثَّنَاءَ بَعْدَ الْبَلاءِ فَلا تُثْنُوا عَلَيَّ بِجَمِيلِ ثَنَاءٍ....**». وقال أيضًا لهمّام في وصفه أهلَ الإيمان والتقوى: «**عَظُمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ**»[1].

٣- ﴿وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ أي الشعراء الذين ينصرون الناس على الظالـم.

فكل شاعر اتصف بهذه الصفات لم يكن مذمومًا، ولكننا لم نرَ ولم نسمع عن شاعر كذلك!

١- في الخطبة ١٨٤ من نهج البلاغة.

سورة النمل

مكيّة وهي ثلاث وتسعون آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ١ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ٥ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ٦﴾ [النمل: ١-٦].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٢﴾ أن المؤمنين بحاجة إلى الهداية والبشرى. كما يدل قوله تعالى: ﴿وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ على وجوب أداء الزكاة. وقد قال رسول الله ﷺ: «**فِيمَا سَقَتِ السَّمَاءُ وَالْأَنْهَارُ والعُيونُ والغُيوثُ، أَوْ كَانَ بَعْلًا الْعُشْرُ، وَأَمَّا مَا سَقَتِ السَّوَانِي وَ الدَّوَالِي والنَّاضِحُ فَنِصْفُ العُشر**»[1]. وعلاوةً على آيات القرآن وردت روايات كثيرة حول الزكاة في جميع الأموال، فمثلاً جاء في كتاب «دعائم الإسلام»: «**روينا عن أهل البيت صلوات الله عليهم من طرق شتى وبإسناد العامة عن رسول الله ﷺ من وجوه كثيرة، وَرُوِّينا عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ السِّمْسِمِ وَالْأَرُزِّ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْحُبُوبِ هَلْ تُزَكَّى؟ فَقَالَ: نَعَمْ كَالْحِنْطَةِ والتَّمْرِ**»[2]. وفي كتاب «**المحاسن**» وكتاب «**تحف العقول**» عن الإمام الصادق عليه السلام وعن

١- انظر الكُلَيْنِيّ، **الكافي**، ج ٣ / ص ٥١٤.

٢- المجلسي، **بحار الأنوار**، ج ٩٣ / ص ١٠٠.

الإمام الرضا عليه السلام رُوي أنه: «**في كُلِّ مِائَتَيْ دِرْهَمٍ خَمْسَةُ دَرَاهِم زكاة**»[١]. ورُوي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**إِنَّ اللهَ فَرَضَ عَلَى أَغْنِيَاءِ النَّاسِ فِي أَمْوَالِهِمْ قَدْرَ الَّذِي يَسَعُ فُقَرَاءَهُمْ فَإِنْ ضَاعَ الْفَقِيرُ أَوْ أَجْهَدَ أَوْ عَرِيَ فَبِمَا يَمْنَعُ الْغَنِيُّ، وَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ مُحَاسِبُ الْأَغْنِيَاءِ فِي ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً**»[٢].

ولا تتنافى جملة: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ مع قوله تعالى في موضع آخر: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨]. لأن الحقَّ تعالى لما أعطى الكفار العُمْر وسِعة الرزق والشهوة والقوة هيَّأ لهم وسائل التوجُّه إلى الأعمال السيئة وأسبابه، وتركهم أحرارًا في اختيار العمل الذي يريدونه واختيار ما يريدون القيام به من أفعال، فنسب فعل التزيين إلى الـمُسبب لا إلى الـمُباشر. وأما نسبة التزيين إلى الشيطان فلأنه يوسوس للإنسان ويُرغِّبه في الأعمال القبيحة فكأنه هو أيضًا سبب لها، ويُمكن أن ننسب الفعل إليه أيضًا لأنه يجوز أن ننسب الفعل إلى الـمُرغِّب والـمُحرِّض.

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٨﴾ [النمل: ٧-٨].

الفوائد: ذكر الـمُفسِّرون لجملة: ﴿بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ معانٍ متعددة، أحدها ما ذكرناه في الترجمة.

واعلم أن فعل ﴿نُودِىَ﴾ مبني للمجهول ولم يُذكر فاعل النداء، ويتبيَّن من الجملة التالية التي قال الله فيها: ﴿إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أن فاعل النداء وخالقه هو الله تعالى، ومثل هذا ما جاء في الآية ١٢ من سورة طه أي قوله تعالى: ﴿.... يَـٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ [طه: ١١-١٢].

١- المجلسي، **بحار الأنوار**، ج ٩٣/ ص ٢٨.

٢- المجلسي، **بحار الأنوار**، ج ٩٣/ ص ٢٨.

فلا ريب أن فاعل النداء وخالقه هو الله، ومحل خلق النداء والصوت، طبقًا للآية ٢٩ من سورة القصص: جانب الوادي الأيمن والبقعة المباركة في تلك الشجرة، فالشجرة محلُّ إيجاد الصوت وليست هي الموجدة للصوت. من هذا يتبيَّن أن الناطق والمنادي والمتكلم هو الله وليس الشجرة، لأن قيام الكلام على قسمين: قيام صدوري وقيام حلولي. وهنا القيام الصدوري -بمعنى إيجاد الكلام- حاصلٌ مِنْ قِبَل موجده الذي هو الله، أما القيام الحلولي فهو وجود الكلام والصوت في المكان المعيَّن الذي هو هنا الشجرة. من هذا يتبيَّن أن الذي تخيل أن موجد الكلام والناطق به هو تلك الشجرة وقال في شعره:

إن جاز لشجـرةٍ أن تقـول أنا الحـقُّ ... فلماذا لا يجوز للإنسان أن يقول ذلك؟

وهنا زل هذا الشاعر وانحرف عندما قال: إن كل إنسان سعيد الحظ يُمكنه أن يقول: أنا الحق أو إني أنا الله، وابتُلي بخطأ كبير وبالشرك. وقد قلنا في ديواننا الموسوم بـ «**گلشن قدس**» أي «حديقة أزهار القدس» ردًا عليه:

لمـا نُـودي موسـى في الطـور ... خُلِـقَ هنـاك الصـوت والنـدا
إننـي أنـا الله رب العالـمين ... لست من طرف السماء بل من الأرض
الحـق تعـالى منـزَّه عـن الشـجرة ... مُـبَرَّأٌ عـن أن يُقـاس بالإنسـان
متى كان جائزًا أن يصدر نداء أنا الحق عن شجرة ... كـي يجـوز مثـل ذلـك عـن الإنسـان؟
قـال منصـور: أنـا الحـقُّ ضـلالاً ... تـوهَّمَ الصـوفيون أن ذلـك جـلالاً
الكـل يعلـم أن مـا قالـه خطـأ ... خرج هذا الكلام من الحلاج من طريق الكفر
أنـا الحـق كاشـف عـن الكفـر المطلق ... من الذي يحق له قول أنا الحق سوى الحق؟
هنـاك فـرق بـين الخـالق والمخلوق ... مـن يراهما واحدًا يكـون غارقًا في الكفـر
صدور أنا الحق من الشجرة كان من خَلْقِ الحق ... ولم يكـن مـن خَلْـق الشجرة التي هي مخلوقة
من الخطأ أن تقول إنه صدر من الشجرة ... لأنهـا ليسـت ناطقـة وليسـت إنسـانًا

والمقصود من اسم الموصول ﴿مَن﴾ في كل من ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ و ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾:

«الله»، حسب الظاهر، أي أن الـمُنزَّه عن الـمكان الذي هو في النار وخارج النار بالقدرة والإحاطة هو الله، ولذا قال بعد ذلك: ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي سبحانه تنزَّه عن الـمكان وغيره.

﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٩ وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٖ فَإِنِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١ وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖۖ فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ١٢﴾ [النمل: ٩-١٢].

الفوائد: عندما وصل موسى إلى شجرة الطور رأى شعلةً من النار أحاطت بتلك الشجرة فلا الشعلة تُنقص من نضارة الشجرة ورطوبتها وخضرتها ولا الرطوبة والخضرة تُطفئ الشعلة! فتعجَّب وبُهِتَ فمدّ يده ليمتحن هذه النار فرأى أن الشعلة تراجعت، فلما سحب يده رجعت الشعلة إلى الأمام فازداد تعجبه، عندئذ جاءه النداء: يا موسى! إنني أنا الله كامل الذات والصفات القوي الحكيم، عندئذ أدرك موسى أنه جاء إلى موقع ومحل عظيم وأن الأمر أهم بكثير مما كان يبحث عنه، فأعدّ نفسه فسمع الصوت يقول له: ارمِ عصاك، فلما رماها صارت حيةً رفيعةً تسعى، ولم تتحول إلى ثعبان كبير في الـمرة الأولى لأنه ربما مات من الخوف منه، لقد جعل الله تلك العصا حيةً كي يلفت نظر موسى شيئًا فشيئًا وبالتدريج إلى إعجاز الله وقدرته الخارقة وأنه إذا رأى في الـمستقبل أن عصاه صارت ثعبانًا ضخمًا مبينًا فعليه أن لا يُصاب بالصدمة والسكتة.

﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ١٣ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤﴾ [النمل: ١٣-١٤].

الفوائد: ﴿مُبۡصِرَةٗ﴾ حال لـ ﴿ءَايَٰتُنَا﴾، لأن الآيات والـمعجزات الإلهية سبب للبصيرة لذلك سُمِّيت ﴿مُبۡصِرَةٗ﴾. وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗا﴾ أن الـمانع من هداية فِرعون وقومه هو التكبُّر والعلو وهما صفتان يمنعان من قبول الحق في كل زمن، كما هو الحال في زماننا عندما يقوم فرد بإظهار الحق يرفض زملاؤه تصديقه وتأييده تكبُّرًا وأنانيةً.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل: ١٥-١٩].

الفوائد: جاءت كلمة: ﴿عِلْمًا﴾ نكرة لتدل على علم مهم وهو علم القضاء والعلم بمنطق الطيور، هنا يحمد سليمانُ وداودُ اللّهَ على ما آتاهما من العلم لا على المال والملك. وكانت معرفة منطق الطير من خصائص هذين النبيَّيْن ومعجزاتهما. ويُستفاد من هذه الآيات أن الحيوانات والطيور تتمتع بنوع ومستوى من النطق تستطيع من خلاله أن تُفهم أقرانها مقاصدها.

وَالـمُرَاد مِنْ: ﴿كُلِّ شَىْءٍ﴾ كل شيء متعلق بالنبوَّة والـملك.

يُسْتَفَادُ مِنْ هذه الآيات ومِمَّا ورد من روايات: أن سليمان عليه السلام مَلَكَ سبعمئة عام وستة أشهر[١] كان سلطانه فيها عظيمًا وحكمه عادلاً وسخَّر الله له الإنس والجِنَّ والشياطين والوحوش والسباع والطيور، وكان الإنس والجِنُّ والشياطين يصنعون له ما يشاء في زمنه، وكان ملكه منظمًا وكان يعتني بأمور الناس وكان إذا أراد السفر جعل جنوده على بساط وأمر الريح فحملتهم وسارت بهم بين السماء والأرض وكانت تسير بهم في اليوم الواحد مسيرة شهر. وكان

١- هذه الـمدة غير صحيحة تاريخيًّا، والواقع أن هذه التفاصيل وما بعدها - التي ينقلها الـمؤلف هنا عن مُلْك سليمان - مأخوذة من روايات بلا سند وغير دقيقة تاريخيًّا وفيها مبالغات واضحة، وهي من الإسرائيليات الـمروية عن مسلمة أهل الكتاب كوهب بن منبِّه وكعب الأحبار وعبد الله بن سلام، أو عمن كان يروي كثيرًا عنهم كابن عباس وأبي هريرة وغيرهما. ولذلك رُوِيَ عن الإمام الكبير الشافعي أنه قال: «لم يثبت عن ابن عباس في التفسير إلا شبيه بمائة حديث»، ومهما كان في هذه الكلمة من مبالغة، فهي تدل على كثرة ما وضع على ابن عباس، وألصق به، ونسب إليه زورًا. وقد اعترف الـمؤلف نفسه في آخر هذه الرواية أن هذه التفاصيل لا تخلو من إشكالات كثيرة.

إذا جلس على سرير الـمُلْك جلس حوله ثلاثة آلاف كرسي من ذهب وفضة، يقعد الأنبياء على كراسي الذهب، والعلماء على كراسي الفضة، وحولهم الناس، وحول الناس الجنّ والشياطين واقفون، وتُظِلُّه الطيرُ بأجنحتها حتى لا تقع عليه الشمس. وأوحى الله له أن كل من تكلم من أصناف الـمخلوقات فسأخبرك بكلامه بواسطة الريح (أي أن الريح ستحمل كلامه إلى أُذن سليمان).

وفي يوم من الأيام كان سليمان يسير في بساطه حتى أتى على وادي النمل، عندها صاحت نملةٌ: يا أيّها النمل! ادخلوا مساكنكم لا يحطمنّكم سليمان وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يشعرون، فلمَّا وصل صوتها إلى سليمان أمر بالتوقف عن السير، كي تدخل النمل في مساكنها، وتعجب سليمان من ذكاء تلك النملة وإرادتها الخير لقومها، وتبسَّم وقال: ائتوني بها، فأتوه بها. فقال لها: لِمَ حَذّرتِ النمل ظلمي؟ أما علمتِ أنّي نبيٌّ عدلٌ؟ فلِمَ قلتِ: لا يحطمنّكم سليمان وجنوده؟ فقالت النملة: أما سمعت قولي: وهم لا يشعرون؟ مع ما أنّي لم أُرد حطم النفوس وإنّما أردت حطم القلوب، خشيت أن يتمنّين ما أُعطيتَ من جاه وسلطان ويشتغلن بالنظر إليه عن التسبيح وذكر الله ويقْوَى فيهم حب الدنيا! ثم سألها سليمان: كم عدد جنودك؟ فقالت: أربعة آلاف قائد تحت يد كل واحد منهم أربعون ألف نقيب وتحت كل واحد منهم أربعون ألف نملة. فسألها سليمان: لماذا اخترتُنَّ باطن الأرض مسكنًا لَكُنَّ؟ فقالت: يا نبي الله! اخترنا باطن الأرض كي لا يطَّلع علينا أحد سوى الله. ثم سألَتْهُ النملةُ فقالت: يا نبي الله! أخبرني عن واحدةٍ من عطايا الله لك؟ فقال: سخر لنا الريح تسير بنا في نصف يوم مسيرة شهر. فقالت النملة: أتدري لِمَ سخّر الله لك الريح؟ قال: لا. قالت: أخبَرك الله أنّ كل ما أعطاك الله من الدنيا يذهب كما تذهب الريح، فتبسّم سليمان ضاحكًا متعجّبًا من قولها، وقال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ....﴾ إلى آخر الآية. (ويجب

أن نقول: إن بعض ما جاء في هذه الرواية لا يخلو من إشكال)[١].

وعلى كل حال، يُستفاد من جُمْلَة: ﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٞ﴾ أن النمل أيضًا يتكلم، وبالطبع فإن طريقة كلامه تختلف عن كلام البشر. وقد قال عليّ عليه السلام في نهج البلاغة [الخطبة ٦٤]: «**وكُلُّ سَمِيعٍ غَيْرَهُ يَصَمُّ عَنْ لَطِيفِ الأَصْوَاتِ وَيُصِمُّهُ كَبِيرُهَا وَيَذْهَبُ عَنْهُ مَا بَعُدَ مِنْهَا وَكُلُّ بَصِيرٍ غَيْرَهُ يَعْمَى عَنْ خَفِيِّ الأَلْوَانِ ولَطِيفِ الأَجْسَامِ**».

يقول علماء اليوم بشأن المسموعات والمبصرات: إن الصوت ينجم عن حركة أمواج معيَّنة في الفضاء، فكل اختلال في الهواء كارتطام شيء بشيء مثلاً ينشر أمواجًا صوتيةً في الفضاء فإذا وصلت هذه الأمواج إلى أذن الإنسان وهزَّت غشاء طبلة الأذن، نتج عن ذلك إحساس في الأذن اسمه الصوت. وحساسية غشاء الطبلة في أذننا ذات مقدار محدد فهي تُدرك الأصوات التي يزيد تواترها على ١٦ ذبذبة في الثانية، والحد الأكثر للتواتر الذي تُدركه الأذن هو ١٦٠٠٠ ذبذبة في الثانية، فالذبذبات التي تقل عن ١٦ وتزيد عن ١٦٠٠٠ لا يُمكن للأذن البشرية أن تُدركها، وبالنسبة إلى المبصرات يقولون: إن ما يُمكن للعين البشرية أن تُبصره يرتبط بعدد الأمواج المجهرية للنور التي تدخل إلى العين في الثانية، فمثلاً إذا كانت أمواج النور قريبة إلى بعضها جدًا أي يدخل منها ٧٥٦ مليار في الثانية تُنتج إحساسًا اسمه اللون البنفسجي فنرى الأشياء ذات اللون البنفسجي، وهكذا كلما اختلف عدد الأمواج في الثانية أمكننا أن نرى الألوان الأخرى المختلفة. وإذا كان عدد أمواج النور أقل من حد معيَّن أو أكثر فلن تستطيع العين البشرية أن تراها مثل نور شعلة الكحول على سبيل المثال التي تكون غير مرئية تقريبًا في ظروف خاصة.

رُوِيَ أن سليمان عليه السلام كان يسير يومًا بهيبته وشوكته المَلَكِيَّة فمرَّ بحرّاث فنظر إليه الحرّاث

١- كثير مما أورده المؤلف في هذه القصة والتفاصيل مأخوذ من تفسير **الكشف والبيان**، للثعلبي النيسابوري، ٧/ ١٩٦ - ١٩٨. وقد نقد الإمام ابن تيمية كتابه هذا، فقال: «والثعلبي هو في نفسه كان في خير ودين، وكان حاطب ليل، ينقل ما وجد في كتب التفسير: من صحيح، وضعيف، وموضوع» (**مقدمة في أصول التفسير**، ص ٣٢).

فقال: لقد أُوتي آل داود مُلكًا عظيمًا، فحملت الريح كلامه في أُذن سليمان فأمر بساط الريح بالتوقُّف وأمر أن يأتوه بالحرَّاث وقال له: لا تتمنَّى مالا تقدر عليه، لَتسبيحةٌ واحدةٌ يقبلها الله تعالى منكَ خيرٌ لكَ ممّا أُوتي آل داود، فقال الحرّاث: أذْهَبَ اللّهُ همَّكَ كما أَذْهَبْتَ همِّي[1].

جملة: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ مطلقة تشمل وراثة المال والملك والسلطان والنُّبُوَّة رغم أن النُّبُوَّة ليست أمرًا يُورث وراثةً بل موهبة وعطاء من الله.

وكلمة: ﴿أَوْزِعْنِيٓ﴾ مشتقة من وزع بمعنى حَبَسَ وَأَوْزَعَ، أي أودع قلبي شكرك حتى لا أنساه.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ﴾ أن الاحتراز من سليمان وجنوده لا يجب على الذين كانوا يسيرون في طريقهم بل على الذين كانوا يسكنون في الطريق فقط.

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾ [النمل: ٢٠-٢٦].

الفوائد: كان سليمان يتفقد بنفسه جنودَه ويراقب عملهم بواجباتهم، ويعاقب بشدة من يتخلف عنها. وفي يوم من الأيام لم يرَ الهُدْهُدَ.

حدث ذلك في إحدى أسفاره عندما وصل إلى أرض حسنة الطقس، فطلب الماء لأجل الوضوء فلم يجده، وكان الهُدْهُدُ دليله على الماء إذْ كان يرى الماء الذي في باطن الأرض، فكان يخبر سليمان بذلك فيأمر بالحفر عندها ويستخرج الماء. فإن قيل: كيف كان الهُدْهُدُ يبصر الماء في

١- انظر تفسير **الكشف والبيان**، للثعلبي النيسابوري، ٧/ ١٩٦، باختصار وتصرف يسير.

باطن الأرض ولا يبصر الفخ الذي يوضع لصيده فيقع في عنقه؟ فالجواب: «**إذا نزل القدر عمي البصر**».

وكان سبب غيابُ الهُدْهُدِ كما قالوا: «أنه لما نزل سليمان إلى الأرض ورأى الهُدْهُدُ أن سليمان لا يكلِّفُه بمهمّة وأنه قد اشتغل بالنزول، أراد أن يحلّق في السماء ليأتي سليمان بخبر مهمّ. فارتفع نحو السماء فنظر إلى طول الدنيا وعرضها، ونظر يمينًا وشمالاً فرأى مملكة سبأ فذهب إليها فإذا هو بهدهد آخر فهبط عليه، فقال له هُدْهُدُ سبأ: من أين أقبلت؟ وأين تريد؟ قال: أقبلت من الشام مع صاحبي سليمان بن داود ﷺ الذي مَلَكَ الجنَّ والإنسَ والشياطينَ والطيرَ والوحوشَ والريحَ، فمن أين أنت؟ فقال: أنا من هذه البلاد. قال: ومن ملكها؟ قال: امرأة يُقال لها: بلقيس، وإن لصاحبكم سليمان مُلكًا عظيمًا ولكن ليس ملك بلقيس دونه، فإنها ملكت الشمس كلها وتحت يديها اثنا عشر ألف قائد، تحت يد كل قائد مائة ألف مقاتل. فهل أنت منطلق معي حتى تنظر إلى ملكها؟ قال: أخاف أن يتفقدني سليمان وقت الصلاة إذا احتاجَ إلى الـماء. قال الهدهد اليماني: إن صاحبك لَيَسُرُّهُ أن تأتيه بخبر هذه الـملكة. فانطلق معه ونظر إلى بلقيس وملكها وما رجع إلى سليمان إلاّ وقت العصر.

وأمر سليمان النِّسْر أن يجد له الهُدْهُدَ ويحضره إليه، فقال: أصلح الله الـملك ما أدري أين هو وما أرسلته مكانًا. ثم دعا بالعُقَاب سيد الطير فقال: عليَّ بالهدهد الساعة. فرفع العُقَاب نفسه دون السماء حتى استقرَّ بالهواء فنظر إلى الدنيا كالقصعة بين يدي أحدكم ثم التفت يمينًا وشمالاً فإذا هو بالهدهد مقبلاً من نحو اليمن فانقض العقاب نحوه يريده وقال له: ويحك أين كنت؟ إن نبي الله سليمان قد حلف أن يعذبك أو تأتيه بِعُذْرٍ عن غيابك. فقال الهُدْهُدُ: لا خوف من ذلك. ثم طارا متوجهين نحو سليمان حتى أتياه وهو جالسٌ على كرسيه. فقال العقاب: قد أتيتُك به يا نبي الله. فلما قرب الهدهد منه رفع رأسه وأرخى ذنبه وجناحيه يجرهما على الأرض؛ تواضعًا لسليمان، فلمّا دنا منه أخذ سليمان برأسه فمدّه إليه وقال له: أين كنت؟ لأُعذّبنك عذابًا شديدًا، فقال له الهُدْهُدُ: **يا نبي الله! اذكر وقوفك بين يدي الله سبحانه**، فلمّا سمع سليمانُ ذلك ارتعد وعفا

عنه.»[1]. ثم قال له الهُدْهُدُ: علمتُ بما لم تعلم. هنا أراد اللَّهُ أن ينبِّه سليمان إلى أنه من الممكن أن يكون الطير أعلم منه كي لا يصيبه الغرور. ومن هذا يَتَبَيَّنُ أن الأنبياء هم أعلم الناس بعلوم الدين لا بالعلوم الأخرى. فذكر الهُدْهُدُ خبر مملكة سبأ ثم ذكر بعد ذلك اللَّهَ تعالى بصفاته الخاصة وأنه هو المستحق للحمد والسجود، وقال: إنما يجب السجود للإله الذي يخلق الموجودات من العدم، وهو ملجأ كل موجود، إضافةً إلى أنه رب العالمين أجمعين.

وينبغي أن نعلم أن المسافة بين مملكة سبأ إلى ملك سليمان كانت لا تزيد على مسير ثلاثة أيام ورغم ذلك لم يكن سليمان مطلعًا على ما يجري في مملكة سبأ، فهذا دليل آخر على أن الأَنْبياء والأولياء ليس لهم علم بما يجري في كل مكان وأصلاً لا حاجة لهم إلى العلم بشيء سوى العلم بالشريعة. وليسوا مطلعين على أحوال الناس.

ولأجل أن لا يُعاقب سليمان مأمورًا قبل أن يتحقق من الأمر قال:

﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٢٧ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ۝٢٨﴾ [النمل: ٢٧-٢٨].

الفوائد: كتب سليمان كتابًا [من عبد الله سليمان بن داود عليه السلام إلى بلقيس ملكة سبأ، السلام على مَن اتبّع الهُدى، أمّا بعد فلا تعلوا عليَّ وأتوني مسلمين]. وزيَّن الكتاب بخاتمه، وأعطاه للهدهد ذي الريش الجميل والجناحين الجميلين، وقال له: اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثمَّ تولّ عنهم فكن قريبًا منهم وائتني بما سيردُّونه من جواب.

فأخذ الهدهد الكتاب وأتى به إلى بلقيس وكانت بأرض يقال لها مأرب من صنعاء على ثلاثة أيام، فوافاها في قصرها وحولها القادة والجنود، فرفرف ساعةً والناس ينظرون حتى رفعت المرأة رأسها فألقى الكتاب في حجرها.

فأخذت بلقيس الكتاب فلمّا رأت الخاتم ارتعدت وخضعت لأن ملك سليمان عليه السلام كان في خاتمه، وعرفت أنّ الذي أرسل هذا الكتاب هو أعظم مُلْكًا منها ؛ لأن مَلِكًا رُسُلُهُ الطير إنّه لَمَلِك

---

١ - انظر تفسير **الكشف والبيان**، للثعلبي النيسابوري، ٧/ ٢٠٠ - ٢٠١، باختصار وتصرف يسير.

عظيم، فقرأت الكتاب وتأخّر الهدهد غير بعيد فجاءت حتى قعدت على سرير ملكها وجمعت الـملأ من قومها وأخذت تشاورهم في هذا الأمر[١].

﴿قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [النمل: ٢٩-٣٤].

الفوائد: قرأت ملكة سبأ رسالة سليمان وسمَّتها: «**كتابًا كريمًا**» **أولاً**: لأنه كان مختصرًا ويتضمن معاني مهمة في كلمات قليلة، **وثانيًا**: لأنه كان مُصَدَّرًا باسم الله الرحمن الرحيم، **وثالثًا**: لأنه كان مختومًا، وقيمة كل رسالة في ختمها الذي مُهرت به، **ورابعًا**: لأنه لم يكن فيه إظهار طمع بملك أو مال، أو لأن حاملها لم يكن مأمورًا عاديًا أو لأن فيه دعوة إلى عدم العلوّ والترفّع وإلى التسليم لأمر الحق الذي يجمع أصول الفضائل.

ويُمكن أن تكون جملةُ: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ بدلاً من كلمة كتاب أو تكون خبرًا لمبتدأ محذوف يعني هو.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ على حسن تدبير ملكة سبأ وعقلها وإنصافها، ولذلك اهتدت إلى الحق في نهاية الـمطاف.

﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَـٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم ۚ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [النمل: ٣٥-٣٧].

الفوائد: لم يُذكر في كتاب الله ماهية الهدية التي أرسلتها بلقيس إلى سليمان، وقد جاء في

١- انظر تفسير **الكشف والبيان**، للثعلبي النيسابوري، ٧/ ٢٠٥، باختصار وتصرف يسير.

الأخبار: «أنها أرسلت له خمسمائة جارية وخمسمائة غلام، فألبست الجواري لباس الغلمان، الأقبية والـمناطق، وألبست الغلمان لباس الجواري، وجعلت في سواعدهم أساور من ذهب، وفي أعناقهم أطواقًا من ذهب، وفي آذانهم قُروطًا وشنوفًا مرصّعات بأنواع الجواهر، وحُمِلَت الجواري على خمسمائة رَمكة والغلمان على خمسمائة برذون، على كل فرس لجام من ذهب مرصّع بالجواهر وغواشيها من الديباج الـملونة، وبعثت إليه أيضًا خمسمائة لبنة من ذهب وخمسمائة لبنة من فضة وتاجًا مكلّلاً بالدرّ والياقوت الـمرتفع وأرسلت إليه أيضًا الـمسك والعنبر وعود الالنجوج، وعمدت إلى حقّة فجعلت فيها دّرة يتيمة غير مثقوبة وخرزة جزعية مثقوبة معرجة الثقب، ودَعت رَجُلاً من أشراف قومها يقال له الـمنذر بن عمرو وضمّت إليه رجالاً من قومها أصحاب رأي وعقل وكتبت معه كتابًا نسخة الهدية وقالت: إن كنت نبيًّا فميّز بين الوصفاء والوصيفات، وأخبرْ بما في الحقّة قبل أن تفتحها وأثقب الدرّة ثقبًا مستويًا وأدخل خيطًا.

ولما ورد الـمنذر بن عمرو على سليمان عليه السلام ورأى ما في ملكه من عظمة وهيبة وجلال، تصاغر في نفسه وخجل من هديته، فتبسم سليمان ولم يمنع عنه لطفه، وأخبره بما في الحُقّة - بوحي جبريل له بذلك - وأمر نملةً بيضاء بثقب جدرانها وأمر دودةً أن تسلكَ خيطًا في الثقب، وأمر الجواري والغلمان أن يغسلوا وجوههم وأيديهم وبهذه الوسيلة عرف الذكور من الإناث[1]. ثم توجه إليهم وقال: أنتم بهديتكُم وبمال الدنيا تفرحون وليست الدنيا من حاجتي. ورجع الـمنذر وأخبر بلقيس بما رآه فعرفت أن سليمان نبيٌّ، لذا انطلقت إليه لتعلن في حضوره إيمانها به.

﴿قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل: ٣٨-٤٠].

---

١ - لخّص الـمؤلف هذه القصة مما أورده الثعلبي النيسابوري في تفسيره **الكشف والبيان**، ٧/ ٢٠٧.

الفوائد: أراد سليمان أن يمتحن عقل بلقيس ويرى هل ستتعرف على عرشها إذا أُجريت عليه تغييرات بسيطة أم لا؟ أو أنه أراد بذلك أن يُريها قدرة الله الـمعجزة كي تُسْلِمَ لِلَّهِ؛ لذلك قال لمن حوله: أيكم يأتيني بعرش بلقيس قبل أن تصل إلينا؟ وَيَتَبَيَّنُ من هذا السؤال أن أمراء مجلسه وكبار الـمسؤولين فيه كانوا يستطيعون أن يُحضروا عرش بلقيس. فقال أحد الجِنِّ: أنا أحضره لك. وقال آخرُ كان يعلم شيئًا من التوراة: أنا أحضره، ولم يذكر القرآن اسم هذا الشخص الأخير، فقال بعضهم: إنه كان ملاكًا، وقال آخرون: إنه «آصف بن برخيا» الذي أراد سليمان أن يأتي هو بعرش بلقيس كي يُثبت للناس جدارته وأنه وصيه. وقال آخرون: كان سليمان نفسه هو الذي أتى بعرش بلقيس. فإن قيل: كيف أمكنه الإتيان بعرش كبير؟ والجواب أنه ورد عن الإمام عليّ عليه السلام في أدعية الأيام، وكذلك عن الإمام الصادق عليه السلام أنه دعا وطلب من الله فاستجاب الله دعاءه وأحضر له العرش.

وذكر الـمُفسِّرون كالطبرسي والطوسي والرازي وغيرهم عدة احتمالات لإحضار عرش بلقيس منها:

١- أعدم الله العرش في مكانه وأوجده عند سليمان.

٢- حملته الـملائكة وأحضرته بأمر الله.

٣- طويت الأرض وأحضرت العرش.

٤- أتت به ريح صرصر.

وذكروا احتمالات أخرى أيضًا، وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ أن الـمعجزة فعل الله وليست من صنع البشر، أجل، إن الله الذي جعل الشمس والقمر يقطعان في لحظة واحدة آلاف الكيلومترات لقادر أن يُحضر عرش بلقيس في أقل من طرفة عين.

وقد استدلَّ الغلاةُ وأهلُ البِدعة بهذه الآية على الولاية التكوينية الـمطلقة لكل إمام على العالَم كله، لكن هذا الاستدلال ليس صحيحًا لأننا لو قلنا: إن هذا العمل حصل نتيجة دعاء الله أو حتى لو قلنا: إنه حصل بفعل «آصف بن برخيا» فإن آصف نفسه لم يكن يمتلك ولايةً تكوينية لا

على العالَم كله ولا على بعضه.

وفي زماننا هذا الذي استطاع فيه الإنسان أن يصل إلى القمر باستخدام الوسائل الطبيعية (قوانين الطبيعة) لم يمتلك الإنسان أي ولاية حتى ولاية تكوينية جزئية كما يعترف بذلك العلماء، إذ قال بعضهم: منذ أن أُعلن أن الأرض ليست سوى كرة ترابية صغيرة في عوالم لا نهاية لها، حُكم على الإيمان القديم بالموت، وأصبح العالم عالـمًا لا متناهيًا، وأصبحت مركزية الأرض فيه فكرةً وهمية، وفقدت الأرض أهميتها ومقامها وأصبح الاعتقاد بأن القدرة العظيمة المنظمة من وراء الستار لهذا العالم الذي لا تبدو له حدود أو نهاية، قد نزلت إلى الأرض الحقيرة وظهرت بشكل إنسان وتحملت العذاب والآلام وقُتلت لأجل خطايا نوعٍ لا قيمة له من المخلوقات - أي الإنسان - وعصيانه، اعتقادًا مستحيلاً[1] ...

ثانيًا: إذا امتلك شخصٌ شيئًا أو قدرةً، لم يكن ذلك دليلاً على امتلاك شخص آخر الأمرَ نفسَه، لأن القياس غير صحيح، لاسيما قياس غير الأنبياء على الأنبياء.

أجل، الاحتمال القوي أن الذي أتى بعرش بلقيس لم يكن بشرًا أصلاً.

﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ۝٤١ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ۝٤٢﴾ [النمل: ٤١-٤٢].

الفوائد: اختلف المُفسِّرون في قائل جملة: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ هل هي بلقيس أم سليمان؟ فإن اعتبرنا الجملة من كلام بلقيس أصبح المعنى أن بلقيس لما رأت معجزة إحضار عرشها قالت: كأنه هو عرشي ذاته وإنني كنت أعرف الله وأؤمن به قبل رؤيتي لهذه المعجزة. وأما إن اعتبرنا أن الجملة من كلام سليمان، كان المعنى: أن سليمان قال - شُكْرًا منه لِلَّهِ-: إننا كنا على علم بالله وبقدرته قبل هذه المعجزة وقبل إيمان ملكة سبأ.

١- يردُّ الكاتب الغربي - الذي ينقل المؤلف البرقعي كلامه هنا- على اللاهوت المسيحي أي عقيدتهم في إلهية المسيح وأنه الله الذي نزل إلى الدنيا وتجسَّد إنسانًا ثمَّ تألَّمَ وَصُلِبَ لِيُكَفِّرَ عن خطايا البشر!

ولكن الـمعنى الأول أظهر.

﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ٤٣ قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ٤٤﴾ [النمل: ٤٣-٤٤].

الفوائد: ذكر الـمُفَسِّرون لجملة: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ عدة معانٍ أظهرها ما ذكرناه في الترجمة، [أي عبادةُ ملكة سبأ لغير الله مَنَعَتْها من الإيمان بالله وحده وكانت من الكافرين]؛ أي أننا جعلنا جملة: ﴿مَا كَانَت تَّعۡبُدُ﴾ فاعلاً لفعل «صَدَّهَا» وهذا يدلُّ على أن التوجُّه إلى غير الله وعبادته يمنعان الإنسان من عبادة الله.

هذا، وقد بنى سليمان قصرًا عظيمًا وجعل أرضيته من الزجاج الصافي وجعل تحت الزجاج ماءً ولذلك لما أرادت ملكة سبأ الدخول إلى قصره شمَّرت عن ساقيها كي لا يُبلِّل الـماء ثوبها لأنها ظنت أنها ستدخل في بركة من الـماء، ثم آمنت في آخر الأمر. وهل تزوجت من سليمان أم لا؟ اختُلِفَ في ذلك، وقد سكت الحق تعالى عن هذا الأمر وعلينا أن نقول: «**اسكتوا عما سكت الله**».

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمۡ فَرِيقَانِ يَخۡتَصِمُونَ٤٥ قَالَ يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ٤٦ قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ٤٧﴾ [النمل: ٤٥-٤٧].

الفوائد: لما دعا صالح قومَه انقسموا إلى فرقتين متخاصمتين فرقة آمنت به وأيَّدته وفرقة رفضت دعوته وخالفته وقامت كل فرقة بإيذاء الأخرى وطلبت من الله عذابها. فقال صالح: ألا تُريدون الخير والغفران من الله؟ ولَمَّا لم يكن لدى الكفار من قومه أي دليل معقول ردُّوا بكلام لا طائل تحته فادَّعوا أن وجودك بيننا شؤم علينا وكل ما يُصيبنا من بلايا كالقحط وغلاء الأسعار والظلم والجور فهو بسببك. فنحن متشائمون من وجودك بيننا ونرى أنك منذ أن جئتنا بدأت تحلّ بنا الـمصائب والـمجاعات والغلاء! فأجابهم صالح: إن ما أصابكم من خير أو شر هو مما

قدَّره الله عليكم.

هذا، وسوف نُوضِّح الـمزيد حول التشاؤم والتطيُّر في تعليقنا على الآية ١٨ من سورة يس.

﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النمل: ٤٨-٥٣].

الفوائد: ترجمنا عبارة: ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ بتسعة أشخاص، ولكن الظاهر أنهم كانوا تسع جماعات انتخبوا تسعة أشخاص ممثلين عنهم وكان رئيسهم «قدار بن سالف» وكان هؤلاء التسعة هم الذين عقروا الناقة.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ أن قوم صالح كانوا يؤمنون بالله ولكنهم كانوا مفسدين في الأرض. وعلى كل حال، كان صالح يعبد الله في مسجد داخل كهف، فقرر ثلاثة أشخاص أن يقتلوه وقالوا: إننا بعد أن عقرنا الناقة سنلقى العذاب بعد ثلاثة أيام، فلنقتل صالحًا قبل أن تنتهي هذه الأيام الثلاثة. فجاؤوا في أول الليل لقتله فوقعت صخرة عليهم من الجبل فهلكوا جميعًا. وجاء في رواية أخرى أنهم دخلوا إلى الغار بحثًا عن صالح فسقطت صخرة إلى فم الغار فَسَدَّته فحُبسوا هناك وهلكوا، ثم أهلك الله بقية قومهم بالصيحة.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [النمل: ٥٤-٥٨].

الفوائد: تَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أنهم كانوا عالـمين بقبح عملهم، والعمل القبيح يكون أشد قُبحًا إذا صدر من العالِم. ومن الـممكن أنهم كانوا – كما جاء في

الأحاديث – يرتكبون اللواط بشكل علنيّ أمام أنظار بعضهم بعضًا، هذا إذا حَمَلْنا فعلَ ﴿تُبۡصِرُونَ﴾ على الرؤية البصرية. واللواط قبيح بحكم العقل لأن الله تعالى خلق النساء لأجل الرجال كي يبقى نسلُ الإنسان، إضافةً إلى أن اللواط يُسبِّب أمراضًا عديدةً وأنه عمل مغاير للطبيعة.

﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ٥٩ أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ٦٠﴾ [النمل: ٥٩-٦٠].

الفوائد: بعد أن أهلك الله المفسدين والفاسدين قال: قل الحمد لِلَّهِ المحيط بكل شيء والذي هو بكل شيء عليم.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓ﴾ أن الله يُجيز السلام على عباده المُختارين والدعاء بسلامتهم، فيُمكن لكل إنسان أن يطلب من الله السلامة والرحمة لهم ويقول: السلام على محمد أو السلام على زيد وعمرو. أما عندما يرحل عبد من عباد الله عن هذه الدُّنْيَا ويستقرّ في عالَمٍ آخر وتنقطع أخبار هذه الدُّنْيَا عنه، فعلينا أن نعلم أنه لم يَعُدْ حاضرًا في الدنيا وأن صفة الإحاطة بكل شيء والعلم بكل شيء خاصة بالله تعالى وحده؛ فعلى الإنسان أن لا يقول للغائب: السلام عليكَ بل يقول: السلام عليه.

ثم وجَّه الله تعالى استفهامًا تقريعيًا وتقريريًا للمشركين لإيقاظ وجدانهم فقال: هل تجعلون اللَّهَ ذا الكمال والجلال، مساويًا للمخلوق الناقص؟ أتجعلون لأنفسكم معبودًا تتوجهون إليه مع الله؟؟!

وفي جملة: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾ التفاتٌ من الغائب إلى المتكلِّم.

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٦١ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٦٢ أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٣ أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ

وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴿٦٤﴾ [النمل: ٦١-٦٤].

الفوائد: من الواضح من هذه الآيات أن الـمُشْرِكين كانوا يؤمنون أن الله مُدبِّر السماوات والأرض ومجيب دعوة الـمضطرين وكاشف الضرّ عن الـمساكين وهادي أصناف العالـمين ومُرسل الرياح و.......... ولكنهم كانوا يعتبرون موجودات ناقصة أخرى أيضًا مؤثرة في الوجود مع الله، أو أنها شفيعة وواسطة بينهم وبين الله، كما نجد اليوم في زماننا الأفكارَ ذاتها أي الإيمان بمثل ذلك الإله الـمُدبِّر الـمُجيب القادر .... إلخ وإشراك بعض الشفعاء معه بنحو أو آخر، بل إن بعض الناس يعتبر بعض الـمخلوقات مثل الأوصياء والصالحين أرحم من الله وأكثر شفقةً، ويتوسلون بهم ليلاً ونهارًا.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ أن لا أحد، بشرًا كان أم من غير البشر، يستطيع أن يُجيب دعوة الـمضطرين وأن يرفع عنهم الضُرَّ والبلاء، بل هذه الصفة خاصة بالله تعالى ومن يُثبت هذه الصفة لغير الله فإنه يُعطيه الألوهية مع الله، ولذا قال تعالى: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟

﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ﴿٦٦﴾﴾ [النمل: ٦٥-٦٦].

الفوائد: هذه الآيات دليل على أن لا أحد غير الله يعلم الغيب وميعاد الساعة، حتى الأَنْبياء والـملائكة، فمن نسب إلى الأَنْبياء والأولياء علم الغيب فقد خالف كلام الله.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ﴿٦٧﴾ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴿٦٨﴾ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴿٧٠﴾﴾ [النمل: ٦٧-٧٠].

الفوائد: تَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ﴾ أنه لم يكن لدى الكفار أي دليل على نفي الـمعاد سوى الاستبعاد فحسب.

وليس النهي في جملة: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ وجملة: ﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾

نهيًا تحريميًا بل هو من باب المواساة مثل جملة: ﴿إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ٧١ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ٧٢ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ٧٣ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ٧٤﴾ [النمل: ٧١-٧٤].

الفوائد: قدَّم الله عبارة: ﴿مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ﴾ على ﴿وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ لأن ما في الصدور سبب للأفعال العلنية وعلة لها، لأن ما في الجوانح سبب لما يظهر في الجوارح.

﴿وَمَا مِنۡ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ٧٥ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ٧٦ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحۡمَةٌ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ٧٧﴾ [النمل: ٧٥-٧٧].

الفوائد: المقصود من ﴿كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ علم الحق تعالى أو اللوح المحفوظ.

وَيَدُلُّ قَوۡلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أن القرآن رافع لكثير من الاختلافات التي كانت بين اليهود، ويجب أن نزن التوراة بميزان القرآن لنُميِّز الأجزاء التي حُرِّفت فيها وأُضيفت عليها عن الأجزاء الأصيلة. ولكن للأسف فإن المسلمين لم يرجعوا إلى القرآن، ولا يرجعون إليه حتى الآن، حتى لحل الاختلافات فيما بينهم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُم بِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ٧٨ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ٧٩ إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ٨٠ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ٨١﴾ [النمل: ٧٨-٨١].

الفوائد: يُمكن أن يعود ضمير ﴿بَيۡنَهُم﴾ على بني إسرائيل ويُمكن أن يعود على بني إسرائيل والمؤمنين بالقرآن معًا.

وَيَدُلُّ قَوۡلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ أن الموتى لا يسمعون ومخاطبتهم والتكلم معهم

عمل عبثي ولغو، والعقل يحكم بذلك أيضًا لأن كل مستمع سوى الله يسمع بأذنه سواءً كان نبيًا أم وليًا. فلمّا تُوُفُّوا توقفت آذانهم عن العمل ولم تعد لديهم قوة السمع فهم لا يسمعون. وقد رُوي عن رسول الله ﷺ بأسانيد متعددة أنه دعا ربَّه قائلاً: «**اللّٰهُمَّ لا تجعل قبري وثناً يُعْبَد**»[1].

ورُويت روايات عديدة مضمونها: «**لا تطف بقبر**»[2] أي أن المسلم لا يجوز له أن يطوف بأي قبر.

والطوافُ ودعاءُ مَدْعُوٍّ غيبيٍّ عبادةٌ، فإذا كان الناس في زماننا يؤدون مثل هذه العبادات لغير الله كأن يدعوا غير الله ولكنهم لا يُسمُّون عملهم عبادة فإن هذا لا يُعفيهم من كون عملهم عبادةً وشركًا، لأن تغيير الاسم لا يُغيِّر المعنى.

في هذه الآية يقول تعالى: أنت يا محمد لا تُسمع الموتى، فإذا كان محمد ﷺ لا يستطيع إسماع الموتى فمن باب أولى أن لا تستطيع أنت مخاطبة الموتى. فمن يذهب إلى قبور الأَنْبياء والأوصياء أو الصالحين ويقول: «**السلام عليك... أشهد أنك تَسْمَعُ كَلَامِي وَتَرُدُّ جَوَابِي وَتَرَى مَقَامِي**» يرتكب عملاً مخالفًا للعقل ويشهد شهادةً مخالفة للقرآن، مع أن الشهادة على ما لم يسمعه الإنسان ولم يره مُحرَّمة شرعًا ومن الكبائر. وقد قال رسول الله ﷺ: «**لَعَنَ الله زَوَّارَاتِ الْقُبُورِ،**

---

١ - روى ابن بابويه القمي في «**علل الشرائع**» (٢/ ٣٥٨)، بسنده عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت له الصلاة بين القبور؟ قال: «**صلِّ في خلالها ولا تتخذ شيئًا منها قبلةً، فإن رسول الله ﷺ نهى عن ذلك وقال: ولا تتخذوا قبري قبلةً ولا مسجدًا فإن الله تعالى لَعَنَ الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد!**»، وروى نحوه أيضًا في كتابه «**من لا يحضره الفقيه**» (١/ ١٧٨)، باختلاف يسير. ومن طرق أهل السنة أخرجه بهذا اللفظ الإمام أحمد في **المسند** (٢/ ٢٤٦)، وأخرجه ابن أبي شيبة في **المصنَّف** (٢/ ٢٦٩) بسنده عن زيد بن أسلم قال: قال رسول الله ﷺ: «اللّٰهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُصَلَّى له، اشْتَدَّ غضبُ اللهِ على قَومٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيائِهِم مَسَاجِدَ».

٢ - الحرّ العامليّ، **وسائل الشيعة**، ج ١٠/ باب ٩٢ من أبواب المزار في كتاب الحج، وج١/ ص٢٤١. والشيخ عباس بن محمد رضا القُمِّيّ، **سفينة بحار الأنوار**، ج ٢/ ص٩٩.

وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا السُّرُجَ»[١].

وكان «**الشَّعْبِيّ**» أبو عمرو عامر بن شراحيل الـمُتوفى سنة ١٠٤ هـ – وكان من علماء الإسلام الكبار، ورأى ١٥٠ صحابيًا من صحابة رسول الله ﷺ وأخذ عنهم الحديث – يقول: «**لولا أن رسول الله ﷺ نهى عن زيارات القبور لزرت قبر النبيِّ [و في روايةٍ: لَزُرْتُ قبرَ ابْنَتِي]**»[٢].

يقول بعض الخرافيين: إن المراد من جملة: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ موتى القلوب أي الكفار الذين هم بمثابة الموتى وإن كانوا أحياء، لأن الله شبَّههم بالموتى، فالمقصود من الآية أنك يا محمد! لا يُمكنك إسماع كلامك لمثل هؤلاء الكفار.

والجواب: إن بيانكم هذا يُثبت كلامنا على نحو أفضل لأن الله شبَّه موتى القلوب بالموتى الحقيقيين أي الأموات، في كونهم لا يسمعون الكلام، وفي كل تشبيه لا بدّ من وجهٍ للشبه، ووجه الشبه هنا عدم سماع الكلام، ولا بدّ أن يكون وجه الشبه في الـمُشبَّه به أقوى من وجه الشبه في الـمُشبَّه، فمثلاً إذا شبَّهنا زيدًا بالأسد وقلنا: «زيد أسد في الشجاعة» فهنا وجه الشبه الذي هو الشجاعة ينبغي أن يكون أقوى في الأسد، أي أن شجاعة الأسد مُسَلَّمة ويقينية حتى شُبِّه زيد به فيها.

إذن في هذه الآية التي ذُكر فيها عدم سماع الموتى على نحو الحقيقة يجب أن يكون أمرًا مسلمًا به ويقينيًا حتى شبَّه الله به موتى القلوب.

إضافةً إلى ذلك قال تعالى في الآية ٢٢ من سورة فاطر: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢]، فهنا صرَّحت الآية أن الذين في القبور ليسوا بسامعين ولا يسمعون.

١- أخرج الترمذي وابن ماجه في **سننهما** والإمام أحمد في **المسند** الجملة الأولى: «**لَعَنَ زَوَّارَاتِ الْقُبُورِ**» وقال الترمذي: وَفِي الْبَاب عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَحَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ، وهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. ورواه البيهقي في **السنن الكبرى** (ج٤/ ص ٧١) بهذا اللفظ بتمامه، ورواه ابن أبي شيبة في **المصنَّف** (ج٢/ ص ٢٦٩) بسنده عن ابن عباس قال: «لعن رسولُ الله ﷺ زائراتِ القبور والمتخذاتِ عليها المساجد والكنس».

٢- الحافظ عبد الرزاق الصنعاني، **المصنف**، ج٣/ ص٥٦٩، وفي بعض طرقه كلمة «**ابنتي**» بدلاً من كلمة «النبي»، وهذا لا يغير من حقيقة النهي شيئًا.

بعض المشايخ المتظاهرين بالعلم تركوا هذه الآيات الصريحة جانبًا وتشبثوا بروايات موضوعة كالرواية التي تقول: إن رسول الله ﷺ ألقى أجساد قتلى الـمُشْرِكين يوم بدر في البئر ثم خاطبهم قائلاً: «**هل وجدتم ما عملتم**»؟ مع أن الأمر ليس كذلك ولم يقل رسول الله ﷺ: هل وجدتم، بل قال: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وقال الإمام الباقر عليه السلام: «**نَهَى رَسُولُ الله أَنْ يُصَلَّى عَلَى قَبْرٍ أَوْ يُقْعَدَ عَلَيْهِ أَوْ يُبْنَى عَلَيْهِ**»[١].

وجاء في كتاب «**النهاية**»: «**نَهَى النبيُّ ﷺ أن يُجصَّصَ القبرُ أو يُبْنَى عليهِ أو يُكْتَبَ عليه لأنَّه من زينة الدنيا فلا حاجة بالـميِّت إليه**»[٢].

وفي كتاب «**الـمحاسن**» للبرقي [روى الأصبغ بن نباتة] عن أمير الـمؤمنين عليه السلام أنه قال: «**مَنْ جَدَّدَ قبرًا أو مَثَّلَ مثالاً، فَقَدْ خَرَجَ عَنِ الإِسْلامِ**»[٣].

وفي كتاب «**الكافي**» عن الإمام عليّ عليه السلام أنه قال: «**بعثني رسولُ الله ﷺ إلى الـمدينة في هَدْمِ القبور وَكَسْرِ الصُّوَر فقال: لا تَدَعْ صُوْرَةً إلّا مَحَوْتَهَا ولا قَبْرَاً إلا سَوَّيْتَه**»[٤].

ولكن الناس قاموا -خلافًا لأمر عليٍّ- ببناء قبور مرتفعة على مراقد أبنائه!.

يجب أن يكفَّ الناس عن القيام بأعمال مخالفة لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وأن يعرفوا اللّهَ حقَّ معرفته. كان الإمام الباقر عليه السلام يقول: «**من عرف الإمام ولم يعرف الله فقد ضل ضلالاً بعيدًا**».[٥]

١- الحرّ العامليّ، **وسائل الشيعة**، الباب ٤٤ من أبواب الدفن.

٢- النوري الطبرسي، **مستدرك الوسائل**، الطبعة الحجرية، ج١/ ص١٢٧. وهو في مصادر أهل السنة في **صحيح مسلم**، ١١-كتاب الجنائز/ ٣٢- باب النهي عن تجصيص القبر والبناء عليه، رقم (٩٧٠).

٣- أحمد بن محمد البرقي (ت ٢٧٤ أو ٢٨٠هـ)، **الـمحاسن**، ط٢، قم، دار الكتب الإسلامية، ١٣٧١هـ، ج٢/ ص ٦١٢، ح (٣٣). وابن بابويه القمّيّ، **من لا يحضره الفقيه**، ج١/ ص١٨٩، ح (٥٧٩)، ونقله الشيخ الطوسي في «**تهذيب الأحكام**»، ج١/ ص ٤٥٩، ح (١٤٢)، والحر العاملي في «**وسائل الشيعة**» / باب ٤٣ من أبواب دفن الـموتى، ح (٦٦١٧).

٤- الكُلَيْنيّ، **الكافي**، ج٦/ ص٥٢٨.

٥- لم أجده.

وعلى كل حال، فمع وجود آيات القرآن الواضحة لسنا بحاجة إلى نقل مثل هذه الروايات.

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ تُكَلِّمُهُمۡ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴿٨٢﴾﴾ [النمل: ٨٢].

الفوائد: المراد من: «وقوع القول عليهم» مجيء القيامة أو الأمر بإيجادها.

وَما هو الـمُرَاد مِنْ: ﴿دَآبَّةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾؟ رُويت في ذلك أحاديث مختلفة أكثرها أشبه بالخرافات والأحاديث الموضوعة. ولما كان الأمر يتعلق بمقدمات القيامة وعلامات الساعة فهو من الـمُتشابهات التي قال تعالى عنها: ﴿مَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]. ولكن حسب المفهوم والترجمة التي ذكرناها ينبغي أن يكون المقصود – طبقًا للآية ٤ من سورة الزلزلة – أن دابةً أرضيةً ستشهد يوم القيامة أي أن الله سيُنطقها.

﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ فَوۡجٗا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبۡتُم بِـَٔايَٰتِي وَلَمۡ تُحِيطُواْ بِهَا عِلۡمًا أَمَّاذَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمۡ لَا يَنطِقُونَ﴿٨٥﴾﴾ [النمل: ٨٣-٨٥].

الفوائد: المراد من اليوم في جملة: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُ﴾ يوم القيامة حيث يتمّ إحضار الناس فوجًا فوجًا كما قال تعالى في سورة النبأ: ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأۡتُونَ أَفۡوَاجٗا﴿١٨﴾﴾ [النبأ: ١٨].

وَالـمَقْصود مِنْ الآية أعلاه ذِكر القوم الظالمين الذين سيُطأطئون رؤوسهم من شدة الخجل يوم القيامة ولن يستطيعوا أن ينطقوا بكلمة خوفًا ورهبةً أو لعدم امتلاكهم أي عذر. وقد اتَّخذ بعض الكُتَّاب هذه الآية دليلاً على «الرجعة» في حين أن الآيات التالية لها ستُبيِّن أن حضور هؤلاء الأفواج هو لأجل محاسبتهم ومجازاتهم على أعمالهم، أما في الرجعة فلا جزاء على الأعمال.

ويُمكننا أن نستفيد من جملة: ﴿وَلَمۡ تُحِيطُواْ بِهَا عِلۡمًا﴾ مسائل فوق العلم، أي أن المسائل التي لا يُمكن للبشر بمعاييرهم العلمية أن يقفوا على كيفيتها وحقيقتها، مثل وجود الملائكة وبقاء الروح والوحي والإلهام والقيامة وغيرها، بل حتى بعض الصفات التي فينا لا يُمكننا – رغم تقدم وسائل البحث العلمي اليوم – أن نُدرك حقيقتها وكيفيتها مثل الحرص والحقد

والعداوة والحُبّ والعاطفة والجمال والخيالات والمعاناة والألم الذي يُعانيه المريض وكثير من الأمراض النفسية والعشق وغيرها مع أنها متعلقة بنفوسنا، ورغم ذلك فنحن والأطباء النفسيون أيضًا عاجزون عن إدراك كيفيّة مثل هذه الصفات وكمّيّتها، فما بالك بسائر المسائل والحقائق!.

﴿أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ۝٨٦ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ۝٨٧ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفْعَلُونَ۝٨٨﴾ [النمل: ٨٦-٨٨].

الفوائد: لما جرى الكلام في الآيات السابقة عن التوحيد والمعاد استدل الله لإثبات التوحيد والمعاد بخلق الليل والنهار وفوائدهما.

وَالمُرَاد مِنْ الآيات في جُمْلة: ﴿لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ الدلائل على قدرة موجد تلك الأمور وعلى علمه. وَالمُرَاد مِنْ: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ رؤيتها في الآخرة كما قال تعالى في سورة المعارج: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ۝٩﴾ [المعارج: ٩].

لكن بعض الناس أراد أن يستفيد من تلك الآية لإثبات حركة الأرض ودورانها.

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ۝٨٩ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ۝٩٠﴾ [النمل: ٨٩-٩٠].

الفوائد: يُمكن أن يكون المراد من الحسنة والسيئة التوحيد والشرك، وقد يكون المراد أعمّ من ذلك ويشمل كلَّ عملٍ صالحٍ وعملٍ سيءٍ. وكون ثواب الحسنة خيرًا منها باعتبار أن الحسنة بعشر أمثالها وباعتبار أن جزاء الحسنة متواصل ومستمر.

وَيُسْتَفَادُ مِنْ هذه الآيات وآيات أخرى أن النجاة لا تكون إلا بالإيمان والعمل الصالح فقط.

وقد جاء في كتاب «**الأمالي**» للشيخ الصدوق عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ عَنْ أُمِّهِ فَاطِمَةَ بِنْتِ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ قَالَتْ: «**خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ فَقَالَ: إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ**

وَتَعَالَى بَاهَى بِكُمْ وَغَفَرَ لَكُمْ ...... [إلى أن قال:] وَإِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ غَيْرَ مُحَابٍ لِقَرَابَتِي»[١].

وجاء في كتاب «**عيون أخبار الرضا**» أن رجلاً قال للإمام الرضا عليه السلام: «وَاللهِ ما على وجه الأرض أشرف منك أبًا، فقال: التقوى شرفُهُم وَطاعةُ الله أحظتهم. فقال له آخر: أنت والله خير الناس! فقال له: لا تحلف يا هذا، خيرٌ منّي من كان أتقى لِلَّهِ تعالى وأطوع له. واللهِ ما نُسِخَتْ هذه الآية»[٢] ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من على مِنبره: «**إِنَّ النَّاسَ مِنْ عَهْدِ آدَمَ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا مِثْلُ أَسْنَانِ الْمُشْطِ لَا فَضْلَ لِلْعَرَبِيِّ عَلَى الْعَجَمِيِّ وَلَا لِلْأَحْمَرِ عَلَى الْأَسْوَدِ إِلَّا بِالتَّقْوَى**»[٣].

ولكن ينبغي أن نعلم أننا بامتلاكنا للآيات البيِّنات في هذا المجال لا حاجة بنا لنقل هذه الروايات.

﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَاْ ٱلْقُرْءَانَۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [النمل: ٩١-٩٣].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أن النبيّ نفسه يجب أن يكون مسلمًا مثل سائر المسلمين يعمل بأوامر الله، واسم دينه الإسلام وهو يتسمَّى بالمسلم ولا يُسمِّي نفسه شيعيًا ولا سُنيًا ولا جعفريًا ولا حنفيًا ولا شافعيًا ولا صوفيًا ولا شيخيًا.

وقد كان نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم في غاية التواضع مع المؤمنين كما جاء في كتاب «**مكارم الأخلاق**» للشيخ الطبرسيّ عن أنس بن مالك: «**لَمْ يَكُنْ شَخْصٌ أَحَبَّ إِلَى أصحاب**

١- ابن بابويه القمي (المعروف بالشيخ الصدوق)، **الأمالي**، ص ١٨٢.

٢- ابن بابويه القمي، **عيون أخبار الرضا**، ج٢/ ص ٢٣٦.

٣- الشيخ المفيد (ت ٤١٣هـ)، **الاختصاص**، ص ٣٤١، والمجلسي، **بحار الأنوار**، ٢٢/ ٣٤٨.

رسول الله ﷺ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: وَكَانُوا إِذَا رَأَوْهُ لَمْ يَقُومُوا إليه لِمَا يَعْلَمُونَ مِنْ كَرَاهَتِهِ لِذَلِكَ»[١].

ولما نزلت هذه السورة في مكة ولم يكن لدى رسول الله ﷺ حينذاك قدرةٌ على تطبيق القوانين الإسلامية، قال تعالى له في الآية ٩٢ «أُمِرتُ أن أتلو القرآن»، سواء آمنتم أم لم تؤمنوا.

يقول الكاتب: كان رسول الله ﷺ في مكة يستطيع أن يقرأ القرآن ويُسمعه للناس، ولكن في زماننا فإن كثيرًا ممن يعتبرون أنفسهم من دُعاة الإسلام ومُروِّجي شريعته يمنعون من تلاوة القرآن وبيان حقائقه وقد طعنوا فينا وسعوا في دمارنا عندما قمنا ببيان حقائق القرآن وفضح خرافاتهم المضادة للقرآن، وفَضْحِ أعمالهم الشركية وأوهامهم المذهبية، وكشفِ أهل تلك الأعمال، فاستعانوا عندئذٍ بالشاه (المَلِك) والوزير من خلال الرشوة وأتوا معهم بعناصر السافاك[٢] وأنفقوا ثلاثة ملايين تومان[٣]، وقام هؤلاء المراجع المذهبيون أنفسهم بالتعاون مع الجهال بأخذ مسجدنا منا واتهامنا بشتى التهم ونشر الأكاذيب عنا.

وبعد أن طُبِعَ هذا الكتاب الحاضر صَدَرَ أمرٌ بإيقاف نشره ومنع تداوله، حتى قام شخص بحذف بعض الأمور والمطالب منه، ثم قام بطباعته ونشره باسمه ودون إذن من مؤلفه (أي كاتب هذه السطور)! وقد أخذونا إلى السجن بجرم بيان حقائق القرآن وبعد مدة أخذوا منا تعهدًا بترك المسجد الذي كنا نؤمُّه وندّرس فيه وأتوا بصور للشاه (محمد رضا بهلوي) وزوجته الملكة فرح (ديبا) ووليّ العهد، وألصقوها على الباب والجدران ونصبوا قوس النصر ونصَّبوا إمامًا من عندهم وظلوا يحتفلون بهذا النصر المبين(!) حتى مدة من الزمن، وكان الوُعَّاظ وقُرَّاء المراثي خلال تلك المدَّة يصعدون المنبر في ذلك المسجد ويكيلون لنا التهم

١- أخرجه الترمذي في **السنن** (٢٧٥٤) (بلفظ قريب)، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه. وقال الألباني: صحيح. وأخرجه أحمد، **المسند**، ٣/ ١٣٢ و٣/ ٢٥٠ وقال محققه: صحيح على شرط مسلم.

٢- جهاز الأمن والمخابرات الإيرانية في عهد آخر ملوك إيران أي الشاه محمد رضا بهلوي.

٣- العملة الإيرانية. وكانت في ذلك الحين الذي يتكلم عنه المؤلف (أي في ستينيات القرن العشرين) تساوي حوالي ثُلث دولار.

والشتائم «**وإلى الله الـمُشتكَى والسلام على من اتبع الهدى**».

سورة القصص

مكيّة وهي ثمان وثمانون آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٣ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٤﴾ [القصص: ١-٤].

الفوائد: يدلُّ وصف القرآن بـ: ﴿ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ أنَّ القرآنَ بيِّنٌ واضحٌ يُمكن فهم آياته. و جمع شيعة، حيث كان فِرعون يُمارس السياسة الاستعمارية القائمة على تفرقة الناس شيعًا شيعًا وفرقةً فرقةً وجماعةً جماعةً. فجعل جماعةً شيعةً لفلان وجماعةً شيعةً لشخص آخر، وبهذا الأسلوب بثَّ بينهم الفرقة والاختلاف وجعل كل جماعة معادية للجماعة الأخرى وواقفةً أمامها ولذلك ابتُلي المجتمع بالتفرقة والفساد. وكل أمة تتفرق على هذا النحو يتسلط عليها الظلمة استنادًا إلى قاعدة: «فرق تسد». وهذا هو البلاء الذي أوقعوه في المسلمين.

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ٦ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٧﴾ [القصص: ٥-٧].

الفوائد: كان فِرعون يسعى إلى إضعاف بني إسرائيل لما قيل له: إن طفلاً من بني إسرائيل

سيُزيلك عن مُلكِكَ. وكان غافلاً عن قدرة الله، وقال الحق تعالى: شاءت إرادتنا أن نُنقذ بني إسرائيل من الضعف والذلة ونُسلِّطهم على أرض فِرعون ونُريَ فِرعون وآله عجائب قدرتنا، فبدأ تعالى يُبيِّن لنا كيفية تحقق إرادته فقصَّ علينا قصة موسى وتسلّطه على أرض مصر، لكن عددًا من الذين لا يؤمنون بالقرآن ويُؤوِّلون آياته بأخبار موضوعة مع أنه لا يحقّ لأحد أن يُؤوِّل آيات القرآن إلا الله تعالى كما أثبتنا ذلك في مقدمة هذا الكتاب، أَوَّلَ هذه الآيات على معنى مجيء رجل من ذرية رسول الله ﷺ [أي المهدي] وسيادته على الأرض! في حين أن الآيات صريحة في أن الله يُريد أن يُريَ فِرعون وهامان آياته وأن الكلام عن قصة فِرعون وموسى كما تدل عليه كلمات: ﴿وَنُرِيدُ﴾ و ﴿نَّمُنَّ﴾ و ﴿وَنُمَكِّنَ﴾ و ﴿وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ﴾ التي جاءت جميعًا متتاليةً بصيغة المتكلم مع الغير.

﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ۝٨ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًاۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١١﴾ [القصص: ٨-١١].

الفوائد: توكَّلتْ أمُّ موسى على الله ووضعت موسى في صندوق وألقته في نهر النيل، ولما تحرك الصندوق بدأ قلب أمّ موسى يخفق ويضطرب وكأن روحها تُريد أن تُفارق بدنها، فأراد الله أن يُطمئن قلبها وألهمها الصبر والثبات، وإلا لربما صاحت وعرَّضت نفسها وزوجها وابنها للقتل. وكان لِفرعون قصرٌ على ساحل نهر النيل فلما رأى صندوقًا في وسط الماء أمر موظفيه أن يأخذوا الصندوق من الماء ويُحضروه إليه، ولما فتحوا غطاء الصندوق وجدوا فيه طفلاً طاهرًا جذابًا، فتعلق قلب آسيا زوجة فِرعون بهذا الطفل وقالت: احفظوه ولا تمسوه بسوء ليكون لنا ولدًا. ومن الجهة الأخرى بدأت أخت موسى بالبحث عن الصندوق وعرفت أن موظفي فِرعون أخذوا الصندوق من النهر.

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [القصص: ١٢-١٣].

الفوائد: لما وقع موسى عليه السلام بأيدي آل فِرعون انجذبوا إليه وقرروا أن يأتوا له بمُرضعة، ولكن كُلَّما أتوه بِمُرضعةٍ وأرادت إرضاعه أعرض عنها بوجهه ولم يرضع منها، فقالت أخت موسى لهم: إني أعرف أسرةً يُمكن أن يكفلوه ويرعوه لكم، سمع هامان بذلك وخَمَّن أن تكون هذه الفتاة تعرف هذا الطفل وأسرته فقال لها: لأجل ماذا يكفلونه؟ قالت: لأجل فِرعون.

وربما كان المراد من: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ﴾ [النساء:٩٥]. الرؤيا التي أراها الله لأمّ موسى ووعدها فيها (بأن يُرجع لها موسى) وربما تكون قد سمعت صوت ملاك في اليقظة أو سمعت ذلك من نبيّ.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [القصص: ١٤-١٥].

الفوائد: المراد من جملة: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ الوصول إلى كمال القوة الذي يكون بين سن ١٨ إلى ٣٠. وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أنه أُعطيَ مقام النُّبُوَّة في تلك السنوات ذاتها التي كان لا يزال فيها في مصر[1].

وتدل كلمة: ﴿مِن شِيعَتِهِۦ﴾ أنه كان له منذ تلك الفترة أتباع وأن الرجل القبطي الذي تُوفي على أثر لكمة موسى كان من موظفي فِرعون بل كان خبازه. وَيُسْتَفَادُ مِن الآية التالية أن ضرب

١- في هذا التأويل نظر؛ إذْ ليس المُراد بالحكم والعلم النُّبُوَّة، بل هما يمهِّدان صاحبهما لتلقِّي النُّبُوَّة، والنُّبُوَّة لا تكون إلا بتلقِّي الوحي، والظاهر من القرآن أن موسى عليه السلام لم يُنبَّأ إلا بعد أن كلَّمه الله تعالى في الليلة المعروفة كما سيأتي في هذه السورة. هذا والله أعلم.

القبطي الذي أدى إلى وفاته – من غير قصد – لم يكن عملاً جائزًا لذلك اعتبره موسى من عمل الشيطان، ومن الممكن أن يعود اسم الإشارة في جملة: ﴿هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ﴾ على الاقتتال [بين القبطي والإسرائيلي].

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٦ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ١٧ فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسۡتَنصَرَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَسۡتَصۡرِخُهُۥۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ ١٨﴾ [القصص: ١٦-١٨].

الفوائد: إذا اعتبرنا أن اسم الإشارة «هَٰذَا» في الآية السابقة يعود على الاقتتال كان المعنى المراد أن اقتتال الشخصين مع بعضهما من عمل الشيطان لا أن لكمة موسى كانت من عمل الشيطان، وفي هذه الحالة يكون معنى ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي﴾ أنني ظلمت نفسي بدخولي إلى هذه المدينة، وبناءً على ذلك فإن موسى لم يرتكب ذنبًا، لكن هذا المعنى والتفسير مخالف لظاهر الآيات.

﴿فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ١٩ وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢٠ فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢١﴾ [القصص: ١٩-٢١].

الفوائد: بعد أن قتل موسى القبطي، رأى في يوم آخر ذلك الإسرائيلي الذي تصارع مع قبطي أمس يتصارع مع قبطي آخر، وطلب من موسى النصرة عليه أيضًا فلما جاء موسى لنصرة الإسرائيلي صاح الذي هو عدوٌّ لهما، أي القبطي: يا موسى! أتريد أن تقتلني كما قتلت شخصًا آخر بالأمس. ولما انتشر خبر قتل القبطي، استشار فِرعون أُمراءه بشأن موسى عليه السلام فقالوا له: اقتله. فسمع بذلك شخص -ذكرت التواريخ أنه كان مؤمن آل فِرعون وأن اسمه كان حزبيل- فسارع إلى موسى عليه السلام وقال له: إن القوم قرَّرُوا أن يقتلوك، فهرب موسى خائفًا.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝٢٢ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ۝٢٣ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ۝٢٤ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٢٥﴾ [القصص: ٢٢-٢٥].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ أن موسى اتَّجه في خروجه صوب مدين ولم يكن يعرف الطريق إليها فسأل الله أن يرشده إلى الطريق، وقد مشى موسى سبعة أيام بلياليها سيرًا على الأقدام بلا زاد ولا درهم ولا ظهر ولا حذاء ولم يكن له طعام إلاّ ورق الشجر، وسار حافيًا فما وصل إلى مدين حتى جُرحت قدماه. ووصل موسى عليه السلام إلى بئر ماءٍ فرأى الرعاة قد هجموا عليه كي يستخرجوا منه الماء لِخرافِهم، ورأى عند البئر فتاتين تحفظان نفسيهما عن الاختلاط بالرجال وتبعدان غنمهما عنهم وهما تنتظران أن يذهب الناس كي ترويا أغنامهما. رغم أن موسى كان جائعًا إلى أنه بادر إلى قضاء حاجتهما وأخذ الدلو من أيدي الناس واستخرج لأغنامهما الماء بسرعة، لذا رجعت الفتاتان إلى منزلهما في وقت أبكر من الوقت الذي كانتا ترجعان فيه عادةً، وحكتا القصة لوالديهما شعيب، فدعا شعيب موسى إلى منزله ليكافئه على عمله، وذهب موسى إلى شعيب، لكنه في وسط الطريق قال للفتاة: إننا لا نسير وراء النساء فسأسير أمامكِ واقذفي أنتِ بحصاة كي تدليني على جهة المسير، وطأطأ موسى برأسه ولم ينظر إلى الفتاة، ولما وصلا إلى المكان و دَعَتْهُ ابنةُ شعيب للدخول وكلَّمَتْهُ ألقى بنظره إلى الأرض، فعرفت ابنة شعيب من سلوك موسى وعمله أنه رجل أمينٌ ومُتديِّنٌ، لذا أثنت عليه أمام أبيها، وقالت: إنه قويٌّ أمين.

﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ۝٢٦ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ۝٢٧ قَالَ

ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴿٢٨﴾﴾ [القصص: ٢٦-٢٨].

الفوائد: أدركت ابنتا شعيب قوة موسى من سحبه [السريع] للماء، وعرفتا من خلال تكلمهما معه وسيرهما معه حتى منزلهما أنه رجل أمين، فاقترحتا على والديهما أن يستأجره للعمل لديهما لأنه قويٌّ وأمينٌ في الوقت ذاته. وتدل جملة ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي﴾ أنه يجوز في النكاح جعل العمل المسْتأجر لمدة معينة مَهْرًا للمرأة، لكن لا بد أن تكون المدة محددة بالضبط.

وفي هذه الآيات إشارة ضمنية إلى أن موسى ذكر لشعيب جميع أمره من لدن ولادته وأمر القوابل والمراضع والقذف في اليم، وقتل القبطي وأنهم يطلبونه في مصر ليقتلوه وسبب فراره هاربًا منهم إلى مدين، فقال له شعيب: لا تخف نجوت من الأخطار ومن القوم الظالمين.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴿٣٠﴾﴾ [القصص: ٢٩-٣٠].

الفوائد: بعد أن انتهت مدة عقد عمل موسى عليه السلام مع شعيب أراد موسى - كما يُستفاد من التواريخ - أن يذهب إلى مصر ليرى أسرته ولذلك أخذ معه زوجته وقطيعًا من الغنم واتجه نحو مصر ولما اقترب من جبل الطور في ليلة مظلمة شاتية باردة رأى من جانب الطور شعلة نار فقال لأهله، امكثوا كي آتيكم بجذوة من النار، فلما وصل إلى الطور ورأى شجرة تشتعل بالنار تعجب لأنه رأى الشجرة خضراء لا تحترق بشعلة النار! كما لم تطفئ خضرة الشجرة ورطوبتها الشعلة. وقد تكلمنا عن ذلك في أوائل سورة النمل فليراجعْ ثمَّةَ.

﴿وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴿٣١﴾ ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ

كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [القصص: ٣١-٣٢].

الفوائد: تدلُّ جُمْلَةُ: ﴿ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا ﴾ أن موسى خاف من تحول العصا إلى حيَّة وفرَّ، وهذا يدلُّ على أن تحوُّل العصا إلى حيَّة أو إلى ثعبان لم يكن من صنع موسى بل لم يكن له علم بهذا الأمر إطلاقًا وكانت تلك المعجزة من عمل الله.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴾ أن فسق فرعون وآله وفجورهم هو الذي كان سبب خسرانهم للدنيا والآخرة.

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآۚ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [القصص: ٣٣-٣٥].

الفوائد: كانت في لسان موسى عقدة فلم يكن فصيح الكلام مثل أخيه هارون، فلما أُمِر موسى أن يذهب ويدعوَ قوم فرعون وكان ذلك أمرًا صعبًا عليه سأل الله أن يعينه على ذلك، فاستجاب الله دعاءه وأرسل معه أخاه هارون بالنبوة ووعده بالنصر وبدفع الأعداء عنه وأوحى إليه وقوّى قلبه.

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [القصص: ٣٦-٣٧].

الفوائد: جملة: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ... ﴾ جملة إنصاف تدعو الطرف المقابل إلى التدبّر، لأن الظلم مذموم لدى جميع طوائف الناس، وكان قوم فرعون يظلمون الناس ولا يفلح الظالمون، لذلك وصفهم الله بذلك. وقد ذكّر موسى عليه السلام قوم فرعون بهذا الأمر.

﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣٨ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ٣٩ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ٤١﴾ [القصص: ٣٨-٤١].

الفوائد: الشخصيات الكبيرة وعلية القوم الذين باعوا أنفسهم لفرعون كان فرعون هو الذي يحدِّد لهم سعادتهم وشقاءهم وعقائدهم ومصير دنياهم وآخرتهم، بل أصبح فهمهم تابعًا لفهم فرعون ورأيهم تابعًا لرأيه. ألم يكن فرعون - الذي قال لهامان: ابن لي منارة كي أصعد عليها وأطلع على إله موسى - يفهم أن الذهاب إلى قمم الجبال المرتفعة لا يؤدي إلى وجدان الله ورؤيته؟!.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ...﴾ أن الأئمة والإمام يُطلَقان على كل زعيم وقائد يأتم الناس به ويتبعونه، سواء كان إمامًا للكفار أم إمامًا للمؤمنين.

﴿وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ٤٢ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٤٣﴾ [القصص: ٤٢-٤٣].

الفوائد: يجب على العقلاء أن يأخذوا العبرة من مصير فرعون وآله، وألا يستجلبوا لأنفسهم - لأجل دنيا سريعة الزوال - لعنة الله في الدنيا والآخرة، وعليهم ألا تغرّهم رئاسة الدنيا وحب الشهرة كما صنعتا بفرعون وآله.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ أن الحق تعالى جعل كتبه السماوية بسيطة واضحة كي يهتدي بها الناس ويبصروا الحق بها وتكون رحمة لهم.

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٤٤ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا

وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [القصص: ٤٤-٤٦].

الفوائد: تدلُّ جُمْلَةُ: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ﴾ وَجُمْلَةُ: ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ وَجُمْلَةُ: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ﴾ وَجُمْلَةُ: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا﴾ كلها على كذب الأخبار الواردة في بعض كتب الحديث والتي تقول: إن محمدًا ﷺ وُلِد قبل الأنبياء أو أن وصيّه علي بن أبي طالب عليه السلام كان قبل الأنبياء ومع جميعهم، لأنه إذا لم يكن محمد ﷺ مع الأنبياء ولا كان في زمنهم ولا كان مطلعًا على شيء من أحوالهم قبل أن يوحى إليه ولم يعرف هذه الأمور إلا بواسطة وحي الله الذي جاءه بعد أن بلغ أربعين سنة من عمره فمن باب أولى ألا يكون وصيه مطلعًا على هذه الأمور. «**فلعنة الله على الوضّاعين والكاذبين والمضلِّين والغلاة**».

﴿وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ أَتَّبِعۡهُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القصص: ٤٧-٥٠].

الفوائد: الـمُراد من هذه الآيات أن الله أرسل أنبياءه بكتاب من عنده كي لا يُبْقِي للكفار عذرًا، وكانت أعذار الكفار وحججهم عدة أمور:

١ - إذا رأوا عذاب الله سيقولون: لِمَ لَمْ تُرسِل إلينا رسولاً، وهم لا يقولون هذا العذر أسفًا بل لعدم تحمّلهم هذا العذاب.

٢ - لماذا لم تعط هذا النبي معجزات كالتي أعطيتها لموسى عليه السلام، هذا في حين أن الكفار كفروا بمعجزات موسى وبرسالة محمد ﷺ كليهما.

وقد تكون جملة ﴿قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا﴾ صفة لموسى وهارون من باب الـمبالغة، أي:

ساحران تظاهرا، ومن الـممكن أن تكون الجملة صفة لموسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، ومن الـممكن أن تكون صفة لكتابيهما التوراة والقرآن، وهذا الاحتمال الثالث هو الأظهر.

وتدلُّ جُمْلَةُ: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴿٤٩﴾﴾ أن أحد وجوه إعجاز القرآن هدايته للناس، أي أن جميع علماء الدنيا عاجزون لا يستطيعون أن يأتوا بهداية مثل هداية القرآن، فكل من طلب الهداية الحقيقية فعليه أن يرجع إلى القرآن.

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴿٥٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ﴿٥٥﴾﴾ [القصص: ٥١-٥٥].

الفوائد: يمكن أن يكون الـمراد من ﴿ٱلْقَوْلَ﴾ في جملة ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾ آيات القرآن التي كانت تنزل تَتْرى وبالتدريج، ولأن ذلك كان أكثر فائدةً من نزوله مرتبةً واحدةً، ويمكن أن يكون الـمُراد من ﴿ٱلْقَوْلَ﴾ الأنبياء ومواعظهم وكتبهم، أو يكون الـمراد: الدلائل الـمذكورة في الآيات السابقة واللاحقة. والـمعنى الثالث هو الأظهر.

والـمُرَادُ مِنْ جُمْلَةِ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ﴾ جماعة من النصارى جاؤوا مع جعفر بن أبي طالب عليه السلام من الحبشة وآمنوا، وقد وقعت هذه الحادثة في مكة، لأن هذه السورة مكية فليس الـمقصود: عبد الله بن سلام وسلمان وأمثالهما الذين آمنوا في الـمدينة.

وتدلُّ جُمْلَةُ: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ وجملة ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ أن مؤمني صدر الإسلام كانوا يتعرضون باستمرار لهجوم الكفار وأذاهم واضطهادهم لهم، ولكنهم كانوا يواجهون ذلك بالصبر والحلم ويدفعون شرهم بالسكوت والإعراض. وفي زماننا أيضًا على كلِّ من قبِلَ الحقَّ وتعرّض لهجمات الجُهَّال أن يلزم الصبر والحِلْم ويدفع شرهم

بالسكوت والإعراض.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أنه لابد من دفع الزكاة من كل شيء ومن كل مال حلال وكل ما أعطاه الله للإنسان من رزق. وقد قال رسول الله ﷺ: «**حصِّنوا أموالكم بالزكاة**»[1]. ورُوِي في كتاب «**التهذيب**»: «**بَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ إِذْ قَالَ: قُمْ يَا فُلَانُ قُمْ يَا فُلَانُ قُمْ يَا فُلَانُ، حَتَّى أَخْرَجَ خَمْسَةَ نَفَرٍ فَقَالَ: اخْرُجُوا مِنْ مَسْجِدِنَا لَا تُصَلُّوا فِيهِ وَ أَنْتُمْ لَا تُزَكُّونَ**»[2].

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ٥٦ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٥٧﴾ [القصص: ٥٦-٥٧].

الفوائد: تدلُّ جُمْلَةُ: ﴿لَا تَهْدِي﴾ أن رسول الله ﷺ لم تكن مهمته سوى البشارة والإنذار ولم يكن قادرًا على غير ذلك خاصةً على الأمور التكوينية، ولم يوكل إليه إحداث انقلابٍ فكريٍّ لدى أي شخص، ولم يكن يعرف من يطلب الهداية حقيقة ممن لا يطلبها، وعمله ﷺ كان بيان الطريق لا الإيصال إلى المطلوب.

والمُرَادُ مِنْ جُمْلَةِ: ﴿نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ...﴾ قول أهل مكَّة إن قبلنا الحق فإن الكفار سيخرجوننا من مدينتنا أو قريتنا. وقد رد الله عليهم بقوله إن أرضكم هذه كانت أرضًا بلا ثمر وقد جعلنا الطعام يأتيكم من أماكن أخرى، فالذي رزقكم من أماكن أخرى يجدر بكم أن

١- الكُلَيْنِيّ، **الكافي**، ٤/ ٦١. وابن بابويه القمي، **من لا يحضره الفقيه**، ٢/ ٤. وفي مصادر أهل السنة: أخرجه أبوداود في **مراسيله** عن الحسن مرسلاً، وأخرجه البيهقي في **السنن الكبرى** (٦٣٨٥) وفي **شعب الإيمان**(٣٥٥٧) عن أبي أمامة مرفوعًا، **والطبراني في الكبير** (١٠١٩٦) ، قال **الهيثمي في المجمع**(٣/ ٦٤): فيه موسى بن عمير الكوفيّ وهو متروك . وأبو نعيم في **الحلية** والخطيب البغدادي في **تاريخ بغداد** (١٣/ ٢٠) عن ابن مسعود رفعه. وحكم الألباني بضعفه.

٢- الكُلَيْنِيّ، **الكافي**، ٣/ ٥٠٣، والشيخ الطوسي، **تهذيب الأحكام**، ٤/ ١١١-١١٢.

تقدّموا الإيمان به على حفظكم لأماكن سكنكم الحالية.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [القصص: ٥٨-٦٠].

الفوائد: تدلُّ جُمْلَةُ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ أن الإنسان يجب أن لا يغتر برفاهية عيشه وسعادته الدنيوية ويغفل عن الله.

وتدلُّ جُمْلَةِ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ أن الله لا يعذب أحدًا قبل أن يتم الحجة عليه بإرسال الرسول وإنزال الكتاب.

وتدلُّ جُمْلَةِ: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ أن الـمُرَادُ مِنْ جُمْلَةِ: ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٩]. ليس الحياة الدنيوية بل الحياة الأخروية عند الرب، لأن ما عند الله خير وأبقى أما الدنيا فزائلة فانية.

﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [القصص: ٦١-٦٤].

الفوائد: تدلُّ جُمْلَةُ: ﴿مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ أن أهل الإيمان ليسوا كأهل الدنيا، ولن يكونوا هم وأهل الدنيا سواءً يوم القيامة لأن أهل الدنيا سوف يتم إحضارهم مِنْ قِبَل مأموري الله إلى محكمة العدل الإلهية. أما الـمؤمنون فإنهم سيحضرون يوم القيامة بميلهم ورغبتهم.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ ......﴾ أنه سيكون هناك نداءات مختلفة ومتعددة يوم القيامة فمرة يُنادَى الرؤساء والـمضِلُّون ومرة ينادى الأتباع.

والـمُرَادُ مِنْ جُمْلَةِ: ﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ﴾ أن الـمشركين لم يكونوا يعبدون في الواقع سوى هواهم وهوسهم.

واحتمل الـمفسرون عدة احتمالات في جملة: ﴿وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾ فقالوا يحتمل أن يراد بالرؤية الرؤية العقلية أي لو أنهم كانوا مستعدين للهداية لرأوا ببصيرتهم القلبية عذاب الله، وكفوا عن كفرهم وعنادهم.

﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٦٥ فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ ٦٦ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ ٦٧﴾ [القصص: ٦٥-٦٧].

الفوائد: يوم القيامة يتم سؤال الأنبياء أحيانًا وسؤال الأمم في مواقف أخرى. أما سؤال الأنبياء فقد ذكرناه في التعليق الآية ١٠٩ من سورة الـمائدة. وأما سؤال الأمم - كما أشارت إليه الآية أعلاه - فعندما يناديهم الله يصابون بالحيرة ويصبحون كالعميان والذين لا علم لهم بشيءٍ ولا يجرؤون على سؤال بعضهم بعضًا كما قال تعالى: ﴿فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ﴾ أنه لا يجوز للإنسان أن يصاب بالغرور حتى لو كان مؤمنًا يعمل الصالحات وكان جامعًا لصفات الفلاح، لأن الله لم يضمن له النجاة والفلاح على وجه التأكيد والحتم. فما أغفل من هو غارق في الفساد الأخلاقي والجهل ولكنه يغتر بأخبار وضعها كذابون غلاة تقول بأن كل من قام بالعمل الفلاني - وقد يكون العمل بدعةً! - وجبت له الجنة. كقولهم: إن من قام بزيارة قبر فلان من الأئمة، أو من تباكى لأجل العبد الـمُقَرَّب الفلاني وجبت له الجنة! وقد غرُّوا الناس الجاهلين بهذه الأكاذيب وجرَّؤوهم على الـمعاصي.

﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٨ وَرَبُّكَ يَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ٦٩ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٧٠﴾ [القصص: ٦٨-٧٠].

الفوائد: تتعلَّق جملة: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُ﴾ بالخلقة التكوينية للموجودات، أي

أن الله يخلق ما يشاء كيف يشاء واختيار الخِلْقَة وكيفيتها هو لِلّهِ وحده. وكلمة «مَا» هنا لغير ذوي العقول، لكن بعضهم أراد أن يستدل بهذه الآية على أن الله هو الذي يختار الرسول ويختار رئيس المسلمين وإمامهم الذي يخلف الرسول في حكم المسلمين وإدارة زمام أمورهم، في حين أنه لم يأت في الآية حرف «مَنْ» الذي يُطلَق على ذوي العقول. بالطبع هناك آيات أخرى يستفاد منها أن الله وحده هو الذي يختار رسوله، ولكن لا توجد أي آية قرآنية تفيد أن الله هو الذي يختار ويعيِّن حاكم المسلمين ومن بيده زمام أمورهم.

قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

أما بالنسبة إلى حاكم المسلمين وإمامهم فلم يقل الله تعالى شيئًا يفيد أن اختياره متروك لله، فالذين يذهبون إلى أن اختيار الإمام والرئيس هو من حق الله وحده، استدلوا أيضًا بأن الإمام، أي الرئيس والحاكم، الذي يختاره الناس يقع في الخطأ والاشتباه أما الذي يختاره الله فلا يقع في الخطأ والاشتباه، هذا في حين أن آيات القرآن صرَّحت في أكثر من موضع بوقوع بعض الرسل - وهم جميعًا ممن اختارهم الله - في بعض الأخطاء[1]، إلى حد أن يونس ؏ قال: ﴿سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]. إذْ كان دعاؤه على قومه وتركه لهم خطًا واشتباهًا. وقال الله تعالى لمحمَّد ﷺ: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم: ١]. وقال له أيضًا في سورة التوبة: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٤٣﴾ [التوبة: ٤٣]. وقال له أيضًا في سورة الحجرات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾ [الحجرات: ٦].

١- من الواضح أنه ليس المُراد من وقوع الأنبياء في بعض الأخطاء خطأهم في تبليغ رسالات ربهم أي في مضمون الرسالة، وإلا لو جاز ذلك لانتفت الغاية من بعثتهم وفُقِدَت الثقة برسالتهم، ولما أمر الله بطاعتهم، بل الأنبياء معصومون حكمًا فيما يبلِّغُونَهُ عن ربهم، وإنما الأخطاء التي وقعوا فيها هي في بعض التصرفات الشخصية، لاسيما ذات العلاقة بالسياسة الوقتية والتدبير الدنيوي وما إلى ذلك.

هذه الآيات تُبيِّن أن رسول الله ﷺ أخطأ في أمر في تحريمه ما أحل الله له، وفي إذنِهِ للمنافقين بالقعود دون أن يتحقق من صدقهم في أعذارهم، وفي ترتيبه الأثر على خبر الفاسق، فأعلمه الله وأرشده. فيُستَفاد من هذه الآيات ومن أمثالها - وهي كثيرة في القرآن - أن الذين يختارهم الله ليسوا مصونين من الوقوع في الخطأ أو الاشتباه.

أضف إلى ذلك أن الذين يعتبرون أن اختيار الإمام والحاكم ليس مفوَّضًا للناس بل هو مختصٌّ بالله تعالى أي هو الذي ينصب الإمام والرئيس في مقامه، يريدون أن يثبتوا خلافة عليٍّ عليه السلام، هذا مع أنّ حضرة الإمام لم يكن مصونًا من الوقوع في الخطأ في اختيار عمّاله أو ولاته ونصبهم وعزلهم، فقد عزل قيس بن سعد بن عبادة عن ولاية مصر تأثُّرًا بخدعة معاوية وقد سُرَّ معاوية من هذا العزل وكان ذلك سببًا لاستيلاء معاوية على مصر، كما عيّن عليٌّ عليه السلام «زِيَادَ بنَ أَبِيْهِ» واليًا على فارس وبلدان أخرى وقد تعرَّف على شيعة أمير المؤمنين ثم قتل كثيرًا منهم فيما بعد، وكذلك الأمر في شأن كثير من الولاة والعمال الذين نصبهم عليٌّ عليه السلام فخانوه وخانوا المسلمين وبيت مالهم. إذن، الأئمة أو الحكام الذين اختارهم الله وكذلك الرسل الذين اختارهم الله وأوحى إليهم ليسوا مصونين من الوقوع في الخطأ[1]، فكيف للإمام الذي لا يوحى إليه أن يكون مصونًا من الوقوع في الخطأ؟ والأمر ذاته ينطبق على عزل سائر الأئمة والأولياء ونصبهم. وكل من أراد يمكنه الرجوع إلى كتب التاريخ ورسائل أمير المؤمنين في نهج البلاغة.

أضف إلى ذلك أن حضرة موسى عليه السلام - كما أخبرنا القرآن - اختار سبعين رجلاً من قومه ليكونوا معه في لقاء الله في جبل الطور ويسمعوا كلام الله لكن ظهر أنّ أولئك النفر السبعين كانوا جميعًا فاسدين بل ظالمين وكافرين، فالذين يختارهم الله أو رسوله ليسوا مصونين من الخطأ والاشتباه.

وتقديم الخبر على المبتدأ في عبارة ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ يفيد الحصر أي أن إصدار وتشريع الأحكام من حق الله حصرًا ولا يجوز لأحد آخر أن يتدخَّل في حكم الدين والفتوى.

١- راجع الحاشية السابقة.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص: ٧١-٧٣].

الفوائد: إن فوائد الليل والنهار ومنافعهما أكثر من أن يحصيها البشر ومن جملتها أنه لو لم يكن هناك نهار وإشراق للشمس لماتت النباتات والأشجار جميعًا ولأصبح لون البشر أصفرَ، وتسلَّطت عليهم الجراثيم. ولو لم يكن هناك ليل وكانت الشمس دائمةً لما استطاع الإنسان وسائر الحيوانات أن يخلدوا إلى الراحة خاصة أن الإنسان يُفنِي نفسَه من الحرص على كسب المال ولا يدفع عن نفسه التعب. كما أن من فوائد الليل والنهار تحديد الساعات والدقائق.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [القصص: ٧٤-٧٥].

الفوائد: الآية ٧٤ تكرار للآية ٦٢ تمامًا دون زيادة أو نقصان بغرض التأكيد وذم المشركين وبيان انحطاطهم.

﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [القصص: ٧٦-٧٧].

الفوائد: كان قارون من أقرباء موسى المؤمنين به وكان جميل الصورة وقارئًا للتوراة ولكنه كان منافقًا مثل السامري وقد ابتعد عن موسى عليه السلام بسبب انشغاله بالثروة العظيمة التي جمعها، وكان من أتباع موسى عليه السلام لكنه لم يكن يساعد الفقراء والمساكين وكان يتكبّر على الناس.

وجملة: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ وكذلك جملة: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ تدلان على أنه لا يجوز أن تكون الثروةُ هدفًا بحد ذاتها بل يجب أن تكون وسيلةً يستخدمها الإنسان للوصول إلى المقامات المعنوية والأخروية ويتقرّب بها إلى الله تعالى.

قال الشاعر (بالفارسية):

ما الدنيا؟ إنها الغفلة عن الله	ليست الذهب والفضة والولد والعيال
إذا كان المال لأجل الدين	فنِعْمَ المال الصالح قال النبي الأمين

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ أنه لا ينبغي على الإنسان أن يفرح بالدنيا وثروتها بل عليه أن يفرح بفضل الله ورحمته كما قال تعالى في سورة يونس: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: ٥٨].

وقد اعتبرنا (في الترجمة) أن كلمة ﴿مَفَاتِحَهُۥ﴾ جمع مَفتَح بفتح الميم والتي تعني الصندوق.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًاۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [القصص: ٧٨-٨٠].

الفوائد: كان قارون مغرورًا بِعِلْمِهِ وكان يقول: لقد حصلتُ على هذا المال بفضل علمي! يقولون: إنه كان عالـمًا بعلم الكيمياء، ويقولون: كان في زمن فرعون موظفًا عنده وجمّع أموالاً طائلةً، ورغم أنه كان يدَّعي العلم إلا أنه لم يعلم أن أشخاصًا كثيرين قبله كانوا أصحاب ثروة وعلم ثم هلكوا.

ولما خرج قارون من منزله يحيط به غلمانه وإماؤه الـمُتَمَنْطِقون بأحزمتهم الذهبية وألبستهم الفاخرة، وكان يتفاخر على الناس بأبهته وثروته، كان بعض الناس يشعرون بالحسرة ويتمنون أن يكون لهم مثل ثروته.

قال رسول الله ﷺ: «**إنّ هَذَا الدّينارَ والدّرْهَمَ أهْلَكا مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وهُما مُهْلِكَاكُمْ**»(١).

وجاء في حديث آخر عنه ﷺ: «**وَاللهِ ما الفَقْرَ أخْشى علَيْكم ولكِنْ أخْشى عليكمْ أنْ تُبْسَطَ عليْكمُ الدُّنْيا كما بُسِطَتْ على مَنْ كانَ قَبْلَكمْ فتنافَسُوها كما تَنافَسُوها فتُهْلِكَكمْ كما أهْلَكَتْهُمْ**»(٢).

وأما جملة: ﴿وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ فيمكننا أن نقول: إنها لا تتنافى مع ما جاء في سورة الحجر من قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ٩٢﴾ [الحجر: ٩٢]. لأن السؤال هو لمعرفة المجرم أما إذا عُرِف المجرم فلا حاجة للسؤال ولا للجواب، أضف إلى ذلك أن السؤال والجواب في القيامة ليسا حقيقيين بل للتقرير والتقريع.

﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ٨١ وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ٨٢ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ٨٣﴾ [القصص: ٨١-٨٣].

الفوائد: [قال ابن عباس:] ثم إن الله سبحانه وتعالى أنزل الزكاة على موسى عليه السلام فأبى قارون ولم تسمح نفسه بدفع الزكاة وأراد أن يهين موسى عليه السلام فأتى بامرأةٍ بغيٍّ فجعل لها كيسين من

١- الكُلَيْنِيّ، **الكافي**، ٢/ ٣١٦. وابن بابويه القمي، **الخصال**، ١/ ٤٣. وفي مصادر أهل السنة: أخرجه الطبراني في **الكبير** كما في **مجمع الزوائد** (١٠/ ٢٤٥)، وفي **الأوسط** (٢/ ٢٩٤، رقم ٢٠٢٢) قال الهيثمي (١٠/ ٢٤٥): إسناده حسن. وأخرجه أيضًا: **ابن حبان في صحيحه** (٢/ ٤٦٩، رقم ٦٩٤). وأخرجه البزَّار (٥/ ٥١، رقم ١٦١٢) ، قال الهيثمي في **المجمع** (١٠/ ٢٣٧): إسناده جيد. وأخرجه أيضًا: البيهقي في **شعب الإيمان** (٧/ ٢٧٧، رقم ١٠٢٩٨).

٢- ورَّام، **مجموعة ورام**، ١/ ١٣٢. وفي مصادر أهل السنَّة: هو حديث صحيح متفق عليه أخرجه البخاري في **صحيحه** (٢٩٨٨) ومسلم في **صحيحه** (٢٩٦١) والترمذي في **السنن** (٢٤٦٢) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه في **السنن**(٣٩٩٧) وأحمد في **المسند**، ٤/ ١٣٧، وغيرهم.

ألف دينار وقال لها: إني أُمَوِّلُكِ وأخلطكِ بنسائي على أن تقذفي موسى بنفسك غدًا إذا حضر بنو إسرائيل، فلمّا أن كان الغد قالت في نفسها: معاذ الله أن أفتري على رسول الله لَأَنْ أُحْدِثَ اليومَ توبةً أفضل من أن أوذي رسولَ الله، فقالت: لا، كذبوا، ولكن جعل لي قارون جعلاً على أن أقذفك بنفسي، فلمّا تكلمت بهذا الكلام غضب موسى ولعن قارون، فأوحى الله إلى موسى: مُر الأرض بما شئت، فإنها مطيعة لك، فلما رأى موسى عليه السلام قارونَ قال: يا أرض خذيه، فأخذته إلى ركبتيه، ثم قال: يا أرض خذيه، فأخذته إلى السُرَّة، فاستغاث قارون بموسى ونشده الرحم لكن موسى لم يلتفت إليه لشدَّة غضبه، وهكذا دعا الأرض حتى انطبقت عليه، وأصبح بنو إسرائيل يتناجون فيما بينهم أنّ موسى عليه السلام إنّما دعا على قارون ليستبدّ بداره وكنوزه وأمواله، فدعا موسى اللّهَ حتى يخسف بداره وأمواله الأرض[1].

وروى أبو سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال لبلال الحبشي:

«**يا بلال! اِلْقَ اللّهَ فقيراً ولا تلقه غنياً. قال: يا رسول الله، كيف لي بذلك؟ قال: ما سُئلتَ لا تمنعْ وما رُزقتَ لا تُـخَبِّئ. قال: يا رسول الله كيف لي بذلك؟ قال: هو ذاك وإلا فالنار**»[2].

إن مما يؤسَف له أنه رغم وجود مثل هذه الأحاديث والآيات القرآنية الواضحة، فإن كثيرًا من الأغنياء يبذلون كل اهتمامهم في الـماديات ولا يؤدون حقوق الله ويقدِّمون تحصيل الـمال على كل شيء آخر كما يدلُّ على ذلك وضع الفقراء من ناحية مسكنهم ومعيشتهم وعملهم. وهذا الأمر أيضًا تثبته أمور أخرى. والواقع أن جزءًا أساسيًّا من أسباب الـمشاكل والـمصائب التي تعاني منها البشرية اليوم، كمصائب الفقر والبطالة والانتحار والطلاق وبيع الأعراض، عدم أداء الزكاة الإسلامية وعدم إنفاق الأغنياء ما يتوجب عليهم من حقوق تجاه الفقراء، بل تجدهم قد

١- هذه القصة اختصرها الـمؤلف مما أورده الثعلبي النيسابوري في تفسيره **الكشف والبيان**، ٧/ ٢٦٤ - ٢٦٥ مع شيء من التصرُّف. والقصة ذاتها أوردها البغوي والرازي وغيرهما في تفاسيرهم للآية.

٢- أخرجه **الطبراني** كما في **مجمع الزوائد** (٣/ ١٢٥) قال الهيثمي: فيه طلحة بن زيد القرشي وهو ضعيف. وأخرجه **الحاكم في الـمستدرك**، ٤/ ٣٥٢، رقم (٧٨٨٧) كلاهما عن أبى سعيد الخدري عن بلال. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرِّجاه. ولم يوافقه الذهبي بل قال: «واهٍ». قلتُ: فالحديث ضعيف.

اغترُّوا بثرواتهم ولم يعتبروا أن ما لديهم من ثروة هو من عطاء الله، بل ظنوا - كما تخيل قارون - أنهم نالوا ثروتهم بفضل عقلهم وتدبيرهم.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ أن الإنسان ينبغي ألا يسعى إلى العلوّ والرئاسة وكسب الشهرة. وكما جاء في نهج البلاغة كان حضرة أمير المؤمنين عليّ (عليه السلام) زمن خلافته يكتفي بقماشين من قنّب وقرصين من الخبز، وقال: «**أَلاَ وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدِ اكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطِمْرَيْهِ**[1]**، وَمِنْ طُعْمِهِ**[2] **بِقُرْصَيْهِ**[3]»[4]. والمسلم الحقيقي يجب أن يكون مثل ذلك الإمام الهمام، ومثل سائر المسلمين في الصدر الأول الذين عملوا بكتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وأن لا ينحرف عن منهجهم، حتى يشمله قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ [التوبة: ١٠٠]. فينال سعادة الدنيا والآخرة.

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [القصص: ٨٤-٨٨].

الفوائد: هل المراد من «**المَعَاد**» الذي وعد الله رسوله بأن يردَّه إليه بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ

١- الطِمْر - بالكسر -: الثوب الخلق البالي.

٢- طُعْمه - بضم الطاء-: ما يطعمه ويفطر عليه.

٣- قُرْصَيْه: تثنية قرص، وهو الرغيف.

٤- نهج البلاغة، قسم الرسائل، الرسالة رقم ٤٥. ومن كتاب له (عليه السلام) إلى عثمان بن حنيف الأنصاري، وهو عامله على البصرة، وقد بلغه أنه دعي إلى وليمة قوم من أهلها، فمضى إليهم.

عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ يوم القيامة؟ أم مكة التي أخرجه قومه منها؟ ذُكِر الاحتمالان، فإن كان الـمقصود العودة إلى مكة كان ذلك من أخبار الغيب ومن معجزات القرآن التي تحققت بعد عدة سنوات من نزول هذه الآيات، وإن كان الـمقصود من الـمعاد: القيامة فهو وعد بمكافأة رسول الله ﷺ والثواب الذي ينتظره، والأظهر أن الـمراد من الـمعاد «القيامة».

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾ أن محمدًا ﷺ لم يكن يحتمل – قبل أن يُبعَث بالرسالة – أن ينال منصب النبوة وينزل عليه كتابٌ، ولم يكن يأمل بذلك بل كان غافلاً عن هذا الـموضوع من أساسه.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ..... ﴾ أنه لا يجوز في الدعاء: الطلب من غير الله تعالى، وأن دعاء غير الله، أيًا كان، شركٌ.

سورة العنكبوت

مكيّة وهي تسع وستون آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ٤﴾ [العنكبوت: ١-٤].

الفوائد: علم الله ذاتيّ وأزليّ، فهو يعلم من الأزل الكاذبين والصادقين، وَالـمُرَادُ مِنْ جُمْلَةِ: ﴿فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ أن يتحقق ما يعلمه في الواقع الخارجي.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ....﴾ أن كل فرد من البشر سيتعرَّض للامتحان والاختبار ولا يكفي مُجرَّد الإقرار بالإيمان.

﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٥ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٧ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٨ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ٩ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِۖ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَلَيۡسَ

ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴿١٠﴾﴾ [العنكبوت: ٥-١٠].

الفوائد: ليس المُراد من ﴿لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ رؤيَتَهُ لأن الله لا تدركه الأبصار وليس قابلاً للرؤية بالعين[1]، [ورؤية الآخر ليست شرطًا ضروريًا حتى يصح إطلاق عبارة اللقاء به، بل يصح إطلاق لفظ اللقاء وإن لم تحصل رؤية المُلْتَقِي للمُلْتَقَى به]، مثلاً إذا ذهب أعمى للقاء شخص صح القول بأنه التقاه وإن لم يره الأعمى؛ والمقصود من ﴿لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ الحضور في ساحة العدل الإلهي يوم القيامة.

والمقصود من قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ الذين أسلموا ثم تعرَّضوا بسبب إسلامهم إلى أذى المشركين واضطهادهم، فكانت شدَّة التعذيب تجعلهم يرتدُّون أحيانًا عن دينهم، كما حصل لـ «العياش بن أبي ربيعة المخزومي القرشي»، وذلك أنّه أسلم فخافَ أهلَ بيته فهاجر إلى المدينة قبل أن يهاجر النبيُّ ﷺ، فحلفت أمُّه «أسماء بنت مخرمة» أن لا تأكل ولا تشرب ولا تغسل لها رأسًا ولا تدخل بيتًا تستظلّ به حتى يرجع إليها، فلما رأى ابناها أبو جهل والحارث ابنا هشام وهما أخوا عيّاش لأُمّه جزعها وحلفها، ذهبا في ظلمة حتى أتيا المدينة فلقياه، فقال أبو جهل لأخيه عياش بن أبي ربيعة: قد علمتَ أنّك أحبُّ إلى أمّك من جميع ولدها وكنتَ بها بارًّا، وقد حلَفَتْ أُمُّك إنّها لا تأكل ولا تشرب ولا تغسل رأسها ولا تدخل بيتًا حتى ترجع إليها، وأنت تزعم أنّ في دِينِكَ بِرَّ الوالدين، فارجع إليها فإنّ ربّك الذي تعبده بالمدينة هو ربك بمكة فاعبده بها، فلم يزالا به حتى أخذ عليهما المواثيق لا يحركاه ولا يصرفاه عن دينه، فأعطياه ما سأل من المواثيق فتبعهما، وقد صبرت أمه ثلاثة أيام ثم أكلت وشربت، قالا: فلما خرجوا من أهل المدينة أخذاه

١- مذهب نفي إمكانية رؤية الباري تعالى في الدنيا والآخرة هو مذهب المعتزلة ومن وافقهم من الشيعة بجميع فرقهم كالزيدية والإمامية. أما مذهب أهل السنة والجماعة، فهو إثبات رؤية الله في الآخرة استنادًا إلى آيات وأحاديث مستفيضة نصَّتْ على ذلك.

انظر تعليق المُصحح في هامش تفسير الآية ٢٢ و٢٣ من سورة القيامة من هذا الكتاب. [المُصحح]

فأوثقاه وجلده كلّ واحد منهما مائة جلدة حتى تبرّأ من دين محمّد ﷺ جزعًا من الضرب وقال ما لا ينبغي، فأنزل الله سبحانه فيه:. ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ...﴾ وكان الحارث أشدهما عليه وأسوأهما قولاً، فحلف «عياش» بالله لئن قدر عليه خارجًا من الحرم ليضربنّ عنقه، فلما رجعوا إلى مكة مكثوا حينًا ثم هاجر النبي ﷺ والمؤمنون إلى المدينة، فهاجر عياش وأسلم وحسن إسلامه.

ثم إنّ الله تعالى قذف الإيمان في قلب الحارث بن هشام، فهاجر إلى المدينة وبايع النبي ﷺ على الإسلام ولم يحضر عياش، فلقيه عياش يومًا بظهر قباء ولم يشعر بإسلامه، فضرب عنقه، فقيل له: إنّ الرجل قد أسلم، فاسترجع عياش وبكى، ثم أتى النبي ﷺ وأخبره بذلك، [فأنزل الله سبحانه وتعالى: [1]﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا...﴾ الآية. [النساء: ٩٢].

﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ ۝١١ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ۝١٢ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ۝١٣﴾ [العنكبوت: ١١-١٣].

الفوائد: نزلت هذه الآيات ردًّا على شبهات المشركين والمنافقين وإلقاءاتهم إذْ كانوا يقولون للمسلمين الجُدُد عودوا إلى الكفر وسنحمل خطاياكم عنكم. فقال تعالى: كلا، إنهم سيحملون أوزار إضلالكم وأعمالكم السيئة دون أن يُنْقِصَ ذلك من وِزْرِكُم وإثمِكُم شيئًا، بل كل إنسان سيحمل وزر ما ارتكبه من آثام. وقد رُوِيَ عَنْ رسول الله ﷺ قوله: «**مَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلاَ يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ**»[2].

١- ذكر معظمُ المفسرين هذه القصة، وهي بهذا السياق في **الكشف والبيان**، للثعلبي النيسابوري، ٧/ ٢٧٢-٢٧٣. وانظر: **جامع البيان** للطبري، ٩/ ٣٢-٣٣ لدى تفسيره الآية ٩٢ من سورة النساء.

٢- **صحيح مسلم** (١٠١٧)، وسنن **الترمذي** (٢٦٧٥) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ۝١٤ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٥ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١٦ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝١٧﴾ [العنكبوت: ١٤-١٧].

الفوائد: قال الحقُّ تعالى: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ ولم يقُلْ: تسعمئة وخمسين سنة، فما الفائدة في العدول عن هذه العبارة إلى غيرها؟ الجواب [كما قال الزمخشري] إن فيه فائدتين: إحداهما: أن الاستثناء يدل على التحقيق، وتركه قد يظن به التقريب. والثانية: هي أن ذكر لبث نوح عليه السلام في قومه كان لبيان أنه صبر كثيرًا فالنبيُّ ﷺ أولى بالصبر مع قِصَر مدة دعائه.

وفي جملة: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ استدلال بعدة وجوه على ردِّ عبادة غير الله: ١- معبوداتكم مجرَّد أصنام. ٢- أنتم الذين تخلقون هذه الأصنام ولا أحد يعبد مخلوقه! ٣- لا يملكون لكم نفعًا ولا رزقًا. ٤- ربكم هو الرازق لكم فينبغي لكم أن تشكروه. ٥- مرجعكم جميعًا إلى الله.

﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝١٨ أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝١٩ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٠ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ۝٢١﴾ [العنكبوت: ١٨-٢١].

الفوائد: أتى الحق تعالى في هذه الآيات ببراهين تثبت المعاد، وأمر بالرؤية العقلية، لأن جملة: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ استفهام توبيخي: أي لماذا لا تفتحون أعين بصائركم لتدركوا الحقيقة؟ فهنا أمرهم الله بالتفكُّر والمطالعة والسير في الأرض ليلاحظوا كيف بدأ الله الخلق أوَّل مرَّة، ويدركوا أن تلك القدرة ذاتها التي أوجدت المخلوقات أوَّل مرَّة

من لا شيء أي من العدم يمكنها أن تقيم القيامة وأن تُنْشِئَ النشأة الأخرى من الذرَّات المتفرقة، وهذا سهلٌ عليها.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ۝٢٢ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٢٣﴾ [العنكبوت: ٢٢-٢٣].

الفوائد: معنى ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ أنه لا مفرَّ لكم من العقاب الإلهي وليس بمقدوركم الهروب من مجازاة الله لكم على أعمالكم.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي﴾ أن اليأس من رحمة الله دليل على الكفر وسبب للعذاب الأليم وهو من كبائر الذنوب.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٢٤ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٢٥﴾ [العنكبوت: ٢٤-٢٥].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أن معظم الناس يقبلون الكفر والشرك لأجل الصداقات التي تكون بينهم وجلبًا لمودة بعضهم لبعض. كما أن الناس يقبلون الخرافات كي لا ينزعج الآخرون أو يتكدَّر خاطرهم. ولكن لما كانت هذه الصداقة لأجل الدنيا، فإنها ستزول مع زوال الدنيا، ويوم القيامة يصبح الناس أعداء بعضهم بعضًا ولا يكون للإنسان وليٌّ ولا نصيرٌ إلا الله.

﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢٦ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٢٧﴾ [العنكبوت: ٢٦-٢٧].

الفوائد: بعد أن رموا حضرة إبراهيم ﷺ في النار وأنقذه الله منها، آمن به ابن خالته لوط ﷺ، ولكن لما لم يستطع إبراهيم أن يهادن المشركين قرَّر الهجرة من وطنه، فذهب نحو الشام وفلسطين فأعطاه الله وجاهةً ومنزلةً مرموقةً بين الناس في الدنيا، وسيجعله في الآخرة من المُعزَّزين المُكرَّمين.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [العنكبوت: ٢٨-٣٠].

الفوائد: كان قوم لوط عبارة عن سبع قُرى ومدينة سدوم، وكانوا يرتكبون الفواحش (اللواط) في مجالسهم علنًا أمام بعضهم بعضًا، وكانوا يقطعون الطريق لأخذ الأموال، ويقومون بأعمال قبيحة كالإكثار من الحلف، والسب والشتم، والمزاح بكلمات بذيئة فاحشة، والتصفير والتضارط (إخراج الريح) في مجالسهم، ورمي بعضهم بعضًا بالحصى، وكانوا يحذفون من يمرّ بهم (أي يرمونه بالحصى) [ويسخرون منه]، وكانوا يلعبون القمار ويشربون الخمر ويسخرون من الناس ويكشفون عوراتهم ويطرفون الأصابع بالحناء وأمثال تلك الأمور.

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ۖ وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [العنكبوت: ٣١-٣٥].

الفوائد: ذهب الملائكة المأمورون بإنزال العذاب على قوم لوط إلى إبراهيم وبشَّرُوه بخبر إنزال العذاب وبخبر مجيء ولد له هو إسحاق، فتأثر إبراهيم من نزول العذاب على قوم لوط

وتأسَّف له وقال: إن لوطًا في تلك القرية. فقالت الـملائكة: لنُنَجِّيَنَّه وأهلَه إلا زوجته لأنها كانت من الكفار أو كانت نَـمَّامةً فاسقةً.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [العنكبوت: ٣٦-٣٨]

الفوائد: يُستفاد من جملة: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ أن أصول دين شُعيب كانت التوحيد والـمعاد.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ﴾ أن مساكن قوم عاد وثمود كانت قريبة من الحجاز وكانت لا تزال فيها بقية من آثار ديارهم تدعو إلى أخذ العبرة من مصيرهم، والـمقصود من كلمة: «**مُسْتَبْصِرِينَ**» أنهم كانوا من قبل ذوي بصيرة لكنهم انحرفوا فيما بعد، أو أنهم ضلُّوا رغم ما أوتوه من قوة الإبصار بسبب تكبرهم وترفهم، ورغم أنهم أدركوا أن الله سيُعذِّبهم، أو أنهم ظنوا أنفسهم بصيرين أذكياء أي اغترُّوا بأنفسهم وأُعجبوا بها. والقول الأول أظهر.

﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٣٩-٤٠].

الفوائد: ذكَّر الله تعالى هذه الأمَّةَ بشكل متكرر بهلاك الأقوام الـماضين الذين عصوا وطغوا، كي تأخذ هذه الأمة العبرة من مصيرهم، وفي الوقت ذاته كي يكون في هذه القصص تسليةً لرسول الله ﷺ وتقويةً لقلبه [بأن ما يلقاه من قومه من أذىً وتكذيب قد لقيه إخوانه الأنبياء السابقين من أُممهم وكانت العاقبة دائمًا للمؤمنين والهلاك للمكذبين].

والقوم الذين أهلكهم الله بالريح الحاصب -أي التي ترمي بالحصى والحجارة- هم قوم

لوط، والذين أهلكهم بالصيحة كانوا قوم ثمود وقوم شُعيب، والذين خسف بهم الأرض كانوا قارون وأصحابه، والذين أغرقهم كانوا فِرعون وآله وقوم نوح.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤١-٤٣].

الفوائد: مثل الذين يتوكلون على غير الله ويعتمدون على غيره كمثل العنكبوت من عدة جهات: ١- العنكبوت ينسج خيوط بيته في كل منزل مهجور وخرابة وفي أمكنة الأوساخ والقذارة، والذي يبني منزله في هذه الدُّنْيَا التي هي منزل الهموم والآفات ويتعلق قلبه بها يكون كالعنكبوت. ٢- ينسج العنكبوت بيته من خيوط رفيعة وكذلك أهل الدُّنْيَا يبنون دنياهم بالحيل الحاذقة والخيالات الضعيفة. ٣- ينسج العنكبوت خيوط بيته في زوايا الغرف ليصطاد بها الذباب وأهل الدُّنْيَا أيضًا ينسجون أفخاخهم ليخدعوا الآخرين ويوقعوهم في حبائل حيلهم ليستولوا على أموال أهل الطمع والعالة من الناس. ٤- لا يدري العنكبوت أنه في المكان الذي ينسج خيوطه في زواياه، يُمكن لصاحب المكان أن يُزيل كل ما بناه في لحظة واحدة بضربة مقشة (مكنسة)، وكذلك أهل الدُّنْيَا غافلون عن أن الملائكة المأمورين وقبضة الأرواح سيُزيلونهم عن كل ما بنوه وجمعوه بطرفة عين.

وعلى كل حال، صفةُ الذين اتخذوا غير الله أولياء ورؤساء ومدراء موجهين لحياتهم كصفة العنكبوت، طبقًا لهذه الآية.

﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت: ٤٤-٤٥].

الفوائد: معنى ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ اقرأهُ بطمأنينة وتُؤَدَة.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ أن الصلاة تنهى الإنسان وتمنعه من ارتكاب الفواحش والـمنكرات، وسبب ذلك أن الـمصلي مضطر لحفظ نفسه من النجاسة والأوساخ، ولأنه يريد أن يقف أمام الله ويُخاطبه فهو مضطر أن لا يطلب الـمدد من غير الله وأن لا يدين بالعبودية لغير الله. وأن يجعل قاعدة ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥] نُصب عينيه في كل حياته وهكذا. بِنَاءً عَلَى ذَلِكَ، فإن العبادة الحقيقية هي التي تمنع الإنسان من كل منكر، أما التي لا تمنع الإنسان عمليًا عن الفواحش والـمنكرات فليست عبادة حقيقية ولا واقعية.

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ۝٤٦ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝٤٧﴾ [العنكبوت: ٤٦-٤٧].

الفوائد: الـمجادلة بالتي هي أحسن هي الـمجادلة لأجل الإرشاد وإيصال الخير ودفع الشر والتي تتم برفق ولين، ولا تُثبت في الـمجادلة باطلاً. وطبقًا للآية ٤٦ الـمذكورة أعلاه، لابدّ أن تكون مجادلة الكفار على هذا النحو أي بالتي هي أحسن. لكنَّ فِرَقَ الـمسلمين في زماننا ليسوا مستعدين لمجادلة إخوانهم في الدين بالتي هي أحسن ولا محاورتهم باللين والرفق.

ولأجل الاتحاد والوحدة مع أهل الكتاب ورفع النزاع والخلاف قال الحق تعالى: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ﴾، وَالـمُرَاد مِنْ هؤلاء بالطبع اليهود والنصارى لا الـمُشْرِكون.

﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ۝٤٨ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٤٩ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٥٠﴾ [العنكبوت: ٤٨-٥٠].

الفوائد: يتَّضح من الآية ٤٨ أن رسول الله ﷺ كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب، ولو كان يكتب لقال

الكفَّار: لقد كتب آيات القرآن هذه ونقلها من كتب أخرى، ولأوقعوا بذلك الشكَّ في نبوته في قلوب الناس. ومن هذه الآية يتَّضح كذب الرواية التي نقلوها والتي تُفيد أن رسول الله ﷺ قال وهو يحتضر في مرض موته: «**ائتوني بدواة وقرطاس أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعدي**»[1]، فمنعه عمر من ذلك وقال: «**حسبنا كتاب الله**»! لأنه لو كان رسول الله ﷺ يكتب فعلاً لكان كلام الله في القرآن والعياذ بالله كذبًا. وقد بحثنا بشكل كافٍ حول هذا الحديث الموضوع في كتابنا (بالفارسية): «**رهنمود سنت در رد اهل بدعت**» أي: «**منهاج السنة في ردّ أهل البدعة**»، فليُراجع ثمَّة.

﴿أَوَ لَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٥١ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٥٢﴾ [العنكبوت: ٥١-٥٢].

الفوائد: تدل هذه الآيات أن القرآن كافٍ لإثبات نبوة رسول الله ﷺ ولبيان أصول الدين وفروعه. وقد أشكل بعضهم على هذا الاستدلال بقوله: إن الآية جاءت ردًّا على مطالبة اليهود بمعجزة فقال تعالى ردًّا عليهم: إن معجزة القرآن كافية ولا حاجة إلى معجزة أخرى، فهذه الآية إذن ليست في صدد بيان كفاية القرآن في بيان أصول الدين وفروعه، بل كل ما تريد الآية قوله هو أن القرآن كافٍ من ناحية الإعجاز الدالّ على نبوَّة الرسول. والجواب: **أولاً**: هذه السورة نزلت في مكة ولا علاقة لها باليهود. **ثانيًا**: إن الذين يقولون: إن القرآن كافٍ كمعجزة يجب أن لا يذكروا معجزةً أخرى لرسول الله ﷺ هذا في حين أنكم تذكرون معجزات أخرى له ﷺ. **ثالثًا**: الآية مطلقة ولا دليل على تقييدها، كما بيَّنا ذلك في الفقرة ١١ من مقدمات هذا الكتاب فلتُراجع ثمَّة.

وذُكِرَ فعلُ ﴿يُتۡلَىٰ﴾ في هذه الآية مبنيًا للمجهول ليُفيد أن القرآن كافٍ كلَّ من تلاه وأن هذا الأمر ليس خاصًا بتلاوة الرسول.

١- **صحيح مسلم** (١٦٣٧) دون عبارة - بدواة وقرطاس -. **وصحيح البخاري** (٤١٦٩) و(٥٣٤٥)، وعبارته: «هَلُمُّوا أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا لَا تَضِلُّوا بَعْدَهُ». وأخرج نحوه الحاكم في **المستدرك**، ٣/ ٥٤٢، (٦٠١٦)، وعلق عليه الذهبي بقوله: إسناده صحيح. وأخرجه **الطبراني** كما في **مجمع الزوائد** (٥/ ١٨١) قال الهيثمي: فيه من لم أعرفه.

﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ۝٥٣ يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ۝٥٤ يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ۝٥٥﴾ [العنكبوت: ٥٣-٥٥].

الفوائد: كان كفار مكة مثل «النضر بن الحارث» يقولون: نحن مستعدون أن يُعذِّبنا الله ولسنا مستعدين للإيمان، فإن كان محمَّدٌ صادقًا فليأتنا بعذاب الله على الفور. أجابه الحق تعالى: إن العذاب لا يأتي حسب طلبهم ورغبتهم بل يأتي في الوقت الذي يريده الله وعندما سينزل بهم العذاب بغتةً سيعرفون أن جهنم كافية لعذابهم.

﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ۝٥٦ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ۝٥٨ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ۝٥٩﴾ [العنكبوت: ٥٦-٥٩].

الفوائد: المراد من جملة: ﴿أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ﴾ رفع عذر العباد الذين يعيشون في مدينة أو قرية لا يستطيعون فيها المحافظة على إيمانهم وممارسة شعائر دينهم، بأن عليهم الهجرة إلى بلاد وقرىً أخرى، وذلك مثل المؤمنين المستضعفين من أهل مكة الذين نزلت آيات بشأنهم تُبيِّن وجوب هجرتهم ليتمكنوا من العمل بتعاليم دينهم وأن لا يقولوا: لو تركنا بيوتنا ومساكننا فمن الذي سيُرشدنا ومن الذي سيُطعمنا ويسقينا؟ لأن عليهم أن يعلموا أن الله هو الرازق وأنه سيُؤمن لهم وسائل معيشة أفضل ومكانًا أحسن، كما بيَّنت ذلك الآية التالية.

والفرق بين جملة: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا﴾ وجملة: ﴿جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [التوبة: ١٠٠] التي جاءت دون حرف ﴿مِن﴾ هو: أن الأولى تدل على أن الأنهار تنبع من تحت جناتهم وقصورهم أما الثانية فتدل على وجود الأنهار وجريانها تحت جناتهم وقصورهم فحسب.

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ۝٦٠ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ

يُؤْفَكُونَ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴿٦٢﴾﴾ [العنكبوت: ٦٠-٦٢].

الفوائد: المراد من جملة: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ الكثير من الحيوانات مثل الحمام والحجل أو الأطفال الرُّضَّع الذين لا يستطيعون أن يكسبوا رزقهم بأنفسهم أو يتحملوا الإتيان به.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم...﴾ أن المُشْرِكين كانوا يقولون: إن خالق السماوات والأرض هو الله، إلا أنهم كانوا تائهين ضالين في عباداتهم وفي أدعيتهم وطلبهم الحوائج، حيث كانوا يؤدون ذلك إلى غير الله ويستمدون المدد من غير الله.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴿٦٦﴾﴾ [العنكبوت: ٦٣-٦٦].

الفوائد: يتبيَّن من هذه الآيات بصراحة أن المُشْرِكين كانوا يعتبرون الله المُدبِّر لكل أمور الكون والسماوات والأرض، وأنه هو الذي يُنزل المطر، إلا أنهم كانوا يخضعون لمخلوقات ومعبودات أخرى ويتضرّعون لها يتوسّلون بها ويطلبون منها الحوائج. فعلى المسلم أن يستيقظ وينتبه لهذه الآيات ويبتعد عن كل شكل من أشكال العبادة لغير الله وطلب الحوائج من غيره والتوسل والاستمداد من غيره تعالى. والشرك أقسام، وقد قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الشِّرْكَ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ**»[1]، وقال أيضًا: «**مَنْ مَاتَ وَهْوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ نِدًّا دَخَلَ النَّارَ**»[1].

١- الحر العاملي، **وسائل الشيعة**، ٥/ ٩٩. وفي مصادر أهل السنة رواه السيوطي في الجامع الصغير بثلاثة ألفاظ متتالية: أولها حديث رقم (٤٩٣٣) بلفظ: «الشِّرْكُ فِي أُمَّتِي أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ عَلَى الصَّفَا». وقال: الحكيم الترمذي في **نوادر الأصول** عن ابن عباس، وقال (ضعيف). والثاني رقم (٤٩٣٤) بلفظ: «الشِّرْكُ فِيكُمْ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ، وَسَأَدُلُّكَ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتَهُ أَذْهَبَ عَنْكَ صِغَارَ الشِّرْكِ وَكِبَارَهُ، تَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لاَ أَعْلَمُ، تَقُولُهَا ثَلاَثَ مَرَّاتٍ». وقال: الحكيم الترمذي في **نوادر**

واللام في جملتَيْ: ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ و﴿وَلِيَتَمَتَّعُواْۚ﴾ لام الأمر أو لام الغاية بتقدير كَي. وأيهما كان فالـمعنى صحيح.

﴿أَوَ لَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَكۡفُرُونَ ٦٧ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوًى لِّلۡكَٰفِرِينَ ٦٨ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [العنكبوت: ٦٧-٦٩].

الفوائد: الـمَقْصودون مِنْ جُمْلَة: ﴿أَوَ لَمۡ يَرَوۡاْ.....﴾ أهل مكة الذين كانوا يعيشون في أمن وأمان في حين كان الذين يعيشون حولهم في أطراف مكة يتعرَّضون إلى القتل والغارة والخطف والأسر، فبدلاً من أن يشكر أهل مكة اللَّهَ على نعمة الأمن والأمان هذه كفروا بهذه النعمة وعبدوا الأصنام.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ.....﴾ أنه عندما يطلب العبد معرفة الله والهداية ويسعى إلى ذلك فإن الله يُهيئ له وسائل الهداية ويُوفّقه إليها، أما إذا لم يسعَ ولم يُجاهد نفسه، ابتُلي بالضلال وأصبح فريسةً للذين يتكسَّبون بالدين الباطل، وكان هو الـمسؤول عن خلاله نفسه.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓۚ﴾ على أهمية أحكام الدين كما تشمل الذين ينسبون لدين اللهِ العقائد والأحكام دون أن يكون لها ذِكر في كتاب الله.

الأصول عن أبي بكر، والثالث حديث رقم (٤٩٣٥) بلفظ: «الشِّرْكُ أَخْفَى فِي أُمَّتِي مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ عَلَى الصَّفَا فِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ وَأَدْنَاهُ أَنْ تُحِبَّ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الجَوْرِ أَوْ تُبْغِضَ عَلَى شَيْءٍ مِنَ العَدْلِ... الحديث». وقال الحكيم الترمذي في **نوادر الأصول**، والحاكم في **الـمستدرك**، ٢/ ٢٩١، وقال: «هذا صحيح الإسناد ولم يخرِّجاه»، فتعقَّبه الذهبي في **التلخيص** بقوله: «عبد الأعلى قال الدارقطني: ليس بثقة». وأبو نعيم في **الحلية**، كلهم عن عائشة مرفوعًا. وضعَّفه الألباني في ضعيف **الجامع الصغير وزيادته** (٣٤٣٢).

١- **صحيح البخاري** (٤٤٩٧).

سورة الروم

مكيّة وهي ستون آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ٣ فِي بِضۡعِ
سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن
يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا
يَعۡلَمُونَ ٦﴾ [الروم: ١-٦].

الفوائد: إحدى الأخبار الغيبية في القرآن خبر غلبة الروم على الفرس خلال عدة سنوات بعد أن غُلبوا. وقد وقع هذا النصر كما أخبر به القرآن، كما أن الله أخبر أن المؤمنين سيفرحون عندما يسمعون بخبر انتصار الروم على الفرس، ووقع ذلك أيضًا كما أخبر الله تعالى.

والقضية هي: أن الروم انهزموا على أيدي الفرس في معركة دارت بينهم وبين الجيش الفارسي في بصرى ودمشق. وفي زمن بعثة رسول الله ﷺ كانت هناك دولتان قويتان إحداهما الدولة الرومانية (البيزنطية) والثانية الدولة الفارسية. وكانت الحرب سجالاً بين الدولتين منذ سنوات عديدة. في السنة السابعة للبعثة أي سنة ٦١٧م. نزلت سورة الروم على رسول الله ﷺ وكان المسلمون حينذاك في وضع سيء يعيشون تحت اضطهاد وتعذيب أهل مكة المشركين، فلما سمعوا بهزيمة الروم فرح المشركون بانتصار فارس عليهم، لأن مشركي العرب لم يكونوا يختلفون كثيرًا عن الفرس في عدم اعتقادهم بوحدانية الله وباليوم الآخر، بعكس الروم الذين كانوا يتحدثون عن إيمانهم بالله وعبادته، لذلك حزن المسلمون لانتصار الفرس، ولكن القرآن نزل

ليخبر المؤمنين أن الروم سينتصرون على الفرس في بضع سنين، وكلمة بضع سنين تعني من ٣ إلى ٩ سنوات، فلما مرت سبع سنوات هُزِمَ جيش الفرس على أيدي الروم في أرمينيا، وفي تلك السنة أيضًا انتصر المسلمون على المشركين في معركة بدر، وفرحوا بانتصار الروم وغلبتهم.

عندما انتصر جيش الفرس فرح كفّار مكّة وشمتوا ولقوا أصحاب النبيّ ﷺ فقالوا: «إنّكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب ونحن أُمّيون وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الروم. فإنّكم إنْ قاتلتمونا لنظهرنّ عليكم. فخرج أبو بكر إلى المشركين فقال: فرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا فلا تفرحوا ولا يقرّنّ الله أعينكم، فوالله ليظهرنّ الروم على فارس. فقالوا له: من أين عرفت ذلك؟ فقال: أخبرنا بذلك نبيُّنا. فقام إليه أُبيّ بن خلف فقال: كذبت يا أبا فضيل، فقال له أبو بكر: أنتَ أكذب يا عدوّ الله، فقال: اجعل بيننا أجلاً أُناحبُكَ عليه (والمناحبة: المراهنة) على عشر قلائص منّي وعشر قلائص منك، فإنْ ظهرت الروم على فارس غرمتُ، وإنْ ظهرت فارس غرمتَ، فقبل أبو بكر بذلك إذْ كان مؤمنًا بخبر رسول الله ﷺ ومعتقدًا بصدقه اعتقادًا راسخًا، وجعل الأجل بينه وبين أُبَيّ ثلاث سنين.

وجاء أبو بكر إلى النبي ﷺ وأخبره وذلك فقال رسول الله ﷺ: ما هكذا ذكرتُ، إنّما البضع ما بين ثلاث إلى التسع فزايِدْهُ في الخطر ومادّه في الأجل، فخرج أبو بكر فلقي أُبيًّا فقال: لعلَّك ندمت قال: لا، قال: فتعال أزايدك في الخطر وأُمادّك في الأجل فاجعلها مائة قلوص ومائة قلوص إلى تسع سنين، قال: قد فعلتُ. فلمّا خشي أُبيّ بن خلف أن يخرج أبو بكر من مكة أتاه فلزمه فقال: إنّي أخاف أن تخرج من مكّة فأقم لي كفيلاً، فكفل له ابنه عبد الله بن أبي بكر.

فلمّا أراد أُبي بن خلف أن يخرج إلى أُحُد أتاه عبد الله بن أبي بكر فلزمه قال: والله لا أدعك حتّى تعطيني كفيلاً فأعطاه كفيلاً ثمّ خرج إلى أُحُد، ثمّ رجع أُبيّ بن خلف فمات بمكّة من جُراحتِهِ التي جرحه رسول الله ﷺ حين بارزه.

ولما ظهرت الروم على فارس وربطوا خيولهم بالمدائن وبنوا الرومية فَقَمَر أبو بكر أُبيًّا، وأخذ مال الخطر من ورثته وجاء به يحمله إلى رسول الله ﷺ فقال له النبيّ ﷺ: تصدّق به كلَّه، ففعل».

«وكان سبب غلبة الروم فارسَ أن كان لكسرى قائدان عسكريان أخوان، كلاهما شجاع

الأول: **فرخان**، والثاني **شهريراز**. فبعدما انتصر على الروم، وبينما كان أخوه فرخان جالسًا ذات يوم يشرب، قال لأصحابه: لقد رأيت كأنّي جالس على سرير كسرى، فبلغت كلمته كسرى فكتب إلى شهريراز: إذا أتاك كتابي فابعث إليّ برأس فرخان.

فكتب إليه: أيّها الملك إنّك لم تجد مثل فرخان، إنّ له نكاية وصوتًا في العدوّ فلا تفعل، فكتب إليه: إنَّ في رجال فارس خَلَفًا منه فعجّل إليّ برأسهِ، فراجعه فغضب كسرى ولم يجبه، وبعث بريدًا إلى أهل فارس إنّي قد نزعت عنكم شهريراز واستعملت عليكم فرخان. ثمّ دفع إلى البريد صحيفة صغيرة وأمره فيها بقتل شهريراز وقال: إذا وليَ فرخان الملك وانقاد له أخوه فأعطِهِ، فلمّا قرأ شهريراز الكتاب قال: سمعًا وطاعة ونزل عن سريره وجلس فرخان فدفع إليه الصحيفة فقال: ائتوني بشهريراز فقدَّمه ليضرب عنقه.

قال: لا تعجل حتّى أكتب وصيّتي، قال: نعم، قال: فدعا بالسفط فأعطاه ثلاث صحائف، وقال: كلّ هذا راجعت فيه كسرى وأنت أردت أن تقتلني بكتاب واحد، فَردَّ الملْكَ إلى أخيه. فكتب شهريراز إلى قيصر ملك الروم: إنّ لي إليك حاجة لا يحملها البريد ولا تبلغها الصحف فألقني ولا تلقني إلاّ في خمسين روميًّا فأنّي ألقاك في خمسين فارسيًّا.

فأقبل قيصر في خمسمائة ألف رومي وجعل يضع العيون بين يديه في الطريق وخاف أن يكون قد مُكرَ بهِ حتّى أتاه عيونه أنّه ليس معه إلاّ خمسون رجلاً ثمّ بسط لهما والتقيا في قبّة ديباج ضربت لهما ومع كلّ واحد منهما سكين، فدعيا بترجمان بينهما فقال شهريراز: إنّ الذين خرّبوا مدائنك أنا وأخي بكيدنا ومكرنا وشجاعتنا، وإنّ كسرى حسدنا وأراد أنْ أقتل أخي فأَبيت.

ثمّ أمر أخي أن يقتلني. فقد خلعناه جميعًا فنحن نقاتله معك، قال: قد أصبتما ثمّ أشار أحدهما إلى صاحبه أنّ السرّ بين اثنين فإذا جاوز اثنين فشا، فقتلا الترجمان جميعًا بسكّينيهما (فأُديلت) الروم على فارس عند ذلك فأتبعوهم يقتلونهم ومات كسرى»[1].

وجاء الخبر بهزيمة كسرى وموته إلى المسلمين وكان المسلمون أيضًا قد انتصروا على

١- هذه الروايات ذكرها الثعلبي النيسابوري في تفسيره: **الكشف والبيان**، ٧/ ٢٩٢ - ٢٩٣. وقد اختصرها المؤلف مع شيء من التصرف اليسير.

الـمشركين ففرح الـمسلمون بذلك.

﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ۝٨ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٩ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ۝١٠﴾ [الروم: ٧-١٠].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أن علم أكثر الناس منحصرٌ بالأمور الـمتعلقة بالرزق وزينة الدُّنْيَا ولَهْوِها، وهم غافلون عن بواطن الدُّنْيَا ومضارها ومفاسدها كما هم غافلون عن الآخرة، وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ﴾ أن الأعمال السيئة والظلم والفسق والفجور تجرُّ الإنسان نحو الكفر [ولذلك قال الحكماء: الـمعاصي بريد الكفر].

﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝١١ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝١٢ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝١٣ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ۝١٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ۝١٥ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ۝١٦﴾ [الروم: ١١-١٦].

الفوائد: الـمقصود من ﴿يَتَفَرَّقُونَ﴾ أن الـمجرمين سيفترقون عن الذين أطاعوهم في إجرامهم، كما سيفترق الـمُرادون عن الـمُريدين والـمُطاعون عن الـمُطيعين.

وجاءت كلمة: ﴿رَوْضَةٍ﴾ بالتنكير لتدل على عظمة ذلك البستان أو الجنَّة، والروضة تُطلق على البستان الذي تُغرِّد فيه البلابل والطيور، كما قال رسول الله ﷺ: إنّ في الجنّة لنهرًا حافتاه الأبكار من كلّ بيضاء خوصانية[1]، يتغنّين بأصوات لم يسمع الخلائق مثلها، ولكن غناءهم يكون

---

١ – الخوصانية: الفتاة الـمرهفة الأعلى الضخمة الأسفل.

بذكر الله وتسبيحه.

وجاء في رواية أخرى إنّ في الجنّة لأشجارًا عليها أجراس من فضّة فإذا أراد أهل الجنّة السماع بعث الله عزّ وجلّ ريحًا من تحت العرش فتقع في تلك الأشجار فتحرّك تلك الأجراس بأصوات لو سمعها أهل الأرض لماتوا طربًا[١].

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝١٧ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ۝١٨ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١٩﴾ [الروم: ١٧-١٩].

الفوائد: ذُكِرَتْ في الآيتين ١٧ – ١٨ جميع أوقات الصلوات اليومية الخمس، وعيَّنت الآيتان وقتًا محددًا لكل منها. والمراد من التسبيح والحمد: الصلاة، رغم أن التسبيح والحمد جزءٌ من الصلاة، إلا أنه يجوز إطلاق الجزء على الكل مجازًا. وَالمُرَاد مِنْ: ﴿تُمْسُونَ﴾ وقت المغرب والعشاء، وَالمُرَاد مِنْ: ﴿تُصْبِحُونَ﴾ صلاة الفجر، وَالمُرَاد مِنْ: **عَشِيًّا** صلاة العصر، وَالمُرَاد مِنْ: ﴿تُظْهِرُونَ﴾ صلاة الظهر ووقتها. وجملة: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ استدلال على البعث يوم القيامة.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۝٢٠ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ۝٢٢﴾ [الروم: ٢٠-٢٢].

الفوائد: تُبيِّنُ هذه الآيات طريق معرفة الله وتقول: انظروا في آيات حكمته وقدرته ورحمته، واستدلُّوا بها على معرفة خالق هذه الموجودات بأنه إله حكيم قادر رحيم، إذ لا يُمكن لهذه الكائنات الحيَّة المعقَّدة أن تكون ناتجةً عن مادة عمياء لا شعور لها.

١- هذه الرواية والتي قبلها ذكرهما الزمخشري في **الكشاف**، ٣/ ٤٧٧، والثعلبي النيسابوري في **الكشف والبيان**، ٧/ ٢٩٧، ونقلهما عنهما كثير من المفسرين.

وَالـمُرَاد مِنْ عبارة: ﴿مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ أي من جنسكم. وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ﴾أن الله تعالى ألقى بين الرجل وزوجته محبةً ورحمةً. فالـمحبة في فترة الشباب والرحمة في فترة الشيخوخة والـمرض، إذا مرض أحد الزوجين، الـمرأة العجوز أو الرجل العجوز، كان الآخر أنيسًا له يسهر على صحته.

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ٢٣ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٢٤ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمۡ دَعۡوَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ ٢٥﴾ [الروم:٢٣-٢٥].

الفوائد: إحدى آيات قدرة الله أنه قهر البشر وكل الحيوانات بالنوم وأن الإنسان يغلبه النعاس دون أن يريد ويأخذه النوم رغمًا عنه، فتتوقف قواه عن العمل أثناء النوم ثم بفضل النوم تتجدد قواه، ولولا النوم لتعب الإنسان وأُرهق وهلك، وقد سعى علماء البشر كثيرًا أن يكتشفوا حقيقة النوم ولكنهم لم يستطيعوا.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أن الإنسان يستطيع أن ينام في الليل وفي النهار أو يعمل بهما إن أراد. هذا وقد ذكر العلماء لنوم النباتات والحيوانات أنواعًا، حتى أن بعض الحيوانات تنام نومًا فصليًا وموسميًا أي تبقى نائمةً فصلاً كاملاً كالقنفذ والدب وآكل النمل والفأر الشتوي، كما أن بعض الحيوانات كالخفاش تعمل في الليل وتستريح في النهار.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ﴾ على بطلان ما جاء في بعض الأخبار الـموضوعة من عبارة: «**لولا الحُجَّة لساخت الأرض**»!

﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ٢٦ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٧﴾ [الروم: ٢٦-٢٧].

الفوائد: في الخلق أول مرة هناك أمران، أما في إعادة الخلق يوم القيامة فهناك أمر واحد،

فابتداء الخلق يتضمن أمرين: الخلق والتأليف، أما في إعادة الخلق ثانيةً يوم القيامة فلا يوجد إلا أمر واحد وهو التأليف فقط (لأن مادة المخلوق موجودة لم تفنَ). ولذلك فإعادة الخلق أهون على الله. وينبغي أن نعلم أنه لا يوجد شيء صعب على الله ولا شيء أسهل من شيء آخر عليه تعالى، لأن كل ما هو ممكن هو سهل عليه. أما قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِۚ﴾ فهو بالنسبة إلى أفهامنا البشرية.

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٢٨ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٢٩﴾ [الروم: ٢٨-٢٩].

الفوائد: المقصود من المثل الذي بيَّنه الله تعالى في الآية ٢٨ أنكم يا عبادي لو كان لكم عبد مملوك من جنسكم فإنكم لا تعتبرونه بأي شكل من الأشكال شريكًا لكم في أموالكم ولا تخافون منه، فكيف تجعلون مخلوقًا من مخلوقات الله ليس من جنس الخالق على الإطلاق بل هو مفتقر محض من كل جهة من الجهات شريكًا للخالق، وتخافون منه كخوفكم من الله؟ أليس هذا ظلمًا من أسوأ الظلم؟ بل هو عين الجهل والضلال.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٠ ۞مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٣١ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًاۖ كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٣٢﴾ [الروم: ٣٠-٣٢].

الفوائد: تَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ﴾ أن دين الإسلام دين الفطرة، ولذلك عندما يُقال: إن للعالَم خالقًا مُدبِّرًا عليمًا فإن الفطرة الإنسانية تصدِّق بذلك، وإذا نهى الله عن الفواحش والمنكرات فإنها أعمال تشعر الفطرة بأنها أعمال قبيحة بحد ذاتها.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٣١ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًاۖ﴾

أن إيجاد التفرقة في الدين له حكم الشرك ويُعاقب صاحبه عليه عند الله معاقبة الـمُشْرِكين. كما تدل جملة: «**وَكَانُوا شِيَعًا**» أن الـمفرِّقين يعتبرون أنفسهم شيعة زيد أو شيعة عمرو ويتسمَّون باسم الشيعة. وقد رُوي عن رسول الله ﷺ قوله: «**مَنْ أَرَادَ أَنْ يُفَرِّقَ أَمْرَ هَذِهِ الأُمَّةِ، وَهِيَ جَمِيعٌ، فَاضْرِبُوهُ بِالسَّيْفِ، كَائِنًا مَنْ كَانَ**». وجاء في **تاريخ الطبري** (ج٤/ ص ٤٧٩) رواية عن أمير الـمؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام [١] أنه قال:

«**... ألا إن هذه الأمة لابد مفترقة كما افترقت الأمم قبلها، فنعوذ بالله من شر ما هو كائن؛ ثم عاد ثانية وقال: إنه لابد مما هو كائن أن يكون، ألا وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة شرها فرقة تنتحلني ولا تعمل بعملي، وقد أدركتم ورأيتم، فالزموا دينكم واهتدوا بهديي فإنه هدي نبيكم ﷺ واتبعوا سنته وأعرضوا عما أشكل عليكم حتى تعرضوه على القرآن فما عرفه القرآن فالزموه وما أنكره فردوه، وارضوا بالله ربًا وبالإسلام دينًا ومحمد ﷺ نبيًا وبالقرآن حَكَمًا وإمامًا...**».

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أن الأحزاب والشِّيَع الدينية التي فرَّقت بين الـمسلمين باسم الدين تتمسك بقوة بأعمالها وشعائرها الحزبية وبدعها وتُسَرُّ بها وتُحِبُّها إلى درجة أنها تتخيل أن الله أمرها بها، وباختصار، تعتبر شعائر الناس شعائر الله. وينبغي أن نعلم أنه عندما قال رسول الله ﷺ: «**شيعةُ عليٍّ هم الفائزون يوم القيامة**»[٢] فإن الـمُراد من كلمة «**الشيعة**» في هذا الحديث هو الشيعة لُغَةً، لا الشيعة اصطلاحًا وحزبًا [لأنه نشأ بعد النبي ﷺ]، والشيعة لغةً معناها: الأتباع والأنصار. وللأسف فإن الشيعة الاصطلاحية حزبٌ جعل من نفسه فرقةً في

١- ورد في نسخة الـمؤلف خطًا أن قائل هذا الحديث هو رسول الله ﷺ، في حين أن الحديث من كلام علي بن أبي طالب عليه السلام خطب به الناس وهو سائر إلى البصرة كما ورد في جميع الـمصادر التاريخية: **كتاريخ الأمم والـملوك** للطبري، ٣/ ٤٩٤، و**الكامل في التاريخ** لابن الأثير، ٣/ ١١٦، و**البداية والنهاية** لابن كثير، ٧/ ٢٦٢، وغيرهم، ومضمون الخطبة أيضًا واضح في كونه من كلام الإمام علي عليه السلام.

٢- الحافظ الديلمي، **مسند الفردوس**، ح (٣٥٩٩)، وانظر: الحافظ ابن عساكر الدمشقي، **تاريخ دمشق الكبير**، ٤٢/ ٣٢٢ و٤٣/ ٣٣٣، و٤٢/ ٣٧١.

مواجهة الفرق الأخرى، فهم ليسوا أتباع عليّ ﷺ أي شيعته لغةً لأنهم لا يقبلون بأصول الدين وفروعه التي كان يعتقد بها ذلك الإمام، بل زادوا عليها وأنقصوا منها من عندهم، فهم ليسوا بفائزين بل الفائزون هم شيعة عليّ بالمعنى اللغوي أي أتباعه الذين يسعون أن يكونوا مثله فيعتبرون أنفسهم مسلمين فقط ولا يزيدون على أصول الإسلام وفروعه شيئًا ولا يعتبرون أنفسهم فرقةً منفصلةً عن المسلمين ولا يَدْعُونَ إلى فرقة أو مذهب معيَّن، تمامًا كما كان حضرة عليّ ﷺ مسلمًا فقط، فهؤلاء هم الشيعة الفائزون لأنهم سيكونون مثل عليّ مسلمين يعملون بالكتاب والسنة.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٣٣ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٣٤ أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشۡرِكُونَ ٣٥﴾ [الروم: ٣٣-٣٥].

الفوائد: تدل هذه الآيات أن الـمُشْرِكين كانوا يدعون الله في الشدائد والمصائب ليُنقذهم ويُزيل ما بهم من مصيبة وكرب، فكانوا يعتقدون بالله، لكنهم في وقت الرخاء كانوا يعودون إلى شركهم ويتوجهون إلى غير الله من المعبودات ويتوسلون بها، ويعتقدون أن غير الله سميع بصير، وقد قال الله: إن شركهم هذا لا دليل عليه ولا حُجَّة مِنْ قِبَلِنَا. فعلى الناس في زماننا أيضًا أن يعلموا أن التوجه إلى غير الله والتوسل به كفر وليس عليه دليل فيما أنزله الله. إضافةً إلى أن عُبَّاد الأصنام كانوا يدعون الله في الشدائد والمخاطر أما منحرفو زماننا فإنهم يدعون عباد الله في الشدائد والمصائب فهم أكثر انحرافًا من عُبَّاد الأصنام!

﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةً فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ ٣٦ أَوَ لَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٣٧ فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٣٨﴾ [الروم: ٣٦-٣٨].

الفوائد: أحد أسباب شقاء البشر وتعاستهم أنهم يغترُّون في حال الغنى والنعمة، وييأسون في

حال الفقر والشدة، في حين أنه من الواجب عليهم – طبقًا لهذه الآيات المباركات – أن يعتبروا أن ما هم فيه هو مما قدَّره اللَّهُ الحكيمُ عليهم فسواءً كانوا في حالة نعمة وغنى أو شدة وفقر فعليهم أن يأخذوا العبرة، فإن كانوا أغنياء أدَّوْا قبل كل شيء حقَّ ذوي القربى لأن الله ابتدأ بذكرهم.

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٖۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الروم: ٣٩-٤٠].

الفوائد: المرَادُ مِنْ جُمْلَةِ: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا......﴾ الزيادة التي يُعطيها المُسْتَدين للدائِن أي للمالِك، أو الهدية التي يُعطيها كي يأخذ أكثر من رأس المال تحت عنوان الرشوة مما يُؤدي إلى سلب البركة من المال. وَالمُرَاد مِنْ: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٖ﴾ ما يعم الزكاة الواجبة أو الصدقة المستحبة التي تكون سببًا للبركة وزيادة المال عندما يُعطيها الإنسان للمحتاجين ابتغاء وجه الله.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ أن كل من عجز عن الخلق والرزق والإحياء والإماتة لا يجوز أبدًا أن يُدْعى كما يُدْعى الله ولا أن يُعتَبَر مشاركًا لِلَّهِ في صفاته، وبما أنه لا يوجد أي مخلوق يقدر على تلك الأمور فلا يجوز اعتبار أي مخلوق مشاركًا لِلَّهِ في صفاته.

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۖ يَوْمَئِذٖ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الروم: ٤١-٤٣].

الفوائد: اعلم أن الفساد في الآيات المذكورة أعلاه معناه الخراب والهلاك والعطب وفساد الأشياء (أي تعفنها وتلفها وفناؤها) وهذا يُشابه المعنى الذي جاء في سورة الأَنْبياء حين قال سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

فالمقصود من ظهور الفساد في البرّ والبحر –المشار إليه في الآية ٤١ السابقة– هو الغلاء

والقحط والجدب والحروب العالمية والزلازل وأمثالها. وقال بعض المُفسِّرين: إن المقصود من الفساد في البرّ والبحر عدم هطول الأمطار وعدم نمو النباتات أي الجفاف والقحط، وعدم تشكل اللؤلؤ والمرجان في البحر، لأنه عندما لا يهطل المطر تعمى الحيوانات البحرية ويتسخ جو البلاد ويتعفن.

وَالمَقْصود مِنْ: ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾ يتفرقون فتكون فرقة في الجحيم وفرقة في الجنَّة.

﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ۝٤٤ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ۝٤٥ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ۝٤٦﴾ [الروم: ٤٤-٤٦].

الفوائد: وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ أن العمل الصالح مثل صندوق التوفير يُفيد الإنسان يوم حاجته ويوم مسكنته وهو يوم القيامة حيث تتحول أعماله الصالحة إلى قصور وحور وأشجار وأنهار.

وقد جمع الحق تعالى في هذه الآيات الرياح المبشرات أما الريح المهلكة فذكرها بعد عدة آيات مفردةً لأن رحمة الله أكثر من عذابه. وقد عدَّد الله تعالى في هذه الآيات فوائد الرياح وسنذكرها لاحقًا.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ۝٤٧ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ۝٤٨ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ۝٤٩﴾ [الروم: ٤٧-٤٩].

الفوائد: في هذه الآيات بيّن الله تعالى فوائد الرياح ومنافعها:

١- بشرى للمزارعين الذين ينتظرون المطر.

٢- وسيلة لتحريك السحب والغيوم وإنزال الأمطار منها.

٣- وسيلة لتحريك السفن، إذ كانت السفن في ذلك العهد جميعها سفنًا شراعيةً.

٤- لأجل حركة القوافل البحرية وتجار الصحراء وللحصول على اللؤلؤ والـمرجان.

٥- ليقوم الناس بالشكر وهنا استخدم الحق تعالى لفظة «**لَعَلَّ**» وهذا ألطف من الأمر بالشكر.

٦- لدفع اليأس عن العباد حتى لا ييأسوا من رحمة الله.

٧- لإزالة الأوساخ والتعفن من الجو وجَلْب النضارة والجِدَّة.

﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٥٠ وَلَئِنۡ أَرۡسَلۡنَا رِيحٗا فَرَأَوۡهُ مُصۡفَرّٗا لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ يَكۡفُرُونَ ٥١ فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ٥٢ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ ٥٣﴾ [الروم: ٥٠-٥٣].

الفوائد: جاءت كلمة ريح في جملة: ﴿وَلَئِنۡ أَرۡسَلۡنَا رِيحٗا...﴾ التي يُقصد بها ريح الدبور الـمؤذية والـمضرة، مفردةً خلافًا لكلمة ﴿ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ﴾ كما مرَّ.

وجاءت جملة: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ للتأكيد، وكلمة الـموتى جمع في سياق النفي فتفيد العموم، إضافةً إلى أنه لم يأتِ فيها استثناء. من هنا يتبيَّن أن رسول الله ﷺ بكل عظمته ومقامه لم يكن يقدر على أن يُسمع نداءَه للموتى، وأن الـموتى لم يكونوا يسمعون صوته، فإذا عرفنا ذلك فلا ينقضي العجب من بعض الـمسلمين الذين يذهبون إلى قبور الصالحين والأنبياء ويطلبون منهم الإذن في الدخول ويعتقدون أنهم يسمعونهم! مع أن أولئك الأَنبياء العظام والصالحين كانوا يسمعون بآذانهم والآن بعد وفاتهم أصبحت آذانهم ترابًا تحت الأرض، ولا أحد يسمع دون آلة الأذن سوى الله. وهؤلاء يقولون: إن أولئك الأولياء العظام أحياء! ويجب أن نقول ردًا عليهم: لنفرض أنهم أحياء، إلا أنهم أحياء بحياة أخروية لا دنيوية، كما تدل عليه آيات القرآن. يُراجع في ذلك الآية ١٦٩ من سورة آل عمران والآية ٨٠ من سورة النمل والآية ٢٢ من سورة فاطر.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ ٥٤ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ ٥٥ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٥٦ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ٥٧﴾ [الروم:٥٤-٥٧].

الفوائد: الـمُرَاد مِنْ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ﴾ خلق الإنسان من نطفة وكذلك الضعف عندما كان طفلاً رضيعًا. وَالـمُرَاد مِنْ: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ﴾ قوة الشباب. والـمُرَادُ مِنْ: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗ﴾ الضعف والعجز في الشيخوخة، حيث إن هذه الأحوال ليست بإرادة البشر واختيارهم بل هم مقهورون لِقُوَّةٍ فوقهم هي التي أوجدت بحكمتها مثل هذا التدبير في الخلق.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖ﴾ أن الـمجرمين الذين وُعدوا بالعقاب والجزاء لا يميلون ولا يرغبون أن يحين موعدهم بسرعة، ولكن أهل العلم والإيمان الذين وُعدوا بالثواب فرحون بحلول موعدهم. وهذا التوقف يكون في عالـم البرزخ حسب الظاهر. وتُسمَّى القيامة بالساعة لأنها تقوم في لحظة، ومعنى الساعة في اللغة غير معنى كلمة «الساعة» في اللغة الفارسية. وَيُسْتَفَادُ مِنْ هذه الآيات أن عالـم البرزخ شبيه بالنوم.

﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَلَئِن جِئۡتَهُم بِـَٔايَةٖ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُبۡطِلُونَ ٥٨ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٩ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ٦٠﴾ [الروم: ٥٨-٦٠].

الفوائد: الـمُرَاد مِنْ: ﴿مِن كُلِّ مَثَلٖ﴾ الأمثال اللازمة للهداية.

والطبع والختم الذي يفعله الله تعالى في قلوب الكفار والجاهلين إنما يحدث نتيجةً لما اختاروه بإرادتهم الحرة من أعمال وبسبب لجاجهم وعنادهم.

وَالـمَقصود مِنْ: ﴿وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ أن عليك بالحِلْمِ والصبر في مواجهة

جهلهم وأذاهم فكن وقورًا ولا تخرج من مكانك بسرعة. وَيُسْتَفَادُ مِنْ هذه الآية أن الـمؤمن من أهل اليقين وأنه يُوقن بالقيامة.

سورة لقمان

مكيّة وهي أربع وثلاثون آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ٢ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥﴾ [لقمان: ١-٥].

الفوائد: قُرئت ﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٗ﴾ على وجهين: النصب على الحالية، والرفع على أنهما خبر لمبتدأ محذوف تقديره «هو». أي: هو هُدًى وَرَحۡمَةٌ. وكلمة: ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾ صفة للكتاب ومعناها ذو الحكمة، كقولنا «**عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ**» بمعنى ذات رضا.

وُصف الكتاب في سورة البقرة بأنه ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ ووُصف هنا بأنه «**هُدًى لِلْمُحْسِنِينَ**» لأن صفة الرحمة أُضيفت هنا إلى الهدى و﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] والإحسان أعلى من التقوى.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ على أهمية الزكاة ودفعها، وقد رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ**»[1]. وجاء في الرسالة التي كتبها رسول الله ﷺ إلى أهل عُمان ما يلي: «**مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى أَهْلِ عُمَانَ: أَمَّا بَعْدُ، فَأَقِرُّوا بِشَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَأَدُّوا**

---

١ - متفق عليه. رواه الستة: البخاري ومسلم وأصحاب السنن الأربعة وأحمد وغيرهم.

الزَّكَاةَ، وخُطُّوا الْمَسَاجِدَ، وَإِلَّا غَزَوْتُكُمْ»(١). ففي هذه الرسالة أمر صريح بوجوب أداء الزكاة إذ قال: «وأدُّوا الزكاة». والزكاة تطهير للأموال أيضًا كما قال عليّ بن الحسين عليهما السلام في الصحيفة السجادية طالبًا من الله أن يُوَفِّقَهُ إلى:«وَأَنْ نُخَلِّصَ أَمْوَالَنَا مِنَ التَّبِعَاتِ، وَأَنْ نُطَهِّرَهَا بِإِخْرَاجِ الزَّكَوَاتِ»(٢).

وَيُسْتَفَادُ مِن القرآن الكريم ومن الأخبار والأحاديث أيضًا أن الزكاة تجب في كلِّ شَيْءٍ، ولذلك جاء في نهج البلاغة، باب الحِكَم، عن عليٍّ عليه السلام أنه قال: «حَصِّنُوا أَمْوَالَكُمْ بِالزَّكَاةِ»(٣). وقال أيضًا: «وَلِكُلِّ شَيْءٍ زَكَاةٌ، [وَزَكَاةُ الْأَبْدَانِ الصِّيَامُ]»(٤). ورُوي عن أنس بن مالك أنه قال: «فَرَضَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم فِي أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ أَرْبَعِينَ دِرْهَمًا دِرْهَمٌ»(٥). وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

١- أبو القاسم الطبراني (ت ٣٦٠ هـ)، **المعجم الأوسط**، ج ٧/ ص٦٠، أبو الحسن علي بن محمد بن الجزري المعروف بابن الأثير (ت٦٣٠هـ)، **أُسْد الغابة**، تحقيق عادل أحمد الرفاعي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤١٧ هـ/ ١٩٩٦ م، ترجمة أبو شداد الذماري العماني، ج٦/ ص١٧٤. وأيضًا: ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ)، **الإصابة في تمييز الصحابة**، تحقيق علي محمد البجاوي، بيروت، دار الجيل، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، ترجمة أبو شداد العماني، ج٧/ ص ٢١١.

٢- **الصحيفة السجادية**، فصل: [وَكَانَ مِنْ دُعَائِهِ عليه السلام إِذَا دَخَلَ شَهْرُ رَمَضَان]، ص ١٨٨.

٣- الكُلَيْنِيّ، **الكافي**، ٤/ ٦١، ابن بابويه القمي، **من لا يحضره الفقيه**، ٢/ ٤، و٤/ ٤١٦. وفي مصادر أهل السنة: أخرجه أبو داود في **مراسيله** عن الحسن مرسلاً، وأخرجه البيهقي في **السنن الكبرى** (٦٣٨٥) وفي **شعب الإيمان**(٣٥٥٧) عن أبي أمامة مرفوعًا، **والطبراني في الكبير** (١٠١٩٦) ، قال **الهيثمي في المجمع**(٣/ ٦٤): فيه موسى بن عمير الكوفيّ وهو متروك . وأبو نعيم في **الحلية** والخطيب البغدادي في **تاريخ بغداد** (١٣/ ٢٠) عن ابن مسعود رفعه. وحكم الألباني بضعفه.

٤- الكُلَيْنِيّ، **الكافي**، ٤/ ٦٢ و٦٣، وابن بابويه القمي، **من لا يحضره الفقيه**، ٢/ ٧٥.

٥- ابن شعبة الحراني، **تحف العقول**، ص ٤١٨، ولفظه: «وَالزَّكَاةُ الْمَفْرُوضَةُ مِنْ كُلِّ مِائَتَيْ دِرْهَمٍ خَمْسَةُ دَرَاهِمَ وَلَا تَجِبُ فِيمَا دُونَ ذَلِكَ، وَفِيمَا زَادَ فِي كُلِّ أَرْبَعِينَ دِرْهَمًا دِرْهَم»، ونقله عنه المجلسي، **بحار الأنوار**، ١٠/ ٣٦٢. وفي مصادر أهل السنة: رواه الهيثمي في **مجمع الزوائد** ٣/ ٢١٣)وقال: رواه **الطبراني في الأوسط** ورجاله ثقات لكنه قال: تفرد به زنيج ورواه جماعة ثقات فوقفوه على عمر بن الخطاب. وانظر: سنن أبي داود (١٥٦١) موقوفًا على عمران بن حصين، وضعَّفه الألباني.

أيضًا: «**فِيمَا سَقَتِ السَّمَاءُ أَو سُقِيَ سِيحاً**[١] **الْعُشْرُ، وَفِيمَا سُقِيَ بِالغَرْبِ نِصْفُ الْعُشْرِ**»[٢].

«**وَعَنْ أَبِي بَصِيرٍ قَالَ قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللهِ** (جعفر بن محمد الصادق عليه السلام): **هَلْ فِي الْأَرُزِّ شَيْءٌ؟ فَقَالَ: نَعَمْ. ثُمَّ قَالَ: إِنَّ الْمَدِينَةَ لَمْ تَكُنْ يَوْمَئِذٍ أَرْضَ أَرُزٍّ فَيُقَالَ فِيهِ وَلَكِنَّهُ قَدْ جُعِلَ فِيهِ وَكَيْفَ لَا يَكُونُ فِيهِ وَعَامَّةُ خَرَاجِ الْعِرَاقِ مِنْهُ؟!**»[٣].

وإن مما يُؤسف له أن شعبنا لا يُعطي الزكاة التي أوجبها الله ولكنه يُعطي حقوقًا ماليةً موضوعة ما أنزل الله بها من سلطان، ويعتبر نفسه مسلمًا!

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۞ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۞﴾ [لقمان: ٦-٧].

الفوائد: نزلت هذه الآيات في «النضر بن الحارث بن كلدة» كان يتّجر فيأتي الحيرة ويشتري أخبا-ر العجم ويحدِّث بها قريشًا، ويقول: إن محمدًا يحدثكم بحديث عاد وثمود، وأنا أحدثكم بحديث رستم واسفنديار وأخبار الأكاسرة، فيستملِحُون حديثه ويتركون استماع القرآن، فأنزل الله هذه الآية[٤].

وذكروا لعبارة: ﴿لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ عدة معانٍ محتملة: ١- كل حديث باطل. ٢-الغناء والمزامير والمعازف إذ كانوا يشترون القيان (أي الإماء المغنيات) ويستمعون إلى غنائهنَّ

١- سِيْحًا: السيح الماء الْجَارِي.

٢- الكُلَيْنِيّ، **الكافي**، ١/ ٥٤١، و٣/ ٥١٢و٥١٣، وابن بابويه القمي، **الخصال**، ٢/ ٦٠٤، وأبو حنيفة نعمان بن محمد التميمي المغربي (الشيعي)، **دعائم الإسلام**، ١/ ٢٦٦. كلُّهُم عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام.
وفي مصادر أهل السنة: أخرجه النسائي في **السنن** والطحاوي في **شرح معاني الآثار** (٢/ ٣٥-٣٧) والحاكم في **المستدرك** (١/ ٣٩٥ - ٣٩٧) وصححه، ووافقه الذهبي، ضمن كتاب مطول حول مقادير الزكاة، كتبه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى أهل اليمن وبعثه مع «عمرو بن حزم».

٣- الشيخ أبو جعفر الطوسي، **تهذيب الأحكام**، ٤/ ٦٥.

٤- البغوي، **معالم التنزيل**، ٦/ ٢٨٣ - ٢٨٤. والواحدي، **أسباب النزول**، ص ٤٠٠.

ويقولون: هذا أفضل مما يقرؤه علينا محمد. ٣- كل كلام لغو لا فائدة منه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝١٠﴾ [لقمان: ٨-١٠].

الفوائد: الـمُرَادُ مِنْ جُمْلَةِ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ﴾ أن الكواكب السماوية لها أعمدة غير مرئية، فيُمكن أن نقول: إن الـمراد بالأعمدة قوة الجاذبية.

ومن الآيات التي تدل على أن النباتات تنقسم إلى مذكرة ومؤنثة هذه الآية التي يقول تعالى فيها: ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾.

﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝١١ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝١٢ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣﴾ [لقمان: ١١-١٣].

الفوائد: جملة: ﴿مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ﴾ استفهام إنكاري. أي لا خالق إلا الله. وَيُسْتَفَادُ مِنْ هذه الآية أنه لا يستطيع أحد أن يخلق شيئًا، وإن أُطلق لفظ الخالق على غير الله في بعض الآيات فهو إطلاق مجازي، لأن الخالق الحقيقي هو الذي يخلق لا من شيء أي من العدم، وأما الآخرون فإذا خلقوا فإنهم يُغيِّرون في الصورة فقط أما مواد تلك الصورة فهي من خلق الله. فمثلاً كان حضرة عيسى عليه السلام يخلق من الطين كهيئة الطير أي يُشكِّل من الطين شكلَ طير أما الـمادة فكانت من خلق الله، وكذلك كان تغيير جواهر تلك الـمادة أيضًا من صنع الله وحده.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ۝١٤ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ

فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴿١٥﴾﴾ [لقمان: ١٤-١٥].

الفوائد: كان لقمان في زمن داود ﷺ وقيل: إنه كان ابن أخت أيوب ﷺ. وهل كان نبيًا أم لا؟ اختلفوا في ذلك. وسُئِل لقمان: بِمَ بلغتَ ما بلغت؟ قال: بقضاء الله وقدره، وبصدق الحديث، وأداء الأمانة، وترك ما لا يعنيني. وكان رجلاً كثير التفكُّر، ورويت عنه حِكَمٌ ومواعظ كثيرة، فمن أراد الاطلاع عليها فليرجع إلى تفسير **مجمع البيان** [للطَّبْرَسِيّ] وإلى غيره من الكتب.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ على وجوب إرضاع الطفل مدة سنتين.

والغرض من هاتين الآيتين اللتين وردتا في وسط وصية لقمان لابنه التأكيد على تحريم الشرك وعلى الوصية بالوالدين على سبيل الاستطراد.

﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴿١٩﴾﴾ [لقمان: ١٦-١٩].

الفوائد: خفاءُ كل شيء يكون إما لِصِغَره أو لِبُعْده المكاني أو لكونه في الظلام أو مستورًا خلف حجاب. وقد بيّن الله تعالى في هذه الآيات أن العمل الصالح أو السيئ مهما كان مخفيًا أو صغيرًا فإن الله سيأتي به يوم القيامة، إذن عبارة: «**مِثْقَالَ حَبَّةٍ**» إشارة إلى صغر العمل، وجملة: ﴿فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ﴾ إشارة إلى وجوده ضمن حجاب ساتر، وعبارة: ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ إشارة إلى بعده، وعبارة: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إشارة إلى أنه في الظلام.

وإن قيل: إن صوت قطع الحديد ونشر المعادن أسوأ من صوت الحمير فكيف اعتبر الله أن أنكر الأصوات هو صوت الحمير؟ فالجواب: إن المقصود هو بشاعة الصوت وقبحه بالنسبة إلى أصوات الحيوانات، وإلا فإن صوت الصاعقة أسوأ وأنكر من جميع الأصوات.

﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ

ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةًۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ۝٢٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ۝٢١﴾ [لقمان: ٢٠-٢١].

الفوائد: النعم الظاهرة في قوله تعالى: ﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةًۗ﴾ هي جمال الوجه وسلامة البدن والأعضاء وحسن القامة وكمال الصحة والمزاج، ودين الإسلام، وكل نعمة ظاهرة لا يُمكن إنكارها. أما النعم الباطنة فهي المعرفة والهداية والتوجهات الذهنية والإلهامات الغيبية وأمثالها.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أن كثيرًا من الناس يُحبون دين آبائهم وأجدادهم حتى ولو كان ذلك الدين باطلاً وكان طريقًا للشيطان وسببًا للذهاب إلى عذاب النار، بل إن كثيرًا من الناس في عصرنا بسبب تعوُّدهم على التقليد أصبحوا يُقلِّدون الغرب أيضًا، مع أنه يجب على الإنسان العاقل أن يُحقق في الأفعال والأعمال لكي يتعرَّف على ما يصلح منها وما لا يصلح لا أن يعتمد على مجرد التقليد. وكذلك بالنسبة إلى الأخلاق المتعلقة بالدين فقد أدى تقدم الدول الغربية في كثير من فروع علوم الطبيعة والفيزياء حتى أصبحت بلدانهم مراكز الأبحاث العلمية في العالَم، إلى ميل كثير من الناس لدينا إلى الغرب وجرَّهم ذلك إلى البحث عن الفضائل الأخلاقية في أعمال الشعوب الغربية (!) في حين أنه لا يجوز التقليد في جميع الأمور بما في ذلك الأخلاق، وقد أدى هذا التقليد لأخلاق وعادات الغربيين إلى إهمال كثير من المسلمين لقوانين الإسلام وتخلِّيهم عنها. بِنَاءً عَلَى ذَلِكَ يجب على الناس أن يتعلَّموا كُلَّ أمر من الأمور خاصةً أمور الدين ويفهموا كل شيء بالدليل والبرهان. فقد رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ اللهَ يُطَاعُ بِالْعِلْمِ وَيُعْبَدُ بِالْعِلْمِ، وَخَيْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مَعَ الْعِلْمِ، وَشَرُّ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مَعَ الْجَهْلِ**»(١).

١- المجلسي، **بحار الأنوار**، ١/ ٢٠٤، نقلاً عن **روضة الواعظين** لمحمد بن الحسن الفتال النيشابوري. **ومشكاة الأنوار**، لعلي بن الحسن بن الفضل بن الحسن الطبرسي، (ص ١٣٦) (وهو ابن: الحسن بن الفضل الطبرسي

﴿۞وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٢٢ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٢٣ نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ ٢٤﴾ [لقمان: ٢٢-٢٤].

الفوائد: معنى التسليم: التوجُّه إلى الله والإخلاص في عبادته، و﴿ٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ﴾ هي الـمستمسك الـمحكم والقوي الذي لا ينقطع فإذا تعلق به الإنسان يُمكنه أن يُنقذ نفسه من السقوط. وقد اعتبر الله تعالى هنا الاستسلام لِلَّهِ والتوجُّه إليه تمسكًا بالعروة الوثقى في حين اعتبر في آية الكرسي أن الإيمان بالله وتوحيده هو العروة الوثقى.

﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٥ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٢٦ وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٧ مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ٢٨﴾ [لقمان: ٢٥-٢٨].

الفوائد: تَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ أن الـمُشْرِكين كانوا يعتبرون الله خالقًا ومُدبِّرًا للكون لكنهم يعتبرون في الوقت ذاته أن الأصنام مظاهر للأولياء ويتقربون إليهم بوصفهم وسطاء وشفعاء. واختلف الـمُفسِّرون في الـمقصود من ﴿كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ﴾هنا ويُمكن القول: إن ﴿كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ﴾ هي أوامره التكوينية أي مخلوقاته التكوينية، وأوامره التشريعية أي القوانين التكوينية والتشريعية. وَالـمُرَادُ مِنْ جُمْلَةِ: ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ﴾ أن خلق الناس وبعثهم سهل على الله وليس فيه أي صعوبة.

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ

صاحب كتاب مكارم الأخلاق، وحفيد: الفضل بن الحسن الطبرسي مؤلف تفسير مجمع البيان). والرواية مذكورة في تلك الـمصادر بلا سند. ولم أجدها في مصادر أهل السنة.

يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴿٣١﴾﴾ [لقمان: ٢٩-٣١].

الفوائد: تعني كلمة «**الْحَقّ**» لغةً: الشيءَ الثابتَ؛ وقد سَمَّى الله نفسَه بالحق لأنه ثابت الوجود، وهو ما يُعبِّر عنه المتكلِّمون بواجب الوجود أي دائم الوجود الذي لم يعرض له الوجود بشكل حادث بل وجوده ذاتي لذلك هو الحق وهو المستحق وحده للعبادة.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ على أنه لا يجوز دعاء غير الله لأن كل من دُعي مما سوى الله لا يملك صفات الله، وهذه قاعدة هامة ينبغي الالتفات إليها ولا يجوز تجاهل كلام الله. وهذا هو بالضبط معنى «لا إله إلا الله» أي لا يوجد معبود بحق ومستحق للعبادة سوى الله وحده.

﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾ [لقمان: ٣٢-٣٣].

الفوائد: قيل: إن الآية ٣٢ نزلت بشأن عِكْرِمَةُ بن أبي جَهْل وكانت السبب في إسلامه لأنه لما فتح رسول الله ﷺ مكة أعطى جميع الناس الأمان إلا أربعة نفر [ومرأتين] وقال: اقتلوهم ولو وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة: عبدُ اللهِ ابْنُ خَطَلٍ وَمِقْيَسُ بْنُ صُبَابَةَ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ، وَعِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ. فأما عِكْرِمَةُ ففرَّ هاربًا فركب البحر فأصابتهم ريحٌ عاصفٌ فقال أهل السفينة لأهل السفينة: أخلصوا فإن إلهكم لا يغني عنكم شيئًا هاهنا. فقال عِكْرِمَةُ: والله لئن لم يُنَجِّنِي في البحر إلا الإخلاص ما ينجي في البر غيره، **اللهم إن لك عليّ عهدًا، إن أنت عافيتني مما أنا فيه أن آتي محمدًا ﷺ حتى أضع يدي في يده؛ فلأجدنّه عفوًا كريمًا؛ فجاء**

فأسلم»[1].

وَالـمُرَاد مِنْ كلمة: ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ الـمخادعون الذين يخدعون الناس باسم الدين، ويقولون: الله كريم رحيم وسوف نتوب. إذن لا يجوز الاغترار برحمة الله لأنه إذا كان اللّهُ غفورًا ورحيمًا فإن عذابه عذابٌ أليمٌ أيضًا؛ كما قال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ۝٥٠﴾ [الحجر: ٤٩-٥٠]، وقال أيضًا: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٩٨﴾ [المائدة: ٩٨].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٞ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسُۢ بِأَيِّ أَرْضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ۝٣٤﴾ [لقمان: ٣٤].

الفوائد: في الفقرة ٢٧ من مقدمة هذا الكتاب تكلمنا عن فصاحة هذه الآية وبلاغتها وعما فيها من مطالب علمية، فلتُراجع ثمَّة، وهنا نقول: إنه يُستفاد من جملة: «**وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا** .... إلى آخر الآية» أن لا أحد، ولا حتى أي مَلَك مُقَرَّب أو نبيّ مُرْسَل، يعلم ماذا يفعل غدًا ولا أين ومتى يموت؟ لذلك قال أمير الـمؤمنين عليه السلام في إحدى أدعيته: «**إلهي كيف أَسْكَتَّ بالإفحام لسان ضراعتي وقد أقلقني ما أُبهم عليَّ من مصير عاقبتي**». وقال أيضًا: «**لا أدري إلى ما يكون مصيري وعلى ماذا تهجم عند البلاغ مسيري وأرى نفسي تُخاتلني وأيامي تُخادعني**»، وقال أيضًا: «**إلهي أَمِنْ أهل الشقاوة خلقتني فأُطيل بكائي؟**».

وعلى كل حال، فإن الآية الـمذكورة تُبطل ادِّعَاء من يدَّعي أن الأئمة يعلمون وقت موتهم. وقال حضرة الأمير عليه السلام في الخطبة ١٤٧ من نهج البلاغة: «**كَمْ أَطْرَدْتُ الأَيَّامَ أَبْحَثُهَا عَنْ مَكْنُونِ هذَا الأَمْرِ، فَأَبَى اللهُ إِلاَّ إِخْفَاءَهُ، هَيْهَاتَ! عِلْمٌ مَخْزُونٌ!**». وقد قال حضرته هذا الكلام بعدما ضربه ابن ملجم.

١- الـمجلسي، **بحار الأنوار**، ٩/ ١٣٧ و٢٢/ ٤٩. وفي مصادر أهل السنة أخرجه: ابن أبي شيبة في **الـمصنَّف**، كتاب الـمغازي، ١٣/ ٣٩٤-٣٩٥، ح (٣٧٩١٠)، والنسائي في السنن الكبرى، ٢/ ٣٠٣، والبيهقي في **دلائل النبوَّة**، ٤/ ٦٠.

وقال أيضًا في الخطبة ١٢٨ من نهج البلاغة لما قال لهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ لَقَدْ أُعْطِيتَ يَا أَمِيرَ اَلْمُؤْمِنِينَ عِلْمَ اَلْغَيْبِ! فَضَحِكَ عليه السلام وَقَالَ لِلرَّجُلِ: «**يَا أَخَا كَلْبٍ لَيْسَ هُوَ بِعِلْمِ غَيْبٍ وَإِنَّمَا هُوَ تَعَلُّمٌ مِنْ ذِي عِلْمٍ وَإِنَّمَا عِلْمُ اَلْغَيْبِ عِلْمُ اَلسَّاعَةِ وَمَا عَدَّدَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ....﴾ **فَيَعْلَمُ اللهُ سُبْحَانَهُ مَا فِي اَلْأَرْحَامِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَقَبِيحٍ أَوْ جَمِيلٍ وَسَخِيٍّ أَوْ بَخِيلٍ وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ وَمَنْ يَكُونُ لِلنَّارِ فِي اَلنَّارِ حَطَبًا أَوْ فِي اَلْجِنَانِ لِلنَّبِيِّينَ مُرَافِقًا؛ فَهَذَا عِلْمُ اَلْغَيْبِ اَلَّذِي لاَ يَعْلَمُهُ أَحَدٌ إِلاَّ اللهُ**».

سورة السجدة

مكيّة وهي ثلاثون آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ۝٣ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤﴾ [السجدة: ١-٤].

الفوائد: المقصود من ﴿قَوۡمٗا﴾ مشركو مكة زمن رسول الله ﷺ قبل أن يُبعَث بالنبوّة، والمقصود من ﴿سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾ ست دورات زمانية، لأنه في زمن الخلقة لم يكن هناك سماوات ولا أرض حتى يكون هناك ليل ونهار.

وحرف «**ثُمَّ**» في عبارة ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ ليس للتراخي الزماني بل للتراخي في الأهمية والعظمة. والمقصود من «**الْعَرْشِ**» كل العالم أي كل ما سوى الخالق[1].

١- سبق أن بيَّنَّا أن العرش مخلوق عظيم حقيقي غير مجازي ولا يعلم كيفيته إلا الله تعالى...، فالقول بأنه كل ما سوى الله لا ينسجم مع قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ...﴾ [غافر: ٧]، أو قوله سبحانه: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ [الحاقة: ١٧] أو قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾ [هود: ٧]. انظر تعليق المُصحح في هامش تفسير الآية الأخيرة من سورة التوبة والآية الثانية من سورة رعد من هذا الكتاب.

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ۝٥ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ۝٦ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ۝٩﴾ [السجدة: ٥-٩].

الفوائد: الظاهر من آية ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ...﴾أن تدبير أمور السماوات والأرض بيد الله حتى اليوم الذي يعود فيه الأمر كلُّه إلى الله.

ومعنى ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ ثم يرجع - حسب الظاهر - أي: ثم يأتي يوم القيامة الذي ينحلُّ فيه نظام العالـم ويطول ذلك ألف سنة إلى أن يُعطى اللَّهُ للعالـم نَظْمًا جديدًا.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ أن الله جعل خلقة كل شيء خلقة حسنة فإذا كان أحد الـموجودات بشعًا في نظر الإنسان فلأنه لم يدرك ما فيه من جمال، فمثلاً أبشع الطيور بنظر الإنسان هو الغراب في حين أنه لدى قرينته من أجمل الطيور، قال الشاعر (بالفارسية):

كـــل مـــا تعـــده بشـــعًا لا علـــم لـــك بجمالـــه
ذاك الغـــراب البشـــع في نظـــرك لـــدى قرينتـــه جميـــل جـــدًا

والـمُراد من ﴿مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ المنيّ الذي إذا أصاب اللباسَ نـجَّسهُ واحتاج إلى تطهيره منه.

﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ۝١٠ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ۝١١ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ۝١٢﴾ [السجدة: ١٠-١٢].

الفوائد: جملة ﴿ضَلَلْنَا﴾ دليل على تفرّق ذرات أبداننا الـمتفتّتة والـمنحلّة في الأرض. وأدلة منكري الـمعاد ليست أدلة علمية بل قائمة على مجرّد الاستبعاد وقلة الفهم والإدراك، فكان

المشركون يقولون ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾؟ فيرد الله عليهم: كما أن موتكم ليس باختياركم بل الملك يأتيكم ليقبض نفوسكم، كذلك لن تكون قيامتكم بإذنكم واختياركم، بل سيتم إحضاركم وإرجاعكم إلينا بأمر الله.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [السجدة: ١٣-١٤].

الفوائد: المُراد من جملة ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ أجبرناها على الهدى، فالله تعالى لم يشأ إجبار الإنسان على الهداية تكوينيًا بل أراد أن يكون الإنسانُ مختارًا وأن يملأ جهنّم باختياره.

والمُراد من ﴿نَسِينَٰكُمْ﴾ جازيناكُم بالنسيان، أما النسيان الحقيقي فلا يتطرق إلى ذات الله، وذاتُ الله ليست محلاً للحوادث.

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٥-١٧].

الفوائد: إن قراءة الآية ١٥ أو سماعَها يستوجبان السجود لأن الامتناع عن السجود بعد سماعها أو قراءتها دليل على عدم إيمان القارئ أو المستمِع بآيات الله طبقًا لمفهوم المخالفة للآية المذكورة.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: أن إحدى الصفات الحسنة أن يقوم الإنسان من مضجعه إلى مناجاة ربه ويترك النوم لهذا الغرض.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ أن الله أعد للمؤمن بآيات القرآن والعامِل بها مقامات ودرجات لا يعلم بها أحدٌ سوى الله، **اللهم ارزقنا ذلك**.

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ١٨ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلَۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٩ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢٠﴾ [السجدة: ١٨-٢٠].

الفوائد: ترجمنا كلمة ﴿نُزُلَۢا﴾ بما يُقَدَّم للضيف من حواضر المنزل قبل أن يُقدَّم إليه الطعام الكامل وذلك كي يعدّوا الضيف للضيافة الكاملة، أي أن النزل هو أول النعيم، إلى أن يتمّ بعد ذلك تعيين مقامه ودرجته وما يستحقه من ثواب.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ١٨﴾ أنه لا يجوز أن يتساوى المؤمن والكافر ولا أن يُعامَلا معاملةً واحدةً. وهذا هو مقتضى العدل الإلهي ألا يساوي بينها بل يجعل الجنة للمؤمنين وجهنّم للكافرين والمنافقين.

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ٢١ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ٢٢﴾ [السجدة: ٢١-٢٢].

الفوائد: المُراد من ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ عذاب الدنيا الذي هو أقرب وأسرع زوالاً ولا يبقى، وأما ﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ فهو عذاب الآخرة. ومن أمثلة عذاب الدنيا: القحط والمجاعات وغلاء الأسعار وتسلّط الأشرار وولاية الكفّار وحروب الدمار وفقدان الأمن في الدِّيار والأمراض التي يقدِّرها الله على عباده لتأديبهم وحثّهم على الرجوع إليه والتوبة من فسادهم.

وجملة: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ تهديد شديد لمن يُهمِل القرآن ولا يكترث بتعاليمه.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٢٣ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ٢٤ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ٢٥﴾ [السجدة: ٢٣-٢٥].

الفوائد: على من تعود جملة ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾؟ ذكروا احتمالات أظهرها أنها

تعود على الانتقام أو الإعراض أو على الكتاب وهذا هو الظاهر.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أن الإمام لا ينحصر بشخص معيّن، بل كل من كان هاديًا للناس صبورًا ومن أهل اليقين كان إمامًا.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍۚ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْۚ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [السجدة: ٢٦-٣٠].

الفوائد: فاعل ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ ضمير مستتر بدله جملة ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ وتقديره: أولم يهدهم إهلاكُنا...؟ وقد جعل الله الأمم السابقة سببًا لأخذ الأمة الإسلامية العبرة من مصيرهم، ولكن مع الأسف فإن الأمة الإسلامية لم تأخذ العبرة بل عملت أسوأ مما عملته الأمم السابقة.

والضمير في ﴿يَمْشُونَ﴾ يعود على ﴿ٱلْقُرُونِ﴾ [أي الأمم] ومن الممكن أن يعود على كفار مكة والثاني أظهر.

سورة الأحزاب

مدنيّة وهي ثلاث وسبعون آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ١ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ٢ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ٣﴾ [الأحزاب: ١-٣].

الفوائد: سُمِّيَت هذه السورة بسورة الأحزاب لمجيء قصَّة معركة الأحزاب فيها، والأحزاب جمع حزب، وهم الأحزاب الذين أثارهم أبو سفيان وحرّضهم على محاربة الإسلام والـمسلمين. وقد نزلت الآية الأولى من هذه السورة في أبي سفيان بن حرب، وعكرمة بن أبي جهل، وأبي الأعور السُّلَمِيّ وعمرو بن سفيان السُّلَمي، وذلك أنهم قدموا الـمدينة فنزلوا على عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيّ [بن سلول رأس الـمنافقين] بعد قتال أحد، وقد أعطاهم النبي ﷺ الأمان على أن يكلموه، فقالوا للنبي ﷺ: ارفض ذكر آلهتنا، اللات والعزَّى ومناة، وقل: إن لها شفاعة لمن عبدها، وَنَدَعَكَ وَرَبَّكَ، فشقَّ على النبي ﷺ قولهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية[1]، أي لا تطع الكافرين والـمنافقين، لأن عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ كان مع الكفّار أيضًا وكان من الـمنافقين. وقال الـممقاني في كتابه «**مقباس الهداية**» (ص ٨٩) عن حضرة الإمام الصادق عليه السلام: «**ما أنزل الله سبحانه وتعالى آيةً**

١- الواحدي، **أسباب النزول**، ص ٤٠٧ دون إسناد. والبغوي، **معالـم التنزيل**، ٦/ ٣١٢. والقرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ١٤ / ١١٤ بصيغة التمريض. وانظر **معاني القرآن** للفراء، ٢ / ٣٣٤.

في الـمنافقين إلا وهي فيمن ينتحل التشيع»![(١)].

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ۝٤ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٥﴾ [الأحزاب: ٤-٥].

الفوائد: الـمقصود من ﴿مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ ردَّ ادّعاء من ادَّعى أن في جسم أبي مَعْمَر، جميل بن معمر الفهري، قلبين. وكان أبو مَعْمَر رجلاً لبيبًا حافظًا لما يسمع، فقالت قريش: ما حفظ أبو مَعْمَر هذه الأشياء إلا وله قلبان، وكان يقول: إن لي قلبين أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد، فلما هزم الله الـمشركين يوم بدر انهزم أبو مَعْمَر فيهم، فلقيه أبو سفيان وإحدى نعليه بيده، والأخرى في رجله، فقال له: يا أبا مَعْمَر ما حال الناس؟ قال انهزموا، قال: فما لك إحدى نعليك في يدك والأخرى في رجلك؟ فقال أبو مَعْمَر: ما شعرت إلا أنهما في رجلي، فعلموا يومئذ أنه لو كان له قلبان لما نسي نعله في يده[(٢)].

وَجُمْلَةُ: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ ردٌّ لسنَّة الجاهلية إذْ كانوا يجعلون الابن

١- رواه الـمجلسي في **بحار الأنوار**، ٦٥/ ١٦٧، نقلاً عن الكشي في رجاله عن خالد بن حماد عن الحسن بن طلحة رفعه عن محمد بن إسماعيل عن علي بن زيد الشامي قال قال أبو الحسن (أي الإمام الرضا) - عليه السلام - قال أبو عبد الله - عليه السلام -: «ما أنزل الله سبحانه وتعالى آيةً في الـمنافقين إلا وهي فيمن ينتحل التشيع». ومعنى قوله (ينتحل التشيُّع) أي ينتسب إليه زورًا وكذبًا، من النِّحلة، قال ابن منظور في لسان العرب: «والنِّحْلةُ: الدَّعْوَى. وانْتَحَل فلانٌ شِعْر فلانٍ، أَو قالَ فلانٍ، إذا ادّعاه أَنه قائلُه. وتَنَحَّلَه: ادَّعاه وهو لغيره». فالـمقصود الـمنافقون الذين يدسُّون أنفسهم بين الشيعة وهم ليسوا منهم، بل يتظاهرون بالتشيع للتوصل لأغراضهم.

٢- ذكره الواحدي في **أسباب النزول**، ص ٤٠٧-٤٠٨ دون إسناد، وانظر: البغوي، **معالم التنزيل**، ٦/ ٣١٦. وأبو حيّان الأندلسي، **البحر الـمحيط**، ٧ / ٢١١، وابن الجوزي، **زاد الـمسير**، ٦ / ٣٤٩، وغيرهم.

الـمتبَنّى ابنًا حقيقيًا، كما سيأتي شرح ذلك ذيل الآيات ٣٦ إلى ٣٨ من هذه السورة.

وَجُمْلَةُ: ﴿وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ﴾ إشارة إلى قاعدة عدم الـمؤاخذة على الخطأ وعدم العقاب الإلـهي عليه[١].

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ٦﴾ [الأحزاب: ٦].

الفوائد: معنى ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ أن أمره ونهيه أولى من أمر الـمؤمنين ونهيهم ومقدم عليه، وطاعته مقدمة على طاعة الـمؤمن نفسه، كما إن حفظ نفس النبيّ مقدم على حفظ الآخرين أنفسهم.

ولكن ينبغي أن نعلم أنه في جملة: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ...﴾ تمّ تعليق حكم الأولوية بوصف النُّبُوَّة، مما يفيد أن غير النبيّ لا ولاية له لأن غير النبيّ ليس نبيًا، فولاية الإمام أو الفقيه وأولويتهما لا سند لها في القرآن. أضف إلى ذلك أن الآية اعتبرت زوجات النبيّ ﷺ أمهات الـمؤمنين في حين أنه ليس لزوجات غير النبيّ مثل هذا الحكم بالاتفاق. وإضافةً إلى ذلك فإن أولوية الرسول ﷺ لا تستوجب سلب ولاية الـمؤمنين على أنفسهم في حين أن ولاية الآخرين تستوجب سلب ولاية الـمؤمنين على أنفسهم.

وَالـمقْصود مِنْ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أن توارث الأقرباء نسخ التوارث بأخوَّة الإيمان الذي كان بين الـمؤمنين بعد الهجرة، فقبل نزول هذه الآية كان الـمؤمنون الذين آخى بينهم رسول الله ﷺ بعد الهجرة يتوارثون كما يرث الأخ أخاه.

١- كما ورد في الحديث عن ابن عباس وعن أبي ذر وعن ابن عمر كلهم عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي [وفي روايةٍ: وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي، وفي روايةٍ: رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي] الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ». أخرجه ابن ماجه في **السنن** (٢٠٤٣) وصححه الألباني، والبيهقي في **السنن الكبرى** (١١٧٨٧) وَالحاكم في **الـمستدرك** (٢٨٠١)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين وَلم يخرجاه، وقال الذهبي في التلخيص: على شرط البخاري ومسلم، والطبراني في **الـمعجم الكبير** عن ثوبان.

وَالـمُرَادُ مِنْ جُمْلَةِ: ﴿إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ﴾ إلا أن توصوا إلى الـمؤمنين الذين تُحبونهم من غير قرابتكم، فلا إشكال في ذلك.

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ٧ لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ وَأَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا ٨﴾ [الأحزاب: ٧-٨].

الفوائد: الـمقصود من الـميثاق ميثاق الفطرة والعقل، وقد يكون الـمقصود الـميثاق الذي أخذه الله على العباد في كتبه الـمُنزَّلة ووحيه إلى الأنبياء، فقد أخذ الله في وحيه على الأنبياء العهد والـميثاق أن يبينوا للناس الحقائق، وهذا امتحان للأنبياء هل سيقومون بهذه الـمهمَّة كما أمرهم الله أم لا؟ وهذا هو الـمُراد من جُملة: ﴿لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ﴾.

ويمكن أن نقول أيضًا: إنه عندما يُرسِلُ مَلِكٌ من الـملوك سفيرًا له فإن هذا الإرسال وقبول السفير لهذه الـمُهِمَّة هو في حد ذاته عهدٌ وميثاقٌ.

وإذا كان الله تعالى سيسأل الصادقين عن صدقهم وأنه هل صدقتم فيما بلغتم عن الله وهل كان قصدكم خالصًا لوجه الله؟ فكيف سيكون حال الكاذبين والـمرائين؟ الويل لهم يومئذٍ!

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ٩ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ١٠ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ١١﴾ [الأحزاب: ٩-١١].

الفوائد: هذه الآيات تتعلَّق بمعركة الأحزاب وشرحها هو التالي[١]:

إن نفرًا من اليهود، منهم سلام بْنُ أَبِي الْـحُقَيْقِ، وَحُيَيّ بْنُ أَخْطَبَ، في نفر من بني النضير الذين كان رسول الله ﷺ قد أجلاهم عن الـمدينة، خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة

١- معظم ما ذكره الـمؤلِّف من قصة غزوة الأحزاب مأخوذٌ عن تفسير **مجمع البيان** للطبرسي، ٤/ ٣٤٠ - ٣٤٥، وهو موافق في معظمه لما جاء في تفسير **معالـم التنزيل** للبغوي، ٦/ ٣٢٢ - ٣٣١.

فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ، وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله، فقالت لهم قريش: يا معشر يهود! إِنَّكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ وَالْعِلْمِ بِمَا أَصْبَحْنَا نختلف فِيهِ نَحْنُ وَمُحَمَّدٌ، فَدِينُنَا خَيْرٌ أَمْ دِينُهُ؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه، وَأَنْتُمْ أَوْلَى بِالْحَقِّ مِنْهُمْ، قال: فهم الذين أنزل الله فيهم:(١) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴿٢٣﴾﴾ [آل عمران: ٢٣].

فلمّا قالوا ذلك لقريش سرَّهُم ما قالوا ونشطوا لِـمَا دَعَوْهُم إليه من حرب رسول الله، فأجمعوا لذلك، ثم خرج أولئك النفر من اليهود حتى جاؤوا غطفان من قيس عيلان، فدعوهم أيضًا إلى حرب محمَّدٍ ﷺ وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه، وأن قريشًا قد بايعوهم على ذلك، فأجابوهم.

فَخَرَجَتْ قُرَيْش وقائدها أبو سفيان بن حرب، وَخَرَجَتْ غَطَفَان وقائدها عُيَيْنَةُ بنُ حصن وَخَرَجَتْ كذلك فزارة وبنو مُرَّة، وَخَرَجَتْ أَشْجَعُ وَخَرَجَتْ بَنُو أَسَدٍ وأهلُ نَجْدٍ وَبَنُو سُلَيْمٍ وقائدهم أَبُو الْأَعْوَرِ السُّلَمِيّ وأتباعه، خرجوا جميعًا لنصرة قريش.

فلما سمع بهم رسول الله ﷺ وبما اجتمعوا له من الأمر ضرب الخندق على المدينة. وكان الذي أشار على رسول الله ﷺ بالخندق سلمان الفارسي، وكان أول مشهد شهده سلمان مع رسول الله ﷺ وهو يومئذٍ حُرٌّ، وخَطَّ رسول الله ﷺ الخندق عام الأحزاب ثم قطع لكل عشرة من أصحابه أربعين ذراعًا، قال: فاحتجَّ المهاجرون والأنصار في سلمان الفارسي وكان رجلاً قويًّا، فقال المهاجرون: سلمان منا، وقال الأنصار: سلمان منا، فقال النبي ﷺ: «**سلمان منَّا أهل البيت**».

١- هكذا ذكر المؤلِّف، لكن الصحيح الذي ذَكَرَتْهُ كُتُبُ السيرة والتواريخ وجميع التفاسير هو أن الآية التي نزلت في اليهود في هذا الأمر هي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴿٥١﴾﴾ [النساء: ٥١]. انظر مثلاً تفاسير: **جامع البيان** للطبري، ٢٠/ ٢١٨، و**مجمع البيان** للطبرسي، ٤/ ٣٤٠ - ٣٤٥، و**معالم التنزيل** للبغوي، ٦/ ٣٢٢.

وعلى كل حال، فأثناء قيامهم بالحفر ظهرت في بطن الخندق صخرةٌ صلبة كسَّرت معاولهم ولم يستطيعوا إخراجها، فأخبروا بذلك رسول الله ﷺ وقالوا: من الأفضل أن نغير مسار الخندق في هذا المكان، فهبط رسول الله ﷺ الخندقَ وأخذ المعول فضرب الصخرة ضربةً صدعها وبرق منها برقٌ أضاء ما بين لابتيها -يعني المدينة- حتى لكأن مصباحًا في جوف بيت مظلم، فكبَّر رسول الله ﷺ وَكَبَّرَ المسلمون، ثم ضربها رسول الله ﷺ الثانية وبرق منها برقٌ أضاء ما بين لابتيها، فَكَبَّرَ رسول الله ﷺ تكبيرَ فَتْحٍ وَكَبَّرَ المسلمون، ثم ضربها رسول الله ﷺ فكسرها، وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها، فَكَبَّرَ رسول الله ﷺ تكبيرَ فَتْحٍ وَكَبَّرَ المسلمون، فقال سلمان: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! علامَ يدلُّ ذلك البرق؟ فقال رسول الله ﷺ: «في الضربة الأولى وعدني الله بالنصر [في هذه المعركة] وفي الضربة الثانية وعدني بفتح الشام وفي الضربة الثالثة وعدني بفتح المشرق، فأبشِروا»، فاستبشر المسلمون وقالوا الحمد لله موعدَ صدقٍ، وُعِدْنَا النصر بعد الحصر. وفي هذه الأثناء ظهرت من بعيد جيوش الأحزاب فقال المؤمنون: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ....﴾، أما المنافقون فقالوا: ألا تعجبون من محمَّدٍ يعدكم ويمنِّيكم الباطل ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى، وأنها تُفتَح لكم، وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفَرَق لا تستطيعون أن تبرزوا؟!.

وجاء في إحدى الروايات[١] [عن جابر بن عبد الله الأنصاري] قال: كنا مع رسول الله ﷺ يوم الخندق نحفر فيه، فلبثنا ثلاثة أيام لا نطعم شيئًا، ولا نقدر عليه، فعرضت في الخندق كديةٌ[٢]، فجئت إلى رسول الله ﷺ فقلت: هذه كدية قد عرضت في الخندق، فرششنا عليها الماء، فقام رسول الله ﷺ وبطنه معصوبة بحجر فأخذ المعْوَل أو المسحاة، ثم سمَّى ثلاثًا ثم ضرب، فعادت كثيبًا[٣] أهْيَل، فلما رأيتُ ذلك من رسول الله ﷺ قلتُ: يا رسول الله، ائذن لي،

١- حديث جابر هذا أخرجه بهذه الألفاظ عينها: البيهقي في «**دلائل النُّبوَّة**» ٣/ ٤٢٣ - ٤٢٤. وأصل الرواية رواها البخاري ومسلم في صحيحيهما وغيرهما من أئمَّة الحديث.

٢- الكدية: أرض صخرية لا تعمل فيها الفأس.

٣- الكَثِيب: الرَّمْل المسْتَطِيل المُحْدَوْدِب.

قال: فأذن لي، فجئتُ امرأتي فقلت: ثكلتكِ أمُّكِ، إني قد رأيت من رسول الله ﷺ شيئًا لا صبر عليه، فما عندك؟ قالت: عندي صاع من شعير وعناق[١]. قال: فطحنَّا الشعير، وذبحنا العناق، وأصلحناها وجعلناها في البرمة[٢]، وعجنت الشعير، ثم رجعت إلى رسول الله ﷺ فلبثت ساعة، ثم استأذنته الثانية، فأذن لي، فجئت فإذا العجين قد أمكن؛ فأمرتها بالخبز، وجعلتُ القدر على الأثافي[٣]، ثم جئت رسول الله ﷺ فساررته فقلت: إن عندنا طُعَيِّمًا لنا، فإن رأيتَ أن تقوم معي أنتَ ورجلٌ أو رجلان معك فعلتَ، فقال ﷺ: «ما هو؟ وكم هو؟» قلتُ: صاع من شعير وعناق، قال ﷺ: «ارجع إلى أهلك فقل لها: لا تنزع البرمة من الأثافي، ولا تخرج الخبز من التنور حتى آتي»، ثم قال للناس: «قوموا إلى بيت جابر»! قال [جابر]: فاستَحَيْتُ حياءً حتى لا يعلمه إلا الله، فقلتُ لامرأتي: ثكلتكِ أمُّكِ، وقد جاءك رسول الله ﷺ وأصحابه أجمعون! فقالت: أكان رسول الله ﷺ سألك عن الطعام؟ قلتُ: نعم، قالت: الله ورسوله أعلم، قد أخبرتَهُ بما كان عندك؛ فذهب عني بعض ما كنت أجد، قلت: لقد صدقتِ. فجاء رسول الله ﷺ فدخل ثم قال لأصحابه: «لا تضاغطوا»[٤]، ثم برك على التنور وعلى البرمة، فجعلنا نأخذ من التنور الخبز، ونأخذ اللحم من البرمة، فنثرد ونغرف ونقرب إليهم، وقال رسول الله ﷺ: «ليجلس على الصحفة[٥] سبعة أو ثمانية»، فلما أكلوا كشفنا التنور والبرمة، فإذا هما قد عادا إلى أملأ ما كانا، فنثرد ونغرف ونقرب إليهم، فلم نزل نفعل ذلك، كلما فتحنا التنور وكشفنا عن البرمة وجدناهما أملأ ما كانا، حتى شبع المسلمون منها وبقيت طائفة من الطعام، فقال لنا رسول الله ﷺ: «**إن الناس قد أصابتهم مخمصة، فكلوا وأطعموا**»[٦].

ولما كان المسلمون مشغولين بحفر الخندق كان النبي ﷺ ينقل التراب يوم الخندق حتى

١- العناق: الأنثى من أولاد المعز والضأن من حين الولادة إلى تمام حول.

٢- البرمة: القِدر مطلقًا وهي في الأصل المتخذة من الحجارة.

٣- الأثافي: حجارة تنصب وتوضع عليها القدور والأواني لإنضاج الطعام.

٤- لا تضاغطوا: لا تزدحموا.

٥- الصحفة: إناءٌ كالقَصْعَة المبْسُوطة ونحوها، وجمعُها صِحَاف.

٦- البيهقي، «**دلائل النُّبوَّة**»، ٣/ ٤٢٣ - ٤٢٤.

اغبرَّ وهو يقول أشعارًا بصوت مرتفع وأصحابه يردِّدُونها وراءه:

والله لـــولا الله مـــا اهتـــدَيْنا ولا تَصَـــدَّقْنَا ولا صَلـــيَّنا

فـــأَنْزِلَنْ ســـكينةً علينـــا وثَبِّـــتِ الأقـــدامَ إنْ لاقَيْنَـــا

إنَّ الأُلَى قـــد بَغَـــوا علينـــا إذا أرادوا فِتْنَـــةً أَبَيْنَـــا

ويرفع بها صوته: **أبينا أبينا** [١]

وكان ﷺ يقول أيضًا، وهو يحفر الخندق:

اللهـــم إنَّ العـــيشَ عـــيشُ الآخـــرة فـــاغفِرْ للأنصـــار والـــمهاجِرَةْ

فيقول أصحابه مجيبين له:

نحـــنُ الـــذين بـــايَعُوا محمـــدًا عـــلى الجهـــادِ مـــا بَقِيْنَـــا أبـــدًا [٢]

فلما فرغ رسول الله ﷺ من الخندق أقبلت قريش في عشرة آلاف من أحابيشهم، ومن تابعهم من بني كنانة وأهل تهامة، وأقبلت غطفان ومن تابعهم من أهل نجد، حتى نزلوا إلى جانب أُحد، وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون، حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع في ثلاثة آلاف من المسلمين، فضرب هنالك عسكره والخندق بينه وبين القوم. وأمر بالنساء والذراري فرفعوا في الآطام[٣].

وخرج عدوّ الله حُيَيّ بن أخطب من بني النضير حتى أتى كعب بن أسد القُرَظِيّ، صاحب عقد بني قريظة وعهدهم، وكان قد وادع رسول الله ﷺ على قومه وعاهده على ذلك، فلما سمع كعبٌ بِحُيَي بن أخطب أغلق دونه حصنه، فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له، فناداه حُيَيّ: يا كعب! افتح لي، فقال: وَيْحَكَ يا حُيَيّ إنك امرؤ مشؤوم وإني قد عاهدت محمدًا، فلستُ بناقضٍ ما بيني

١- أخرجه البخاري في **صحيحه**، ٧ / ٣٩٩، ومسلم في **صحيحه** (١٨٠٣)، والبغوي في تفسيره **معالم التنزيل**، ٦/ ٣٢٥.

٢- أخرجه **البخاري** في **صحيحه** (٢٦٧٩- ومسلم في **صحيحه** (١٨٠٥).

٣- الآطام: أي أعالي المنازل أو أسطحتها.

وبينه، ولم أرَ منه إلا وفاءً وصدقًا. قال: ويحك! افتح لي أكلمك، قال: ما أنا بفاعل، قال: واللهِ إنْ أغلقت دوني إلا على جشيشتك[1] أن آكل معك منها، فأحْفَظَ الرَّجُلَ، ففتح له، فقال: ويحك يا كعب! جئتُك بعزِّ الدهر وببحر طام، جئتك بقريش على قادتها وسادتها....، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم إلى جانب أُحد، قد عاهدوني وعاقدوني أن لا يبرحوا حتى يستأصلوا محمدًا ومن معه. قال له كعب بن أسد: جئتني والله بذل الدهر.... فدعني ومحمدًا وما أنا عليه، فإني لم أرَ من محمَّدٍ إلا صدقًا ووفاءً، فلم يزل حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ بكعبٍ يفتله في الذروة والغارب [أي يوسوس له] حتى سمح له، على أن أعطاه من الله عهدًا وميثاقًا لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدًا أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك، فنقض كعبُ بن أسد عهده ومزَّقه وتبرأ مما كان عليه فيما كان بينه وبين رسول الله ﷺ.

فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ الخبرُ وإلى المسلمين، بعث رسولُ الله ﷺ سعدَ بن معاذ، أحد بني عبد الأشهل، وهو يومئذ سيد الأوس، وسعدَ بن عبادة أحد بني ساعدة، وهو يومئذ سيد الخزرج، ومعهما عبدُ الله بنُ رواحة أخو بني الحارث بن الخزرج، وَخَوَّاتُ بنُ جُبَيْر، أخو بني عمرو بن عوف، فقال: انطلقوا حتى تنظروا، أحقٌّ ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقًا فالحنوا لي لحنًا أعرفه، ولا تفتُّوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به جهرًا للناس، فخرجوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث ما بلغهم منهم، ونالوا من رسول الله ﷺ وقالوا: لا عقد بيننا وبين محمَّدٍ ولا عهد، فشاتمهم سعد بن عبادة وشاتموه، وكان رجلاً فيه حدَّة، فقال له سعد بن معاذ: دعْ عنك مشاتمتهم فإن ما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة، ثم أقبل سعد وسعد ومن معهما إلى رسول الله ﷺ فسلموا عليه وأخبروه بالكناية أن بني قريظة نقضوا عهدهم؛ فقال رسول الله ﷺ: «**الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين!**».

وعظم عند ذلك البلاءُ واشتدَّ الخوف، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم حتى ظن

---

١ - جَشَّ الشيءَ من باب رَدَّ: دَقَّهُ وَكَسَرَهُ، والسويق جَشِيشٌ. والجَشِيشةُ ما جُشَّ [أي طُحِنَ] من البُرِّ [أي القمح] وغيره. جَشَّ البُرَّ وأَجَشَّهُ إذا طحنه طحنًا جليلاً فهو جَشِيشٌ ومَجْشُوشٌ.

المؤمنون كلَّ ظن، ونجم النفاق من بعض المنافقين [حتى قال مُعَتِّبُ بن قُشَيْرٍ، أخو بني عمرو بن عوف: كان محمد يَعِدُنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يقدر أن يذهب إلى الغائط، ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورًا، وحتى قال أوس بن قيظي، أحد بني حارثة بن قيظي: يا رسول الله إن بيوتنا عورة من العدو وذلك على ملأ من رجال قومه، فائذن لنا فلنرجع إلى ديارنا فإنها خارجة من المدينة].

فأقام رسول الله ﷺ وأقام المشركون عليه ٢٥ ليلةً، ولم يكن بين القوم حرب إلا الرمي بالنبل والحصى. حتى قام فوارس من قريش، منهم «عَمْرُو بْنُ عَبْدِ وُدّ»، أَخُو بَنِي عَامِرِ بنِ لُؤَيّ، وَعِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ، وَهُبَيْرَةُ بْنُ أَبِي وَهْبٍ الْمَخْزُومِيَّانِ، ونوفل بن عبد الله، وَضِرَارُ بْنُ الْخَطَّابِ، ومرداس أَخُو بَنِي مُحَارِبِ ابن فهر، فتلبَّسوا للقتال وخرجوا على خيلهم ومروا على بني كنانة فقالوا: تهيئوا للحرب يا بني كنانة، فستعلمون اليوم مَنِ الفرسانُ، ثم أقبلوا نحو الخندق حتى وقفوا على الخندق فلما رأوه قالوا: والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها.

ثم تيمَّموا مكانًا من الخندق ضيقًا فضربوا خيولهم فاقتحمت منه، فجالت بهم في السبخة بين الخندق وسَلْع، وخرج علي بن أبي طالب في نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التي أقحموا منها خيلهم، وأقبلت الفرسان تُعْنِقُ نحوهم، وكان «عَمْرُو بْنُ عَبْدِ وُدّ» قاتل يوم بدر حتى أثبتته الجراحة، [فلم يشهد أُحُدًا] فلما كان يوم الخندق خرج مُعْلَمًا ليُرَى مكانه، وكان يُقال لعمرو بن عبد ودّ: «فَارِسَ يَلْيَلِ»، لأنه واجه في وادي يَلْيَلِ ألف فارس فتغلَّب عليهم.

فَلَمَّا وَقَفَ عَمْرو هُوَ وَخَيْلُهُ، قَالَ: مَنْ يُبَارِزُ؟ فقام عليٌّ وكان غارقًا بالحديد وقال: يا رسولالله، ائذن لي! فقال النبيُّ: اجلس إنه عَمْرو، فصاح عَمْرو ثانيةً: ألا رجلٌ! وقال: أين الجنَّة التي يتمناها شهداؤكم؟ فقام عليٌّ ثانيةً وقال: يا رسول الله أنا أجيبه. فصاح عَمْرو الثالثة وارتجز هذه الأبيات:

وَلَقَدْ بَحَحْتُ مِنَ النِّدَاءِ ... بِجَمْعِكُمْ هَلْ مِنْ مُبَارِزِ

وَوَقَفْتُ إِذْ جَبُنَ الشُّجَاعُ ... بِمَوْقِفِ الْبَطَلِ الْمُنَاجِزِ

إنَّ السَّـــــــماحَةَ والشَّجَـــــــا عَـــــةَ فِي الْفَتَـــى خَـــيْرُ الْغَرَائِـــز

فَوَثَبَ إِلَيْهِ عليٌّ عليه السلام فَقَالَ: أَنَا لَهُ يَا رَسُولَ اللهِ. فَقَالَ: يَا عَلِيُّ! هَذَا عَمْرُو بْنُ عَبْدِ وُدٍّ فَارِسَ يَلْيَلٍ! فقالَ عليٌّ: وإن كان عَمْرًا! فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم: ادْنُ مِنِّي فَدَنَا مِنْهُ فَعَمَّمَهُ بِيَدِهِ بعمامته المعروفة بالسحاب، وَدَفَعَ إِلَيْهِ سَيْفَهُ ذَا الْفَقَارِ وَقَالَ لَهُ: اذْهَبْ وَقَاتِلْ بِهَذَا، اللَّهُمَّ احْفَظْهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ وَمِنْ فَوْقِ رَأْسِهِ وَمِنْ تَحْتِ قَدَمَيْهِ. فَمَرَّ عليٌّ عليه السلام يُهَرْوِلُ فِي مِشْيَتِهِ أمام عَمْرُو وَهُوَ يَقُولُ:

لَا تَعْجَلَـــــنَّ فَقَـــــدْ أَتَــــا كَ مُجِيـــبُ صَـــوْتِكَ غَـــيْرَ عَـــاجِز

ذُو نِيَّـــــــةٍ وبَصِـــــــيرَةٍ وَالصِّـــدْقُ مُنْجِـــي كُـــلِّ فَائِـــز

إِنِّي لَأَرْجُـــــو أَنْ أُقِيـــــمَ عَلَيْـــــكَ نَائِحَـــــةَ الْجَنَائِـــــزِ

مِـــنْ ضَرْبَـــةٍ نَجْـــلَاءَ يَبْقَـــى ذِكْـرُهَـــا عِنْـــدَ الحزائـــز

فَقَالَ لَهُ عَمْرٌو: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِب. قال: أليس هناك من هو أَسَنُّ منكَ؟ فإني أكره أن أهريق دمك. فقال عليٌّ: لكني والله ما أكره أن أهريق دمك! فغضب عَمْرٌو ونزل وسلَّ سيفَه كأنه شعلة نار ثم أقبل نحو عليٍّ مُغْضَبًا فاستقبله عليٌّ بدرقته[1] فضربه عمرٌو في الدرقة فقدَّها وأثبت فيها السيف وأصاب رأسَ عليٍّ فشجَّهُ، وضربه عليٌّ على حبل العاتق فسقط. وفي روايةٍ ضربَ عليٌّ رِجْلَي عَمْرو بالسيف من أسفل فوقع على قفاه وثارت بينهما عجاجة فسُمِعَ عليٌّ يُكَبِّرُ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قتله والذي نفسي بيده، ولما أتى عليٌّ برأس عَمْرو، قال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**أَبْشِرْ يا عَلِيّ فَلَوْ وُزِنَ الْيَوْمَ عَمَلُكَ بِعَمَلِ جَمِيعِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ لَرَجَحَ عَمَلُكَ عَلَى عَمَلِهِمْ، وَذَاكَ أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ بَيْتٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِلَّا وَقَدْ دَخَلَهُ ذُلٌّ بِقَتْلِ عَمْرٍو، وَلَمْ يَبْقَ بَيْتٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا وَقَدْ دَخَلَهُ عِزٌّ بِقَتْلِ عَمْرٍو**»[2].

١- الدرقة: الترس من جلد ليس فيه خشب.

٢- قصة قتال عليٍّ عليه السلام لعمرو بن عبد ود، استقاها المؤلف من: الطبرسي، **مجمع البيان**، ٤/ ٣٤٢ - ٣٤٣، والمجلسي، **بحار الأنوار**، ٢٠/ ٢١٦.

فلما قُتِل عَمْرٌو تفرَّق أصحابه فتبعهم المسلمون فخرجت خيلهم منهزمة حتى اقتحمت من الخندق هاربةً، وقُتِل مع عَمْرو رجلان: منبه بن عثمان بن عبيد بن السباق بن عبد الدار، أصابه سهم، فمات منه بمكة، ونوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزومي، وكان اقتحم الخندق فتورط فيه فرموه بالحجارة، [فقال: يا معشر العرب! قتلةٌ أحسن من هذه]، فنزل إليه الزبير بن العوام فقتله.

فأرسل المشركون إلى رسول الله ﷺ بعشرة آلاف درهم ليبيعهم جثَّة عَمْرو، فقال رسول الله ﷺ: نحن لا نأكل ثمن الموتى، لا حاجة لنا في جسده وثمنه، فشأنكم به، فخلّى بينهم وبينه.

ولَمَّا أتى عليٌّ رسولَ الله ﷺ برأس عَمْرو، قام أبو بكر وعمر فقبَّلا عليًّا من جبينه.

ورُمِيَ سعد بن معاذ يوم الخندق بسهم، وقُطع منه الأكْحَلُ، رماه حيَّان بن قيس بن العَرِقَة، ثم قال سعد: اللهم [فاجعله لي شهادة] ولا تُمِتني حتى تُقِرّ عيني من بني قريظة [وكانوا حلفاءه ومواليه في الجاهلية].

قالوا: وأقام رسول الله ﷺ وأصحابه فيما وصف الله تعالى من الخوف والشدة لتظاهرِ عدوهم وإتيانهم من فوقهم ومن أسفل منهم.

ثم إن نعيم بن مسعود بن عامر من غطفان أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! إني قد أسلمت وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمُرْني بما شئت، فقال له رسول الله ﷺ: إنما أنت فينا رجل واحد فخذِّل عنّا إنِ استطعتَ، فإن الحرب خُدْعة، فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة، وكان لهم نديمًا في الجاهلية، فقال لهم: يا بني قريظة قد عرفتم وُدي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم، قالوا: صدقت لست عندنا بمتهم، فقال لهم: إن قريشًا وغطفان جاءوا لحرب محمَّد وقد ظاهرتموهم عليه، وإن قريشًا وغطفان ليسوا كهيئتكم، البلد بلدكم به أموالكم وأولادكم ونساؤكمُ لا تقدرون على أن تتحوَّلوا منه إلى غيره، وإن قريشا وغطفان، أموالهم وأولادهم ونساؤهم بعيدة، إن رأوا نُهْزَةً وغنيمة أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم

وبين الرجل، والرجل ببلدكم لا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنًا من أشرافهم، يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن يقاتلوا معكم محمدًا، حتى تناجزوه. قالوا: لقد أشرت برأي ونصح.

ثم خرج حتى أتى قريشًا فقال لأبي سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش: يا معشر قريش! قد عرفتم وُدي إيّاكم وفراقي محمدًا، وقد بلغني أمرٌ رأيت أن حقًا عليّ أن أبلغكم نصحًا لكم، فاكتموا عليّ، قالوا: نفعل، قال: تعلمون أن معشر يهود قد نَدمُوا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه: أن قد نَدِمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك عنا أن نأخذ من القبيلتين، من قريش وغطفان، رجالاً من أشرافهم فنعطيكم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقي منهم؟ فأرسلَ إليهم: أنْ نَعم. فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون رُهُنًا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحدًا.

ثم خرج حتى أتى غطفان فقال: يا معشر غطفان، أنتم أصلي وعشيرتي وأحب الناس إلي، ولا أراكم تتهمونني، قالوا: صدقت، قال: فاكتموا علي، قالوا: نفعل، ثم قال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم ما حذرهم، فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس، وكان مما صنع لرسول الله ﷺ، أرسل أبو سفيان ورءوس غطفان إلى بني قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان، فقالوا لهم: إنا لسنا بدار مقام، قد هلك الخف والحافر، فاغدوا للقتال حتى نناجز محمدًا ونفرغ مما بيننا وبينه، فقال بنو قريظة لهم: إن اليوم السبت، وهو يوم لا نعمل فيه شيئًا، وقد كان أحدث فيه بعضنا حدثًا فأصابه ما لم يخف عليكم، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم حتى تعطونا رُهُنًا من رجالكم، يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمدًا، فإنا نخشى إن ضرَسَتْكم الحربُ واشتدَّ عليكم القتال أن تسيروا إلى بلادكم وتتركونا، والرجل في بلدنا، ولا طاقة لنا بذلك من محمد، فلما رجعت إليهم الرسل بالذي قالت بنو قريظة، قالت قريش وغطفان: تعلمُنَّ والله أن الذي حدَّثكم نعيم بن مسعود لحقّ، فأرسلوا إلى بني قريظة: إنّا والله لا ندفع إليكم رجلا واحدًا من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا، فقالت بنو قريظة حين انتهت إليهم الرسل بهذا: إن الذي ذكر لكم نعيم بن مسعود لَحَقٌّ، ما يريد القوم إلا

أن يقاتلوا، فإن وجدوا فرصة انتهزوها، وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم، وخلوا بينكم وبين الرجل في بلادكم، فأرسلوا إلى قريش وغطفان: إنا والله لا نقاتل معكم حتى تعطونا رُهُنًا، فأبوا عليهم، وخذل الله بينهم وبعث الله عليهم الريح في ليال شاتية شديدة البرد، فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح آنيتهم.

و رُوِيَ عَنْ حذيفة بن اليمان أنه قال: والله لقد رأيتُني ليلة الأحزاب مع رسول الله ﷺ، فقال: من يقوم فيذهب إلى هؤلاء القوم فيأتينا بخبرهم أدخله الله الجنة؟ فما قام منّا رجل، ثم صلى رسول الله ﷺ هُوِيًّا من الليل، ثم التفت إلينا فقال مثله فسكت القوم، وما قام منا رجل ثم صلى رسول اللهِ ﷺ هُوِيًّا من الليل، ثم التفت إلينا فقال: مَنْ رجل يقوم فينظر ما فعل القوم على أن يكون رفيقي في الجنة، فما قام رجل من شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد، فلما لم يقم أحد دعاني رسول اللهِ ﷺ فقال: يا حذيفة! فلم يكن لي بدٌّ من القيام إليه حين دعاني، فقلت: لبيك يا رسول الله! وقمت حتى آتيه، وإن جنبيّ ليضطربان، فمسح رأسي ووجهي، ثم قال: ائت هؤلاء القوم حتى تأتيني بخبرهم ولا تُحْدِثَنَّ شيئًا حتى ترجع إليّ، ثم قال: اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله، ومن فوقه ومن تحته فأخذتُ سهمي، وشددت عليّ سلاحي، ثم انطلقتُ أمشي نحوهم كأنما أمشي في حمَّام[1]، فذهبت فدخلت في القوم، وقد أرسل الله عليهم ريحًا وجنودًا لِلَّهِ تفعل بهم ما تفعل، لا تُقرّ لهم قدرًا ولا نارًا ولا بناءً، وأبو سفيان قاعد يصطلي، فأخذت سهمًا فوضعته في كبد قوسي فأردت أن أرميه، ولو رميتُه لأصبتُه، فذكرت قول النبي ﷺ: لا تحدثنّ حدثًا حتى ترجع إليّ، فرددت سهمي في كنانتي. فلما رأى أبو سفيان ما تفعل الريح وجنود الله بهم، لا تقرّ لهم قدرًا ولا نارًا ولا بناءً، قام فقال: يا معشر قريش! ليأخذْ كل رجل منكم بيد جليسه فلينظر من هو، فأخذت بيد جليسي فقلت: من أنت؟ فقال: سبحان الله! أما تعرفني؟ أنا فلان ابن فلان، فإذا هو رجل من هوازن.

فقال أبو سفيان: يا معشر قريش! إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع والخف

١- يعني من الدِّفء.

وأخلفَتْنَا بنو قريظة، وبلغَنا منهم الذي نكره، ولقينا من هذه الريح ما ترون، فارتحلوا فإني مرتحل، ثم قال إلى جمله وهو معقول فجلس عليه، ثم ضربه فوثب به على ثلاث، فما أطلق عقاله إلا وهو قائم وسمعت غطفان بما فعلتْ قريش فانشمروا راجعين إلى بلادهم.

قال: فرجعت إلى رسول الله ﷺ كأني أمشي في حمام فأتيته وهو قائم يصلي، فلما سلم أخبرته الخبر، فأدناني النبي ﷺ منه، وأنامني عند رجليه، وألقى عليّ طرف ثوبه.

وكان دعاء رسول الله ﷺ في تلك الأيام: «**اَللَّهُمَّ أَنْتَ مُنْزِلُ الْكِتَابِ سَرِيعُ الْحِسَابِ اهْزِمِ الْأَحْزَابَ اَللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلْهُم**»[1]. وكان يقول: «**لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ وَحْدَهُ أَعَزَّ جُنْدَهُ وَنَصَرَ عَبْدَهُ وَغَلَبَ الْأَحْزَابَ وَحْدَه فَلَا شَيْءَ بَعْدَه**»[2].

وعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ حِينَ أَجْلَى اللَّهُ الْأَحْزَابَ عَنْهُ: «**الْآنَ نَغْزُوهُمْ وَلَا يَغْزُونَنَا نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ**»[3]. فكان كما قال ﷺ فلم تغزهم قريش بعد ذلك، وكان هو يغزوهم حتى فتح الله عليهم مكة[4].

﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ۝١٣ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ۝١٤ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ۝١٥ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ

١- المجلسي، **بحار الأنوار**، ٢٠/ ٢٠٩، وفي مصادر أهل السنة: أخرجه بهذا اللفظ النسائي في **السنن الكبرى** (٨٦٣٢). ولكن رواه البخاري ومسلم وأبو داود وغيرهم بلفظ: «اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ وَمُجْرِيَ السَّحَابِ وَهَازِمَ الأَحْزَابِ، اهْزِمْهُمْ وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ».

٢- المجلسي، **بحار الأنوار**، ٢٠/ ٢٠٩، وفي مصادر أهل السنة: أخرجه بهذا اللفظ البخاري في **صحيحه** (٣٨٨٨) ومسلم في **صحيحه** (٢٧٢٤) والنسائي في **السنن الكبرى** (١١٤٠٠) وغيرهم.

٣- **صحيح البخاري** (٣٨٨٤) و**مسند أحمد**، ٦/ ٣٩٤.

٤- المجلسي، **بحار الأنوار**، ٢٠/ ٢٠٩.

ٱلۡمَوۡتِ أَوِ ٱلۡقَتۡلِ وَإِذٗا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٦﴾ [الأحزاب: ١٢-١٦].

الفوائد: الـمُرَاد مِنْ: ﴿طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ﴾ عبدُ الله بنُ أُبَيّ و أوس بن قبطي وأتباعهما الذين كانوا يقولون: اتركوا ساحة الحرب وارجعوا إلى مساكنكم وكانوا يريدون أن يهربوا من عسكر رسول‌الله ﷺ. وَالـمُرَاد مِنْ: ﴿وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ﴾ أولئك الذين كانوا يقولون: إن بيوتنا عورة أي خالية من الرجال ومن الـممكن أن يأتيها سارق أو عدو، وكانوا بني حارثة وبني سلمة، وقد كذَّبهم الله في ادِّعائهم.

وَالـمَقْصود مِنْ جُمْلَة: ﴿عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ﴾ عهدهم في بيعة العقبة عندما عاهدوا رسول الله ﷺ أن ينصروه ويدافعوا عنه كما يدافعون عن أرواحهم.

﴿قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٧ ۞قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلًا ١٨ أَشِحَّةً عَلَيۡكُمۡۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلۡخَوۡفُ سَلَقُوكُم بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلۡخَيۡرِۚ أُوْلَـٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ فَأَحۡبَطَ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ١٩﴾ [الأحزاب: ١٧-١٩].

الفوائد: الـمقصود من ﴿ٱلۡمُعَوِّقِينَ﴾ عددٌ من الـمنافقين الذين كانوا يُثبِّطون الناس عن الجهاد ويقولون: تعالوا إلينا ولا تُقاتلوا، لأن محمدًا وأصحابه لقمةٌ سائغةٌ بالنسبة إلى أبي سفيان وجنوده، ويقولون لضعفاء الـمسلمين: اتركوا محمدًا لأننا نخشى أن نهلك جميعًا.

وجملة: ﴿وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ تشير إلى أولئك الـمنافقين أنفسهم الذين لم يكونوا مستعدين للقتال إلا أحيانًا، مراءاةً وتظاهرًا. ولكن عندما كان يتم الحصول على الغنائم كانوا يحضرون بألسنةٍ سليطةٍ ويقولون: لستم بأولى منا في أخذ الغنائم.

﴿يَحۡسَبُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ لَمۡ يَذۡهَبُواْۖ وَإِن يَأۡتِ ٱلۡأَحۡزَابُ يَوَدُّواْ لَوۡ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلۡأَعۡرَابِ يَسۡـَٔلُونَ عَنۡ أَنۢبَآئِكُمۡۖ وَلَوۡ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلٗا ٢٠ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي

رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢٠-٢١].

الفوائد: المُرَاد مِنْ: ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ﴾ أن المنافقين لشدة رغبتهم بهزيمة المسلمين لم يكونوا يُصدِّقون أن جيش الأحزاب قد ذهب وكانوا يتمنون عودته.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أنه يجب على المسلمين أن يقتدوا برسول الله ﷺ ويتأسَّوا به في صموده ومقاومته في الحروب وكيف كان يُضحِّي بأقرب الناس إليه ويتحمَّل الجروح، وأن يقتدوا به كذلك في أعماله الأخرى. وهذه الآية تدل أنه من الواجب على المسلمين أن يتَّبعوا سنة رسول الله ﷺ وطريقته. وقد أوضحنا هذا الموضوع في الفقرة ١٤ من مقدمة هذا الكتاب فَلْتُراجَعْ ثمَّةَ.

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ [الأحزاب: ٢٢-٢٤].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ أن رسول الله ﷺ أخبر أهل الإيمان بقدوم الأحزاب، ومن الممكن أن يكون هذا إشارة إلى الامتحان والفتنة والاختبار الشديد الذي قدَّرهُ اللَّهُ على المؤمنين.

وَالمَقْصود مِنْ: ﴿مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ من أوفى بنذره وعهده واستُشهد في سبيل الله، مثل شهداء بدر وأُحد، لأن كلمة «نحب» جاءت بمعنى النذر والعهد.

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ

وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب: ٢٥-٢٧].

الفوائد: المقصود من الكافرين الذين ردَّهم الله بغيظهم أحزاب المُشْرِكين الذين رجعوا دون فتح أو ظفر. وَالمَقْصود مِنْ جُمْلَة: ﴿ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ بنو قُريظة الذين كانوا قد عاهدوا رسول الله ﷺ أن لا يُعينوا عليه عدوًا ولكنهم نقضوا عهدهم فابتُلوا بالعقاب بعد معركة الأحزاب، وكانت قصتهم أنه:

لما انصرف النبي ﷺ مع المسلمين من الخندق إلى منازلهم ووضع رسول الله ﷺ عنه لَأْمَته[١] أرضًا، وَاغْتَسَلَ وَدَعَا بِالْمِجْمَرَةِ لِيُجْمِرَ[٢] وَقَدْ صَلّى الظّهْرَ وَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: «**أَلَا أَرَاك وَضَعْت اللّأْمَةَ وَلَمْ تَضَعْهَا الْمَلَائِكَةُ بَعْدُ؟ إنّ اللّهَ يَأْمُرُك أَنْ تَسِيرَ إلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، فَبَعَثَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ بِلَالًا فَأَذّنَ فِي النّاسِ إنّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ يَأْمُرُكُمْ أَلّا تُصَلّوا الْعَصْرَ إلّا بِبَنِي قُرَيْظَةَ**».

وحاصر رسول الله ﷺ حصن بني قريظة الذين نقضوا عهدهم خمسة عشر يومًا وقيل خمسًا وعشرين ليلةً، وكانوا يتبادلون التراشق بِالنّبْلِ وَالْحِجَارَةِ في كل يوم حتى أجهدَ بني قريظة الحصارُ وقذفَ اللَّهُ في قلوبهم الرعب فنزلوا من حصونهم على حكم سعد بن معاذ فقال سعد: فإني أحكم فيهم أن تُقتل الرجال، وفي لفظ: أن يُقتل كل من جرت عليه الموسى، وتُغْنَمَ الأموال، وتسبى الذراري والنساء. (وكان ذلك في الواقع حكم توراتهم، أي أن سعدًا نفَّذَ فيهم حكمَ كتابهم). فقَتلوا الرجال وأسَروا النساء وبعد أن انتهى المسلمون من أمر بني قريظة، انفجر جرح أكحل سعد بن معاذ، فجعلت الدماء تسيل منه فمات من ذلك. رضوان الله عليه.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴿٢٩﴾ يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَـٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴿٣٠﴾ ۞وَمَن يَقْنُتْ

---

١ - اللأمة: أداة الحرب كلها من رمح وبيضة ومغفر وسيف ودرع.

٢ - أجمر فلان ثوبه: بخَّره بالمجمر أي بخَّره بالعود ذي الرائحة الطيبة.

مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾﴾ [الأحزاب: ٢٨-٣١].

الفوائد: كان رسول الله ﷺ زاهدًا وقانعًا في حين كانت نساؤه ترغبنَ بشيء من الوُسعة في الدُّنْيَا، إضافةً إلى أن بعضهنَّ كُنَّ يحسدنَ البعض الآخر وكُنَّ يتوقعنَ مزيدًا من المال من رسول الله ﷺ، فأعرض رسول الله ﷺ عنهنَّ جميعًا وآلى ألا يقربَهُنَّ شهرًا [أي حلف أن يعتزلهنَّ]، وكانت تحت رسول الله ﷺ يومئذ تسع نسوة، وجاء في الحديث: «**أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ جَالِساً مَعَ حَفْصَةَ فَتَشَاجَرَا بَيْنَهُمَا، فَقَالَ ﷺ: هَلْ لَكِ أَنْ أَجْعَلَ بَيْنِي وَبَيْنَكِ رَجُلًا؟ قَالَتْ: نَعَمْ. فَأَرْسَلَ إِلَى عُمَرَ. فَلَمَّا أَنْ دَخَلَ عَلَيْهِمَا قَالَ لَهَا: تَكَلَّمِي. قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ! تَكَلَّمْ وَلَا تَقُلْ إِلَّا حَقّاً. فَرَفَعَ عُمَرُ يَدَهُ فَوَجَأَ وَجْهَهَا ثُمَّ رَفَعَ يَدَهُ فَوَجَأَ وَجْهَهَا فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: كُفَّ. فَقَالَ عُمَرُ: يَا عَدُوَّةَ اللهِ! النَّبِيُّ لَا يَقُولُ إِلَّا حَقّاً، وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لَوْلَا مَجْلِسُهُ مَا رَفَعْتُ يَدِي حَتَّى تَمُوتِي. فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ فَصَعِدَ إِلَى غُرْفَةٍ فَمَكَثَ فِيهَا شَهْراً لَا يَقْرَبُ شَيْئاً مِنْ نِسَائِهِ يَتَغَدَّى وَيَتَعَشَّى فِيهَا؛ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَاتِ**»[1].

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِ﴾ وكذلك جُمْلَةُ ﴿نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ﴾: أن ثواب وعقاب أهل بيت رسول الله ﷺ وأسرته (زوجاته) يختلف عن ثواب وعقاب غيرهم من الناس، لأن عليهم أن يحفظوا ماء وجه رسول الله ﷺ واعتباره بين الناس، ولذلك قال زيد بن علي بن الحسين عليهما السلام: «**إني لأرجو للمحسن منا أجرين وأخاف على المسيء منا أن يضاعف له العذاب ضعفين كما وعد أزواج النبي ﷺ**». ورُوِيَ أيضًا «**عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عليهما السلام أَنَّهُ قَالَ لَهُ رَجُلٌ: إِنَّكُمْ أَهْلُ بَيْتٍ مَغْفُورٌ لَكُمْ. قَالَ: فَغَضِبَ وَقَالَ: نَحْنُ أَحْرَى أَنْ يَجْرِيَ فِينَا مَا أَجْرَى اللهُ فِي أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ أَنْ نَكُونَ كَمَا تَقُولُ؛ إِنَّا نَرَى لِمُحْسِنِنَا ضِعْفَيْنِ مِنَ الْأَجْرِ وَلِمُسِيئِنَا ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ، ثُمَّ قَرَأَ الْآيَتَيْنِ**»[2].

أقول: ولكن الظاهر من الآيات أن هذا الحكم خاصٌّ بنساء النبي ﷺ.

١- المجلسي، **بحار الأنوار**، ٢٢/ ١٧٣-١٧٤، نقلاً عن كتاب **أسباب النزول** للواحدي النيسابوري.

٢- المجلسي، **بحار الأنوار**، ٢٢/ ١٧٥.

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ٣٣ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ٣٤﴾ [الأحزاب: ٣٢-٣٤].

الفوائد: هذه الآيات نزلت أيضًا في زوجات رسول الله ﷺ وهي في ذات السياق السابق أي أن الخطاب فيها استمرار للخطاب السابق ومُوَجَّهٌ إلى زوجات النبي ﷺ. وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ﴾ أن امتياز نساء النبي ﷺ على الآخرين هو بسبب التقوى فقط لا بسبب كونهنَّ زوجات رسول الله ﷺ، أي أن الامتياز يكون بالتقوى لا بالنسب.

واعلم أن المخاطب في هذه الآيات هو الجمع المؤنث إلا في جملة: ﴿لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ الذي جاء فيها الخطاب مذكرًا للتغليب، أي أن الله تعالى لما خاطب رسوله ﷺ وكلَّفه هو أيضًا بدفع الرجس لذا غلَّبه على نسائه وخاطب الجميع بضمير الجمع المذكر، وهذا مثل أن يدخل شخص على مجلس فيرى فيه رجلاً واحدًا وعدة نساء فيقول على سبيل التغليب طبقًا لعرف العرب: السلام عليكم، ومما يؤيد ما نقوله الآية ٧٣ من سورة هود التي خاطب الله تعالى فيها زوجةَ إبراهيم فقال:، ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ٧٣﴾ [هود: ٧٣]. فاستخدم ضمير الجمع المذكر في مخاطبة سارة لوجود إبراهيم معها وقيامه بشأنها، فهنا كذلك تمَّت مخاطبة نساء النبي ﷺ بضمير الجمع المذكر لوجود رسول الله ﷺ بينهنَّ.

وقد وقع بين أهل السنة والشيعة اختلاف حول المقصودين من الآية ٣٣ من سورة الأحزاب هذه: هل هنَّ زوجات رسول الله ﷺ، أم رسول الله ﷺ ذاته وابنته وصهره وابناه يعني عليًّا وفاطمة والحسنين عليهم السلام؟

وفي رأينا إن هذا الاختلاف نشأ من التعصب لا أكثر، وينبغي أن نقول: إن هذه الآية تتعلق

بزوجات النبيّ جميعهنَّ وبمن كان يُشكِّل أسرة رسول الله ﷺ، إذ كان المطلوب منهم جميعًا الطهارة الخلقية والحفاظ على اعتبار ومكانة رسول الله ﷺ بما في ذلك صهره وأحفاده وابنته إضافةً إلى زوجاته اللواتي كان الخطاب موجهًا في الأساس لهنَّ، لأن انحراف أو تلوث أي واحد من أولئك الأفراد بأقذار المعاصي لم يكن مناسبًا لمقام رسول الله ﷺ فكان المطلوب من كل واحد منهم الطهارة احترامًا لمنزلة رسول الله ﷺ إضافةً إلى أنهم مكلفون بذلك طاعةً لِلَّهِ تعالى.

وقال بعض العلماء: إن هذه الآية تدل على عصمة أهل بيت رسول الله ﷺ. ولكن يجب أن نقول: إنها لا تدل على ذلك أبدًا لأن إرادة الحق تعالى التي ذُكرت في قوله سبحانه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ إما أن تكون إرادةً تكوينيةً أو إرادةً تشريعية، ولكن بما أن القرآن كتاب قانون وتشريع فلا بدّ أن تكون تلك الإرادة إرادة تشريعية، ولا يُمكننا أن نعتبرها إرادةً تكوينيةً إلا بقرينة، والإرادة في هذه الآية أي في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ...﴾ وحتى قوله: ﴿وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ مثل الإرادة التي ذكرها الله في الآية ٦ من سورة المائدة حين قال بعد بيان الوضوء وقوله: ﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ...﴾ إلى آخره»، قال: ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ....﴾ [المائدة: ٦]، حيث خاطب أهل الإيمان جميعهم وأراد لهم جميعًا الطهارة، فإرادة الطهارة في هذه الآية إرادة قانونية وتشريعية، أي أن الله أراد أن يقوم المؤمنون جميعًا بإرادتهم واختيارهم بالتطهر والطهارة لا أنه أراد الطهارة لهم تكوينيًا.

وعلى كل حال، لو كان المقصود من الإرادة في الآية المتعلقة بأهل بيت رسول الله ﷺ الإرادة التكوينية لوجبت الإشارة في تلك الآية إلى أمر من الأمور التكوينية، كما يأتي دائمًا في الآيات التي وردت فيها كلمة الإرادة وكان المقصود منها الإرادة التكوينية، أما في هذه الآيات فالذي بيَّنه الحق تعالى هو الأمور التكليفية والتشريعية، كقوله تعالى: ﴿وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وقوله ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِ﴾ وبالطبع فإن التكليف واجب أيضًا على سائر أهل الإيمان كما أرادَ اللَّهُ في آية الوضوء وأمثالها، الطهارةَ وأداءَ التكليف من أهل الإيمان جميعًا. والإمامية أنفسهم يقولون في الزيارة التي وضعوها لحضرة

الإمام الحسين عليه السلام: «**أشهد أنك قد أقمت الصلاة وآتيت الزكاة**». إضافةً إلى ذلك يُستفاد من جملة: ﴿لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ﴾ أنه كان في أهل البيت رجس وأراد الله أن يُذهبه عنهم، وَمِنْ ثَمَّ فلم يكونوا معصومين!.

والدليل الآخر هو أن الإرادة التكوينية تستوجب الجبر، فعندما يريد الله أن تُعطي شجرة التين تينًا وشجرة الرمان رمانًا فإنها تقوم بذلك لأن إرادة الله لا تتخلَّف لأنه: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢]. فالفرق بين الإرادة التكوينية والإرادة التشريعية هو أنه في الإرادة التكوينية يقع مُراد الحق حتمًا ولا يتخلّف، ولا يتوقَّف ذلك على إرادة العباد، بعكس الإرادة التشريعية والقانونية التي أَوْكَلَ اللَّهُ تعالى تحقيقَها إلى اختيار العباد، فمن الـممكن أن يتخلف مُراد الحق تعالى، فمثلاً أراد اللَّهُ تعالى من البشر جميعًا الإيمان ولكن بعض الناس باختيارٍ منهم لا يُنفِّذون ما أراده الله منهم فلا يؤمنون، وكذلك أراد اللَّهُ أن يُطهِّر الناس بما شرعه لهم من أحكام ولكن كثيرًا من الناس لا يُطيعون إرادة الله هذه!.

وهنا نقول: إن الله أراد لجميع الناس الطهارةَ ولكنه أراد في هذه الآية من سورة الأحزاب أن يُطهِّر أهل بيت رسوله صلى الله عليه وسلم بشكل خاص، باعتبار أن أهل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم يرتبطون به، فحرمتهم هي حرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وماء وجوههم هو ماء وجهه صلى الله عليه وسلم. لذلك فإن الله ينتظر منهم أكثر مما ينتظره من الآخرين وتكليفهم بالطهارة أشد وآكد، وذِكره ألزم، لذا ذكَّرهم بذلك في هذه الآية، وليست إرادة الحق الـمذكورة في الآية تكوينيةً وإلا لاستوجبت أن يكونوا طاهرين جبرًا أي عندئذ تكون طهارتهم ذاتيةً وتكوينية وحاصلةً بإرادة الحق لا بإرادتهم ومثل هذه الطهارة ليس فيها أي فضيلة لهم، فإن كل شجر وحجر معصوم من الخطأ ولا يُذنب، بل طهارة أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم التي أرادها الله لهم إنما أرادها بإرادة قانونية وتشريعية وهي تحصل باختيارهم أي هي تكليفٌ خاصٌّ لهم، فكما يجب على صهر النبيّ وأبنائه أن يتبعوا أوامر الله باختيارهم فينالوا الطهارة من رجس الآثام، كذلك يجب على نسائه اتباع أوامر الله لينالوا الطهارة من كل إثم أيضًا، سواءً كانت الطهارةُ ظاهريةً أم باطنيةً، ولا يُمكن القول مثلاً: إن أم

سلمة أو حفصة ليستا مكلفتين بالتطهُّر من الآثام. إذن فإن الله أراد –قانونًا وتشريعًا– الطهارةَ من الرجس لكل امرأة من زوجات رسول الله ﷺ ولسائر أقربائه وأولاده وأكَّد ذلك بعبارة: ﴿تَطۡهِيرٗا﴾ التي هي مصدر مؤكد لفعل: ﴿وَيُطَهِّرَكُمۡ﴾.

بناءً على ما تقدم فإن النزاع الذي نشب بين الكُتَّاب حول المقصود من عبارة: ﴿أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾؟ فقال بعضهم: المقصود فلان، وقال آخرون: المقصود علان، نزاع لا طائل تحته ومنشؤه التعصُّب. ويجب أن نقول: إن جميع أفراد أسرة رسول الله ﷺ مُكَلَّفُون بأن يصلوا إلى طهارة النفس وكلُّ من تزكَّى وطهَّر نفسَهُ نال مقامًا أرفع عند الله، وكل من دسَّاها وأهمل تهذيبها انحطَّ مقامه عند الله، ولا ينبغي جعل هذه الآية مثارًا للخلاف والنزاع، وكل حديث ورد في هذا الصدد متفقًا مع القرآن وجب قبوله.

يُضاف إلى ذلك ولكي يتبيّن للجميع أن أئمة أهل البيت عليهم السلام لم يكونوا معصومين من الذنوب نأتي فيما يلي بطرف من كلماتهم التي كانوا يقولونها في أدعيتهم:

فقد قال حضرة عليّ بن الحسين عليه السلام في الدعاء ٣٢ من الصحيفة السجادية: «**كَثُرَ عَلَيَّ مَا أَبُوءُ بِهِ مِنْ مَعْصِيَتِك**». وقال أيضًا: «**اَللَّهُمَّ إِنَّكَ أَمَرْتَنِي فَتَرَكْتُ، وَنَهَيْتَنِي فَرَكِبْتُ، وَسَوَّلَ لِيَ الْخَطَأَ خَاطِرُ السُّوءِ فَفَرَّطْتُ**».

وقال أيضًا: «**وَتَعَدَّيْتُ عَنْ مَقَامَاتِ حُدُودِكَ إِلَى حُرُمَاتٍ انْتَهَكْتُهَا، وَكَبَائِرِ ذُنُوبٍ اجْتَرَحْتُهَا**».
وطلب من الله في دعاء رمضان: «**تُطَهِّرَنَا بِهِ مِنَ الذُّنُوب**».

وجاءت الجمل التالية في الأدعية رقم ١١ و١٢ و١٦ و٢٠ و٤٥ من الصحيفة السجادية:

«**وَاجْعَلْ خِتَامَ مَا تُحْصِي عَلَيْنَا كَتَبَةُ أَعْمَالِنَا تَوْبَةً مَقْبُولَةً لَا تُوقِفُنَا بَعْدَهَا عَلَى ذَنْبٍ اجْتَرَحْنَاهُ، وَلَا مَعْصِيَةٍ اقْتَرَفْنَاهَا. وَلَا تَكْشِفْ عَنَّا سِتْرًا سَتَرْتَهُ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ، يَوْمَ تَبْلُو أَخْبَارَ عِبَادِكَ. إِنَّكَ رَحِيمٌ بِمَنْ دَعَاكَ، وَمُسْتَجِيبٌ لِمَنْ نَادَاكَ.**».

«**اَللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَهَبْ لِي مَا يَجِبُ عَلَيَّ لَكَ، وَعَافِنِي مِمَّا أَسْتَوْجِبُهُ مِنْكَ، وَأَجِرْنِي مِمَّا يَخَافُهُ أَهْلُ الْإِسَاءَةِ، فَإِنَّكَ مَلِيءٌ بِالْعَفْوِ، مَرْجُوٌّ لِلْمَغْفِرَةِ، مَعْرُوفٌ بِالتَّجَاوُزِ، لَيْسَ لِحَاجَتِي مَطْلَبٌ**

سِوَاكَ، وَلَا لِذَنْبِي غَافِرٌ غَيْرُكَ..».

«وَاغْفِرْ ذَنْبِي.. ».

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَخَلِّصْنِي مِنَ الْـحَسَدِ، وَاحْصُرْنِي عَنِ الذُّنُوبِ.. ».

«وَهَذَا ظَهْرِي قَدْ أَثْقَلَتْهُ الْـخَطَايَا، فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَخَفِّفْ عَنْهُ بِمَنِّكَ..».

«وَلَيْسَ عِنْدِي مَا يُوجِبُ لِي مَغْفِرَتَكَ، وَلَا فِي عَمَلِي مَا أَسْتَحِقُّ بِهِ عَفْوَكَ.. ».

«وَاغْفِرْ لَنَا مَا خَفِيَ مِنْ ذُنُوبِنَا وَمَا عَلَنَ».

وقال حضرة أمير الـمؤمنين عليّ عليه السلام في بعض أدعيته:

«وَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي وَاسْتُرْ عَلَيَّ عُيُوبِي».

«أَتَمَنَّى عَلَيْكَ الْعَظَائِمَ، فَوَاسَوْأَتَاهْ وَقُبْحَ صَنِيعَاهْ! أَيَّةُ جُرْأَةٍ تَجَرَّأْتُ وَأَيُّ تَغْرِيرٍ غَرَّرْتُ نَفْسِي. وَاغْفِرْ بِسَعَةِ رَحْمَتِكَ كَبَائِرَ ذُنُوبِي».

«وَلَا تَفْضَحْنِي بِمَا جَنَيْتُهُ عَلَى نَفْسِي».

«أَتُوبُ إِلَيْكَ مِنْ كُلِّ خَطِيئَةٍ ارْتَكَبْتُهَا وَمِنْ كُلِّ ذَنْبٍ عَمِلْتُهُ وَلِكُلِّ فَاحِشَةٍ سَبَقَتْ مِنِّي».

«وَأَعْطِنِي فِي مَجْلِسِي هَذَا مَغْفِرَةَ مَا مَضَى مِنْ ذُنُوبِي».

«اللَّهُمَّ إِنَّ عَفْوَكَ عَنْ ذَنْبِي وَتَجَاوُزَكَ عَنْ خَطِيئَتِي وَصَفْحَكَ عَنْ عَظِيْمِ جُرْمِي فِيْمَا كَانَ مِنْ خَطَئِي وَعَمْدِي».

«اللَّهُمَّ ذُنُوبِي وَإِنْ كانت فظيعةً، لَا أَعِدُكَ اسْتِمْرَارَ التَّوْبَةِ لِمَا أَعْلَمُهُ مِنْ ضَعْفِي».

«وَأَنْ تَغْفِرَ لِي جَمِيعَ مَا أَحْصَيْتَ مِنْ مَظَالِمِ الْعِبَادِ قَبْلِي فَإِنَّ لِعِبَادِكَ عَلَيَّ حُقُوقًا وَأَنَا مُرْتَهَنٌ بِهَا تَغْفِرُهَا لِي كَيْفَ شِئْتَ، وَأَنَّى شِئْتَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ».

«إِلَهِي إِنْ لَمْ تَنَلْنَا يَدُ إِحْسَانِكَ يَوْمَ الْوُرُودِ اخْتَلَطْنَا فِي الْـجَزَاءِ بِذَوِي الْـجُحُود ..... مُوَقَّرَةً مِنْ ثِقَلِ الْأَوْزَارِ ظُهُورُنَا...».

ومئات الكلمات الأخرى لأمير الـمؤمنين عليّ ولسائر الأئمة عليهم السلام في أدعيتهم وفي نهج البلاغة وفي مواضع أخرى يُمكن لمن أراد أن يرجع إليها ويراها.

وعلى كل حال، كان ذلك ما يقوله الأئمة عليهم السلام عن أنفسهم كي لا يَغْلوا الناس في حقهم، وفي الواقع لم يدّعِ أي نبيّ أو إمام العصمة، ولا دليل على هذه العصمة في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب: ٣٥].

الفوائد: روي أن أسماء بنت عميس رجعت من الحبشة مع زوجها جعفر بن أبي طالب فدخلت على نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالت: هل نزل فينا شيء من القرآن؟ قلن: لا. فأتت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالت: يا رسول الله إن النساء لفي خيبة وخسار، قال: ومِمَّ ذاك؟ قالت: لأنهنّ لا يُذكرن بخير كما يُذكر الرجال، فأنزل الله هذه الآية[1]: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ﴾.

﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ﴾ هم الذين لا ينسون الله وهم مضطجعون على جنوبهم وقعودًا وقيامًا بل يذكرونه في كل الأحوال. وقال الإمام الصادق عليه السلام: «كل من سبَّح بتسبيحات الزهراء عُدَّ من ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾». فينبغي أن يذكرها المسلم عند نومه، ونحن نرى أن الأمر عام في كل الأوقات.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ

١ - البغوي، **معالم التنزيل**، ٦/ ٣٥٢، والواحدي، **أسباب النزول**، ص (٤١٣)، وابن الجوزي، **زاد المسير**، ٦/ ٣٨٤.

مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦-٣٨].

الفوائد: نزلت هذه الآيات في زينب بنت جحش ابنة عمَّة رسول الله ﷺ أميمة بنت عبد الـمطَّلِب، وزوجها زيد بن حارثة.

وقصتهم هي التالية:

لما وقعت معركةٌ بين بني كلاب وقبيلة أخرى من العرب وهُزِمَ بنو كلاب، وكان زيد بن حارثة الكلبي شابًا يافعًا فأُسِر، وَبِيعَ في سُوقِ عُكاظ، اشْتَرَاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ مَالِ خَدِيجَةَ، فَلَمَّا نُبِّئَ رَسُولُ اللهِ ﷺ دَعَاهُ إِلَى الْإِسْلَامِ فَأَسْلَمَ هو وخَدِيجَةُ، وقال رسول الله ﷺ لخديجة: هَبِي لِي زيدًا، فوهَبَتْهُ له. وَكَانَ يُدْعَى زَيْدًا مَوْلَى مُحَمَّدٍ. فَلَمَّا بَلَغَ حَارِثَةَ بْنَ شَرَاحِيلَ الْكَلْبِيَّ خَبَرُ زَيْدٍ قَدِمَ مَكَّةَ، وَكَانَ رَجُلاً جَلِيلاً، فَأَتَى أَبَا طَالِبٍ فَقَالَ: يَا أَبَا طَالِبٍ! إِنَّ ابْنِي وَقَعَ عَلَيْهِ السَّبْيُ وَبَلَغَنِي أَنَّهُ صَارَ لِابْنِ أَخِيكَ تَسْأَلُهُ إِمَّا أَنْ يَبِيعَهُ وَإِمَّا أَنْ يُفَادِيَهُ وَإِمَّا أَنْ يُعْتِقَهُ، فَكَلَّمَ أَبُو طَالِبٍ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: هُوَ حُرٌّ فَلْيَذْهَبْ حَيْثُ شَاءَ، فَقَامَ حَارِثَةُ فَأَخَذَ بِيَدِ زَيْدٍ فَقَالَ لَهُ: يَا بُنَيَّ! الْـحَقْ بِشَرَفِكَ وَحَسَبِكَ. فَقَالَ زَيْدٌ: لَسْتُ أُفَارِقُ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَبَدًا. فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ: فَتَدَعُ حَسَبَكَ وَنَسَبَكَ وَتَكُونُ عَبْدًا لِقُرَيْشٍ؟ فَقَالَ زَيْدٌ: لَسْتُ أُفَارِقُ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَا دُمْتُ حَيًّا. فَغَضِبَ أَبُوهُ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! اشْهَدُوا أَنِّي قَدْ بَرِئْتُ مِنْهُ وَلَيْسَ هُوَ ابْنِي. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: اشْهَدُوا أَنَّ زَيْدًا ابْنِي أَرِثُهُ وَيَرِثُنِي وَكَانَ يُدْعَى زَيْدَ بْنَ مُحَمَّدٍ حسب عادة العرب حينذاك.

وكان زيدٌ مع رسول الله ﷺ حتى هاجر إلى الـمدينة، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُحِبُّهُ كثيرًا ولهذا كانوا يُسَمُّونه زَيْدَ الـحِبِّ.

وكانت زينب بنت جحش الأسدية ابنة أميمة بنت عبد الـمطلب عمَّة رسول الله ﷺ وكانت امرأة ذات جمال. وخطبها رجالٌ من قريش وآخرون من رؤوس العرب، فبعثتْ أختها حمنة بنت جحش إلى رسول الله ﷺ تستشيره في أمر تزويجها، فأشار بزيد، فلمّا عَلِمَتْ زينبُ

بذلك ووصل الخبر إلى أخيها عبد الله ابن جحش، أبيا هذا الزواج ولم يرضيا به وقالا: إن نسبنا رفيع وزيد غلام مملوك مُعْتَقٌ، ولا يليق بزينب أن تتزوج منه. فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾. فقالت زينب بعد نزول الآية: رضيتُ يا رسول الله، وَجعلَتْ أمرَها بيد رسول الله ﷺ وَكذلك أخوها، ورغم أن رسول الله ﷺ كان قد رآها مرارًا كونها ابنة عمته، ومع ذلك أنكحها زيدًا، فدخل زيدٌ بها، وَساق إليها رسول الله ﷺ مهرها: عشرة دنانير وَستين درهمًا مهرًا وَخمارًا وَملحفةً وَدرعًا وَإزارًا وَخمسين مُدًّا من طعام وَثلاثين صاعًا من تمر.

فمكثت زينب عند زيد مدَّةً لكنها كانت تترفَّع عليه، إلى أن وقع بينهما نزاع، فأتى زيدٌ رسولَ الله ﷺ وقال: «إني أريد أن أفارق صاحبتي»، قال ﷺ: ما لك؟ أرابَك منها شيء؟ قال: لا والله يا رسول الله! ما رأيتُ منها إلا خيرًا، ولكنها تتعظَّم عليّ لشرفها وتؤذيني بلسانها، فقال له النبي ﷺ: «**أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ**». وعلى كل حال، طلَّقها زيدٌ في نهاية المطاف، فأمر اللَّهُ رسولَه أن يتزوَّج من زينب ليُبْطِلَ بذلك سنة الجاهلية لأنهم كانوا يعتبرون زواج الرجل من طليقة ابنه بالتبنِّي حرامًا، فأراد ﷺ أن يبطل ذلك بالكلية وَينسخ سنة الجاهلية، ولكن رسول الله ﷺ كان يخشى من كلام الناس، وما كان يرغب أن يقول الناس عنه: إنه تزوج من زوجة ابنه، ولذا عاتبه الله وقال له: لا تُخْفِ هذا الأمر واخشَ الله ولا تخشَ الناس، لأننا زوجناكَ زينب ولا حرج عليك في ذلك: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾.

إذن ما قاله النصارى من أن رسول الله ﷺ عشق زينب وقال لزيد: «طلِّقْها» مخالف للقرآن ومخالف للتاريخ. إضافةً إلى ذلك فقد كان رسول الله ﷺ قد رأى زينب من قبل مئات المرات ولو كان يريدها لنفسه لما زوجها من زيد.

وهناك نقطة أخرى مهمة في الآية ٣٦ وهي أن الله اعتبر معصية الله ورسوله ضَلَالاً مُبِينًا، لا معصية الأولياء والأئمة وسائر العلماء، فعصيان هؤلاء ليس ضَلَالاً مُبِينًا. إذن يَتَبَيَّنُ أن الأولياء والأئمة لم يكونوا مفترضي الطاعة، وهم أنفسهم لم يكونوا يعتبرون طاعتهم واجبة على الخلق،

بل لم يكونوا يعتبرون أنفسهم مصونين عن المعصية، كما يقول حضرة السجّاد (علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام) في الدعاء رقم ٣٤ من الصحيفة السجّادية: «**كَمْ نَهْيٍ لَكَ قَدْ أَتَيْنَاهُ، وَأَمْرٍ قَدْ وَقَفْتَنَا عَلَيْهِ فَتَعَدَّيْنَاهُ، وَسَيِّئَةٍ اكْتَسَبْنَاهَا، وَخَطِيئَةٍ ارْتَكَبْنَاهَا** ».

ويقول في الدعاء العاشر: «**اللَّهُمَّ إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ شَمِتَ بِنَا إِذْ شَايَعْنَاهُ عَلَى مَعْصِيَتِكَ**». وفي الدعاء ٥٢: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أُصْبِحُ وَأُمْسِي مُسْتَقِلاً لِعَمَلِي، مُعْتَرِفًا بِذَنْبِي، مُقِرًّا بِخَطَايَايَ، أَنَا بِإِسْرَافِي عَلَى نَفْسِي ذَلِيلٌ، عَمَلِي أَهْلَكَنِي، وَهَوَايَ أَرْدَانِي، وَشَهَوَاتِي حَرَمَتْنِي.**». وفي الدعاء ٤١: «**وَلَا تُعْلِنْ عَلَى عُيُونِ الْمَلَإِ خَبَرِي. أَخْفِ عَنْهُمْ مَا يَكونُ نَشْرُهُ عَلَيَّ عَارًا**». وفي الدعاء ٢٥ و١٦: «**وَأَعِذْنِي وَذُرِّيَّتِي مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، فَإِنَّكَ خَلَقْتَنَا وَأَمَرْتَنَا وَنَهَيْتَنَا وَرَغَّبْتَنَا فِي ثَوَابِ مَا أَمَرْتَنَا وَرَهَّبْتَنَا عِقَابَهُ، وَجَعَلْتَ لَنَا عَدُوًّا يَكِيدُنَا، سَلَّطْتَهُ مِنَّا عَلَى مَا لَمْ تُسَلِّطْنَا عَلَيْهِ مِنْهُ**». و«**مَنْ أَبْعَدُ غَوْرًا فِي الْبَاطِلِ، وَأَشَدُّ إِقْدَامًا عَلَى السُّوءِ مِنِّي حِينَ أَقِفُ بَيْنَ دَعْوَتِكَ وَدَعْوَةِ الشَّيْطَانِ فَأَتَّبِعُ دَعْوَتَه**».

وقال حضرة أمير المؤمنين علي عليه السلام في بعض أدعيته في الصحيفة العلوية:

«**وَأَسْتَغْفِرُكَ لِلنِّعَمِ الَّتِي مَنَنْتَ بِهَا عَلَيَّ فَقَوِيتُ عَلَى مَعَاصِيكَ أَسْتَغْفِرُ اللهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ لِكُلِّ ذَنْبٍ أَذْنَبْتُهُ وَلِكُلِّ مَعْصِيَةٍ ارْتَكَبْتُهَا**»[1]. «**أَفْحَمَتْنِي ذُنُوبِي وَقَطَعَتْ مَقَالَتِي فَلَا حُجَّةَ لِي وَلَا عُذْرَ**»[2]. «**كَبُرَ ذَنْبِي**»[3].

«**فَأَنَا الْهَالِكُ إِنْ لَمْ تُعِنْ عَلَيْنَا بِتَخْفِيفِ الْأَثْقَالِ**»[4]. «**خَلِّصْنِي مِنَ النَّارِ وَإِنِ اسْتَوْجَبْتُهَا**»[5].

وكثير من كلمات الأئمة عليهم السلام تدل على ما ذكرناه، ونكتفي بما نقلناه تجنبًا للإطالة. وإننا لنعجب مما نراه في زماننا من الكلام والبحث ليلاً ونهارًا حول معرفة الأئمة وعصمتهم، ومن

١- المجلسي، **بحار الأنوار**، ٨٤/ ٣٢٥. مَا كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام يَقُولُ فِي سَحَرِ كُلِّ لَيْلَةٍ بِعَقِبِ رَكْعَتَيِ الْفَجْرِ، نقلاً عن كتاب «**جُنَّةُ الْأَمَانِ**».

٢- المجلسي، **بحار الأنوار**، ٩١/ ١٠٠. مُنَاجَاةُ مَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام، نقلاً عن كتاب بلد الأمين.

٣- المصدر نفسه، والدعاء نفسه.

٤- المجلسي، **بحار الأنوار**، ٩١/ ١٠١. مُنَاجَاةُ مَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام، نقلاً عن كتاب بلد الأمين.

٥- المصدر نفسه، والدعاء نفسه.

بُعْدِ الناس تمامًا عن الدين وحقائقه!

﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب: ٣٩-٤٠].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا﴾ أن الله وحده كافٍ للمحاسبة، وقال عليّ بن الحسين عليه السلام في الدعاء الخامس من الصحيفة السجادية: «**وكفى بك جازيًا وكفى بك حسيبًا**». فما وُضع في بعض الزيارات من عبارات تقول: إن حساب الخلق على الأئمة يُخالف صريح كتاب الله وَمِنْ ثَمَّ يجب رفضه ولا يجوز قبوله.

وقُرئت كلمة ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ بفتح التاء والميم، ففي هذه الحالة يُمكن أن تكون الكلمةُ فعلاً ماضيًا على وزن المفاعلة، أي أن محمدًا خَتَمَ الأَنْبياء، أي هو آخر نبيٍّ. أما لو اعتبرنا «الخاتَم» اسمًا فيكون معناه خَتْمُ النبيين، فكما أنه يتم ختم الرسالة في آخرها بالخاتم، ليدل على أن ما قبل الخاتم معتبر وما بعده لا اعتبار له فكذلك خَتْمُ النُّبُوَّة يُفيد أنه لو ادَّعى أحدٌ النُّبُوَّةَ بعدَ محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم فلا اعتبار له، هذا إضافةً إلى الأحاديث المتواترة التي قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيها: «**لاَ نَبِيَّ بَعْدِي وَإِنِّي خَاتِمُ النَّبِيِّينَ**».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا ﴿٤٤﴾﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٤].

الفوائد: اختلف المُفسِّرون في المقصود من: ﴿ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾ فاحتمل بعضهم أن المراد دوام ذِكر الله في اللسان أو في القلب أي أن لا ينسى الإنسان خالقه أبدًا، وجاء في حديثٍ أن الذكرَ الكثيرَ هو قول التسبيحات الأربعة في كل حال. وجاء في حديث آخر أن الذكر الكثير هو قول تلك التسبيحات ثلاثين مرة، وفي حديث آخر أن تسبيحات الزهراء عليها السلام هي الذكر الكثير. وروى ابن عباس أن جبريل قال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: قل: «**سُبْحانَ الله، والحَمْدُ لِلَّهِ، ولا إله إلاَّ الله**

والله أكْبَرُ، ولا حَوْلَ ولا قوَّةَ إلاَّ باللهِ، عددَ ما عَلِمَ وزِنَةَ ما عَلِمَ وملء ما عَلِمَ»، وأن كل من قالها كُتب من الذاكرين الله كثيرًا.

وَالـمَقْصود مِنْ: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ۝٤٢﴾ صلاة الصبح وصلاة العصر أو صلاة العشاء حيث أُطلق على الصلاة اسم التسبيح من باب إطلاق الجزء على الكل. وَالـمَقْصود مِنْ «صَلَوَاتُ الله»: مغفرته ورحمته، وَالـمَقْصود مِنْ صلوات الـملائكة: دعاؤهم. ويتبيَّن من هذه الآية أنه يجوز الصلاة على الـمؤمنين، كما أن الصلاة على آل محمد ﷺ يُراد منها الصلاة على الأطهار الصالحين من أمته.

ويجوز أن تكون جملة: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞ﴾ من باب إضافة الـمصدر إلى الفاعل، ويجوز أن تكون من باب إضافة الـمصدر للمفعول ﴿وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ﴾ [البقرة: ١٤٨].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ۝٤٦ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ۝٤٧ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ۝٤٨﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٨].

الفوائد: قوله: ﴿شَٰهِدٗا﴾ أي شاهدًا على أمتك فيما قاموا به أثناء حياتك، بقرينة آيات أخرى.

وإذا استدل أحدهم بجملة: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ﴾ على أن دعوة رسول الله ﷺ كانت بإذن الله، فلا بدّ أن تكون دعوة الآخرين أيضًا بإذن الله، مع أن دعوة الداعين إلى التوحيد ومُبلِّغي الإسلام لا تحتاج إلى إذن من طرف الله؟ فالجواب: أن الإذن لا يلزم أن يُعطَى لكل فرد فرد، بل يكفي في ذلك الإذن العام، وقد أعطى الله الإذن في الدعوة إليه بشكل عام كما قال في سورة آل عمران: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وَالـمَقْصود مِنْ: ﴿دَعۡ أَذَىٰهُمۡ﴾ الإعراض عن أذاهم وأن الله سيكفيك شرَّهُم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ۝٤٩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ

وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٥٠﴾﴾ [الأحزاب: ٤٩-٥٠].

الفوائد: المقصود من الطلاق قبل المس الطلاق قبل الدخول والمباشرة، فإن تمّ تعيين الصَّدَاق فعلى الزوج أن يُعطيها نصفه، وإن لم يُعيَّن الصَّدَاق فعلى الزوج أن يُعطيها شيئًا من المال سمّاه القرآن متعةً.

وَالمَقْصود مِنْ جُمْلَة: ﴿إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ أنه إذا وهبتْ امرأةٌ نفسَها للنبيّ دون عقد زواج ودون ذكر صَدَاق جاز لرسول الله ﷺ أن يقبلها وينكحها، ولكن هذا لا يجوز للآخرين، ولذلك قال تعالى: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فهذا من خصائص النبيّ ﷺ.

﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ مِمَّنۡ عَزَلۡتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ وَلَا يَحۡزَنَّ وَيَرۡضَيۡنَ بِمَآ ءَاتَيۡتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمٗا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ﴿٥٢﴾﴾ [الأحزاب: ٥١-٥٢].

الفوائد: من خصائص النبيّ ﷺ الأخرى أيضًا أنه يجوز له أن يُقدِّم نوبةَ أي واحدة من نسائه ويُؤخر نوبة الأخرى أو يُبدِّل دور إحداهنَّ مكان الأخرى.

وَالمَقْصود مِنْ: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ....﴾ أنه لا يحل لك أن تتزوج من نساء أخريات بعد نسائك اللواتي لك الآن، حتى لو أعجبك جمال إحداهنَّ، وقد نزلت هذه الآيات عندما خيَّر رسول الله ﷺ نساءه بين البقاء معه بظروف معيشته أو تركه، فقبلنَ بمعيَّة رسول الله ﷺ ضمن القواعد والأحكام التي نزلت في هذه السورة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ

نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ [الأحزاب: ٥٣-٥٤].

الفوائد: كان بعض المسلمين في صدر الإسلام يأتون إلى بيت رسول الله ﷺ ويجلسون ويأخذون من وقته ﷺ ويشتغلون بكلامٍ لا فائدة منه وقصصٍ لا طائل تحتها، وأحيانًا يتحدثون مع نساء رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ يستحي أن يمنعهم من ذلك أو يُخرجهم، لذا أنزل الله تعالى هذه الآيات كي يعرف الناس واجبهم ولا يؤذوا رسول الله ﷺ، وإذا دُعوا إلى وليمة فعليهم أن لا يُطيلوا الجلوس بعد تناولهم الطعام بل عليهم أن يتفرقوا، وإن أرادوا أن يطلبوا شيئًا من نساء رسول الله ﷺ فعليهم أن يطلبوه منهنَّ من وراء ستار وحجاب.

ولما قال طلحة بن عبيد الله: لئن عشت بعد محمد لأنكحنَّ زوجته [عائشة] آذى ذلك رسول الله ﷺ ونزل تحريم نِكاح زوجات النبيّ ﷺ بعد وفاته في هذه الآيات[1]. ولما نزلت هذه الآيات استثنى الله في الآية التالية أقرباء زوجات النبيّ ﷺ فسُمِحَ لهم بزيارتهنَّ وسؤالهنَّ والكلام معهنَّ دون حجاب، فقال تعالى:

١- لم يثبت عن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه هذا الذي نُسب إليه في هذا الأمر، بل كل الروايات المروية في هذا الأمر ضعيفة أو موضوعة، فلا يثبت في هذا الأمر أي رواية صحيحة معتبرة. وقد أنكر العلماء ذلك إنكارًا شديدًا، فقال ابن عطية في (المحرر الوجيز ٤/ ٣٩٦): «وهذا عندي لا يصح على طلحة، الله عاصمه منه». وقال القرطبي في (الجامع لأحكام القرآن ١٤/ ٢٢٩): «قال شيخنا الإمام أبو العباس: وقد حُكي هذا القول عن بعض فضلاء الصحابة وحاشاهم عن مثله، وإنما الكذب في نقله، وإنما يليق مثل هذا القول بالمنافقين الجهال». [الـمُصحح]

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب: ٥٥-٥٦].

الفوائد: صلواتُ الله على النبيّ ﷺ هي مغفرتُه له ورحمتُه إياه، وصلواتُ الـملائكة هي دعاؤهم له ﷺ، وكذلك صلواتُ الـمؤمنين على النبيّ ﷺ هي دعاءٌ وطلبٌ من الله أن يرحمه.

وجملة: ﴿وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ يُمكن أن تؤخذ على معنى التسليم كما ذكرنا، ويُمكن أن تؤخذ على معنى السلام أي: سلِّموا عليه سلامًا واضحًا بليغًا. وأما كيفية الصلوات والتسليم على النبيّ ﷺ فلا بدّ فيها من الرجوع إلى سنته ﷺ. واعلم أن الأمر «**صَلُّوا**» في هذه الآية يُفيد الوجوب، فهل وجوب الصلاة على النبيّ دائمٌ أم مؤقتٌ؟ وهل تجب الصلاةُ عل النبي ﷺ مرةً واحدةً في العمر أم لا بدّ من تكرارها؟ وهل تجب عندما يُذكر اسم رسول الله ﷺ أم في الأوقات الأخرى؟ لقد ذكرنا تفصيل كل ذلك في كتابنا «**أحكام القرآن**» (الـمسألة ١١٦٣) فليُراجَعْ ثمّة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿٥٨﴾﴾ [الأحزاب: ٥٧-٥٨].

الفوائد: إيذاء الله قد يكون بإيذاء رسوله أو بإيذاء أحد عباده الـمؤمنين، كما جاء في الحديث: «**مَنْ أَهَانَ لِي وَلِيّاً فَقَدْ أَرْصَدَ لِمُحَارَبَتِي**»[1]. وجاء في رواية أخرى: «**مَنْ أَعَانَ عَلَى قَتْلِ مُؤْمِنٍ بِشَطْرِ كَلِمَةٍ لَقِيَ اللهَ ﷻ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ آيِسٌ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ**»[2].

ويُمكن أن نقول: إن إيذاءَ اللهِ يكون أيضًا بتشبيهه بالـمخلوق أو بالقول بالتعطيل أو بتجويز صفات النقص عليه.

١- الكُلَيْنِيّ، **الكافي**، ٢/ ٣٥١.

٢- ابن ماجه، **السنن** (٢٦٢٠)، وقد ضعّفه الألباني كما في **ضعيف الجامع الصغير وَزيادته** (٥٤٤٦).

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٥٩ ۞لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٦٠ مَّلۡعُونِينَۖ أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا ۝٦١ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ۝٦٢﴾ [الأحزاب: ٥٩-٦٢].

الفوائد: لما كان فُسَّاق المدينة وفُجَّارها يقفون للنساء في الطرق ويقومون بغمز النساء المُتفلِّتات غير العفيفات لكي يستميلوهُنَّ إليهم وغالبًا ما يكون طمعهم في الإماء، أمر الله تعالى النساء الأحرار العفيفات أن يتلفَّحنَ بالعباءة (الملحفة) ويحفظن أنفسهن من أن يُبدين أنفسهن للآخرين كي يُعْرَفنَ بالعفَّة والطهارة والحجاب فلا يتعرَّضَ لهنَّ أحدٌ.

﴿يَسۡـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ۝٦٣ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ۝٦٤ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ۝٦٥﴾ [الأحزاب: ٦٣-٦٥].

الفوائد: هذه الآيات دليل على أن رسول الله ﷺ لا يعلم وقت قيام الساعة فكل الأخبار الموضوعة التي تقول: إن هناك من يعلم بما كان وما يكون وما هو كائن، هي كذِبٌ مَحْضٌ.

﴿يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ۝٦٦ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ۝٦٧ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ۝٦٨﴾ [الأحزاب: ٦٦-٦٨].

الفوائد: رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به**»[1]، وهذه الآيات دليل واضح على حرمة تقليد السادة الكبار وعدم جواز طاعة

١- قال ابن حجر العسقلاني في **فتح الباري**: «حديث أبي هريرة «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به» أخرجه الحسن بن سفيان وغيره، ورجاله ثقات وقد صححه النووي في آخر الأربعين» انتهى. قلتُ: وأخرج الحديث: ابن أبي عاصم (ت ٢٨٧ هـ) في **المسند** (١/ ١٢، رقم ١٥)، والحكيم الترمذي (ت نحو ٣٢٠هـ) في

أوامرهم، بل لا بدَّ من طاعة الله ورسوله فقط، لأنه لو كانت طاعة السادة الكبار والأئمة العظماء موجبة للنجاة لكان جميع الناس ناجين لأن كل فرقة تُطيع سادتها وأئمتها فلا يبقى معنى للحق والباطل. ورُوي عن رسول الله ﷺ أيضًا أنه قال: «**إِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّين**»(١).

يقول عددٌ من المغرضين والمتكسِّبين بالدين: إن التقليد جائز، ويُفتون بقولٍ معارضٍ لنص القرآن أي يجتهدون في مورد النص، وقولهم لا يصحُّ، ويستَدِلُّونَ على كلامهم بأنه لا بدّ من الرجوع في كل أمر إلى المتخصصين فيه، والمتخصصون في أمور الدين هم المجتهدون، لكن هذا الدليل ليس صحيحًا لأن كل فرقة، سواءً كانت من الكافرين أم من المسلمين، يُمكنها أن تأتي بهذا الدليل لإثبات صحة تقليدها لعظمائها وعلمائها الكبار وصحة أعمالها.

ثانيًا: لا بدّ في العلوم الكفائية (أي التي هي فرض كفاية وليست فرض عين) من الرجوع إلى المتخصص، فمثلاً يكفي طبيب واحد لكل حيّ من الأحياء، ويُمكن لأهل الحيّ أن يرجعوا إليه، أما عِلْم الدين فهو واجب عيني لا كفائي، وليس أمر الدين كسائر أمور الدُّنْيَا مما يرجع فيه الناس إلى المتخصصين بل من الواجب على كل مسلم أن يكون بصيرًا بدينه. ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**طَلَبُ العِلْم فَرِيضَةٌ على كُلِّ مُسْلِمٍ**»(٢) فكل مسلم يجب عليه أن يكون بنفسه عالـمًا بأصول الإسلام وفروعه ولا يرجع في ذلك إلى الآخرين.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ

نوادر الأصول (٤/ ١٦٤) والخطيب البغدادي في **تاريخ بغداد** (٤/ ٣٦٨). والديلمي في **مسند الفردوس** عن عبد الله بن عمرو (٧٧٩١)، وأبو النصر السجزي (ت ٤٤٤هـ) في **الإبانة**، وقال: حسن غريب.

١) المجلسي، **بحار الأنوار**، ٢٨/ ٣٢، نقلاً عن مسند ثوبان. وفي مصادر أهل السنة أخرجه مسلم في **صحيحه** وَأبو داود وَالترمذي والنسائي في **السنن** وأحمد في **المسند**. وهو جزء من حديث أطول.

٢- الكُلَيْنِيّ، **الكافي**، باب فرض العلم، ١/ ٣٠. وفي مصادر أهل السنة: أخرجه ابن ماجه في **السنن** (٢٢٤) قال البوصيري (١/ ٣٠): هذا إسناد ضعيف. وأخرجه البيهقي في **شعب الإيمان** (٢/ ٢٥٦، رقم ١٦٧٢) عن أنس مرفوعًا. وأخرجه أيضًا: الطبراني في **المعجم الأوسط** (٨/ ٢٧٢ رقم ٨٦١١) والخطيب البغدادي في **تاريخه** عن الحسين بن علي، وعن علي، والطبراني في **المعجم الكبير** عن ابن مسعود، وصححه الألباني في «**صحيح الجامع الصغير وزيادته**»، رقم (٣٩١٣).

ٱللَّهِ وَجِيهًا ۝٦٩ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ۝٧١﴾ [الأحزاب: ٦٩-٧١].

الفوائد: الـمُرَادُ مِنْ جُمْلَةِ: ﴿لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ.........﴾ لا تؤذوا محمَّدًا كما آذى قوم موسى نبيهم موسى ، وكان أذاهم لموسى اتهامهم إياه بالسحر أحيانًا وبالزنا أحيانًا أخرى واتهامهم له أحيانًا بمرض البرص وأحيانًا بقتله لهارون، ولكن الله بيَّن براءة موسى من كل تلك التهم وبَيَّنَ كَذِبَ مخالفيه.

وجُمَل: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ﴾ تدل على أهمية التقوى وطاعة الله ورسوله ﷺ. ولذلك قال عليّ بن الحسين في الدعاء ٢١ من الصحيفة السجادية: «**وَلَا أَبْلُغُ رِضَاكَ، وَلَا أَنَالُ مَا عِنْدَكَ إِلَّا بِطَاعَتِكَ وَبِفَضْلِ رَحْمَتِكَ**».

﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ۝٧٢ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمَۢا ۝٧٣﴾ [الأحزاب: ٧٢-٧٣].

الفوائد: لما أمر الله تعالى في الآيات السابقة بطاعة الله ورسوله ﷺ بيَّن في هذه الآية أهمية هذا التكليف فقال: إننا عرضنا هذا التكليف على السماوات والأرض والجبال، فامتنعوا عن تحمله، وهذا العرض عرض تكويني، أي أن السماوات والأرض والجبال لما كانت غير مختارة أي لا تملك الإرادة والاختيار الحر –والتكليف فرع للاختيار– فإنها لن تتحمل التكليف تكوينيًا، أي أن الإباء عن التكليف إباء تكويني. فإن قيل: ما الدليل على أن الـمقصود من الأمانة التكليف؟ قلنا: إضافةً إلى الآيات السابقة التي تحدثت عن طاعة الله ورسوله ﷺ فإن الآية التالية أيضًا تدلُّ على ذلك؛ إذْ قال تعالى فيها: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ.....﴾ حيث إن اللام هنا هي لام الغاية أو التعليل أي أن عِلَّة عرض الأمانة هي امتحان الـمنافقين والـمشركين

وإيصالهم إلى العذاب وإيصال المؤمنين إلى الثواب، فهذه الجملة قرينة على أن المراد من الأمانة: التكليف. وقال بعضهم: المراد من الأمانة الإمامة والولاية أو حفظ الأمانة! وقال بعضهم: إنها العقل ولكن هذه المعاني لا تتناسب مع الآية التالية.

سورة سبأ

مكيّة وهي أربع وخمسون آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ١ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ ٢﴾ [سبأ: ١-٢].

الفوائد: ألف ولام ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ إن كانت للاستغراق فهي تدل على شمول جميع أنواع الحمد والثناء، وإن كانت للعهد فالـمقصود منها حمد مخصوص هو الحمد الكامل الخاص بالله تعالى، فهنا يُعلِّم الحق تعالى عبادَه كيفية شكره وحمده، وفي الآخرة أيضًا سَيُقِرُّ عبادُهُ بحمده وشكره، رغم أن الآخرة ليست دار تكليف.

وَالـمَقْصود مِنْ: ﴿مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ جذور النباتات والأشجار والكنوز والأموات وغير ذلك، ومِنْ: ﴿وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا﴾ الزروع والأشجار والجواهر والحيوانات. وَالـمَقْصود مِنْ: ﴿وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَا﴾ ربما يكون الـملائكة أو أعمال العباد. والـمُرَاد مِنْ: ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَا﴾ قد يكون ما يقوله علماء الفلك الذين يقولون: إن هناك قُرابة عشرين مليون صخرة سماوية ترتطم يوميًا بالغلاف الجوي للأرض، الذي يبلغ سمكه حوالي ٨٠٠ كيلومتر، بسرعة تبلغ من ٥٠ إلى ٧٠ كيلومتر في الثانية، وسرعة الصخور الشديدة من جهة، والغازات الحافظة للحياة على سطح الكرة الأرضية والتي نُسمِّيها الهواء من الجهة الأخرى، تعبر فوق هذه

الصخور بسرعة ١٠٠ ألف كيلومتر في الساعة مما يؤدي إلى ارتفاع حرارتها بشكل كبير ثم تبيضُّ من شدة الحرارة ثم تتلاشى، وأغلبها يحترق بشكل كامل قبل الوصول إلى الأرض ويُصبح رمادًا، وكذلك تخرج ذرَّاتها من حدود الأرض بسبب عوامل مجهولة، أي بسبب سرعتها الكبيرة لا تستطيع قوة الجاذبية للكرة الأرضية أن تجذبها نحو الأرض، ولذلك تصعد نحو النجوم والسماء وتسقط في مجال الشمس أو تتيه بين النجوم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٣ لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٤ وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ ٥﴾ [سبأ: ٣-٥].

الفوائد: المُرَاد مِنْ: ﴿كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ علم الحق تعالى أو كتاب التكوين. والمَقْصود مِنْ: ﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ الرزق السائغ الدائم دون مِنَّة وهو الجنة.

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ٦ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ٧ أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ ٨ أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ٩﴾ [سبأ: ٦-٩].

الفوائد: هل المقصود من الذين ﴿أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ.....﴾ أهل المعرفة من أصحاب رسول الله ﷺ أم علماء أهل الكتاب؟ يبدو لنا أن الآية عامَّة تشمل كلَّ عالِمٍ.

والمُرَادُ مِنْ: ﴿صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ دين الإسلام.

والمُرَادُ مِنْ جُمْلَةِ: ﴿أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ الاستدلال من خلال التفكُّر في وجود السماوات والأرض لإثبات قدرة الحق تعالى على الخلق

الجديد يوم القيامة.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِۖ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًاۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٠-١٣].

الفوائد: كانت فضيلة داود عليه السلام التي أكرمه الله بها: النُّبُوَّة والكتاب والمعجزات. وكان داود عليه السلام أول من صنع الدروع الحديدية إذ أَلَانَ اللهُ تعالى له الحديد فكان يصنع الدروع ويبيعها ويأكل من ثمنها ويُطعم عياله ويتصدق مما زاد عن حاجته. رُوي في الحديث أن الله أوحى إلى داود عليه السلام: نِعم العبد أنت إلا أنك تأكل من بيت المال، فبكى داود أربعين صباحًا فألَانَ اللهُ لهُ الحديدَ وكان يعمل كل يوم درعًا فيبيعها فاستغنى عن بيت المال[1]. وكان له صوت جميل فإذا سبَّح ردَّدَت الجبال تسبيحَه. وسخَّر اللهُ لابنه سليمان عليه السلام الريح فكانت تسير في ساعة من الصبح بقدر شهر وكذلك في ساعة من العصر، وكان الجِنُّ يبنون له القصور والتماثيل والصحاف التي كالحياض والقدور العظيمة، وقد بُني بيت المقدس في زمن سليمان بأحجار المرمر والأحجار البيضاء والصفراء والخضراء. وهل كان صنع التماثيل زمن سليمان حلالاً أم أن التماثيل التي كان يصنعها كانت تماثيل أشجار ونحوها ولم تكن تماثيل لِذي روح؟ الله أعلم. ويُمكن القول: إن صنع التماثيل إذا لم يكن لأجل عبادتها والخضوع لها، مثل صنع العرائس التي يلعب بها الأولاد، فلا إشكال فيه، فيجوز صنعها وشراؤها وبيعها ما لم تترتب عليها مفسدة.

١- الطبرسي، **مجمع البيان**، ٤/ ٣٨١.

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ١٤﴾ [سبأ: ١٤].

الفوائد: كان سليمان (عليه السلام) يعتكف في مسجد بيت المقدس، فلما وافاه الموت أراد الله أن لا يعلم أحدٌ بموته كي يعلم الناس أن الجِنّ لا يعلمون الغيب، ولذلك فلم يعلم الجِن بموت سليمان وكانوا يُواصلون العمل له ويبنون بيت المقدس، وقد قبض مَلَكُ الموت روحَ سليمان وهو مُتَّكِئٌ على عصاه وبقي سنةً كاملةً واقفًا على هذا النحو مُتَّكِئًا على عصاه حتى انتهى بناء بيت المقدس، فأرسلَ اللهُ عندئذٍ حشرة الأَرَضَة فأكلت العصا فسقط سليمان أرضًا فظهر موته للإنس والجِنّ. والفائدة الأخرى في هذه القصة هي أن يعلم الناس أنه إذا جاء الأجل لم يتأخر لحظةً بل تُقبض روح الإنسان وهو واقف فلا يجد الفرصة للقعود.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍۖ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ١٥ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ١٦ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ١٧﴾ [سبأ: ١٥-١٧].

الفوائد: كان قوم سبأ من عرب اليمن وكان لهم سدّ بين جبلين يجتمع الماء خلفه وقد فتحوا فيه ثقوبًا كي يأخذوا من الماء بقدر حاجتهم وكان على طرفي منازلهم ومساكنهم جنان عن يمين وشمال وكان طقسهم جميلاً ومُنعشًا ولم يكن في قريتهم بعوضة ولا ذباب ولا عقرب ولا سائر الحشرات المؤذية، ولكنهم لم يشكروا الله وأعرضوا عن أوامره، فبعث الله جرذانًا نقبت ذلك السدّ ففاض الماء عليهم فأغرق جميع مزارعهم وبساتينهم ولم يبقَ فيها إلا شيء من الأثل وشجرة السِّدر وزالت بساتين الزهور التي كانوا ينعمون بها.

وقد ذكر الله هذه القصة كي تكون عبرةً لعباده فيشكروا نِعم الله عليهم. وقد رُوِيَ [عن الإمام الصادق (عليه السلام)] عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله: «**أَكْرِمُوا الْخُبْزَ فَإِنَّهُ قَدْ عَمِلَ فِيهِ مَا بَيْنَ الْعَرْشِ**

إِلَى الْأَرْضِ وَمَا فِيهَا مِنْ كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِه»[١].

وهذا الأمر ينطبق على نعم اللهِ جميعها التي يجب إكرامها وعدم الغفلة عن شكر الله عليها وعدم الإعراض عن شرائع الله وأحكامه وآياته.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ۝١٨ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ۝١٩﴾ [سبأ: ١٨-١٩].

الفوائد: كان بين قوم سبأ الذين يعيشون تحت سدّ مأرب وبين الشام التي بارك الله فيها لأنها كانت مليئة بالأنهار والأشجار، قرىً متواصلةٌ، فكانت تُرى القرية الثانية من القرية الأولى لقربها منها وهكذا على طول الطريق من وادي سبأ إلى الشام. وقد كتبوا أنه كان بين سدّ مأرب إلى الشام أربعة آلاف قرية عامرة فكان كل مسافر يستطيع السفر دون حاجة إلى حمل زاد معه لأنه كان باستطاعته أن يجد الطعام في كل قرية يصل إليها، وكان كل مسافر يسافر آمنًا فلا يتعرَّض للسرقة ولا لهجوم السباع المفترسة، ولكن قوم سبأ لم يشكروا نعمة ربِّهم وكانوا يتمنَّون أن لا تكون هناك كل تلك القرى في طريق سفرهم بل أن يكون طريقهم مليئًا بالفلوات والمفاوز البعيدة، فأبدل الله تعالى قراهم بصحراء عقابًا على كفرانهم النعم، وتشتَّت أهالي تلك البلاد فصار بعضهم في الشام وفلسطين وذهب بعضهم إلى المدينة ومكة وإلى أماكن أخرى وجعلهم الله عبرةً لمن بعدهم.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ۝٢٠ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْأٓخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٞ۝٢١﴾ [سبأ: ٢٠-٢١].

الفوائد: لما رفض الشيطان السجود لآدم وطرده الله عز وجل أقسم على إضلال بني آدم

١- الكُلَيْنِيّ، **الكافي**، ٦/ ٣٠٢.

وقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢]. ولكنه لم يكن موقنًا بقدرته على إضلال جميع بني آدم أو دفع معظمهم إلى الكفر كما في الآية ١٧ من سورة الأعراف حين قال: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧]. ولكنه لما بدأ بإغواء بني آدم وخداعهم وفتنتهم اتبعه الأكثرون فصدق ظنه في إضلال بني آدم فاعتبر أن ظنه كان صادقًا وصحيحًا.

والـمُرَادُ مِنْ جُمْلَةِ: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ أن الشيطان ليس له سلطة على بني آدم ولا يستطيع أن يُضلَّهم بالإكراه إلا إذا اختاروا هم بإرادتهم أن يتَّبِعوا الشيطان ويسمحوا له بالتسلط عليهم.

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سبأ: ٢٢-٢٣].

الفوائد: هذه الآيات إحدى الآيات التي أمرت بدعاء غير الله على سبيل الذمّ والتوبيخ واعتبرت أن غير الله لا يملك أي تأثير أو فائدة للمخلوق.

والـمقصود من جملة: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ذوي العقول من الـملائكة والأنبياء الـمُقَرَّبين الذين لا يجوز دعاؤهم على أي حال من الأحوال، لأنهم إما يملكون شيئًا من طرف الله أو أنهم شركاء لِلَّهِ في التأثير، أو أنهم وزراء لِلَّهِ وأعوان له أو أنهم شفعاء ووسطاء بين الله وبين عباده، فتأثيرهم لا يخرج عن هذه الاحتمالات الأربعة، وقد ردّ الله هذه الاحتمالات جميعها؛ ففي هذه الحالة لا ينقضي العجب من الذين يدعون غير الله ولا يُدركون خطأهم رغم هذه الآيات الـمحكمة الواضحة.

هذا والحال أن الأولياء مخالفون لعقيدة من يدعونهم ولا يُقرُّون بتلك الشفاعة التي ينسبونها لهم، لأن الشفاعة التي يؤمن بها عوام الناس يوم القيامة هي أن الله لا عاطلٌ عن أي عَمَلٍ أو فعل يوم القيامة وأمر محاسبة الشيعة موكولٌ كلُّهُ إلى الأئمة، والأئمةُ سيغفرون للشيعة ذنوبهم كي

يدخُلُوا جميعًا الجنةَ!.

مثل هذه الشفاعة لا سند لها في كتاب الله، لأن كتاب الله ينص على أن حساب الخلق على الله وحده. فالذين يستندون إلى هذه الآيَة لإثبات مثل تلك الشفاعة الباطلة مخطئون تمامًا. إن شفاعة إنسان لإنسان آخر يوم القيامة حسب البيان الذي يقولونه لم تُذكر في أي آية من آيات القرآن بل نفاها القرآن تمامًا واعتبر القرآنُ كل إنسان مرهونًا بأعماله وما كسبت يداه، لا أن الله سيصرف النظر عن قوانينه مراعاةً للشفعاء. إضافةً إلى ذلك ما من بشر يعلم بأعمال البشر الآخرين فإذا كان الأمر كذلك فكيف يُمكن لإنسان أن يشفع لإنسان آخر وهو ليس مطلعًا على حقيقة أعماله؟! بناءً على ذلك، فإن الشفاعة التي ذُكرت في القرآن لا علاقة لها بتلك الشفاعة التي يعتقدون بها لأنفسهم يوم القيامة ويتصورون أنها ستُنقذهم من كل جرم وجناية يرتكبونها ولا تنطبق عليها من قريب ولا بعيد. فإن كان هناك شفاعة يوم القيامة فهي إبلاغ رحمة الله للصالحين والـمؤمنين كما تُشير إلى ذلك آيات في سورة الأعراف. بناءً على ذلك فإن الإيمان الصحيح والأعمال الصالحة ورحمة الله هي وحدها فقط الـمنجية للإنسان والتي ستؤمن له الفلاح. وبالطبع فإن شفاعة فرد ما للآخرين واستغفاره لهم في الدنيا أمر صحيح وقد أمر الله الـمؤمنين أن يستغفروا لبعضهم بعضًا. علاوةً على ذلك، فإن الأئمة والأولياء الذين جعلهم هؤلاء شفعاءَهم يوم القيامة لم يكن لديهم أي ادعاءات مضادة للقرآن بل كانوا تابعين للقرآن وكانوا يخشون دائمًا عاقبة أمرهم ويخافون الله على الدوام ويسألونه العفو والـمغفرة، وكلماتهم في هذا الصدد كثيرة. فمثلاً كان عليّ بن الحسين الذي سُمِّي بالسجاد لكثرة سجوده لِلَّهِ وعبادته له، يقول في الصحيفة السجادية ضمن الأدعية: ٢٤، ٣١، ٣٢، ٤٨، ٥٠، و٥٣: الجمل التالية:

«فَقَدْ أَقَامَتْنِي يَا رَبِّ ذُنُوبِي مَقَامَ الْخِزْيِ بِفِنَائِكَ، فَإِنْ سَكَتُّ لَمْ يَنْطِقْ عَنِّي أَحَدٌ، وَإِنْ شَفَعْتُ فَلَسْتُ بِأَهْلِ الشَّفَاعَةِ. اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَشَفِّعْ فِي خَطَايَايَ كَرَمَكَ، وَعُدْ عَلَى سَيِّئَاتِي بِعَفْوِكَ، ... . وَلَا شَفِيعَ لِي إِلَيْكَ فَلْيَشْفَعْ لِي فَضْلُكَ ...»

«لَا تَجْعَلْنِي فِي أَهْلِ الْعُقُوقِ لِلْآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ يَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ».

«**لَا تُخَيِّبِ الْيَوْمَ ذَلِكَ مِنْ رَجَائِي...**».

«**قَارَفْتُ مَعْصِيَتَكَ، وَاسْتَوْجَبْتُ بِسُوءِ سَعْيِي سَخْطَتَكَ، ...... لَا شَفِيعٌ يَشْفَعُ لِي إِلَيْكَ، وَلَا خَفِيرٌ يُؤْمِنُنِي عَلَيْكَ، وَلَا حِصْنٌ يَحْجُبُنِي عَنْكَ، وَلَا مَلَاذٌ أَلْجَأُ إِلَيْهِ مِنْكَ...**»

«**ارْحَمْنِي فِي حَشْرِي وَنَشْرِي، وَاجْعَلْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مَعَ أَوْلِيَائِكَ مَوْقِفِي، وَفِي أَحِبَّائِكَ مَصْدَرِي...**» «**أَسْأَلُكَ أَمْنًا مِنْ عَذَابِكَ،...**»

«**هَذِهِ الرِّمَّةَ الْهَلُوعَةَ، الَّتِي لَا تَسْتَطِيعُ حَرَّ شَمْسِكَ، فَكَيْفَ تَسْتَطِيعُ حَرَّ نَارِكَ!**»

أجل، إن الأئمة عليهم السلام أنفسهم يُنكرون تلك الشفاعة التي ينسبها الناس إليهم. يقول الإمام عليّ عليه السلام -الذي يعتبر هؤلاء القوم أنفسهم شيعته وأتباعه- في بعض أدعيته ومناجاته:

«**رَجَوْتُ مِمَّنْ تَوَلَّانِي فِي حَيَاتِي بِإِحْسَانِهِ أَنْ يَشْفَعَهُ لِي عِنْدَ وَفَاتِي بِغُفْرَانِه**»

إلهي لئن خيبتني أو طردتني	فمن ذا الذي أرجو ومن ذا أشفع؟
إلهي وخلاقي وحرزي وموئلي	إليك لدى الإعسار واليسر أفزع
إلهي أنلني منك روحاً ورحمةً	فلست سوى أبواب فضلك أقرع

«**قد جئتُ أطلب عفوَكَ ووسيلتي إليكَ كرمُكَ..**».

«**فقد جعلتُ الإقرار بالذنب إليك وسيلتي... مُتوسِّلٌ بكرمك..**»

«**إِنِّي لَا أَقْدِرُ لِنَفْسِي دفْعًا وَلَا أَمْلِكُ لَهَا نَفْعا**».

وقد نُقلت عنه كلمات أخرى في هذا الأمر في الأدعية وفي **نهج البلاغة**،كما نجد في الرسالة ٣١ من **نهج البلاغة** قوله: «**لَمْ يَجْعَلْ بَيْنَكَ وبَيْنَهُ مَنْ يَحْجُبُكَ عَنْهُ ولَمْ يُلْجِئْكَ إِلَى مَنْ يَشْفَعُ لَكَ إِلَيْهِ**».

بناءً على ذلك، يجب الحذر من الغلو والالتجاء إلى الله فقط في طلب الحوائج لأنه هو وحده العليم بعباده والمحاسب لهم ولا شيء يُفيد في نجاة الإنسان وخلاصه إلا التقوى والطهارة وطاعة الله، كما قال عليّ عليه السلام (في كلماته القصار في **نهج البلاغة**، رقم ٩٢): «**إِنَّ وَلِيَّ مُحَمَّدٍ مَنْ أَطَاعَ اللهَ وإِنْ بَعُدَتْ لُحْمَتُهُ وإِنَّ عَدُوَّ مُحَمَّدٍ مَنْ عَصَى اللهَ وإِنْ قَرُبَتْ قَرَابَتُهُ**». وقال الإمام الصادق عليه السلام، كما روى الصدوق في كتابه «**الخصال**» (ص ٦٤): «**أَدْنَى مَا يَخْرُجُ بِهِ الرَّجُلُ مِنَ**

الْإِيمَانِ أَنْ يَجْلِسَ إِلَى غَالٍ وَيَسْتَمِعَ إِلَى حَدِيثِهِ وَيُصَدِّقَهُ عَلَى قَوْلِهِ؛ إِنَّ أَبِي حَدَّثَنِي عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ عليه السلام أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم قَالَ: صِنْفَانِ مِنْ أُمَّتِي لَا نَصِيبَ لَهُمَا فِي الْإِسْلَامِ الْغُلَاةُ وَالْقَدَرِيَّةُ».

ولكن ماذا نفعل إذا أبعدوا قومَنا عن القرآن وأدخلوهم في الغلو والشرك.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [سبأ: ٢٤-٢٧].

الفوائد: يُخاطب الله تعالى في هذه الآيات المشركين بإنصاف، وضمن ذلك تدل جملة: ﴿وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أن المؤمنين لا ينبغي لهم أن يشغلوا أنفسهم بالاهتمام بأعمال الآخرين وأفعالهم بل عليهم أن يهتموا بعمل أنفسهم لأن المؤمن لن يُسأل عن أعمال المشركين أو الفاسقين يوم القيامة، فالذين يسعون لتتبع عيوب مسلمي صدر الإسلام أو لينسبوا لهم ذنوبًا وآثامًا لم يرتكبوها، لا يقومون بعمل صحيح بل يُخالفون بذلك القرآن.

ومعنى جملة: ﴿يَفْتَحُ بَيْنَنَا﴾: يحكم بيننا، وهي تدل على أنه يجب أن نكل القضاء والحكم بين العباد إلى الله وحده.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ

أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ٣٣﴾ [سبأ: ٢٨-٣٣].

الفوائد: يُمكن أن نُفسِّر كلمة: ﴿كَآفَّةً﴾ بأحد معنيين:

الأول: على معنى العموم فيشمل جميع الأفراد وشعوب بلدان العالـم كما ذُكر.

الثاني: أن نعتبر ﴿كَآفَّةً﴾ من مادة الكفّ، أي أننا لم نُرسلك إلا لتكفَّ الناس عن الكفر والفسق.

وتدل الآيتان ٣١ و٣٢ على منع اِتِّباع السادة الكبار والعظماء ومنع تقليدهم، خاصةً في العقائد. ولهذا السبب سوف يُؤاخذ الله يوم القيامة السادة الكبار الـمتبوعين وأتباعهم ويُعذِّبهم جميعًا ولن يقبل عذر الأتباع بحُجّة أنهم كانوا مستضعفين كما تدل عليه هذه الآيات بكل وضوح.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ٣٤ وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ٣٥ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ٣٦ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ٣٧﴾ [سبأ: ٣٤-٣٧].

الفوائد: استدلال الكفار وأئمة الباطل مبنيّ على القياس، فيقولون: بما أننا في الدُّنْيَا نملك أموالاً وأولادًا أكثر من غيرنا فهذا دليل على أن الله يُحِبُّنا ويلطف بنا فسيكون الأمر كذلك أيضًا في الآخرة حيث سيكون الله لطيفًا بنا ولن يُعذِّبنا. وقد ردّ الله تعالى عليهم في هذه الآيات وقال: إن أموالكم وأولادكم لا تُقرِّبكم منا لأن الله يُعطي من يشاء الـمال والأولاد - سواءً كانوا كفارًا أم مؤمنين- وليست الأموال والأولاد دليلاً على القرب من الله بل الإيمان والعمل الصالح فقط هما اللذان يُقرِّبان العبدَ من الله.

﴿وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ٣٨ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ

خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴿٣٩﴾﴾ [سبأ: ٣٨-٣٩].

الفوائد: المُرَادُ مِنْ جُمْلَةِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ يسعون في إبطال آياتنا أو يسعون إلى الفرار من آياتنا. والمُرَادُ مِنْ: ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ أنهم يريدون أن يُعجزوا الله ورسوله ﷺ وأن يمنعوا الناس ويصدوهم أو أن يهربوا من عذاب الله.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ أن الإنسان مهما أنفق في سبيل الله عوّضه الله عما أنفقه ورزقه مالاً بدلاً منه، وقد قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ لِلَّهِ مَلَكًا يُنَادِي فِي كُلِّ يَوْمٍ: لِدُوا لِلْمَوْتِ وَاجْمَعُوا لِلْفَنَاءِ وَابْنُوا لِلْخَرَاب**»، ومناد آخر ينادي كل ليلة: «**اللَّهُمَّ هَبْ لِلْمُنْفِقِ خَلَفًا، وملكٌ آخر ينادي: هَبْ لِلْمُمْسِكِ تَلَفًا**»[1].

والله تعالى ﴿خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ لما بيّناه في سورة الحج / الآية ٥٨ من وجوه.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴿٤٢﴾﴾ [سبأ: ٤٠-٤٢].

الفوائد: سؤال الملائكة هو لتقريع وتوبيخ الكفار الذين كانوا يدّعون أنهم يعبدون الملائكة، والمراد من ﴿ٱلْجِنَّ﴾ هو الشيطان -على الغالب- لأنه من الجِنّ ولأن الناس يُصغون إلى وسوسته فيُطيعونه، والطاعة العمياء دون دليل لها حكم العبادة، كما بيّنا ذلك في التعليق على الآية ٣١ من سورة التوبة.

١- الثعلبي، **الكشف والبيان**، ج٨، ص٩٢، وقد ورد الجزء الأول من الدعاء في **نهج البلاغة**، باب المختار من حكم أمير المؤمنين ؈، الحكمة ١٣٢. انظر بلفظ مشابه: الكُلَيْنِيّ، **الكافي**، ٤/ ٤٢ و٦٧. وابن بابويه القمي، **من لا يحضره الفقيه**، ٢/ ٩٧، أما في مصادر أهل السنَّة، فورد الحديث مرفوعًا بلفظ مشابه وهو: «مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا وَيَقُولُ الْآخَرُ اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا» (حديث متفق عليه).

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾ [سبأ: ٤٣-٤٥].

الفوائد: نزلت هذه الآيات تسليةً لرسول الله ﷺ وتقويةً له على الاستقامة، وأنه إذا كان مشركو قومك يُكذِّبونك فإن رُسل الله السابقين جميعًا كُذِّبوا، هذا رغم أن قومك لم يكن لديهم كتاب ولا رسول من قبل وليس لديهم عُشْر قوة الأمم الماضية وقدرتها، فانظر كيف أهلك الله الأمم السابقة وعاقبهم.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾ [سبأ: ٤٦-٤٩].

الفوائد: يُمكن اعتبار حرف ﴿مَا﴾ في جملة: ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ ما النافية وعندئذ يُمكن أن يكون للآية أحد المعاني الثلاثة التالية:

١- ظهر الحق بمجيء رسول الله ﷺ أو بنزول القرآن وليس للباطل أي قوة ولا يستطيع أن يفعل شيئًا في مواجهة الحق ولا أن يُجدد نفسه ويعود.

٢- لا يأتي الباطل لأهله بأي خير في الدُّنيا ولن يأتيهم بأي خير في الآخرة أيضًا.

٣- الباطل الذي هو الشيطان لم يخلق مخلوقًا ولن يستطيع إعادة مخلوق كذلك.

لكن المعنى الأول أظهر. أما إذا اعتبرنا حرف ﴿مَا﴾ ما الاستفهامية صار المعنى: ما الذي يُوجده الباطل وما الذي يُعيده؟ وهذا الاستفهام إنكاري.

ولما دخل رسول الله ﷺ الكعبة في فتح مكة وجد فيها ٣٦٠ صنمًا فأخذ يضربها بالعصا التي

كانت بيده ويقرأ هذه الآية.

﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ۝٥٠ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٥١ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٢ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٣ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ۝٥٤﴾ [سبأ: ٥٠-٥٤].

الفوائد: جملة: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾ تُثبت إمكانية[1] الضلال لكل نبيّ. وجملة: ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ تُثبت أن الوحي هو الهادي للرسول ﷺ. وإن لم يكن هناك وحيٌ فلا يملك الرسول الهداية من عند نفسه. وبالطبع مقصودنا من الهداية هنا الهداية التفصيلية كما شرحنا ذلك في مقدمات هذا الكتاب.

وَجُمْلَةُ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٥١﴾ للتهديد وبيان أنه لا مفر للمقصرين والمجرمين، بل سيناهم العقاب بسرعة ودون تأخير.

والمقصود من: ﴿مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ أنهم ابتعدوا عن الدُّنْيَا ولم يعودوا قادرين على العودة إليها.

١- من الواضح أن المؤلف يقصد بالإمكانية هنا الإمكانية النظرية المحضة، أما عمليًا فالأنبياء معصومون فيما يبلِّغونه عن ربهم من رسالة لأن الله تعالى أمر بطاعتهم وقرنها بطاعته، والله لا يأمر بالضلال، ولأنه لو جاز عليهم الضلال عمليًا لانتقض الغرض من إرسالهم.

سورة فاطر

مكية وهي خمس وأربعون آية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١﴾ [فاطر: ١].

الفوائد: ﴿فَاطِرِ﴾ أحد أسماء الله الحسنى ومعناه: الخالق دون شكل أو مثال سابق. في هذه السورة جعل اللهُ الحمدَ خاصًا به، وعلَّم عباده كيفية الحمد.

والمقصود من: ﴿أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ﴾ تشبيه المعقول بالمحسوس، أي كما أن للطيور أجنحة متعددة تطير بواسطتها كذلك للملائكة قوىً تنزل بواسطتها من السماء وتعرج فيها، وهي قوى تتناسب مع وجودها بالطبع. بل رُوِيَ أن رسول الله ﷺ رأى جبريل ليلة المعراج وله ستمئة جناح.

﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٣ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٤﴾ [فاطر: ٢-٤].

الفوائد: جملة: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ، وتقريرٌ بأن لا خالق إلا الله، بناءً على ذلك، لا يجوز إطلاق لفظ الخالق على غير الله إلا مجازًا، فإن أُطلق على أحد غير الله صفة

الخالق فهو ليس خالقًا من العدم أو من لا شيء لأن الخلق من العدم ومن لا شيء منحصر بالله وحده، أما غير الله فما يفعله هو تغيير صورة المواد التي خلقها الله، كما كان عيسى عليه السلام يقول: ﴿أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ [آل عمران: ٤٩]. وعلى كل حال، لا خالق رازق إلا الله. وقد شرحنا هذه المسألة بشكل كامل في كتابنا «**درسى از ولايت**» أي درس عن الولاية.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧﴾ [فاطر: ٥-٧].

الفوائد: الـمُرَادُ مِنْ جُمْلَةِ: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ لا تغرنكم الخدع باسم الله وباسم الدين وباسم الشفاعة والواسطة أو بأي اسم آخر. ويُمكن أن يكون المراد من: ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ الشيطان. وفعل: ﴿يَدْعُوا۟﴾ مفرد وضميره يعود على الشيطان. وحزب الشيطان هم أتباعه من أهل الأهواء والشهوات.

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٨ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَـٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۝٩﴾ [فاطر: ٨-٩].

الفوائد: يقوم كثير من الناس بأعمال لا طائل تحتها وأعمال لغو ويتخيلون أنها من الدين ويعتبرونها أعمالاً صالحة في حين أنها بِدَعٌ كلُّها.

ولما كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يأسف بشدة لحال الكفار والمشركين ويحزن لجهل الناس؛ واساه الله قائلاً: لا تتحسَّر ولا تأسف على حال الناس فالله عليم بأعمالهم وهو القادر على حسابهم وبعثهم كما يُحيي الأرض الميتة.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًاۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [فاطر: ١٠-١٢].

<u>الفوائد</u>: جملة: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ تدل على أن من أراد العِزَّة فعليه أن يطلبها من الله. وقد قال رسول الله ﷺ: «**إن ربكم يقول كل يوم أَنَا الْعَزِيزُ فَمَنْ أَرَادَ عزَّ الدارين فَلْيُطِعِ الْعَزِيزَ**»[١].

فإن قيل: إن العِزَّة في كثرة المال والمقام، قلنا في الردّ عليه: في الحقيقة إن صاحب المال والمقام خادم لهما. وهو مضطر إلى التملّق للحصول عليهما وللحفاظ عليهما. ففي الحقيقة كسب المال والمقام وحفظهما مقرون بالذل.

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: ١٣-١٤].

<u>الفوائد</u>: بعد أن ذكر الحقُّ تعالى دلائل قدرته من خلق الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر، قال في الآية ١٤: بناءً على ذلك إن أردتم شيئًا وكان لكم حاجةٌ فعليكم أن تطلبوها من مثل هذا الإله القادر لا من غيره، واستدل الله على ذلك بأن غير الله لا يملك شيئًا حتى بمقدار قشرة نواة التمرة! فإن قيل: إن عباد الله مالكون لما في أيديهم فكيف يُقال أنهم لا يملكون شيئًا؟ فالجواب: إن ملكية العبد ملكية افتراضية ومجازية وليست ملكية حقيقية. وعلى كل حال،

١- النوري الطبرسي، **مستدرك الوسائل**، ١١/ ٢٥٩، (١٢٩٣٠)، بلفظ فيه اختلاف يسير.

المقصود في هذه الآيَة أن غير الله لا يسمع دعاءكم ولا علم له بدعائكم لأنه ليس حاضرًا عندكم. وَتَدُلُّ عبارة: ﴿وَلَوْ سَمِعُواْ .....﴾ أنه على فرض المحال لو سمع هؤلاء المدعُوُّون دعاءكم فلن يُجيبوه ولن يستطيعوا أن يُجيبوه ويوم القيامة سيكفرون بشرككم. بالمناسبة إن الذي يصح أن يعترض على شرك المريدين ويُنكره ويكفر به ليس الصنم بل الأولياء والأنبياء. هذه الآيات إذن صريحة في أن دعاء مدعوٍّ غيبيّ غير الله شرك محض. ولذلك فإن حضرة عليّ بن الحسين عليهما السلام كان يقول في أدعيته -المجموعة في الصحيفة السجادية- استنادًا إلى مثل هذه الآيات (في الأدعية رقم ٢٨، ٥١، ١، ١٣، ٢٠، ٤٩):

«**وَلَا يَتَّفِقُ أَحَدٌ مَعَكَ فِي دُعَائِي، وَلَا يَنْظِمُهُ وَإِيَّاكَ نِدَائِي**».

«**أَدْعُوكَ فَتُجِيبُنِي**».

«**فَلَا أَدْعُو سِوَاكَ، وَلَا أَرْجُو غَيْرَكَ**».

«**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَغْلَقَ عَنَّا بَابَ الْحَاجَةِ إِلَّا إِلَيْهِ**».

«**وَمَنْ تَوَجَّهَ بِحَاجَتِهِ إِلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ أَوْ جَعَلَهُ سَبَبَ نُجْحِهَا دُونَكَ فَقَدْ تَعَرَّضَ لِلْحِرْمَانِ**».

«**لَا تَرُدَّ دُعَائِي عَلَيَّ رَدًّا، فَإِنِّي لَا أَجْعَلُ لَكَ ضِدًّا، وَلَا أَدْعُو مَعَكَ نِدًّا**».

«**أَنْتَ الَّذِي أَجَبْتَ عِنْدَ الِاضْطِرَارِ دَعْوَتِي**».

«**وَسِيلَتِي إِلَيْكَ التَّوْحِيدُ، وَذَرِيعَتِي أَنِّي لَمْ أُشْرِكْ بِكَ شَيْئًا**».

وقال عليّ عليه السلام في نهج البلاغة: «**واعْلَمْ أَنَّ الَّذِي بِيَدِهِ خَزَائِنُ السَّماوَاتِ والأَرْضِ قَدْ أَذِنَ لَكَ فِي الدُّعَاءِ وتَكَفَّلَ لَكَ بِالإجَابَةِ وأَمَرَكَ أَنْ تَسْأَلَهُ لِيُعْطِيَكَ وتَسْتَرْحِمَهُ لِيَرْحَمَكَ**». وقال أيضًا: «**لا أُغْلِقَ عَنْكُمْ دُونَهُ بَابٌ**».

وكذلك كلمات الأئمة عليهم السلام الأخرى في هذا المجال، ويُمكن لكل إنسان مهما كانت بضاعته من العلم قليلة أن يرجع إلى كتب الصحيفة العلوية والصحيفة السجادية ونهج البلاغة المتوفرة ليطلع على هذه النصوص. والواقع أننا في غنى عن النقل منها مع وجود آيات القرآن الواضحة

في هذا الأمر. بناءً على ذلك، لا يجوز دعاء أحد سوى الله الحاضر والناظر والسميع والعليم في كل وقت وفي كل مكان ولا طلب الحوائج إلا منه.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [فاطر:١٥-١٨].

الفوائد: جميع الـممكنات هي في افتقارها إلى واجب الوجود على نفس درجة العليَّة أي علّيّتها في عرض بعضها بعضًا، والفقر ملازم لذات الـممكن، والله الذي هو ثابت الوجود لا يتغيّر ولا يتبدّل وهو وحده الغنيّ عن الغير، وبما أنه غنيّ ومرجع للحاجات جميعها فهو مستحق للحمد والشكر.

وَتَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أن لا أحد يحمل ذنب الآخر وأن النجاة لا تكون إلا بالإيمان والعمل الصحيح فقط. بناءً على ذلك وطبقًا لهذه الآية فإن ما يتصوره العوام من أنهم برجائهم وتمنيهم من أولياء الله يُمكنهم -أي يُمكن لأولياء الله- أن يحملوا عنهم أوزارهم وذنوبهم، تصورٌ باطلٌ وشيطانيٌّ لا أكثر، وكان الأولياء والأئمة أنفسهم في خوف ورجاء دائمين وسوف يبقون كذلك. يقول حضرة السجاد في الصحيفة السجادية ضمن الأدعية ٤٢، ٢٠، ٤٧، ٤٨، و٥٠:

«**لَا يُنْجِينِي مِنْكَ إِلَّا التَّضَرُّعُ إِلَيْكَ وَبَيْنَ يَدَيْكَ**».

«**وَلَا تُقَايِسْنِي بِعَظِيمَاتِ الْـجَرَائِرِ، وَلَا تُهْلِكْنِي يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ...**».

«**لَا تَفْضَحْنَا فِي حَاضِرِي الْقِيَامَةِ بِمُوبِقَاتِ آثَامِنَا**».

«**وَارْزُقْنِي فَوْزَ الْـمَعَادِ، وَسَلَامَةَ الْـمِرْصَادِ**».

«**فَيَا سَوْأَتَا مِمَّا أَحْصَاهُ عَلَيَّ كِتَابُكَ!**».

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ٢٠ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ٢١
وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي
ٱلْقُبُورِ ٢٢ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ٢٣ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًاۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا
فِيهَا نَذِيرٌ ٢٤﴾ [فاطر: ١٩-٢٤].

الفوائد: يَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ أن الأموات يختلفون عن الأحياء اختلافًا كاملاً، حتى ولو كان الأموات هم الأنبياء والصالحين والأولياء، لأن الأنبياء والأولياء والصالحين ينتقلون بعد وفاتهم إلى حياة أخروية، ويتمتعون بحياة برزخية، ولا يتمتَّعون بحياة دنيوية. فالحيّ يرى بالعين ويسمع بالأذن أما الـميت فقد أصبحت عيناه وأذناه ترابًا فلا يرى الـمرئيات الدنيوية ولا يسمع مسموعات الدُّنْيَا، بناءً على ذلك فالذين اغترُّوا بخيالاتهم وأخذوا يذهبون إلى قبر أحد الأنبياء أو الأولياء ويشتكون عنده ويتخيّلون أنه يسمعهم ويتكلّمون معه ويتملّقونه ويطلبون منه إجابة أدعيتهم يقومون بأعمال مناقضة لهذه الآيات ومخالفة لآيات القرآن الأخرى في هذا الـمجال.

وليت شعري! إذا كان رسول الله ﷺ نفسُه لا يستطيع إسماع الـموتى فكيف لزيد وعمرو أن يُسمعوهم؟ يقولون: إن رسول الله ﷺ خاطب قتلى الـمشركين يوم بدر بعد أن أُلقوا في البئر وقال: ﴿أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ [آل عمران:٤٩].، ﴾

لكن هذا القول غير صحيح وكذب، فإن كان رسول الله ﷺ قد قرأ هذه الآية –أي الآية ٤٤ من سورة الأعراف– لكان الجميع قد فهم مقصده، وأن مراده أنهم يجدون الآن ما وعدهم ربهم [لا أنهم يسمعون كلام النبيّ ﷺ].

وكل من لاحظ هذه الآية جيدًا وانتبه إلى ما قبلها وما بعدها سيُدرك أنها تُخالف ادعاءَهم وأنها متعلقة بيوم القيامة. وعلى كل حال، إن وُجِدَت روايةٌ أو حديث مخالف للقرآن فلا يجوز قبوله بل هو ساقط من الاعتبار لمخالفته لكتاب الله. يُراجَع في ذلك الآية ٨٠ من سورة النمل والآية ٥٢ من سورة الروم.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر: ٢٥-٢٨].

الفوائد: من دلائل قدرة الله اختلاف طُعُوم الفواكه وألوانها واختلاف ألوان الجبال والصخور واختلاف ألوان الناس والمواشي والدواب، وهذا يدلُّ على أن خالقها ذو علم وإرادة، ولو كانت تلك الأمور متولدة من الطبيعة لوجب أن تكون فواكه البستان الواحد الذي يُسقى من ماء واحد وينبت في جو واحد: ذات لون واحد وشكل واحد وخواص واحدة. وكذلك يدل اختلاف الألوان والأصوات والألسن على حكمة الخالق وإرادته، وكلما ازداد علم الإنسان بهذه الأمور ازدادت خشيته لِلَّهِ ومعرفته بعظمته، لذلك قال تعالى بعد ذِكر الآيات السابقة: ﴿كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ وللأسف فإن العلوم الطبيعية والفيزيائية متروكة لا تُدرَّس اليوم فيما يُسمَّى بالحوزات العلمية [أي مراكز الدراسات الدينية] ولذلك فإن العوام لا يخشون الله حق خشيته وليس الأمر مقصورًا على العوام بل حتى زعمائهم أيضًا لا يخشون الله حق خشيته.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾﴾ [فاطر: ٢٩-٣١].

الفوائد: هذه الآيات إحدى الآيات التي تؤكد على أهمية تلاوة القرآن، وقد بيَّن تعالى أن الذين يتلون القرآن سينالون إضافةً إلى أجر التلاوة مزيدًا من فضل الله ورحمته وغفرانه. ومعنى صفة «الشكُور» لِلَّهِ تعالى أنه يقبل العمل القليل ويُثيب عليه.

واللام في كلمة ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ لام التعليل، أي أن تلاوة القرآن والصلاة وإنفاق العبد مما رزقه الله إنما تُؤَدَّى لكي يُتِمَّ اللهُ لصاحبها الأجر. قال رجل [من الأنصار] لرسول الله ﷺ: «**مَا لِي لَا أُحِبُّ الْمَوْتَ؟ فَقَالَ** ﷺ **لَهُ: أَلَكَ مَالٌ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ** ﷺ: **فقَدِّمْهُ. قَالَ: لا أستطيع، قَالَ** ﷺ: **فإنَّ قلبَ الرَّجلِ مَعَ مَالِهِ؛ إن قدَّمَهُ أحبَّ أنْ يَلْحَقَ بِهِ وإن أخَّرَهُ أحبَّ أن يتأخَّر عنه**»[1].

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ [فاطر: ٣٢-٣٥].

الفوائد: اختلف الـمُفسِّرون في الـمقصودين من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا﴾؟ ويُمكن القول: إنهم العباد الـمُوحدون بدليل الآية ٥٩ من سورة النمل: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل: ٥٩]. الذين أنزل الله عليهم كتابه وتركه فيهم كالإرث. واختُلف أيضًا في ضمير ﴿فَمِنْهُمْ﴾ والظاهر أنه يعود على: ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا﴾، وبِناءً عَلَى ذَلِكَ يُصبح الـمعنى: إن العباد الـمؤمنين الذين يملكون كتابًا سماويًا من الله ثلاثة أقسام: بعضهم مذنب ظالـم لنفسه سيئاته تزيد على حسناته. وبعضهم الآخر متوسطو الحال فحسناتهم على أقل تقدير لا تنقص عن سيئاتهم. وبعضهم يتسابق في طريق الخير وطريق الله عز وجل كالشهداء والعلماء العاملين والزُّهَّاد الحقيقيين الصادقين.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ

١- الفتال النيشابوري، **روضة الواعظين**، ٢/ ٤٣٠. و**مجموعة ورَّام**، ١/ ١٥٦. وانظر حديثا قريبًا من معناه بلفظ آخر لدى ابن بابويه القمي، **الخصال**، ١/ ١٣.

فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر: ٣٦-٣٧].

الفوائد: تَدُلُّ جُمْلَةُ: ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ أن الذين يُخاطبهم الله عمَّرُوا مقدارًا كافيًا من العمر، فكانوا يستطيعون خلال تلك المدة أن يُفكّروا ويتذكّروا. وإذا كان الأمر كذلك فما هو العمر الذي اعتبره الله كافيًا للتذكر؟ قال عليّ عليه السلام: «**الْعُمْرُ الَّذِي أَعْذَرَ اللهُ فِيهِ إِلَى ابْنِ آدَمَ سِتُّونَ سَنَةً**»[1]. ورُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**مَنْ عَمَّرَهُ اللهُ سِتِّينَ سَنَةً فَقَدْ أَعْذَرَ اللهُ إِلَيْهِ فِي الْعُمُرِ**»[2]. وقال حضرة الصادق عليه السلام: إنه سن الثمانية عشرة، وقال بعضهم هو سن الأربعين.

وَالمَقْصود مِنْ: ﴿ٱلنَّذِيرُ﴾ في جملة ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾: رسول الله ﷺ أو القرآن أو الشيب.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ إِلَّا مَقۡتٗاۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ إِلَّا خَسَارٗا﴿٣٩﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا فَهُمۡ عَلَىٰ بَيِّنَتٖ مِّنۡهُۚ بَلۡ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعۡضُهُم بَعۡضًا إِلَّا غُرُورًا﴿٤٠﴾﴾ [فاطر: ٣٨-٤٠].

الفوائد: الله وحده يعلم بحال عباده وبأفكارهم وما يجول في صدورهم وقلوبهم، فالتوجه إلى المخلوق حتى ولو كان ذلك المخلوق مقربًا من الله، لا فائدة منه لأن هذا المخلوق لا علم له بأحوال العباد ولا خبر عنده عما في بواطنهم وصدورهم، هذا كله إذا كان ذلك العبد المقرَّب حيًا حاضرًا، أما إذا لم يكن حيًا حاضرًا فإن التوجه إليه خطأ من الأساس.

وَالمَقْصود مِنْ: ﴿خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الذي يخلفون الأمم التي سبقتهم لأن كل أمة تخلف

١- **نهج البلاغة**، قسم الحكم، الحكمة رقم ٣١٧.

٢- أخرجه البُخاري في **صحيحه** (٦٤١٩) والنَّسائي في **الكبرى** (١١٨٢٢)، وأحمد في **المسند**، ٢ / ٢٧٥.

الأمم الـماضية، وليس الـمقصود خلائف الله لأنه لا معنى لأن يكون لِلَّهِ خليفة، علاوةً على ذلك فإن خليفة الله لا يُمكن أن يكون كافرًا. وكل موضع من القرآن جاءت فيه كلمة **خليفة** ومشتقاتها مثل **خلفاء وخلائف** فهذا هو الـمقصود منها أي من حلّ محلَّ من سبقه وخَلَفَهُ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤١ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا ٤٢ ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ٤٣﴾ [فاطر: ٤١-٤٣].

<u>**الفوائد**</u>: هذه الآيات تُبيِّن بكل صراحة ووضوح أن الذي يحفظ السماوات والأرض من الانحراف في مسيرها ومن الزوال والفناء هو الله وحده فقط، فالأخبار التي تقول: «**لولا الحجة لساخت الأرض بأهلها**» تحتوي إشكالات عديدة: **أولاً**: القرآن يُصرِّح بأن لا حُجَّة بعد الأَنْبياء إلا العقل، كما جاء في الآية ١٦٥ من سورة النساء. **وثانيًا**: لأن الذي يُمسك السماوات والأرض هو الله وليس الحُجَّة، طبقًا لصريح الآية الـمذكورة هنا.

﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا ٤٤ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا ٤٥﴾ [فاطر: ٤٤-٤٥].

<u>**الفوائد**</u>: يعود ضمير ﴿ظَهۡرِهَا﴾ على الأرض وإن لم تُذكر الأرض قبل ذلك في هذه الآية، لكنها ذُكرت في الآية التي قبلها. والعجيب أنه بدلاً من أن يعتبر الآتون في الـمستقبل من حال من سبقهم ويُصلحوا أحوالهم صاروا أسوأ من الـماضين!.

وَيَدُلُّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ﴾ أنه لو عاقب الله الناس على أعمالهم لما بقي على الأرض دابة. فإن قيل: ما ذنب الحيوانات في ذلك؟ فالجواب: إن الحيوانات خُلقت

لخدمة الإنسان فإذا لم يبقَ إنسان على الأرض بسبب العقاب الإلهي لم تعد هناك ضرورة لوجود الحيوانات فيذهبوا مع ذهاب الإنسان.

انتهى الجزء الثالث من تفسير قبس من القرآن

ويليه الجزء الرابع بعون الله تعالى